الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون – تيارت

قسم اللغة والأدب العربي

مخبر التوطين: مخبر الخطاب الحجاجي، أصوله ومرجعيّاته وآفاقه في الجزائر

# المَشـرُوعُ البـَــلَاغِيُّ عِنْـدَ مُـحَـمَّـدٍ العُـمَـرِيّ

## – دِرَاسَـةٌ تَـحْلِيلِيَّـةٌ فِي التَّـصَوُّرِ وَالمَنْـهَجِ –

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه، الطور الثالث ( ل م د )، في إطار مشروع " البلاغة العربية ومساقات التحول "، تخصص: دراسات بلاغية


إعداد الطَّالب: سعيد بن دويفع

إشراف الدكتور: عدة قادة


أعضاء اللجنة المناقشة:

| الاسم واللقب | الرتبة | الصفة | الجامعة |
|---|---|---|---|
| بلمرسلي سبع | أستاذ التعليم العالي | رئيسا | جامعة تيارت |
| عدة قادة | أستاذ محاضر "أ" | مشرفا ومقررا | جامعة تيارت |
| كراش بن خولة | أستاذ التعليم العالي | مشرفا مساعدا | جامعة تيارت |
| مرسلي مسعودة | أستاذ التعليم العالي | ممتحنا | جامعة تيسمسيلت |
| نعار مُحَمَّد | أستاذ محاضر "أ" | ممتحنا | جامعة تيارت |
| تركي امحمد | أستاذ محاضر "أ" | ممتحنا | جامعة تيارت |

السَّنة الجامعيَّة: 1442هـ–1443هـ/2021م–2022

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

**إهداء :**

إلى أمي ... ثم إلى أمي ... ثم إلى أمي : ماحي فاطمة، وإلى والدي العزيز بلقاسم

إلى الدكتور المشرف على الأطروحة : د. عدة قادة

إلى جميع الأقارب والأصدقاء، وخاصة منهم : ماحي الحاج الحسين، الإمام إبن عثماني الطيب معلم القرآن ابن دويفع مُحَّد، قعار بولرباح، قطافي عجال، أحمادي مُحَّد، ابن دويفع مُحَّد، دومي مُحَّد، قطافي الطاهر، صليعة لمين، دحماني بودالي، شهات أحمد، نورين عبد القادر، همكة مُحَّد، قواسمي مُحَّد، ، لحدب إبراهيم ... الخ، وإلى أرواح المشايخ الثلاثة : سي بلقاسم، سي احمد بن عبد النبي، والشيخ العايدي بن عبد السلام ... أهدي هذا العمل المتواضع

الحَمْدُ لله الذِي أَعْطَى لَنَا * دِينًا بِهِ قَدْ عَزَّنَا وَهَدَانا

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الحَبِيبِ **مُحَّد** * مَنْ لِلْهُدَى والخَيْرِ قَدْ نَادَانَا

هَذَا وَبَعْدُ فَإِنَّنِي أُهْدِي الذِي * أَنْجَزْتُهُ، مِمَّا تَرَاهُ عَيَانَا

لِلْوَالِدَيْنِ وَلِلْمَشَائِخِ كُلِّهِمْ * وَكَذَاكَ مَنْ أَعْلَنْتُهُمْ إِعْلَانَا

مِنْ أَقْرِبَاءَ وَأَصْدِقَاءَ وَكُلِّ مَنْ * جَالَسْتُ يَوْمًا أَوْ عَرَفْتُ مَكَانَا

فَإِذَا نَسِيتُ صُوَيْحِبًا أَرْجُو بِأَنْ * لَا أُلْفِهِ مُتَكَدِّرًا غَضْبَانَا

وَلَقَدْ يَظُنُّ بِأَنَّنِي مُتَعَمِّدٌ * هَذَا، فَلَا يَعْفُو لِمَا قَدْ كَانَا

وَلَوَ انّهُ يَدْرِي – وَمَا أَدْرَاهُ – مَا * لَاقَيْتُهُ فِي البَحْثِ مَا جَافَانَا

يَا صَاحِبِي إِنَّ الجَفَاءَ جَهَالَةٌ * وَالله مِنْ هَذَا الجَفَا عَافَنَا

فَاحْذَرْ عَلَى أَنْ تُبْتَلَى بِسِهَامِهِ * وَأَقُولَ بَعْدُ : صُوَيْحِبِي عَادَانَا

سعيد بن دويفع

# تشكرات

يطيب لي وأنا ألملم ما توفّر لدي من كلمات، أن أتوجّه بجزيل الشكر والتقدير والعرفان إلى كل من ساهم في إعانتي على إنجاز هذا العمل، بداية بالوالدين الكريمين اللذين لم يوفّرا أيّ جهد لتشجيعي على المضي قدما في البحث والاجتهاد، خاصة مع الظروف العصيبة التي واجهتها، ثم أستاذي المشرف الدكتور عدة قادة الذي كان مثالا في التواضع والجدية في البحث، حتى أني كنت أخاله في بعض الأحيان زميلا لي لا مشرفا ...، ثم الدكتور كراش بن خولة، والدكتور حدوارة عمر الذي كان لي نعم الناصح والمرشد والمعين

أتوجه بالشكر والتقدير إلى كل هؤلاء وغيرهم، من الأصدقاء والأصحاب والزملاء والإخوة والأقرباء ... .

ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله

# مقدمـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلّمه البيان، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، مبلّغ القرآن بلسان عربي مبين، والداعي إلى الاعتصام بحبل الله المتين، صلى الله عليه وعلى آلِهِ وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد :

لقد نشأت البلاغة العربية بين أحضان العرب بلاغةً شفويةً لا يحتاج صاحبُها إلا إلى ذاكرة قوية، وصوت جهوري، مع قدرة فائقة على استمالة الحضور بالإشارة، أو النظرات، أو ما شابه ذلك من الأدوات التي يحتاجها كل خطيب، وكانت بالموازاة مع ذلك قادرة على الجمع بين الشعر والخطابة، و لا تقتصر على أحدهما دون الآخر، فالشاعر المجيد والخطيب المفوّه، كلامها كان يسمى بليغا، هذا على الرغم من أن حضور الشعر في تلكم الفترة كان أكثر من حضور الخطابة لأسباب عدة .

ومع مجيء الإسلام، ونزول القرآن الكريم بما فيه من بلاغة وحسن بيان، عَجَزَ فصحاء العرب وبلغاؤهم على أن يجاروه في بلاغته، فأُسقِط في أديهم، ولم يعد لهم مناص إلا من إحدى الاثنتين إما أن يعاندوا ويجاهروا بالكفر والعصيان، معاندة من ضلَّ وهُوَ يعلم أنَّ هذا هوَ الحق المبين، ولكنه عاند في جهالته فصحّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ [ سورة البقرة : 206 ] كحال أبي جهل وزبانيته؛ وإما أن يسلّموا له ويؤمنوا به طائعين غير مكرهين، كحال كل من دخل الإسلام من المهاجرين والأنصار، وبهؤلاء تكونت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة مدينة رسول الله ﷺ ، فحملت نبراس الحضارة للإنسانية جمعاء على الوجه الذي لم يعرفه التاريخ من قبل، ومن هنا كان اهتمام العلماء بالقرآن الكريم، المعجزة الخالدة التي جاء بها رسول الله ﷺ والمتسبّبة في ذاك التغير الكبير الذي طرأ على العالم، فجميع المعجزات التي جاء بها الأنبياء والرسل من قبل كانت عبارة عن معجزات حسية ترى بالعين المجرّدة، ولم تكن معجزات معنوية كحال القرآن الكريم، ومع هذا لم يكن لها نفس التأثير الذي جاء به القرآن، فمنها من انتهى بانتهاء أصحابها، ومنها من استمر بعد ذلك دون أن

تسلم من التحريف، أما معجزة القرآن فإنها معجزة خالدة أبد الدهر، ما دامت السموات والأرض، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولقد كان لاهتمام العرب – خاصة العلماء منهم – بالقرآن الكريم، قراءةً، وحفظًا، وتفسيرًا، تأثيرًا بالغًا على مسار البلاغة العربية التي بدأت تنتقل من الفطرة والمشافهة إلى التدوين والتأليف، وعرفت تطورات عديدة كانت بدايتها مع الجاحظ، ونهايتها – أو انتكاستها – مع شروح كتاب المفتاح للسكاكي ومع ما قام به المراغي، حين قزّمت البلاغة إلى ثلاثة علوم، ولم يكن عمل القرطاجني الموسوم بالعلم الكلي، قد أثّر على الدراسات البلاغية كما يجب، وذلك باعتبار أنّ القرطاجني لم ينل حظا وافرا من القراءة التي نالها السكاكي، ولو أنه نال نفس الحظ لتغيّر حال البلاغة التي نعرفها اليوم، ولكانت قد اِستمرت على نفس النمط الذي سارت عليه من قبل .

وبالرغم من الانتكاسة الكبيرة التي عرفتها البلاغة العربية، فإنها قد حَاوَلَتِ الرُّجُوعَ إلى مكانتها الأولى من جديد، بفعل العديد من المحاولات التجديدية التي سنتعرَّفُ على أهمها في هذه المذكرة، غير أن ما يعيبُها هو أنها لم تكن تدعو إلى بلاغة تسع كافة أنواع الخطاب كما كانت عليه البلاغة من قبل، بل كان من هاته المحاولات من يرى التجديد عن طريق الأسلوبية، ومنها من يراه عن طريق الحجاج، وغيرها من الرؤى المتباينة، وبالتالي فإنّ البلاغة على هذا النحو تظلّ بعيد كل البعد عن المسار الأول الجامع بين التخييل والتداول .

على أننا نستثني من تلك المحاولات التجديدية محاولة الباحث البلاغي المغربي، مُحَمَّد العمري، الذي عمل على تجديد البلاغة العربية لتكون قادرة على مواكبة العصر من جهة، وقادرة أيضا على استيعاب ما كانت تستوعبه البلاغة العربية قبل المراغي وشروح المفتاح من جهة أخرى .

هذا وإنّ كثرة الحديث عن اجتهادات الباحث المغربي مُحَمَّد العمري، وكثرة الدراسات الأكاديمية التي تطرّقت له، دفع بنا إلى خوض غمار البحث عن هذا الباحث في مذكرة بعنوان: " المشروع البلاغة عند مُحَمَّد العمري، دراسة تحليلية في التصور والمنهج "، بغية التعرّف – ولو بالشيء القليل – عن هذا الرجل، من خلال إشكالية بحثيّة، اِنطلقنا فيها التساؤل عن الجديد الذي طرحه مُحَمَّد

العمري، على الساحة البلاغية، على ضوء التغيرات الفكرية، والإيديولوجية، وحتى العقدية التي تعرفها اليوم ؟، وهل كان لعمله تأثيره ملموس، يمكّن من دفع عجلة البحث البلاغي مستقبلا، أم لا ؟

ومن جهة أخرى، هل يمكن أن يعدّ عمل العمري، مشروعا بلاغيا قائما بذاته ؟، أم أنّه مجرّد رؤية بلاغية استشرافية، سابقة لأوانها ؟، وإذا سلّمنا بأنه مشروع بلاغي، فما الأسس التي قام عليها يا ترى ؟

ثم ما هو التصوّر العام، للدرس البلاغي العربي، الذي حاول العمري أن يبسطه، من خلال مجموع ما قام به من أعمال، وإلى أيّ مدى كان توفيقه في مسعاه ؟

وعلى اعتبار أنّ عمل العمري يوضع في خانة الأعمال الساعية إلى التجديد، فما المناهج النقدية الحديثة التي اعتمدها ؟ .

وقد قمنا بتقسيمها إلى بابين اثنين، الأول بعنوان: تقديم نظري لتصور ومنهج العمري، مع تطبيقاته على البلاغة العربية القديمة، وأما الثاني فعنوانه هو: تطبيقات العمري على البلاغة الجديدة، والمناهج النقدية المتبعة؛ حيث يتقدّم كلا البابين مدخل يتناول الدعائم والأسس التي انبنى عليها مشروع العمري .

كما قمنا بتقسيم الباب الأول إلى ثلاثة فصول، فصل نظري خصصناه لتبيان مفهومي التصور والمنهج، اللذيْن تقوم عليهما الدراسة، حث جاء التصور على محورين هما التأريخ، والتجديد، وأما المنهج فتطرقنا فيه إلى أربعة مناهج ( البنيوي، والتداولي، والتاريخي، والتأويلي)، في حين تناول الفصل الثاني دراسة تحليلية لأصول البلاغة العربية عند العمري، تناول الثالث دراسة تحليلية لامتداداتها .

وفي الباب الثاني أيضا، قمنا بعرض ثلاثة فصول، جاء الأول عبارة عن دراسة تحليلية لِشِقٍّ من بلاغة الخطاب الاحتمالي هو الشعر والخطابة، وجاء الفصل الثاني عبارة عن دراسة لشقّ آخر هو القصة والمناظرة، أما عن الفصل الأخير فقد تناول دراسة تحليلية لمناهج العمري في مشروعه البلاغي الجديد .

وفي نهاية الدراسة تأتي الخاتمة التي احتوت على أهم النتائج المتوصّل إليها سواء فيما يتعلق بتصور العمري ( تأريخا وتحديدا ) أو منهجه .

إن التعرف على مشروع العمري، كان الهدف المباشر الذي سعينا إلى تحقيقه من خلال هذه الأطروحة، إضافة إلى أسباب أخرى غير مباشرة، تمثلت معظمها في علاقة البلاغة العربية بالفلسفة اليونانية، وتأثير القرآن الكريم والشعر الجاهلي على نشأتها، وغيرها من الأهداف ... الخ .

وحتى نتمكّن من تحقيق هاته الأهداف كان لابد لنا من الاستعانة بالمنهج التركيبي، الذين ساعدنا على الجمع بين عدد من المناهج الدراسية، كالمنهج الوصفي الذي تمثل في التعريف بالعمري ومشروعه، والمنهج المقارن الذي تمثل في مقارنة عمل الخفاجي والجرجاني على سبيل المثال، والمنهج التاريخي الذي تمثل في حديثنا عن حال البلاغة العربية قبل وبعد عملية التعقيد، والمنهج التحليلي الذي تمثل في مجموع التعقيبات والتحليلات المبثوثة هنا وهناك .

**الدراسات السابقة :**

لقد سبقت هذا العمل دراسات أكاديمية متنوعة، أطاريح ماجيستير، ومقالات علمية، ومذكرات ماستر، وغيرها ... الخ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

- كتاب الحجاج في البلاغة المعاصرة- بحث في بلاغة النقد المعاصر، لمحمد سالم الأمين الطلبة، الصادر عن دار الكتاب الجديد المتحدة بلبنان، سنة 2008م .

- رسالة ماجيستير بعنوان: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، للطالب بوعافية عبد الرزاق، وإشراف: أ. د. عبد الغني بارة، الصادرة عن جامعة مُحَّد لمين دباغين - سطيف02 ، سنة 2015م.

- رسالة ماجيستير بعنوان: المشروع البلاغة عند مُحَّد العمري، بحث في بلاغة الحجاج، دراسة تفاضلية، للطالب: عبد الباسط ضيف، وإشراف: د. أحمد بوصبيعات، الصادرة عن جامعة زيان عاشور بالجلفة، سنة 2017م .

- مقال بعنوان: التصور البلاغي الجديد بين الجرجاني ومُحَّد العمري، للباحث بوزيد شتوح، وقد نشر في مجلة الممارسات اللغوية، المجلد10، العدد 04، ديسمبر 2020م .

– مقال بعنوان البلاغة الجديدة بين البعد الغربي والتلقي العربي مُحَّد العمري نموذجا، للباحثة سعود فطيمة، وقد نشر في مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، العدد 07، جوان 2013م .

– مقال بعنوان: مُحَّد العمري قارئا لمنهج تأليف عبد القاهر الجرجاني، للباحث فؤاد زرواق، وقد نشر في مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، المجلد16، العدد 04، ديسمبر 2019م .

– مقال بعنوان: المنجز البلاغي العربي في ضوء تصور جديد لمحمد العمري من البلاغة المهيمنة إلى البلاغة الكلية، للباحثة هندة بوسكين، وقد نشر في مجلة دراسات وأبحاث، المجلد 12، العدد 02 آفريل 2020م .

– مقال بعنوان: البلاغة الجديدة في الدراسات العربية الحديثة، حمادي صمود ومُحَّد العمري نموذجا، للباحث رمضان يوسف، وقد نشر في مجلة التعليمية، العدد 09 جانفي 2017م .

– مذكرة ماستر بعنوان: البلاغة بين التجديد والمعاصرة، مُحَّد العمري أنموذجا، إعداد الطالبة: عباد مخطارية، وإشراف: أ. د. قوفي: وقد صدرت عن جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، سنة 2018م .

– مذكرة ماستر بعنوان: المنهج وآليات القراءة في كتاب البلاغية العربية أصولها وامتداداتها لـ مُحَّد العمري، إعداد الطالبة: آمنة فارس، وإشراف: أ. رابح بوشعشوعة، وقد صدرت عن جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، سنة 2015 م .

هذا وقد واجهتنا في إنجاز هذا العمل صعوبات عديدة، بداية من اتساع المذكرة في حد ذاتها، وصولا إلى قلة الدراسات التي تناولت مشروع العمري، وهي على قلتها لا تكاد تختلف كثيرا، مما يعني أنها نسخة واحدة لرؤية واحدة .

وفي الأخير لا يسعني إلا أن نحمد الله سبحانه وتعالى على أن وفّقني لإنجاز هذه المذكرة، والتي أرجوا أن يجد فيها القارئ ما يسعفه، على فهم معنى التجديد البلاغي بشكل عام، والمشروع العمري منه على الخصوص، ليسهم في دفع عجلة البحث العلمي نحو مزيد من التطور والرقي والازدهار، كما نسأله أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا، وميزان حسنات كل من ساعدنا على إنجازه من قريب أو بعيد، بداية بالدكتور المشرف على الأطروحة، " د. عدة قادة "، والسادة

الدكاترة المناقشين لها، الذين لم يبخلوا عليّ ببذل الجهد والوقت، في تقديم النصائح والإرشادات تقييما وتقويما، إنه ولي ذلك ومولاه، وهو على كل شيء قدير، والحمد لله رب العالمين .

الطالب: سعيد بن دويفع

04 ربيع الأول 1443هـ الموافق لـ: 10 أكتوبر 2021م .

## مدخل :المشروع البلاغي عند مُحَمَّد العمري، رصد للدعائم والأسس

### أولا: مُحَمَّد العمري ومشروعه الجديد

### ثانيا: دعائم مشروع العمري

لقد اقتضت منا طبيعة الدراسة، والتي تندرج ضمن الدراسات الهادفة إلى معرفة أهم مجددي البلاغة العربية وما حملته مشاريعهم البحثية من أفكار، أن نقدّم بين ثنايا هذا المدخل، تعريفا موجزا للباحث المغربي مُحَمَّد العمري ولمشروعه البلاغي الجديد، مع رصد أهم الدعائم والأسس التي قام عليها هذا المشروع .

هذا وقد ارتأينا أن نشير إلى أهم الجهود البلاغية التي سبقت العمري إلى التجديد، مقسّمين إيّاها على ثلاثة أقسام، قسم دعا إلى التجديد من خلال العودة إلى التراث وإحيائه، وقسم رأى التجديد في الانفتاح على الدراسات الغربية والابتعاد عن التراث، وقسم زاوج بين الرأيين .

## 1 – القسم الأول : التجديد عن طريق إحياء التراث :

**أ– مُحَمَّد عبده** :يعدّ الشيخ مُحَمَّد عبده رحمه الله تعالى من أوائل الداعين إلى التجديد في البلاغة العربي "إذا رأى ما عليه كتب المتأخرين من الجدب والجمود، فرجع ببصره على آثار الأقدمين فوجد أنّ كتابي عبد القاهر – دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة – من أحسن ما أخرج للناس في موضوعهما فبادر إلى تدريسهما في الجامع الأزهر بمصر، فكان عمله خطوة في الاتجاه الصحيح مهّدت تمهيدا صالحا للدراسات العربية الحديثة في النقد والبلاغة [1]، ويؤكد الدكتور مُحَمَّد عمّارة في كتابه " رسالة التوحيد للإمام الشيخ مُحَمَّد عبده " والذي تطرّق فيه إلى عدّة مواضيع كان الشيخ قد عالجها في حياته، والتي منها موضوع " حرية الفكر والتجديد "، مدى حرص الرجل على ضرورة النهوض بالعقل العربي من التخلف والانغلاق والتقليد الأعمى للغير، إلى التحرر الفكري، عملا بما دعا إليه الإسلام الحنيف الذي أنحى على التقليد، وحمل عليه حملة لم يردَّها عنه القدر، فبدَّدت فيالقه

[1] مُحَمَّد خلف الله أحمد، معالم التطور الحديث في اللغة العربية آدابها، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي وشركاؤه، 1961م،ص : 126، وينظر : وليد عبد الله حسين الخفاجي، حركة تجديد البلاغة في العصر الحديث ( أطروحة دكتوراه ) بغداد، 1412هـ/ 1991م، ص : 57– 60 . نقلا عن : حيدر حسين عبيد، " المنهج البلاغي عند الجرجاني والقزويني في كتابيهما الأسرار والتلخيص دراسة موازنة " دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1434هـ/2013م، ص : 211 .

المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم، وبهذا تم للإنسان أمران عظيمان حُرم منهما وهما : استقلال الإرادة، واستقلال الرأي والفكر، وبهما كمُلت له إنسانيته [1].

إنّ الإصلاح الذي ينشده الأستاذ الإمام في الأزهر قسمان : صوري ومعنوي، فأما الصوري فهو النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة البدنية والاجتماعية وتوسيع دائرة العلوم والمعارف، وترقية اللغة العربية، وأما المعنوي فهو إصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم وصحة القصد فيه بما يفضي إلى ارتقاء الأمة في دينها ودنياها، وإصلاح الأخلاق بالصدق والإخلاص وعزّة النفس والسخاء والوفاء ... الخ [2]

**ب– أحمد حسن الزيات:** إضافة إلى الشيخ مُحَمَّد عبده، نجد أيضا باحثا ودارسا آخر للبلاغة العربية، هو الشيخ أحمد حسن الزيات من خلال كتابه " دفاع عن البلاغة "، رأى أنّ التجديد ينبغي أن لا يكون بمعزل عن التراث البلاغي العربي، لأنه هو الأصل والمنبع، وأنّ عدم الأخذ منه قد يحيل الباحث من " الدعوة إلى التجديد " ، إلى " الدعوة إلى التقليد "، وقد كان يعدّ هذا النوع من المجددين بعض عجزة لا غير، " الذين يدعون إلى التقليد باسم التجديد، وإلى العامية باسم التيسير، وإلى الفوضى باسم التحرر "[3]، وفي المقابل بيّن الزيات في كتابه المذكور آنفانوع البلاغة التي يعنيها ويدافع عنها " أهي بلاغة العقل العربي ( ابن المقفع، والجاحظ، والجرجاني )، أم هي بلاغة العقل اليوناني ( السكاكي ) ؟ والجواب أنها البلاغة التي تحدّى بها القرآن أمراء القول في عهد كان الأدب فيه صورة الحياة وترجمة الشعور وعبارة القول، هي البلاغة التي لا تفصل بين

[1] مُحَمَّد عمارة " رسالة التوحيد للإمام الشيخ مُحَمَّد عبده "، دار الشروق، بيروت – لبنان ، 1414هـ/1994م، الطبعة الأولى ص : 142، 140 .

[2] السيد مُحَمَّد رشيد رضا " تاريخ الشيخ الإمام مُحَمَّد عبده " ج1، القسم الأول، دار الفضيلة، القاهرة– مصر، الطبعة الثانية 1427هـ/2006م، ص : 567 .

[3] أحمد حسن الزيات " دفاع عن البلاغة "، عالم الكتب، القاهرة– مصر، الطبة الثانية، 1967م، ص : 162 .

العقل والذوق ... "[1]، ويشير الزيات إلى أنّ التجديد الذي يدعو إلى تغيير العربية الفصيحة بالعامية، لا يمتّ إلى التطوّر بصلة، و" ربما يزعم زاعم أنّ هذه العامية الأدبية ترجع إلى مذهب من مذاهب الكتابة دعت إليه حال وبعث عليه تطوّر، فإذا جاز أن يكون هذا الزاعم فالغالب في الظن أنه لا يعلم إذا كان يجدّ، أو لا يجدّ إذا كان يعلم، ذلك لأنّ المذهب الكتابي أو الشعري، إما أن يكون مرحلة تطوّر لمذهب يتقدّم به مبتدعوه، وإما أن يكون ردّ فعل لمذهب يغلو فيه متّبعوه [2]، وكذلك بالنسبة إلى " الطريقة الرمزية Ecole Symboliste فإنها تدعو – حسب رأيه – إلى التعبير بالإيماء والتكنية والهمس والميوعة، فالشعر الرمزي ينكر الواضح، ويَنْفِرُ من المحدد، ويتطلّب المتخيّل، ويبحث عن المشتبه ويحملك على أن تَحْلُمَ لا على أن تفكّر "[3] .

**2– القسم الثاني : التجديد من خلال الثورة على القديم** : اقتصرنا في هذا القسم على الدراسة التي قدّمها سلامة موسى في كتابه " البلاغة العصرية واللغة العربية "، وفيه ربط اللغة بالجانب الاجتماعي، ورأى أنّ نمو اللغة وتطورها نابع من التوجيه الفلسفي، فالكاتب المتنبه الذي يحس الوجدان الاجتماعي، يجب أن يؤكد المعاني البارة للأمة، وأن يضع الكلمات الجديدة كي توجه التوجيه الفلسفي أو الاجتماعي، وبذلك تنو اللغة وتتطور، والأمة التي تهمل كلماتها ولا تجددها هي أخسر من الأمة التيتجيز التداول للكلام القديم[4] ، واللغة العربية – حسب رأيه – من اللغات التي بقيت حبيسة الكلمات القديمة التي لا تجد لها مكانة في هذا العصر، بخلاف اللغة الإنجليزية مثلا، التي عرفت الكثير من التغيرات على حسب كل عصر، وكل من يعرف اللغة

[1] المرجع السابق، ص: 31 .

[2] نفسه، ص: 139 .

[3] نفسه، ص: 146 .

[4] سلامة موسى " البلاغة العصرية والبلاغة العربية "، سلامة موسى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1945م، ص : 16،15

الإنجليزية، يدرك الفرق العظيم بين اللغة التي كان يستعملها شكسبير حوالي سنة 1600م، وبين اللغة الإنجليزية الآن، وهذا الفرق هو فرق النمو والتطور[4].

إنّ نزعة سلامة موسى الغربية واضحة في هذا الكتاب، تترجمها تلك الألفاظ التي يوظّفها في حديثها عن اللغة العربية، والألفاظ التي وظّفها للغات الغرب، والإنجليزية منها على الخصوص، فعند إيراده لبعض الأمثلة العربية المتداولة هنا أو هناك نجده ينتقد تلك الأمثلة ولا يرى أنها تعبّر عن المعاني الحقيقة التي تواكب العصر، أما عن الإنجليزية فيرى أنها تعطي لكل عصر حقه من الألفاظ، وأنها دائمة التطور والتجديد، وعلى سبيل المثال يتحدث سلامة موسى عن الملك جيمس حين زار كنيسة سان بول الكاتدرائية، عبّر عن إعجابه بها بهذه الكلمات " Amusing، Awful ، Artificial " وهي تعبر في ذاك العصر عن السرور والفرح، ولكنها في هذا حملت معنى آخر وهو الاستقباح والاستهجان والاستهتار، وأما نحن فإننا مازلنا نلتزم عبارات مقتبسة يعافها الذهن الذكي، كقولنا " حمي الوطيس في التعبير عن الحرب، ودرات رحى الحرب، ووضعت الحرب أوزارها... الخ[1] .

قد يكون سلامة موسى صائبا في دعوته إلى التجديد، غير أننا نرى بأنه أخطأ من جانبين اثنين : حين انتقد الفكر العربي ورمى لغته بالجمود والتحجر من جهة، وهذا ما لا يمكن قبوله مع لغة القرآن الكريم، وحين رأى في أن البديل إلى التقدم هو الاقتداء بالغرب في كل شاردة وواردة، دون إعطاء أي اعتبار للتراث العربي الأصيل من جهة أخرى، ولولا خشية الإطالة لكنا رددنا على مزاعم هذا الرجل، وَهُنَا نستأنس ببيتين من الشعر لحافظ إبراهيم – شاعر النيل – واللذين نجد فيهما ما يغنينا عن الإطالة في الكلام، حيث يقول :

وَسِعْتُ كِتَابَ اَللَّهِ لَفظًا وَغَايَةً *** وَمَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ

[4] المرجع السابق، ص : 73 .

[1] نفسه، ص: 73، 75 .

فَكَيْفَ أَضِيقُ اليَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ *** وَتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍلِمُخْتَرَعـاتِ [1]

## 3- القسم الثالث :التجديد من خلال المزاوجة بين التراث والحداثة :

**أ- أحمد الشايب** : لعل من أبزر المجددين الذين يمكن اعتبارهم ممن زاوجوا بين التراث والحداثة الأستاذ أحمد الشايب في كتابه الأسلوب الذي صرّح بهاته الدعوة في قوله : لذلك أشرنا في هذا الكتاب إلى أنّ علم البلاغة العربية يجب أن يوضع وضعا جديدا يلائم ما انتهت إليه الحركة الأدبية في ناحيتيها : العلمية والإنشائية[2].

كما يرى بأنّ موضوع البلاغة ينحصر في بابين أو كتابين هما : الأسلوب، والفنون الأدبية، ففي الأسلوب تدرّس الكلمة، والصورة، والجملة، والفقرة، والعبارة، وأما في قسم الفنون الأدبية – وقد تسمى الابتكار – فتدرّس مادة الكلام من حيث اختيارها، وتقسيمها، وما يلائم كل فن من الفنون الأدبية وقواعدها، كالقصة، والمقالة، والوصف، والرسالة، والمناظرة، والتاريخ [3]، ومن خلال إيراد هذا الرأي تتبيّن لنا طبيعة التجديد عند أحمد الشايب، التي تدعو إلى دراسة البلاغة عن طريق " الأسلوب " و " الفنون الأدبية " .

**ب- الأستاذ " أمين الخولي " في كتابه " فن القول "**:تعد محاولة الأستاذ أمين الخولي من أولى محاولات التجديد في البلاغة العربية، فقد " حمل كتابه " فن القول " دراسات امتدت نحوا من عشرين سنة في البلاغة، ووقفت موقفا وسطا بين المحافظة على القديم والحماسة للجديد، والذي بناه على المقارنة بين البلاغة العربية التقليدية والبلاغة عند المحدثين – أي الأوروبيين – التي سموها "علم الأسلوب" [4]

---

[1] ديوان حافظ إبراهيم، تح : أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، الهيأة المصرية العامة للكتاب، الطبة الثالثة، 1987م، ص: 253 .

[2] أحمد الشايب " الأسلوب "، مكتبة النهضة العربية، القاهرة – مصر، الطبعة الثامنة، 1411هـ/1991م ( من المقدمة ) .

[3] نفسه، ص: 36، 37 .

[4] شكري مُحَمَّد عيّاد " اللغة والإبداع "، أنترناشيونال برس- مصر، الطبعة الأولى، 1996م، ص : 26 .

كما اعتمد أمين الخولي في دعوته إلى التجديد أول الأمر على تغيير أساليب التعليم المعروفة والمألوفة قبله، حيث رأى أنها تؤثّر سلبا على عملية التحصيل لدى الطلاب، وهي العملية التي تقوم على التلقين والإملاء المباشر للدروس والمحاضرات، ولذلك رغّب في إطلاق العنان للطالب في كتابة الدروس وتلخيصها بكل حرية بعد الاستماع الجيّد لتلك الدروس،" فليس يجب لاستقرار هذا التجديد البلاغي، أن نملي في " فن القول " على طلابنا أمالي محبّرة، أو نخرج لهم سفرا مدوّنا، لأنّ ذلك فساد كبير لخطة الجامعة في درسها وما تتبعه في تكوين طلابها، إذ تؤثر العمل الفردي للطالب والكسب الشخصي للدارس على التحصيل الملقن، والثراء المستجد، هذا إلى ما في طبيعة الدرس الأدبي من قيام على الذوق الشخصي، ولكل ذلك وجب - في تقديري – أن يجدّ الطلاب ليدونوا بأنفسهم مما سمعوا ..." [1] .

وكان لظهور الأستاذ أمين الخولي في حقل التدريس في الجامعة المصرية أثرا محمودا على الدراسات القرآنية والبلاغية في أواخر الربع الأول من القرن العشرين، فقد أحدث انقلابا في المفاهيم التدريسية، وكان له إسهام كبير في نقد المناهج، وتجديد أساليب التفسير القرآني والبحث البلاغي، وكان الدرس اللغوي همَّ الخولي الأساسي والحلبة الأولى لنضاله من أجل الاجتهاد والتجديد، وتأثيم التقليد [2] .

هذا ويعتقد حيدر حسين عبيد، أنّ أقرب الدعوات التجديدية إلى الكمال هي منهج الدكتور أحمدمطلوب، والذي يتلخص في نقاط :

1- إلغاء التقسيم الثنائي أو الثلاثي والنظر إلى البلاغة بوصفها فنا واحدا .

2- ضم البحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية والتورية وغيرها من فنون البديع التي لها قيمة في التعبير وأداء المعاني، وضم البحث في الفقرة والقطعة

[1] المرجع السابق، ص: 24 .

[2] شارف لطروش، مقال : قراءة في دعوات تجديد البلاغة العربية "، ص : 103 .

الأدبية على أن نستفيد مما ذكره القدماء كعبد القاهر وابن الأثير والسكاكي والقزويني وشُراح التلخيص .

3- تقليل مصطلحات البلاغة والاكتفاء بأهمِّها وأكثرها دلالة على العربية .

4- الاهتمام بالناحية الأدبية واختيار الأمثلة والقطع القرآن الكريم وكلام العرب البليغ، وتحليل الأمثلة تحليلا أدبيا يعتمد على الإدراك والإحساسالفني .

5- إبعاد ما أدخله القدماء من فلسفة وأصول ومنطق والاستعانة بعدد من الدراسات النفسية التي لها أثر في الفن الأدبي ولكن لا إلى الحد الذي نتجاوز فيه البحث البلاغي [1] .

إنّ بوادر التجديد في البلاغة العربية قديمة الظهور منذ مُحَمَّد عبده وأحمد حسن الزيات، بل ومنذ الأديب السوري جبر ضومط ( ت 1930م ) في كتابه " الخواطر الحسان في المعاني والبيان " الذي أصدره سنة 1896م،وما ذلك إلا بفعل التطور الكبير الذي عرفه الفكر البشري ما أدى إلى التأثير على الفكر البلاغي عند العرب، فبعد أن كانت المعاني والبيان والبديع، هي وحدها من يقصد بها علوم البلاغة العربية، تغيّرت نوعية الدراسات لِتُضَمَّ علومُ البلاغة ومصطلحاتُها تحت اسم " الصورة " أو " الأسلوب " أو " النقد " أو " الأدب " غير مغفلين سمات كل تشكيل بلاغي، ولكنهم أبرزوا هذه السمات من خلال العمل المتكامل والنظرة الشمولية والجمالية والنفسية والاجتماعية والحضارية [2] .

ومع منتصف القرن العشرين ستتبلور بلاغة جديدة علمية ووصفية تبحث في الملفوظ البلاغي بنيةً، ودلالةً، ووظيفةً، وتواصلاً، وتصنيفًا، وقد اتخذت اتجاهات مختلفة كالبلاغة اللسانية، والأسلوبية، والحجاجية، والسيميائية، والتداولية، حتى أصبحت البلاغة المعاصرة اليوم إمبراطورية

[1] حيدر حسين عبيد " المنهج البلاغي عند الجرجاني والقزويني في كتابيهما الأسرار والتلخيص- دراسة مقارنة "، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1434هـ/2013م، ص :214،215 .

[2] حمد بركات حمدي أبو علي " فصول في البلاغة "، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان- الأردن، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م، ص : 194

منفتحة على تخصصات علمية عدّة، ومازالت مجموعة من العلوم والتخصصات تسترشد بآليات البلاغة في خطاباتها المعرفية المختلفة نظريا وتطبيقيا[1] .

هذا وبعد سردنا لأهم الجهود البلاغية التي سبقت العمري، نتطرق الآن إلى لب موضوعنا والمتعلق بمحمد العمري، ومشروعه الجديد .

## أولا: مُحَمَّد العمري ومشروعه الجديد:

يعدُّ الباحث المغربي مُحَمَّد العمري من البلاغيين المعاصرين الذين ساهموا، ولازالوا يساهمون في تجديد الدرس البلاغي العربي، موازاة مع التطور الكبير الذي تعرفه البلاغة اليوم، فقد عكف الرجل على دراسة البلاغة العربية، وتدريسها، زهاء الأربعين سنة، لتُترجم أعماله ضمن مشروع بلاغي هادف إلى إعادة إحياء الدرس البلاغي وتوجيهه الوجهة الأولى التي سلكها أول الأمر، وعنه يقول الباحث اليمني مُحَمَّد مرشد الكميم: " إنّ مغامرة الاقتراب من عقل مفكر وبلاغي وناقد عربي كبير بحجم الأستاذ مُحَمَّد العمري يتطلب جهدا قرائيا خرافيا، فهاجس الاقتراب من البلاغيين بالذات هاجس مخيف، ليس لأنهم يمتلكون أجهزة إبلاغ أكثر قوة مما نمتلك فحسب، ولكن لأنّ قدرتهم على الظهور فيما وراء سطورك وفي خبايا ما تفكر به وثنايا ما تسكت عنه، هي التي جعلت صحفيي السوق السوداء يُوَلُّونَهُمُ الظهور، فهؤلاء يدركون أنهم لن يستطيعوا قراءة عتبات عقولهم فكيف بمحاورتهم ومناقشة آرائهم "[1]، وهذا الرأي إن دلّ فإنما يدلّ على مدى اتساع ثقافة العمري، النابعة من أعماق التراث البلاغي العربي، مازجة إياه مع البلاغة اليونانية، والغربية الحديثة، لتُسفر عن رؤية بحثية نافذة، ساهمت في ظهور مشروع بلاغي أقل ما يقل عنه أنه مشروع رائد .

---

[1] مقال لـ جميل حمداوي " من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة "، شبكة الألوكة، ص : 37 .(من:www.alukah.net

[1] مُحَمَّد مرشد الكميم، رحلة حياة بحثا عن بلاغة عربية حديثة، حوار شامل مع الدكتور مُحَمَّد العمري، موقع العمري : www.medelomari.net

ومُحَمَّد العمري هو مُحَمَّد بن عبد الله بن حمو العمري من مواليد سنة 1945م بقرية " الحارة " على ضفاف وادي درعة جنوب المغرب، تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وبعض المتون والمنظومات على يد والده بقرية الحارة، وعند استقلال المغرب التحق بالمعهد الإسلامي بمدينة تارودانت ( معهد مُحَمَّد الخامس حاليا)، الذي حصل منه بين سنتي 1958و1968م على الشهادة الابتدائية، والثانوية، والبكالوريا الأصلية بميزة حسن ( وهي ميزة نادرة وقتذاك في مستوى البكالوريا المغربية) .

في سنة 1968م التحق بجامعة مُحَمَّد الخامس- فرع فاس- حيث حصل على الإجازة في الأدب العربي سنة 1972، وحصل في نفس السنة على شهادة الكفاءة التربوية للتدريس بالمدارس الثانوية. واشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية من سنة 1972 إلى سنة 1981م، متابعا تكوينه الجامعي بموازاة مع التدريس ، وفي سنة 1974م حصل على شهادة استكمال الدروس – شهادة الدروس المعمقة – من جامعة مُحَمَّد الخامس بالرباط، وفي سنة 1981م حصل على دبلوم الدراسات العليا من نفس الجامعة .

وفي مجال التدريس، اِلْتَحَقَ العمري بكلية الآداب بجماعة سيدي مُحَمَّد بن عبد الله بفاس كأستاذ مساعد، ناقش أطروحة دكتوراه الدولة في الأدب العربي سنة 1989 فرقّي إثرها إلى درجة أستاذ محاضر، ثم رقّي سنة 1993 إلى درجة أستاذ التعليم العالي ، والتحق خلال السنة الجامعية 1996/1995 بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، أستاذا للبلاغة والنقد الأدبي ، و عمل أستاذا للبلاغة والنقد الأدبي بكلية الآداب بجامعة مُحَمَّد الخامس بالرباط، ثم تقاعد مبكرا في إطار المغادرة الطوعية ابتداء من غشت 2005م[1].

أما عن المشروع البلاغي عند مُحَمَّد العمري، فإنّ الحديث عنه سيقودنا بطبيعة الحال إلى الحديث عن مؤلفاته ، ونشاطاته الفكرية، ولقاءاته الصحفية، ... وغيرها من الأعمال التي قدّمها العمري، من أجل تحقيق هدف واحد، وهو توجيه البلاغة إلى مسارها الحقيقي، والتي كانت قد ضلّت طريقها في فترة من الفترات الزمنية، حتى وجدت نفسها تفقد في كل مرة من المرات مجالا حيويا من مجالاتها، لتصبح في آخر المطاف محصورة في ثلاث مجالات فقط هي: المعاني، والبيان،

[1] موقع مُحَمَّد العمري، : www.medelomari.net

والبديع، وهذا ما من شأنه أن يبيّن فعالية المشروع العمري، وضرورته في وقتنا هذا، وهو المشروع الذي قال عنه العمري في تقديمه لبعض المؤلفات التي ترجمها: " ينضوي هذا البحث ضمن مشروع كبير بناء بلاغة عامة جديدة تستوعب إنجازات البلاغة القديمة، وتستفيد من اجتهادات الأسلوبية الحديثة، محاولة تجاوز جوانب النقص فيهما باقتراح نموذج سيميائي يقوم على نظرية الانزياح في التركيب والدلالة والتداول "[1] .

ومن بين مؤلفات العمري نعتقد أن هناك خمسة كتب رئيسية انبنى عليها مشروعه، وهي: كتاب " في بلاغة الخطاب الإقناعي " وكتاب " الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية "، وكتاب " البلاغة العربية أصولها وامتداداتها "، وكتاب " البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول "، وكتاب " المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة "، ذلك أنّ المطّلع لهاته الكتب وحدها يستطيع أن يكوّن تصوّرا شاملا لمشروع العمري .

وبالإضافة إلى هاته المؤلفات الخمسة هناك مؤلفات أخرى مثل: كتاب " دائرة الحوار ومزالق العنف- كشف أساليب الإعنات والمغالطة مساهمة في تخليق الخطاب، وكتاب " أشواق درعية العودة إلى الحارة "، وكتاب " الإفراني وقضايا الثقافة والأدب في مغرب القرنين 17و18 "، وكتاب " تحليل الخطاب الشعري-البنية الصوتية "، وكتاب " منطق رجال المخزن وأوهام الأصوليين "، وكتاب " زمن الطلبة والعسكر سيرة ذاتية " .

وفي مجال الترجمة: ترجم العمري ثلاثة مؤلفات هي: كتاب " بينة اللغة الشعرية " لمؤلفه جان كوهن ( الترجمة كانت بمساعدة مُحَمَّد الولي )، وكتاب " البلاغة والأسلوبية " لمؤلفه هينريش بليث، وكتاب " نظرية الأدب في القرن العشرين[2] .

وعلاوة على هذا فإن للعمري العديد من النشاطات كإعداد المقالات وترجمتها، وتنظيم الحوارات الفكرية والثقافية، وإصدار المجلات، وغيرها ... .

---

[1] هينريش بليث، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة : مُحَمَّد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، 1999م ترجمة: مُحَمَّد العمري، ص: 11 .

[2] موقع العمري: www.medelomari.net

ومن بين نشاطاته التي خدمت الدرس البلاغي العربي نذكر:

أ ـ إصدار مجلة دراسات أدبية و لسانية سنة 1985 بمشاركة مجموعة من الباحثين والقيام بمهام إدارتها والإشراف على تحريرها. وهي مجلة علمية فصلية متخصصة صدر منها ستة أعداد.

ب ـ إصدار مجلة دراسات سميائية أدبية لسانية سنة 1987، بمساهمة حميد لحميداني،وتولي مهمة إدارتها. وهي مثل سابقتها ، مجلة فصلية متخصصة . صدر منها سبعة أعداد .

ج ـ الإشراف على "منشورات دراسات سال " وهي سلسلة كتب صغيرة ، تتصل بتخصص مجلة دراسات سميائية .

د ـ الإشراف (ضمن هيئة مجلة دراسات أدبية ولسانية) على تنظيم ندوة تحليل الخطاب بالتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس بتاريخ 1986 وقد نشرت مواد هذه الندوة في العدد التاسع من مجلة كلية الآداب بفاس والعدد 5 من مجلة دراسات أدبية ولسانية.

هـ ـ تنظيم ندوتين متخصصتين (ضمن هيئة تحرير مجلة دراسات أدبية) حول العلاقة بين اللسانيات والنقد الأدبي. الأولى بعنوان: اللسانيات والنقد الأدبي. نشرت مادتها بمجلة دراسات أدبية ولسانية العددان: 2.1 والثانية بعنوان: الحدود بين المدارس اللسانية في علاقتها بالأدب، وقضية السياق والمعنى. نشرت مادتها بالعدد: 3 من المجلة المذكورة . شارك فيهما مجموعة من أساتذة كليتي الآداب بفاس و مكناس .

و. إجراء حوارات شاملة من أدباء وكتاب ومفكرين من مختلف البلاد العربية حول جهودهم التنويرية، ومشاريعهم العلمية. نذكر منهم: عبد الله الطيب (ناقد سوداني)، وصلاح فضل (ناقد مصري)، وطه عبد الرحمن (منطقي مغربي)، ومُحَمَّد مفتاح (ناقد سميائي مغربي)، ومنصف المزغني (شاعر تونسي)، ومُحَمَّد السرغيني (ناقد مغربي)، ومحيي الدين صبحي (ناقد سوري) .

وقد نشرت هذه الحوارات بمجلتي: دراسات أدبية ولسانية. و دراسات سميائية أدبية ولسانية .[1]

لقد بدأ العمري رحلة البحث في هذا المشروع، من فكرة سماها الاستكشاف، ومعناها إستكشاف أصول البلاغة العربية من طريقين هما : الاستكشاف من الداخل، والاستكشاف من الخارج، حيث يتجلى الاستكشاف من الداخل في " تأمل النص الشعري مباشرة ( نقد الشعر وإختياره أي عن طريق الملاحظة المباشرة والاختيار الفني، وهو ما يظهر في تلك التعليقات والملاحظات الواصفة للشعر في العصرين الجاهلي والأموي، والتي إنبثق عنها علم البديع، الذي غذى بدوره كتب التنظير النقدي كقدامة مثلا، والبلاغي مثل الجرجاني، وإضافة إلى البديع كانت عملية إختيار الشعر والنثر ممثلة في إختيار أبي تمام وشرح المرزوقي، وهذه المرحلة هي عند العمري مرحلة الرصد لكونها ترصد الملاحظات وتجمعها وتسميها دون اهتمام بنسق تنظيري "[1] .

وأما الاستكشاف من الخارج فقد نتج عن عملية التأليف العلمي التي إستهدفت تقنين اللغة والفكر وتنزيه الدين، وهي عملية ناتجة عن التعارض الذي حدث بين القواعد الموضوعة في النحو أو البلاغة والظواهر أو النصوص الخارجة عن تلك القواعد المرسومة، ولعل أبرز من يمثل عملية الاستكشاف من الخارج بالنسبة للبلاغة هو أبو عبيدة في " مجاز القرآن "، بكثير من حرية الرأي التي جرّت عليه نقمة اللغويين ودارسي النص القرآني، ولقد مكّنت هاته العملية من تقعيد اللغة سواء من زاوية مجاز القرآن أو من زاوية ضرورة الشعر، مما أدى إلى ظهور ثلاثة عناصر مهمة هي:

1- متن من الأمثلة المنزاحة عن الأقيسة اللغوية المطّردة .

2- مفاهيم ومصطلحات تدل على إجراءات تركيبية ودلالية انزياحية .

3- الحديث عن الخصومة اللغوية للشعر باعتباره صاحب خصوصية ذاتية "[2] .

---

[1] موقع العمري الإلكتروني : www.medelomari.net

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، 2010م، ص : 21، 22 .

[2] نفسه، ص : 22، 23 .

ولقد اِستفاد العمري من عمليتي الاستكشاف هاتين استفادة كبيرة مكّنته من تصنيف بعض المؤلفات البلاغية العربية بين الأصول والامتدادات، ثم أضاف إلى هذا العمل ما اِستفاده من اطلاعه على البلاغة عند الغرب .

**ثانيا: دعائم مشروع العمري:**

من خلال القيام بنظرة سريعة لأيّ مؤلَّف من مؤلفات العمري، أو نشاطاته الموثقة والآنفة الذكر، نستطيع الآن تقديم تصوّر لأهم الدعائم التي قام عليها مشروعه البلاغي، والتي تتنوّع بين ما هو عربي وما هو غير عربي، هذا التنوّع الذي نستشفّه من خلال حديث العمري عن بلاغة أرسطو، وقد نّوه في هذا الحديث بأهمية الدرس البلاغي العربي حيث يقول: " ونحن إذ نسترشد بالهيكل العام لبلاغة الخطاب عند أرسطو لشموليتها نحتفظ لأنفسنا بحق التعامل مع النصوص العربية بما فيها من خصوصيات، كما نحاول أن نوظف المصطلحات البلاغية العربية بإدخالها فيما يناسبها ويستوعبها من نظرية أرسطو، وعلى رأسها قضية مراعاة المقام والحال التي نجعلها عنوانا للعلاقة بين الخطيب والمستمع "[1] .

إنّ هذا النص الذي بين أيدينا يدلّ دلالة واضحة على مدى اطلاع العمري على البلاغتين اليونانية، والعربية، واهتمامه الشديد بهما، خاصة وأنه ربط ركائز البلاغة الأرسطية بقضية مراعاة المقام والحال في البلاغة العربية، ما يؤكّد لنا ازدواجية الثقافة لدى العمري، وهي ازدواجية لم ينفرد بها العمري وحده، وإنما جاءت نتاج حركية تثاقفية بين البلاغتين، وقد أشار العمري نفسه إلى هذا الأمر في تقديمه لكتاب نظرية الأدب في القرن العشرين إلى ما يفيد بأنّ " الدراسات والمقالات المكونة لهذا الكتاب ليست اختيارا محكوما بنزوع ذاتي بحت، نحو مذهب محدد، بل هي قبل كل

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي-مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، أفريقيا الشرق-المغرب، ط2، 2002م، ص : 21 .

شيء رصد لتفاعل الساحة الثقافية المغربية على الخصوص والعربية على العموم مع حركية البحث العالمي في نظرية الأدب "[1] .

ويرى الباحث الموريتاني مُحَمَّد سالم مُحَمَّد الأمين الطلبة بأن " اِنتباه العمري المبكر إلى دور الحجاج في قراءة النصوص البلاغية والخطابية، هو انتباه ولّده لديه اِطلاعه المكثف على نصوص التراثين العربي والغربي، قديمها وحديثها " [2] ، وهو ما يؤكّد ازدواجية ثقافة العمري إن لم نقل تعددها وتنوعها .

وعلى العموم فإن دعائم مشروع العمري تنقسم إلى نوعين، دعائم من التراث البلاغي العربي، ودعائم من البلاغة الغربية القديمة والحديثة، وقد اعتمدنا هذا التقسيم كوننا نعتقد بأن البلاغة اليونانية تنضوي ضمن الدراسات البلاغية عند الغرب، لأن الغربيين انطلقوا في التنظير من أعمال أرسطو، وجعلوا من أعمالهم امتدادا لبلاغة أرسطو .

## أ- دعائم من التراث البلاغي العربي:

يأتي كتاب " مجاز القرآن " لأبي عبيدة (ت 209هـ)، على رأس دعائم المشروع، فقد ساعد على استكشاف العوامل الخارجية التي أثّرت في تطوير البلاغة العربية، والتي وضعها العمري تحت عنوان " الاستكشاف من الخارج "، في مقابل " الاستكشاف من الداخل " من نقد الشعر لقدامة، وتأثير القرآن الكريم على البلاغة العربية لا يمكن تجافيه بأي حال من الأحوال، وهو شبيه بتلك القصائد التي نُظمت في عصر الاستشهاد أي قبل الشروع في كتابة المدونة، وخالفت في بعض أبياتها القاعدة النحوية أو البلاغية، فوُضعت في هاته الحالة ضمن " الضرورات الشعرية "، حيث يكمن عنصر التشابه بينهما في أنّ لكليهما سطوة على البلاغة من حيث الخروج عن قواعدها وعدم قدرة البلاغيين على تقويم هذا الخروج .

[1] مجموعة من المؤلفين، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة : مُحَمَّد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، طبعة 1996م، ص : 05 .

[2] مُحَمَّد سالم مُحَمَّد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة-بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2008م، ص : 243 .

ولقد درس العمري كل هذا ضمن الأصل الثاني من أصول البلاغة العربية عنده، ألا وهو " البلاغة ومعيرية اللغة ".

وفي الأصل الثالث من أصول البلاغة عند العمري، والمسمى بـ " من تبرير المجاز إلى بيان وجه الإعجاز "، تطرّق العمري إلى كتابين اثنين هما " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة (ت 276هـ)، و" إعجاز القرآن " للباقلاني (ت 403هـ)، وكلاهما جاء لدفع الشبهات عن كلام الله عز وجلّ، ليس من ناحية مخالفة القاعدة، كما هو الحال مع مجاز القرآن لأبي عبيدة، وإنما من ناحية أخرى هي اختلاف الأحرف التي نزل بها القرآن الكريم، وقد استغلها المغرضون في اعتبار أنّ اختلافها دليل على أنّ القرآن الكريم لم يأت من مصدر واحد، إذ أنه – في اعتقادهم – لو كان من مصدر واحد لما اختلفت قراءاته، والأمر في الحقيقة جاء من باب الإعجاز لا من باب الاختلال والاختلاف، فالقرآن نزل على سبعة أحرف وأعجز العرب البلغاء على أن يضاهوه ولو في حرف واحد أي قراءة واحدة من قراءاته، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [ الإسراء:88]، وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [ الطور:33-34] .، وتحداهم على أن يأتوا بعشر سور فقال: أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود:13-14] ، وتحداهم أن يأتوا بسورة مثله فقال:﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس:37-38] وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ

مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ [البقرة:23]،"[1] .

من هنا رأى العمري ضرورة دراسة كتابي ابن قتيبة والباقلاني، ووضعهما ضمن أصول البلاغة العربية، ليكونا، عندنا، ضمن دعائم مشروعه البلاغي، كونهما يبحثان في تأثير القرآن الكريم على اللسان العربي عموما، والدرس البلاغي خصوصا، ما ساهم في تطوير هذا الدرس .

وقد استعان العمري في دراسته لهذا الأصل، لإضافة إلى كتاب نقد الشعر، استعان أيضا بكتاب " الحماسة " لأبي تمام (ت 231هـ)، و" عمود الشعر " للمرزوقي (ت 421هـ) .

وعلاوة على ذلك فإن كتاب البديع لِابن المعتز (ت 296هـ)، يعدّ في صدارة المؤلفين الذين إِعتمد عليهم العمري في صياغته لمشروعه الجديد، ولعل ذلك راجع إلى أسبقية الرجل في التقعيد لعلم البديع، وقد كان هذا العلم قبله مجموعةً من الأفكار التنظيرية التي تحتاج إلى تفعيل وتطبيق، وهو شأن أي علم على أي حال .

وبتأليف ابن المعتز لكتابه " البديع "، وتأسيسه لهذا العلم أضحى البديع أحد ركائز علوم البلاغة اليوم، وهو لا يقصد بالبديع العلم المعروف بل هو الطريف من الكلام بدليل أنّ ابن المعتز تناول فيه موضوعات من علم البيان كالتشبيه والاستعارة وهي ليست من موضوعات علم البديع على ما عرف عند المتأخرين، لذلك أثنى عليه العمري بقوله: " يسجل عمل عبد الله بن المعتز لحظة حاسمة في تاريخ البلاغة العربية سواء من حيث السؤال الموضوع أو من حيث الإجراء المتخذ "[2]، كما أن أهمية عمل ابن المعتز بالنسبة للعمري جعلته يضعه ضمن أصول البلاغة العربية، تحت عنوان " البلاغة والنقد التطبيقي " .

[1] مُحَمَّد الصغير بن قايد بن أحمد العبدلي المقطري، الحلل الذهبية على التحفة السنية، تح: مقبل بن هادي الوادعي، دار الإمام مالك، البليدة، الجزائر، الطبعة الثالثة 1428هـ-2007م ص: 09 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 61 .

وعلى اعتبار أن أبا عمرو الجاحظ (ت 255هـ) من أشهر علماء البلاغة العربية، وقد عُدّ من مؤسسيها الأوائل، فإنّ حضوره ضمن مشروع العمري أمر لا يدعو للاستغراب، لذلك يقول العمري: " رغم أنّ ظهور الخلاف حول القضايا السياسية والدينية، وتكوُّن الفرق والمذاهب، والاطلاع على تراث الأمم الأخرى – التراث الأرسطي خاصة – والاستعانة به في إطار الجدل والمناظرة جاء متأخرا عن ممارسة نقد الشعر فقد ظهرت النواة البلاغية الخطابية الأولى التي توازي كتاب البديع وتعادله في القرن الثالث الهجري هي الأخرى، نقصد بذلك كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وهو كتاب مؤسس للحجاج وبلاغة الخطاب الإقناعي ... "[1]، وفي هذا القول يشير العمري إلى دور الجاحظ في التأسيس للخطابة العربية، وعلم الحجاج عند العرب ما جعله ضمن الدعائم .

لقد نوّه العمري في هذا النص ببيان الجاحظ، معتبرا أنّ مكانته في التراث تعادل مكانة بديع ابن المعتز، وأن ما تناوله هذا الكتاب هو بمثابة النواة الأولى للخطابة العربية، ويأتي هذا الرأي من كون الجاحظ قد جمع كل ما وصل إليه من تراث اليونان، والرومان، والفرس، والهنود، فاستطاع بهذا الاطلاع الواسع أن يكوّن نظرة أولى لمفهوم البلاغة الخطابية، أو بالأحرى، لمفهوم بلاغة الخطبة، بالنسبة لمشروع العمري، لهذا نجد أنّ العمري حين درس بلاغة الخطبة، مزج بين عمل أرسطو والبلاغيين العرب تأثرا منه بعمل الجاحظ .

هذا وإذا نظرنا من الزاوية التي نظر منها العمري نفسه، في دراسته للتراث البلاغي العربي، فإننا سنجد أنّ اِبن وهب (ت 335هـ)يأتي بعد الجاحظ مباشرة، كونه الأنسب لفهم عمل الجاحظ، وهو ما صرّح به العمري في قوله: أيضا: " إنّ مشروع الجاحظ في البيان والتبيين لا يمكن أن يفهم إلا من خلال قراءة ابن وهب له، واستئنافه لمشروعه، فابن وهب يرى أنّ الجاحظ لم يقدم شيئا يستحق الاعتبار في باب البيان "[2]، ومن هنا يكون العمري قد جعل عمل ابن وهب رديفا لعمل الجاحظ، مما يتيح له أن يكون ضمن دعائم المشروع .

[1] مُحَمَّد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، المغرب، 2013م، ص : 33 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 13 .

وفي كتابه " الموازنات الصوتية " نجد أنّ العمري قد تطرّق إلى أهم مضامين كتاب " البرهان في وجوه البيان " لابن وهب، مبرزا أهم مضامين الكتاب والأساسَ الذي تقوم عليه نظرية ابن وهب، دون إغفاله لمفهوم البلاغة وعناصرها، وهي عند العمري " أقرب إلى الخطابة منها إلى الشعر، ولا شك أنّ ذلك راجع لحضور وظيفة الإقناع في رؤية ابن وهب وهيمنتها عليه، كما هو راجع إلى طبيعة الشعر الكلاسيكي القريب من الخطابة في كثير من مقوماته "[1]، ومن هنا يصف العمري نظرية البيان عند ابن وهب، أو البلاغة عنده، بـ " الخطابية "، ما يشير إلى المكانة المرموقة التي حظي بها هذا الأخير ضمن مشروع العمري .

ومن المؤلفات البلاغية التي يمكن إدراجها ضمن دعائم مشروع العمري، كتاب " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر (ت 337هـ) الذي ساعد على استكشاف المكونات البلاغية للشعر، لما للبلاغة والشعر من تداخل كبير، خاصة في مرحلة النشأة، فالشعر ديوان العرب كما قيل، وقد كان علماء النحو والبلاغة يرجعون إلى قصائد الشعراء الجاهليين في التقعيد للغة العربية، من هنا كان اهتمام العمري بعمل قدامة في دراسته للأصل الأول من أصول البلاغة عنده وهو " البلاغة ونقد الشعر ".

ومن الدعائم أيضا، التي انبنى عليها مشروع العمري، عمل أبي هلال العسكري (ت 395هـ) في كتابه " الصناعتين "، وهو الكتاب الذي عنى به ابن وهب، صناعة الشعر وصناعة النثر، وقد اعتبره العمري " أول محاولة لقراءة عمل البلاغيين العرب الرواد قراءة شاملة تستهدف الخروج بصيغة عامة تجمع المتفرق، ولذلك سنجده يحاول الجمع بين روافد تحدّرت من شعب متباينة، بين بيان الجاحظ وبديع عبد الله بن المعتز وما قدمه النقاد في موضوع الأخذ والسرقات "[2]، ولقد وضعه العمري ضمن الدراسة الممهدة لامتدادات البلاغة العربية عنده، تحت عنوان: " البلاغة العامة "، إشارة منه إلى عنوان الكتاب الذي يعنى بالنثر ( أي الخطابة، أو الخطابية ) ، والشعر ( أي الشعرية ) .

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2001م، ص : 87 .

[2] المرجع السابق، ص : 283 .

أما بخصوص ابن سنان الخفاجي(ت 466هـ)، فإنه قد نال هو الآخر قسطا كبيرا من الدراسة، وجاء عمله في المشروع العمري رديفا لعمل الجرجاني، كما رأينا سابقا مع ابن وهب والجاحظ، ففي الفصل الثالث من كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، والمعنون بـ:" بلاغة الصحة والتناسب " ، يُفرد العمري دراسة كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، معتبرا إياه ضمن امتدادات البلاغة العربية شأنه شأن الجرجاني، كما قال في حديثه عن أهمية عمل ابن سنان: " كان من بين همومي الموجهة حين تصديتُ لإعادة قراءة تاريخ البلاغة العربية اِستخراج أنساق المؤلفات في حوار بين المشاريع والمنجزات، وكان أول عمل لي في هذا الصدد قراءتي لسر الفصاحة لابن سنان في أوائل الثمانينات "[1]، وهذا القول يبرز مدى أهمية كتاب الخفاجي في إعادة التأريخ للبلاغة، والتأريخ أمر جدّ ضروري بالنسبة للمشروع العمري .

ومن بلاغيي التراث العربي الذين اعتمد عليهم العمري نجد صاحب كتابي " أسرار البلاغة " و" دلائل الإعجاز "، عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)، وقد اعتبره أهم تحوّل طرأ على الدراسات البلاغية، لكونه لامس عنصرا حساسا في علم البلاغة العربية، ألا وهو الاهتمام بمفهومي الفصاحة والبلاغة تعريفا وتفريقا، مما سهل تعليمها لدى الناشئة، لذا يقول العمري: "ولعل أهمّ عملية تحوّل هي التي مرّ منها عمل عبد القاهر الجرجاني عبر كتابيه الأسرار والدلائل، لقد راهن عبد القاهر الجرجاني، انطلاقا من تصور أشعري يعتبر الكلام معاني نفسية، ويعادي مقولة المعتزلة التي تجعله أصواتا ومقاطع، راهن في البداية على المفارقة الدلالية التي يحققها التشبيه والتمثيل ( في مستوى أدنى ) وتحققها الاستعارة والتخييل ( في مستويات أعلى ) "[2]، فالجرجاني يسعى إلى بناء بلاغة تقوم على المعنى، بخلاف ما هو عند الخفاجي مع البلاغة الصوتية، وكلاهما انطلق من الخلفية المذهبية التي يؤمن بها، فالأول أشعري والثاني معتزلي .

ولقد كان لحضور الجرجاني في مشروع العمري دورٌ بارزٌ، حيث أن العمري اعتبره من ضمن امتدادات البلاغة العربية، وقد قدّمه تحت عنوان: " بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية "، –

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 16 .

[2] المرجع السابق، ص : 17 .

والذي سنتناوله بالتفصيل في الجانب التطبيقي-، لهذا نعدّ عمل الجرجاني ضمن دعائم مشروع العمري .

وأما عن " مفتاح العلوم " للسكاكي (ت 626هـ)، فإنه يعدّ من أهم المؤلفات التي وقف عندها العمري طويلا، وجاءت إشارته إليه في أغلب مواضيعه البلاغية، سواء من جانب التأليف أو غير ذلك من النشاطات التي قام بها العمري، وهذا كون السكاكي يعدّ المحطة الأخيرة لما قبل التقعيد، وكل ما جاء بعده ما هو إلا انحراف عن المسار الحقيقي الذي أراد العمري أن يعيد البلاغة إليه .

وعلى هذا الأساس فإن اعتبار السكاكي دعامة من دعائم مشروع العمري، صار من الضروريات في هاته الدراسة، وقد درسه العمري في المبحث الأول من الفصل الأخير لكتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وكان عنوان هذا المبحث هو: " من علم الأدب إلى البلاغة ( قراءة في مفتاح العلوم )، والذي استطاع العمري من خلاله أن يكتشف نقطة الانعطاف أو الانحراف في البلاغة العربية، ذلك أنّ السكاكي أراد دراسة البلاغة موازاة مع النحو والمنطق وعلم الأدب، غير أنّ الشراح قزّموا دراسته في المعاني، والبيان، والبديع فقط، وفي هذا يقول العمري: " ويمكن أيضا في إطار المشاريع والمنجزات تأمل عمل السكاكي في مفتاح العلوم، فمن البحث عن علم الأدب من خلال النحو والصرف وصل إلى ما اعتُبر إبداعا له يغطي على غيره، وهو تنظيم علم المعاني وتأطيره "[1]، فالعمري هنا يبيّن منزلة عمل السكاكي بين العلماء، فإذا كان لابن المعتز أسبقية التأليف في البديع، وكان للجاحظ أسبقية التأليف في البيان، ولابن وهب والجرجاني[*] فضل تطويره، مع صياغة الجرجاني لمفهوم البلاغة انطلاقا من التركيز على المعاني واكتشاف نظرية النظم، وكان للخفاجي فضل صياغة مفهوم البلاغة بالتركيز على الأصوات، فإنّ للسكاكي فضل تنظيم علم المعاني وتأطيره .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 16،17 .

[*] يذهب شوقي ضيف في كتابه " البلاغة تطور وتاريخ "، إلى أن الواضح الحقيقي لنظرية البيان هو عبد القاهر الجرجاني، وهذا لا يخص بيان الجاحظ، ينظر : شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة التاسعة، 1956م، ص : 160 ، ونحن نرى أنّ هنالك فرقا بين المصطلحين، فالبيان عند الجاحظ يوازي مفهوم البلاغة كلها، أما عند الجرجاني فهو علم البيان الذي نعرف اليوم .

هذا وقد استعان به في التأريخ للبلاغة العربية، فجعله في المرحلة الثالثة من مراحلها، كما اعتبره " أبا للتصور المدرسي الذي استقر للبلاغة العربية من عصره إلى اليوم، ذلك التصور الذي يقس البلاغة إلى ثلاثة علوم : المعاني والبيان والبديع "[1] .

وإذا كان العمري قد وصف عمل العسكري بالبلاغة العامة لكونه يعنى بالشعر والنثر معا– فيما ذكرناه من قبل – فإنّ هناك عملا آخر يعنى بأكثر من الشعر والنثر معا، بل ويضيف إليهما علم المنطق، أو الفلسفة، ذاك هو عمل ابن حزم القرطاجني (ت 684هـ) في كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء "، ولا غرو في أن يكون لهذا الأخير حضورٌ بارزٌ في مشروع العمري، وقد عرضه تحت عنوان: " البلاغة العلم الكلي "، موازاة مع " البلاغة علم الأدب " عند السكاكي، وكلاهما جاء تحت عنوان: " البلاغة المعضودة بالنحو المنطق "، وكان اهتمام العمري بعمل حازم القرطاجني اهتماما لافت النظر، حتى أنه استهلّ كتابه " البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول "، بمقولة لحازم يصف فيها علم البلاغة بأنه علم واسع المجال، وعصيٌّ على المبتدئين من الطلاّب، وقد جاء عرض العمري لهاته المقولة على النحو التالي: " قال حازم القرطاجني: وكيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع اِستنفاد الأعمار " [2]، وكان حازم قد شبّه حال من يظن إمكان تحصيلها والاستفادة منها، في وقت وجيز، بحال الرجل الذي قضى ليلته في تصفح كتب الطب، ثم أصبح وهو يحرر وصفة طبية لإسعاف صديقه المريض فعجّل بنهايته "[3] .

ويأتي كتابا الإيضاح، والتلخيص، للخطيب القزويني (ت 739هـ)، في آخر الدعائم، اللذين — من خلالهما – انكبّ الرجل على مفتاح السكاكي يشرحه، بيد أنه أهمل دور النحو والمنطق في بلاغة السكاكي، فحوّل بذلك وجهة الدراسات البلاغية من الطريق الواسعة المعبّدة من لدن

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 44 .

[2] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح : مُحَمَّد الحبيب خوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثالثة 2018م، ص : 78 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 05 .

العلماء من عصر الجاحظ إلى عصر السكاكي، إلى مسالك ضيقة ووعرة، وإن بدت للباحث أنها سهلة وبسيطة .

ولكنَّ تفطُّن علماء البلاغة – من المعاصرين – لحال البلاغة بعد القزويني، وعلى رأسهم مُحَمَّد العمري، قد أماط اللثام عن وجه البلاغة الحقيقي الذي خَفِيَ عن الدارسين دهرا طويلا، وفي هذا يقول العمري: " قام القزويني لاحقا بفصل المواد البلاغية في كتاب المفتاح عن نسقها غير عابئ بأثر مقتضيات استراتيجية السكاكي فيها، وقام بدوره بتخليصها من مجموعة من التحليلات المنطقية التي أقحمها السكاكي، وكان الغرض من التلخيص في ذلك الوقت حفظ الملخص، وقد يُنظم ليسهُل حفظه، كما فعل أصحاب البديعيات، ولذلك يبادر الشيوخ المدرّسون إلى إنجاز شروح على الملخص"[1]، ومع أنّ العمري قد أشار صراحة إلى خطورة عمل القزويني، إلا أنه تدارك الأمر، واعتبر أنه جاء من باب تبسيط الدرس البلاغي حتى يسهُل على الناشئة فهمه وتعلّمه، ونحن نرى أنّ عمل القزويني ظهر في إطار التلخيصات التي شهدها عصره، ولكل عصر علمه ورجاله .

وعلى الرغم من تأثير عمل القزويني على مسار البلاغة العربية إلا أنه كان لابد من وضعه ضمن دعائم مشروع العمري، فلولا عمل القزويني ما قُزّمت البلاغة في ثلاثة علوم، ولما دعا العمري إلى إعادة تجديدها .

**ب– دعائم من البلاغة الغربية:**

تنقسم الدعائم المستمدّة من البلاغة الغربية إلى دعائم من البلاغة اليونانية وأخرى من البلاغة الغربية الحديثة، فأما الأولى فإنها في الحقيقة لا تزيد على أعمال أرسطو، وأما الثانية فهي تتنوّع بين رؤى تجديدية مختلفة، منها ما يميل إلى الحجاج ومنها ما يميل إلى الأسلوبية، وغيرها من الرؤى .

ونحن إذ نعتبر أنّ بلاغة اليونان تدخل ضمن البلاغة الغربية في طابعها القديم، فإننا نستمدّ هذا الرأي مما ذهب إليه العمري نفسه، الذي جعل بلاغة اليونان، وحتى البلاغة اللاتينية، ضمن

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة–مواجهة بين زمن الجرجاني وزمن القرطاجني، ، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الأولى 2017م، ص : 21 .

الدراسات البلاغية الغربية، حيث يقول: " لا يتسع المقام للحديث عن البلاغة الغربية القديمة إغريقية ولاتينية، بل ليست هناك ضرورة كبيرة للعودة إليها مستقلة عن البلاغة الغربية الحديثة التي استوعبت ما سبق بـ " التنسيق " والنقد، ثم البناء، ولذلك ستحضر البلاغة الغربية القديمة من خلال القراءة الحديثة، وهذا الوضع بخلاف ما عليه الحال في المجال العربي حيث ما تزال البلاغة القديمة ناطقة باسمها غير مستوعَبة في الدرس البلاغي الحديث "[1]، وأما اعتبارنا أنّ بلاغة اليونان تنحصر في بلاغة أرسطو وحده، فذاك لأننا لم نجد حضورا لأيّ فيلسوف أو بلاغيّ آخر في دراسات العمري بخلافه هو، ونحن لا نعني بالحضور مجرّد الذكر العابر، وإنما الحضور الفعّال كأن يكون ضمن الأصول أو الامتدادات، أو بلاغة الخطاب الاحتمالي .

وعلى العموم فإن حضور أرسطو في دراسات العمري يظهر أوّل الأمر من خلال وجوده ضمن الأصل الخامس لأصول البلاغة العربية، ألا وهو: " القراءة العربية للبلاغة اليونانية "، وفيه شرح العمري مدى تأثير العنصر اليوناني في بلورة الدرس البلاغي العربي، من خلال قراءات العلماء العرب لتراث اليونان، على غرار ما قام به كل من الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، ولقد كان عمل أولئك البلاغيين منصبٌّ بالأساس على كتابي " فن الخطابة "، و " فن الشعر " لأرسطو، وهو أيضا ما ذهب إليه العمري حين اعتبر أنّ " دخول الثقافة اليونانية كان من خلال تراث أرسطو كنسق تحمله أعمالٌ مؤلفة مازالت تفرض حضورها على الفكر البلاغي العالمي، أقصد فنّ الشعر وفنّ الخطابة لأرسطو "[2].

وفي حديث العمري عن أسس بلاغة الخطاب الإقناعي، انطلق من عناصر بناء الخطابة التي وضعها أرسطو، وهي: " 1- وسائل الإقناع أو البراهين، 2- الأسلوب أو البناء اللغوي، 3- ترتيب أجزاء القول، ثم هناك عنصر الإلقاء الذي اعتبره الدارسون للخطابة بعد أرسطو، ومنهم البلاغيون العرب عنصرا مستقلا ويتضمن الحركة والصوت (...) وبهذا الفهم وهذه المرونة تعامل أرسطو مع أنواع الخطابة الثلاثة الاستشارية والقضائية والاحتفالية "[3]، كما اِهتم العمري أيضا برؤية

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 61 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 219 .

[3] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 21،20 .

أرسطو العلمية للأطراف المساهمة في نشوء الخطاب خاصة " الخطيب "، الذي يعد عنصرا فعالا في إلقاء الخطبة على المستمعين، وفي السعي إلى تحقيق أفضل حد للتواصل كذلك، وفي هذا الشأن يقول العمري : " يرى أرسطو أنّ الخطيب الذي تتوفر فيه الفضيلة والفطنة والتلطّف للسامعين (...) والمعرفة بالمتكلم أيَّ امرئ هو، تُعينُ بزيادة التشاور، أي في الخطابة الاستشارية "[1] .

وعلى هذا الأساس يكون أرسطو هو الدعامة الوحيدة لدعائم مشروع العمري بالنسبة للبلاغة اليونانية، وأما عن البلاغة الغربية الحديثة، فإن دعائمها تبرز من خلال أعمال عديد البلاغيين على عكس البلاغة اليونانية التي اقتصرت على بلاغيّ واحد فقط، والأمر في اعتقادنا عائد إلى الأسباب التالية:

- الفارق الزمني بين البلاغتين، ففي حين نجد أن البلاغة الغربية الحديثة قريبة عهد بالتجديد عند العرب، نجد أن البلاغة اليونانية بعيدة كل البعد عنها .

- دينامية البلاغة الحديثة، وهذا ما نستشفه من عديد البلاغيين الذين بحثوا فيها، أما عند اليونان فلا يحضر - في مشروع العمري على الخصوص - إلا أرسطو .

- كون البلاغة اليونانية قد نالت حظها من الدراسة من قبل البلاغيين العرب القدماء، كالقرطاجني مثلا، أما الحديثة فلا تزال الدراسات حولها تتوالى تباعا .

هذا وسنقوم الآن برصد أهم أولئك البلاغيين الذين اختلفت وجهات نظرهم، وطبيعة دراساتهم من مؤلف لآخر، وقد نوّه العمري ببعضهم في قوله: " لقد بنيت هذه الدراسة على إمكان هذه القراءة وجدواها فكان لها مكانها ودورها، ولاشك أنّ هذا التوجه يجد سندا في الدراسات الغربية التي اِنطلقت منذ الستينيات يؤرخ للبلاغة الغربية، أو تعيد قراءتها وتفسر فعاليتها مع بارت ( تاريخ البلاغة ) وجان كوهن وكبدي فاركا وجان مولينو وطامين ... الخ ، ففي إطار هذا المد أنجزنا نحن أيضا مجموعة من أعمالنا السابقة [*] في البعدين التنظيري والتأريخي مستفيدين

[1] نفسه، ص : 31 .

[*] يشير العمري هنا إلى المؤلفات التالية : أ- تحليل الخطاب الشعري : البنية الصوتية، ب- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، جـ- اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم، د- في بلاغة الخطاب الإقناعي .

من عمل حمادي صمود لتكوين تصور عام "[1]، ولقد حاولنا في هذه المذكرة من خلال تتبّع عمل العمري أن نستخرج ما يدلّ على أخذه عن أولئك البلاغيين، فكان أن وجدنا أنّ في مقدّمتهم بيرلمان، وياكوبسون، اللذين أشار إليهما العمري في قوله: " فمن خلال الاطلاع على الجهود الحديثة التي بُذلت، منذ منتصف القرن الماضي، من قبل المشتغلين باللغة والخطاب من اللسانيين ( ياكوبسون مثلا ) والمناطقة ( بيرلمان مثلا ) بدأنا ننتبه للمكون المهمل من تراثنا البلاغي، ذلك المكون الذي غطاه الصدأ وإختلط تبره بترابه، وعلى هذا الأساس أعدنا الاعتبار للبعد الحجاجي للبلاغة العربية، بعد أن عمقنا البحث في بعض الجوانب المهملة من البناء الشعري ( البنية الصوتية ) "[2] .

هكذا يكون عمل كل من بيرلمان وياكوبسون، وروّاد آخرين دعائم لمشروع العمري من البلاغة الغربية الجديدة، وقد أشار إليهم العمري في قوله: " إنّ رواد هذه البلاغة الجديدة في فرنسا هم رولان بارث وجيرار جينيت، وب.كونتر ، وكبدي فاركا، ومجموعة مي MU بلييج، وبيرلمان، وتودوروف، لقد إستطاع هؤلاء الباحثون وباحثون آخرون كثيرون، في بلاد أخرى، أن يجعلوا من البلاغة مبحثا علميا عصريا "[3]، ومن خلال هذا النص نلحظ مدى تنوّع هؤلاء الروّاد بين أفراد أو جماعات، كجماعة مي، التي اعتمد عليها العمري في استنباطه لمفهوم البلاغة في الثقافة الغربية حيث يقول: " الكلمة التي تقابل كلمة بلاغة العربية، في الثقافة الغربية الحديثة، هي كلمة ريطوريك rhétorique-rhetoric " إطلاقا أو تقييدا، حيث يقال : بلاغة، وبلاغة عامة، وبلاغة الشعر ( انظر مجموعة مي )"[4] .

ولعل من أشهر الكتب التي قام العمري بترجمتها، كتاب " البلاغة والأسلوبية " لهينريش بليث، وعنه يقول العمري: " ينطلق المؤلف في معالجة القضايا من نموذج التواصل : المرسل والمتلقي والرسالة والسنن، فحين تناول البلاغة القديمة أرجعها إلى عنصرين جامعين لما سواهما هما التركيب

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 11 .

[2] مُحَمَّد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص : 05 .

[3] هينريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ص : 15 . نقلا عن: مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 65 .

[4] مُحَمَّد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ و القراءة، ص : 176 .

والتداول، وحين تحدث عن الاتجاهات الأسلوبية صنّفها، على كثرتها، حسب العناصر الأربعة المذكورة، ثم أقام النموذج السيميائي المقترح على ثلاثة أسس هي : التركيب والتداول والدلالة، بالمفهوم الذي حدده لها هناك، وهو العلاقة بالمرجع والواقع "[1] ، وعلى هذا فإننا نضيف عمل هينريش بليث إلى دعائم المشروع .

ومن البلاغيين الغربيين الذين استند عليهم العمري في مشروعه، الباحث والبلاغي أوليفي روبول، الذي استعان به العمري في دراسة دور الحجاج في عملية البرهنة، واستنباطه لمفهوم الحجاج عن طريق هاته الدراسة، وهو ما أشار إليه العمري في قوله: " يقول أوليفي روبول : أعتقد أنّ هناك إجماعا، في أيامنا هذه، على تعريف الحجاج عن طريق معارضته بالبرهنة، وإلا لما كان هناك مشكل، قد يكون عندنا حينئذ، برهنة من نمط منطقي- رياضي، بدون أية علاقة مع البلاغة، من جهة، وقد يكون هناك، من جهة ثانية، تهييج سيكولوجي ذو علاقة أكيدة بالبلاغة، ولكنه غير ذي علاقة بالحجاج، وفي مقابل ذلك، فإذا ما رأينا في الحجاج خطابا عقليا يهدف إلى الإقناع بدون أن تكون له الصرامة الشكلية التي تتمتع بها البرهنة، فحينئذ سيطرح مشكل علاقته مع البلاغة "[2]، والحجاج عنصر أساسي في البلاغة الجديدة عامة، وفي مشروع العمري على الخصوص، ولعل أكثر ما يبرز الحجاج في مجال المناظرة، التي سنقدّم لها مبحثا خاصا في المجال التطبيقي تحت عنوان: " بلاغة المناظرة "، كونها جزء من بلاغة الخطاب الاحتمالي عند العمري .

ولم يكتف العمري فقط، باستنباط مفهوم الحجاج من دراسة روبول، بل إنه عمل على إيراد ملحق كامل لهذا الأخير، تحت عنوان: " هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي ؟ " الذي عالج فيه عدة قضايا لها علاقة بالحجاج والبلاغة على حد سواء .

هذا وإنّ حضور روبول القويّ في دراسات العمري يجعلنا نضيفه هو الآخر إلى دعائم مشروعه، بالموازة مع مجموع البلاغيين السابقين، ونضيف إليهم أيضا بلاغيا آخر هو تزيديفان تودوروف، الذي أشار إليه العمري في حديثه عن أهم العلماء الذين عنوا بدراسة كتاب فن الشعر

[1] هينريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، ص : 12 .

[2] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص : 36،35 .

لأرسطو، فكان تودوروف على رأسهم، وفي هذا يقول العمري: " حين يتأمل المرء الترجمات والشروح الدائرة حول فن الشعر سيشعر حتما بما شعر به ت. تودوروف وهو يقدم الترجمة الفرنسية لسنة 1980، سيشعر بأن نص أرسطو قد أفلت منا، وأنّ كل ما نقرؤه من ترجمات لا يعدو أن يكون مجرد تأويلات .يقول : " لن نبالغ إذا ما قلنا بأن تاريخ الشعرية يلتقي في خطوطه الكبيرة مع تاريخ فن الشعر لأرسطو، وعليه فإن كل من يرى ضرورة الاتصال بهذا النص المؤسِّس للنظرية الأدبية في أوروبا ( وأنا منهم )، ثم لا يستطيع قراءته في اللغة التي كتب بها، قد يكون قد خبر شؤون الغبن الذي تحدثه قراءة ترجمة من ترجماته . ذلك أنه، بالإضافة إلى العيوب المألوفة في الترجمات، فإن كتاب أرسطو شديد الاختزال، إن لم نقل إنه غامض لدرجة لا تدع مفرا للترجمة من تكون مجرد تأويل بالمعنى القوي للكلمة، أي مجرد اختيار بين اتجاهات للقراءة جد مختلفة، بل متعارضة . فكل شيء في هذا النص ينتظر البناء ابتداء من معاني المفردات وتركيب الجمل إلى التركيب العام للنص، فيمكن إذن أن نقرأ هذا التأويل لأرسطو أو ذاك ( ... ) ولكننا لا نقرأ أبدا نص أرسطو نفسه"[1] ][2] ، وهذه النظرة التي طرحها تودوروف تبيّن مدى صعوبة فهم البلاغة الأرسطية لدى الغربيين أنفسهم، فضلا عن العرب، وهو الأمر الذي نرجعه إلى الأسباب التالية:

1- أسبقية أرسطو في التأليف .

2- شمولية الطرح الأرسطي واتساعه .

3- احتمال عدم كتابة أرسطو لمؤلفاته بنفسه، وإنما اكتفى بإلقائها شفاهية فقط .

ويأتي بعد تودوروف بلاغيّ آخر هو ميشال مايير، الذي جاء ذكره في كتاب البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول للعمري، وقد استعان به في تقصّي مفهوم البلاغة الجديدة، حيث يقول: " بذل بلاغيون محدثون كبار جهدا فلسفيا ومخبريا، إن صح التعبير، في بيان مدى صلابة الأساس العلمي لقيام بلاغة عامة، البلاغة باعتبارها علما كليا يستوعب ثمار علوم اللسان وعلوم الإنسان،

[1] T.Todorov.Préfacedel a Poétique d'arisstot.traduction de 1980.p05 نقلا عن: مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 224.

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 223، 224 .

وفي هذا الإطار يرى ميشيل مايير أنّ بناء بلاغة كلية يتطلب الخروج من المقابلة القضوية بين الوجود واللاوجود التي بنى عليها تفريق أرسطو بين الشعرية والخطابية، حيث " الشعر لا وجود يحتمل الوجود، والخطابة وجود، يحتمل اللاوجود "[1] .

وبالإضافة إلى عمل تودوروف اعتمد العمري أيضا على كتاب باللغة الفرنسية عنوانه " Le dire et le dit. Ed.Minuit"، لمؤلّفه ديكرو، وقد جاء اعتماده عليه في خضمّ حديثه عن التداولية اللسانية، من خلال تقديمه لمثال توضيحي هو: " الجو جميل "، التي تحمل معنيين سياقيين، معنى سياقي أعلى، ومعنى سياقي أدنى، حيث يقول: " فقولنا مثلا : الجو جميل، يحمل معنى سياقيا، أو مقتضى أعلى، وآخر أدنى، المعنى السياقي الأعلى قد يكون : إذن ، يمكن الخروج في نزهة، هذا إذا كان الجو جميلا فعلا، أما إذا كان بخلاف ذلك مكفهرا أو ممطرا، فسيكون الكلام سخرية من شخص ادعى بالأمس أنّ الجو سيكون جميلا، أما إذا لم يكن لا هذا ولا ذاك، فسيقال حينئذ بأن السياق يكمن في كون هذا الكلام قيل في مكان معين، وزمن معين، فهو محدود بزمنه ومكانه وليس مطلقا "[2] ، وهو ما يقابل عندنا في العربية مفهومي الإخبار والإنشاء، فالإخبار في قولك الجو جميل، يأتي من خلال الجواب لمن سأل عن حالة الجو، وأما الإنشاء فإنه يأتي في سياق التعريض بمن أراد الخروج في جوّ غير مناسب، وعلى أي حال فإن حضور ديكرو في مشروع العمري داع لاعتباره دعامة من دعامات مشروع التجديدي، ولقد كان العمري حريصا دائما على ضرورة التجديد في البلاغة العربية، معتبرا أنّ دينامية الفكر التجديدي لا تخص البلاغة العربية وحدها، بل هي موجودة في البلاغة الغربية أيضا، وبالتالي فإن دعوته إلى التجديد ليس فيها شذوذ عن المعتاد .

وعليه فقد كان من الضروري بالنسبة للعمري أن يبحث عما يستدلّ به على صحة دعوته هذه، كاحتجاجه بعمل بلاغي آخر هو رولان بارت، حيث يقول: " ها هو رولان بارث زعيم المجددين نفسه يبحث للبلاغة القديمة عن فستان حديث، وعن شغل في شركات الإشهار ( بلاغة

[1] Michel Meyer. Conclusionya-t-il un fondement possible a l'unite de la rhétorique ? p:255، نقلا عن: مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديد بين التخييل والتداول، ص : 21 .

[2] مُحَمَّد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص : 37 .

الصورة )، لقد كتب سنة 1963 قائلا : " ينبغي إعادة التفكير في البلاغة الكلاسيكية بمفاهيم بنيوية ( وذلك هو موضوع عمل قيد الإنجاز )، وسيكون حينئذ، من الممكن وضع بلاغة عامة لسانية لدوال التضمين، صالحة للصوت المنطوق، والصورة والإيماء .. "[1] .

وإضافة إلى رولان بارت، احتجّ العمري أيضا بعمل جان كوهن، ويرى أنّ جان كوهن " ينطلق من التمييز بين مرحلتين أساسيتين في قيام أي علم : مرحلة التصنيف ومرحلة التفسير، وقد أنجزت البلاغة القديمة الخطوة الأولى، وبقي على البلاغة الجديدة ( أو الشعرية حسب تسميته لها ) أن تنجز الخطوة الثانية، ونود هنا – يقول العمري – أن نُسمع القارئ صوت هذا الباحث المتميز في المسألة الحيوية التي تجعل حلقات النشاط الإنساني في مساءلة الخطاب موصولة ومتكاملة، يقول : الواقع أنّ البلاغة القديمة قد بنيت بمنظور تصنيفي خالص، لقد وقفت محاولتها عند وضع المعالم، وتسمية الأصناف المختلفة من الانزياحات وترتيبها، كانت تلك المهمة مملة، ولكنها ضرورية، فمن هنا ابتدأت العلوم جميعا، لكن البلاغة وقفت عند هذه الخطوة، فلم تبحث عن البنية المشتركة بين الصور المختلفة، وهذا بالتحديد هو هدف تحليلنا، فهل توجد في القافية والاستعارة والتقديم والتأخير صفة مشتركة من شأنها أن تأخذ فعاليتها بعين الاعتبار ؟ "[2] ، والملاحظ هنا أنّ العمري قد استمدّ تأثير الحجاج من بيرلمان، في حين استمدّ تأثير الشعر من جون كوهن، ما جعله يجمع بين الرؤيتين للدعوة إلى بلاغة عامة .

كذلك قام العمري بترجمة كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين ، لمجموعة من المؤلفين الغرب، وهم: إلرود إبش، د.و. فوكيما، فان دايك، جان كوهن، كبدي فاركا، جان ستاروبانسكي، ولم يكن هذا هو العمل الوحيد المترجم من قبل العمري، بل هنالك أعمال أخرى سبقته، جاء ذكرها في مقدمة هذا الكتاب، حيث يقول العمري : " لذلك فهذا الكتاب يلتحق بترجمتنا أو مساهمتنا في ترجمة أعمال سابقة نذكر منها : بنية اللغة الشعرية لجان كوهن، والبلاغة

[1] نفسه، ص : 181، 182 .

[2] المرجع السابق، ص : 185، 186 .

والأسلوبية لهنريش بليث، والاتجاهات السيميولوجية المعاصرة لمارسيلو داسكال "[1] ، وهؤلاء المؤلفون جميعا يمكن اعتبارهم ضمن الدعائم التي قام عليها مشروع العمري .

ومن الجدير بالذكر أن نقول بأن اعتماد العمري على أعمال كل من البلاغيين العرب والغربيين، قد ساهم في انتعاش الدراسات البلاغية العربية، حيث تساوت الدراسات الداعية إلى التجديد انطلاقا من الحجاج، بتلك الداعية إلى التجديد انطلاقا من الشعر، غير أن العمري نفسه، لا يرى الصواب إلا في الجمع بين كل أنواع الخطاب في رؤية واحدة هي: البلاغة العامة .

ولقد كان للعمري صبغة مميزة عن باقي المجددين العرب، تجلّت بالأساس في طبيعة تقسيمه لمراحل تطور البلاغة العربية .

ونحن فيما يلي من هذه الدراسة سنحاول الكشف عن نظرة العمري لطبيعة التجديد في البلاغة العربية، ونظرته لطبيعة التأريخ لها، من خلال فصل نظري تعقبه فصول أخرى تطبيقية، وهي جميعا تُعرض ضمن بابين .

[1] مجموعة من المؤلفين، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة : مُحَمَّد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، 1996م، ص : 05 .

## الباب الأول: تقديم نظري لتصور ومنهج العمري، مع تطبيقاته على البلاغة العربية القديمة

### الفصل الأول: المشروع البلاغي العمري بين التصوّر والمنهج، دراسة نظرية

### الفصل الثاني: دراسة تحليلية في أصول البلاغة العربية عند العمري

### الفصل الثالث: دراسة تحليلية في امتدادات البلاغة العربية عند العمري

## الفصل الأول: المشروع البلاغي العمري بين التصور والمنهج، دراسة نظرية

### المبحث الأول: المشروع البلاغي العمري، والتأريخ للبلاغة العربية

### المبحث الثاني: المشروع البلاغي العمري، والتجديد في البلاغة العربية

### المبحث الثالث: المشروع البلاغة العمري، والمناهج النقدية المتّبعة

نتطرق في هذا الفصل إلى التعريف بتصور العمري لمشروعه البلاغي، والمنهج الذي اتبعه في تفعيل هذا التصور، وهذا تمهيدا للفصول التطبيقية التي سنقدّم فيها دراسات تحليلية تأتي على ضوء ما تضمّنه هذا الفصل، وعليه فإن تصور العمري هو عبارة عن عملين متوازيين، عمل تأريخي يهتم فيه بدراسة مراحل البلاغة العربية، وعمل تجديدي يعرض فيه مفهوم البلاغة الجديدة عنده، ما مكّنه من اكتشاف أهم المشاريع البلاغية التي كان لها دور في تبلور الدرس البلاغي العربي، وأهم الروافد التي انطلقت منها هاته المشاريع، ليصل في الأخير إلى تكوين فكرة عن حال الدرس البلاغي اليوم مفادها أنّه قائم على نصوص منتزعة من النسق، وشواهد في شكل قوالب جاهزة، وهو ما يخالف تماما الصورة الحقيقية للبلاغة العربية، التي هي في رأي العمري بلاغة تقوم على استيعاب كافة أنواع الخطاب الاحتمالي ولا يمكن أن تحصر في تلك الشواهد، ولا حتى في ثلاثة علوم هي: المعاني، والبيان، والبديع، وهذا التصور الذي انبنى عليه مشروع العمري هو الذي نستشفه من خلال قوله: " لقد قادني البحث في موقع الموازنات الصوتية من الرية البلاغي في عمل سابق مطبوع، إلى تكوين تصوُّرٍ عام عن مسارات البلاغة العربية، وخلفياتها الفكرية والأيديولوجية، كما قادني إلى اكتشاف الفروق بين المشاريع والمنجزات، وما يؤدي إليه ذلك من تضارب بين منطوق نصوص من المؤلف البلاغي الواحد، وبدأ يزعجني ما أسمعه في الندوات العلمية من استشهادات بنصوص منتزعة من النسق، لا نعدم في المؤلَّف الذي أخذت منه ما ينقصها أو يخالفها مخالفة صريحة، ولذلك كان من بين همومي الموجهة حين تصدّيت لإعادة تأريخ البلاغة العربية استخراج أنساق المؤلفات في حوار بين المشاريع والمنجزات "[1] .

هذا وسنتناول بين ثنايا هذا الفصل ثلاثة مباحث نتعرّف من خلالها على تصور العمري، القائم على التأريخ والتجديد معا، ومن ثم المنهج الذي استعان به في تحقيق مسعاه من هذا التصور .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 14 .

## المبحث الأول: المشروع البلاغي العمري والتأريخ للبلاغة العربية:

تعود فكرة التأريخ للبلاغة عند مُحَمَّد العمري من خلال اطلاع هذا الأخير على عَمَلِ مُؤَرِّخَيْن جليليْن جديرين بالذكر، وهما المؤرخ المصري شوقي ضيف في كتابه " البلاغة تطور وتاريخ "، والمؤرخ التونسي حمادي صمود، في كتابه " التفكير البلاغي عند العرب "، غير أنه لم يسر على منوالين الرجلين في التأريخ رغم ثنائه الكبير على عمليهما، وهو ما نستشفه من خلال قوله: " وعلى هذا الأساس، فإن عملنا لا ينسخ، بأي معنى من المعاني، أي عمل سابق عليه، ولا يعتبر نفسه بديلا يغني عن غيره، وقصارى ما يطمح إليه أن يكون خطوة في السعي لكتبة تاريخ شامل للبلاغة العربية، وأُشَدِّدُ – يقول العمري – على عبارة السعي، وقد سبقته أعمال مهمة، ولكنها قليلة، مثلت في نظرنا مرحلتين متمايزتين هما: مرحلة السرد التاريخي وتلخيص محتويات الكتب: وأحسن من يمثلها في حدود اطلاعنا إن لم يكن ممثلها الوحيد: البلاغة تطور وتاريخ، للعالم الكبير شوقي ضيف، الذي أعتبره مدرسة قائمة الذات، مدرسة التمهيد ( ... ) وأكمل عمل يطمح لتقديم رؤية عامة شاملة عن البلاغة العربية في هذا الإطار هو أطروحة حمادي صمود : التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس ( مشروع قراءة ) "[1] .

ولقد كان من ثمرات عمل العمري في الجانب التأريخي، تأليفه لكتاب " البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول "، الذي يقسِّم فيه البلاغة العربية إلى أربعة مراحل، لا اعتبارَ فيها لأسبقية هذا المؤلِّف على ذاك، وإنما كان الاعتبار فيها لما احتواه هذا المؤلَّف أو ذاك، وهو ما يسمّيه العمري بـ" الانتقال من التعميم إلى التخصيص "، وهو أيضا ما ينحصر في مفهوم المشاريع والمنجزات، بخلاف مفهوم الفترة الزمنية، حيث عمل على تَتَبُّعُ مراحلِ تطوُّرِ الدِّارساتِ البلاغيةِ مِنَ المرحلة الأولى التي كانت البلاغة فيها تُعنى بكل ما هو عام، إلى بقية المراحل التي أضحت البلاغة فيها تنتقل من تخصيص إلى تخصيص، حتى وصل بها الأمر إلى مرحلة الجمود والانحطاط .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 10،09 .

يقسّم العمري تاريخ البلاغة العربية إلى أربعة مراحل هي: مرحلة " النشأة " ، ثم مرحلة " البلاغة والفصاحة "، ثم مرحلة " البلاغة علم الأدب "، ثم مرحلة " الانحطاط "، ومما يميّز عمَل العمري في التأريخ للبلاغة هو أنه رَبَطَ اِسمَ كلِّ مرحلةٍ بالعلم السائد فيها، باستثناء المرحلة الأولى والرابعة، لخصوصية كلٍّ منهما، ففي الأولى لم تكن البلاغة قد عَرَفَتِ النضج بعدُ لتصير علما مستقلا بذاته، لذلك اعتمد العمري الوصف السائد والمعروف لدى جميع المؤرخين، ألا وهو: " مرحلة النشأة "، وأما في المرحلة الرابعة فإنها لم تعرف أيّ تطوّر ملحوظ للدّرس البلاغي، بل كان الركود السمة البارزة فيها، مما جعل العمري يصفها بمرحلة الانحطاط، وبخصوص المرحلة الثانية فقد وصفها العمري بمرحلة البلاغة والفصاحة، لكونها ترتبط بعمل كل من الجرجاني والخفاجي، وقد أشرنا في المدخل إلى أنّ الجرجاني اهتم بالمعاني والبيان، والخفاجي اهتم بالبلاغة الصوتية ( أي الفصاحة )، في حين وصف العمري المرحلة الثالثة بالبلاغة علم الأدب لوجود السكاكي فيها، وهو الذي سعى إلى إيجاد بلاغة تخدم علوم الأدب كلّها .

وفيما يلي سنتناول بالتفصيل مراحل تطور البلاغة العربية الأربعة، عند مُحَمَّد العمري ضمن أربعة مطالب بحثية .

**- المطلب الأول: مرحلة النشأة**

بالنسبة لمرحلة النشأة، فقد بدأها العمري بالحديث عن البديع لابن المعتز(296هـ)، نظرا لأسبقية هذا الأخير في اكتشاف هذا العلم، كما يقول ابن المعتز نفسه: " قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدّمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليعلم أنّ بَشَّارًا ومُسْلِمًا وَأَبَا نُوَّاسٍ ومن تقيّلهم * وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم ... "[1]، وإضافة إلى قول مؤلف الكتاب يقول مُحقِّقه عرفان مرطجي: " والحقيقة أنّ علم البديع مرّ – منذ أن

* تقيّلهم : بمعنى تشبّه بهم .

[1] عبد الله بن المعتز، البديع، تح: عرفان مرطجي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1433هـ/2012م، ص : 09 .

اكتشفه اِبن المعتز وحتى اليوم – بمراحل عديدة، فكان ككرة الثلج كلما درات بها الأيام كلما ازدادت ضخامة شأنَ أيّ علم مستحدث "[1] .

وهذا الرأي من شأنه أن يعزز عمل العمري في اعتباره أن مرحلة النشأة تبدأ بعمل ابن المعتز في بديعه، نظرا للتأثير الكبير الذي خلّفه عمل ابن المعتز على الدراسات البلاغية العربية، والتغيّر الملحوظ الذي طرأ على البلاغة مقارنة بما كان من قبل، فقبل ابن المعتز كانت لفظة بديع، محصورة في معناها المعجمي فقط، فهي تدلّ على الشيء المبتكر، أو المخترَع، أو ما يقارب هذا، كما جاء في لسان العرب، أنّ " البديع والبدعُ: الشيء الذي يكون أوّلا، وفي التنزيل: ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ [الأحقاف: 09]، أي ما كنت أوّل من أُرسل (...) وفلا بِدْعٌ في هذا الأمر أي أوّلٌ لم يسبقه أحد، والبديع: المحدَثُ العجيب، والبديع: المبدِعُ، وأبدعتُ الشيء، اخترعته لا على مثال . والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إيّاها، وهو البديع الأوّلُ قبل كل شيء، ويجوز أن يكون بمعنى مُبدع أو يكون من بَدَعَ الخلق أي بدأه، والله تعالى–كما قال سبحانه وتعالى– ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ [البقرة: 117]، أي خالقها، ومُبدِعُها، فهو سبحانه الخالق المخترِعُ لا عن مثال سابق، قال أبو إسحاق: يعني أنه أنشأها على غير حذاء ولا مثال؛ إلاّ أنّ بديع من بدع لا أبدع، وأبدع: أكثرَ في الكلام من بدع، ولو استعمل بَدَعَ لم يكن خطأ، فبديع فعيل، بمعنى فاعل، مثل قدير بمعنى قادر، وهو صفة من صفات الله تعالى لأنه بدأ الخلق على ما أراد على غير مثال تقدّمه "[2]، ومع مجيء ابن المعتز صار البديع تحمل مدلولا آخر يعادل مفهوم البلاغة في عصرنا، ومعنى هذا أنّ المتحدّث عن البديع في عصر ابن المعتز إنما يتحدّث عن البلاغة كلّها، وهذا ما جعل العمري يبدأ بابن المعتز في الحديث عن نشأة البلاغة .

هذا ومن جهة أخرى، يرى العمري في كلمة البديع، بأنها [ أول كلمة تربّعت فوق مجموعة من المصطلحات المرصودة لوصف الخطاب من زاوية الخصوصية التعبيرية، وظل مصطلح " بديع " يتغذى من النقد التطبيقي والخصومات الأدبية، أكثر من أربعة قرون، موسعا دائرة نفوذه لتضم كل

[1] عبد الله بن المعتز، البديع، ص : 06 .

[2] ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، باب الباء، تح: نخبة من المتخصصين، دار الحديث، القاهرة، مصر، طبعة 1434هـ-2013م، ص: 352 . (نسخة ورقية)

صور التعبير ووجوهه اللسانية، غير عابئ بمقامات القول ومقاصده، أي بالأبعاد التداولية للخطاب، إلى أن ظهر مفتاح العلوم للسكاكي فوجدناهُ (أي البديع) يزاح عن موقع السيادة والهيمنة ويُنقل إلى الهامش، ونظرا لأنّ المفهوم القديم لكلمة بديع لم يتوقف، ولم يُخل الساحة، برغم المنافسة، فقد أصبحنا أمام مفهومين للبديع: مفهوم كلي يضم كل صور التعبير اللسانية، ومفهوم جزئي (عند السكاكي) يضم الصور غير المنضبطة لتعريف المعاني والبيان اللذين اِقتسما أرض البلاغة، وهنا عمّم مفهوم التحسين والمحسن على صور البديع، في حين كان نعت محاسن الكلام عند اِبن المعتز يعني ما ليس من البديع ][1] .

كما تناولت مرحلة النشأة أيضا عمل الجاحظ في " البيان والتبيين " ، وابن وهب في كتابه " البرهان في وجوه البيان "، ولقد وضعهُمَا العمري ضمن المرحلة الأولى، لمساهمتهما في وضع أسس علم البيان ، بالموازاة مع بديع ابن المعتز الآنف الذكر، وعن دور كل من الجاحظ وابن وهب في هاته المرحلة يرى العمري بأنّ الجاحظ تدرّج من "كلمة بيان إلى كلمة بلاغة، ومن كلمة بلاغة إلى كلمة خطابة، وهذا ما لم يستسغه ابن وهب، فاستأنف العملية في كتابه البرهان في وجوه البيان، في ظروف أخرى رجحت كفة المكتوب والمعرفي على الشفوي الإقناعي، ومن خلال عمله أمكن إدراك مشروع الجاحظ وفهمه فهما جيّدا "[2] .

وما يُفهم من قول العمري هو أنّ الجاحظ عمل على اكتشاف البلاغة الشفوية، في حين اكتشف ابن وهب البلاغة الكتابية، فكان عمل ابن وهب تكميلا لعمل الجاحظ .

هذا وتجدر الإشارة إلى أنّ العمري لم يقتصر في تأريخه على مرحلة نشأة البلاغة العربية وحدها، بل تطرّق أيضا إلى نشأة البلاغة اليونانية، حيث يقول: " فكلمة بلاغة ظهرت في تاريخ وصف الخطاب في اللغة العربية في الحقل نفسه الذي ظهرت فيه في الريطورية ( الخطابية ) عند اليونان وهو الخطابة، ولا يتعلق هذا الاستنتاج بقضية الأثر والتأثر والتبعية والأسبقية، بل يتعلق بطبيعة الخطاب نفسها "[3] .

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 36 ،37 ( بتصرف ) .

[2] نفسه، ص : 39 .

[3] نفسه، ص : 40 .

ونحن نعتقد أنّ حديث العمري عن البلاغة اليونانية، لاعتباره أنّ البلاغة اليونانية تعدّ أصلا من أصول البلاغة العربية، كم أنّه أراد بهذا الطرح أنّ يشير إلى كون البلاغة العربية ظهرت في الحقل نفسه الذي ظهرت فيه البلاغة اليونانية وهو الذي جعل البعض يتوهّم بأنه لولا اليونان لما نشأت البلاغة العربية، ولكن الحقيقة أنّ البلاغة العربية كانت منفردة في نشأتها دون أن ننفي تشابه النشأتين، وتأثير البلاغة اليونانية فيما بعد .

ولقد يتساءل البعض: لماذا قدّم العمري عمل ابن المعتز على الجاحظ، مع أسبقية الجاحظ في التأليف ؟

والجواب عن هذا السؤال في رأينا، هو كون الجاحظ درس البيان بمفهوم يوازي البلاغة الإنسانية عامّة، أي بلاغة العرب وغير العرب، ولذلك نجده يتحدّث في البيان والتبيين عن البلاغة عند اليونان، والرومان، والهنود، والفرس ... الخ، وأما ابن المعتز فقد درس علم البديع بمفهوم يوازي البلاغة العربية وحدها، مما يجعل عمله أكثر دقّة ومصداقية من عمل الجاحظ .

**المطلب الثاني: مرحلة الفصاحة والبلاغة:** وفي هاته المرحلة تسلك البلاغة مسلكا جديدا، يتميز بالدقة في الدراسة، والضبط الجيد للمصطلحات والمفاهيم المؤسسة، وهذه المرحلة توازي مرحلة الازدهار عند شوقي ضيف [*]، وقد كان الحظ الوافر فيها من نصيب عبد القاهر الجرجاني، وابن سنان الخفاجي، اللذان إعتمد عليهما العمري كثيرا في دراسة هذه المرحلة، خاصة وأنّ المرحلة عنده تبدأ مباشرة بعد القرن الخامس الهجري، وهو الزمن الذي عاشا فيه بالضبط .

وإضافة إلى تميّز هذه المرحلة بالدقة، تميّزت أيضا بتأثير الخلفيات المذهبية عليها، التي عرفت إنتشارا واسعا مع منتصف القرن الخامس الهجري، وبالرغم من الدقة التي امتازت بها البلاغة، إلا أنها – وقُبَيْلَ هَذَا العَصْرِ بِقَلِيلٍ – لم تكن قد نضجت تمام النضج، ولم تقدر بعدُ على استيعاب جميع أنواع الخطاب الاحتمالي، وهو ما ذهب عنه العمري باعتباره أنّ البلاغة العربية، " وإلى حدود القرن الخامس الهجري، لم تكن قد بسطت نفوذها بعدُ على كل الأراضي التي فتحها أعوانها في مختلف أقاليم الخطاب: شعر، خطابة، كتابة، باعتبارها الحاكم العام المقبل لأرض البلاغة

[*] ينظر : شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص : 160 – 265 .

"[1]، فأما الإقليم الأول، إقليم الشعر، فإن الحاكم له هو الجرجاني، من خلال كتابه " أسرار البلاغة "، ولذلك يذهب العمري إلى أنّ " كتاب أسرار البلاغة، وبرغم كونه أوّل كتاب يطرح سؤال الهوية، هوية الخطاب البليغ، فإنه كان محكوما بتوجهه إلى الشعر، أو لغة الشعر، ومن البيّن أنّ المفهوم الذي أراد الجرجاني تعميمه قد مارس الإقصاء على عدة مستويات، وذلك باقتصاره على الشعر ثم على الجانب الدلالي منه، ثم على صور معدودة من الجانب الدلالي لا شك أنها مهمة ولكنها ليست كل شيء، وهي التشبيه، والتمثيل، والاستعارة ( أما المجاز فقد تناوله كحاجة تتطلّبها دراسة الاستعارة ) "[2] .

لكن العمري سرعان ما اِسْتَدْرَكَ الأمرَ في إطلاق الحكم على الجرجاني، حيث رأى بأنَّ النقص الذي اِعْتَرَى عمل الجرجاني بسبب الاقتصار على الشعر فقط دون الجانب الخطابي، قد تم تجنُّبه من خلال التطرق إلى المناسبة التداولية، والتي يضعها العمري وصفا لكتابه " دلائل الإعجاز "، وسنتناول هذا المصطلح في حينه إن شاء الله تعالى .

ومما يستدل العمري به على أنّ البلاغة العربية قبل القرن الخامس الهجري لم تكن مضبوطة من الجانب الاصطلاحي على الرغم من جهود العلماء الذين عُرفوا في تلك الفترة، هو مجموعة التعريفات التي يضعها هذا العالم أو ذاك في معنى الفصاحة، أو البلاغة، أو البيان، وفي هذا يقول: " من مظاهر اِستمرار الغموض في المجال المصطلحي إلى حدود القرن الخامس الهجري قول الجرجاني، في أول دلائل الإعجاز: ما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، لا يكشف عن مغزاها والمراد منها بوضوح، بل هو أقرب إلى الرمز والإيماء، والإشارة ... والتنبيه على مكان الخبيء ليُطلب، وقصارى الأمر الإشارة إلى أن هناك نظما وصياغة وتصويرا ونسجا وتحبيرا بدون تدقيق للمفاهيم والحدود "[3]، أما بعد الوصول إلى القرن الخامس فقد بدأت تدخل في مرحلة ضبط المفاهيم على الرغم من تأثيرات الجانب المذهبي عليها، وهو ما نستشفه من قول العمري: " لقد كانت محاولة تدقيق مفهوم البلاغة في هذا العصر ( القرن الخامس الهجري ) محكومة باعتبارات عقائدية تتعلق من جهة بطبيعة الكلام (كلام الله ) في تصور كل من المعتزلة والأشاعرة؛

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 41 .

[2] نفسه، ص : 41 .

[3] نفسه، ص : 42 .

هل هو أصوات مسموعة أم معان ذهنية متصورة ؟ فتبعا لذلك ينبغي أن تكون البلاغة فيما هو جوهري ( أي ما يحدد طبيعة الكلام ): في المعنى عند الجرجاني ( مشروعا ومنجزا ) وفي الأصوات في مشروع اِبن سنان، لا في منجزه، لقد كان مشروع عبد القاهر عميقا في حفره في مجال المعاني والمقاصد على حساب الإيقاع والمقامات والقيم الثقافية ( الأغراض )، وكان مشروع اِبن سنان أكثر شمولية واستيعابا لمكونات الخطاب الكلاسيكي الشعري والخطابي : المكونات اللسانية وغير اللسانية "[1].

وهنا يتّضح الفرق الجوهري بين الجرجاني والخفاجي عند مُحَمَّد العمري، فالأول اِمتاز عمله بالدقة، وأما الثاني فقد اِمتاز بالشمولية، وكان الجامع بينهما يكمن في أنّ لكليهما خلفية عقائدية إما أشعرية، أو معتزلية، ثم إنّ البلاغة عند الجرجاني تتحقق من ناحية المشروع والمنجز معا، أما عند اِبن سنان فهي تتجسد من خلال المشروع فقط .

ونظرا لأهمية ما جاء به كلٌّ من الجرجاني والخفاجي، فقد أولاهما العمري عناية بالغة، في الجانب التأريخي للبلاغة، خاصة وأنه قد أشار في أكثر من مرة إلى الخلفية المذهبية لكليهما في التأليف، وهو ما لا نجده إلا عند هذين البلاغيّيْن، فالجاحظ، على سبيل المثال، وإن كان معتزليا، إلا أنّ مؤلفاته لا توحي بأنه يريد أن يخدم مذهبه، ولعل أهم ما يميّز أعمال الجاحظ، كالبيان والتبيين، أو البخلاء ... الخ، هو الانتصار للقومية العربية ضد الشعوبية وتياراتها، وأما عن الخفاجي، والجرجاني، فإنّ " الاعتبارات المذهبية -كما يقول العمري – قد وقفت وراء ظهور تصورين متعارضين للبلاغة كان لهما أثر كبير وحميد في إغناء البلاغة العربية هما تصور ابن سنان الخفاجي الذي لم يُكتب له أن يَرُوجَ، وتصور عبد القاهر الجرجاني، وهما تصوران يتقابلان تقابلَ تعارضٍ إنجازا ومرجعية ومادة "[2]، وهذا التقابل الذي يتحدث عنه العمري هو الذي ترجمه فيما بعد بالجدول التالي:

| | المرجعية المذهبية | المادة المعرفية المميزة | المرجعية المشتركة | النواة النظرية |
|---|---|---|---|---|

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 43، 44 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 318 .

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الجرجاني | أشعرية : " الكلام النفسي " | – مجاز القرآن والنحو (أبو عبيدة)+ شجاعة العربية (ابن جني) | القاضي عبد الجبار : المادة والتحليل + تشغيل بعض المفاهيم الأرسطية) | 1– المفارقة الدلالية . 2– المناسبة التداولية . |
| ابن سنان | معتزلية (الكلام أصوات مقطّعة) | بلاغة الإقناع : الإلقاء (الجاحظ) | القاضي عبد الجبار : الموقف المذهبي | 1– الصحة والمناسبة العامة |

**– المطلب الثالث: مرحلة البلاغة علم الأدب:** تعرّفنا في المرحلة السابقة على عَلَمَيْن جَلِيلَيْن من أعلام البلاغة العربية هما الجرجاني والخفاجي، وقد أشرنا في خضمّ تلك المرحلة إلى مدى تأثيرهما على تطور البلاغة، على الرغم من اختلاف التوجه المذهبي لكل منهما؛ وها نحن الآن مع هاته المرحلة نتعرّف على علميْن آخريْن لا يقلاّن أهمية عن الجرجاني والخفاجي هما أبو يعقوب السكاكي و حازم القرطاجني [*]، ذلك أنّ لكليهما أيادٍ معروفة وأعمالٍ مشهودة في تراثنا البلاغي .

إنّ أهم ما يميز الدرس البلاغي في هاته المرحلة هو ظهور الحجاج على الساحة، وتصدُّره للمشهد البلاغي، حتى أنّ العمري جعله في مرتبة موازية لعمود الشعر، وقد وصف عمل الحجاج في البلاغة العربية بأنه تخليق لها، ثمّ سَمَّاهُ عمود البلاغة، وفي هذا يقول: " اشتُهر الحديث في التراث العربي النقدي، عن " عمود الشعر "، وقد أقيم ذلك العمود وثبتت أركانه للحفاظ على النمط التقليدي المكتمل للقصيد في وجه حركات التجديد البديعية، أما في المجال الخطابي فلم أسمع الحديث عن " العمود " إلا في القرن السادس الهجري مع ابن رشد، وقد سارت فيه الأمور في

[*] يصف العمري البلاغة عند السكاكي بالبلاغة علم الأدب، ويصف البلاغة عند القرطاجني بالبلاغة العلم الكلي، ولكنه مع ذلك قد وصف المرحلة التي تجمع بينهما بعلم الأدب، مغلبا عمل السكاكي على القرطاجني، والأمر في اعتقادنا راجع إلى أن السكاكي قد نال الحظ الأوفر من الدراسة مقارنة القرطاجني، على الرغم من الانحراف الشديد في فهم بلاغته من لدن الشراح مما ساهم في تدهور الدراسات البلاغية، فالعمري هنا يريد أن يركّز على السكاكي حتى يستطيع من خلاله الانتقال إلى المرحلة الموالية وهي مرحلة الانحطاط، ولو أنه ركّز على القرطاجني لكان الأمر أكثر صعوبة لعدم وجود علاقة تربط بين عمل القرطاجني، والأعمال التي ظهرت في مرحلة الانحطاط .

الاتجاه المضادّ "[1]، ومعنى هذا القول أنّ عمود الشعر الذي ابتكره العلماء في القديم وُضع لِحماية القصيدة من أي تأثير خارجي، في حين جاء عمود البلاغة ليحتوي كل ما هو جديد من شأنه أن يخدم البلاغة العربية، والخطابة على وجه الخصوص، فالحجاج (عمود الخطابة) خدم البلاغة باستخدام العلوم الجديدة، وعمود الشعر خدم البلاغة بمحاربة العلوم الجديدة، أي أن الغاية واحدة وإن اختلفت السبل .

وبخصوص عَلَمَيْ هاته المرحلة، السكاكي والقرطاجني، فإنّ أوّلهما، أي السكاكي، قد سعى بادئ الأمر إلى البحث في العناصر الأساسية التي يتشكّل منها الأدب العربي، وهاته العناصر هي ثلاثة علوم: النحو، والشعر، والمنطق، وبهذا يكون السكاكي في نظر العمري عالما بالأدب كلّه لا بالبلاغة وحدها، كما أنّ العمري يصفه بأبي التصوّر المدرسي باعتبار أنّ علوم البلاغة الثلاثة، المعاني، والبيان، والبديع التي تدرّس اليوم، لم تكن لتنتظم على النحو الذي نعرفه لولا كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، وهذا على الرغم من أنّ السكاكي لم يواز بين البديع وعلمي المعاني والبيان، بل إنه أعطى الأولوية للمعاني والبيان على البديع، وفي هذا يقول العمري: " يعتبر السكاكي أبا للتصور المدرسي الذي استقر للبلاغة العربية من عصره إلى اليوم، ذلك التصور الذي يقسم البلاغة إلى ثلاثة علوم: المعاني والبيان والبديع، هذا مع العلم بأن السكاكي لم يجعل البديع في مستوى واحد مع العاني والبيان، أي لم يعتبره علما، بل مجرد ذيل للمعاني والبيان، يضم صورا تعبيرية لا يجمعها غير كونها ذات طبيعة تحسينية : محسنات لفظية ومحسنات معنوية "[2]، ويقول في نص آخر: " كان السكاكي يبحث عن مكونات علم الأدب، العلم الذي يصون المتحدث من الخطأ في مطابقة الكلام لقواعد اللغة أولا، ثم لأحوال ومقامات المتخاطبين ثانيا، ثم يعطيه حسنا وقبولا ثالثا "[3] .

ونحن نرى أنّ أهم ما يميّز عمل السكاكي هو أنه أعطى تعريفا جامعا مانعا للبلاغة العربية، وصار هذا التعريف هو الأكثر تداولا لدى المتعلمين المبتدئين والباحثين المتمرّسين على حد سواء، بعد تعديل الشراح له؛ وهو ما أشار إليه العمري بقوله: " حين انتهى السكاكي من بلورة علمي

[1] ينظر: مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 50 .

[2] نفسه، ص : 44 .

[3] نفسه، ص : 46 .

المعاني والبيان عرّف البلاغة من خلالهما فقال: " هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها "[1] .

وأما عن عمل القرطاجنّي (ت684هـ) في كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء "، فإنّ العمري قد وصف عمله بـ" العلم الكلّي "، وهذه العبارة مأخوذة من قول القرطاجنّي نفسه، كما يقول العمري: " العبارة المحصورة في العنوان أعلاه لحازم القرطاجني، وهي تفسر ما اِنتهى إليه مشروع السكاكي وهو يحاول رسم حدود الأدب "[2]، وهذا العلم الكلّي يعلو كل صناعات اللّسان الجزئية لكونه قد عُضد من قبل بعلميْ المنطق مع القرطاجني، والنحو مع السكاكي، ليصبح وصف البلاغة هنا هو البلاغة المعضودة بالنحو والمنطق .

وبلاغة القرطاجنّي هي عند العمري بلاغة تعنى بالخطاب التداولي والخطاب الشعري معا، وقد استدلّ على هذا الرأي بقول القرطاجني: " ينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة، الواقعة في الشعر تابعة لأقاويل مخيلة، مؤكدة لمعانيها، مناسبة لها فيما قُصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيّلة هي العمدة، وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكدة لمعانيها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة "[3]، وهذا القول المنسوب إلى القرطاجني يدلُّ على مدى اهتمامه بالخطابين معا، مع ضرورة معرفة مواطن التفريق بينهما، فالشعر، طالما أنه يخاطب العاطفة أكثر من العقل، لابد لصاحبه من أن يراعي دور العاطفة، مع توظيفه لألفاظ فيها شيء من الإقناع، ولابد لهذا الإقناع أن يكون تابعا للجانب التخييلي، أي أنّ التركيز في الشعر يكون على التخييل لا على الإقناع، وأما بالنسبة للخطابة فإنّ التركيز فيها يكون موجّها نحو الإقناع بشكل مباشر ثم على التخييل، والخطيب فيها هو الآخر مطالب إذا ما وظّف ألفاظا تدلّ على التخييل، أن تكون ألفاظه هذه تابعة للألفاظ التي وظّفها في المجال الإقناعي .

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 47 .

[2] نفسه، ص : 56 .

[3] حازم القطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: مُحَمَّد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس 2008م، ص : 326 .

وعلى هذا الأساس يكون القرطاجني قد جمع في بلاغته بين الشعر والخطابة كعنصرين أساسيين، مدعومين بكل ما تُوُصِّلَ إليه في علوم اللسان آن ذاك، كالنحو، والمنطق، والبلاغة معه تستحقّ أن توصف بالعلم الكلي .

ولقد حاول القزويني فيما بعد أن يدفع بعجلة البحث العلمي من خلال كتابه الإيضاح في علوم البلاغة، إلا أنّ تركيزه كان منصبّا على المعاني والبيان والبديع فقط، مهملا بذلك ما أراده السكاكي، فكان هذا سببا مباشرا في انعطاف البلاغة عن مسارها نحو " العلم الكلي "، إلى انحطاطها شيئا فشيئا .

**المطلب الرابع: مرحلة انحطاط البلاغة العربية:** تأتي مرحلة الانحطاط كمحطة أخيرة من محطات تأريخ البلاغة العربية عند العمري، وهي تمثّل مرحلة ما بعد شروح المفتاح، ذلك أنّ هاتيك الشروح، وعلى رأسها شرح القزويني، قد مهّدت الطريق لانتقال الدرس البلاغي العربي من رحابة البحث العلمي واتّساعه إلى ضيق التلقين العائد لبُعد الشُّقة بين البلاغيّ العربي والعقل، واكتفائه بالنقل فقط .

ويمثّل هذه المرحلة كتاب " علوم البلاغة " للمراغي، الذي وصفه العمري بأنه " أشهر كتاب في المجال المدرسي العربي من الخليج إلى المحيط منذ الخروج من شروح التلخيص (...) والعلوم المقصودة فيه هي المعاني والبيان والبديع حسب تصنيف السكاكي وشراحه، وكل ما فعله أحمد مصطفى المراغي هو إضافة مقدمة في الفصاحة مأخوذة عن اِبن سنان الخفاجي، سيرا في النهج الذي بدأه السكاكي "[1]، وبالتالي لا تكون للمراغي ميزة سوى الجمع وإعادة الترتيب لعلوم البلاغة التي وجدها قبله، وهذا هو السبب الذي جعل من المرحلة التي عاشتها البلاغة في عصره توصف بمرحلة الانحطاط عند عامة المؤرخين، ومرحلة التحنيط عند العمري .

وإضافة إلى كتاب علوم البلاغة للمراغي، ظهر كتاب " المنهج الواضح " لحامد عوني، الذي نحا فيه صاحبه نفس النحو، وخاض من خلاله في نفس المواضيع، فلم يزد عن المراغي إلا أنْ غيّر العنوان والألفاظ والأسلوب .

[1] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 58 .

وفي وصف العمري لحال البلاغة في مرحلة الانحطاط يقول: " ثم ظهرت بعد علوم البلاغة والمنهاج الواضح، كتب كثيرة على نفس النمط، تحذوها حذو النعل بالنعل، وغاب ذلك الإشكال الذي عاشته البلاغة العربية بين الخطابين الشعري والتداولي طوال تاريخها .

ومما نتج عن هذا التقليد أنّ " علم المعاني قد فقد حواريته الناتجة عن التفاعل بين التراكيب والمقام عند شراح السكاكي من النحاة الذين لم يتبينوا الإشكال المتوخى من تلك الوصفة المعقدة التي حبكها، فَحَلَّ الحديثُ عن المقولات النحوية محلَّ تخريج الوظائف البلاغية، وهذا الواقع رديف لضعف النظر الفلسفي "[1]، فالعمري يرى أنّ مردّ انحطاط البلاغة يرجع إلى عدم اهتمام شرّاح كتاب " المفتاح " للسكاكي بالجانب الفلسفي، الذي له تأثير بالغ على الدراسات البلاغية، والعزوف عن تخريج الوظائف النحوية إلى سرد المقولات، ما يدلّ عدم فهم عمل السكاكي والقرطاجني حق الفهم، ومن هذا المنطلق جاءت دعوة العمري إلى التجديد في إطار رؤية شاملة لكافة أنواع الخطاب الاحتمالي، وهي الرؤية التي سنتعرّف على مضامينها في المبحث الموالي .

**المبحث الثاني: المشروع البلاغي العمري والتجديد في البلاغة العربية:**

التجديد عند العمري هو بمثابة الوجه الثاني لمشروعه البلاغي، المقابل للتأريخ، وإذا كنّا قد تعرّفنا في المبحث السابق على مراحل التأريخ الأربع عند العمري، فإننا سنتعرّف في هذا المبحث على مراحل أخرى تتعلّق بالتجديد عنده، والتي جاءت في خضمّ المحاولات التجديدية التي عرفتها البلاغة العربية في العصر الحديث والتي حمل لواءها ثلّة من الباحثين في البلاغة والأسلوبية .

ومن هاته المحاولات محاولة عبد السلام المسدّي الذي اعتبر بأن التوجّه الأسلوبي هو التوجه الأمثل للتجديد في البلاغة، وأن الأسلوبية تُعدُّ بديلا يغني بوجوده عن البلاغة القديمة، ووريثا شرعيا لها، فـ " الأسلوبية والبلاغة كمتصوّرين فكريين، تمثّلان شحنتين متنافرتين متصادمتين، لهما تواجد آنيٌّ في تفكير أصوليّ موحّد، والسبب في ذلك يُعزى إلى تاريخانية الحدث الأسلوبي في

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 60 .

العصر الحديث، وإذا تبَنَّينا مسلمات الباحثين والمنظّرين وجدناها تقرِّرُ أنّ الأسلوبية وليدة البلاغة ووريثها المباشر "[1] .

ويشاطره الرأي مُحَمَّد عبد المطلب، الذي قال بِوُجُودِ تداخلٍ بين البلاغة القديمة والأسلوبية، إلا أنّ هذا التداخل لا يفي بالغرض في وقتنا هذا، وهو ما يستدعي ضرورة الانتقال إلى الدراسات الأسلوبية ذلك أنها أكثر مقدرة على فهم النقد فهما جيدا على خلاف البلاغة القديمة، ومنه " فمن المؤكد – يقول عبد المطلب – أنه حدثَ تداخلٌ بين اختصاصات البلاغة القديمة والأسلوبية الحديثة، غير أنّ البلاغة لم تعد قادرة على الاحتفاظ بكل حقوقها القديمة، التي كانت تناسب فترة معينة من ماضينا، والتي يجب على الباحث في الأسلوبية أن يضعها في اعتباره، وأن يحاول تعميقها على ضوء المناهج الجديدة، وبهذا يمكن للنقد أن يتّصل بالأسلوبية في محاولة الكشف عن المظاهر المتعددة للنص الأدبي "[2]، وهذان الرأيان معا، وإن لمّحا بوجود علاقة ضمنية بين البلاغة والأسلوبية، إلاّ أنهما انتصرا في النهاية إلى التوجه الذي يرى بأنّ الأسلوبية هي البديل الحقيقي عن البلاغة والوريث الشرعي لها .

ويرى مُحَمَّد مشبال بأنّ البلاغة الجديدة تكمن في الاهتمام بالجانب الحجاجي أكثر من الأسلوبي، دون إقصاء كلّي للأسلوب، وهو بذلك يصبح أقرب ما يكون إلى مفهوم امبراطورية البلاغة عند بيرلمان، الذي بنى نظريته على اعتبار الحجاج هو البلاغة الجديدة، وهذا الأمر يؤكّده الباحث حسن كتانة، في قوله: " وخلاصة القول إنّ البلاغة في مشروع مشبال نظرية نصية رحبة ومنفتحة، تتّسع لكل الخطابات سواء منها الإقناعية أو التخييلية، كما أنّها في الآن ذاته ممارسة نوعية لمتطلّبات ومقتضيات الأجناس والأنماط الخطابية، وإن البلاغة بهذا التصور تتجاوز مجرّد العكوف مع الهم الأسلوبي وشغف التحسيس لتعانق آفاق تحليل الخطاب ومتعلقات السياق والمقام، وقضايا التلقي والتفاعل والاستجابة وردود الفعل، مثلما تعانق قضايا النفس والأخلاق

[1] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثالثة، 1982م، ص : 52 .

[2] مُحَمَّد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، دار نوبار للقراءة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1994م، ص : 354 .

والمعرفة والمجتمع، الأمر الذي يجعل البلاغة بتعبير شاييم بيرلمان،إمبراطورية تهمين وتشرّع لنفسها الخوض في كل شيء "[1] .

ومن وجهة نظر ثالثة، يرى الباحث التونسي عبد الله صولة بأنّ التوجه الأمثل للبلاغة الجديدة في هذا العصر هو اعتبار البلاغة بلاغات، كما يقول روبول، منتقدا بذلك التوجه الحجاجي والتوجه الأسلوبي معا، ففي كتابه: " في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات "، تحدث الكاتب مطوّلا عن كتاب بيرلمان وتيتكا، " مصنف في الحجاج – البلاغة الجديدة "، معتبرا أنّ " نظريتهما تركّز على جانب الظفر بالحجة أو مصادر الأدلة L'inventio أكثر مما تهتم بجمالية العرض اللغوي أي الأسلوب L'élocutio وهو ما أدى في الغرب إلى ظهور بلاغة الحجاج التي تشدد على مصدر الحجة ونوعها إلى جانب بلاغة الأسلوب التي تشدد على مظاهر الجمال في الكلام وعلى الوظيفة الشعرية فيه، شأن بلاغة جاكبسون وكوهين، والبلاغتان على طرفي نقيض، فكأنّ الحجاج عندهم لا يكون في أسلوب جميل، والأسلوب لا يكون ذا بعد حجاجي "[2]، ويضيف صولة في جزء آخر من كتابه قوله بأنّ " البلاغة الجديدة في العصر الحديث " بلاغات "، كما يقول روبول، لكن يمكن أن نعتبر البلاغة التي جاء بها بيرلمان وتيتيكا هي هذه البلاغة الجديدة كما ينص على ذلك كتابهما الفرعي " مصنف في الحجاج – البلاغة الجديدة "[3]، ويرى بأنّ بلاغة بيرلمان وتيتيكا هي بلاغة منبثقة عن بلاغة قديمة تتمثل في بلاغة اليونان، وأن التجديد ما هو إلا انعكاس عن القديم اليوناني، وفي هذا الشأن يقول عبد الله صولة، " وقولهما – أي قول كل من بيرلمان وتيتيكا – بلاغة جديدة يقتضي وجود بلاغة قديمة وهذه البلاغة القديمة هي بلاغة أرسطو ( أو خطابة أرسطو ) من ناحية، والبلاغة الأوروبية السائدة في القرن التاسع عشر وما قبله من ناحية أخرى "[4]، ولعل هذا الأخير هو أقرب المجددين تنظيرا إلى ما سنعرفه مع العمري .

---

[1] د. حسن كتانة ، ود. آيت بها عبد العزيز، أية بلاغة ؟ دراسة في كتاب : " البلاغة والأدب من صور اللغة إلى صور الخطاب " للدكتور مُحَمَّد مشبال، حوليات الآداب واللغات، جامعة مُحَمَّد بوضياف، المسيلة، المجلد5، العدد2، 20 .

[2] عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2011م، ص : 67 .

[3] نفسه، ص : 71 .

[4] نفسه، ص : 71 .

ولقد أراد العمري لبلاغته أنْ تكون مكمّلة لمجموع تلك الرؤى التجديدية التي أشرنا إليها، جامعا فيها بين الجانبين الأسلوبي والحجاجي معا، ضمن مفهوم جديد هو البلاغة العامة، الذي مرّ فيه بعدّة محطّات اجتهدنا نحن في تقسيمها لثلاث مراحل، هي: مرحلة البحث، ومرحلة الاصطلاح، ومرحلة الاكتمال .

**المطلب الأول: مرحلة البحث / البحث عن بلاغة جديدة:**

إن الإرهاصات الأولى لفكرة التجديد البلاغي العربي، عند العمري، ترجع إلى تأثره البالغ بما هو موجود عند الغرب، ولذلك فإننا نعتبر أن مرحلة البحث تبدأ بالموازاة مع اطلاعه على البلاغة الغربية، وهذا ما يؤكّده الباحث الجزائري بوعافية عبد الرزاق بأن التجديد عند العمري بدأ مع كتابه " في بلاغة الخطاب الاحتمالي " الذي كان ثمرة ونتيجة للاحتكاك بالوافد الغربي وإعادة قراءة فن نثري عربي قديم وهو " الخطابة "، ثم توجه اهتمام العمري بعد ذلك نحو " الخطاب الشعري "، مع عدم قطع الصلة بالخطاب الإقناعي، وذلك في كتبه : تحليل الخطاب الشعري : البنية الصوتية – اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم – الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية – إضافة إلى أعمال أخرى جاءت بالموازاة مع الأعمال البلاغية كتحقيق التراث والترجمة والإشراف على الدوريات المختصة في تحليل الخطاب، إلى أن ظهر كتابه " البلاغة العربية أصولها وامتداداتها "، مكملا له بكتب أخرى مثل : البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، وأسئلة البلاغة وغيرها ... "[1]، وقد انطلق العمري بادئ الأمر من منطقة سماها " منطقة الاحتمال " وهي المنطقة التي يتقاطع فيها التخييل ( وهو الشعر أو الشعرية ) مع التداول ( وهو الخطاب أو الخطابية ) مقدّما بذلك وجهتي نظر مختلفتين، إحداهما ترجّح الفصل بين الشعرية والخطابية والأخرى ترجّح الوصل بينهما .

**1– الفصل بين الشعرية والخطابية:**

[1] ينظر: بوعافية محمّد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة من خلال مشروع محمّد العمري، رسالة ماجيستير، جامعة محمّد لمين دباغين–سطيف2، 2015/2014م، ص : 60، 61 .

أشار العمري في قضية الفصل بين الشعرية والخطابية إلى ما جاء في مقال بول ريكور، تحت عنوان : الخطابية، الشعرية، التأويلية Rhétorique-poétique-herméneutique "، والذي احتجّ فيه على ضرورة الفصل بين الشعر والخطابة للاختلاف المنطقي من جهة، واختلاف الهدف من جهة أخرى، " وبرغم اعترافه بوجود منطقة تقاطع واسعة، تستحق لفظ Région ذا الدلالة الجغرافية القوية، فإن ذلك لا يكفي، في نظره، لجعل هذا الإقليم المشترك عاصمة فيدرالية للشعرية والخطابية "[1]، ويعلل الاختلاف من ناحية المنطق في كون نواة الشعرية تتبلور في العلاقة بين كلمات مفتاحية هي: الإنتاج poiesis والحكي mithos والمحاكاة mimesis والحبكة intrigue، وبهذا يعارض نواة الخطابية التي هي الحجاج، وأما عن الاختلاف من ناحية الهدف فيظهر في كون الشعر يستهدف التطهير، في حين الخطابة تستهدف الإقناع "[2] .

وكان ردّ العمري على ريكور في اعتباره أنّ " التوجه في الفصل بين الشعرية والخطابية، إنما هو متأثر بالنزعة الطليعية الخاضعة للتصورات الأيديولوجية للأدب، والتي وقفت عقبة دون فهم العلاقات بين الخطابة والنص "[3] .

**2- الوصل بين الشعرية والخطابية:** وفيها يشير العمري إلى بلاغيّ آخر هو ميشيل مايير الذي رأى " أنّ بناء بلاغة كليّة يتطلب الخروج من المقابلة القضوية بين الوجود واللاوجود التي بُني عليها تفريق أرسطو بين الشعرية والخطابية "[4]، حيث الشعر " لا وجود يحتمل الوجود، والخطابة وجود يحتمل اللاوجود "[5]، أي أنّ الشعر عبارة عن مجموعة من التخييلات التي لا وجود لها على أرض الواقع، والشاعر حين يتكلّم عنها يكون بصدد استمالة المشاعر لا غير، وفي هذه الحالة لا يجد في الحديث عن الواقع وعن الموجود أيّ عون في تحقيق غرضه، وأما الخطابة فإنها قائمة على مجموعة من الحجج والبراهين المستنبطة في الغالب من الواقع، لأن هدف الخطيب الإقناع ومخاطبة العقل لا

---

[1] محمّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 17 .

[2] نفسه، ص : 18 .

[3] نفسه، ص : 20 .

[4] نفسه، ص : 21 .

[5] conclusin .ya-t-il un fondement possible à l'unite de la rhétorique ?p 255 Miche Meyer . نقلا عن: محمّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 21 .

القلب، إلاّ أنّ تحقّق بعض أقوال الشعراء يجعل من إمكانية وجودها أمرا واقعا، وكذلك عدم تحقّق بعض أقوال الخطباء، المبالغ فيها، يجعل من إمكانية وجودها ضربا من الخيال .

وقد توجهت جهود الباحثين إلى المنطقة المشتركة قصد توسيعها، وتهييئها لتكون موضوع البلاغة العامة .

إذن فهاتان هما وجهتا النظر المختلفتين، اللّتان اِنطلق منهما العمري، معارضا منهما الوجهة الأولى وداعما الثانية، لكونه يرى أنّ البلاغة لا يمكن أن يفصل فيها بين ما هو شعري وما هو خطابي، حيث يقول: " وقد دعمنا الرأي الثاني بالمناقشة من جهة وبتقديم وجهة نظر البلاغة العربية من جهة ثانية "[1]، ولقد نوّه العمري في خضمّ هذا الطرح بما ذهب إليه أوليفي روبول olivier reboul في كتابه la rhétorique حيث قال: " سنتبنّى نحن حلا ثالثا، لن نبحث عن جوهر البلاغة لا في الأسلوب ولا في الحجاج، بل في المنطقة région التي يتقاطعان فيها بالتحديد، بعبارة أخرى، ينتمي إلى البلاغة بالنسبة إلينا كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كل خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث : المتعة، والتعليم، والإشارة مجتمعة متعاضدة، كل خطاب يقنع بالمتعة والإشارة مدعمتين بالحجاج "[2]، وبالنسبة للبلاغة العربية نوّه العمري في هذا الشأن بعمل حازم القرطاجنّي في " المنهاج "، الذي يعتبره المحاولة التنظيرية الوحيدة في إطار قراءة عمل أرسطو في الشعر والخطابة "[3]، كما يرى أيضا بأنّ " للبلاغة العربية مهدين كبيرين أنتجا مسارين كبيرين: مسار البديع يُغذِّيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة "[4]، وعلى هذا الأساس فإن مفهوم البلاغة الجديدة عند العمري يعني أنها تلك التي تجمع بين الجانب الشعري المتمثل في التخييل، والجانب الخطابي المتمثل في التداول، وقد عرّفها بقوله: " علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التأثير أو الإقناع أوهما معا، إيهاما أو تصديقا "[5] .

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 06 .

[2] نفسه، ص : 22

[3] نفسه، ص : 31 .

[4] نفسه، ص : 29 .

[5] نفسه، ص : 06 .

**المطلب الثاني: مرحلة الاصطلاح/البلاغة العامة:**

في هذه المرحلة نتعرّف على المصطلح الذي وضعه العمري لدلالة على مفهوم البلاغة الجديدة عنده، وهو مصطلح كنا قد ذكرناه، وسنقوم الآن بالتطرّق إلى مصطلحات أخرى ثانوية تنضوي تحته .

إن المصطلح الرئيس المقصود في هذا المطلب هو مصطلح " البلاغة العامة "، والذي عَمِلَ العمري من خلاله على تحقيق هدفين، واحد عامّ وآخر خاص، يتعلق الهدف العام بمعرفة موقع البلاغة بين مختلف العلوم الإنسانية، وقد عانت من مشكلة التخلف والانحطاط أيما معاناة، ومن هنا فقد أراد العمري لبلاغته الجديدة ( البلاغة العامة )، أن تساهم في " إخراج البلاغة من حالة الجمود والتحجر التي آل إليها حالها بعد عصور الانحطاط "[1]، ولا يتحقق هذا الهدف إلا بتعميم البلاغة على مختلف تلك العلوم، وأما الهدف الثاني وهو الهدف الخاص فإنه يتمثل في كونها تعمّ الجانبين الخطابي والشعري معا، وهو ما كنا قد شرحناهُ في المرحلة الأولى أي " مرحلة البحث عن بلاغة جديدة "، ومما وُصف به تحديد العمري، أنه " تعيين حدود البلاغة ومجال اشتغالها، حتى تستوعب أنواع الخطاب الاحتمالي من شعر وخطابة، ورواية، وسيرة، وإشهار، ونكتة، ومقامة، ونادرة، وخبر "[2]، وبذلك يتجسد مفهومها في أنها عامّة لكل خطاب، ولكنها لم تقدر على إزاحة مفهوم البلاغة القديمة، المختزلة في المعاني والبيان والبديع، على الرغم من مرور ما يربو عن العقدين من الزمن على طرح العمري لها، والأمر راجع إلى كثرة التأليفات وتراكمها من عهد المراغي إلى يومنا هذا، مما جعل العمري يعيد التذكير بهذا الطرح في كتاب آخر سماه " المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة "، حيث يقول في ذات السياق: " ومع أننا صُغنا تصورنا الجديد للبلاغة، ونشرناه على أوسع نطاق منذ عقدين من الزمن فقد ظهرت الحاجة إلى إعادة التذكير به في كل مناسبة، وإلا تعذّر التواصل مع الآخر الذي يظل مُلصقا بمفاهيم البلاغة المختزلة المتحصنة في

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 74 .

[2] إدريس جبري، البلاغة وتحليل الخطاب، مجلّة فصليّة علميّة محكَّمة، العدد الثالث، 2013م، الدار البيضاء- المغرب، ص 81 .

مقامية خطابية ضيقة "[1] ، وفي هذا الكتاب أيضا، يضيف العمري المصطلحات الرئيسة التي تنضوي تحت مفهوم البلاغة العامة، والتي سنوردها بعد إيرادنا لتعريف العمري لهذا المفهوم .

يقول مُحَمَّد العمري في تعريفه للبلاغة العامة: " حين نقول البلاغة العامة، نعترف ضمنيا بلاغيا ومنطقيا بأنّ هناك بلاغات خاصة تتفرع عنها، ثم يتفرع بعضُ تلك البلاغات عن بعض : تتفرع بلاغة السيرة الذاتية، مثلا، عن بلاغة السرد ( أو السردية )، أو تحديدا عن بلاغة الرواية، وقد أخذت هذه البلاغات أسماء خاصة ومُستقلّة حينا عن جذر ( ب ل غ ) : مثل البديع، وفن الشعر، والصناعتان ( صناعة الشعر وصناعة الكتابة ) ... الخ، ومضافة إليه حينا، مثل " بلاغة الإشهار " و" بلاغة المسرح " و" بلاغة الصورة " ... الخ، والمنطق يقتضيمن هذه الجهة أيضا، أن يكون هناك منسق يخترق هذه البلاغات : البلاغة العامة تستلزم بلاغات خاصة، والبلاغات الخاصة تقتضي بلاغة عامة، والبلاغة العامة تتضمّن عنصرا منسّقا "[2]، فهي " المدخل العام والشامل، الذي يستوعب المداخل الأخرى، يُكَيِّفُها وتُكَيِّفُه، وإلا ما استحق صفة العمومية، البلاغة لا تقبل " الجوار " على نفس الدرجة من السلم إلا مع ما لا يدخل تحت سلطتها، لا تقبل أن تجاورها فروعها "[3]، وأما عن المصطلحات التي تنضوي تحتها فهي خمسة: العنصر المنسّق، محور الاحتمال، محور التأثير، الإنشاء أو النص الجامع، الصورة والحجة، ويمكن تعريفها على النحو التالي:

**أ– العنصر المنسق** : هو الذي يخترق البلاغات الخاصة ويجمع بينها لتكوين بلاغة عامة .

**ب– محور الاحتمال** : هو الذي يمثل منطقة تقاطع التخييل مع التداول ( الشعري مع الخطابي )

**جـ– محور التأثير** : لا يمكن الحديث عن محور التأثير بمعزل عن الاحتمال لما بين المفهومين من تداخل كبير، وإن كان التركيز على خصوصيات أحدهما ممكنا بنوع من العزل المخبري، كالذي فعله كونستانتان سالافاسترو في كتابه : البلاغة والسياسة، خطاب القوة وقوة الخطاب، فهذه

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 12 .

[2] نفسه، ص : 76 .

[3] نفسه، ص : 75 .

الدراسة البلاغية المندرجة ضمن سيكولوجية السياسة مخصصة لرصد الأثر الفعلي للبلاغة في السياسة "[1] .

**د- الإنشاء أو النص الجامع:** كلمة إنشاء تدل على إنتاج النصوص، كل النصوص برغم استعمالها قديما في الكتابة الديوانية، وقد قوي هذا الاستعمال العام استعمالها في البرامج الدراسية للدلالة على إنتاج النصوص المختلفة "[2] .

**هـ- الصورة والحجة:** " الصورة "و" الحجة " مصطلحان أساسيان في بناء البلاغة العامة، كل إجراء مخيَّل فهو صورة، تصديقا لقول الجاحظ والجرجاني، وكل إجراء طُلب به التصديق فهو حجة، تُقبل أو تُرفض، وقد تفقد الحجة صلابتها حتى تصبح صورة، أو اوهى من الصورة، مثل الحوادث التي يختلقها الدعاة والوعاظ، وقد تتقوى الصورة وتصلُب حتى تصبح حجة، أو أقوى من الحجة في مكانها، كما يقع في السخرية والمفارقات، حيث تتجاوز الصورة حدودَ إبطال الحجة إلى التشكيك في كفاءة صاحبها، وذلك بدفع التناقض إلى أقصى ما يمكن حتى يضحك المستمعون من المحاور "[3] .

وتقوم آلية اشتغال الاحتمال على عنصر آخر هو الاختيار، الذي يمثّل العلاقة بين قطبي التخييل والتداول، أو الادعاء، أي ادعاء الكذب مع احتمال الصدق، أو ادعاء الصدق مع احتمال الكذب، وهي صيغة اقترحها مشيل ماييز، التي تلائم قول القدماء: أعذب الشعر أكذبه، والآلية العامة لإنتاج الاحتمال هي " الاختيار " حسب أحوال ومعايير داخلية تنتج لغة ثانوية إلى جانب اللغة الطبيعية، حسب تعبير لوتمان، وعلى هامش المنطق الرمزي حسب بلاغة الحجاج، وعلى هامش الطبيعة بأصواتها وألوانها تتشكل حسب نظرية المحاكاة "[4] .

---

[1] محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 82 .

[2] نفسه، ص : 83 .

[3] نفسه، ص : 84، 85 .

[4] نفسه، ص : 86 .

هذا وبعد تعريفنا للمرحلة الثانية من مراحل التجديد عند العمري، والتي تطرّقنا فيها إلى مفهوم البلاغة العامة، وما ينضوي تحتها من مفاهيم، ننتقل الآن إلى المرحلة الثالثة لنتعرّف على التجديد في شكله النهائي، أي ما يجسّد فكرة المشروع البلاغي ككل .

**المطلب الثالث: مرحلة الاكتمال* /إمبراطورية البلاغة:**

مفهوم الإمبراطورية هو المفهوم الذي أراده العمري وصفا شاملا لمشروعه البلاغي الجديد، واسما للموقع الإلكتروني للمشروع* ، وقد ظهر هذا المفهوم أول مرة مع شاييم بيرلمان كمفهوم يوازي مفهومها عند العمري، فقد جاء في كتاب " التحاجج " لمجموعة من المؤلفين أنّ " هذه البلاغة المتحدّثِ عنها كعلم مُلَخِّصٍ لنظرية الأدب، وشاملٍ لكل أنواع الخطاب الاحتمالي المؤثّر، هي نفسها التي اِنتهى إليها بيرلمان و أولبريشت في بحثهما عن منطق الحجاج، كما جاء في مقدّمة كتابهما المؤسِّس Traité de l'argumentation, nouvelle rhétorique ( مصنّف في الحجاج، البلاغة الجديدة )، وأعاد بيرلمان التنويه بها في مقدّمة كتابه L'empire rhétorique ( اِمبراطورية البلاغة )، وذلك باعتبارها مرجعا مناسبا لبلاغة الحجاج في كلّ المجالات التي يُتوخّى فيها التأثير والتأثر "[1] .

والبلاغة في هذه المرحلة مصطلحات عديدة، تتناول كافة أنواع الخطاب الاحتمالي، وهي: الخطابية، الصورة، البلاغة المعممة، بلاغة السخرية، بلاغة السيرة الذاتية، البلاغة المختزلة، المقام الخطابي، مقام الإنشاء، التأدب والتكسب، الكونية والعندية، وقد عمل العمري على وضع تعاريف لها نوردها فيما يلي:

---

* لا نعني بالاكتمال، اِكتمال المشروع العمري، بل نعني اِكتمال الرؤية التجديدية عند العمري، ووصولها إلى درجة الوضوح، وأما عن المشروع العمري فهو مشروع واسع جدا ولمّا يكتمل بعدُ .

* عنوان الموقع : http //www.medlomari.net موقع الدكتور مُحَمَّد العمري، يعرّف بأعماله العلمية ومساهماته الثقافية، ومُحَمَّد العمري باحث مغربي في البلاغة وتحليل الخطاب . رقم الموقع : 33623 . اِسم الموقع : امبراطورية البلاغة / موقع د . مُحَمَّد العمري .

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، طبيعتُهُ ومجالاته ووظائفه، تنسيق : حمو النقاري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مُحَمَّد الخامس، بالرباط–المغرب، الطبعة الأولى 1427هـ/2006م، ص : 10 .

**1- مصطلح الخطابية بالنسبة للتداول ( قياسا على مصطلح الشعرية بالنسبة للتخييل ):** الخطابية هي ترجمة لريطورية، والتي أشار إليها العمري في قوله : " نقترح ترجمة الريطورية الأرسطية بكلمة خطابية، قياسا على كلمة شعرية، التي بسطت سلطتها في مجال التخييل، موضوع الأولى الخطابة بمعناها العام، وموضوع الثانية الشعر بمعناه العام "[1] .

**2- مصطلح الصورة بالنسبة للتخييل ( في مقابل مصطلح الحجة بالنسبة للتداول ):** والصورة هي ترجمة لfigure ، أما الحجة فهي ترجمة لـ argument ، يقول العمري : " وتبعا لذلك-أي تبعا لمصطلح الخطابية-نقترح كلمة صورة مقابلا لfigure ، وكلمة حجة مقابلا لargument ، باعتبارهما الآليتين الأساسيتين في التخييل (الشعري) من جهة، والحجاج ( الخطابي ) من جهة ثانية "[2] .

**3- البلاغة المعممة:** يشير هذا المصطلح إلى تلك " البلاغات الجزئية التي تدّعي التعميم : بلاغة الشعر وبلاغة الحجاج، وهي بلاغات فرعية تفتقر إلى ما تقدمه البلاغة العامة، وتقوم بداخل هذه البلاغات الفرعية، بلاغات جزئية ملتبسة بين التخييل والإقناع، وقد ضربنا مثالا للبلاغات الجزئية هذه ببلاغة السخرية وبلاغة السيرة الذاتية "[3] .

ويتمظهر هذا النوع من البلاغات أساسا في بلاغتي : السخرية، والسيرة الذاتية [*] .

**أ- بلاغة السخرية:** يرى العمري بأن محاولة إعطاء مفهوم جامع مانع للسخرية هو أمر في غاية الصعوبة والتعقيد، لأنها تختلف من مكان لآخر ومن زمن لآخر، غير أنه أشار إلى بعض محاولات التعريف كمن " يشتغل بالمعنى المعجمي للكلمة في اللغة العربية ثم يستدعي الموقف الأخلاقي أو الديني من ذلك المفهوم فيقع في الحرج، وهناك من يأخذ كلمة إيروني[**] من أصولها الإغريقية واشتقاقاتها في البلاغة الأوروبية القديمة، فيقف عند فهم لساني ضيق، ولكنه متعال يرفض التعامل

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 13 .

[2] نفسه، ص : 13 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 06 .

[*] ومنها أيضا : بلاغة الإشهار، وبلاغة المسرح، وبلاغة الصورة ...الخ .

[**] إيروني أو irony/ironie : ترجمة لمصطلح السخرية ..

مع المفاهيم النقدية الفضفاضة التي هي سند البلاغة ومرجعها، وهناك من يأخذ الكلمة من زاوية فلسفية عدمية معتبرا الأدب مجرد مجال للتجارب والبلاغة مجرد عرض لا يمس الجوهر "[1] ، ويعد الجاحظ أشهر من تناول هذا النوع من البلاغات في الثقافة العربية .

**ب- بلاغة السيرة الذاتية:** يرى العمري أنّ " السيرة الذاتية تكون على محور يمتد من التاريخ إلى الرواية ( أو من التاريخي إلى الروائي )، وهذا المحور هو محور الحدث ( أو الخبر )، الذي يتقاطع مع محور آخر هو محور الوجدان ( أو محور الأثر )، ويمتد بين الشعري والمدهش "[2].

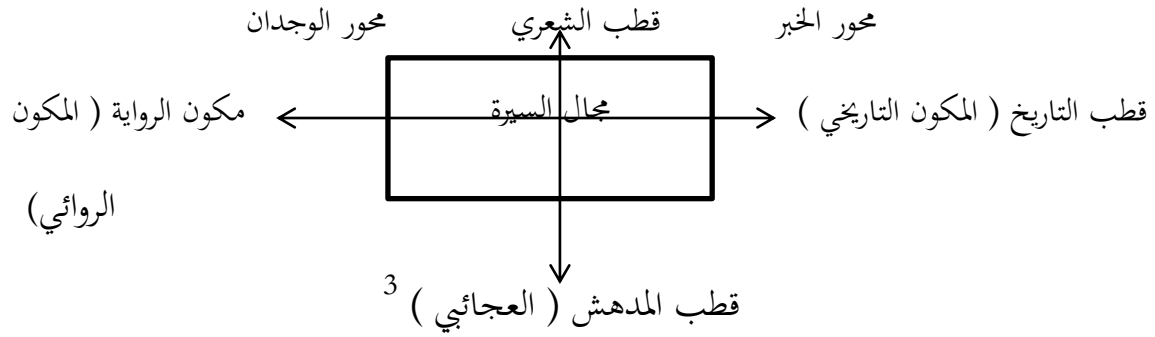

[3]

**4- البلاغة المختزلة:** يُعنى بهذا المصطلح البلاغة التي جاءت بعد السكاكي، حيث يتجلى الاختزال بشكل صريح، إلا أنّ البوادر الأولى له ظهرت منذ القرن الخامس الهجري على حسب قول العمري الذي يرى بأنّ " عملية اختزال البلاغة العربية بدأت مع الجرجاني نفسه، ثم خَطَتْ خطوة واسعة مع السكاكي، وبلغت نهايتها مع القزويني وباقي الشُّراح والملخّصين "[4] .

**5- المقام الخَطابي ومقام الإنشاء:** يتسع المقام ليشمل مجموع الشروط الخارجية المحيطة بعملية إنتاج الخطاب شفويا كان أم مكتوبا، وكثيرا ما اِرتبط " المقام " في البلاغة العربية بزيادة شرح وتحديد، وذلك بالحديث عن أقدار السامعين ومقتضى أحوالهم، والمقام يضيق ويتسع، يضيق حين

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 83، 84 .
[2] نفسه، ص: 141 .
[3] نفسه، ص : 142 .
[4] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 17 .

يقتصر على مراعاة حال المخاطب في لحظة محددة معلومة سلفا للخطيب، ويتسع حين يسع المجال أو الإطار الحضاري المشترك بين الناس عامة أو داخل نسق حضاري ذي طابع متميز "[1] .

**أ– المقام الخطابي التداولي:** إرتبط هذا النوع في البلاغة العربية بمفهوم البيان والتبيين، وهو أحد جناحي البلاغة الذي يفتحها على الأبعاد المعرفية، وهو موجه إلى مستَمع قصد إقناعه بفكرة ما، والمستمع هو المتلقي، وتجد هذا المستوى من المقام في "خطابية " أرسطو المدعوة: تِكْنِي رِيطُورِيكِي، أو الريطوريقا، أو الريطورية، أو فن الخطابة، ولا تجده في كتاب الشعر الذي بني على المحاكاة، وهو الذي حوّل البيان الجاحظي من " منطق " و" نظرية معرفة " إلى " خطابية " تحصر همها في إنتاج خطاب ذي قوة وفعالية إفهامية وإقناعية، وفيه أبدى بيرلمان وأعاد ، وفصّل الطبائع والأبعاد، منتحيا منحًى كتابيا منطقيا جدليا، مبتعدا عن الشفوي والسفسطائي، فقسّم المقام إلى كوني يستهدف التيقين، وخاص يستهدف الإقناع حسب المقامات الخاصة، أي المستمعات "[2] .

**ب– مقام الإنشاء:** المقام الإنشائي، أو مقام الإنشاء، أو المقام البلاغي العام، هو مقام الخطاب البليغ مرتبا في سلم يمتد بين أقصى درجات التخييل وأقصى درجات التصديق، فنحن نعرف البلاغة باعتبارها العلم الذي يتناول الخطاب الاحتمالي المؤثر المنجز بالاختيار مناسبة أو إغرابا، فقولنا: المؤثر ( المنشئ )، والمتأثر ( المتلقي )، والانعكاسات والأصداء المترددة، أو المحتملة بينهما؛ وهذه المهمة إن كانت سهلة في التداول الخَطابي فليست كذلك في التخييل الشعري حيث النزوع الذاتي الوجداني للشعر يلامس المقام الهامشي، أي منطقة الهذيان، منطقة الجنون والخَرَف والصبيانية بالمعنى الإدراكي المعرفي، لا المرضي القدحي "[3] .

---

[1] مُحَمَّد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، فاس–المغرب، العدد/5–خريف–شتاء1991م، ص : 07 .

[2] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 49، 50 .

[3] نفسه، ص : 51 .

**6- التأدب والتكسب:** من خلال العودة إلى المعاجم اللغوية نجد أنّ " تأدّب تأتي بمعنى تعلّم الأدب، ويقال: تأدّب بأدب القرآن، أو أدب الرسول ﷺ أي : احتذاه "[1]، ومعنى تكسّب " فهو تكلّف الكسب، وتكسّب المالَ رَبِحَهُ، يقال: هو يكتسب من الشعر "[2] " ، وقد ساهمت الحركة الرومانسية، والالتزامية الوجودية، والواقعية الاشتراكية ... الخ بتكَسُّبِيّة الشعر العربي واستهجانها، ساهم في ذلك كون كبار الشعراء في العصر العباسي وما بعده من المتكسبين، وقد تأسّف أحمد شوقي من كون تسعة أعشار ديوان المتنبي في المدح التكسبي ، وكان ينتظر بعد هذه الموجة التي ترتهن وجهاتها بظرفها ( و قد ولى ) ، أن يعاد تقويم المنتوج الشعري العربي القديم تقويما شموليا يميز تبره من ترابه، فيترك ما للتاريخ والعبرة، وما للحياة للحياة، فشعر الحياة هو الوجه الآخر المناقض لشعر التكسب ونشتق من كلام اِبن وهب فنسميه " شعر التأدب "[3] .

**7- الكونية والعندية:** المقصود بهما هو ذلك الوهم - كما وصفها العمري - الوهم الذي ينشأ عن العناد لدى بعض الدارسين ممن يرون أنهم قادرون على بناء بلاغة بالتراث العربي وحده، فَهُمْ " يتحدثون عن العربي الأصيل الذي لم يطْمثه فُرس ولا هند ولا يونان، ثم يحضرونه إلى العصر الحديث ليكون واقيا لهم من البنيوية والسيميائيات والحداثة والتلقي والبلاغة الجديدة ...الخ، ولا يدرون أن من يحتفلون بهم من القدماء مثل الجاحظ والجرجاني وحازم والسكاكي ...الخ ، متشبعون بأفكار أرسطو وأفلاطون وحكمة الهند وتراتيب الفرس "[4] .

ومع إنهائنا لهذا المبحث نكون قد أنهينا الدراسة النظرية لتصوُّرِ العمري لمشروعه البلاغي الجديد، ألا وهو التأريخ للبلاغة العربية وتجديدها، وفي المبحث الموالي سنقوم بتقديم دراسة نظرية تتعلق بالمناهج التي اتبعها العمري في مشروعه .

**المبحث الثالث: المشروع البلاغي العمري والمناهج المتبعة في الدراسة:**

[1] معجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، الطبعة الرابعة، 1425هـ/2004م، ص : 09 .
[2] نفسه، ص : 786 .
[3] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 59 .
[4] نفسه، ص : 64 .

لقد إستعان العمري بأربعة مناهج نقدية لبناء مشروعه البلاغي، وهاته المناهج هي: المنهج البنيوي ، والمنهج التداولي ، والمنهج التاريخي، والمنهج التأويلي (نظرية التلقي)، والتي سنحاول في هذا المبحث التعريف بها وبأهم منظّريها، مع الإشارة إلى مدى حضورها في أعمال العمري .

**المطلب الأول: المنهج البنيوي:**

يرى الباحث العربي عدنان علي رضا بأنّ البنيوية " مشتقة من البنية، وبعضهم يقول : البنائية اشتقاقا من البناء، ونورد تعريفها كما يراها أهلُها ومخترعوها، البنيوية (Structuralism) والبنية أو البناء( Structure )هي مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيّرة يمكن أن ينشأ على منوالها عددٌ لا حصر له من النماذج (...) والبنائيون يبحثون عن النسق العقلي أو المادي، أو القانون الذي يحرّك أو ينظّم الظواهر المحسوسة، وهو الذي يسمونه العلاقات "[1].

ويشتمل مفهوم البنية على ثلاثة مفاهيم أساسية هي: مفهوم النسق، ومفهوم التزامن، ومفهوم التعاقب، على غرار ما تراه يمنى العيد في كتابها " في معرفة النص "، وفيه تشير إلى المفاهيم الثلاثة على النحو التالي: " فمفهوم النسق: يتحدد هذا المفهوم في نظرتنا إلى البنية ككل، وليس في نظرتنا إلى العناصر التي تتكوّن منها وبها البنية، وأما مفهوم التزامن Sychronic فهو من الزمن، أي زمن حركة العناصر في ما بينها في البنية، وتتحرك العناصر في زمن واحد هو زمن نظامها (...) والتزامن يفترض إذًا بنية متكوّنة، منتظمة الحركة، مبلورة النسق، بنيية تعمل بقوانين لها، وهي في خصائصها هذه قابلة للعزل ولكشف نظامها، ولكشف قوانين هذا النظام وحركة تلك العناصر المتعايشة في هذه البنية وفقا لهذا النظام، ومفهوم التعاقب Diachronique هو استمرار البنية نفسها التي تتعرض، بسبب تهدم عنصر من عناصرها، إلى خلل، ثم لا تلبثُ هذه البنية نفسها أن تستعيد نظامها لتستمر به بعد دخول العنصر البديل فيها، فالبنية هذه لا تتغيّر ككل، والتعاقب لا يعني زمن هذا التغير الكلي "[2] .

[1] عدنان علي رضا النحوي، الأسلوب والأسلوبية، بين العَلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، 1419هـ/1999م، ص : 40، 41 .

[2] يمنى العيد، في معرفة النص، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1985م، ص : 32، 33، 34.

وأما عن أعلام المنهج البنيوي، فيُعتبر عالم اللغة السويسري فردنان دي سو سير من أبرز أعلام البنيوية، كما يرى الباحث زكريا إبراهيم الذي يقول: " إنّ الذي لاشك فيه أنّ الأب الحقيقي للحركة البنيوية في العصور الحديثة هو العالم اللغوي السويسري، فرديناند دي سو سير ( 1857-1913م )، وعلى الرغم من أنّ أعمال أستاذ اللغويات الكبير بجامعة جنيف لم تُنشر إلا بعد وفاته، إذ قام بنشر محاضراته في علم اللغة بعض تلامذته عام 1916م – استنادا إلى مذكراته وما سجله بعض مستمعيه – وعلى الرغم من أنّ دي سوسير نفسه لم يستخدم كلمة " بنية "، وإنما استخدم كلمة " نسق " أو " نظام "، إلا أنّ الفضل الأكبر في ظهور المنهج البنيوي في دراسة الظاهرة اللغوية يرجع إليه هو أوّلاً وبالذات "[1].

ومن هذا المنطلق فقد حظي دي سوسير باهتمام بالغ لدى مختلف الباحثين والمشتغلين بالبنيوية على الخصوص نظرا لمساهماته العديدة في نشأتها، وهو ما يؤكده الباحث العربي يوسف وغليسي في قوله: " لقد هجر دي سو سير الدراسات اللغوية التاريخية، في شكلها المعروف بـ " النحو المقارن "، الذي انشغل بدراسته وتدريسه ردحا من الزمن، وراح يضطلع بالدراسات الوصفية المنكفئة على النسق اللغوي الآني، التي كان من آلائها أن اغتنى الدرس اللغوي الحديث بثنائيات جديد من طراز : اللغة والكلام، الدال والمدلول، الآنية والزمنية، الوصفية والتاريخية ... وغيرها من الرؤى الألسنية التي شكلت المهد الفكري للمنهج البنيوي "[2] .

وإلى جانب دي سو سير، نجد عالما لغويا آخر هو لوسين غولدمان، الذي " يقدم منهجه النقدي على أنه منهج يطرح " امتيازا مزدوجا في تصور الوقائع الإنسانية أوّلا بطريقة موحّدة، ومن ثمّ في أنه فهمي وتفسيري في آنٍ واحد، لأنّ إلقاء الضوء على بنية دلالية بمؤلف عملية فهمٍ في حين أنّ دمجها في بنية أوسع هو بالنسبة للأولى عملية تفسير "[3]، فالفهم والتفسير هما ركيزتا القراءة

---

[1] زكريا إبراهيم، مشكلة البنيوية، أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، ( ب، ط )، ( ب، س )، ص : 43 .

[2] يوسف وغليسي، البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية العربية، بحث في النسبة اللغوية والإصلاح النقدي، مجلة الدراسات اللغوية، جامعة منتوري، قسنطينة، العدد 6، السنة 1431هـ/2010م، ص : 11 .

[3] لوسين غولدمان، مقدمات في سوسيولوجية الرواية، تر : بدر الدين عرودكي، ص : 238 . نقلا عن : نادية لخذاري، البنيوية التكوينية عند حميد لحمداني ( النظرية والتطبيق )، مجلة دراسات معاصرة، المركز الجامعي بتسمسيلت، السنة 02، المجلد 02، العدد 02، جويلية / يوليو 2018م، ص : 32 .

البنيوية التكوينية، إذ يحقق مستوى الفهم التحليل المُحايث للأثر الأدبي بوصفه بناء لغويّا / تحليليا، أما مستوى التفسير فيقتضي إلحاق البنية الدالّة للنص ببنية اجتماعية ضامّة "[1] .

وعن خصائص هذا المنهج ترى الباحثة حليمة عمارة بأنّ مجموع تلك الخصائص تشترك في خمسة نقاط هي:

1- المنهج البنيوي منهج تحليلي شمولي، إذ أنه يكشف عن العلاقات التي تعطي لعناصر البناء المتحدة قيمة وضعها في كلٍّ منتظم، وهذا يتضمن الشمول والعلاقات المتبادلة .

2- يهتم هذا المنهج بتنظيم التقابلات بدلا من تجميع التشابهات، وهذا ينطبق على الدراسات اللغوية أو علم الأجناس ... وغيرها .

3- يرتكز المنهج البنيوي على دراسة العناصر المكونة للموضوع، وطريقة قيامها بوظائفها وهذا ما يسمى بالتحليل المنبثق، ويترك لمناهج علمية أخرى تناوُل العالم الخارجي والظروف المتشابكة التي تربط هذا الموضوع بغيره من الظواهر الإنسانية .

4- يرى البنيويون أن المنهج البنيوي يتخذ قاعدة " المناسبة " – أي من وجهة النظر التي يدرس منها الموضوع – ركنا من أركانه، فمثلا يمكن ملاحظة شجرة من وجهة نظر رسام تارة، ومن وجهة نظر نجار تارة أخرى، وعالم الطبيعة مرة ثالثة، وفي كل مرة تختلف وجهة النظر عن غيرها .

5- يؤكد المنهج البنيوي على الدراسة التفصيلية لحالات معمقة محددة، وذلك للكشف عن ميكانيزم الواقع وصياغة نماذجه الأصلية الشارحة، أي أنّ المنهج البنيوي ينهض على الاستنتاج أكثر من اعتماده على الاستقراء "[2] .

هذا وبخصوص مشروع العمري، فإننا قد وجدنا المنهج البنيوي حاضرا في أمثلة عديدة منها تحليل العمري لبيت المتنبي الذي يقول فيه:

---

[1] نادية لخذاري، البنيوية التكوينية عند حميد لحمداني ( النظرية والتطبيق )، مجلة دراسات معاصرة، المركز الجامعي بتسمسيلت، السنة 02، المجلد 02، العدد 02، جويلية / يوليو 2018م، ص : 32 .

[2] حليمة عمارة، تأثير رومان ياكوبسون في النقد البنيوي، مجلة التعليمية، جامعة سيدي بلعباس، المجلد 04، العدد 12، ديسمبر، 2017م، ص : 189، 190 .

نَصِيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ * نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ[1]

حيث قام العمري بتقسيمه إلى بنيتين كبيرتين، إحداهما مُوافِقة، والثانية مُخالِفة بالنظر إلى الأولى، على النحو التالي:

بنية موافقة: تتضمّن العبارة المكررة (نصيبك في)، والحرف المكرر (من)

بنية مخالفة: تتضمّن الكلمات المتناقضة معنى لا لفظا: حياتك، منامك، حبيب، خيال .

ومن خلال هذا التحليل استطاع العمري النفاذ إلى مفهوم التقسيم، الذي هو قسيم المبالغة [2]، مستشهدا عليه بقول نصيب [3]:

فقال فريق القوم: لا، وفريقهم: نعم، وفريق قال: ويحك ما ندري

وقد عمل العمري كذلك بالاعتماد على المنهج البنيوي في تحليل الأمثلة الواردة في كتاب " مجاز القرآن "أبي عبيدة (ت209هـ)، ضمن مؤلفه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، حيث كشف التحليل عن العناصر التالية:

1- تداخل الضمائر وتبادلها المواقع:

أ- تبادل بين المفرد والمثنى: مثل (يخرجكم طفلا) في موضع (أطفالا)

ب- الإخبار عن أحد الطرفين أو الأطراف، أو العكس مثل: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) في موضع (ولا ينفقونهما)

جـ- وصف المذكر بوصف المؤنث مثل: (السماء منفطر به) في موضع (منفطرة)

د- مخاطبةُ الغائب مخاطبةَ الشاهد والعكس مثل: (ألم ذلك الكتاب لا ريب) في موضع (هذا الكتاب)

[1] عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، الجزء الثاني، تح: د. يوسف الشيخ مُحَمَّد البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1428هـ/2007م، ص:70 .

[2] ينظر: مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية، ص: 25، 26 .

[3] شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم: د. داود سلّوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، طبعة 1967م، ص: 94 .، وفي هذا الديوان وجدنا قوله: فقال فريق القوم لما نشدتهم * نعم، وفريق: ليمن الله لا ندري .

هـ- اللفظ المشترك بين الإفراد والجمع مثل: (حتى إذا كنتم في الفلك) (الفلك جمع وواحد)

2- اختلاف أوجه الإعراب والقراءات:

أ- الإشكال النحوي مثل: سورة أنزلناها (رفع ونصب)

ب- الإشكال الطباعي (النقط والشكل) مثل: (أإذا ضللنا في الأرض) (أإذا صللنا) (أإذا أنتنا)

3- استعمال اللفظ في موقعه المتوقع، ومخالفة ظاهر القول:

أ- استعمال الألفاظ (الأدوات) في غير المتوقع مثل: (إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) (فما دونها)

ب- مخالفة ظاهر القول مثل: (أتجعل فيها من يفسد فيها) (معناه: معنى الإيجاب أي أنك ستفعل) وهنا خالف ظاهر القول الذي هو الاستفهام المراد في الأصل .

4- الزيادة والنقصان في تركيب الكلام:

أ- التكرار والتوكيد مثل: (رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) (أعاد الرؤية) .

ب- الاختصار والحذف مثل: (تتلقاهم الملائكة هذا يومكم) (ويقولون: هذا يومكم)

5- النقل والإلحاق الدلاليان:

أ- التداخل بين عالم الإنسان وعالم الحيوان والموات مثل: (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده) (هذا من الحيون الذي خرج مخرج الآدميين)

ب- التشبيه والتمثيل (إلحاق) مثل: (شفا جرف هار) (مجاز التمثيل)

جـ- النقل سبب الملابسة والتجاوز مثل: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع) التحويل من المفعول (الشاة) إلى الفاعل (الراعي) لوجود علاقة بينهما [1].

ومن خلال هذه الأمثلة يمكن أن نستدل على مدى توظيف العمري للمنهج البنيوي، والتي أوردنا منها مثالا عن كل عنصر من العناصر تحاشيا للإطالة .

[1] ينظر: مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 96-103 .

وفي كتابه الموازنات الصوتية عمل العمري على استنباط العناصر الثلاثة المكونة للمقوّم الصوتي الإيقاعي في الشعر العربي، مستعملا في ذلك آليات المنهج البنيوي أيضا، معتبرا أنّ البنية الصوتية الإيقاعية في الشعر تتكوّن من ثلاثة عناصر أساسية هي: الوزن والتوازن والأداء .

فمن خلال دراسةِ بنيةِ الكلمةِ اِستطاع العمري النفاذ إلى مدلول هاته المفاهيم على النحو التالي:

أ- الوزن: الوزن المجرّد القائم على المقاطع أو التفعيلات سواء كانت منتظمة أو حرّة .

ب- التوازن او الموازنات: ويتألّف من عناصر لغوية مشخّصة، فهو عبارة عن تردّد الصوامت (التجنيس) والصوائت (الترصيع) اتصالا وانفصالا في مستويات من التمام والنقص حسب تعبير القدماء .

جـ- الأداء: وهو عملية التجسيد الشفوية، حيث يقوم القارئ أو المنشد بتأويل العناصر الوزنية والتوازنية، وما يقع بينها من انسجام واختلاف في تفاعل مع الدلالة اتّساقا واختلافا (التضمين)، وهنا تدخل مباحث التنغيم والنبر والوقف [1] .

**المطلب الثاني: المنهج التاريخي:**

من الممكن القول بأنّ الدراسة التي يقوم عليها المنهج التاريخي هي الوجه المناقض للدراسة التي عليها المنهج البنيوي، ففي حين تدرس البنيوية تغيّر بنية اللفظة الواحدة في الزمن الواحد، يدرس المنهج التاريخي تغيّر الزمن على اللفظة الواحدة، وتأثير هذا التغيّر على مدلولها اللغوي، وفي هذا السياق يرى الباحث السوداني كمال مُحَمَّد بأنّ المنهج التاريخي " يهتمُّ بدراسة التغير في اللغة الواحدة على مدى الزمن، أي أنّ علم اللغة التاريخي يدرس اللغة دراسة طوليّة، كما يعتمد في دراسته على فترات متعددة، وكل فترة فيها دراسة عن الظاهرة التي يراد دراستها في ضوء المنهج التاريخي ودراسة كل فترة على حدة من فترات الظاهرة اللغوية لا تكون إلا بدراسة وصفية "[2]، ويرى إسلام عبد الله بأنّ المنهج التاريخي " قد ظهر كمنهج بحث له أسسه وخطواته في أوروبا في القرن الثامن عشر،

[1] ينظر: مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية، 09-11 .

[2] كمال مُحَمَّد جاه الله الخضر، مدخل إلى مناهج البحث العلمي، الخرطوم، السودان، الطبعة الأولى، 1437هـ/2016م، ص : 41 .

والملاحظ أن مصطلح " المنهج التاريخي " بدأ مع ظهور الدراسات التاريخية للغة، وذلك عندما ترجم ويليام جونز William Jones كتاب " الفيدا " للعالم الهندي بانيني، وكانت تلك الإشارة الأولى للدراسات التاريخية المقارنة، وهذا ما جعل الدرس التاريخي في بدايته درسا تاريخيا مقارنا "[1].

ومن خلال دراستنا لهذا المنهج، تبيّن لنا أنّه يقوم على معرفة الأحداث التاريخية ومعرفة زمان ومكان حدوثها، إما عن طريق الوقائع المتوفرة، أو الاعتماد على الذاكرة الجماعية، أو الآثار المكتشفة، وكل هذا في إطار خدمة اللغة المستعملة في تلكم الحقبة الزمنية ومقارنتها مع ما يشترك معها من اللغات في المكان الواحد، بغية معرفة العلاقة بين اللغة الموجودة اليوم والتي كانت مستعملة من قبل، وَلَا يستثني في ذلك حرفا، ولا كلمة، ولا جملة، ولا سياقا، ما يعني أنه قد يتداخل مع غيره من المناهج، إلا أنه يحمل دائما الطابع التاريخي في الدراسة .

ومن خلال هذا المنهج أيضا، يمكن التعرّف على اللغات المندثرة من العالم القديم، والتعرّف أيضا على أصالة بعض اللغات المعاصرة وعراقتها، وكل هذا يوضح مدى العلاقة الوطيدة بين الدراسات الادبية واللغوية، مع الدراسة التاريخية، هاته العلاقة التي أشار إليها الباحث حسن عثمان في قوله: " والأدب وثيق صلة بالتاريخ، فهو مرآة العصر، وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه، وهو يفصح عن دخائل البشر ويصور أحلامهم وأمانيهم، ويرسم نواحي مختلفة من حياتهم الواقعة، من حياة الأفراد أو الجماعات، ومن حياة المدينة أو الريف، بل ومن النظم، ومن الحال الاقتصادية، ومن العلم والفن، ومن الحرب والسلام، ومن كل ما يقع تحت حس الإنسان ويدخل في نطاق إدراكه أو تصوّره "[2] .

وفيما يخص أعمال مُحَمَّد العمري، فإنّ أول ما يصادفنا من ضمن أعماله المشهورة، ما جاء في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وهو قوله: " إنّ كتابة تاريخ للبلاغة العربية مسألة ملحة اليوم لعدة اعتبارات، نخص منها بالذكر اعتبارين اثنين يستتبعان الاعتبارات الأخرى: اعتبار عام

[1] إسلام عبد الله عبد الغني غانم، مناهج دراسة التراث عند المستشرقين، المنهج التاريخي، المنهج الوصفي، المنهج الأنثروبولوجي نموذجا، مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي بغيليزان، مجلد 04، عدد 2، ديسمبر 2018م، ص : 31 .

[2] حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثامنة، 1964م، ص : 39 .

واقعي وتاريخي يتصل بقلة ما أنجز من الدراسات في هذا المجال سواء كانت استكشافية أو تفسيرية، واعتبار خاص قرائي يتعلق بالمعطيات التي نمتلكها والإمكانات التي نسخرها، وتغير الأسئلة المطروحة على الأدب ... وعلى هذا الأساس فإن عملنا لا ينسخ بأي معنى من المعاني أي عمل سابق عليه، ولا يعتبر نفسه بديلا يغني عن غيره، وقصارى ما يطمح إليه أن يكون خطوة في السعي لكتابة تاريخ شامل للبلاغة العربية "[1]، وهذا القول من شأنه أن يبيّن مدى الاهتمام الكبير الذي أولاه العمري للتأريخ وللمنهج التاريخي في مشروعه البلاغي .

ومما يمكن الاستشهاد به على توظيف العمري لآليات المنهج التاريخي، ما جاء في دراسته لمقام الخطاب في القرن الأول الهجري، في كتابه في بلاغة الخطاب الإقناعي، حيث تطرّق العمري إلى ميزات الخطيب عند أرسطو، ثم مفهوم مقتضى الحال عند البلاغيين العرب، معتمدا في ذلك على ما جاء في صحيفة بشر بن المعتمر الشهيرة، كما ذكر بعضا من الخطباء المشهورين بالإطالة كالنحّار بن أوس العذري .

ومن ثم تطرّق العمري إلى مسألة الاختلاف بين دارسي الخطاب القرآني من فلاسفة وسلفيين، كابن القيّم وابن رشد .

ثم عمد إلى ذكر الأسس المقامية لتطبيق الخطاب، منطلقا من عمل أرسطو مرّة أخرى، حين قسّم الخطبة بين استشارية، وقضائية، واحتفالية، ثم عَمَل البلاغيين العرب كابن وهب، والعسكري، وقد قسّمت الخطابة عندهم بين سياسية، ودينية، واجتماعية، وقد تناول في جميع هاته الأنواع طائفة من أقوال العرب وأشعارها [2].

وعلى هذا الأساس فإنّه من الجدير بالذكر التنويه بأنّ للمنهج التاريخي دور كبير في دراسة العمري لموضوع الخطابة، وهو ما يتجلى في الترتيب الزمني (الخطابة الأرسطية، والخطابة العربية)

وفي كتابه البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، خصّص العمري الفصل الأوّل كاملا لدراسة تاريخ البلاغتين العربية والغربية، ضمن مبحثين اثنين، عنوان الأول: تقاطع التخييل والتداول،

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 09 .

[2] ينظر: مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 29-67 .

وعنوان الآخر: تطوّر مفهوم البلاغة بين التعميم والتخصيص، وقد تضمّن هذا العمل حديث العمري عن مفهوم البلاغة في الثقافة اليونانية Rhétorique-Rhetoric الذي يتردّد بين ثلاثة مفاهيم كبرى هي:

- المفهوم الأرسطي: الذي يخصصها في الحجاج
- المفهوم الأدبي: الذي يجعلها بحثا في صور الأسلوب
- المفهوم النسقي: الذي يسعى لجعل البلاغة علما أعلى يشمل التخييل والتداول معا .

كما تضمّن عمل العمري أيضا، تقسيم تاريخ البلاغة العربية إلى أربعة مراحل هي:

- مرحلة النشأة: الجاحظ وابن وهب
- مرحلة الفصاحة والبلاغة: الجرجاني والخفاجي
- مرحلة البلاغة علم الأدب: السكاكي و القرطاجني
- مرحلة الانحطاط: المراغي وما بعده [1].

**المطلب الثالث: المنهج التداولي:**

يعدّ المنهج التداولي مِنْ بَيْنِ أَكْثَرِ المناهج رواجا في أعمال الباحث العربي، وقد سبّب تباينا كبيرا في وجهات النظر بين مختلف الباحثين، في ترجمتهم له، على غرار ما يراه الباحث المغربي جميل حمداوي الذي قال: " يترجم مصطلح pragmatique بعدة كلمات باللغة العربية، فهناك الذرائعية، والتداولية، والبراكماتية، والوظيفية، والاستعمالية، والتخاطبية، والتبادلية ... لكن أفضل مصطلح في منظورنا، هو التداولية، لأنه مصطلح شائع بين الدارسين في ميدان اللغة واللسانيات

[1] ينظر: مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بني التخييل والتداول، ص: 09-80 .

من جهة، ولأنه يحيل على التفاعل والحوار والتخاطب والتواصل والتداول بين الأطراف المتلفظة من جهة أخرى "[1].

ومن خلال هذا القول يتبيَّنُ لنا أنّ مفهوم التداولية يرجع إلى الترجمة العربية لمصطلح pragmatique الغربي، وهو رديف لعدة مصطلحات أخرى كالذرائعية، والبراغماتية، وغيرها ...، وجميعها تشترك في أمر واحد، وهو العمل على دراسة وسيلة التواصل ( اللغة ) أثناء عملية التواصل سعيا لتحسينها، وعلى غرار ما يراه الباحث الجزائري مسعود صحراوي فإنّ " التداولية ليست علما لغويا محضا بالمعنى التقليدي، علما يكتفي بوصف وتفسير البِنى اللغوية ويتوقَّفُ عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علمٌ جديدٌ للتواصل، يدرُسُ الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج من ثمَّ مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره، وعليه، فإنّ الحديث عن التداولية وعن شبكتها المفاهيمية يقتضي الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة لأنها تشي بانتمائها إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة، كالبنية اللغوية، وقواعد التخاطب، والاستدلالات التداولية، والعلميات الذهنية المتحكمة في الإنتاج والفهم اللغويين، وملاءمة البنية اللغوية بظروف الاستعمال ... الخ "[2]، أي أنّ التداولية لا تُعنى ببنية الكلمة فحسب، وإنما حتى بالسياق الذي وُظّفت فيه، والحال التي اقتضت توظيفها، إضافة إلى ملاءمة الظرف الاجتماعي والمكتسبات القبلية المتعارف عليها ضمنيا بين طرفي الرسالة .

كل هذه الأمور من شأن التداولية، كعلم قائم بذاته، أن يدرسها لضمان تواصل متين بين المرسل والمتلقي .

وعن نشأة التداولية يقول الباحث عبد الملك مرتاض بأنّ هذا المفهوم " نشأ في أمريكا الشمالية أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ويعود الفضل في تأسيسه إلى شارل

[1] جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، شبكة الألوكة www.alukah.net ، ص : 05 . الرابط : https://k-tb.com/book/Arabi09560

[2] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة " الأفعال الكلامية " في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2005م، ص : 16 .

بيرس ( 1839-1914 )، وذلك بين 1865 و1872، وقد عرض بيرس فكرة مفهوم التداولية – أو البراغماتية بلغتها الأصلية – على بعض أصدقائه، وكان من بينهم ويليام جيمس، وقد نشر بيرس بعد ذلك مقالة مما ورد فيها : أن نعتبر ما التأثيرات العلمية التي نعتقد أنّ موضوع تصورنا هو الذي ينتجها ؟ إنّ تصور كل هذه النتائج هو التصور التام للموضوع "، وجاء من بعده جيمس ويليام فطبّق هذا المبدأ البيرسي أوّلا على الديانة، ثم على الفلسفة، وذلك سنة 1898، قبل أن يحوله إلى نظرية للحقيقة، سنة 1906م "[1]، وهو ما يشير إلى قدم هذا العلم عند الغرب من جهة ، وإلى تنوّع الميادين التي تتجاذب معه من جهة أخرى كالدين ، والفلسفة، واللغة، الأمر الذي يوحي بطول المدة الزمنية التي استغرقتها التداولية حتى تبلورت شيئا فشيئا لتظهر على هذا النحو .

هذا ويرى بهاء الدين مُحَمَّد يزيد بأن التداولية " تطوّرت ضمن مجموعة من المقاربات اللغوية، من بينها تحليل الحوار conversation Analysis ، وتحليل النص Text Analysis ، وتحليل الكلام / الخطاب Discourse Analysis ، بوصفها امتدادا طبيعيا لأطروحات النحو الوظيفي Fonctional Grammar ، التي طوَّرها هاليدي 1985م، ومنها أن المعنى ليس فيما يقول النحاة، ولا ما تقول المعاجم، على ما لكليهما من أهمية، ولا في العمليات المعرفية المجرّدة من سياقاتها، لكن فيما يقصد مَن يستخدم اللغة وما يريد، وفيما يفهم من يتلقاها – استماعا أو قراءة – وفيما يُنتَج من دلالات من خلال ظروف السياق، ومن مقدمات التداولية كذلك نظرية أفعال اللغة / الكلام كما طوّرها جون أوستن وجون سيرل، والمبدأ التعاوني ومفهوم التضمين عند بول جرايس "[2]، وهو ما يقودنا إلى الحديث عن الفعل الخطابي بشكل أساسي ومباشر، ذلك أنّ مسألة التواصل بين المرسل والمتلقي تقوم على توظيف الفعل الخطابي المناسب، بالتزامن مع ما تقتضيه الحال، ويطلق على هذا الفعل في التداولية " فعل القول "، يقول مُحَمَّد خولة: " إنّ إدخال مفهوم الفعل الخطابي لإبراز العلاقة الموجودة بين العلامة اللسانية ومستعمليها، ومصطلح فعل القول لـ أوستن 1955م، ونظريات الأداء التعبيري لـ بنفنيست كلها أفكار مهَّدت للدراسات

[1] عبد الملك مرتاض، تداولية اللغة بين الدلالة والسياق، مجلة اللسانيات، المجلد 10، العدد 10، مركز البحث العلمي والتقني في تطوير اللغة العربية، الجزائر، ص : 63 .

[2] بهاء الدين مُحَمَّد مزيد، تبسيط التداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى، 2010م، ص : 20 .

التداولية ( الاهتمام بالعلامات في علاقتها بمستعمليها )، والتي على إثرها أصبح الخطاب عبارة عن إنتاج تفاعلي لسيرورات نفسية معرفية يهدف إلى تحقيق هدف معيّن وترك أثر على السامع "[1]، ففعل القول لأوستين ونظريات الأداء التعبيري لبنفنيست هما الركيزتان الأساسيتان اللتان تقوم عليهما التداولية، ومن خلالهما يمكن تقسيم التداولية إلى درجات على غرار " التصور الذي طرحه هانسون Hanson الذي يهدف إلى توحيد أجزائها وفق درجة تعقد السياق، فميّز بين ثلاث درجات للتداولية وهي:

**1- تداولية الدرجة الأولى:** ومن مباحثها تناول الرموز الإشارية ( التعابير المبهمة ) ضمن ظروف استعمالها معتمدة على السياق الوجودي والإحالي، وهو المخاطبون، ومحددات الفضاء والزمن، وتتجسد مع أعمال براتراند رسل، وبارهيل Barhil ، في معالجة الرموز الإشارية .

**2- تداولية الدرجة الثانية:** ويتعيّن في دراستها مدى ارتباط الموضوع المعبّر عنه بملفوظه، وتناول ما يبلغه المتكلم من مقاصد في الملفوظ، ويدخل في هذا المقام السياق المتعارف عليه من طرف المتخاطبين كحدس، وفي هذه الدرجة يأتي السياق لرفع اللبس عن التراكيب، واهتمت هذه التداولية بقضايا مختلفة أهمها التمييز بين المعنى الحرفي والمعنى السياقي من وجهة نظر سيرل، والمعنى الحرفي والمعنى الموضوعي من وجهة نظر ديكرو، مبدأ التعاون لدى غرايس، وكذلك الاقتضاء ومتضمنات القول .

**3- تداولية الدرجة الثالثة:** وتتمثل في نظرية أفعال الكلام التي قدمها أوستين وكورها تلميذه سيرل، والفعل لا يحدد في ضوء السياق الذي يحدد فيما إذا تم التلفظ الجاد أو الدعابة، أو فيما إذا سُقنا مثالا يشكل تنبيها أو إعطاء أمر، فمن هنا يبرز مفهوم السياق غنيا جدّا، فرفع

[1] مُحَمَّد حولة، تحليل الخطاب من المدرسة البنيوية إلى المناهج التداولي، مجلة المواقف، جامعة معسكر، المجلد 6، العدد 9، ديسمبر 2014م، ص : 65 .

الإبهامات يقتضي الاندماج في الكفاءة الثقافية والفردية، وضمن هذه التداولية أشكال عدة من التداوليات ][1] .

هذا ويعدّ كل من أوستين و سيرل من أبرز أعلام المنهج التداولي، على الرغم من الاختلاف الطفيف بينهما، فأوستين " لا يقول بالتقسيم التقليدي للقضايا والجمل إلى خبرية وإنشائية، وبالتالي الاحتكام إلى معيار الصدق والكذب، وإنما ينطلق من موقف جديد، وهو أنّ الوحدة الأساسية للغة هي الأفعال الكلامية، وإذا اعتبرنا الأقوال أفعالا فإنها تسعى لتحقق شيئا ما، وبالتالي فإنّ المسألة لا تتعلق بالصدق والكذب فقط، وإنما بالسياق والمناسبة التي تم فيها الفعل أيضا "[2]، وأما سيرل فقد أكمل مشروع أوستين، و زاد على ما قدّمه هذا الأخير فيما يتعلق بأفعال الكلام، حيث " أنه أعاد تصنيف الأفعال الكلامية على نمط ما قام به أوستين Austin ، وتتمثل هذه الأفعال الكلامية فيما يلي:

**أ- الأوامر Directifs**: وهو كل ما يجبر المخاطب على القيام بعمل معيّن .

**ب- الالتزامية Commisifs**: والمتمثلة في أفعال التعهد الدالة على التكلف، المبنية على التزام المتحدث القيام بفعل معين .

**جـ- التصريحات Expréssifs**: وهي الأفعال الموسمية عند أوستين، تدل على حالة مستوفية لشروط صدقها .

**د- الإنجازيات Déclarations**: أو الإدلاءات التي تصدر حين التلفظ بها "[3] .

---

[1] طارق خلايفة، تلقي الخطاب الشعري من منظور تداولي في قصيدة " منشورات فدائية على جدران إسرائيل لنزار قباني "، رسالة ماجيستير، إشراف : أ. د. عمار شلواي، جامعة محمد خيضر، بسكرة – الجزائر، السنة الجامعية 1436/1435هـ-2015/2014م، ص : 16، 17 .

[2] محمد مدور، نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداولية، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، العدد 2012/16م، ص : 49 .

[3] حسين بن عائشة، تداولية الخطاب التعليمي المنطوق بين المنهج والإجراء، مجلة التعليمية، جامعة سيدي بلعباس، المجلد 5، العدد 14، ماي 2018م، ص : 316 .

ونحن نرى بأنّ علم التداولية هو علم يعنى بدراسة اللغة مع كل ما يتجاذبها من تأثيرات جانبية، سواء ما تعلّق منها بالمرسل أو المتلقي، أو ما يشترك بينهما من ثقافة اجتماعية، ودينية، وعلمية، وغيرها ... الخ، كما يعنى أيضا بجانب الإشارات، كإشارة اليد، والعين، وجانب الذكاء الفطري وسرعة البديهة، مما يؤكّد على أهمية هذا العلم واتساعه، خاصة وأنه " يقوم على دراسة استعمال اللغة في إطار العلاقة بين المتلفظ والمخاطب، في إطار موقف كلامي ملموس، كما يهتم بكل ما يعتري هذه العلاقة من ملابسات وشروط مختلفة، أي أنّ التداولية تدرس كل العلاقات بين المنطوقات اللّغوية وعمليات الاتصال والتفاعل " [1] .

وبخصوص مشروع العمري، فإننا نجد حضور التداولية بشكل كبير جدا في مختلف مؤلفاته، انطلاقا من الأهمية البالغة لهذا المنهج، والمكانة التي يحظى بها في أعمال العمري، والتي نستشفها من قوله: " والبلاغة العربية بغناها في المجال التداولي سواء ما يتعلق بالدراسات الخطابية الإقناعية، أو بالدراسات المتصلة بالنص القرآني جديرة بأن تكون موضوعا للدراسة والتأويل برؤية تكاملية في ضوء المناهج الحديثة وذلك قبل طرح الأسئلة التقويمية أو الحديثة عن التجاوز "[2] .

وحديث العمري عن غنى البلاغة العربية بالمنهج التداولي جعله يعمل على تطبيق آليات هذا المنهج على بعض ما تضمّنته أعماله، منها على سبيل المثال لا الحصر، تحليله لخطبة الحجّاج في أهل الكوفة وأهل الشام، التي أبانت عن أسلوب بلاغيّ راقٍ تميّز به الحجاج في خطاباته، حيث خاطب من خلالها أهل الشام مادحا لهم، مثنيا عليهم، وخاطب أهل العراق ذامّا وزاجرا لهم، وقد كان تحليل العمري لهاته الخطبة بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

1- الحجج الخطابية: (حجج جاهزة، وحجج غير جاهزة)

2- الأسلوب

[1] إيمان هنشيري، آليات اشتغال المنهج التداولي على التراث الشفوي، مجلة الذاكرة، جامعة ورقلة، المجلد 4، العدد 1، ص : 326 .

[2] إلرود إبش، وآخرون، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة محمد العمري، أفريقيا الشرق، 1996م، ص : 136 .

3- تنظيم أجزاء القول [1].

وفي إطار توظيف المنهج التداولي أيضا، قام العمري بتحليله لنص الجاحظ في خلق القرآن، الذي ذكر فيه الجاحظ بعض ما أنجزه في كتابه نظم القرآن، وقد بيّن العمري أنّ النص انطوى على قضيّتين، أولاهما الردّ على المطاعن الموجّهة إلى القرآن (التزيه)، والثانية: الردّ على من جحد الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وقد تناول تلخيص العمري لهذا النص النقاط التالية:

أ- في الرد على المطاعن الموجهة للقرآن الكريم:

- اتّباع المتشابه من طرف النصارى .

- المقلّدون من المسلمين .

- انحراف أهل المذهب .

ب- في الرد على من جحد الإعجاز القرآني:

- ثبوت التحدي ببلاغة القرآن

- وجه الإعجاز البلاغي (النظم) [2]

وهناك مثال آخر تناول فيه العمري آليات المنهج التداولي، وهو نقده لخطّة كتاب المنهاج للقرطاجني، في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، معتبرا أنها خطة راهنت على الانتقال من الجملة إلى النص، وأنها غير مضمونة العواقب من عدة جوانب:

- التفريق بين اللفظ والمعنى

- التفريق بين النظم والأسلوب

- التفريق بين الجملي والنصي

[1] محمد العمري في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 145 .

[2] ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 154-160 .

- تداخل مناهج الكتاب [1]

وفي كتابه في بلاغة الخطاب الإقناعي، تناول العمري صور الحجاج (القياس، المثال، الشاهد) معتبرا أنّ هذه الوسائل الثلاث تشترك في دعوتها العقل إلى الانسجام مع مبادئه(السببية، عدم التناقض) ، أو مع العالم الخارجي المحيط به بما فيه من قيم ومواضعات اجتماعية ورصيد ثقافي ونصوص مقدّسة وتشريعات وقوانين ومصلحة عامّة، وقد قام العمري بإيراد نماذج من الأقيسة الخطابية محللا إيّاها على النحو التالي:

أ- التعارض والتضاد

ب- مواضع البرهان الخطابي: التقسيم [2] .

**المطلب الرابع: المنهج التأويلي ( نظرية التلقي ):**

يعدّ المنهج التأويلي المنهج الأكثر خصوصية وتميّزا بين هاته المناهج الأربع، فهو لا يعنى ببنية الكلمة، ولا بتاريخ اللغة، ولا بالتغيّرات الزمنية الطارئة، وإنما يتّجه مباشرة صوب المتلقي، ومدى استيعابه للغة وتفاعله معها، سواء أكانت شفاهية أو كتابية، وحتى في تأثيره على النص، لدرجة استبعاد المؤلف الحقيقي في بعض الحالات، ولذلك يرى الباحث العربي علي حمودين بأنّ المتلقي، في إطار هذا المنهج، قد " استطاع أن يأخذ مكانة في الدراسات النقدية الحديثة، بعد أن كان عنصرا مهملا بين عناصر العملية الإبداعية، فالمتلقي من هذا المنطلق يسهم في إبداع العمل الأدبي، بحيث يضفي خبراته وثقافته على هذا النص، وما النص إلا نتاجٌ يرتبط مصيره التأويلي بآلية تكوينية ارتباطا لازما، فتكوين النص يعني تطبيق استراتيجية عليه تتضمن توقعات حركة الآخر، والآخر هو القارئ بطبيعة الحال، حيث يتخطى القارئ حدود البنية اللغوية المغلقة إلى عوالم وفضاءات واسعة القراءة والتأويل "[3] .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 502 .

[2] ينظر: مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي: ص: 69-94 .

[3] علي حمودين المسعود قاسم، إشكالات نظرية التلقي : المصطلح، المفهوم، الإجراء، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، العدد25/جوان 2016م، ص : 306 .

ونظرا للأهمية البالغة لهذا المنهج النقدي، والذي يعرف في الدراسات الغربية بـ La Réception فقد نال حظا وإقبالا كبيرا من لدن الباحثين العرب، على الرغم من اختلافهم حول الترجمة المناسبة له في العربية، وهذا ما أشار إليه الباحث عبد القادر خليف في قوله: " ولعل أشهر ما عرفت به نظرية التلقي في النقد العربي المعاصر من تسميات هي: نظرية التأثير والاتصال عند نبيلة إبراهيم، وجمالية التلقي والتواصل الأدبي عند سعيد علوش، ونظرية الواقع الجمالي عند أحمد المديني، ونظرية الاستقبال عند رعد عبد الجليل جواد، وجمالية الألفة أو نظرية التقبل، وهي تسمية شكري المبخوت، ونظرية جمالية التجاوب في الأدب، عند حميد لحمداني والجيلالي الكدية، وقراءة النص وجماليات التلقي عند محمود عباس عبد الواحد، ونظرية التأثير والتقبل، وهذا المفهوم انفرد به حميد الحمداوي، ونظرية التلقي، وهي ترجمة عز الدين إسماعيل لكتاب الناقد الإنجليزي روبرت سي هولب Reception Theory، وكان ذلك سنة 1994م "[1] .

ولقد اعتمدنا في هاته الدراسة الترجمة التي تبناها عز الدين إسماعيل، أي نظرية التلقي، التي تعني " بالإنجليزية Theory of Reception، وتعرّفُ بأنها مجموعة من المبادئ والأسس النظرية والإمبريقية شاعت في ألمانيا منذ منتصف السبعينات على يد مدرسة تدعى كونستانتز، تهدف إلى الثورة ضد البنيوية الوصفية وإعطاء الدور الجوهري في العملية النقدية، للقارئ أو المتلقي، باعتبار أنّ العلم الأدبي يُنشئ حوارا مستمرا مع القارئ بصورة جدلية تجعله يقف على المعنى الذي يختلف باختلاف المراحل التاريخية للقارئ "[2] .

وعن جذور هذا المنهج، ترى الباحثة الجزائرية سميرة جدو، بأنّ لـ " نظرية التلقي جذورا في تاريخ النقد والأدب، وتصل هذه الجذور إلى العهد اليوناني القديم، إذ وجدت في أدب هذا العهد اهتماماتٌ خاصة بالمتلقي، ولكن من وجهة نظر مخالفة للنظريات الحديثة، وذلك اِستنادا للمرجعيات التي كان الدارسون يعودون إليها آنذاك، هذه الاهتمامات عُدّت فيما بعدُ إرهاصات

[1] ينظر : عبد القادر خليف، مصطلح القراءة في كتاب " القراءة وتوليد الدلالة " لحميد لحمداني، رسالة ماجيستير، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، إشراف : أ. د. العيد جلولي، السنة الجامعية، 2011-2012م، ص : 14، 15 .

[2] سمير حجازي، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر، دار التوفيق، دمشق – سوريا، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م، ص : 161 .

أولى لهذه النظرية، وذلك لأنّ أي عملية نقدية لا تستقيم إلا بتوافر ثلاثية: المبدع ( الباث )، النص، والقارئ ( المتلقي )، التي وُجدت على مر العصور "[1]، وفي هذا الرأي نلحظ اعتماد الباحثة على عناصر العملية التواصلية الثلاثة في إثبات أقدمية هذه النظرية، وفي هذا الرأي نظر، فوجود العناصر الثلاثة لا يعني بالضرورة وجود النظرية وإن ظهرت اهتمامات للقدماء بالمتلقي فهي اهتمامات لا تعدو أن تكون إما أدبية، أو سياسية، أو دينية، وأما اهتمام اللغوي بالمتلقي لدرجة إلغاء دور صاحب النص الحقيقي، أمر لا نجده إلا في المنهج التأويلي.

ومن هنا ترى الباحثة ربى عبد الرضا بأنّ العملية التواصلية في إطار نظرية التلقي تقوم على طرفين فقط، هما النص والقارئ، حيث تقول: " وبذلك يكون العمل الأدبي في ضوء نظرية التلقي نتاج العملية التفاعلية بين النص والقارئ ، تعينُهُ على ذلك ذخيرته المعرفية التي اكتسبها من قراءاته المختلفة التي تستدعي القارئ إلى توظيف مخزونه المعرفي ثم توجهه إلى هدف النص، ومن ثمَّ بناء معنىً جديدًا للنص، فهي باختصار شديد تعين على إضاءة المناطق الغامضة في النص "[2] .

هذا عن مفهوم النظرية، وأما عن روادها ومنظريها فقد أشار الباحث الجزائري رضا معروف إلى سبعة مدارس نقدية حديثة، بداية [ بالمدرسة التاريخية التقليدية التي اهتمت في تعاملها مع الأدب بالتتابع الزمني للأعمال الأدبية وتصنيفها ضمن أنواع وأجناس، بما جعل كل صنف معزولا تاريخيا عن النوع أو الجنس الآخر، إضافة إلى المدرسة اللاهوتية التي اتجهت نحو التأريخ للأدب انطلاقا من وجود فكرة جوهرية مثالية تمثل البؤرة والمركز الذي تدور حوله باقي الأحداث الأدبية في تطورها وتشعبها، أما المدرسة التاريخانية فقد قامت على رفض طروحات المدرسة اللاهوتية، واختلفت أفكارها عن أفكار المدرسة التاريخية التقليدية في كون التصنيف هذه المرة لم يكن ضمن أجناس وأنواع أدبية، وإنما ضمن مراحل وعصور زمنية، وهناك المدرسة الوضعية، والتي كان إخفاقها يتمثل في التركيز على تاريخ نشأة الحدث الأدبي ومعرفة منابعه وأصوله المعرفية، دون الاهتمام بالتغيرات والتطورات التي تطرأ على الظاهرة الأدبية في مسارها التعاقبي عبر المراحل الزمنية التاريخية،

[1] سميرة جدو، عملية التلقي في المجالس الأدبية الشعرية في الجاهلية وصدر الإسلام، رسالة ماجيستير، إشراف : د. عمار ويس، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية، 1428-1429هـ/2007-2008م، ص : 06 .

[2] ربى عبد الرضا عبد الرزاق، مفهومات نظرية القراءة والتلقي، مجلة ديالي، العدد 2016/69م، ص : 159 .

كما قامت مدرسة تاريخ الفكر بدراسة الأعمال من منظور فلسفي، وذلك بتتبع الأفكار وما يطرأ عليها من تحوّل وتجديد وانعكاس على الأدب، وتأتي المدرسة الماركسية التي كانت تنظر إلى الأدب على أنه مرآة عاكسة للحياة الاجتماعية والاقتصادية، وتطوره هو نتيجة آلية وحتمية لتطور المجتمع ضمن ما عرف بنظرية الانعكاس، وإلى جانب هاته المدرسة – أي المدرسة الماركسية – تبرز المدرسة الشكلانية الروسية [*]، والتي كما يبدو من تسميتها، فإنها تهتم بتحليل الأبنية الشكلية للعمل الفني للوصول إلى معناه، بعيدا عن المؤلف أو المبدع وبمعزل عن حياته ][1] .

وعلى الرغم من كثرة رواد نظرية التلقي وتباين أفكارهم، فإنّ رواد المدرسة الألمانية الشهيرة، مدرسة كونستانس، يضلّون هم أهم الرواد خاصة كل من ياوس وآيزر، فمن خلال جهودهما، استطاعت نظرية التلقي أن تفرض نفسها بين مختلف النظريات والمناهج النقدية المعاصرة، نعني بذلك، على سبيل المثال، المفاهيم الإجرائية التي وضعها ياوس، والمتمثلة في ثلاثة مفاهيم هي : أفق التوقع، أو أفق الانتظار، والمسافة الجمالية، واندماج الآفاق، وسنقوم بتعريف كل واحد منهم على النحو التالي:

**01 – أفق الانتظار: L'horizon d'atante**: يحدد ياوس أفق الانتظار فيقول: " إنّ تحليل التجربة الأدبية للقارئ تتخلص من النزعة النفسانية التي كانت عرضة لها لوصف تلقي العمل والأثر الناتج عنه، إذ من خلالها يتشكل أفق انتظار جمهورها الأول، بمعنى الأنظمة المرجعية المفرغة

[*] نشأت الشكلانية الروسية بسبب تجمعين هما : حلقة موسكو اللسانية، وحلقة أبويازبلينيكراد، وقد تكونت الأولى سنة 1915م، ومن أهم ممثليها البارزين رومان ياكوبسون، الذي أثرى اللسانيات بأبحاثه الصوتية والفونولوجية، كما أغنى الشعرية بكثير من القضايا الإيقاعية والصوتية والتركيبية، ولاسيما نظريته المتعلقة بوظائف اللغة، والتوازي، والقيمة المهنية، والقيم الخلافية ... ، وأما الثانية – حلقة أبويازبلينيكراد – فقد كان أعضاؤها من طلبة الجامعة، وقد تمثلت خطوط التلاقي بين المدرستين في الاهتمام باللسانيات، والحماسة للشعر المستقبلي الجديد، كما عند فلاديمير مایاكوفسكي، وباسترناك، وأسيغ، ماندیل شتام (...) وترتكز الشكلانية على مبدأين أساسيين هما : 1– أنّ موضوع الادب هو الأدبية، أي التركيز على الخصائص الجوهرية لكل جنس ادبي على حدة، 2– دراسة الشكل قصد فهم المضمون، أي : شكلنة المضمون، ورفض ثنائية الشكل والمضمون المبتذلة . ينظر : جميل حمداوي، النظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن، ( ب، ط )، ( ب، ت )، ص : 08 .

[1] رضا معروف، التجديد في النقد العربي، أطروحة دكتوراه، إشراف : أ. د. مُحَمَّد لخضر زبادية، كلية اللغة والادب العربي و الفنون، جامعة باتنة 1، السنة الجامعية، 1438-1439هـ/2017-2018م، ص : 58، 59 . ( بتصرف ) .

موضوعيا في صيغة والتي تكون لكل عمل في اللحظة التاريخية التي يتجلى فيها نتيجة ثلاثة عوامل أساسية هي:

- التجربة السابقة [ المتقدمة ] التي اكتسبها الجمهور عن الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه .

- شكل موضوعاتية الأعمال السابقة التي يفترض معرفتها .

- التعارض بين اللغة الشعرية واللغة العلمية، أي بين العالم التخييلي والعالم اليومي "[1] .

**02 – المسافة الجمالية: Distance Esthétique**: يرى ياوس بأنّ قيمة العمل الأدبي الجديد مرتبطة بدرجة انزياحه الجمالي écarte esthétique عن أفق الانتظار المعهود، أي بمدى تعطيله للتجربة السابقة، وتجاوزه لها، وتحريره للوعي بتأسيس إمكانات جديدة للرؤية والتجربة، وبعبارة أخرى فإنّ القيمة الجمالية للعمل الأدبي الجديد تكون أكبر كلما كان تغيير الأفق السابق changement d'horizon d'atente ضرورة ملحّةً يتطلّبها هذا العلم وفهمه، وعلى العكس من ذلك فكلما تضاءلت المسافة الجمالية، ولم يقتض العمل الجديد أي تغيير في الأفق، بل استجاب تماما للانتظار المألوف والمستقر، فإنه يقترب حينئذ من ميدان التسلية البسيطة والفن الاستهلاكي "[2] .

إن ياوس يجعل من المسافة الجمالية بمثابة لسان حال النص الذي يحاور المتلقي ويتحاور معه، ويجره بعيدا عن أفق الانتظار الذي كان قد رسمه من قبل، فكّأنّ المتلقي حين يضع النص بين يديه ويبدأ في قراءته وسبر أغواره، ويقارن بين ما كان قد رسمه في توقعاته وما وجده من بعد، يكون قد وصل إلى ما يسميه ياوس بالمسافة الجمالية، وهي على النقيض من الأفق – أي أفق الانتظار– فكلما زادت قلّ هو، وكلما قلّ زادت هي .

[1] سمير حميد، النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري، اتحاد الكتاب العرب، دمشق – سوريا، 2005م، ص : 27، 28 . نقلا عن : Pour une esthétique de la réception, Jauss, P : 49

[2] خالد وهاب، جمالية التلقي والتأثير في ثلاثية أحلام مستغانمي، أطروحة دكتوراه، إشراف : أ. د. عباس بن يحي، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، السنة الجامعية، 2015-2016م، ص : 57 .

**03 – اندماج الآفاق: Fusion des horizon**: نصل الآن إلى آخر مفهوم من المفاهيم الإجرائية عند ياوس، وفيه تكون نظرية القراءة على مقربة من الاكتمال، حيث يمر القارئ على مرحلة فهم النص في ضوء مكتسباته الشخصية، وقبلها على مرحلة وضع الفرضيات، ولا يبقى إلا مرحلة الجمع بين ما كان مفترضا وما هو موجود، وهنا يتجسد مفهوم " اندماج الآفاق "، إلا أن هذا الأمر لا يمكن أن يتجسد من خلال القراءة الأولى أو الثانية، بل إنه يستوجب أكثر من ذلك حتى يكون لهذا المفهوم ما يبرر تطبيقه، ذلك أن كثرة القراءات والتأويلات للنص الواحد هي أساس فكرة " اندماج الآفاق "، وهو ما يشير إليه الباحث الجزائري علي حمودين في قوله : " يستعمل هذا المفهوم لتفسير ظاهرة التأويلات المختلفة التي يعرفها العمل الأدبي خلال سيرورة تلقّياته المتتالية، ويُعتبر هذا المفهوم من المفاهيم الأساسية التي تبين نقط التقاطع بين ياوس والمشروع الهيرمينوطيقي لـ "غادامير "، الذي أثار هذا المفهومَ في كتابه " الحقيقة والمنهج "، وسماه بمنطق السؤال والجواب، الذي يحصل بين النص وقارئه عبر مختلف الأزمان، ويعبّر ياوس بهذا المفهوم عن العلاقة القائمة بين الانتظارات التاريخية للأعمال الأدبية والانتظارات المعاصرة التي قد يحصل معها نوع من التجاوب "[1] .

وباعتبار أنّ نظرية التلقي تهتم بالمتلقي على وجه الخصوص، فإننا سنسلّط الضوء في هاته الجزئية على مدى اهتمام العمري بمؤلّفي البلاغة العربية، كالجاحظ، والجرجاني، والخفاجي، بخلاف الدراسة البنيوية، والتداولية، والتاريخية، التي كانت توجه العمل نحو مضامين المؤلّفات لا إلى أصحابها .

ولقد ارتأينا أن نبسُط توظيف العمري للمنهج التأويلي (نظرية التلقي) من خلال البحث في القضايا التالية: المشاريع والمنجزات، قراءة اللاحق للسابق، الأسئلة التاريخية .

## 1– المشاريع والمنجزات:

انتقينا من النصوص الدالة على اعتماد العمري فكرة المشاريع والمنجزات، كأسلوب حديث في دراسة تاريخ البلاغة العربية، على ثلاثة نصوص، تعلّق الأول بعمله مع الخفاجي، والثاني مع الجاحظ، والثالث مع السكاكي، حيث يقول في النص الأول: " كان من بين همومي الموجّهة، حين تصدّيتُ لإعادة تاريخ البلاغة العربية، استخراجُ أنساق المؤلّفات في حوار بين المشاريع

[1] علي حمودين المسعود قاسم، إشكالات نظرية التلقي : المصطلح، المفهوم، الإجراء، ص : 309 .

والمنجزات، وكان أوّل عمل لي في هذا الصدد قراءتي لسر الفصاحة لابن سنان، فقد استفزّني تحلّل الرجل تدريجيا من التزاماته وشعاراته الأولى، حيث انطلق من الجزم بانحصار الفصاحة في الأصوات، ثم انزلق من الصوت إلى اللفظ ببُعديْه الصوتي والدلالي، ثم صار إلى المعاني المفرَدة، أي في استقلال عن الصوت، وذلك كله تحت ضغط طبيعة الموضوع وما أُنجز فيه قبله "[1]، زأما مع الجاحظ فيقول العمري: الجاحظ " المشروع عند الجاحظ هو البيان بجميع أصناف الدلالة على المعاني، من لفظ وغير لفظ (الإشارة، والخط، والعقد، والنَّصبة أي الحال الدالة) ثم سرعان ما قُويِض البيان بالبلاغة، ثم قُويِضت البلاغة بالخطابة، وتوجّه الاهتمام إلى المقام والأحوال، وكان تقديم صحيفة بشر، عملا رمزيا حاسما: تقديم البديل، وبالنظر إلى هذا المسار، وهذه النهاية، نلاحظ أنّ الجاحظ كان موضوع سوء فهم من الدراسين بعده، سواء أولئك الذين توجّهوا توجّها منطقيا، مثل ابن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان، أو من طرف نقّاد الشعر "[2] ، في حين يرى العمري بخصوص السكاكي بأنه " ويمكن أيضا في إطار المشاريع والمنجزات، تأمّل عمل السكاكي في مفتاح العلوم، فمن البحث عن علم الأدب، من خلال النحو والصرف، وصل إلى ما اعتُبر إبداعا له يُغطّي على غيره، وهو تنظيم علم المعاني وتأطيره، فعلم المعاني الذي جاء لتكميل النحو في تأسيس علم الأدب في مشروع مفتاح العلوم صار مركزا، وصار النحو المنطق (علم الاستدلال) مجرّد خدم له "[3] الجرجاني " ولعلّ أهم عملية تحوّل هي التي مرّ منها عمل عبد القاهر الجرجاني عبر كتابيه الأسرار والدلائل، ولقد راهن عبد القاهر الجرجاني، انطلاقا من تصوّر أشعري يعتبر الكلام معاني نفسية، ويعادي مقولة المعتزلة التي تجعله أصواتا ومقاطع، راهن على في البداية على المفارقة الدلالية التي حقّقها التشبيه والتمثيل (في مستوى أدنى) وتحقّقها الاستعارة والتخييل (في مستويات أعلى) "[4] .

**2- قراءة اللاحق للسابق:**

[1] محمّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 14 .

[2] نفسه، ص: 14، 15 .

[3] نفسه، ص: 15 .

[4] نفسه، ص: 15

وفي حين كنا قد أوردنا عملَ العمري مع الخفاجي، والجاحظ، والسكاكي فيما يتعلق بالمشاريع والمنجزات، فإننا نورد الآن عمله الجرجاني فيما يتعلّق بقراءة السابق للاحق، من ذلك قوله: " بخلاف المذهب الذي سلكته بلاغة المعنى والنظم النحوي، مع عبد القاهر الجرجاني، فقد توجّه الأعلام الثلاثة الذين شاركوه في صياغة البلاغة العربية، ابن سنان الخفاجي، والسكاكي، وحازم القرطاجنّي، إلى الاهتمام بالبعد الإيقاعي، فاستحضروا جميعا العروض بصور متفاوتة، سواء عن طريق الاستدراك، والعرض المدرسي، كما فعل السكاكي، أو عن طريق التذكير به داخل نسق عام: التناسب كما عند ابن سنان، أو بإعادة النظر فيه ضمن مبحث بناء النص عامة، كما فعل حازم في مبحث النظم، وقد طرح حازم في مبحثه أسئلةً ذات قيمة منهاجية كبرى، حتى وإن لم يذهب فيها بعيدا مثل علاقة الأوزان بالألفاظ، والتراكيب، والأحوال الممكنة في ذلك بالنسبة لكل بحر "[1] .

**3- الأسئلة التاريخية:**

هذا ويتعلق جانب الأسئلة التاريخية بالوافد الغربي ومدى تأثيره على البلاغة العربية، سواء في ماضيها، أي إعادة تأريخها، أو في مستقبلها، أي التجديد فيها، ولهذا يقل العمري عن هذا التأثير: " إنّ تاريخ البلاغة المُرتَقَب في المرحلة الراهنة، مُثقَلٌ بالمهام المتأخرة، والمنتظرات المتوقّعة، فنحن وإن لم نعش بعمق، المراحل التي اجتازتها الدراسات الأدبية في الغرب، فقد مرّت أمام أنظارنا وبين أصابعنا،، كما تمرُّ حبّاتُ السبحة أحيانا، بدون وعي أو استيعاب، فصرنا مسؤولين عنها محاسَبينَ بها، فنحن كالغربيين الذين سبقونا في الموضوع، نحصي مراحل نعدّها مما هو خلفنا، لا تجاوزا، بل حملا على ظهورنا "[2]

وبدراستنا لنظرية التلقي نكون قد أنهينا الفصل النظري من هاته المذكرة، لتعقبه فصول تطبيقية، نتعرّف فيها على مدى تفعيل مشروعه البلاغي الجديد، بين التصور المطروح والمنهج المتّبع .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 31 .

[2] نفسه، ص: 33 .

## الفصل الثاني: دراسة تحليلية لأصول البلاغة العربية عند العمري

### المبحث الأول: البلاغة ونقد الشعر

### المبحث الثاني: البلاغة ومعيرية اللغة

### المبحث الثالث: من تبرير المجاز إلى بيان وجه الإعجاز

### المبحث الرابع: البلاغة والمعرفة، من البيان إلى البلاغة

### المبحث الخامس: القراءة العربية للبلاغة اليونانية

**تمهيد:**

يتحدد مفهوم " الأصول " عند " العمري " في المنابت التي خرجت منها البلاغة العربية وهي تنقسم إلى قسمين، منابت أساسية يسميها العوامل الأولية، ومنابت مساعدة يسميها العوامل المساعدة حيث يقول: " ساهمت عوامل متعددة في نشأة البلاغة العربية وتطويرها، يمكن تقسيمها إلى عوامل أولية وعوامل مساعدة أو طارئة:

أما العوامل الأولية، فهي تلك التي أدت إلى ملاحظة الخصوصية الأدبية، سواء كان ذلك من الداخل، أو عن طريق معاناة موضوع البلاغة (النص الأدبي)، أو من الخارج عن طريق معاناة أسئلة أخرى لغوية أو دينية أو معرفية عامة .

والعوامل المساعدة هي العوامل التي ساهمت في تعميق البحث في الموضوع أو تطويره، وهي تتعلق أساسا بالمثاقفة وتطوير البحث والتأليف في المجالات الفكرية المختلفة "[1]، وهي عنده تتوزّع على خمسة مشارب لعبت دورا حاسما في بلورة الدرس البلاغي العربي، ومن ثمّ بناء بلاغة نهلت من معين القرآن، وغرائب الشعر، وسحر البيان، وقواعد النحو، ومنطق الفلاسفة، وهاته الأصول الخمسة قد رتّبها العمري على النحو التالي:

1- البلاغة ونقد الشعر

2- البلاغة ومعيرية اللغة

3- البلاغة والنص المقدّس

4- البلاغة والمعرفة

5- القراءة العربية للبلاغة اليونانية

وسنقدّم بين ثنايا هذا الفصل دراسة تحليلية لجميع هاته الأصول، ضمن خمسة مباحث نتعرّف من خلالها على مدى تأثر الدرس البلاغي بكل أصل منها .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 17، 18 .

هذا وتجدر الإشارة إلى أنّنا اِعتمدنا – وبنسبة كبيرة جدا – على كتاب " البلاغة العربية أصولها وامتداداتها " في دراسة هذا الفصل، لعلاقته المباشرة بالموضوع، وعلى هذا النحو سرنا في كل موضوع مدروس، فمثلا موضوع بلاغة الخطبة، اعتمدنا فيه على كتاب العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، وفي دراستنا لموضوع بلاغة الشعر، اعتمدنا على كتابه الموازنات الصوتية، وفي بلاغة القصة، اعتمدنا على دراسة قدّمها العمري حول قصة حي بن يقظان، وهكذا دواليك ....

**المبحث الأول: البلاغة ونقد الشعر:**

لقد كان للدراسات النقدية، والتي تناولت الشعر الجاهلي على الخصوص، تأثيرا كبيرا على ظهور البلاغة العربية، وهذا راجع إلى تداخل الدرسين البلاغي والنقدي عند العرب، ولهذا نجد العمري قد استهلّ دراسته لموضوع البلاغة ونقد الشعر، بالحديث عن هذا التداخل معتبرا أنّ هذا التداخل " قد دفع بالدارسين إلى اِعتماد نفس الشواهد في اِستنباط القواعد والحجج، " فلا غضاضة إذن – يقول " العمري " – أن نجد اليوم مؤرّخ النقد الأدبي ومؤرّخ الفكر البلاغي يستثمران نفس الظواهر؛ فالبلاغة مُكوّنٌ من مكوّنات النظرية النقدية، وثمرةٌ من ثمرات الملاحظة النقدية الأولية "[1].

وقد أسفر هذا التداخل عن ظهور بعض المؤلفات التي يصعب معها تحديدُ نوعيَّةِ الدِّراسةِ، كما هو الحال مع كتابي البديع لـ" ابن المعتز " ونقد الشعر لـ" قدامة "، اللذيْن استدلّ بهما " العمري "، معتبرا أنّ " العمل الذي قام به " اِبن المعتز " هو عمل بلاغي حتى وإن جاز أنْ يقال عن القضية التي حرَّكته ( الصراع بين القدماء والمحدثين ) إنها قضية نقدية، وعملُ " قدامة بن جعفر " عملٌ نقدي ( لأنه يقدم تركيبا ونسقا تفسيريا ) حتى وإن كانت موادُّه الأساسية بلاغية "[2] .

وعلى الرغم من التداخل الحاصل بين النقد والبلاغة إلا أنّ هذا لا ينفي وجود عنصر اختلاف بينهما، وهو ما نوّه به " العمري " في قوله أنّ " البلاغة تصرّ على الاستقلال بكل ما يتّصل بالبنية النصية للخطاب في بُعديْها الشعري والتداولي، وأما النقد فإنّه يركّبُ المواد البلاغية مع ما يراه من

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 43 .

[2] نفسه، ص : 43 .

موادَّ أخرى تتعلق بالأجناس الأدبية وسيرورة تَلَقِّيها وما إلى ذلك "[1]، ولعل هذا العنصر هو الذي حدا بالبلاغة للانفصال شيئا فشيئا عن الدراسات النقدية حتى أضحت علما مستقلا بذاته فيما بعد .

وكذلك كان الحال في البلاغة الغربية، التي عرفت تداخلا بين النقد والبلاغة، فقد استدلّ " العمري " على وجود هذا التداخل بقائمة أسماء كل من النقّاد والبلاغيين عند " هينريش بليث HEINRICH Blythe "، مؤكّدا على وجود التباس ظاهر للعيان بينهما، وفي هذا يقول: " إنّ الالتباس بين البلاغة والنقد الأدبي اِلْتِباس لا اِنفصام له، وليس هذا الأمر خاصا بالأدب القديم بل يمكن ملاحظته بسهولة مِنْ تتبُّع الألقاب التي حملها مجموعة من أكابر النقاد المحدثين، والخانات التي وُضعوا فيها من حين لآخر، انظر مثلا لائحة البلاغيين عند " هينريش بليث HEINRICH Blythe" مقارنا بلائحة النقاد عند غيره، ستجد تقاطعا في أغلب المواقع "[2]، أي أنّ التقاطع بين قوائم النقاد وقوائم البلاغيين في الأسماء عند الغرب، مردّه إلى أنهم لم يكونوا يميّزون بين الناقد والبلاغيّ، ما يعني عدم التمييز بين البلاغة والنقد بشكل عامّ، كمثال رولان بارت الذي هو من المعدودين ضمن رواد البلاغة الجديدة من جهة، وهو أيضا صاحب كتاب " النقد والحقيقة " من جهة أخرى .

من هنا يتبيّن لنا أنّ تداخل الدرس البلاغي مع الدرس النقدي لا ينحصر في البلاغة العربية وحدها، وإنما يظهر أيضا في البلاغة الغربية .

هذا ومن النصوص التي تبيّن إقرار العمري بأنّ الملاحظات النقدية كانت المعين الأساس للبلاغة العربية قوله: " إننا نعتبر الملاحظات النقدية الأولى وما تلاها من تسميات بديعية وعروضية واِختيارات فنية، المهد الأول للبلاغة العربية، كما نعتبر الخصومات وصراع المذاهب الأدبية الخزَّان الذي سَيَمُدُّ البلاغة بعشرات الصُّوَرِ التي سَتُجْمَعُ في سِجِلَّاتِ البديع، لتُسْتَغَلَّ في المعارك الخاصة، حول اللفظ والمعنى مثلا "[3] .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 43 .

[2] نفسه، ص : 44 .

[3] نفسه، ص : 46 .

لقد صرّح " العمري " في هذا النص بأنّ المهد الأول للبلاغة العربية هو النقد، معتمدا في دراسته له على كتاب الحماسة لـ" أبي تمام "، وقد تناوله العمري من خلال جانبين اثنين عمل في الأول على استكشاف المكونات البلاغية للشعر، وفي الثاني على دراسة ثنائية البلاغة والاختيار، ليبيّن مدى تأثير خصوصية الشعر العربي على نشأة البلاغة .

**أولا: اِستكشاف المكونات البلاغية للشعر:**

إنّ لمكونات الشعر دورا في معرفة إرهاصات الدرس البلاغي، ولذلك عمل العمري على استكشاف هاته المكونات عن طريق معرفة خصوصية الشعر ثم البحث في البديع ومحاسن الكلام، وهذان العنصران ظهرا وفق رؤية نقدية بحتة .

**1- الوعي بالخصوصية النوعية للشعر:** تناولها " العمري " من خلال أربعة منافذ هي:

أ- البحث في خصوصيات الشاعر

ب- القوة الخارقة للشعر

جـ- عملية الاحتكام

د- عملية التفسير

**أ- البحث في خصوصيات الشاعر:**

يتمثل هذا المنفذ في دراسة خصوصيات الشاعر في حد ذاته واِعتباره أوَّل ناقد، ذلك أنّ الشاعر حين ينظم القصيدة سيمرُّ حتما بمراحل أو حالات قد تُعِيقُ عملية نمو القصيدة، منها ما يتعلق بالوزن والقافية، ومنها ما يتعلَّق بالعادات التي اِنبنى عليها مجتمعه – خاصة العادات الجاهلية – وبذلك لا يكون أمامه إلا أن يعيد ويحاول تعديل النظم المرة تلوى الأخرى حتى يصل إلى المطلوب، والقصائد التي تكون على هاته الشاكلة تعرف بالحوليات، لذلك يقول " العمري ":" ولو

اِطَّلَعْنَا على النصوص التحضيرية الأولى لحوليات زهير وغيره من المحكِّكِين وعبيد الشعر، لأمكن اِستخلاص الكثير من الأسس الداخلة في أفق توقع الشاعر باعتباره متلقّيا لشعره "[1] .

ولقد كان التمحيصُ والتنقيحُ من هموم عديد الشعراء، والفحول منهم على الخصوص، ولذلك وُصفت قصائدهم بالمذهبات والمعلّقات، ويُعدّ الشاعر الجاهلي " اِمرؤ القيس بن حجر الكندي " " من أقدم الشعراء الذين أَبْدَوْا اِهتمامهم بتنقيح الأشعار وتناولهم إياها بالتهذيب، إذ يذكر أنه كان يختار أبياته، فيبقي الجيّد منها، وينفي الرديء، لكي يظهر شعره على صورة واحدة من الجودة، قائلا [2]:

أَذُودُ القَوَافِيَ عَنِّي ذِيَادَا ذِيَادَ غُلَامٍ جَرِيءٍ جَرَادَا

فَلَمَّا كَثُرْنَ وَعَنَّيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ شَتَّى جِيَادَا

فَأَعْزِلُ مُرْجَانَهَا جَانِبًا وَآخُذُ مِنْ دُرِّهَا المُسْتَجَادَا "[3]

وتنقسم مرحلة صناعة الشعر إلى مرحلتين، مرحلة الهيكلة الأولية للقصيدة، " وقد نُعت الشعر الذي من هذا النوع بـ " المخشوب أو المنشوب "، وهي صفات ينزّه الشعراء شعرهم عنها، قال " النابغة الشيباني ":

إِذَا رَحَلْتَ إِلَى مَلْكٍ لِتَمْدَحَهُ فَارْحَلْ بِشِعْرٍ نَقِيٍّ غَيْرِ مَخْشُوبِ[4]

ومرحلة ثانية هي مرحلة الصقل، أي صقل القصيدة، والتي يسميها " العمري " " مرحلة البري الثاني أو مرحلة الخلق، أو مرحلة التعمُّل والاحتكام، وقد تجلّت هذه العملية من خلال الحديث

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 48 .

[2] ديوان امرئ القيس، تح : الشيخ بن أبي شنب، وزارة الثقافة، الجزائر، الطبعة الأولى 2007م، ص : 424 .

[3] عبد الله مُحَمَّد العضيبي، النقد عند الشعراء، حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2013م، ص : 298، 299 .

[4] ديوان نابغة بني شيبان، تقديم : أحمد نسيم، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثالثة 2000م، ص : 75 .

عن تنقيح الشعر وتنخُّله والسهر بأبواب القوافي لتصيد شوارد المعاني من جهة، وذكر العيوب التي يفخر بها الشاعر بتلخيص شعره منها من جهة ثانية "[1]، وهي ما يشير إلى العملية الداخلية .

**ب- القوة الخارقة للشعر:**

وهذا المنفذ يشير إلى عالَمٍ آخر هو عالم الجنّ والشياطين، حيث أنّ العرب كانت تعتقد بأنَّ لكل شاعر صاحبه من الجن، وأنه هو الذي يُعِينُهُ على نظم القصيدة، وكلما كان الجنيُّ أكثر قوة كان الشاعر أكثر قدرة على صوغ القصيدة بأسلوب رائق وجميل، وكان أقدرَ على نظْمها في أسرع بديهةٍ وأقلِّ وقتٍ ممكن، وقد أورد " العمري " في هذا الشأن أمثلةً عديدةً من بعض الأبيات الشعرية التي تشير إلى علاقة الشعر بالجن، وكذلك لما يفعله الشعر في الذهنية العربية، نقتطف من ذلك هاته الأبيات المنسوبة إلى " أمية بن كعب المحاربي " الذي يقول:

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِنِّ

وَكَانَ فِي العَيْنِ نُبُوٌّ عَنِّي

فَإِنَّ شَيْطَانِي أَمِيرُ الجِنِّ

يَذْهَبُ بِي فِي الشِّعْرِ كُلَّ فَنِّ

حَتَّى يَرُدَّ عَنِّيَ التَّظَنِّي

**ج- عملية الاحتكام:**

وهذا المنفذ الثالث يقوم على أمرين إما عن طريق عرض الشعر على حكم ما لينظر في قصيدة تكون لشاعر واحد، وإما عن طريق المفاخرة بين شاعرين أو أكثر، فأما مثال الأول فهو احتكام كل من " حسّان بن ثابت " و " الخنساء "، إلى " النابغة الذبياني "، وحُكْمِهِ " للخنساء " بأنها أشعر من " حسّان "، وأما الثاني فمثاله ما جاء في المفاخرة التي جرت بين " امرئ القيس " و "علقمة " إلى امرأة من طَيْءٍ هي نفسُها زوجةُ " امرئ القيس ".

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 56 .

وفي إطار عملية الاحتكام يضيف العمري عنصرا آخر هو ما يتعلق بالخلل الفني والخلل المعرفي، يشير الأول إلى " التناسب " بين القافية والأوزان العروضية، " وهذا المستوى هو الذي أمكن رصده بسهولة في أول الأمر، حيث كانت المرحلة الجاهلية التي وَصَلَنَا شِعْرُهَا مرحلة النضج والكمال الموسيقي، إذ صار المستمِعُ يلحظ بأذنه أيَّ خلل في القصيدة، ومن أمثلة ذلك اِنتباه أهل المدينة إلى وجود عيب موسيقي في شعر " النابغة " واِحتيالهم عليه بالغناء "[1]، والخلل المعرفي يشير إلى الانسجام بين المعاني والألفاظ في القصيدة الواحدة، ومثاله قصة الشاعر الجاهلي " طرفة بن العبد " " وهو شاعر حادُّ الذّكاء فخورٌ تيّاهٌ بشِعره، وقد سمع خاله " المتلمّس " مَرَّةً يقول:

وَقَدْ أَتَنَاسَى الهَمَّ عِنْدَ اِحْتِقَارِهِ  بِنَاجٍ *، عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةِ **، مِكْدَمِ

فقال " طرفة " : " اِستنوق الجمل "؛ لأنّ " الصيعرية " سِمَةٌ للنُّوقِ، فضحك القوم، وغضِب خاله ثم قال: ويل لهذا الفتى من لسانه "[2] .

**د- عملية التفسير:**

وأما المنفذ الرابع والأخير، فإنه يتعلق بمحاولة تفسير القصيدة، وهنا لا يَستبعِد " العمري " " أعمال الرُّواة وأصحاب الاختيار والناسخين، في التعديل أو الإضافة "[3]، وقد اِعتبر العمري أنّ " التفسير هو بداية العملية النقدية البلاغية، وهو الذي يُشَكِّلُ، في الوقت نفسه، بداية الاختلاف، غير أنّ التفسير يطرح، دائما، قضية الأسس المفسرة، مدى ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لطبيعة النص الأدبي، وحين تطرح المسألة بهذا الشكل نكون قد دخلنا في سؤال الهوية الأدبية أي في الأسئلة البلاغية "[4] .

**2/- البديع ومحاسن الكلام: الخصوصيات حول المذاهب البلاغية:**

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 59 .

[*] الناجي: البعير الخفيف الذي ينجو بصاحبه .

[**] الصيعري أو الصيعرية: سمة توسم بها النوق في بلاد اليمن دون الجمال .

[2] ديوان طرفة بن العبد، تح : مهدي مُحَمَّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1423هـ/2002م، ص : 05 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 61 ( مرجع سابق ) .

[4] نفسه، ص : 60 .

يرى " العمري " أنّ البديع من أهم العوامل التي ساعدت على استكشاف المكونات البلاغية للشعر العربي، معتبرا أنّ " عمل " اِبن المعتز " يسجّل لحظةً حاسمةً في تاريخ البلاغة العربية سواء من حيث السؤال الموضوع أو من حيث الإجراء المتخذ "[1]، ويأتي ذكر " ابن المعتز " هنا لما له من علاقة مباشرة مع الخصومات التي ظهرت حول المذاهب البلاغية، لهذا عمد " العمري " إلى تقسيم عنصر " البديع " إلى قسمين أوَّلهُما ما يتعلق بالخصومات الأدبية، والآخر يتعلق بتنظيم البديع ونظمه .

**أ- الخصومات الأدبية:** يرى " العمري " في شأن الخصومات أنّ " المسألة لم تعد تتعلق كما هو الحال في المرحلة السابقة بملاحظة خصوصيات ومفاضلة بين نصّين لشاعرين، بل تعدى الأمر إلى اِدعاء وجود خصوصية مذهبية تميّز فِئَةً مِنَ الشعراء تنتمي إلى زمن محدَّد، فِئَةً تُحُسُّ بالتميُّز كمجموعة وتَنْعَتُ مُنْجَزَهَا بالإبداع، أي النّسج على غير مثال "[2]، ويرى أيضا بأنّ " التأليف البديعي الذي تولّد من الخصومة ظل يتغذى منها في جميع المراحل حتى حين تحوّل إلى مجرد سجلات تُغذي، بدورها، البحث البلاغي المنطلِق من خلفيات معرفية ومذهبية مختلفة كانت في حاجة ماسة إلى رصيد من الصور تعتمده في الدفاع عن طروحاتها، بل إنّ الخصومة في الأخير ستدخل إلى نسيج من التأليف البديعي، في مرحلة متأخرة، حين هيمن على الساحة في القرنين السابع والثامن الهجريين وما بعدهما "[3] .

**2- تنظيم البديع ونظمه:** يرى " العمري " أنّ تنظيم البديع نجم عن " التراكم الحاصل بين سجلات البديع بدون همٍّ منهاجي وكثرةُ ما أدرِج فيها إلى أمرين: الحاجة إلى البنية أو " التجنيس "، ثم الحاجة إلى النّظم والشّرح "[4]، حيث يقول في حالة " التجنيس " بأنّ " الجهد الذي بذله البديعيون لم يتجاوز " التصنيف " إلى " التفسير "، فهم وإن عايشوا الجدل حول " سر الفصاحة " و" أسرار البلاغة "، فإنهم لم يهتموا بكشف السر المختفي وراء كل الصور، ولهذا كانت مرحلة

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 61 .
[2] نفسه، ص : 61 .
[3] نفسه، ص : 62 .
[4] نفسه، ص : 62 .

التجنيس نفسِها بدون روحٍ؛ ولم تختلف كثيرا عن عملية النظم والتحنيط "[1]، وأما في حالة " النظم والشرح " فيرى العمري أنها " تدخل في نطاق " الوظيفة الحِفْظِيَّة للنظم " أي تسهيل الاحتفاظ بالصور والأمثلة في الذهن باعتبارها حقائق نهائية، وقد دُعِّمتْ هذه الوظيفة الحفظية بـ " وظيفة تحبيبية عاطفية جذابة " فكانت المنظومات بمحتوى ديني: مدح الرسول ﷺ ، ويمكن بسهولة أن يتخيّل المرء، في هذه الحالة، عمليةَ دفن بطقوسها وأجوائها "[2] .

هذا وبدراستنا لعملية استكشاف المكونات البلاغية للشعر عند العمري، نكون قد أنهينا مجالا من مجالي التداخل بين الشعر والبلاغة، ويبقى المجال الآخر الذي درسه " العمري " ضمن كتاب الحماسة لـ" أبي تمام "، وهو ما سنتناوله فيما يلي .

**ثانيا: البلاغة والاختيار (الحماسة نموذجا):**

قبل دراسته لكتاب " الحماسة "، اِستهل " العمري " حديثه أول الأمر عن الأسلوب الذي اِتبعه مؤرّخو النقد العربي القديم في دراساتهم، حيث أنهم اِنتهجوا طريقين اثنين، تمثَّلَ الطريق الأول في " تقصّي الملاحظات المفردة التي صدرت عن المستمعين للشعر حال إنشاده مباشرة أو عبر الرواية، سواء صدرت هذه الملاحظة عن الشعراء بعضهم لبعض كما وقع بين " طرفة " و" المتلمّس "، أو عن جمهور من المستمعين كما وقع " للنابغة " مع أهل المدينة، أو عن رواية الشعر وعلماء اللغة في عصر التدوين وما بعده، ويمكن أن نجمل – يقول " العمري " – ونسمِّي هذا النقد، بقطع النظر عن زمنه، " نقد ما قبل التأليف "، أو " ما قبل النظريّة "، أو " النقد غير المنهجي " في مقابل " النقد المنهجي " الذي اِهتم به مُحَمَّد مندور مثلا "[3] .

وأما الطريق الثاني فإنه يتمثل في " التعريف بالمؤلفات ومؤلفيها وذلك إما بتخليص محتوياتها أو مناقشة القضايا النقدية التي تثيرها، مثل " قضية اللفظ والمعنى والطبع والصنعة "، أو تتبع البيئات النقدية بالتعريف بها وبإشكالاتها النقدية، وقلّ من قرأ النقد الأدبي العربي من موقع نظري كما

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 64 .

[2] نفسه، ص : 46 .

[3] نفسه، ص : 66 .

فعل " مُحَمَّد مندور "، حيث كان النقد التطبيقي متحكما في رؤية المؤلف مستندا إلى ما يسميه الفرنسيون تفسير النصوص "[1] .

وفي هذا المجال يرى " العمري " بأنّ الأعمال العربية شحيحة جدّا، اللهم إلا ما قدّمه كل من " " جابر عصفور " أو " حمّادي صمّود "، إضافة إلى محاولته هو في كتابه " في بلاغة الخطاب الإقناعي" ، أو " الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية "، أو" إتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم "، أو في البعد التفسيري لكتابه البنية الصوتية في الشعر الحر، فمن هذه الأعمال ما يصرّح بالرغبة في الانتماء إلى تاريخ الأشكال ومنها ما يحوم حوله "[2] .

وبعد حديثه عن " الأسلوب " ينتقل " العمري " إلى " الرواية والاختيار "، وهنا يشير إلى ما دأب عليه المؤلِّفُون في هذا المجال في إستبعادهم كتب الطبقات والتراجم، والدواوين الشعرية مثل ديونا " هُذَيْل "، وذلك في رأيه يعود إلى " أنّ هَمَّ المؤلف ينصرف إلى الشعراء والقضايا التاريخية لا إلى إختيار الشعر "[3] .

وبخصوص التفريق بين " الرواية " و" الاختيار " يرى العمري بأن الرواية " تسعى عادة للمحافظة على التراث على عِلاَّتِهِ، فإن تعذّرَ ذلك فعلَى نَمُوذَجِهِ وصُورَتِه، في حين أنّ " الاختيار البلاغي " لا يهمُّه النموذج بقدر ما يهمه البحث عن القيم الخالدة، فنية ومضمونية، فالاختيار هو عمل الذات المتخيِّرة في تفاعلها مع النصوص، والرواية هي محاولة التطابق مع نموذج موجودٍ بكل حذافيره "[4] .

وبعد التمييز بين الرواية والاختيار الفني، يشير العمري إلى أهمية كل منهما، حيث اعتبر أنهما لعبا دورين مختلفين في تأسيس النقد الأدبي العربي، مستدلا على الرواية بعمل إبن قتيبة فيما تصوّره بناءً معياريا للقصيدة العربية، ومستدلا على الاختيار بعمل المرزوقي فيما أسماه عمود الشعر "[5]

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 67 .
[2] نفسه، ص : 67، 68 .
[3] نفسه، ص : 70 .
[4] نفسه، ص : 71 .
[5] نفسه، ص : 73 .

ولقد كانت قراءة العمري لكتاب الحماسة وفق ثلاث محطات هي:

أ- دائرة اختيار أبي تمام

ب- المحتوى الإنساني لاختيار أبي تمام

ج- من الاختيار إلى عمود الشعر

**أ- دائرة اِختيار أبي تمام:** إنَّ عمل أبي تمام في نظر " العمري " هو اِمتدادٌ لعمل كل من " الجاحظ "، و" اِبن المعتز "، و" هذه الأعمال تعتمد أساسا على الأمثلة التي تقدمها مُرَاعِيَةً تَشَعُّبَ الظاهرة وما تتميّز به من خصوصيات "[1]، وعليه يتّضح بأنّ عمل " أبي تمام " لم يكن منعزلا عن الدراسات البلاغية، فلقد اشترك مع " الجاحظ " في أمر واختلفا في آخر، فاشتركا في أنّ لـ" الاختيار" بُعْدًا تعليميًّا، واختلفا في النظرة العميقة التي ترجع إلى فلسفة إلى منهما، " وهي فلسفة منظرة عند " الجاحظ " بالاستناد إلى الطبيعة والعقل والشرع، انطلاقا من مرجعية اعتزالية في " المنزلة بين المنزلتين " و" العدل "، أما عند " أبي تمام " فتُترجم في صورة تفاعلية أو تفعيلية بين " الشكل " و" المضمون " من جهة، وبين " المكونات الشعرية المختلفة " من جهة ثانية "[2]، ف " الجاحظ " يرى أنّ البعد التعليمي للشاعر لا يمكن له أن يتعدّى حدود الطبيعة والعقل والشرع، ويمكنه أن يحتل منزلة بين المنزلتين، إما شاعر فحل وإما عكس ذلك، وإما بينهما؛ أما عند أي تمام فإن للشاعر منزلتان فقط، ومعرفة ذلك تعود إلى شكل ومضمون القصيدة ومكوناتها .

**ب- المحتوى الإنساني لاختيار أبي تمام:** يتمثل مفهوم " المحتوى الإنساني "، في مجموع القيم والمثل التي يشترك فيها جميع الناس ويطمحون معا إلى تحقيقها، ومردّها عند العمري إلى ثلاثة عناصر وهي:

1- البناء الفني البلاغي الذي يصل قمّته في صور السخرية .

2- العمق الفكري في تأمل الكون والإنسان وما ينتابُ الوجودَ من مفارقات .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 74 .

[2] نفسه، ص : 74 .

3- القيم الأخلاقية والمزايا البشرية مثلُ الكرم والشجاعة "[1] .

وفي هذا الإطار أورد " العمري " جدولا يُحْصِي فيه موضوعات الحماسة، والتي لاحظ من خلالها أنّ الأغراض المتعلقة بالشيم الحميدة والوفاء، تستبد وحدها بنسبة 68.53 %، عن البقية [2].

| الرقم | الموضوع | النسبة |
|---|---|---|
| 01 | الحماسة | %34.03 |
| 02 | المراثي | %16.10 |
| 03 | الأدب | %6.5 |
| 04 | النسيب | %13 |
| 05 | الهجاء | %8.45 |
| 06 | الضيافة | %11.9 |
| 07 | المدح | %3.06 |
| 08 | الصفات | %0.46 |
| 09 | السير والنعاس | %1.45 |
| 10 | المُلح | %2.95 |
| 11 | مذمة النساء | %1.82 |

**جـ- من الاختيار إلى عمود الشعر:** يشير هذا العنصر إلى " مفهوم المُثاقَفَة "، النّاجمة عن اِختلاط العربي بغيره من الناس في مجتمع واحد هو مجتمع الدولة الإسلامية خاصة في العصر العباسي، " ولا شك أنّ تيار هذه الثقافة التي حققتها النخبة في ذلك العصر المتميز قد وصل، ولو في حد أدنى منه، إلى الأذكياء من شُرّاح الشعر وعلى رأسهم " المرزوقي "، فمن خلال هذه الثقافة، ومن خلال الاحتكاك بمتن " الحماسة " من الاختيارات النقدية والروائية السائرة في طريق

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 74، 75 .

[2] نفسه، ص : 78 .

الحماسة والمخالفة لها اِكتشف المرزوقي اِستراتيجية اِختيار " أبي تمام " وَوَعَاهَا وعبَّر عن وعيه في أسئلة صريحة حول شرائط الاختيار وعمود الشعر "[1] .

هذا وقد اِحتوى عمود الشعر على الشروط التالية: 1- ملاءمة الوصف 2- الشرف 3- الصحة 4- الإصابة ( في الوصف ) 6- الصدق 7- البراءة ( البريء ) 8- الخصوصية والحسن ( الأخص والأحسن )، وجميعها مأخوذة من كتاب الموازنة للآمدي، الذي يقول فيه : " وأنا أجمع لك معاني هذا الباب في كلمات سمعتها من شيوخ أهل العلم بالشعر، زعموا أنّ صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود وتستحكم إلا بأربعة أشياء وهي: جودة الآلة، وإصابة الغرض المقصود، وصحة التأليف، والانتهاء إلى تمام الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة "[2]، وقد توالت الدراسات من مختلف النقاد والباحثين حول هاته الشروط الأربعة التي وضعها " الآمدي "، ومن بين أهم هؤلاء "، القاضي " علي بن عبد العزيز الجرجاني " المتوفى سنة 392هـ/1001م في كتابه " الوساطة بين المتنبي وخصومه "، الذي سلك مسلك " الآمدي "، فلا يُحَدِّدُ عناصر تصوره لعمود الشعر تحديدا صريحا، وإنما نتلمّس السبيل إلى ذلك، فقد ذكره في كتابه مرّة واحدة قال فيها: كانت العرب إنما تُفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبّه وقارب، وبده فأغزر، ولمن كثُرت سَوَائِرُ أمثالِهِ، وشَوَارِدُ أبياتِهِ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة، وإذا حصل لها عمود الشعر ونظم القريض .

وقد خرج الدّارسون من هذا النص بعناصر رأوا أن " الجرجاني " يعُدُّها مكونات عمود الشعر وهي: 1-شرف المعنى وصحته 2- جزالة اللفظ واِستقامته 3- المقاربة في التشبيه 4- الغزارة في البديهة 5- كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة "[3]، وإضافة إلى " عبد العزيز الجرجاني "، كان " للمرزوقي " دورا بَالِغًا في الكشف عن هاته العناصر وربطها بالجانب الأخلاقي لعملية التأليف،

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 83 .

[2] الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تح أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة 1992م، ص : 426 .

[3] أحمد بزيو، عمود الشعر، النشأة والتطور، مجلة الأثر، جماعة قاصدي مرباح، ورقلة، العدد2014/21م، ص : 34 .

على غرار ما يراه " العمري " في قوله: " فهذه الصفات المزدوجة الاستعمال معياريا ( أخلاقيا ) ومنطقيا، هي نواة تصور " المرزوقي " وصورته "[1] .

وقبل الخروج من هذا المبحث نستشهد بنص العمري الذي يشير من خلاله إلى كون النقد أصلا من أصول البلاغة العربية، حيث يقول: " يمكن أن نسمي هذا النقد، بقطع النظر عن زمنه، نقد ما قبل التأليف، أو ما قبل النظرية، أو النقد غير المنهجي في مقابل النقد المنهجي الذي اهتم به مندور مثلا (...) وينحصر همُّ هذا الاتجاه في استخراج المصطلحات والتعريف بها معجما ومصطلحا، دون البحث في النسق النظري الذي تشتغل فيه، وقد لَعِب بعض الشيوخ من الأساتذة السلفيين، مثل " عبد الله الطيب المجذوب " ، دورا كبيرا في بذر التوجه في الجامعة المغربية (خاصة جامعة فاس)، وتقترن هذه النظرة التوثيقية المفتّتة بنظرة سلفية تريد أن تجد كل شيء في المراحل الأولى لنشأة النقد العربي خاصة القرن الأول والثاني "[2] .

وفي ختام هذا المبحث نقول: إنّ لنقد الشعر تأثير بالغ على نشأة البلاغة العربية، وقد حاول " العمري " أنّ يبرز مدى هذا التأثير ليدلّ من خلاله على صحة مذهبه في اعتبار النقد أوّل أصل من أصول البلاغة، مقسّما عمله بين قسمين، قسم يتعلق بالقصيدة وحدها وما يكتنفها من غموض، أو خروج عن القاعدة، أو خلل فني، أو تعدّد المواضيع ... الخ، وقسم آخر يتعلق بالجانب البديعي للشعر العربي وعلاقته بالبلاغة، معتمدا في هذا القسم على كتاب الحماسة كأنموذج للدراسة والتحليل .

هذا وسوف نتناول في المبحث الموالي الأصل الثاني من أصول البلاغة العربية عند العمري، ألا وهو مجاز القرآن الكريم، الذي تناوله العمري تحت عنوان: البلاغة ومعيرية اللغة–مجاز القرآن .

**المبحث الثاني: البلاغة ومعيرية اللغة–مجاز القرآن:**

نتعرّف من خلال هذا المبحث على المؤثرات الخارجية التي ساهمت في بلورة " الدرس البلاغي العربي "، وقد كان من أهمها " القرآن الكريم "، و" الشعر الجاهلي "، والعلاقةُ بين هذين العاملَيْن المؤثّرَيْن، تكمُنُ في العدول عن القاعدة، وعدم قدرةِ البلاغيّين على معارضة هذا العدول في نفس

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 83، 84 .

[2] نفسه، ص: 65 .

الوقت، بسبب قُدْسِيَّة القرآن الكريم من جهة، وأَسْبَقيَّة تلك القصائد للفترة التي وُضعت فيها القواعد اللغوية من جهة أخرى، وعلى هذا الأساس، فقد وُضِعَ الأمر في حيّز " المجاز " بالنسبة للقرآن، و " الضرورة الشعرية "، بالنسبة للشعر .

**أ- مجاز القرآن:**

للقرآن الكريم مزايا شتىَّ، منها ما أَظهرتْه البلاغة، ومنها ما أَظهرَهُ النحو، ومنها ما أظهرتْه بقيَّةُ العلوم على اِختلافها، وقد وُصِفَتْ هاته المزايا بـ" الإعجاز "، فيقال: الإعجاز البلاغي، والإعجاز العلمي، والإعجاز العددي ... الخ، وذلك تقديسًا لكلام الله عز وجل، الذي عَجَزَتْ فَطَاحِلُ الشعراء، وأَربابُ البيان على معارضته، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء:88] .

والإعجاز في كلام الله تعالى أول ما يظهر، كان في الجانب البياني، لما للعرب من اهتمام منقطع بالنظير بالبلاغة والبيان، ثم توالت بقية أنواع " الإعجاز "، حتى أنّ بعض العلماء حَصَرُوا الإعجاز كُلَّهُ في البيان، ومنهم مَنْ رأى الإعجاز في مجالات عدّة، وهذا مَا ذَهَبَ إليه " صلاح عبد الفتاح " في قوله بأنّ " مِنَ العلماءِ منِ اِكتفَى بالقول بالإعجازِ البيانيّ، ومنهُمْ مَنْ أضافَ لهُ وجوهًا أخرَى تتعلَّق بمضامينِ القرآنِ وموضوعاتِهِ وحقائِقِهِ، فقال بالإعجازِ العلميّ، والإعجازِ الغيبيّ، والإعجازِ التشريعيّ، والإعجازِ النفسيّ، والإعجازِ العدديّ، والإعجازِ الطبيّ، والإعجازِ الموسيقيّ، والإعجازِ الحركيّ ... ومنهُمْ مَنْ قال بالإعجازِ بالصَّرْفَةِ، ومنهُمْ مَنِ اِعتبر السُنَّةَ معجزةً كالقرآنِ، فقال بالإعجازِ في القرآنِ والسُنَّةِ، وازدادَ الخلطُ في موضوعِ الإعجازِ وحقيقتِهِ كثيرًا في هذا الزمانِ "[1]، وفي هذا إقرار بعجز المخلوق أمام قدرة الخالق في كل ميادين الحياة .

وبالنسبة للبلاغة العربية فإنّ الإعجاز فيها لا يتوقف عند الألفاظ التي عجزت العرب على تقليدها، وإنما يَتَعَدَّاهَا إلى الألفاظ التي لم تكُنِ العربُ أصلاً لِتَقْبَلَهَا، طالما أنها تَشُذُّ عن القاعدة، لكنها وَجَدَتْ نَفْسَهَا مُجْبَرَةً على قبولها، لكونها جاءت ضمن كلام الله تعالى، فالعربُ هنا عجزت عن أمرين، عن رفض ألفاظٍ لا تراها تُوافق القواعد التي وَضَعَتْها، وعن تقليد هاته الألفاظ في حال

[1] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1421هـ/2000م، ص : 105 .

أرادت تقليدها، وهذا النوع من الإعجاز، يُسَمَّى في الدراسات البلاغية، بالمجاز القرآني، فما المقصود بالمجاز؟ وما علاقته بالدرس البلاغي يا ترى؟ .

لقد جاء في " معجم التعريفات "، " لعلي الجرجاني " ، بأنّ المجاز " اِسمٌ أُريد به غير ما وُضع له، لِمُنَاسَبَةٍ بينهما، وهو " مُفْعِل " بمعنى " فاعل " ، مِنْ جَازَ إذا تعدّى، كالمولى سُمِّيَ بِهِ، لأنّهُ مُتَعَدٍّ مِنْ مَحَلِّ الحقيقةِ إِلَى مَحَلِّ المجاز "[1]، فمناط الأمر عنده يكمن في تحديد موقع الكلمة من الحقيقة، فكلّ ما تجاوزَ الحقيقة دخل في حيّز الكلام المجازي، وعلى هذا يستنبط التعريف الاصطلاحي لمفهوم المجاز، الذي أسهب فيه البلاغيون كثيرا، من أيام القزويني والسكاكي، وغيرهما، إلى يومنا هذا .

ولقد ارتأينا أن نعتمد في الجانب الاصطلاحي على ما تبنّاه الباحث السعودي أحمد بن الصادق في تعريفه للمجاز إذ يقول: " المجاز الذي اصطلح عليه المتكلّمون عرّفوه بقولهم: هو اللفظ المستعمل في غير ما وُضع له أوّلا، وهو عندهم مبنيٌّ على وضعين، وضعٌ أوّلٌ، ووضع ثانٍ، ومعناه أنّ العرب اجتمعوا، فاتفقوا فيما بينهم على وضع معنى للفظ ثم استعملوا اللفظ لذلك المعنى، مثلا: " الأسد "، وضعُوهُ للحيوان المفترس، ثم استعملوه في هذا المعنى، وهذا يسمى بالوضع الأول، ثم اجتمعوا بعد ذلك، فوضعوا اللفظ معنى آخر، ثم استعملوا اللفظ لذلك المعنى، مثلا: استعملوا " الأسد " في الرجل الشجاع، وهذا يسمى بالوضع الثاني "[2]، وهذا التعريف قد بسَّطَ لنا مفهوم المجاز أكثر في توظيفه مثال " الأسد "، فكلمة " أسد " إذا انْتَزَعْنَاهَا مِنْ مَدْلُولِهَا اللغويّ، نَجِدُهَا عبارةً عن ثلاثة حروف مجتمعة (أ، س، د) فإذا وضعناها في المعجم قَابَلَنَا المفهُومُ الأوَّلُ لها، الذي يشير إلى ذلك الحيوان المتوحش الذي يعيش في الغابة، والموصوفُ بالشجاعة والإقدام، ثم تُقَابِلُنَا مدلولاتٌ أخرى، تتبع هذا المدلول، شرط أنْ تكون هنالك علاقة ضمنيَّةٌ بينها، كالرجل الشجاع مثلا، وهذا ما يُعْنَى المجاز بدراسته حين ينقل لفظة ما من مدلول إلى مدلول آخر .

---

[1] علي بن مُحَمَّد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: مُحَمَّد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى، 2004م، ص: 169 .

[2] أحمد بن مُحَمَّد بن الصادق، النجار، المجاز في لغة العرب، مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1435هـ، ص: 15، 16 . الرابط: كتاب المجاز في لغة العرب http://WWW.NOOR-BOOK.COM/

ويقدّم لنا " الأزهر الزنّاد " طرحًا آخر يرى فيه أنّ " المعنى في " الخطاب المجازي "، يقوم على حَرَكَتَيْن، أولاهما يَحكُمُها الوضع، أيْ وجهُ الحقيقة، وثانيتُهما يَحكُمُها العقل، وتتوسّط القرائن لتغليب الأولى، فيخرُجُ الكلام مَخْرَجَ الحقيقة، أو لتغليب الثانية فيخرُجُ مَخْرَجَ المجاز، ففي مثال " أطلّت الشمس " ينتقل الذهن بِحُكْمِ الوضع إلى المعنى الحقيقي، فإذا ما تَدَعَّمَ ذلك بالقرائن الحالية، اِستقرّ الأمر في الحقيقة، وإن لم يكن ذلك عاد إلى " الفتاة ذات الوجه الصّبوح "، بتوسّط العقل الذي يعتمد القرينة المقامية المتمثلة في إطلال تلك الفتاة من النافذة، فيستقرّ الأمر في المجاز "[1]، وفي طرح الزنّاد رؤية جديدة كشفت عن القرائن المتعارف عليها ضمنيا بين البشر، وما تَوَافَقَ عليه أبناء المنطقة الواحدة، على الفكرة الواحدة، فتكون رمزا لهم يتواصلون به، دون الحاجة إلى تفسير .

وعلى أيّ حال فإنَّ كُلَّ هاته التعريفات، قد أجمعَتْ على أنّ المجاز لا يكون إلا فيما هو مخالف للحقيقة، على أن يكون انطلاقه منها مباشرة، فمَنْ وَصَفَ الرجُلَ الجبان بأنه " أسد "، لا يكون كلامه مجازيّا، لعدم وجود علاقة بين الأسد وصفة الجبن، ومَنْ وَصَفَ المرأةَ القبيحة بالشمس لا يكون كلامه أيضا مجازيا لعدم وجود علاقة بين ضوء الشمس ووجه تلك المرأة، إلا أنْ يكون كلامُهُ على سبيل التَّهَكُّمِ والسُّخرية .

وهذا كله عن المجاز في لغة العرب، وقد أخذْنا منه أمثلةً عرفنا مِنْ خلالها ما المقصود به، ولكن ماذا عن المجاز في القرآن الكريم؟ ما مفهومه؟ وما الذي يفرّق هذا المجاز عن المجاز اللغوي؟ ثم ما علاقته بالدرس البلاغي العربي يا ترى؟ .

لعلّ أوّل مَنْ كتب في أساليبِ الخطابِ، وأفانِينِ البيانِ القرآنيّ، هو العالم اللغوي، أبو عبيدة معمر بن المثنى، في " مجاز القرآن "، وقد نوّه " مُحَمَّد فؤاد " مُحَقِّقُ الكتاب، بأنَّ مفهوم " مجاز القرآن " عند " أبي عبيدة "، قد أخذ أبعادا أخرى، جَمَعَتْ بين الشرح، والتفسير، والحديث عن غريب القرآن، والتأويل وغير ذلك، حيث يقول: " ومهما كان الأمر فإنّ أبا عبيدة يستعمل في تفسيره للآيات هذه الكلمات " مجازه كذا "، و" تفسيره كذا "، و" معناه كذا "، و" غريبه"، و" تقديره "،

[1] الأزهر الزنّاد، دروس البلاغة العربية، نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 1992م، ص: 44 .

و" تأويله"، على أنّ معانيها واحدة أو تكاد، ومعنى هذا أنّ كلمة " مجاز " عنده عبارة عن الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعمّ بطبيعة الحال من المعنى الذي حدّده علماء البلاغة لكلمة " المجاز " فيما بعدُ "[1]، ومن هنا جاء اهتمام " مُحَمَّد العُمري " بمجاز " أبي عبيدة "، في البحث عن معيرية اللغة العربية، لذلك فهو يَعُدُّهُ " أقدمَ وأوسعَ محاولةٍ لِمَدِّ الجسور بين النص القرآني والعربية، عبر النص الشعري، وتقاليد القول العربي "[2]، كما يرى بأنّ " إشكالات المجاز عند " أبي عبيدة " تندرج ضمن خمسة عناصر هي: أ-تداخل الضمائر وتبادلُها المواقع، ب- اِختلاف أوجُهِ الإعرابِ والقراءات، جـ- اِستعمالُ اللفظ في غيرِ موقِعِهِ المتوقَّع ومخالفة ظاهرِ القول، د- الزيادة والنقصان في تركيب الكلام، هـ- النقل والإلحاق الدلالي "[3]، مقدّما أمثلة قرآنيّة عن كلّ عنصر .

**1- تداخل الضمائر وتبادُلها المواقع:** ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ [التحريم:04]، فجاءت " ظهير "، في موضع " ظُهَرَاء "، والعكس هو الصحيح، لأنّ الملائكة " جمع "، وليست " مفرد "، والوجه البلاغي عند أبي عبيدة هو " المجازات المرسلة "[4] .

**2- اختلاف أوجه الإعراب والقراءات:** ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا [المائدة:38]، فالتخريج عند أبي عبيدة، هو ما يتعلق بالرفع والنصب، أي اختلاف القراءات بين الرفع (السارقُ والسارقةُ)، والنصب (السارقَ والسارقةَ) [5] .

**3- اِستعمالُ اللفظ في غيرِ موقِعِهِ المتوقَّع ومخالفة ظاهرِ القول:** ومثاله قوله تعالى: وَهَـٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَـٰرُ تَجۡرِى مِن تَحۡتِىٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ [الزخرف:51]، ومجازه بل أنّ خير من هذا الذي هو مهين، فاستعمل الحرف في غير موقعه [6].

---

[1] أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تح: مُحَمَّد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، 1484هـ/1954م، ص: 19 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 94 .

[3] نفسه، ص : 97 .

[4] نفسه، ص: 96 .

[5] نفسه، ص: 98 .

[6] نفسه، ص: 99 .

**4- الزيادة والنقصان في تركيب الكلام:** ومثاله قوله تعالى: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ [القيامة:34]، حيث تظهر هنا زيادة ناجمة عن تكرار لفظة أولى [1] .

**5- النقل والإلحاق الدلالي:** ومثاله قوله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ [لقمان:34]، والنقل هنا يظهر في لفظة الصعر، التي هي داء يأخذ البعير، لكنها نقلت إلى الإنسان [2].

ولقد صنّف " العمري " " المجاز " عند " أبي عبيدة " إلى صنفين هما:

**1- القسم الأول:** مجازاتٌ عبارة عن إشكالاتٍ ذاتِ طبيعةٍ تاريخيَّةٍ، تتعلَّق بتطوُّرِ اللغة معجمًا ولهجات وتقنياتِ كِتابَة، وهي إشكالاتٌ أمْكَنَ تجاوُزُها عن طريق تفسيرِ المُفردات والمُقارَنَة، ثم الاختيار بين اللهجات وضبط تقنيات الكتابة .

**2- القسم الثاني:** مجازاتٌ نصيَّةٌ، أي أنها تدخل في نسيج النص، وتُسافِر معه عبر تاريخه، وتُفْسِحُ المجالُ واسعًا للمؤوَّل، وهي تنقسم إلى: مجازات تثير إشكالات داخل البناء النحوي، ومجازات تتعلق بنقل الدلالة ومخالفة المعنى لظاهر القول، وإلحاق العوالم والمفاهيم بعضها ببعض "[3] .

فالقسم الأول يُقصدُ به ما تواضع الناس عليه في لغة ما، ومثل هذا أغلب ما يكون في الأمثال والحكم، فهي غير معني بالقواعد البلاغية، بقدر ما هي معنية بتكرار نفس الظاهرة، لتُذكّر بالكلام نفسه الذي قيل في زمن مضى .

وأما القسم الثاني، فإنه معنيٌّ بالمجازات المدروسة التي وضعها علماء البلاغة، والتي يستعان بها في الاستشهاد، وهي التي تعنينا في هاته الدراسة .

**ب- الضرورة الشعرية بين العيب والمزية:** من المعلوم أنّ هنالك التزامات تُفرَضُ على ناظم الشعر، والتي تندرج ضمن الوزن والقافية، والروي، وهاته التزامات لا يخلو منها أيّ شعر مهما كان، عموديّا، أو حرّا، أو شعرا منثورا، وقديما عُرّف الشعر بأنه " القولُ الموزون المقفّى الدّال على

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 100

[2] نفسه، ص: 101 .

[3] نفسه، ص: 105 .

معنى "[1]، وقد يخطئ البعض من الناس حين يَرَوْنَ في الشعر الحرّ مدعاةً للتنصُّل مِنْ سيطَرَةِ القافية والروي، بدعوى أنّ مِثْلَ هذا الشِّعْرِ غيْرُ معنيٍّ بهما، وهذا في اعتقادنا رأيٌ مجانب للصواب، فالشعر الحرّ معني هو الآخر بالروي، وبالقافية، والوزن، كحال الشعر العمودي، إلا أنه يتمّيز بحرية التنقل من روي لآخر، ومن قافية إلى أخرى، فحريّته في التغيير لا في التنصّل، وإلا لما كان شعرا، ولما كان هناك فرق بينه وبين النثر .

وفي الحالة التي يضطر فيها الشاعر إلى مخالفة الالتزامات المفروضة عليه، فإنّ قصيدته، أو البيت الواحد منها، أو حتى اللفظة الواحدة، توضعُ في إطار " الضرورات الشعرية "، التي تيسّر له المُضِيَّ قُدُمًا في بناء القصيدة، وتمنح له رخصة استثنائية لا تُمنح للناثر .

ومن النادر جدّا أن نجد شاعرا عربيا، قديما كان أو حديثا، لم يضطرّ إلى مخالفة القواعد العروضية، اللهم إلاّ ما كان من فحول الشعراء الأوائل، كـ " امرئ القيس بن حجر الكندي "، ومَنْ كان على شَاكِلَتِهِ من الشُّعَرَاءِ، وهذا ما يدلّ على أهمية وجود الضرورات الشعرية في القصيدة العربية، فما المقصود بالضرورات الشعرية من حيثُ اللغةُ والاصطلاحُ يا ترى؟ .

في " معجم التعريفات "، لعلي الجرجاني عُرّفت " الضرورة بأنها تلك التي يُحكم فيها بضرورة ثبوت المحمول للموضوع، أو بضرورة سَلْبِهِ عنه ما دام ذات الموضوع موجودة (...) والضرورة مشتقة من الضّرر، هو النازل مما لا مدفع له "[2]، وكون الضرورة مشتقة من الضَّرَرِ، في المعنى المعجمي، فإنّ هذا يوحي بأنّ الشاعر حين يضطر إليها يكونُ قد تضرّر تلقائيا مِنْ وجودها، بقدر ما تتضرّر قصيدته، على الرغم مِنْ أنها كانت بمثابة رخصة له في مخالفة القاعدة العروضية، وهذا الأمر يعدّ من المفارقات العجيبة التي لا تخلو الحياة منها، إذْ كيف يتضرّر المرء من حضور شيء ما، ويتضرّر من غيابه أيضا؟ .

وفي " المعجم المفصّل "، لإيميل يعقوب، جاء مفهوم " الضرورات، أو الضرائر، أو الجوازات الشعرية، بكونها رُخصا أُعطيت للشعراء دون الناثرين، في مخالفة قواعد اللغة وأصولها المألوفة، وذلك بهدف استقامة الوزن وجمال الصورة الشعرية، فقيود الشعر عدّةٌ، منها الوزن، والقافية،

[1] ينظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 53 .

[2] علي الجرجاني، معجم التعريفات، ص: 117 .

واختيار الألفاظ ذات الرنين الموسيقي والجمال الفّني، فيضطرّ الشاعر أحيانا، للمحافظة عليها، إلى الخروج على قواعد اللغة من صرف ونحو وما إليها "[1]، وهذا التعريف مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يوسّع نطاق الضرورة الشعرية لتشمل كل قواعد اللغة فضلا عن القواعد العروضية، ومنه يكون الشاعر على سعة من أمره يعبّر عن أحاسيسه كيفما شاء .

والذي ذهب إليه " إيميل يعقوب " ، هو نفسه ما ذهبت إليه الباحثة الجزائرية مباركة خقاني، حين عَرَّفَتِ الضرورة الشعرية بكونها مصطلحا " يطلقه النحاة والنقاد العرب القدماء على العديد من الظواهر اللغوية المختلفة، التي نجدها موزّعة مبثوثة في أبواب النحو والصرف معا، وكذلك في كتب النقد الأدبي القديم، فقد ظنّ النحاة والنقاد أن الوزن والقافية في الشعر يُلجئان الشاعر إلى ارتكاب ما هو غير مألوف في النظام اللغوي "[2] .

ومن خلال هذه التعريفات نجد أنّ الضرورة الشعرية قد تنقّلت من التحرّر من التزامات الوزن والقافية، إلى التحرر من التزامات القواعد اللغوية ككل، لتُصْبِحَ عبارة عن مُتَنَفَّسٍ يَجِدُ فيه الشاعر فُسْحَةً في تبرير هاته المخالفة، وهذا التنقّل الملحوظ هو الذي نوّه به مُحَمَّد العمري في اعتباره أنّ التحرّر " يمتد من التصرّف في الكلمة بحذف جزءٍ منها، إلى تعقيد العلاقات الدلالية بالتقديم والتأخير والحذف والإبدال عبر التصرّف في الأوجه الإعرابية، ويتم ذلك كله ضمن مفهوم التوسع في اللغة بما يقتضيه الإنجاز ويسيغه الحمل والإلحاق عن طريق التشبيه والتوهم، وغير ذلك من الآليات التي تشغلها الذات والأعراف الفنية للشعر والخطابة، ويكون ذلك وفق آليتين هما: الإرجاع عن الأصل كفك الإدغام، مثل: ضننوا في ضنّوا، أو الحمل والتشبيه، مثل: تشبيه إذا بـ إن "[3]، وفي الطرح يكشف العمري عن أبعاد الضرورات الشعرية التي تشمل الجانب المعجمي، والدلالي، والبلاغي، وحتى ما يتعلّق بالأعراف الفنية للشعر والخطابة، وبوصولها إلى هذين المجالين

[1] إيميل بديع يعقوب، المعجم المفصّل في علم العروض القافية وفنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، 1411هـ-1991م، ص: 304 .

[2] مباركة خقاني، التحريف اللغوي في الشعر العباسي، رسالة ماجيستير، إشراف: د. أحمد جلايل، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، السنة الجامعية، 2004-2005م، ص: 70 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 120 .

(الشعر والخطابة) ، تكون قد دخلت في حيّز الدراسات البلاغية، فالبلاغة عند العمري، تجمع بين الشعر والخطابة، ولا تلغي أحدهما لحساب الآخر .

من هنا تصبح " الضرورة الشعرية "، عاملا مُهِمًّا في " معيرية اللغة العربية "، بالإضافة إلى مجاز القرآن الكريم الآنف الذكر، كما أنّ لهما تأثيرا بالغا في تطوُّرِ الدراسات البلاغية، الذي تعكسه أعمال أولئك البلاغيين الذين حاولوا الإبانة عن جمالية النص القرآني والدفاع عن شذوذ البيت الشعري، ما أسهم في اكتشاف فنون بلاغية جديدة، وهو ما نستشفه من قول العمري: " وقد اِستثمر مجموعة من الأصوليين واللغويين مفهوم المجاز والضرورة الشعرية، في بناء نظريات جديدة في اللغة، كـ" شجاعة العربية "، التي نجدها عند اِبن جني، وقد " جعل المجاز يغطي جميع المقولات التي تؤطر الضرورة من زيادة وحذف وتقديم وتأخير وتحريف "[1]، وهذا ما يدلّ على أهمية المجاز والضرورة الشعرية بالنسبة للدرس البلاغي العربي، وفي وضع الأسس الأولى لهذا الدرس، حتى أنّ العمري نفسه، وضع الضرورة والمجاز القرآني في مرتبة موازية لمرتبة الحاكم للدولة الإسلامية في القرون الأولى، حيث يقول: " يمكن اعتبار الفترة الممتدة بين منتصفي القرنين الأول والثاني الهجريين، فترة البحث عن معيارٍ للغة، معيارٍ يستوعب الشتات اللهجي والتنوّع النصي كما استوعبت الخلافة أو شاءت أن تستوعب الشتات القبلي والطائفي"[2]، وهذه المقارنة التي وضعها العمري كفيلة بتبيان دور الضرورة والمجاز القرآني .

لقد أفرزت الدراسات التي تناولت موضوعا المجاز القرآني والضرورة الشعرية، إلى البحث في الإعجاز القرآني، وذلك لما للموضوعين من تداخل كبير، كنّا قد نوّهنا به في بداية هذا المبحث، وهذا البحث كان له انعكاس إيجابي على الدرس البلاغي، إذ دفع به دفعة قوية نحو التأليف، ما جعل العمري يعتبر الإعجاز القرآني أصلا ثالثا من أصول البلاغة العربية .

**المبحث الثالث: من تبرير المجاز إلى بيان وجه الإعجاز:**

إنّ موضوع " الإعجاز القرآني " من بين أهم العوامل التي أثّرت على مسار البلاغة العربية، وساهمت في بلورة درسها، وهو يقترب إلى حدٍّ كبيرٍ مِنْ موضوعِ " المجاز " الذي عرفناه في المبحث

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 127 .

[2] نفسه، ص: 87 .

السابق، ويمكن القول إنّ الاختلاف بين موضوعي " المجاز " و" الإعجاز "، من الصعب إبرازُهُ لِمَا بين الموضوعيْن مِنْ تداخُلٍ .

ولقد كُنَّا أشرْنَا فِي المبحث السَّابق إلى أنواعٍ مِنَ الإعجازِ القرآنيّ، وقُلنا بأنَّ أَهَمَّهَا هو " الإعجاز البياني "، لِكَوْنِهِ جَاءَ خَادِمًا للبلاغة العربيَّةِ، ولِكَوْنِهِ أيْضًا مِنَ المزايا التي تَمَتَّعَ بِهَا المجتمع العربي قَبْلَ الإسلام، فجاءت معجِزةُ النبي ﷺ معجِزةً بيانيَّةً فِي ظَاهِرِهَا، وهكذا كان الحالُ عَلَى مَرِّ السِّنين، فمعجزةُ كُلِّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ مما يُحسِنُهُ قومُهُ، فَعَلَى سَبِيلِ المِثالِ، فِي عهْد سيّدنا مُوسى عليه السلام ، كان السِّحْرُ مِنْ العُلومِ السَّائدة، فجاءت مُعْجِزَتُهُ فِي أنْ أَدْهش سَحَرَةَ فرعونَ بِعَصَاهُ، التي تَحَوَّلَتْ في لَمْحِ البصرِ إلى ثُعْبَانٍ يَلْتَهِمُ مَا سَحروا أعيُن الناسِ بِهِ، قال الله تعالى:وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ [الأعراف:113-114-115-116]، وقدْ ذَكَرَ الحافظ اِبْنُ كثيرٍ في " البداية والنهاية "، هاته القصة قائلا: " وذلك أنّ مُوسى عليه السلام، لَمَّا تَقَدَّمَ وأَلْقَاهَا، صارَت حيَّةً عظيمَةً ذاتَ قَوائِمَ، وَعُنُقٍ عَظِيمٍ، وشَكْلٍ هائِلٍ مُزْعِجٍ، بحيثُ إِنَّ النَّاسِ انْحَازُوا مِنْهَا، وَهَرَبُوا سِرَاعًا، وتَأَخَّرُوا عَنْ مَكَانِهَا، وأمَّا السَّحَرَةُ فَإِنَّهُمْ رَأَوْا مَا هَالَهُم وحيَّرَهُم فِي أمْرِهِمْ، واِطَّلَعُوا عَلَى مَا لَمْ يَكنْ فِي خَلَدِهِمْ، وهنالك تَحَقَّقُوا بِمَا عنْدَهُم مِنَ العِلمِ أنَّ هذا ليْس بِسِحرٍ، وكشَفَ الله عَنْ قُلوبِهِمْ غِشاوةَ الغَفْلَةِ، وَأَنَابُوا إلى ربِّهِم وَخَرُّوا لَهُ ساجِدِينَ "[1]، وهذا مثَالٌ واحدٌ عَنْ طبيعَةِ المُعجزاتِ التِي عُرِفتْ فِي زَمَنِ مَا قَبْلَ بِعْثَةِ رسول الله ﷺ ، التي اِنْتَهَتْ بانتقَالِ أصْحَابِهَا إِلَى الرَّفِيقِ الأعلى، بخلاف المُعجِزَةِ القرآنيَّةِ الخالِدَةِ .

وَلَرُبَّمَا يزْعُمُ البعضُ بأنَّهُ قَدْ كَانَ لبَعْضِ الأنْبِيَاءِ مَا كَانَ لِنَبِيِّنَا ﷺ، مِنْ كُتُبٍ مُنَزَّلَةٍ، كالتوراة والإنجيل، وَكانَ لِنَبِيِّنَا أيضا، مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مُعْجِزَاتٍ حِسِّيَّةٍ، كانْشِقَاقِ القَمَرِ، وقصَّةِ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ، وما إلى ذلك مِنَ المعجزاتِ، فما الذي يميّزُ معجزة النبي مُحَمَّد ﷺ عَنْ غَيرِها مِنْ مُعجزاتِ الأنبياء والرسل؟ .

[1] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، المجلّد الأول، تح: عماد زكي البارودي، خيري سعيد، دار التوفيقية للتراث، القاهرة- مصر، سنة الطبع، 2011م ص: 274 .(نسخة ورقية)

والجوابُ عَلَى هذا السؤال يَكْمُنُ فِي أَنَّ مُعْجِزَةَ القُرآنِ الكَرِيمِ اِنفَرَدَتْ بِخُلُودِهَا عبر الزَّمَنِ، وعدَمِ القُدرةِ عَلَى تحرِيفِهَا، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر:09]، بالإضافَةِ إِلَى تَوَالِي الاكتشافاتِ العِلمَيّةِ المؤَكِّدَةِ لما جاء بِهِ القرآنُ الكريمُ، فِي شَتَّى الميادِينِ، ما أَدَّى إِلَى تَنَوُّعِ الإِعَجَازِ بينَ عِلْمِيٍّ، ونَفْسِيٍّ، وغيرِ ذَلكَ مِنَ الأَنْوَاعِ التي ذَكَرنَاهَا فِي المبحَثِ السَّابِقِ .

وإذا كان الإعجَازُ القُرْآنِيُّ على هَاتِهِ الأهميَّةِ البَالِغَةِ، فَقَدْ أَصْبَحَ مِنَ الضّرُورِيّ الآنِ أَنْ نُشِيرِ إلى مَفْهُومِهِ اللُّغويّ والاصطلاحِيّ، قَبْلَ النَّفَاذِ إلى دراسةِ العُمَرِيّ لَهُ، فَما مفهُومُ الإعجازِ يَا تُرَى؟

جاء في " اللسان "، بأنّ الإعجاز هُو مِنْ العَجْزِ، و" العجزُ: نقيض الحزم، عَجَزَ عَنِ الأمرِ يَعْجِزُ، وعَجِزَ عَجْزًا فيهما، ورَجُلٌ عَجِزٌ وعَجُزٌ، عَاجِزٌ، وعَجَّزَ فُلاَنٌ رَأيَ فُلاَنٍ، إذا نَسَبَهُ إلى خلافِ الحَزْم، كأنه نَسَبَهُ إلى العَجْزِ، ويقال: أَعْجَزْتُ فُلانًا، إذا أَلْفَيْتَهُ عاجِزًا؛ والمُعجِزَةُ، والمَعْجَزَةُ: العَجْزُ (...) ومعنى الإعجاز: الفَوْتُ والسَّبْقُ، يقال: أعجَزَنِي فلانٌ أي فاتني، ومنه قول الأعشى:

فَذَاكَ وَلَمْ يُعْجِزْ مِنَ المَوْتِ رَبَّهُ وَلَكِنْ أَتَاهُ المَوْتُ لاَ يَتَأَبَّقُ [1]

وقال الليث: أعجَزَنِي فُلانٌ، إذا عجَزتُ عن طَلَبه وإدراكِه . والمُعْجِزَةُ: واحدةُ معجزاتِ الأنبياء عليهم السلام "[2]، ونحن نرى أنّ هذا التعريف قد حمَل بين طيّاته مجموعة مِنَ الدّلالات التي تجتمع في فكرةٍ واحدةٍ وهِيَ العَجْزُ عَنِ القِيَامِ بأمْرٍ مَا، حتى وإنِ اِسْتُنْفِدَتْ كُلُّ الإمكاناتِ المتوَفِّرَةِ، ومثْلُ هذا هو الذي ينال المرءَ حِينَ يُحاوِلُ عَبَثًا أنْ يُعانِدَ الفطرةَ السَّليمَةَ التِي فَطَرَ الله النَّاسَ عليها، وهي فطرَةُ الإيمانِ بالله تعالى، والتصديقِ بمعجزاتِ رُسُلِهِ عليهم السلام .

وعلى هذا الأساس فإنَّ المعجزة أو الإعجاز، في اعتقادنا، لم تكن نابعةً مِنْ أَمْرِ النَّبِيّ وَحْدَهُ، أو الله عز وجل، بل كان للعصاة فيها دَوْرٌ، ذلك أَنَّهُمْ عَارَضُوا المنهجَ القويمَ والفطرَةَ السَّلِيمَةَ، حتى أنّ منهم مَنْ طَالَبَ الأنبياءَ أنْ يأتُوهُمْ بالمعجِزَاتِ عَلَنًا، فِي صورةٍ من التعجرفِ والتطاول على الله وعلى أنبيائه، ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن

[1] ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، تح: د. مُحَمَّد حسين، مكتبة الآداب، الجماميز، ب، ط، ب، ت، ص: 33 .

[2] ابن منظور، لسان العرب، المجلد السادس، تح: نخبة من السادة الأساتذة المتخصّصين، دار الحديث، القاهرة–مصر، سنة الطبع، 1434هـ-2013م، ص: 97، 98 . (نسخة ورقية)

نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ [الإسراء:90، 91، 92، 93] ولو أنهم آمَنُوا مِنْ أَوَّلِ الأمْرِ لما كَانُوا بحاجَةٍ إلى مُعجِزَةٍ، عَدَا مَا تَعَلَّقَ بمعجزة نبينا ﷺ أي " القرآن الكريم "، لأنه جاء بالموازاةِ مَعَ ظهورِهِ ﷺ، بل وكان الوحيُ مُؤَيِّدًا لَهُ في كُلِّ فترةٍ مِنَ الفَتَرَاتِ التي مَرَّ بها، وهذا أمرٌ آخرُ يميّزُ مُعجِزَةَ القرآن عَنْ غيرها مِنَ المعجزات .

وفي القرآن الكريم ذُكِرتْ لفظة " الإعجاز " في عدة مواضع، كقوله تعالى: ﴿٥٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ [الأنفال:53]، التي فسّرها " القرطبيُّ " بقوله: " قوله تعالى: وَلا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ أي: مَنْ أفْلَتَ مِنْ وقعة بدر سَبَقَ إلى الحياة، ثم استأنف، فقال: إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ أي: في الدنيا، حتى يُظفرك الله بهم، وقيل: يعني في الآخرة، وهو قول الحسن "[1]، والمعنى الذي أراده القرطبي من خلال هذا التفسير، يقارب إلى حدّ كبير التعريف اللغوي للإعجاز، فالذين أفلتوا من كفار قريش في معركة بدر الكبرى، لن يعجز عنهم النبي ﷺ، وهم محاسبون لا ريب، إنْ في الدنيا أو الآخرة، إلا من تاب منهم، فإن الله يتوب عليه، قال تعالى: ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ [المائدة:39] .

هذا عن الجانب اللغويّ، وأما في الاصطلاحِ، فإننا قد وَجَدْنَا للإعجاز القرآني تعريفاتٍ عديدةٍ لأكثرَ مِنْ عالِمٍ أو باحث، لعلّ أهمها هو تعريف مصطفى صادق الرافعي الذي ذهب فيه إلى أنّ " القرآن مُعْجِزٌ بالمعنى الذي يُفهَمُ مِنْ لفظِ الإعجازِ عَلَى إطلاقِهِ، فهُوَ أمْرٌ لا تبلُغُ مِنْهُ الفِطْرَةُ الإنسانيَّةُ مبلغًا، وليسَ إلى ذلك مأتَى ولا جهة، فهو معجِزٌ في تاريخه دون سائِرِ الكتبِ، ومُعْجِزٌ في أثرِهِ الإنساني، ومُعجزٌ كذلك في حقائقه، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء "[2]، وهذا التعريف قد أخذ منحى عقليا منطقيّا، فهو لم يتناول الأحداث التي تكلّم عنها القرآن وصدّقها الزمان، ولا غير ذلك من المعجزات، ليتّخذا دليلا، يعتدّ به، وإنما عمل على حسم

[1] أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المجلّد العاشر، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ومُحَمَّد رضوان عرقسوي، وماهر حبّوش، مؤسسة الرسالة، بيوت– لبنان، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م، ص: 53 .

[2] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، الطبعة التاسعة، 1393هـ/1973م، ص: 156 .

المسألة من أوّلها، في كون القرآن معجز على الإطلاق، تبعا للفطرة فكلّنا نعلم في قرارات أنفسنا بأنه معجز، وأنه لا ينبغي لبشر أن يفتريه مهما كان .

أما " ابن قتيبة " فإنّ الإعجاز عنده يأتي في الجانب البياني، وهو متعلّق بالمجاز، لكون العربِ، الأُمَّةَ الأكثَرَ اِهتِمَامًا بالبيان مِنْ بَيْنِ كُلِّ الأُمم، وهذا يَعْضُدُ الفكرة التي كنا قَدْ طرحناها في بداية هذا المبحث، حيث يقول: " وإنما يعرِفُ فضلَ القرآن مَنْ كَثُرَ نَظَرُهُ، واتَّسَعَ علمُهُ، وفَهِمَ مَذَاهِبَ العَرَبِ وافتنَانَهَا فِي الأسَالِيبِ، وما خصَّ الله به لُغَتَهَا دُونَ جَمِيعِ اللُّغَاتِ، وقد أراده الله لنبيّه، لإقامة الدليل على نبوّيته، فجعله عَلَمَهُ، كما جعل علمَ كلِّ نبيّ مِنَ المرسَلين مِنْ أشبَهِ الأمورِ بما في زمانِهِ المبعوثِ فِيهِ، فكان لموسى فَلْقُ البَحْرِ، وكان لعيسَى إِحْيَاءُ الموتى، وكان لمحمد ﷺ الكتاب الذي لو ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء:88] " [1]، فإعجاز القرآن عند " ابن قتيبة "، يكمن في الجانب البياني، وفي المجاز بشكل خاص، كما أنه يشير إلى أنّ الإعجاز في المجاز وإنما يشير إلى أنّ لا يعرف فضل القرآن وإعجازه إلا من عرف أفانين الخطاب العربي .

وعند الباقلاني يتمحوَرُ الإعجازُ حول ثلاثةِ مفاهيمَ، " أحدُها يتضمّنُ الإخبارَ عَنِ الغيوبِ، وذلك مما لا يَقْدِرُ عليه البشَرُ، ولا سبِيلَ لهم إليه، فَمنْ ذلك ما وعد الله تعالى نبيّه عليه السلام، أنّه سيُظْهِرُ دينَهُ على الأديان، وَفَعَلَ ذَلِكَ؛ والثاني، أنّه كان معلوما مِنْ حَالِ النبي ﷺ، أنّه كان أمّيا لا يكتب، ولا يُحسن أنْ يقرأ؛ والثالث، أنّ القرآن بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يُعلم عجزُ الخلق عنه "[2]، وفي هذا الرأي يجعل الباقلاني من الإعجاز البلاغي جزءا واحدا، من الإعجاز القرآني، ويضعه في المرتبة الأخيرة، مقدّما عليه، المعرفة بالغيبيات، وأمية النبي ﷺ، وهما المصدران الأوّلان اللذان يؤخذ عنهما في البلاغة، والنحو، فضلا عن معرفة الحلال والحرام .

[1] ينظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة– مصر، الطبعة الثانية، 1323هـ/1973م، ص: 12 .

[2] ينظر: أبو بكر مُحَمَّد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، 1971م، ص: 33، 34، 35

والفرق بين رأي " ابن قتيبة " ورأي " الباقلاني "، يرجع إلى أنَّ ابنَ قتيبة كان يهدفُ إلى الدفاع عن بلاغة القرآن، وقدْسيَّتِهِ، في حينِ كان الباقلاني يهدف إلى إثراء الدرس البلاغي عامّة، والإعجاز منه على الخصوص، مع أنه هو الآخر دافع عن نظم القرآن الكريم، وحاول الإبانة عن عجز العرب، عن الإتيان بمثله .

وبخصوصِ دراسةِ " مُحَمَّد العمري " لموضوع الإعجاز، فقد تناولها ضمن قسمين هما: الدفاعُ عن النص القرآني، وبيانُ وجه الإعجاز فيه، فجاءت دراسته على النحو التالي:

**1/- الدفاع عن النص القرآني:** يتمثل هذا العنصرُ في مواجهة المشكّكين في كلام الله تعالى، وَنِسْبَتِهِ إِلَيهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهذا انطلاقا من تفسيرهم الخاطئ لقوله تعالى في سورة النساء: وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ [النساء:82] فقالوا: ما دام القرآن قدْ نَزَلَ بِعِدَّةِ أحْرُفٍ وقراءاتٍ، فهذا دليل على أنه ليس مِنْ عند الله تعالى، لأنَّ فِي تَعَدُّدِ القراءاتِ وُجُودُ الاختلافِ، ولقد كان هذا هو السبب الذي دفع بابن قتيبة إلى التأليف، فقد جاء في كتابه " تأويل مشكل القرآن "، قولُهُ: " وقد اعتَرض كتابَ الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه، وهجروا، واتبعوا مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ [آل عمران:07]، بأفهامٍ كليلةٍ، وأبصارٍ عليلةٍ، ونظرٍ مدخولٍ، فحرّفوا الكلام عنْ مواضِعِهِ، وعَدَلُوهُ عَنْ سُبُلِهِ، ثم قَضَوْا عليه بالتناقضِ، والاستحالةِ فِي اللَّحنِ، وفسادِ النظمِ، والاختلافِ "[1] .

وفي هذا إشارة إلى أنّ الجهل بقواعد اللغة، وأساليب العرب في كلامها، قد يؤدّي إلى الانحراف عن فهم المغزى الحقيقي للكلام، وهو أمر جللٌ، إذا ما كان الكلامُ كلامَ الله عزَّ وجلّ، لهذا يصبحُ تعلّم اللغة العربية فرضا على الكفاية، كما ذهب إلى هذا العديد من العلماء، على غرار ما جاء في كتاب " الحلل الذهبية " للمقطري، في أنَّ " تَعَلُّمَ العربية وتعليم العربية فرض على الكفاية، وكان السلف يؤدّبون أولادهم عن اللحن، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسنة المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة،

[1] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 22

والاقتداء بالعرب في خطابها "[1]، فاللغة والقرآن الكريم وجهان لعملة واحدة، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال فَصْلُهُمَا عن بعض، لذلك نجد الماهر في القرآن ناطقا للعربية بمنتهى السهولة، هذا إن لم يكن ماهرا فيها هي الأخرى، وعلى العكس من ذلك فإنّ الماهر في اللغة، قارئ جيّد للقرآن الكريم، خاصة إن كان على اطلاع واسع بعلم التجويد .

وفي إطار الدفاع عَنِ النص القرآني، عمل العمري على البحث في اتجاهين اثنين هما :

أ- بيان انسجام النص القرآني، ب- وإظهار حكمة ما يبدو من اختلاف أو مفارقات "[2]، معتبرًا أنّ أحسَنَ تجسِيدٍ لعنصُرِ الدِّفاعِ عَنِ النص القرآني، هو كتاب " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة، الذي يمثل اِنتقالا مِن " المجاز اللغوي " إلى " التنزيه الكلامي "، " وقد خصص اِبن قتيبة حيزا كبيرا من كتابه " تأويل مشكل القرآن " لاستعراض مطاعن الطاعنين في القرآن، حكاية عنهم، قبل أن يصنفها في موضوعات متميزة، ويتصدى لها بالرد من خلال أربعة أبواب هي: باب الرد عليهم في أبواب القراءات، وباب ما ادعي على القرآن من اللحن، وباب التناقض والاختلاف، وباب المتشابه، والتي تصنف ضمن الردود المباشرة، وهناك أيضا الردود غير المباشرة، التي تتناول المجاز، والاستعارة، والمقلوب، والحذف، والاختصار، والتكرار، والزيادة، والكناية ... "[3]، ولعل هذا هو السبب الذي دعا العمري إلى الاعتماد على كتاب ابن قتيبة في دراسة أصول البلاغة العربية من حيثُ تأثير الإعجاز عليها، مبرزا ثلاثة قضايا رأى أنها جوهر ابن قتيبة، " منها ما يتعلق بضبط النص وإنسجامه من حيثُ اختلافُ القراءات والإعراب، ومنها ما يتعلق بِإنسجام النص، ما اِدُّعِيَ من التناقض والاختلاف، ومنها قضية المتشابه الذي تفرّعت عنه فصول تتعلق بالتراكيب أو النظم بصفة عامة، هاته القضايا الثلاث هي التي أخذت بدورها ثلاثة اتجاهات، هي تهوين الإشكال، وبيانُ حكمته، واِستكشاف آلياته "[4]، فالكتاب في رأيِ العُمَرِيّ جاء شاملا لأربعة

[1] مُحَمَّد الصغير بن قائد بن أحمد العبدلي المقطري، الحلل الذهبية على التحفة السَّنية، تقديم: مقبل بن هادي الوادعي، دار الإمام مالك، البليدة، الجزائر، الطبعة الثالثة 1428هـ/2007م، ص: 17 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 142 .

[3] نفسه، ص : 142، 143، 144 .

[4] نفسه، ص : 145 .

علوم هي: علم القراءات، وعلم الإعراب، وفقه اللغة، وعلم البلاغة، والمطّلع عليه يجد فيه الكثير من الأمثلة التي تصنَّفُ ضِمْنَ هاته العلوم .

والدفاع عَنِ النَّصِّ القرآنِيّ يقتضي بالضرورة بيان أوجه الإعجاز فيه، حتى يكون للكلام حجة، يعتدّ بها على مصداقيته .

**2/– بيان وجه الإعجاز**: إذا كان الدفاع عن النص القرآني يتعلق بالرد على المشككين فيه، من غير المسلمين، فإنّ بيان وجه الإعجاز في القرآن الكريم، يتعلق بطائفة مِنَ المسلمين الذي آمنوا بإعجازه انطلاقا من إيمانهم به وبالإسلام بشكل عام، غير أنهم اختلفوا في وُجهات نظرهم حول هذا الإعجاز، " ولذلك يجري الحوار معهم من داخل النص، ومن المسلمات الإسلامية، وقصارى ما يمكن أن يأخذ بعضهم على بعض سوء الفهم "[1]، وقد استند العمري في هذا على عمل الباقلاني في كتابه " إعجاز القرآن "، حيث يَعُدُّ دعوة الباقلاني " إلى التوجه إلى بيان وجه إعجاز القرآن هي نتيجة التسليم بهذا الإعجاز بعد نقاش طويل في القرنين الثاني والثالث خاصة، دون الوصول إلى بيان وجهه "[2]، أي أنّ التأليف في إعجاز القرآن لم يتوقف عند عمل ابن قتيبة، على الرغم من المكانة المرموقة التي حظي هذا الأخير بها، وإنما كانت طبيعة الحياة العلمية في ذلك العصر، قد فرضت على كل بلاغيّ أن يخوض في مسألة الإعجاز، خدمة لكتاب الله تعالى .

وقد وصف العمري هذه الخطوة بمثابة التحدي، أي أنّ الباقلاني تحدّى حتى الذين آمنوا بالقرآن وإعجازهم، في أنْ يُظهِروا على الأقلّ وجه الإعجاز ذاك، وإن كانوا هُمْ غير قادرين رغم إيمانهم به، فكيف بالذين لا يؤمنون ؟ .

وفي نظر العمري فإنّ التحدّيَ يظَلُّ واقعا هنا "إلى أن يأتوا بالحروف المنظومة، التي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها "[3]، وهو فعلا ما يظهر صراحة من خلال الآية التي اِستدل بها الباقلاني على إمكانية إثبات وحدانية الله تعالى، وهي قوله تعالى :أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 151 .

[2] نفسه، ص : 160 .

[3] نفسه، ص : 163 .

سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ [سورة هود : 13-14 ].

وإضافةً إلى مظهر " التحدي "، هناك أيضا مظهر " الاختزال "، أي اِختزال البديع وتفسير الفعالية البلاغيَّة، والذي ينطلق مما سماه العمري بـ " الإجراءات الاختزالية " ثم تلي هاته المرحلة مرحلة " التفسير البلاغي ": بين الانطباع والتعقيد، وهكذا إلى كشف سر البلاغة "[1]، ومن خلال هذا الطرح يبيّن لنا العمري العلاقة الوطيدة بين الإعجاز القرآني والدرس البلاغي، وكيف أنّ للإعجاز دورا بارزا في بعث النص البلاغي، والمساهمة في ظهور مؤلفات جديدة كانت لها قدم راسخة في تاريخ البلاغة العربية .

ومن هنا يكون بيان وجه الإعجاز قد مرّ على ثلاثة مراحل هي: " مرحلة التحدي، ومرحلة الاختزال، ومرحلة التفسير البلاغي، وقد ترتَّب عن ذلك توجيه لمفهوم البلاغة في التراث العربي، نظرا للصياغة القوية التي قدَّمَهَا الجرجاني ثم السكاكي من بعده ( ... ) ويمكن القول على العموم بأنّ الدخول في مجال تفسير الصورة هو ما يميز المرحلة الإعجازية في القرن الرابع في حين سيكون كشف السر من هموم المرحلة الثانية في القرن الخامس "[2]، ممهدا الطريق لبداية القرن السادس الهجري، حين وصلت البلاغة إلى أوْجِها مع حازم القرطاجني المولود (ت684هـ)، وقد ألّف كتابه : "منهاج البلغاء وسراج الأدباء "، الذي وصف البلاغة فيه بالعلم الكلّي، لاشتمالها على مختلف العلوم اللّغوية والمنطقية المعروفة في تلكم الفترة .

هذا بعد التعرّف على دراسة العمري لموضوع الإعجاز نعود الآن إلى ما أشرنا إليه من قبل في كون الإعجاز قد ساهم في تطور الدرس البلاغي من خلال توالي التأليفات فيه، مستشهدين في هذا بما ذكره " دريد موسى داخل الأعرجي " في مقالٍ له بعنوان: " أبرزُ كُتُبِ الإعجازِ القُرْآنِيّ في النِّصْفِ الثاني مِنَ القَرْنِ العشرين "، طائفةً مِنْ علماءِ البلاغة القدماء الذين اهتموا بموضع الإعجاز، وقد أردنا في ختام هذا المبحث أن نشير إليهم بإيراد هذا النص: " وأبرزُ مَن كَتَبَ في إعجاز القرآن الكريم من السابقين فلهم الفضل .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 166-185 .

[2] نفسه، ص: 185 .

– الجاحظ في كتابه نظم القرآن، الذي لم يصل إلينا، إلاّ أنّ الجاحظ نقل عنه، وأشار إليه كثيرا في كتبه مثل: البيان والتبيين، والحيوان .

– ابن قتيبة، تلميذ الجاحظ في كتابه تأويل مشكل القرآن

– أبو الحسن عليّ بن عيسى الرمّاني، في كتابه النَّكْتُ في إعجاز القرآن

– ابن سنان الخفاجي، في كتابه سر الفصاحة

– عبد القاهر الجرجاني، في كتابيه دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة

– أبو سليمان مُحَمَّد بن إبراهيم الخطابي، في كتابه بيان إعجاز القرآن

– الباقلاّني في جميع كتبه ... وغيرهم الكثير "[1] .

**المبحث الرابع: البلاغةُ والمعرفةُ/ مِن البيان إلى البلاغة:**

البيانُ عنصر مُهِمٌّ في الثقافة العربية عمومًا، وفي الجانب البلاغيّ على وجهِ الخُصوص، وقَدْ كانتِ العربُ تُعرَف بحُسن بيانها، وجمالِ منطقِها، وكانت تتباهى بهذا، وبالأخصّ إذا تَعَلَّقَ الأمر بالشعرِ، إلى درجةِ أنهم كانوا فِي جاهليَّتهم يُقِيمُون الأفراح في حَالِ نَبَغَ فِيهِم شاعرٌ جديدٌ.

وظلّ اِهتمامُ العربِ بالبيانِ معرُوفًا حتى مع مجيءِ الإسلامِ، ولا أدلَّ على هذا مما جَاءَ في صحيحِ البخاري، قوله: " حدّثنا عبدُ الله بنُ يُوسفُ، أخبرَنا مالكٌ، عن زيدِ بنِ أَسْلَمَ، عن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما، أنه قدِم رَجُلَانِ مِنَ المشرِقِ، فخطبَا، فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا، فقال رسول الله ﷺ : إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا؛ أَوْ إِنَّ البَيَانَ لَسِحْرًا "[2]، وفي هذا إقرار من النبي ﷺ بموقع البيان في الذهنية العربية، وتأثيره عليها .

[1] دريد موسى داخل الأعرجي، أبرز كتب الإعجاز القرآني في النصف الثاني من القرن العشرين، 1950–2000 (دراسة وإحصاء)، مركز بابل للدراسات التاريخية والحضارية، بغداد– العراق، المجلد7، العدد2، 2017، ص: 50، 51 .

[2] مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن برزويه الجعفي البخاري، صحيح البخاري، الجزء الثالث، باب [إن من البيان سحرا]، اعتنى به أبو عبد الله محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، الطبعة الاولى 1423هـ/2003م، ص: 92 .

وفي القرآن الكريم، جاء ذِكْرُ البَيَانِ في عدَّةِ مَوَاضِعَ، كقوله تعالى:بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ [الرحمن:01، 02، 03، 04]، وقد جاء في تفسير اِبنِ كثير، أنّ الله تعالى في هاته الآياتِ البيّناتِ" يُخبِرُ عَنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، أَنَّهُ أنزَلَ على عباده القرآنَ، ويَسَّرَ حِفْظَهُ وَفَهْمَهُ على مَنْ رَحِمَه؛ قال الحسن: البيانُ بمعنى النُّطقُ، وقال الضحَّاك وقتادةَ وغيرهما: يعني الخير والشّر، وقول الحَسَنِ هَهُنَا أحسنُ وأقوَى، لأنَّ السِّياقَ في تعليمِهِ تعالى القرآن، وهو أداءُ تلاوتِهِ، وإنَّما يكونُ ذلك بتيسيرِ النُّطق على الخلق، وتسهيلِ خُروجِ الحروفِ مِنْ مَواضِعِهَا مِنَ الحَلْق واللّسانِ والشفتينِ، على اِختلافِ مخارِجِهَا وأنواعِهَا "[1] .

ولقدْ كَانَ البيانُ في عصورٍ خلتْ، غريبا للبلاغة العربية، فإن قيل: فلان بليغٌ، فذاك هو المتمكّن مِنَ البيان والمنطِق*، ولم يستقلَّ البيان بكونِهِ فرعًا مِنْ فرُوعِ البلاغةِ العربيةِ، إلَّا في عصورٍ متأخّرةٍ، وهو ما يذهب إليه العديدُ مِنْ دارِسِي البلاغة، على غرار عبد العزيز عتيق، الذي رأى " أنّ البلاغة العربية قد مرّت بتاريخ طويلٍ مِنَ التطوّر، حتى اِنتهت إلى ما اِنتهت إليه، وكانت مباحثُ علومِهَا مختلطا بعضها ببعض، منذ نشأة الكلام عنها في كتبِ السابقينَ الأوّلينَ مِنْ علماءِ العربيةِ، وكانوا يُطلقون عليها " البيان""[2]، ومثلُ هذا يدفعنا إلى ضرورة التنويه بالفرْق الجوهري بين مفهومِ البَيَانِ فِي نَشأتِهِ الأولى ومفهومِهِ في عَصرِنا الحالي، وهو ما لا يتأتّى لنا إلا مِنْ خلال البحث في تعريفات البيان لغة واصطلاحا .

ففي اللغة، جاء تعريفُ البيان عند اِبن منظور على أنّه " ما يُبَيَّنُبه الشيء مِنَ الدلالة وغيرها، وبانَ الشيءُ بيانًا: اتّضح، فهو بيّنٌ، والجمعُ أبْيِنَاءٌ، مثلُ هيّنٌ وأهْيِناء، وكذلك أبان الشيءُ فهو مُبِينٌ، قال الشاعر:

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء السابع، تح: أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين، دار ابن الجوزي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1431هـ/2009م، ص: 100 .

* المنطق هنا بمعنى النطق، وليست الفلسفة .

[2] عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م، ص: 07 .

لَوْ دَبَّ ذَرٌّ فَوْقَ ضَاحِي جِلْدِهَا لَأَبَانَ مِنْ آثَارِهِنَّ حُدُورُ[1]

وقالوا: بَانَ الشيءُ واستبانَ، وتبيّن، وأبانَ، وبيَّنَ، معنى واحد"[2]

وأما عند اِبن فارس فإنّ تعريف البيان جاء في مادة بَيَنَ " الباء، والياء، والنون، أصل واحد، وهو بُعدُ الشيء وانكشافه، فالبين الفراق، يقال: بانَ يبينُ بينًا وبينونة، والبَيُونُ: البئر البعيدة القعر، قال: بِسَرْوٍ حِمْيَرْ أَبْوَالُ البِغَالِ بِهِ أَنَّى تَسَدَّيْتَ وَهْنًا ذَلِكَ البِينَا[3]

وَبَانَ الشَّيءُ، وأبان: إذا اتّضح وانكشف، وفلانٌ أبْيَنُ مِنْ فلان، أي أوضح كلاما منه "[4]

ويرى الباحث بسيوني عبد الفتاح فيّود، بأنّ " البيانَ هو التعبيرُ عمَّا يدور في الذهن، وتُحِسُّ به النفس، بأسلوبٍ فنيّ رائعٍ؛ أو هو المميزاتُ البلاغيّةُ التي يَتفاضَلُ بها الأدباءُ والشعراءُ، ويَظهر بها فضلُ الكلامِ على الكلامِ، وهو بهذا المعنى يشمل علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع"[5]، والملاحَظ في هذا التعريف، هو أنه نظر إلى البيان بمفهومه الأول، أي الموازي للبلاغة، فهو تعريف عام يشمل كل ما يساعد على إبلاغ معنى، أو إيصال فكرة، ولم يَنْظُر له على حاله اليوم، كالذي نجده في تعريف القزويني، حين يقول: "البيانُ علمٌ يعرفُ به إيرادُ المعنى الواحد بطُرُقٍ مختلفةٍ فِي وضوحِ الدِّلالةِ عليه، وهو عندهُ يَشمل التشبيه، والمجاز، والاستعارة، والكناية "[6]، ومن الغريب في الأمر، أن نجد باحثا معاصرا يعتمد تعريف القدماء، وباحثا من القدماء يعتمد التعريف الذي نتعامل به اليوم، وصار البلاغيون المعاصرون يتعاملون به، على غرار الباحث اللبناني، ديزيره

[1] ديوان عمر بن أبي ربيعة، تقديم: د. فايز مُحَمَّد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1416هـ/1996م، ص: 143 .

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادةَ بَيَن، ص: 406 .

[3] ديوان ابن مقبل، تح:د. عزة حسن، مديرية إحياء التراث القديم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى 1381هـ/1962م، ص: 316 .

[4] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، مادة: بَيَنَ، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، القاهر، مصر، الطبعة الأولى 1399هـ/1979م، ص: 327، 328 .

[5] بسيوني عبد الفتاح فيّود، علم البيان–دراسة تحليلية لمسائل البيان، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة–مصر، الطبعة الثانية، 1418هـ/1998م، ص: 10 .

[6] ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: مُحَمَّد فاضلي، دار الأبحاث، الجزائر، الطبعة الأولى، 2007م، ص: 209-327 .

سقال، الذي عرّف البيان على أنّه " علمٌ يتناول توضيحَ المعنى عن طريق الصورة، منْ تشبيه، واستعارة، ومجاز، وكناية، لا بالصور التركيبية التي بها يُصاغ الكلام، ولكن لابد للبيان منْ مراعاة مقتضى الحال، كما في المعاني، لتصير فيه المعاني بمنزلة الفصاحة في البلاغة "[1] .

وعن أهمية علم البيان وموقعه، يقول بدوي طبانة في كتابه البيان العربي: " أما البيان وتذوُّقُهُ، وتفصيلُ القول في عناصره، ومحاولةُ الحكم عليه بالحسن أو بالإصابة، فإنه عمل يحتاج إلى مرانةٍ، وثقافةٍ، وإدمانِ نظرٍ، واستثارةٍ للذوق، والمعرفة، وكل ذلك لا يتأتى إلا بعد التجربة والارتقاء الذهني في عصور التقدم والحضارة، والنظر والتفكير "[2]، فالبيان على هاته الحالة، لا ينبغي لأي أحد مهما كان، إذ أنّ صاحبه لابد وأن تتوفّر فيه شروطٌ تستعصي في العادة على المبتدئين، فأهميته هنا تكمن في دفعه البليغ نحو سعة الاطلاع، والتثقّف .

ونحن نرى أنّ ما ذهب إليه طبّانة، قد جمع بين المعرفة بالبيان، والمعرفة بالنقد، إذ أنه وَضَعَ شروطا لا يلمّ بها إلا من كان على معرفة واسعة بالنقد، كالتذوّق للمعاني، والحكم عليها بالحسن، والمرانة، والثقافة الواسعة ... الخ .

وعلى اِعتبارِ أنَّ دراستَنَا،في هذا المبحث، قائمةٌ في الأساسِ على مفهوم البيان عند الجاحظ واِبنِ وهبٍ، فقد ارتأينا أنْ نعرّج على مفهوم البيان عند هذين العالمين، تقيّدا بما جاء في مشروع العمري .

أما عنِ الجاحظ فقد جاء في كتابه " البيان والتبيين"، قوله: "قال بعض جهابذةِ الألفاظِ، ونُقّادِ المعاني: المعاني القائمةُ في صدورِ النَّاس، المُتَصَوَّرَةُ في أذهانهم، والمُتَخَلِّجَةُ في نفوسهم، والمُتَّصِلَةُ بخواطرهم، والحادثَةُ عن فِكَرِهِم، مستورَةٌ خفيَّةٌ، وبعيدةٌ وحشيَّةٌ، ومحجوبَةٌ مكنُونَةٌ(...) والبيانُ اِسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كَشَفَ لَكَ قناع المعنى، وهَتَكَ الحجابَ دونَ الضمير، إنما هو الفَهم

[1] ديزيره سقال، علم البيان بين النظرية والأصول، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1997م، ص: 146 .

[2] بدوي طبانة، البيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، الطبعة الثانية، 1377هـ/1958م، ص: 12 .

والإفهام، فبأيّ شيء بلغتَ الإفهام فذاك هو البيان "[1]، فالجاحظُ هنا يَرْبط البيانَ بقُدْرَةِ المتكلّم على التعبير الجيّد عن مكنوناته الداخليّة، التي هي عنده مشتركَة بين كافة البشر، وبالبيان وحده نستطيع التمييز بين المتكلم الجيّد، والمتوسطّ، والبَلِيه، ولهذا نجد الجاحظ يثري كتابه البيان والتبيين بأصناف البشر، من حكماء، وبلغاء، ونوكى، وحمقى ...الخ، ولم يأت هذا العمل على سبيل الاعتباط، وإنما كان الأمر مقصودا عنده، إذ بالإشارة إلى أصناف الناس، وإعطاء أمثلة عن أقوالهم، يتبيّن للقارئ المعنى الحقيقي لمفهوم البيان، أو على الأقل المعنى الحقيقي الذي أراده الجاحظ لمفهوم البيان .

وعلى هذا الأساس، فقد حظي عمل الجاحظ، بمكانةٍ رفيعة، وإقبالٍ مُنْقَطِعِ النظير، مِنْ لدنّ مختلف الدارسين، إما أخذا عن بيانه، أو وصفا له، كقول مُحَمَّد زكي الصبّاغ في وصف كتابه" البيان والتبيين": " هو بصفة عامة، كتابُ أدبٍ، يتضمّن مختاراتٍ مِنْ ذاكرةِ الجاحظ العجيبة، بل هو معرضُ أَدَبٍ، وبلاغَةٍ، وآياتٍ قرآنيةٍ مجيدةٍ، وأحاديثَ نبويةً شريفةً، وصفوةَ أشعارٍ، وحِكَمٍ، وخطب للخلفاءِ والبلغاءِ والمشاهيرِ، مَزَجَهَا الجاحظ بآرائه الخاصة، وأفرَدَ لها مسائل متنوعة، واستطرد إلى نوادر فكهة، لِيُبْعِدَ السّآمة والضجر عن القارئ"[2]، ولهذا صار بيان الجاحظ مرجعا مهما، في الدراسات البلاغية حتى اليوم .

وأما عند اِبنِ وَهَبٍ فالبيان يقسّم" على أربعة أوجه، فمنه بيانُ الأشياء بذواتها، وإن لم تبن بِلُغَاتِهَا، ومنه البيان الذي يحصُل في القلبِ، عند إعمال الفكر واللُّبْ، ومنه البيان باللسان، ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغ من بعد وغاب "[3]، وقد قُسِّمَ فيما بعد إلى الأنواع التالية: الاعتبار، والاعتقاد، والعبارة، والكتاب .

والفرْقُ بين تعريفِ الجاحِظِ، واِبنِ وَهَبٍ، في اِعتقادِنَا، يكمُنُ في أنَّ تعريفَ الجاحِظِ نَظَرَ إلى البيان في العلاقة بين المرسل والمتلقي للرسالة شرط أن يكون كلاهما عاقلٌ، فكان تركيزه على الفهم

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة السابعة، 1417هـ/1998م،ص: 75، 76

[2] مُحَمَّد علي زكي صبّاغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ/1998م، ص: 111 .

[3] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح : حنفي مُحَمَّد شرف، مكتبة الرسالة، طبعة سنة، 1389هـ/1969م، ص: 57 .

والإفهام، اللّذيْنِ لَا يَتَحَقَّقَانِ إِلَّا بوجودِ العقل، وأما اِبنُ وهبٍ، فَقَدْ نَظَرَ إِلى البَيانِ نَظرَةً أكثرَ اِتِّساعًا، فتكلّم عن فهْمِ الأشياءِ، وَهِيَ جَمادَاتٌ لا عُقُولَ لَهَا، ثم اِنعطف إلى القلوب وما تخفي الصدور، ثم الفكر، أو العقل، ثم الكتابة، ويمكن القول بأنّ بيان الجاحظ جزء من بيان ابن وهب، أو أنّ بيان ابن وهب تكميليٌّ لبيان الجاحظ .

وبخصوص مشروع العمري، فقد كان اهتمامه بعنصر البيان باعتباره ركيزة أساسية مِنْ ركائز البلاغة العربية، وأصلا رابعا من أصولها، الذي عرضه العمري وفق دراستين، تناول في الأولى البيان عند الجاحظ، وتناول في الثانية البيان عند ابن وهب، وهما الدراستان اللتان سنقدّمها بين ثنايا هذا المبحث .

**أولا: مشروع الجاحظ:**

يضع العمري البلاغة عند الجاحظ ضمن " بلاغة الإقناع"، وهي تعتمدُ بشكلٍ كبيرٍ على الجانبِ الشفويّ مع الاستعانةِ بالرموزِ والإشاراتِ، ولذلك يقول: " إنّ تحليل اِستراتيجية كتاب البيان والتبيين للجاحظ، تَكْشِفُ بكلِّ وضوح، أنّ هذا الكتاب محاولةٌ لوضعِ نظريّةِ بلاغةِ الإقناع، مَركزها الخطاب اللغوي الشفوي، وهامِشُها كلُّ الوسائل الشفوية والرمزية، وأساسُ الإقناع الخطابي مراعاة أحوال المخاطبين "[1]، وهذا راجعٌ إلى عدةِ أسبابٍ منها الحالة الثقافيةُ السائدةُ في ذلك العصر، والتي انتشر فيها الصراع الفكري بين المذاهب، خاصَّةً ما حدث بينَ الشُّعُوبِيَّةِ وأنصارِ التيار العربي، ومنها أيضا ما تميّز به الجاحظ في أسلوبه القائم على الاستطراد، ومنها كذلك ندرة المؤلفات البلاغية التي تناولت موضوع البيان .

ولهذه الأسباب فقد تميّز بيان الجاحظ بميوله إلى بلاغة الإقناع، الشفهية على وجه الخصوص، في مشروع قدّمه العمري ضمن دراسة قامت على البحث في نظرية المعرفة، من خلال خمسة محاور كبرى هي: 1- مشروع البيان،2- مفهوم البيان، 3- مكونات الخطاب البياني،4- المحتوى الفكري لبيان الجاحظ،5- البيان بعد الجاحظ .

[1] مُحَمَّد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، ص : 11 .

**1-مشروع البيان:** أشارَ العُمَريُّ في خضمّ حديثه عن مشروع البيان، إلى مسألةِ الاختلافِ الذي ظَهر بين مؤرّخي البلاغة حول أسبقية الجاحظ في التأليف، منوّها في ذلك بما ذهب إليه البعض من أنّ كتاب البيان والتبيين هو " مجرد مجموعة من المعارف المحصّلة نتيجة الاستطرادات، وهو ليس ذا استراتيجية محددة ومضبوطة "[1]، وهو ما يمكن تفنيده من خلال النظر في دراسة العمري لبنية كتاب البيان والتبيين، التي أبان فيها عن استراتيجية واضحة قام عليها الكتاب، ما ينفي تماما كونه مجرّد مجموعة من المعارف وإن كان فيه بعض الاستطرادات، حيث يرى العمري بأنّ الكتاب ينبني على شيئين اثنين هما: المركز والمحيط، " فالشيء المركزي الثابت هو الفهم والإفهام بالوسائل المختلفة: الوسائل اللغوية والإشارية خاصة، أما المحيط فقد كان إلى حد ما، مرنا بوعي وإرادة من الجاحظ "[2]، والمرونة التي أشار إليها العمري هنا، هي ما يعرف بأسلوب الاستطراد المعروف عند الجاحظ، الذي يظهر من خلال كثرة الشواهد الشعرية والنثرية التي تناولها كتابه البيان والتبيين، وهي على الرغم من كثرتها إلا أنها أي أنّ المهم في هذا الكتاب هو السعي إلى إبراز معنى البيان، ليكون هو مركز الدراسة في الكتاب كله،" ليست دائما مقاطع مختارة بهدف الاختيار، إنما هي متفرّقات ملائمة لرأي تؤكّده، أو ملاحظة تغنيها، ولذلك فإنها تستمد قيمتها من تنوّعها، ومن تجانسها مع المقام الذي تذكر فيه "[3].

وبناء عليه، فإن مدار الكتاب كله لا يخرج - حسب رأي العمري- عن ثلاثة محاور هي :1- وظيفة البيان وقيمته، 2- العملية البيانية وأدواتها، 3- البيان العربي "[4].

**2- مفهوم البيان عند الجاحظ:** يرى العمري بأنّ مفهوم البيان عند الجاحظ قد تنازعه مفهومان اثنان هما: أ- البيان معرفة: الوظيفة الفهميّة، ب- البيان إقناع: الوظيفة الإقناعيّة "[5].

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 189 .

[2] نفسه، ص : 192 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 192 . نقلا عن : أمجد الطرابلسي، نقد الشعر عند العرب، ص : 59 .

[4] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 193 .

[5] نفسه، ص : 195 .

**أ- البيان معرفة:** يعتقد العمري بأنَّ مفهوم " البيان معرفة " يشير إلى العلم بصفة عامة، وعلم أو تعلم اللغة بصفة خاصة، حيث يقول: " في هذا المستوى يلامس الجاحظ المفهوم الذي سيلحُّ عليه ابن وهب، ويستعمل في هذه الحالة كلمة " العلم " حيث يصف العلم بقوله: " وكان يقال: أول العلم: الصمت، والثاني: الاستماع، والثالث: الحفظ، والرابع: العمل به، والخامس: نشرُهُ "[1]، فتعلّم مختلف العلوم والمعارف إنما يكون وفق هاته الشروط الخمس، وكذلك يكون تعلّم اللغة .

**ب- البيان إقناع:** اِستدل العمري على هذا الرأي بتسعة أقوال للجاحظ، اخترنا منها، قوله: " وسأل الله عز وجل موسى بن عمران، عليه السلام، حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجّته، والإفصاح عن أدلّته "[2]، وقوله: " وليس - حفظك الله - مضرّة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظمَ مما يحدُث عن العيّ من اختلال الحجة، وعن الحصر من فوت درك الحاجة "[3]، وقوله: " وقال موسى ﷺ " ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [ سورة القصص : 31-38 ]، رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يُأْتَى مِنْ وراء الحاجة، ويبلغ أفهامه على بعض المشقة "[4]، وقوله: " وذكر الله عز وجل لنبيه عليه السلام حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة، واللدد عند الخصومة "[5] .

**3- مكونات الخطاب البياني:** يتكون الخطاب البياني في مشروع الجاحظ، من شيئين هما: اللغة والإشارة .

---

[1] الجاحظ البيان والتبيين، ج2، ص : 198 .

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص : 07 .

[3] نفسه، ص : 12 .

[4] نفسه، ص : 07 .

[5] نفسه، ص : 08 .

**أ- اللغة: الصواب والاعتدال:** إستنبط العمري دور اللغة في تكوين الخطاب البياني من قول الجاحظ : " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدرا المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدرا تلك الحالات "[1]، وبناء عليه، يرى العمري أنّ كلمة " معاني " هنا تؤخذ في معناها الواسع : المعاني اللغوية(أي تفاوت الدلالات وتوالدها) والمعاني الاجتماعية والدينية والفكرية ... الخ، وأما عبارة " أقدار المستمعين " فهي تشير إلى الطبقات أو الفئات التي يكون لها معجم خاص في الغالب، مثل المتكلمين والنحاة والعروضيين ... الخ، وأنها تشير أيضا إلى العامة والخاصة والبداوة والوحشية، وأما عبارة " أقدار الحالات "فهي تعني المناسبات التي يتعرض لها المستمع الواحد، كخطبة العيد، أو الجمعة أو الحفل أو غيرها من المناسبات العامة "[2].

وأما فيما يخص (الصواب والاعتدال) اللذين تتمايل اللغة بينهما، فقد بيّن العمري بأنّ الأمر هنا راجع إلى كثرة اللحن في عصر الجاحظ من جهة، وظهور نماذج من الخطابة الحجية من جهة أخرى، فإذا كان من البديهي أن الذي يلحن في الكلام لا يستطيع أن يؤدي البيان بمعناه الحقيقي، فأيضا – عند الجاحظ- الذي يستعمل لغة رفيعة المستوى لا تفهمها إلا فئة قليلة من الناس، لا يعدّ هو الآخر صاحب بيان، يقول العمري : " إنّ هذا الدورَ الحاسِمَ الذي أعطاه الجاحظ للمقام، كان ينظر أساسا إلى التخاطب، أي إلى الكلام الشفوي على الإجمال، غير أنه ما كاد يستقر كمبدأ نظري حتى اصطدم بأمرين : أحدهما وهو الأهم، حال اللغة العربية في عصره حيث عمّت العجمة واللحن في النطق والنحو، والثاني توجه البيان نحو النماذج الخطابية والأمثال والحكم الجيدة المتفاضلة "[3].

وقد عولجت مسألة اللحن بعمل النحاة وعلماء البلاغة، أما مسألة التفاوت في درجات البيان عند بلغاء العرب فعولجت في حدود المطلبين " مطلب التواصل المقامي ومطلب الإبداع الشعري،

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص :138، 139 .
[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 202 .
[3] نفسه، ص : 202، 203 .

فالخطاب التواصلي الإقناعي وإن كان يستعمل الوسائل الشعرية من تجنيس واستعارة ومطابقات ... الخ، فإن ذلك في حدود خدمة وضوح الدلالة ونفاذ الخطاب "[1].

**ب– الإشارة:** على حسب ما يراه العمري، فإن الجاحظ تدرّج من البيان بمفهومه الواسع إلى البلاغة بمفهومها الضيق، وهو بذلك يحصر البيان في مجال اللفظ، ويحصر كل ما ينوب عنه من إشارة في مجال محدود هو البيان الشفوي المباشر، أي الخطابة بمعناها الواسع الذي يشمل كل صور التخاطب، قصد الإبلاغية والإقناع "[2].

هذا ويرى العمري أنّ الجاحظ في تعريفه للبيان، تحدّث أيضا عن " أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، فحصرها في خمس هي : اللفظ والإشارة والعقد والخط والنِّصبة (أي الحال)، ويبدو من تحليله لأصناف الدلالة المذكورة، وربطه النصبة بالاعتبار والتدبير أنه يسعى لوضع نظرية للمعرفة استكشافا وتداولا، غير أنّ الجانب الذي نمَّاه الجاحظ على طول فصول البيان والتبيين، هو جانب التأثير والإقناع عن طريق اللفظ والإشارة، وهي عنده– أي الإشارة– مفهوم متسع من مجموع الحركات والأدوات المستعملة فيها أثناء الخطابة مثل المخصرة والعصا ليشمل كل أشكال التعبير الإشاري، وكل الرموز ذات الطابع الاجتماعي (مثل الأزياء) التي يستغلها الناس للتمييز والتأثير والإقناع "[3]، وعلاوة على ذلك، فإنّ العمري يقسّم الإشارة إلى مستويين:

**ب–1– الإشارة المساعدة على التبليغ المصاحبة للفظ المكملة له:** وقد حظيت منه باهتمام كبير باعتبارها جزءا من بلاغة الخطابة العربية من جهة، ولكونها هدفا لمطاعن الشعوبية، لاتصالها بنسق الحياة البدوية العربية من جهة ثانية؛ وفي هذا المستوى يندمج حديثه عن صفات الخطيب وهيآته وتقاليد العرب في الخطابة كالاتكاء على العصا .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 203 .

[2] نفسه، ص : 206 .

[3] مُحَمَّد العمري، الإشارة والسيما والدليل، مجلة دراسات سيميائية، المغرب، العدد : 04، ديسمبر، 1990م، ص : 132 .

**ب-2-الإشارة الدالة في حد ذاتها:** باعتبارها نسقا منفصلا عن اللغة وتشمل عنده صور التعبير الاجتماعي مثل طريقة اللباس والأزياء والمراكب وغير ذلك من المظاهر الكعبرة التي يُقصد منها التأثير في الآخرين "[1].

**4- المحتوى الفكري لبيان الجاحظ:** يرى العمري أن نزوع الجاحظ نحو الدفاع عن البيان ومحاولة إبراز محتواه الفكري وقيمته الإنسانية والاجتماعية، راجع إلى ما لقيته الخطابة في عصره من عنت "من جهتين كبيرتين، جهة الرقابة الاجتماعية والرقابة الدينية "[2].

**4-أ- الرقابة الاجتماعية:** والمقصود بها ما لقيه أهل البيان في عصر الجاحظ من معاملة الناس لهم، ذلك أنهم لم يراعوا فيهم حرمة العلم وقداسته، فكانت بين الفريقين جفوة كبيرة، ولعل مرجع الأمر هو الغيرة والحسد لا غير، وقديما كان في الناس الحسد، وقد وصف الجاحظ تلك الحال بقوله : " قد سمعنا رواية القوم واحتجاجهم، وأنا أوصيك ألاّ تدع اِلْتِمَاسَ البيان والتبيين إن ظننت أنّ لك فيهما طبيعة، وأنهما يناسبانك في بعض المناسبة، ويشاكلانك في بعض المشاكلة، ولا تهمل طبيعتك فيستولي الإهمال على قوّة القريحة، ويستبدّ بها سوء العادة، وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوّة المنّة يوم الحفل، فلا تقصِّر في التماس أعلاها سورة*، وأرفعها في البيان منزلة، ولا يقطعنّك تهييب الجهلاء، وتخويف الجبناء، ولا تَصْرِفَنَّكَ الرواياتُ المعدولة عن وجوهها، المتداولة على أقبح مخارجها "[3].

**4-ب- الرقابة الدينية:** قَالَ رَسُولُ الله ﷺ " شُعْبَتَانِ مِنْ شُعَبِ النِّفَاقِ: البَذَاءُ وَالبَيَانُ، وَشُعْبَتَانِ مِنْ شُعَبِ الإِيمَانِ: الحَيَاءُ وَالعِيُّ "، ونحن نعوذ بالله أن يكون القرآن يحثُّ على البيان ورسول الله ﷺ يحثُّ على العيّ، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله ﷺ بين البذاء والبيان، وإنما وقع النهي على كل شيء جاوز المقدار، ووقع اسم العي على كل شيء قصّر عن المقدار، فالعيّ مذموم والخطل مذموم، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصّر والغالي [4]، وهذا الحديث النبوي الشريف الذي ذكره

[1] مُحَمَّد العمري، الإشارة والسيما والدليل، مجلة دراسات سيميائية، ص : 206 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 209 .

* جاء في البيان والتبيين أن السورة بالضم، المنزلة الرفيعة، وجمعها سُوُرٌ بالضم .

[3] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص : 200 .

[4] نفسه، ص : 200 .

الجاحظ في بيانه، قد ورد ذكره بصيغة أخرى في الجامع الكبير للترمذي، "حدّثنا أحمد بن منيع قال : حدثنا يزيد بن هارون، عن أبي غسّان مُحَمَّد بن مطرّف، عن حسّان بن عطيّة، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال : الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق "[1]

ولهذا الأمر أسباب وملابسات قديمة تعود إلى العصر الأموي، " فحين يستعرض المرء الظروف التي سبقت هذا الاحتفال بالبيان (باعتباره احتجاجا بالمعنى البلاغي والاجتماعي) سيقتنع بأن كتاب البيان والتبيين وما سار في اِتجاهه، كان يمثل موقفا حضاريا، هو محاولة إرساء مجتمع عقلاني (...) فهذا المشروع الإقناعي المتحضر جاء في أعقاب عصر دموي غلبت فيه نزعتان متعارضتان تخلان بالمسؤولية الإنسانية وتحتقران العقل .

1)- فمن جهةٍ، كان بنو أمية والخوارج (من موقعين متناقضين) يمارسان العنف السياسي، والإعنات الفكري، حيث يسود الوعد والوعيد (بالمال والجنة أو بالعقاب والنار) (وهذا بيّن في خطب الحجاج وزياد اِبن أبيه وقطري بن الفجاءة وأبي حمزة)، وكان الفخر والتهاجي طابع العصر حيث تبلور في صورة نقائض ساهم فيها عشرات الشعراء .

2)- ومن جهة ثانية كان هناك موقف جمهور كبير من العلماء ورجال الدين الذين مالوا إلى الصمت، لكون الأسئلة التي يطرحها العصر حول السياسة الأموية والصراعات بين الصحابة والتابعين محيرة، وهذا الموقف تبلور تحت مفهوم الإرجاء .

وإلى جانب هذا البعد الإنساني في الدفاع عن البيان هناك بعدُ موقف قومي تجلى في دفاعه – أي الجاحظ– عن البيان العربي وتقاليده، وهذا مرتبط بعروبته التي تصدت لمزاعم الشعوبية "[2].

لقد كان الجاحظ يقدم وسيلة للحوار في عصره بين الفرقاء في المجال الفكري والسياسي، الحوار من خلال الرصيد الخطابي العربي من جهة وأحوال المخاطبين من جهة أخرى، المهم كيف يكون

[1] مُحَمَّد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير، المجلد الثالث(الأحكام–الوصايا)، تح : الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1996م، ص : 551 .

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص : 210، 211 . ( بتصرف ) .

الخطاب ناجعا، فاعلا، مع ما يؤدي إليه هذا المسعى من مفارقة بين الجمال والمنفعة العملية الآنية "[1].

إنَّ المحتوى الفكري لبيان الجاحظ يتمثل في ثلاث نقاط رئيسية هي: 1- الدفاع عن البيان بصفة عامة، 2- الدفاع عن البيان العربي على وجه الخصوص، 3- والوازع الديني .

**5/- البيان بعد الجاحظ:** يرى العمري أنّ أكمل قراءة لتصور الجاحظ سواءٌ بالمخالفة أو التكميل، هي " التي قام بها اِبن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان، فالمؤلف لم يُخْفِ اِنطلاقه من عمل الجاحظ، مسجلا جوانب النقص عنده التي تقتضي إعادة البناء "[2]، يقول اِبن وهب: " أما بعد فإنك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سماه البيان والتبيين، وإنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارا منْتخلةً [*]، وخطبا منتخبة، ولم يأت فيه وظائف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، فكان عندما وقفت عليه، غير مستحق لهذا الاسم الذي نُسب إليه"[3].

ولقد خصص اِبن وهب أكثر مقدمة البرهان وجوهرها للحديث عن العقل والتنويه به، مبينا الغريزي منه والمكتسب، وهذا وحده كاف لبيان اِختلاف اِستراتيجيتي هذين المؤلفين : الجاحظ وابن وهب "[4].

هذا وبعد أن قمنا بعرض قراءة العمري لمشروع الجاحظ، والتي ختمها بالبيان بعد الجاحظ، ممهدا بذلك لابن وهب ننتقل مع المطلب الموالي إلى قراءة العمري لمشروع ابن وهب في كتابه البرهان .

**ثانيا: من الخطابية إلى الكتابية – قراءة في كتاب البرهان لابن وهب –:** موضوع البيان عند ابن وهب هو على خلاف الجاحظ، أقرب إلى الكتابي منه إلى الشفهي، ولقد درسه العمري من خلال محورين هما:1- مفهوم البيان عند ابن وهب، 2- مفهوم البلاغة عند ابن وهب .

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 39 .

[2] نفسه، ص : 211 .

[*] منتخلة، بمعنى مختارة .

[3] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص : 49 .

[4] نفسه، ص : 211 .

**1/– البيان عند اِبن وهب:** يتناول إسحاق بن وهب في كتابه " البرهان في وجوه البيان "، شروط المعرفة والأسباب الموصّلة إليها ووسائل التبليغ، ونزعته العلمية ( تداول المعرفة، واستثمارها في الواقع الملموس ) أقوى من نزعته الأدبية البلاغية الصّرف (...) والبيان عنده مرتبط بالاستدلال والإقناع بالوسائل المنطقية والخطابية، كما هو مرتبط بتجويد قناة التواصل مثل الكتابة، وذلك بتقديم المعارف اللازمة لهذا التجويد "[1].

وتقوم نظرية اِبن وهب على أساسين هما : 1- استنباط المعرفة : الاعتبار والاعتقاد . 2- تداول المعرفة: العبارة والكتاب .

وبذلك يصير الجانب الأدبي فرعا صغيرا من شجرة كبيرة، ولا يظهر الجانب الصوتي في خطاطة اِبن وهب، ولا يمكن الظفر به إلا في تعريف " البلاغة " و " الشعر" .

**2/– البلاغة عند ابن وهب:** استنبط العمري مفهوم البلاغة عند ابن وهب من قوله: " وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها، وذكر الجاحظ كثيرا مما وصفت به، وكل وصف منها يقتصر عن الإحاطة بحدّها، وحدُّها عندنا : القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اِختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان "[2] .

ويضيف اِبن وهب إلى هذا التعريف شَرْحَهُ لشروط البلاغة الثلاث، وهي: اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان، وهي الشروط التي نعرضها في العناصر التالية مع مزيدا من الشرح

**أ– اختيار الكلام:** يتعلق هذا الشرط بالعامة من الناس، الذين قد يتكلمون بكلام يحيط بالمعنى المراد، لكن الألفاظ ليست منتقاة، وبالتالي ستكون ضعيفة ورذيلة، وهو ما عبّر عنه بقوله : " لأن العامي قد يحيط قوله بمعناه الذي يريده، إلا أنه يأتي بكلام مرذول من كلام أمثاله، فلا يكون موصوفا بالبلاغة "[3] .

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، ص : 84، 85 .

[2] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص : 129 .

[3] نفسه، ص : 129 .

**ب– حسن النظام:** وأما حسن النظام، فإنه يتعلق بكلام بعض الفصحاء الذين قد لا يحسنون ترتيب ألفاظهم وتنسيقها وتنظيمها على الوجه المطلوب، فلا يكون كلامهم بليغا على الرغم من فصاحته، وهو ما يتضح من خلال قول ابن وهب: " لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى، ولا يُحْسِنُ ترتيب ألفاظه، ويصيّر كل واحد مع ما يشاكله، ولا يقع ذلك موقعه "[1].

**جـ– فصاحة اللسان:** وأما العنصر الأخير وهو فصاحة اللسان فهو يتعلق بالأعاجم، فالأعاجم الذين يلحنون في الكلام العربي سيكون كلامهم غير بلاغي حتى وإن عبّروا عما يريدونه وأوصلوا الفكرة إلى الآخرين، ولذلك يقول ابن وهب: " لأن الأعجمي واللحان قد يبلغان مرادهما بقولهما فلا يكونان موصوفين بالبلاغة "[2] .

ومع تعريف ابن وهب، تكون البلاغة قد دخلت مرحلة جديدة من التقعيد، ذلك أنّ التعريف الذي أورده تعريف جامع لمجموعة التعريفات السابقة خصوصا عند الجاحظ، فالجاحظ أورد تعريفات متفرقة كل منها يهتم بجانب واحد من البلاغة ويهمل آخر، وأما عن ابن وهب فقد جمع كل تلك الجوانب في تعريف واحد اجتهادا منه في التقعيد للبلاغة .

وأما عن الشعر، فإنَّ الشروط التي وضعها ابن وهب لنظم الجيّد تتضح من خلال قوله: " والذي يسمى به الشعر فائقا، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنا رائقا: صحة المقابلة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، واعتدال الوزن، وإصابة التشبيه، وجودة التفصيل، وقلّة التكلّف، والمشاكلة في المطابقة، وأضداد هذه كلها معيبة تَمُجُّهَا الآذان، وتخرج عن وصف اللسان "[3] .

ومن أمثلة شروط الشعر الجيّد ما يلي:

**أ– صحة المقابلة:** كقول عبد الله بن طاهر*:

أَمِيلُ مَعَ الذِّمَامِ عَلَى اِبْنِ أُمِّي  وَأَحْمِلُ لِلصَّدِيقِ عَلَى الشَّدِيقِ

---

[1] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص : 129، 130 .

[2] نفسه، ص : 129 .

[3] نفسه، ص : 139 .

* لم نعثر عليه في الديوان

وَأَفْرِقُ بَيْنَ مَعْرُوفِي وَمَنِّي وَأَجْمَعُ بَيْنَ مَالِي وَالحُقُوقِ

**ب– حسن النظم:** كقول أشجع السلمي[**] :

مُقَارَعَةُ اللَّئِيمِ بِلَا جَوَابٍ أَشَدُّ عَلَى اللَّئِيمِ مِنَ الجَوَابِ

**ج– جزالة اللفظ:** كقول الأحوص:

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا اِبْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانِ، ضَوْءُ الشَّمْسِ وَالإِظْلَامُ

فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوفَكَ الأَحْلَامُ[*]

**د– اِعتدال الوزن:** كقول النابغة الذبياني:

إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ هَمِّي فَلْيَدَعْنِي مَنْ يَلُومُ

أَحْسَنُ النَّاسِ جَمِيعًا حِينَ تَمْشِي أَوْ تَقُومُ

أَصِلُ الحَبْلَ لِتَرْضَى وَهْيَ لِلْحَبْلِ صَرُومُ[1]

**هـ– الإصابة في التشبيه** : كقول ذي الرمّة [2]:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

**و– جودة التفصيل** : كقول أبي العتاهية[3]:

---

[**] لم نعثر عليه في الديوان

[*] لم نعثر عليه في الديوان

[1] هذا البيت هو للأحوص الأنصاري، ينظر : شعر الأحوص الأنصاري، تح : عادل سليمان جمال، تقديم : د. شوقي ضيف، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية 1411هـ/1990، ص : 239 .

[2] هذا البيت موجود في ديوان النابغة الذبياني، تح : كرم البستاني، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، طبعة 1383هـ/1963م، ص : 81

[3] هذا البيت موجود في ديوان ذي الرمة، وفي هاته النسخة قوله :كحلاء في برج، صفراء في نعج * كأنها فضة قد مسها ذهب .

بَيْضَاءَ فِي دَعَجٍ، صَفْرَاءَ فِي نَعَجٍ  كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

**ز- قلة التكلف** :كقول أبي العتاهية [1] :

خَيْرُ المَذَاهِبِ فِي الحَاجَاتِ أَنْجَحُهَا  وَأَضْيَقُ الأَمْرِ أَدْنَاهُ مِنَ الفَرَجِ

**ح- المشاكلة** :كقول رجل من بني نمير يفتخر:[2]

نُعَرِّضُ لِلطِّعَانِ إِذَا اِلْتَقَيْنَا  وُجُوهًا لَا تُعَرِّضُ لِلسِّبَابِ

إنّ وضع اِبنِ وهب لشروط خاصة بالبلاغة والشعر، والتي ستصير فيما بعد شروط الكلام الفصيح والبليغ، يجعل البلاغة تنتقل من المشافهة إلى الكتابة، ما يعني إقصاء الصوت أو التخفيف من وجوده، على غرار ما يراه العمري في اعتباره أنّ " نظرية البيان، بالانتقال من الشفوي إلى الكتابية -أي من الجاحظ إلى ابن وهب - قد تخلت عن الجانب الصوتي واهتمت بالمعاني العامة، غير أنّ أثر النظرية الجاحظية ظل مهيمنا على البلاغة العربية، واستطاع أن يحجُب عن بلاغيي الفصاحة ظواهر أسلوبية كتابية طارئة كان حريا بهم تسجيلها "[3].

هذا وعلى الرغم من عدم اهتمام ابن وهب بالجانب الصوتي في البلاغة، إلا أنه قد كان لعمله دورا هاما في التقعيد لها، كما كان له وزنا ثقيلا ضمن مشروع العمري، ومن هذا المنطلق جاء اختيار العمري لمشروع ابن وهب كأصل من أصول البلاغة العربية، الأصل الذي تم فيه الانتقال من البلاغة الشفهية الممثلة في عمل الجاحظ، إلى البلاغة الكتابية الممثلة في عمل اِبن وهب .

وكخلاصة لهذا المبحث نقول بأنّ دراسة العمري لمشروعي الجاحظ وابن وهب في إطار البحث عن أصول البلاغة العربية، قد أسفرت عن تبيان مفهوم البيان عند كل منهما، حيث يحمل البيان عند الجاحظ معنى الفهم والإفهام، وأما عند ابن وهب، فالبيان يحمل معنى المعرفة بالشيء

[1] ديوان أبي العتاهية، تقديم: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1406هـ/1986م، ص : 109 .

[2] ديوان القتال الكلابي، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م، ص: 37 .

[3] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، ص : 89 .

مع القدرة على إيجاد قناة للتواصل بين الملقي والمتلقي لهذا الشيء، وهي عنده تبرز في الكتابة بشكل أساس .

وعليه، فإنّ بيان الجاحظ يتميّز في شموليته للفهم والإفهام من جهة، وللخطابين الشفهي والكتابي من جهة أخرى، وأما ابن وهب فهو يتميّز بتفصيله في وضع التعريف المناسب للبيان من جهة، وباقترابه أكثر من المصطلح البلاغي لعلم البيان المعروف حاليا من جهة أخرى .

ويرى العمري "بأنّ عمل ابن وهب أقربُ إلى نظرية معرفية، في حين أنّ عمل الجاحظ يندرج ضمن النظرية البلاغية، بلاغة الخطبة، وهذا يقتضي منا توضيحا بصدد مفهوم البيان والذكر البياني عند الأستاذ عابد الجابري، حيث وجدنا مجموعة من البلاغيين يناقشون باعتبارهم مناطقة أو فلاسفة، أو يطالبون بعمل هؤلاء "[1] .

هذا وسنتناول في المبحث الموالي الأصل الخامس من أصول البلاغة العربية عند العمري، والمتعلّق بالبلاغة عند اليونان، من خلال العنوان التالي: " القراءة العربية للبلاغة اليونانية " .

**المبحث الخامس: القراءة العربية للبلاغة اليونانية:**

لم يكنْ تأثُّر الفكرِ العربيّ بثقافةِ اليونانِ فقط، بل كان تأثُّرُهُ بثقافاتِ شعوبٍ أخرى ضَمّتْهَا الدَّولةُ الإسلاميةُ، مثلَ الفُرْسِ، والرُّومِ، والهُنود وغيرهم ...، وذلكَ راجعٌ إلى التلاقُحِ الفكريّ والثقافِي بين مختلَفِ هاتِهِ الشُّعوبِ مع الحُكم العربي؛ وعليه فإنّ تخصيصَ العُمري للثقافةِ اليونانيّةِ، وأخْذِهَا بِعَيْن الاعتبار، لَا يُلغي بالضرورة بقيَّةَ الثقافاتِ، وإنما غُلّبتْ ثقافةُ اليونانِ بسببِ تأثِيرِ الفكرِ الأرسطيّ في الدرسِ البلاغيّ العربيّ، وهو ما نوّه به العمري في مُستهلّ دراسته لموضوع القراءة العربية للبلاغة اليونانية، حين قال: " فالتخصيص يرجِعُ إلى دخولِ الثقافةِ اليونانيَّةِ مِنْ خلالِ تراثِ أرسطُو كَنَسَقٍ تحملُهُ أعمالٌ مُؤَلَّفَةٌ مَازَالَت تفرِضُ حُضُورَهَا على التفكير البلاغي العالميّ، وهما " فنّ الشعر" و" فن الخطابة " لأرسطو "[2].

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 212، 213 .

[2] نفسه، ص : 219 .

ويضيفُ العمريُّ في ذاتِ السِّياقِ أنّ تأثير الفكر اليوناني سار على مستويين اِثنين: " مستوًى عامٌّ يتجسّدُ في المنطقِ والثقافةِ الأخلاقيةِ والنفسيةِ، ومستوًى خاصٌّ يتعلقُ بالجانبِ البلاغيِّ فقط، أيْ البناءُ الخاصُّ بكلٍّ مِنَ الخطابيْن الشعري والخطابي "[1]، وهو ما يَدُلُّ على مَدَى تأثير البلاغة اليونانيّةِ أكثَرَ مِنْ غيرِهَا مِنَ البلاغاتِ التي انتقلت في خضم التلاقح الفلسفي بين الأمّتيْن، " ولعلّ الفلسفةَ والمنطقَ اليونانييْنِ كانَا مِنْ أهمِّ العلومِ التِي داخلَتِ البلاغةَ فِي شَكْلِ إسقاطَاتٍ لمبادِئِ العِلميْنِ، مِنْ قِبَلِ علماءَ عرب، ونقّادٍ تأثّرُوا بالثقافةِ اليونانيّةِ بعدَ الاحتكاكِ، والترجماتِ فِي نهايةِ القرنِ الثانِي الهجرِيّ، وبدايةِ القرنِ الثالِثِ، مع اِبنِ قتيبةِ، والجاحظِ، وقدامةَ ... وغيرهم "[2] .

ولقد تحدّثَ العديدُ مِنَ الباحثِينَ العربِ عنْ هذَا التأثُّرِ والتأثِيرِ بينَ الثّقافةِ العربيّةِ وغيرها مِنَ الثقافاتِ، لاَسيما اليونانيّةَ منها، مبرزِين السَّبَبَ الرَّئيسَ فِي هذا الأمرِ، على غرارِ ما يراهُ زكريَّا بشير في كتابه " لمحاتٌ مِنْ تاريخِ الفلسفةِ الإسلاميَّةِ "، حيث يقولُ: " ولئِنْ تأثّرتِ الفلسفةُ الإسلاميّةُ بالتراثِ اليونانِي أكثرَ مِنْ غيرِهِ، فذلك للخصائِصِ الذاتيّةِ لذلك التراثِ، والتِي تجعلُهُ مؤثِّرًا أكثرَ مِنْ غيرِهِ، ونقصِدُ بذلكَ الخصائصَ العقلانيَّةَ، والعلميَّةَ، والموسوعيَّةَ، ولكنّ الفكرَ الإسلاميَّ تأثَّرَ بفارسَ، والهندْ"[3]، وعلى هذا الأساسِ، كان اِعتبارُ البلاغةِ اليونانيَّةِ،عند العُمريّ، أصلًا مِنْ أصولِ البلاغةِ العربيَّةِ، خاصَّةً فيمَا يتعلَّقُ بكتابَيْ أرسطو عَنِ الشّعرِ والخطابةِ، اللذيْن أَوْلَاهُمَا العمريُّ عنايَةً بالغةً، فالشّعرُ والخطابةُ يمثّلانِ عنصرًا أساسيًّا يمكنُ الاعتمادُ عليهِ في بلورَةِ مفهُومٍ جديدٍ للبلاغةِ العربيّةِ.

وَعلى كلٍّ فقد تناولَ العمريُّ كتابيْ" فنّ الشعر، وفنّ الخطابة "، كمبحثيْن مستقلّيْن عنْ بعضهما البعض، بُغيةَ البحثِ فِي مدَى تأثيرِهِمَا على البلاغة العربية .

**أولا– فن الشعر: من المحاكاة إلى التغيير:** لعلّ كتاب " فنّ الشعر " لأرسطو، هو أوّلُ كتابٍ يسعَى إلىَ البحثِ فِي تعليمِ كتابةِ القصائِدِ وإلقائِها على حدٍّ سواءٍ، ولذلك لَقِيَ الإقبالَ اللَّامُتَنَاهِيَ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 219 .

[2] فؤاد زرواق، أثر الفلسفة اليونانية في البلاغة العربية، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلّد03، العدد07، جويلية2018م، ص: 132 .

[3] زكريا بشير إمام، لمحات من تاريخ الفلسفة الإسلامية، دراسة مدخلية ميسرة، الدار السودانية للكتب، الطبعة الأولى، 1418هـ/1998م، ص: 13 .

مِنْ لَّدُنِ البلاغيّين العربِ وغيرِ العربِ، قديمًا وحديثًا؛ وفيما يخصُّ العمريَّ فقد تناولتْ دراستُهُ لهذا الكتاب ثلاثةَ أوجُهٍ هي: 1- إشكاليّةُ قراءةِ فَنّ الشعر، 2- البحثُ عَنِ القوانِينِ والكليَّاتِ، 3- الإجراءاتُ التحويليَّةُ: نَقلُ المركزِ مِنَ المحاكاةِ إلى التغييرِ .

**1- إشكالية قراءة فن الشعر**: أمّا بالنسبة لإشكاليةِ قراءةِ الكتابِ، فقد أَرْجَعَهَا العمريُّ إلى العلماءِ القدماءِ، الذينَ" لم يفهمُوا كتابُ فنّ الشعرِ لأرسطو، ولم يتأثَّروا بِهِ، والدّليلُ على ذلك أنّهُمْ ترجمُوا التراجيديا بالمدْح، والكوميديا بالهجاء "[1]، وهو ما يؤكدّهُ عديدُ الباحثِينَ الذينَ يُقَسِّمُهُمُ العمريّ إلى طائفتيْن، " الأُولى تمثّلتْ في محقّقي الكتابِ مِنَ الفيلولوجيّينَ الهيلينيّينَ الغربيّينَ والعربِ، إبتداءً مِنْ مارجليوت(Margoliouth) ، وتكاتش، (بالألمانية *Jaroslav Tkáč*)، وإنتهاءً بِعَبْدِ الرّحمن بدويّ؛ وتمثّلتِ الثانيةُ فيما يمكن أنْ نَدْعُوَهُمْ بالباحثِين الهيلينيّينَ العرب، المعجبِين باستثمارِ النّهضةِ الغربيّةِ لفنّ الشعر، وبما ترتّبَ عنْ ذلك مِنْ غِنًى وتنوُّعٍ فِي الأجناسِ الأدبيّةِ، وعلى رأسِ هذهِ الطّائفةِ طه حُسين "[2].

هذا ويُرجِعُ العمريّ إشكاليّة هاتِهِ القراءةِ إلى عدّةِ أسبابٍ، جَعَلَهَا تحتَ عُنْوَانيْن كبيريْن هما " البحثُ عنِ النّصِ الأصليّ( وفيه يشير إلى عدم قراءة الكتاب، والقراءةَ الموضوعيةَ الجيدةَ) وإلى إختلافِ مرجعيّةِ كلِّ قارِئٍ"[3].

**2- البحثُ عنِ القوانِينَ والكليّاتِ**: وأما بالنسبة لمسألةِ البحثِ عنِ القوانِينِ والكليّاتِ، فقد تناولهَا العمريُّ مِنْ خلالِ إيرادِ نَمَاذِجَ عنْ قِراءاتِ العلماءِ العربِ لكتابِ أرسطو، مثل الفارابي،وابن سينا، وابن رشد... الخ، وكان توسُّعُهُ في عملِابنِ رُشدٍ أكثرَ مِنْ غيرِهِ، ولكنّه اِعتبَرَ جميعَ تلك القراءاتِ تصُبُّ في قالبٍ واحدٍ وهو:

أ- تخليصُ عمل أرسطو مِنَ الخصوصيّاتِ المحليَّةِ العائدةِ إلى عَادَاتِ اليونانيّين في أدبِهِم (خاصة الحديث عنِ الأجناسِ الأدبيّةِ وبنياتها )، وتخليصِهِ مِنَ الأمثِلةِ اليونانيّةِ، سواءٌ عوّضتْ بأمثلةٍ عربيّةٍ أمْ لمْ تعوّض، وهذا الصّنِيعُ هو ما يجعلُ هذه الأعمال تسمّى " التلخيصات ".

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 221 .

[2] نفسه، ص : 221، 222 .

[3] نفسه، ص : 223 - 230 .

ب- بسطُ المفاهِيمِ الكليّةِ وإمدادُها بالأمثلةِ العربيةِ، وهذا مبررُ نعتِ هذهِ الأعمالِ أحيانًا بالشروح، وقد يسُوغ أنْ ندعوَها شروحًا مقارنة "[1].

**3- الإجراءات التحويلية:** وأما بالنسبة للإجراءات التحويلية، والذي يُعْنَى بها هُنَا نقلُ المركزِ مِنَ المحاكاةِ إلى التغيِيرِ، فقد ربطَ العمريُّ قضيةَ الانتقالِ مِنَ المحاكاةِ إلى التغيير فِي دراسةِ الفلاسفةِ العربِ لكتابِ أرسطو " فنّ الشعر "، ربطَهَا بعمل كلٍّ مِنَ الفارابي وابنِ رشد، باعتبارهما الأكثر تأثُّرًا به،" فالفارابيّ وسّعَ المقدّمةَ فصارَ قُدْوَةً، وابنُ رشدٍ وسّع البناءَ اللّغويّ، وَخَرَجَ منه بمفهومٍ مولّدٍ تحتَ عنوان " التغيير" ، والتغييرُ عند اِبنِ رشدٍ صياغةٌ متقدمةٌ، تاريخًا وفهمًا، للانزياحِ الشعري "[2].

تمثل المحاكاةُ عند الفارابيّ معنَى التصويرِ أوِ التمثيلِ، " تمثيلُ الأشياءِ أساسًا، متأثرا بمفهومها عند أفلاطون، ناظرًا إلى الشعر العربي ونُصُوصِهِ القديمة المشهورة لامرئ القيس وأمثاله، وفي هذا الاتجاه نجدُ التصويرَ والنّحتَ يُشَكّلان عنده الامتدادَ الفنيّ للمحاكاةِ، فِي حين يغضّ الطرْفَ عَنِ الامتدادِ الآخَرِ لها عند أرسطو، وهو الموسيقى والرقص وما يتَّصل بهما مِنْ نَقْرٍ على النَّاي ومِنْ غِناء "[3]، وأما عند اِبن سينا فالمحاكاة تَأخُذ معنيين، أو مفهومين اِثنين، " المفهوم الأول عامّ متعلّق بالجنس الشّعريّ بالنّظر إلى الأجناس الأخرى المجاورة له التي تُقاسِمه ساحةَ القوْل (...)وهذا التّصوُّر هو الذي يستدعي إحصاءَ المكوّنات البلاغيةِ كلِّها وإدخالها في مجال تكوين الشعر الذي هو تخييل "[4]، وأما اِبنُ رشد فقد " اِنزاح عن المعنى الأصلي الأرسطي، ونظر في المعنى اللغوي للكلمة العربية " المغيّر "، فوجده يتلاءم مع ما في مادة الفصل الثاني والعشرون من فن الشعر، من تحويرات لغوية مشعرِنة، كما وجد في كتاب فن الخطابة صورا بلاغية ترجع إلى التغيير والتبديل والتحوير، فبنى على أساس المعطيين المعجمي والبلاغي معنى جديدا، ينطلق من الصور الدلالية على نحو ما فعله اِبن سينا "[5]، كما يَعْتَبِرُ العمري بأنّ عمل اِبن رشد يعدّ تتويجا " لعملية التحويل ( تحويل النظرية ) الت يماسها طوال صفحات هذا التلخيص / الشرح - أي كتاب اِبن رشد -، عن طريق تحوير

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 234 .

[2] نفسه، ص : 249 .

[3] نفسه، ص : 249، 250 .

[4] نفسه، ص : 252، 253 .

[5] نفسه، ص : 259 .

المفاهيم لتلائم معطيات الشعر العربي، وتعتبر قراءته للتعرف المقدمة في هذا البحث أحسن مثال لهذه العملية "[1].

**ثانيا: فن الخطابة : الصحة والاعتدال:** وأما كتابُ" فنّ الخطابة"، فهو كتابٌ غنيّ عَن التّعريفِ في الفلسفةِ اليونانيّةِ على العموم، والأرسطيَّة منها على وجهِ الخُصوص، وهذا راجِع للإقبال الكبير الذي حظي به، من لدن عديد الباحثين العرب وغير العرب، القدماء منهم والمحدثين، فعلى سبيل المثال نجد أنّ الجاحظ، الذي يعدّ من مؤسسي علم البيان، كان من أوائل الذين اطّلعوا على المنطق الأرسطي وتأثروا به، غير أنّ هذا لا يعني أنّ الجاحظ نقل البلاغة عن اليونان حرفيا، بل إنّ " تأثّر الجاحظ بالمنطق الأرسطي، ومنه كتاب الخطابة، كانت قد أملتْهُ الظروف الحضارية، وثقافته الموسوعية، ولا يمكننا أن نركن إلى آراء المستشرقين التي حاولت تقويض جهده، وعدّته مدينا حضاريا لليونانيين (...) وقد أبانت ملاحظاته المبثوثة في مؤلفاته أنه أدرك خصوصية البيان العربي، لذلك عمد إلى نصوص تراثه الحضاري، ليستخلص منها ملحوظاته البيانية "[2] .

وفي وَصْفِهِ لحال العرب وبلاغتهم أثناء الاطلاع على هذا الكتاب، يقول الباحث العربي إبراهيم سلامة: " كل هذا، وكتاب أرسطو في الخطابة في أيدي المترجمين في النّصفِ الأخِير مِنَ القرنِ الثالثِ الهجريّ، يُخَايِلُونَ به، ويتحسَّسُون ما فيه مِنْ نَفْعٍ يمكن أن تنتفع به آدابُهُم، وما فيه مِنْ غَرَابَةٍ يحاوِل بعضُهُم أنْ يستأثر بها لنفسه، ويتعالم بها عن غيره "[3] .

وقد دَرس العمري كتاب " فن الخطابة"، مِنْ زاويتيْن اِثنتيْن، تطرَّق فِي الأولى إلى تقديم الكتاب، والتعريف به، عنْ طريق إعطاءِ خُطَاطَة عامّة لمكونات الخطاب الإقناعي تشمل ثقافة الخطيب وأسلوبه، وفي الثانية، قام بإبراز الطابع المميز لفن الخطابة، المتمثل في الوضوح والاعتدال

**1- مكونات الخطاب الإقناعي:** لقد أشار فيها العمري إلى أنّ كتاب الخطابة عادة ما يقسّم إلى مقدمة وثلاث مقالات:

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 266 .

[2] هدى قزع وآخران، كتاب الخطابة لأرسطو وأثره في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، الجاحظ أنموذجا، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد14، العدد1، 2014م، ص: 15 .

[3] إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، 1369هـ/1950م، ص: 83 .

**المقدمة:** وهي مُدْمَجَةٌ عادةً في المقالة الأولى حدَّد فيها أرسطو طبيعةَ الخطابَةِ وعلاقَتِهَا بالعلوم والفنون المجاورة لها، مثل الجدل والأخلاق والسياسة والشعر، وقسَّمَها حسْب المقاماتِ إلى اِستشاريَّة وقضائيَّة وتقويميَّة (مدح وهجاء) .

**المقالة الأولى:** الأخلاق والأدلة المناسبة لكل نوع والوسائل الإقناعية الصناعية الخاصة بالخطابة القضائية .

**المقالة الثانية:** الأحوال النفسية المؤثرة في المخاطبين والأقيسة الخطابة والأمثال .

**المقالة الثالثة:** الأسلوب وترتيب الأجزاء "[1].

ومِنْ هُنا يتجلى مفهومَ البلاغة الأرسطيّة عند العمري، في كونِها تقوم على ثلاثة أمورٍ مهمَّةٍ هي: 1- الأول هو مصادر الأدلة، 2- والثاني هو الأسلوب، 3- والثالث هو ترتيب أجزاء القول.

**– مصادر الأدلة** : تتمثل مصادر الأدلة في ثقافة الأديب، العامة والخاصة، على أنّ العامة تتعلق بالانفعالات والطبيعة النفسية للمتلقي، والخاصة تتعلق بثلاثة أنواع مِنَ الخطابة هي: الاستشارية والقضائية، والاحتفالية "[2].

**–الأسلوب:** يعتبر العمري أنَّ الأسلوب عند أرسطو يتمثل في الجمع بين الإلقاء والتمثيل، لكونهما يمثلان الجانب المصطنع منه "[3].

**– ترتيب أجزاء القول:** اِنتقد أرسطو التقسيمات المضحكة التي اِعتمدها بعض خطباء عصره، مؤكِّدًا أنّ التقسيم الملائم هو الذي يقوم على ذِكر الموضوع، أو القضية ثم البرهنة أو الدليل، وأولى من ذلك كله هو العرض والدليل، وبشيء من التسامح يمكن إضافة اِستهلال وخاتمة حين تتوخى منهما فائدة، فالأجزاء الكائنة والمحتملة هي: الاستهلال، العرض، الدليل، الخاتمة "[4] .

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 267 .

[2] نفسه، ص : 269، 270 .

[3] نفسه، ص : 270 .

[4] نفسه، ص : 270 .

**2- الطابع المميز لفن الخطابة:** وأما ما يخص الطابع المميز لفن الخطابة فإنه يتجلى في عنصري الوضوح والاعتدال، " فحين نمعن النظر في الاقتراحات البلاغية الكبرى المتضاربة في تاريخ البلاغة العربية، سنلاحظ أنّ كتاب فن الخطابة قد دَعَّمَ أيضا مفهوما كبيرا كان يناسب البلاغة العربية الكلاسيكية المحافظة، هو مفهوم الاعتدال والمناسبة المحققين للوضوح والمتعة الناتجة عن حد أدنى من الإغراب (...) وتقوم هذه الخصوصية الخطابية على وسطية بين الابتذال العامي والسمو إلى الإغراب والغموض الشعري، ففي هذه المرتبة يلتقي الفهم الناتج عن سلامة العبارة واستعمال الألفاظ في مواضعها مع الرشاقة الناتجة عن حد أدنى من التغيير حسب المقامات "[1].

وفي ختام هذا المبحث نقول: إنّ تأثير البلاغة اليونانية على الدرس البلاغي العربي من خلال كتابي فن الشعر وفن الخطابة لأرسطو، كان له دور كبير في توجيه مسار هذا الدرس، وهو ما تعكسه مجموع قراءات العرب لهذين الكتابين، مما دفع بالعمري لأن يعتبر قراءة العرب للبلاغة اليونانية عاملا أساسيا، وأصلا خامسا من أصول البلاغة العربية .

ولقد نال عملُ أرسطو إقبالا منقطع النظير مِنْ لّدُن عديد البلاغيين العربِ وغيرِ العربِ، الذين يمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات هي:

1- فئة أخذت عن التراث الأرسطي بطريقة مباشرة، ويمثلها جميع بلاغيي العرب الذين عنوا بهذا التراث، كالفارابي، وابن سينا .

2-فئة أخذن عن التراث الأرسطي بطريقة غير مباشرة، عن طريق العودة إلى أعمال أولئك البلاغيين العرب، ويمثل هذه الفئة جميع علماء الاستشراق الذين اهتموا بالتراث الأرسطي .

3-فئة من المعاصرين الذين أقبلوا على التراث الأرسطي إقبالا مباشرا، وهؤلاء يقسمهم العمري إلى قسمين:

أ- محققون فيلولوجيون هيلينيون غربيون وعرب، مثل ما رجليوت، وتكاتش، وعبد الرحمن بدوي .

ب- باحثون هيلينيون عبر مثل طه حسين .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 273 .

وفي نهاية هذا المبحث نستشهد بقول العمري الذي يثبت من خلاله كون البلاغة اليونانية أصلا من أصول البلاغة العربية حيث يقول: " إننا حين ننظر إلى القضية الجوهرية في الخطاب الإقناعي، وهي قضية المقام الخطابي وملاءمة الخطاب للأصول اعتمادا على ثقافة اجتماعية ونفسية، بما تضمنه من بحث في العادات والقوانين والشرائع والطبائع والأقيسة والاستدلالات، وعلاقة كل ذلك بالوسائل الأسلوبية، نكاد نجزم بأنّ كتاب فن الخطابة قد أخذ كقطع غيار في مجال البيان والنقد: (أخذ منه قدامة مثلا ما يتعلق بالأغراض والقيم) .

أما حين نمعن النظر في الاقتراحات البلاغية الكبرى المتضاربة في تاريخ البلاغة العربية سنلاحظ أنّ كتاب فن الخطابة قد دعّم أيضا مفهوما كبيرا كان يناسب البلاغة العربية الكلاسيكية المحافظة هو مفهوم الاعتدال والمناسبة المحققيْن للوضوح والمتعة الناتجة عن حد أدنى من الإغراب "[1]

ومع إنهائنا لهذا المبحث نكون قد أنهينا الدراسة التحليلية المتعلقة بأصول البلاغة العربية، المقدّمة في هذا الفصل، لننتقل في الفصل الموالي إلى دراسة تحليلية أخرى تتعلق بامتدادات البلاغة العربية عند العمري .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 277 .

## الفصل الثالث: دراسة تحليلية لامتدادات البلاغة العربية عند العمري

### المبحث الأول: الكتابة والشعر، البلاغة العامة– قراءة في مشروع أبي هلال العسكري

### المبحث الثاني: بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية– قراءة في مشروع عبد القاهر الجرجاني

### المبحث الثالث: بلاغة الصحة والتناسب– قراءة في مشروع ابن سنان الخفاجي

### المبحث الرابع: البلاغة المعضودة بالنحو والمنطق– قراءة في مشروعي القرطاجني والسكاكي

## الفصل الثالث: دراسة تحليلية لامتدادات البلاغة العربية عند العمري:

نتناولُ في هذا الفصلِ قراءةً لخمسَةِ مشارِيعَ بلاغيَّةً مَثَّلَتْ أعمَالَ كُلٍّ مِنْ أبي هلال العسكري في " الصناعتين"، والجرجاني في " أسرار البلاغة"و" دلائل الإعجاز "، والخفاجي في " سر الفصاحة"، والقرطاجني في " منهاج البلغاء وسراج الأدباء "، والسكاكي في " مفتاح العلوم "، وهذا على ضوء ما جاء في مشروع مُحَّد العمري، الذي وضعَ للبلاغة ثلاثة اِمتداداتٍ كبرَى، مَهَّدَ لها بالمشروع الأوّل وهو مشروعُ العسكري، ووزّع بقيّة المشاريع على الامتدادات التالية:

1- الامتداد الأول: التراوح بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية: ويتعلق بمشروع الجرجاني

2- الامتداد الثاني: أناقة الخطاب: الصحة والتناسب ( الكلاسيكية البلاغية ): ويتعلق بمشروع الخفاجي .

3- الامتداد الثالث: البلاغة المعضودة بالنحو والمنطق: ويتعلق بمشروع السكاكي .

وسنقوم في هذا الفصل التطبيقي بعرضِ هاتِهِ المشارِيعِ البلاغيَّةِ على أربعةِ مباحِثَ هي:

المبحث الأول: الكتابة والشعر-البلاغة العامة، قراءة في مشروع أبي هلال العسكري

المبحث الثاني: بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية، قراءة في مشروع الجرجاني

المبحث الثالث: بلاغة الصحة التناسب، قراءة في مشروع الخفاجي

المبحث الرابع: البلاغة المعضودة بالنحو والمنطق، قراءة في مشروع القرطاجني والسكاكي .

### المبحث الأول: الكتابة والشعر (البلاغة العامة )- قراءة في مشروع أبي هلال العسكري:

اِستهلَّ العُمَرِي دراسته لامتداداتِ البلاغةِ بكتاب " الصناعتين "، لأبي هلال العسكري، وذلك لأنه كتابٌ باحثٌ في صناعةِ الشِّعرِ والنَّثرِ معًا، وهو " كتابٌ نقديٌّ مشهورٌ أُقيم على أُسسٍ بلاغيةٍ، وقد اِستعانَ أبو هلال فِي تأليفِهِ لهذا الكتاب، بِجُلِّ ما كتَب سابقوهُ ممَّن عالجوا مِثل موضوعِه، وقد مَهَّد له بمقدّمة نوّه فيها بمعرفةِ عِلْمِ البلاغةِ، وضرورته لِفَهْمِ إِعجازِ القرآن الكريم،

وللتمييزِ بين جيّد الكلام وَرَدِيئِهِ "[1]، ومِنْ خِلَالِ عمل العسكري جُمِعَتْ أقاليم مملكة البلاغة [*]، التي كانت مِنْ قَبْلُ مفرّقة بين بيانِ الجاحظ، وبديعِ إبن المعتز، والمجاز والإعجاز القرآني، والفلسفة، ثم ما لبثت أن توزعت بين إقليمين فقط هما البيان والبديع، وهو الأمرُ ذاته الذي أشارَ إليه العمري في قوله: " حاولَ العسكري أن يجمَع فِي نظريَّةٍ واحدةٍ متكاملةٍ، صالحةٍ للمنظومِ والمنثورِ، جهودَ الاتجاهيْن السّابقيْن: البديع والبيان [*]، متخلّيًا عن المواد التي لا تُناسب موضوعَهُ، وعن المنهج الذي يضيق عَنِ المنظومِ والمنثورِ مجتمعيْن، وبإدماجِ الجوانِبِ البلاغيّةِ مِنْ نظريّةِ الجاحِظِ مَعَ الصُّوَرِ البديعيَّةِ عندَ اِبنِ المعتز وغيرِهِ مِنَ المشتغلين بالبديع ونقد الشعر، تَكوّن لديه ما اِصطلحْنَا على تسميَتِهِ" بلاغة عامة"، وهو اِسمٌ عامٌّ يضمُّ الفصاحة والبديع ويتجاوزهما "[2]، وهذا الوصف الذي أبداه العمري في شأن الصناعتين، يجعل من هذا الكتاب كتابا نقديًّا علاوةً على كونِهِ بلاغيًّا،لأنّ الحديث عنِ التّعلُّم والتَّعليم، لابُدَّ وأنْ يكُون فيه شيءٌ مِنَ النَّقْدِ والتَّمْحِيصِ .

واعتبارُ كتابِ العسكريّ ضمن كُتُبِ النقد، هو مذهبُ عديدِ الباحثِين، على غرار الباحثة وافية حملاوي، التي اِعتبرت أنّ العسكري " لم يخرج عنْ مفْهوم مدرسةِ الصَّنْعَةِ التي بَرَزَتْ فِي النَّقْدِ الأدبيّ، بل تُمثّل كلّ ما جاء فيها مِنْ آراءَ واتجاهاتٍ، ولذلك جاء كتاب الصّناعتين ليلخّص لنا بشكلٍ شاملٍ ودقيقٍ كلّ ما قيل في النقد الأدبي، متمثّلا نضوجَ هذه الآراءِ النقديةِ التي بَلْوَرَهَا الذّوق العامّ في المجتمع العباسي، وأنضجتْها الحقيقة الثقافية "[3] .

هذا وقبل أنْ نُعَرّجَ على دراسةِ العمريّ لهذا الكتاب، نعرضُ الآن رأيًا موجزا لباحث جزائري، يرى فيه أنّ أبا هلال العسكري " ظَهَرَ في القرنِ الرابعِ الهجريّ، ويُعتبر كتابُهُ الصناعتيْن، أساسًا قويًّا للبلاغةِ فِي نهايةِ هذا القرنِ، وعلى الرّغمِ مِنْ تصريحِ البيانِ والتبيينِ للجاحِظِ، إلا أنّ ذلك لا

[1] أبو هلال العسكري، موقع قصة الإسلام، الرابط: https:islamstory.com/ar/artical/34081/ تاريخ النشر: 10:00-2017/10/09

[*] ملاحظة: فكرة الأقاليم مأخوذة من مذكرة بوعافية عبد الرزاق .

[*] البيان ( الجاحظ وابن وهب )، البديع ( ابن المعتز ) .

[2] محمّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص : 89 .

[3] وافية حملاوي، قراءة في كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، مجلة تنوير، جامعة زيان عاشور، الجلفة، المجلد02، العدد08-ديسمبر2018م، ص: 99 .

يغمِطُ، حقّه ولا يُخفي مجهودهُ، وجديدَهُ فيما أضافه لبناءِ سرحِ البلاغةِ، ولسنا هنا لنُنَاقش قضيّة السبق إلى القضايا البلاغية، وإنما لحصْرِ ما وَرَدَ منها في كتاب الصناعتين، باعتبارِهِ كما صرّح النّقاد والمؤرّخون، جمع كل ما اِنتهت إليه البلاغة في عصرِهِ، فيكوّن لدينا فكرَةً حول ما وَصَلَتْ إليه البلاغة في ذلك القرن "[1] .

ويرى العمري بأنَّ العسكري لم يكن مهتما بقضايا المجاز والإعجاز التي طُرِحَت قبلهُ، بل إنه وَجَّهَ الدّراسةَ صوْب وظيفتيْن، وظيفةٌ نقديّةٌ، وأخرَى تعليميّةٌ، في إطار دراسَتِهِ للشِّعرِ والخطابَةِ عندَ العرب، ولذلك يقول: " لم يعد العسكري- بعد المقدمة – لإثارَةِ هذهِ القضيّةِ- أي الإعجاز والمجاز –، وإنما كانَ الشِّعرُ والخطابةُ موضوعَهُ الأوّل، وأقول: الشعر والخطابة برغمِ عنوان الكتاب، ووظائف البلاغة عنده بعد معرفةِ الإعجازِ هي:

1- القدرةُ على التمييزِ والاختيارِ: وظيفةٌ نقديةٌ .

2- القدرةُ على قرضِ الشِّعْرِ وإنشاءِ الرَّسائِلِ: وظيفَةٌ تعليميّةٌ" [2] .

وهاتانِ الوظيفتانِ نابعتانِ مِنِ اِعتباريْن اِثنيْن، اِعتبار ديني واِعتبار أدبي، أما الاعتبار الديني فإنه يبرز من خلال ما أشار إليه العسكري بقوله :" اِعلمْ أنَّ أحقَّ العُلومِ بالتَّعلُّمِ، وأولَاهَا بالتحفُّظِ – بعد المعرفة بالله جل ثناؤه – عِلْمُ البلاغةِ ومعرفةُ الفصاحَةِ، الذي به يعرف إعجازِ كلام الله تعالى، وقد علمنا أنَّ الإنسانَ إذا أَغْفَلَ عِلْمَ البَلَاغة وأخلَّ بمعرفةِ الفصاحةِ، لم يَقَعْ عِلْمُهُ بإعجازِ القرآنِ مِنْ جِهَةِ مَا خَصَّهُ الله به مِنْ حُسْنِ التَّأْلِيفِ، وبَرَاعَةِ التركيبِ، وما شحنه به مِنْ الإيجازِ البديعِ، والاختصارِ اللّطيفِ، وضمّنهُ مِنَ الحلاوةِ، وحلَّلَهُ مِنْ رونقِ الطَّلَاوَةِ، مع سهولة كَلِمِهِ وجزالتِهَا، وعذوبَتِهَا وسَلَاسَتِهَا "[3]، وأما الاعتبار الثاني وهو الاعتبارُ الأدبيُّ فهو راجعٌ إلى قوله : " ولهذا العلم بعدَ ذلك فضائلُ مشهورةٌ، ومناقبُ معروفةٌ، مِنْهَا أَنَّ صَاحِبَ العربيّةِ إذا أخلَّ بِطَلَبِهِ،

[1] حمزة حماني، ثنائية اللفظ والمعنى في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري(310هـ/395هـ)، مجلة قراءات للبحوث والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، العدد03/آفريل2013م، ص: 246 .

[2] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية، ص : 91 .

[3] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح : علي مُحَمَّد البجاوي، ومُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1371هـ/1952م، ص : 01 . ( بتصرف ) .

وفرَّطَ في اِلْتِمَاسِهِ، فَفَاتَتْهُ فَضِيلَتُهُ، وعَلَقَتْ به رَذِيلَةُ فَوْتِهِ، عَفَى عَلَى جَمِيعِ مَحَاسِنِهِ، وعمِيَعن سائرِ فضائلِه، لأنه إذا لم يفرّق بين كلامٍ جيّدٍ وآخرَ ردِيءٍ، ولفظٍ حسنٍ وآخر قبِيحٍ، وشِعْرٍ نادِرٍ وآخَرَ بَارِدٍ؛ بَان جهلُهُ، وظَهَرَ نَقْصُهُ؛ وهو أيضا إذا أراد أنْ يَصْنَعَ قصيدة أو يُنشئ رسالة – وقد فاته هذا العلم – مَزَجَ الصّفْوَ بالكَدَرِ، وخلط الغَرَرَ بالعَرَرِ"[1] .

لقد بيّن العمري مِنْ خلال هذا الرأي، الهدفَ الأساس لمشروعِ العسكريّ، والمتمثَّلِ في إيجادِ سُبُلٍ منهجيَّةٍ لتعلِيمِ الكِتابَةِ والشّعر، في إطارِ مفهومِ البلاغةِ العامّةِ، وأما عَنْ مَضْمُونِ كتاب الصناعتين، فيرى العمري بأنّه قد اِهتمَّ بالأطرافِ الثلاثةِ المكوِّنَةِ للخطابِ، وهي المرسل، والمتلقي، والرسالة، وهو ما يتّضح مِنْ خلال قوله: " تَنَاوَلَ الكتاب الأطراف الثلاثة المعتبرة في تكوين نص أدبي: المرسل، المتلقي، الرسالة، جامعا في ذلك بين مادة كتاب البيان والتبيين، وهي أميل إلى الخطابة والحديث عن المقام : مقام الإرسال ومقام التلقي، وبين مادة كتاب البديع، المنصرفة إلى الرسالة "[2]، ويمثل العمري عمل العسكري في الصناعتين بالخطاطة التالية:

[1] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص: 02 .

[2] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغة والممارسة الشعرية، ص : 91 .

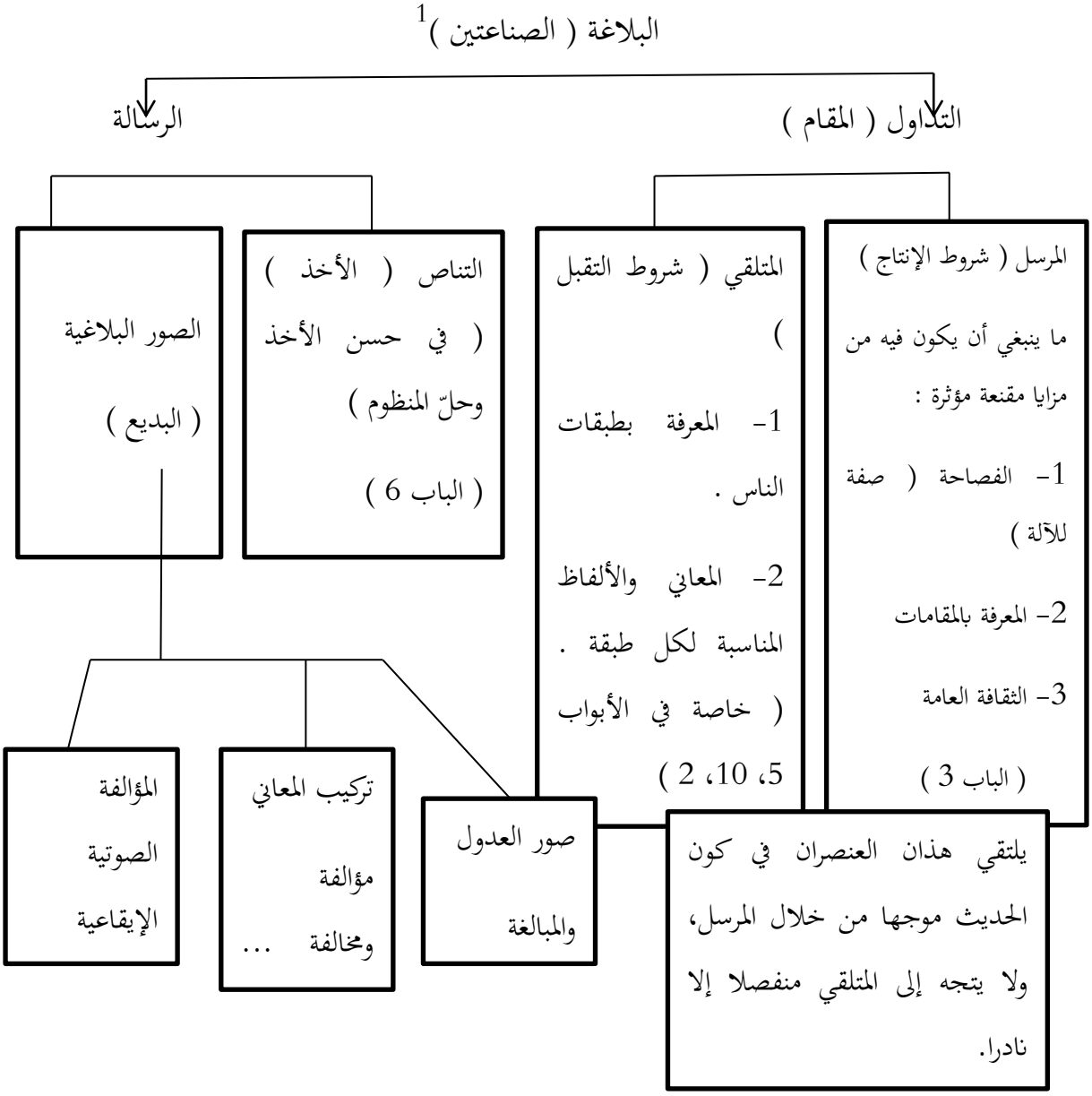


وفي كتابه " البلاغة العربية أصولها وإمتداداتها"، يقدّمُ العمري شرحًا مفصّلًا لهذه الخطاطةِ، تحت عنوان: " مُكَوِّنَاتُ البَلَاغَةِ العَامَّةِ"، حيث اِعتبر أنها تنقسم إلى قسمين هما: التداول، والنص ( أو الرسالة )، وحسبَ رأيِهِ فإنَّ العَسْكَريّ قَدْ"تَنَاوَلَ فِي المستوى التداولي ما ينبغي أنْ يكون عليه المرسل، في الباب الثالث بشكلٍ خاص، مِنْ معرِفَةٍ وخبرةٍ ومراعاةٍ للأحوالِ، وخصَّ حَالَ الكاتبِ بعنايةٍ خاصّةٍ لما تَتَطَلَّبُهُ وظيفَةُ الكتابَةِ مِنْ معارفَ ضروريَّةً؛ فأوَّلُ ما يجب على المنشئ أن يختارَهُ، الألفاظُ والمعاني المناسبةُ، كما يختارُ اللحظةَ، فإنْ تبيَّنَ له أنّ طبيعتَهُ لا تُسْعِفُهُ في الكتابةِ تحوَّل إلى

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغة والممارسة الشعرية، ص :92 .

غيرها مِنْ الصّناعاتِ، ويجبُ عليهِ بعدَ ذلكَ الموازَنَةُ بينَ أقدارِ المستمعِينَوأقدارِ المعاني، ومخاطبةُ كلّ طبقةٍ بما يناسِبُهَا .

وتناولَ أحوالَ المخاطَب فِي مناسباتٍ عدّةٍ، خاصّةً فِي تنظِيمِ الخطابِ، في البابيْن الخامسِ والعاشِرِ، فمرجِعُ الإيجازِ والإطنابِ هو حالُ المخاطبِ( الباب الخامس )، وكذا الشأن في الحديثِ عنِ المعانِي المناسبةِ لكلّ جزء مِنَ الكلامِ، وما يكُون للوصْلِ والفصْلِ مِنْ أَثَرٍ فِي النُّفُوسِ( الباب العاشر ) .

وعرضَ أيضًا لمراعاةِ أحوالِ المخاطبِينَ فِي الفصْلِ الثّانِي، خاصّةً فِي الحدِيثِ عَنْ خَطَأ المعانِي وصوابِهَا، فخطأُ المعانِي راجِعٌ فِي جانِبٍ إلى عدمِ مُناسَبَتِهَا لِحَالِ المخاطَبِين "[1].

فالمستوى التَّدَاوُلِي إِذَنْ، يَتَنَاوَلُ حَالَ المرسِلِ، والمرسِلُ الكاتِبُ على وجهِ الخُصُوصِ، ثم أحوالُ المخاطَبِين والمناسبَاتُ التِي يَلْقَى فِيهَا الخِطَاب، وأما المستوى النَّصِي فقد تناول المواضيعَ التّالية:

1- الصُّوَرِ البلاغيَّة: حَشَرَ العسكري الصور البلاغية أو ما سمَّاه " البديع "، في البابِ التّاسِعِ، خَصَّ السَّجْع والتَّشبيه ببابٍ لِكُلٍّ منهُما، وفيها: صور الانزياح: وهي، الاستعارةُ، والإردافُ، والمماثلةُ، والغلُو، والمبالغةُ، والكنايةُ، والتّعريضُ، والاستشهادُ، والمضاعفةُ، ويرى العمري أنّ أغلبَهَا تَصُبُّ فِي ثلاثٍ هي: الإردافُ، والمجاورةُ، والمشابَهَةُ، فِي حينِ يَرجِع بعضُها الآخرُ إلى المبالغةِ فِي المعانِي النَّاتجة عنْ أحدِهِمَا ( المجاورة والمشابهة ) ، وأما عنِ الأخذِ أو التّناصّ، فقد تناوله العمري في عمليَّةِ الشّرحِ كعنصُرٍ ثالثٍ مِنْ عناصِرِ " فائدة الاستعارة "، التي هي عنصرٌ رابعٌ مِنْ عناصِرِ صُوَرِ الانزياحِ، وفي هذا خَلْطٌ، ويرى أنّ الأخذ يفسّر عند العسكري مِن عدة زوايا، ذرة منها: الزاوية اللغوية، والزاوية الاجتماعيّة والثّقافية، والزاوية الفنية الشعريّة"[2].

هذا وقد أضافَ العمري خُطاطة أخرى بيّن مِنْ خِلَالِهَا مَضامِينَ مَشرُوعِ العسكريّ فِي صُورَتِهِ النّهائيّةِ، التي أبانَ فِيهَا عَنْ سبعةٍ وثلاثِينَ عِلْمًا مِنْ عُلُومِ البلاغَةِ، تحت عنوان " صور البديع " .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 286، 287 .

[2] نفسه، ص : 288-297 .

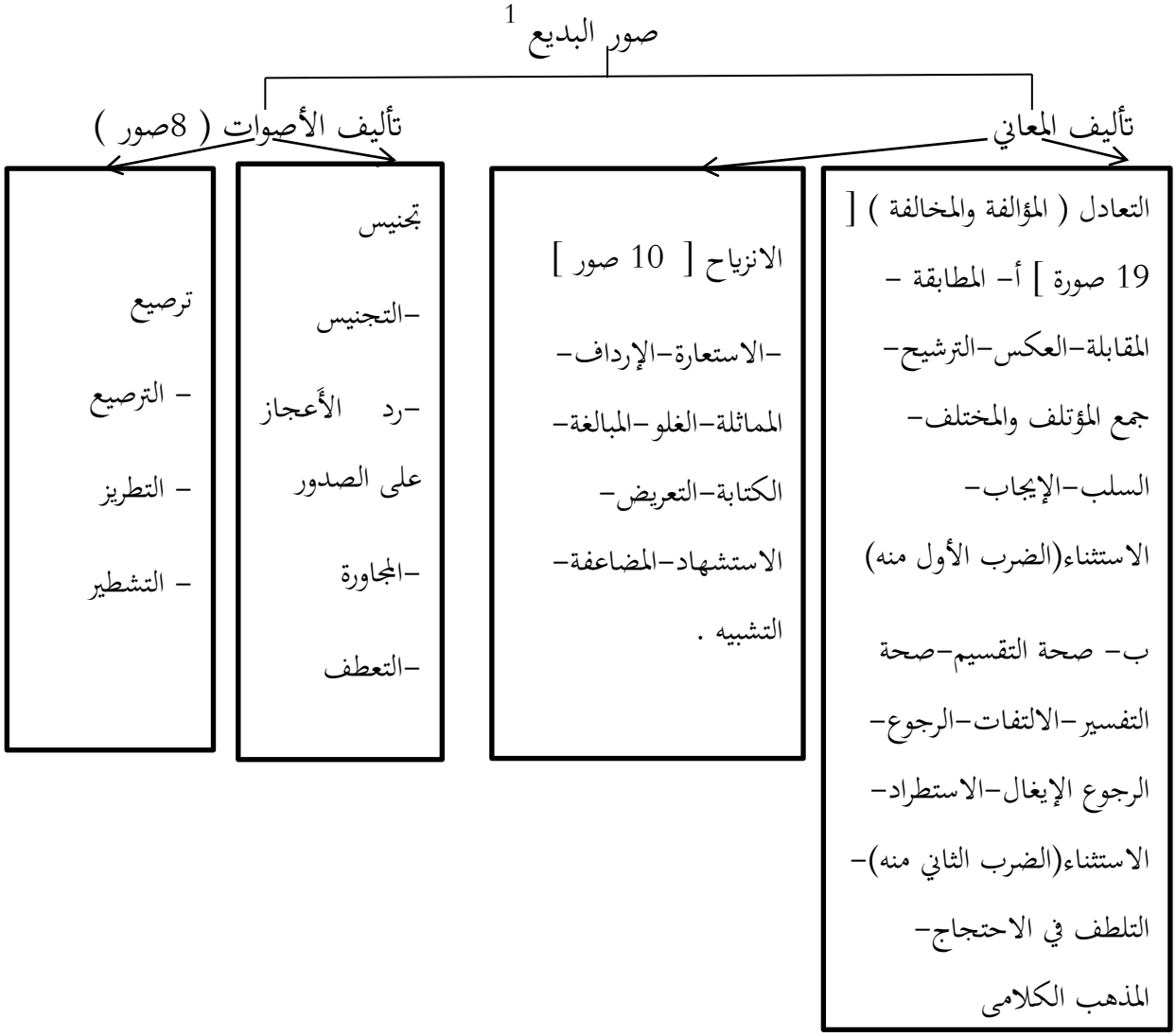


ومِنْ خِلَالِ هَذه الخطاطةِ يتبيّن لنَا أنّ العُمريّ يُقسِّمُ مَنْتُوجَ مشرُوعَ أبِي هِلَالٍ العسكرِيّ إلى ثلاثِ مجموعَاتٍ، تتضمَّنُ الأولى 19 صورة بلاغية، والثانية 10 صور، وأما الثالثة ففيها 4 صُوَرٍ فَقَطْ، " وَإِذَا اِعتبَرْنَا أَنَّ المجموعَةَ الأُولى أَمْيَلُ إِلَى الخطابَةِ، والمجموعتانِ الثانية والثالثة أميلُ إِلَى الشِّعرِ، لاَحَظْنَا مَدَى التّكافُؤ الذي يحكُمُ الكتابَ، حيثُ يكادُ يُحقّقُ توازُنًا كميًّا بينَ الصّوَر الخَطابيّةِ(19 صورة ) والصور الشعرية ( 18 صورة )، وسببُ التوازن يرجِعُ مِنْ جهةٍ إلى الهمّ الذي حمَلَهُ مؤلِّفُ الكتابِ، منذ البداية، في البحثِ عنْ بلاغةٍ عامّةٍ للمنظومِ والمنثورِ، كما أنها مشروعةٌ فِي البلاغةِ القدِيمةِ للتَّقارُبِ الملمُوسِ الواقِعِ بين الشِّعْرِ والخَطَابَةِ"[2] .

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية، ص : 93 .

[2] نفسه، ص : 95 .

وفي آخرِ هذا المبحثِ نقول: إنّ بلاغةَ العسكريّ هيَ البلاغةُ العامّةُ التي جمَعتْ بينَ الشّعرِ والخطابَةِ، فهيَ تهتمّ بصناعةِ كِلَيْهِمَا، ومِنْ هُنا جاءَ اِسْمُ الكتابِ " الصّناعتان "، وهو مَا جَعَلَ العمريّ يَضعها فِي مرتبةٍ قَبْلَ اِمتدادَاتِ البلاغةِ، كَونُ الامتداداتِ تهتمُّ بمشاريعِ كُلٍّ مِنَ الجرجانيّ، والخفاجيّ، والسكاكيّ، والقرطاجنّي، وجميعُ هاتِهِ المشاريعِ لا يُمكِنُ دراستُهَا والنّفاذُ إليهَا إلّا إِذَا كانتْ الاِنطلاقَةُ مِنْ بلاغةٍ تَجمَعُ بينَ الشّعرِ والخطابَةِ، فَعِبَارَةُ" الغرابةِ الشّعريّةِ" عند الجرجانيّ تشيرُ إلىَ الدّراسَةِ التِي قدَّمَهَا فِي كِتَابِهِ" الأسرار " وكانَ الشِّعْرُ مِحْوَرَهَا، وأما عِبَارَةُ" المناسبة التداولية " فَإِنَّهَا تُشِيرُ إلى الدّراسةِ التِي قَدّمَهَا في كِتابِهِ" الدّلائل " وكانت " الخطابة " مِحورَها، و " بلاغةُ الصّحةِ والتّناسُب " عند الخفاجيّ تُعنَى بالجانِبِ الصّوتي الذِي أَكْثَرُ ما يكونُ فِي القصائِدِ الشّعريّةِ، و " البلاغةُ المعضودةُ" لم تكنْ لِتَهْتَمَّ بالنّحْوِ والمنطِقِ لولا أنّها مرَّتْ على عَمَلِ العسكريّ الذِي أَهَّلَهَا لِذلِكَ، وفَتَحَ لها البَابَ لوُلُوجِ عُلُومٍ أخرى .

**المبحث الثاني: التراوح بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية:**

نتناوَلُ فِي هذا المبحثِ – عملا بمشروع العمري – مشروعَ عبدِ القاهِرِ الجرجانيّ ضمنَ كتابيْهِ: أسرارُ البلاغةِ، ودلائلُ الإعجازِ، وَقَدِ اِسْتَعْمَلَ العمريّ مُصطلحَ" الغرابةُ الشعريَّةُ" للدّلالةِ على مضمونِ كتابِ الأسْرارِ، ومصطلحَ" المناسبةُ التداوليةُ" للدّلالةِ على مضمونِ كتابِ الدّلائِلِ، وهذانِ المصطلحانِ هما اللَّذانِ سيكونَانِ عنوان الدراسة في هذا المبحث .

هذا وقد " مثّل الجرجانيّ علامةً فارقةً في التّراثِ البلاغيّ والنقدي العربيّ – دون إنكارِ جهودِ سابقِيه – فكان صورةً لِلُّغوي البارِعِ والنّاقدِ المُمَحِّصِ، زيادة على تشَبُّعِهِ بثقافةِ عصرِه، وجُرأته في الرّدِ على مخالِفِيه، بناءً على إيمانٍ قويٍّ، وعقيدةٍ راسخةٍ، فكان ما أنتجَهُ مميّزًا، إن لم نَقُل درَّةً مِنْ دُرر الزّمانِ، كلّما اِزْددنا له قراءةً ازْددنا توْقًا لاكتشافِ أسرارِ ما قدَّمَهُ في ثنايَا الكُتب التي أَلَّفَهَا "[1]، فالجرجانيّ لم يكن بلاغيًّا فحسبُ، بل كان على اِطّلاعٍ واسعٍ بالجانبِ النقديّ، والنّحويّ، وكان ملمًّا أيضا بكلّ ما وَصَلَتْ إليهِ تلكَ العُلومِ فِي عصرِه، ما مكّنَهُ مِنْ خدمةِ البلاغةِ العربيّةِ أيّمَا

[1] مسعودة مرسلي، البعد التداولي عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة رفوف، جامعة أدرار، العدد03- مارس 2016م، ص: 251 .

خدمة، خاصّةُ في التأسيسِ لنظريّةِ النّظمِ، " ولم يكن له أنْ يُنجز تآليفَهُ البلاغيّة، لولا المرجعيّاتِ النّحويّةِ التي تقدّمته زمنيًّا "[1] .

**أولا: مصطلح الغرابة الشعرية – قراءة في كتاب أسرار البلاغة للجرجاني –:** مصطلحُ" الغرابة " مصطلحٌ أقربُ ما يكونُ إلى التعبيرِ المجازيّ الذي يُوافقُ كلامَ الخاصّةِ مِنَ النّاسِ، كالبلاغيّين، والنحويّين، وأهلِ الأدبِ والفنّ، وغيرهم ...، وقد يُوجَد أيضا في كلامِ العامّةِ مِنَ المتشرّبين لِلّسانِ العربيّ على سَليقَتِهِ، مِنْ دونِ درايةٍ بالقاعدةِ النحويّةِ أو البلاغيّةِ التي وَظَّفَ على نَحْوِهَا هَذَا النوع مِنَ الكلامِ، أو حتَّى إدراكهُ أن يكون في كلامِهِ هذَا شيءٌ مِنَ الغرابةِ؛ بل إنه يراهُ كلامًا عاديًّا كأيّ كلامٍ لا غرابَةَ فِيهِ .

وفي تعريفِ العمريّ لمصطلحِ الغرابةِ يرى بأنها " تقترِنُ بالمفارقةِ والتخييلِ والتركيبِ والتأويلِ، وتُوصَفُ بالكذبِ والغُموضِ ... الخ، ومِنْ هنا فهي خاصيَّةٌ ( ضد عامّية)"[2]، وفي هذا الوصْفِ نجِدُ العمريَّ قد عمِل على تخصِيصِ المصطلحِ أَكْثَرَ، فهُو يراهُ متعلِّقًا بالشاعِرِ وَحْدَهُ، ذلك أنَّ مصطلحاتٍ مِثلَ الكَذِبِ والغُمُوضِ، لا تُستعمل بكثرةٍ إلا في الشِّعرِ، كذلكَ مفهُومُ التخييلِ الذِي قَدْ يَصِلُ بالشاعِرِ إلى درجةِ التنبُّؤ، فكثيرٌ مِنَ الشّعراءِ ضمَّنُوا قصائِدَهُمْ معانٍ وألفاظًا شديدةَ الغموضِ، مِنْ وَحْيِ خيالِهِمْ، لكنها سُرْعَانَ ما تَحَقَّقَتْ فِي عُصُورٍ لَاحِقَةٍ .

وعليهِ فإنَّ مفهُومَ الغرابةِ الشعريّةِ يَكُونُ محصُورًا في مجالِ التخييلِ لدى الخاصَّةِ مِنَ النّاسِ، وِفْقَ أسلُوبٍ مجازيٍّ عَصِيٍّ فَهْمُهُ عند العامّة، وضدُّه هو " الوُضوح "، الذي " يقترن بالعقلِ والمعرفةِ والصّحةِ، ويُوصَفُ بالصّدقِ والصّراحة، ومِنْ ثَمَّ فَهُوَ عامّيٌّ"[3].

وأما عن دورِهِ البلاغي، فيرى العمري بأنَّ " عنصر الغرابة هو العنصُر المنسِّقُ، أي الذي يعتمده المؤلف مبدئيًّا لصياغةِ نَسَقِهِ البلاغي، وعليه بُنيت خطَّة الكتابِ، في حينِ يلعب "

[1] عبد الله قريم ساكت السرحان، مصادر الجرجاني النقدية، دراسة في كتاب " أسرار البلاغة "، رسالة ماجيستير، إشراف: د. زياد صالح الزعبي، جامعة اليرموك، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الأردن، السنة الجامعية 2002-2003م، ص: 14 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 323.

[3] نفسه، ص: 323 .

الوضُوح" دورَ العنصُر المخلخِل المنازِع، أو الاستثناءَ الذي يُشكِّكُ في اِنسجامِ النظريَّةِ، وهو عنصرٌ عَارِضٌ باعتبارِهِ مُفَسِّرًا للبَلَاغةِ"[1] .

ولقد كان اعتمادُ العمريّ على مفهومَيْ " الغرابةُ" و"الوضوحُ"، راجعًا إلى كونِ البلاغةِ عند الجرجانيّ بلاغةَ معنَى، وهو ما نستشفُّهُ مِنْ خِلَالِ دراستِهِ لمفهُومِ الغرابةِ الشعريةِ، تحت عنوان: " تفاعُلُ الواقِعِ والخيَالِ: قضيةٌ واحدةٌ، وثلاثةُ مَدَاخِلٍ"، فالقضيّةُ عندهُ هي تحديدُ مفهُومِ البلاغةِ عند الجرجانيّ، وأما المداخلُ الثلاثةُ فأوَّلُها هو المعنى الصحيحُ والمعنى التخيِيليّ، والثانيّ هو المعنى القرِيبِ والمعنَى البعِيدِ، والثَّالثُ هو المجاز البديعيُّ والمجازُ غير البديعيّ، ما يدُلُّ على أَنَّ بلاغَةَ الجرجانيّ بلاغةُ معنَى، تُعنى بدراسةِ ما هو صحيحٌ، و تخييليٌّ، وقريبٌ، وبعيدٌ، وبديعيٌّ، وغيرُ بديعيٍّ، وسنقومُ برصْدِ مضامِينِ المداخِلِ الثلاثَةِ ضِمْنَ هاتِهِ العناوِينِ المبتكرة:

العنوان الأول: التقليدُ وتغييرُ المعنَى بينَ الشّعراء .

العنوان الثاني: الاهتمامُ بالاستعارةِ عند الشّاعِرِ الواحِدِ.

العنوان الثالث: توظيفُ المجازِ فِي خدمةِ المعنىَ.

**1/- التقليد وتغيير المعنى بين الشعراء:** يرى العمريّ بأنَّ الجرجاني اِهتم بالمعنى الذي يَصُوغُهُ شاعرٌ مَا فِي لَفْظٍ مَا، ثم يأتي شاعرٌ آخرُ فيوظِّفُ نفسَ اللّفظِ، يُريدُ به نفسَ المعنى أو معنًى يُقَارِبُهُ، أو ربما حتى يَتَعَمَّدُ تغيير معناه الأصلي، ليأتِيَ شاعرٌ ثالثٌ فيفعَلَ نفسَ الأمرِ، ثم يأتي رابِعٌ، وخامسٌ، وسادسٌ ... الخ، ليسيروا على نفسِ المنوالِ ومِنْ هنا يتنقَّلُ المعنى شيئًا فشيئًا ليصير على غيرِ الصُّورة التي كان عليها أولا، وهذا ما يسمّيه الجرجاني في القسمِ الثالثِ مِنَ المعاني بالمعنى الصحيح والمعنى التخييلي، وهذا ما نجده في المدخل الأول .

**المدخل الأول: المعنى الصحيح والمعنى التخييلي: ( القسم الثالث ):** يقول العمري: " يَقْصِدُ بالمعنى الصحيح والمعنى التخييلي هنا، ما يتعلَّقُ بانتقالِ المعاني بينَ الشعراء سرِقَةً أو اِقتِدَاءً، وهي في نظرِ الجرجانيّ على نوعين: عقليّ وتخييليّ، حيث أنَّ أهمّها في النوع الأول ( أي العقلي ) هو المعنى الصحيحُ، وبالتالي يكون مِحْوَرُ الدّراسة في هذا المدخل بين المعنى الصحيح والمعنى التخييلي، يقول:

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 323 .

" اِعلَمْ أنّ الحُكمَ على الشاعِرِ بأنّه أخَذَ مِنْ غَيْرِهِ وسَرَقَ، واقتدى بمن تقدَّمَ وسبَق، لا يخلو مِنْ أَنْ يكون في المعنى صريحًا أو في صِيغةٍ تتعلّقُ بالعبارة، ويجب أنْ نتكلّم أولا عنِ المعاني، وهي تنقسم أوّلا إلى قسمين: عقليّ وتخييلي، وكلُّ واحدٍ منهما يتنوّع، فالذي هو العقليّ على أنواع، أوّلها عقلي صحيح، مجراه في الشعرِ والكتابةِ والبيانِ والخطابةِ، مجرَى الأدلَّة التي تستنبِطُها العقلاءُ، والفوائدُ التي تُثيرُها الحكماء، ولذلك تجد الأكثر مِنْ هذا الجنْس منتزَعًا مِنْ أحادِيثِ النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة ﷺ ومنقولًا مِنْ آثار السلف الذين شأنُهم الصدقُ وقصدُهُمُ الحقُّ"[1] .

هذا ويعتقِدُ العمريّ، بأنّ دراسةَ الجرجانيّ لهذين المعنيَيْن نابعَةً مِنْ تصدّيهِ " لِمُكَوّنَاتِ الخطابِ عامة، والخطابِ الشعريّ خاصَّةً، لِكوْنِ ذلك أساسًا نظريًّا يميّزُ بين ما يَحْتَمِلُ الأخذ مِنْ مكوّناتِ الخطاب و ما لا يحتمِلُهُ، بل وما لا يَقبل الحديثَ عنِ الأخذِ أصْلًا "[2]، ما يعزّزُ قولنا دائمًا بأنَّ البلاغةَ عندَ الجرجانيّ بلاغةٌ لا تهتمُّ بالخطابةِ والشعرِ معًا، كما أنّها قائمةٌ على التنظيرِ لا على القوالِبِ الجاهِزةِ .

**2/- المفهوم الثاني: الاهتمام بالاستعارة عند الشاعر الواحد**:يَظهر الاهتمام بالاستعارة مِنْ خلال المفهومِ الذي سمّاه الجرجاني بـ " المعنى القريبُ والمعنى البعيدُ"، وتكمُن مسألة القُرب والبُعد في قضيةِ فهمِ معنى الكلمةِ بشكلٍ أساسٍ، وهو ما قدّمهُ الجرجانيُّ في المدخلِ الثاني مِنَ الكتاب .

**المدخل الثاني: المعنى القريب والمعنى البعيد ( القسم الأول )**: يقول العمري عن القسم الأول مِنْ كتابه " أسرار البلاغة"، والذي تضمّن المدخل الثاني: " بُني القسم الأول مِنَ الأسرار على تراتبيّةٍ بين المعنى القريبِ المأخذِ والمعنى البعيدِ المأخذِ، وقد تجلّتْ هذهِ الثنائيّة في عدّةِ مستويَاتٍ، ونُظر إليها من زوايا مختلفة، يمكن إرجاعها إلى مستويين هما: مستوى البنية ومستوى الوظيفة "[3].

وفي خِضَمِّ هذا العملِ يَدْرُسُ العمريّ مستوى البنية أو المستوى البنائي على النحو التالي:

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تقديم : السيد مُحَمَّد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1409هـ/1988م، ص : 228 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 326 .

[3] نفسه، ص: 328 .

1-تقسيمُ الاستعارةِ مبدئيًّا إلى مفيدةٍ وغيرِ مفيدةٍ، وغيرُ المفيدة لا تدخُل عنده في المجالِ البلاغيّ، لأنها لا تُفيد معنى زائدًا، أو لأنّ مفهومَ العارية لا ينطبِقُ عليهَا لِكَوْنِ المنقُول إليه يمتلِكُ اللفظَ المنقولَ، وهي التي ندعُوها نحنُ" الاستعارة الاضطرارية"، أو العلميّة لكثرةِ وُقُوعها في المجالِ العلميّ للحاجةِ إليها فِي وضعِ الأسماءِ لِلْمُسمَّيَاتِ الجديدَةِ .

2- ثم تقسيمُ البلاغةِ المفيدةِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ حسبَ الصفَةِ المشتركة بين الطرفين "[1]،والأقسامُ الثلاثةُ هِيَ:

أ- الاشتراكُ في صفةٍ عامَّةٍ .

ب- الاشتراكُ في صفةٍ مُتَجَسِّدَةٍ .

جـ- أخذُ الشَّبَهِ مِنَ الصُّوَرِ العقليّةِ .

**أ- القسم الأول:** الاشتراكُ في صفةٍ عامةٍ تُعتبَر نواةً للمعانِي المتجسِّدةِ في الطّرفيْن، بحيثُ تُعتَبَرُ النّواةُ المجسَّدةُ لها أنواعًا وهي: " أن يُرى معنىَ الكلمةِ المستعارةِ موجودًا فِي المُستَعَارِ له مِنْ حيثُ عمومُ جِنْسِهِ على الحقيقة، إلّا أنَّ لذلكَ الجِنْسِ خصائصَ ومراتبَ في الفضِيلَةِ والنَّقْصِ، والقوّةِ والضُّعْفِ، فأنت تستعِيرُ لفظَ الأفضَلِ لما هو دونَهُ، ومِثَالُهُ: اِستِعارَةُ الطّيرانِ لغيرِ ذي الجَناحِ إذا أردْتَ السُّرعةَ، وانقضاضِ الكواكِبِ للفَرَسِ إذا أسْرعَ في حَرَكَتِهِ مِنْ عُلُوٍّ، والسّباحةِ له إذا عَدَا عَدْوًا كانَ حالُهُ فِيهِ شَبِيهًا بِحالَةِ السِّباحِ فِي الماءِ، ومعلومٌ أَنَّ الانقضاضَ والسباحةَ والعَدْوَ، كُلُّهَا جنسٌ واحدٌ مِنْ حيثُ الحركةُ على الإطلاقِ"[2].

**ب- القسم الثاني:** الاشتراكُ في صفةٍ متجسدةٍ في الطرفينِ بمستويينِ مختلفينِ، لا نوْعًا بَلْ قوَّة وضعفًا، مع اِختلافِ جنسِ الطّرفين "[3]، يقولُ الجرجاني: " هذا الضربُ يشبهُ الضربَ الذِي مَضَى وإنْ لَمْ يَكُنْ إِيَّاهُ، وذلك أنْ يكونَ الشَّبَهُ مأخُوذًا مِنْ صفةٍ هي موجودةٌ فِي كُلِّ واحدٍ مِنَ المستَعَارِ لَهُ والمستَعَارِ مِنْهُ على الحقيقةِ، وذلك قَوْلُكَ: رأيتُ شمسًا، تريد إنسانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ كالشَّمسِ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 329 .

[2] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص : 41 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 330 .

فهذا له شبَهٌ باستِعارَةِ " طَارَ "، لغيرِ ذِي الجَنَاحِ، وذلك أنَّ الشَّبَهَ مُرَاعِي فِي التَّلَأْلُؤ، وهو كما يُعلم موجودٌ في نفسِ الإنسانِ المتهلِّلِ، لأنَّ رَوْنَقَ الوجهِ الحَسَنِ مِنْ حُسْنِ البَصَرِ مُجَانِسٌ لضوءِ الأجسامِ النيِّرةِ، وكذلِكَ إذا قُلْتَ " رأيتُ أسدًا "، تُريدُ رَجُلًا، فالوصفُ الجامعُ بينهُما هوَ الشجاعةُ وهِيَ على حقِيقَتِهَا موجودةٌ في الإنسانِ، وإنما يَقَعُ الفرقُ بينهُ وبين السَّبُعِ الذي اِستعرْتَ اِسمَهُ لهُ فِيهَا مِنْ جِهةِ القوَّة والضُّعفِ والزِّيادةِ والنُّقصانِ"[1].

**جـ- القسم الثالث:** أخذُ الشبَه مِنَ الصّورِ العقليّة، كما في تشبيهِ الوَحيِ الهادِئِ بالنُّورِ، كقوله تعالى : فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [ سورة الأعراف : 157 ]، فالعلاقةُ بين الهدَى والنُّور ليستْ في نواةٍ دلاليّةٍ مجسَّدَةٍ فِيهِمَا، وليستْ صِفَةً مُدرَكَةً بالحِسِّ ومشترَكَةً بين الطَّرفينِ، وإنما هِيَ فِي الأَثَرِ الذِي يُحْدِثَانِهِ، والنتيجَةِ التِي يُوصِلَانِ إليها، وهي مُدْرَكَةٌ بالعقلِ: " وهذا كما تَعْلَمُ شبَهٌ لستَ تحصُلُ منه على جِنْسٍ، ولا على طبِيعَةٍ وغريزةٍ، ولا على هيئَةٍ وصُورَةٍ تدخُلُ في الخِلْقَةِ، وإنما هو صوَرٌ عقليَّةٌ"[2] .

وبنظرةٍ إجماليَّةٍ يتضِحُ أنَّ الجرجاني يفكِّرُ فِي ثلاثِ مستويَاتٍ مُتَدرِّجَةٍ فِي القُرْبِ والبُعدِ مِنَ البلاغَةِ .

1- مُستوَى تعبِيرٍ مُباشرٍ، يتمُّ في النّقلِ مِنْ أجلِ التَّمَلُّكِ، حيثُ تنقطِعُ العلاقةُ مَعَ الأصلِ، وهذا يدخُلُ ضمنَ عملِ اللُّغة، ولا يُعد مستوًى مِنْ مُسْتَوَيَاتِ البلاغةِ .

2- ويليهِ مُستَوَى ثَانٍ لا يَكَادُ يَبْتَعِدُ عنه أحيَانًا لأنه، كما قالَ، أقربُ مِنَ الحقِيقَةِ لِشدَّةِ الشَّبَهِ فِيهِ، وهو المستوَى الذِي يَستعمِلُ المعاني الحسيةِ، ويتفرَّع عنْ جِنْسٍ مشتَرَكٍ .

3- والمستوَى الثالثُ هو المستوى التأوِيلِيُّ، الذي يحتاجُ إلى إعمالِ الفكرِ لاستخراجِ المعنَى أو بِنَائِهِ أصلًا "[3].

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 46 .

[2] نفسه، ص : 50 .

[3] نفسه، ص : 332، 333 .

لقد ركَّزَ الجرجانيُّ في دراسَةِ المعنَى القريبِ المأخذِ والمعنَى البعيدِ المأخَذِ، عَلَى عُنْصُرِ الاستعارةِ، ودورِها في تعزِيزِ اِنتقالِ المعاني مِنَ المفهُومِ الأوَّلِيّ متدرِّجَةً إلى أَبْعَدِ مفهُومٍ ممكِنٍ، وهو مَا تقُومُ عليْهِ جماليَّةُ الشِّعرِ عندَ العَرَبِ، وبالموازاةِ مع دوْرِ الاستعارةِ يأتِي أيضًا دورَ المجازِ، الذِي سَنَتَعَرَّفُ عليهِ فِي العنْصرِ الموالِيّ .

**03-المفهوم الثالثُ: توظيفُ المجاز في خدمةِ المعنى:** وكما اِعتمدَ الجرجانيُّ على الاستعارةِ، اِعتمَدَ كذلِكَ على دَورِ المجازِ، وذلكَ في خِضَمّ دِرَاسَتِهِ للمدخَلِ الثالثِ مِنْ كتابِهِ " أسرار البلاغة"، حيث عَنْوَنَهُ بالعنوان التالي: المجازُ البديعيُّ، والمجازُ غيرُ البديعِيّ .

**المدخل الثالث:المجاز البديعي والمجاز غير البديعي: ( القسم الثالث ):** وللاستدلالِ علىَ نَهْجِ الجرجانِيّ هذًا فيما يخُصُّ المجاز، أورَدَ العُمريُّ نُصُوصًا مِنْ كتابِ" الأسرار " جاء فيها .

**01- المجاز في المفرد:** يقول الجرجاني: " اِعلمْ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ وصفيْ المجازِ والحقيقةِ، إذا كانَ الموصُوفُ بِهِ الفَرْدُ غيرَ حَدِّهِ إذا كان موصوفًا بِهِ الجُمْلَةُ وإنا نحدُّهُما في المفرد [*] : كلُّ كلمَةٍ أُريد بها ما وقعَتْ له فِي موضعِ واضعٍ(...) وأما المجازُ فكلُّ كلمَةٍ أُريد بها غيرُ ما وقعَتْ لَهُ في وضعِ واضِعِهَا لملاحظةٍ بينَ الثَّاني والأولِ فهي مجازٌ، وإنْ شئتَ قُلْتَ كُلُّ كلمَةٍ جَزتْ بِهَا مَا وَقَعَتْ لَهُ فِي وضعِ الواضِعِ إلى مَا لَمْ تُوضَعْ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْتَأْنِفَ فِيهَا وَضْعًا لملاحظةٍ بينَ مَا تَجُوزُ بها إليه وبين أصلِها الذي وُضعتْ له في وضعِ واضِعِهَا فَهِيَ مَجَازٌ"[1].

**02- المجاز في الجملة:** يقول الجرجاني: " و لا يَتَلَخَّصُ لك الفَصلُ بين الباطِلِ وبين المجازِ، حتى تعرِفَ حدَّ المجازِ، وحدُّه أنّ كلَّ جملةٍ أخرجت الحدَّ المفادَ بها عَنْ موضُوعِهِ في العقلِ لِضَرْبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ فهِي مجازٌ"[2].

**03- المجاز الحُكْمِيُّ:** عقَدَ المؤلّفُ في آخِرِ الكِتابِ فَصْلًا تحدَّثَ فيهِ عَنِ الزِّيادةِ والحذفِ( في

[*] يريد الجرجاني بهاته العبارة أن كلا من المجاز والحقيقة يتخلفان بين المفرد والجملة، وقوله : الموصوف به الفرد غير حده الموصوف به الجملة، أي ما يوصف به الفرد ليس هو نفسه ما توصف به الجملة .

[1] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص : 303، 304 .

[2] نفسه، ص: 332 .

نظمِ الكلامِ ) اللّذيْنِ يترتَّبُ عنهُمَا اِنزياحٌ مجازيٌّ سمَّاُه المجازَ الحُكميَّ، كما سبق "[1]، يقول الجرجاني : " اِعلم أنَّ الكلِمَةَ كما تُوصفُ بالمجازِ لنَقْلِكَ لَهَا عنْ معنَاهَا كمَا مَضَى، فقدْ تُوصَفُ بِهِ لِنَقْلِهَا عَنْ حُكْمٍ كانَ لَهَا إلى حُكمٍ ليسَ هو بحقيقةٍ فِيهَا "[2]، والمثالُ البسيطُ لِهَذَا نقلُ حُكْمِ كَلِمَةِ" سُكّان " إعرابيا إلى كلِمةِ" القرْية "في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ [ سورة يوسف : 82 ] إذ المقصود : " اِسأل سُكّانَ القريَةِ"، ونظرًا لأنَّ النَّقْلَ يَتِمُّ في الكلِمةِ، نُلحق المجاز الحكمي – يقول العمري– بالمجازِ المفردِ المدعوِّ مجازًا لغويًّا أو مجازًا في الإثباتِ لإعطاءِ خطاطةٍ عامَّةٍ عنِ المجازِ في تَصَوُّرِهِ"[3].

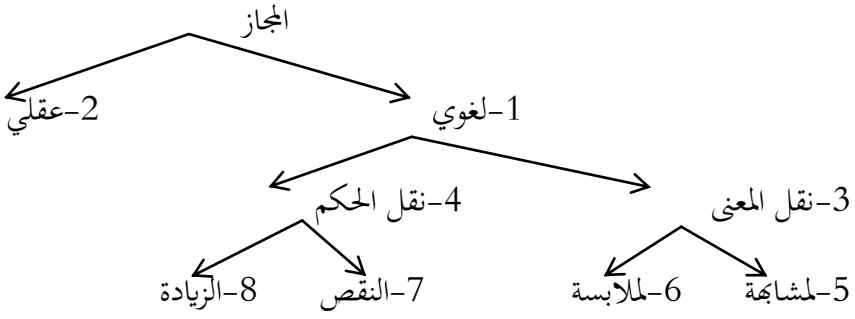


يُعَلِّقُ العمريُّ على هاتِهِ الخطاطةِ، ملخّصًا القضيَّةَ مُنذُ البدايَةِ، في ثلاثِ صفَحَاتٍ ونصفٍ، حاولنا أنْ نُوجِزَهَا فيما يلي، يقول العمري: " يصعُبُ إدراكُ المغزَى البلاغيَّ لهذا التصنِيفِ، ولذلك سيَعتمِدُ المؤلِّفُ تصنيفًا آخرَ، حِينَ يَتصَدَّى لِبَيَانِ الوظيفَةِ البلاغيَّةِ لأَوْجُهِ المجازِ مُتَجاهِلًا هذا التَّصْنِيفُ( أيْ الموجُود فِي الخُطاطةِ)، ومِنْ الجَلِيّ أَنَّ الأُسُسَ التِي اِعتمدَهَا للتّفرِيقِ بينَ المجازِ اللُّغويّ( أو المجازِ في المفردِ والمجازِ في المثبتِ ) والمجازِ العقليّ( المجازِ فِي الجُملةِ والمجازِ فِي الإثبَاتِ) تبدُو غيرَ مقنِعَةٍ و لا منسَجِمَةٍ مع توجُّهِهِ النَّظَرِيّ العَامّ الذي أطَّر بِهِ بحثَهُ واِعتمدَهُ أساسًا نظريًّا في الأسرارِ، وهو أنْ لا مزيَّةَ إلَّا في المركَّبِ .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 339 .

[2] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص : 362 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 339 .

ونحن نميلُ إلى أنَّ أساسَ هذا التصنيفِ اِعتقاديٌّ مرصودٌ لبيانِ مرجِعِ الفِعلِ فيمَا يُنْسَبُ إلى الطَّبِيعَةِ مِنْ أفعَالٍ( أيْ المجاز في الإثبات )، فالأمثِلَةُ التي قَدَّمَهَا للإثباتِ هي قول جميل بنُ مَعمَر:

وَشَيَّبَ أَيَّامَ الفِرَاقِ مَفَارِقِي وَأَنْشَرْنَ نَفْسِي فَوْقَ حَيْثُ تَكُونَ[1]

وقوله الشاعر [2]: أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الكَبِيـ ـرَ، كَرُّ الغَدَاةِ وَمُرُّ العَشِيّْ

وفي عنوانِ هذا النقاشِ حولَ الفاعِلِ الحقِيقِيّ والمجازِيّ يعرِّفُ المجازَ العقليَّ بالتعرِيفِ السَّابِقِ:إخراجُ الحُكْمِ عَنْ مَوْضِعِهِ فِي العَقْلِ لِضَرْبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ، ويفرّق بالتأويل بين المجازِ، والضّلالِ، والكذِبِ، فالضلالُ مثلًا، يظْهَرُ في قوله تعالى على لسانِ الكُفَّارِ، والدّهريَّة، والملحدِينَ: ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ [ سورة الجاثية : 24 ]، وهنا يَستَعْمِلُ المؤلِّفُ الرصيدَ الكلاميَّ الأشعريَّ في كشْفِ العلاقةِ بينَ فِعْلِ الطَّبِيعَةِ الظَّاهِرِ وفِعْلِ الله الذي يَحْكُمُهَا، حيث يَسْتَعْمِلُ مصطلح " العادة"لتفسِيرِ الأسبابِ أو ما هو كالأسبابِ .

لقد كانَ الجرجانيُّ مشغُولًا بالخلافِ المذهبيّ حولَ الأسبابِ والمسبّباتِ، هذا الخلافُ الذي تُرجِمَ في مُستوَى التأوِيلِ بالخِلافِ بين طائفتيْن متباعدتيْنِ تحدَّثَ عنهُمَا مباشَرَةً بعْدَ الأمثلة السَّابِقَةِ: طائِفَةٌ تُلزِمُ وترفُضُ المجاز، وطائفةٌ تغلُو فِي المجازِ وتُفرِطُ"[3].

هذَا وَبعْدَ دِراسَةِ العُمريّ للمداخِلِ الثلاثةِ التي يقُومُ عليها مصطلح " الغرابة الشعرية " عند الجرجاني، تطرّق أيضا إلى دراسَةِ مرجعيَّة هاتِهِ المداخِلِ، ومحاولَةً منه لتبيانِ خلفيَّةِ دراسَةِ الجرجاني في كتابه " الأسرارِ"، القائِمةِ على اِزدواجيَّةِ الشِّعْرِ والخِطَابِ، أو التّخييلِ والتَّداوُلِ، وبالتالي فهو يُريدُ أنْ يؤكّدَ مَدَى حُضُورِ مفهُومِ" البلاغة العامة " في نظريَّةِ الجرجانِي، وكيف قَدَّمَهَا هذا الأخير اِنطلاقًا مِنْ دراسَتِهِ للمَعْنَى .

---

[1] ديوان جميل بثينة، تح : بطرس البستاني، دار صادو، بيروت، لبنان، ( ب، ط )، ( ب، ت )، ص : 127 . وقد جاء في الديوان : تُشيّب روعات الفراق مفارقي * وأنشزن نفسي فوق حيث تكون .

[2] البيت لشاعر يدعى الصَّلتان العبدي، وهو : قثم بن خبية العبدي . ينظر : شعر الصلتان العبدي، تح : د. شريف علاونة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة البترا، الأردن، الطبعة الأولى1428هـ/2007م، ص : 80 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 340- 343 .

**1-مرجعيَّةُالمدخلِ الأوَّلِ(القسم الثالث)**: يرجِعُهُ العمريُّ إلى عمليَّةِ تفعِيلِ البلاغةِ-كما يسمِّيها هُوَ- أيْ أنَّهُ يُحوِّلُ البلاغَةَ مِنْ بناءٍ في اللّغةِ( الوظيفةُ الشعريّةُ) إلى إشكالٍ في النظريّةِ الأدبيةِ، مستحضِرًا البُعدَ الخَطابِيَّ بمكوِّنَاتِهِ الحِجَاجِيَّة المختَلِفَةِ .

**2-مرجعيَّةُ المدخلِ الثانِي (القسم الأول)**: يرجِعُهُ العمريُّ إلى الجانِبِ اللِّسانيّ المنطقِيّ الصِرفِ، فهُوَ يُعالِجُ- حسْبَ رأيِ العمريّ- السُّؤال التالِي: ما هي طبيعَةُ الأطرافِ الداخِلَةِ في علاقَةٍ دلاليَّةٍ ؟ وما هي العلاقَةُ المترتِّبَةُ عن هذهِ الأطرافِ: حسيَّةٌ أم عقليَّةٌ ؟ وهو يتضمَّنُ موقِفًا سياسيًّا مسبَقًا، ومراهَنَةً قد تكونُ عائِقًا وتكمُنُ في تقدِيمِ العقلِ علىَ الحِسّ .

**3-مرجعيَّةُ المدخلِ الثالث ( القسم الثاني )**: يرجِعُهُ العمريُّ إلى قضيَّةِ المجازِ، وقد غَلَبَتْ عليهِ الصبغةُ الدينيّةُ مِنْ حيثُ الدخولُ في مناقشَةِ قضايَا الإثباتِ والمصدَرِ الأوَّلِ أو الحقِيقِيّ للفِعْلِ، وقد فَقَدَتْ فِيه البلاغةُ بُعْدَهَا النّقدي المنطقِي .

إذنْ، فالمدخلُ الأوّلُ مدخلٌ لغويٌّ منطقيٌّ، والمدخل الثانِي مدخلٌ نقديٌّ منطقيٌّ، والثالثُ مدخلٌ دينيٌّ منطقيٌّ، أيْ محاوَلَةُ قراءةِ اللُّغويّ والنّقدِي والدِّيني قراءةً منطقيّةً"[1]، ومِنْ هُنا يُبيّنُ العمريُّ تأثِيرَ المنطِقِ على البلاغةِ الجرجانيَّةِ بشكلٍ كبِيرٍ، والتي كانَتْ فِي الأساسِ مُنطلِقَةً مِنْ بلاغَةٍ عامَّةٍ وظلَّتْ مُحافِظَةً على هذا المسَارِ؛ علَى خِلافِ البلاغةِ السَكاكِيَّةِ التي اِنحرَفَتْعن مسارِهَا مِنْ بلاغةٍ تدرُسُ علمَ الأدبِ، إلَى بلاغةٍ محصُورَةٍ في عِلمِ المعانِي، وعلمِ البيَانِ، وعلمِ البدِيعِ، وهو مَا سَنُفَصِّلُ فيه عند الوُصُولِ إلى بلاغةِ السَكَّاكِي .

**ثانيا: مُصطلحُ المناسَبَةِ التداوليَّةِ– قراءةٌ في كتابِ" دلائل الإعجاز " للجرجاني –**:إذا كان مصطَلَحُ" الغرابة الشعرية " يعنَى بالتّعبِيرِ المجازِيّ، بما فِيهِ مِنْ تخيِيلٍ، وإيحاءٍ، ومُبالَغَةٍ ... الخ، فإنَّ مصطَلَحَ" المناسبة التداولية " معنيٌّ بكلّ ما هو مُتَعَارَفٌ عليه ضمنيًّا بينَ الملقِي والمتلقِي للخِطابِ، مِنْ ألفاظٍ، وإشاراتٍ، وأحداثٍ تاريخيّةٍ، وأماكنَ مشهورةً، ومقدّساتٍ، وغيرِها ...، ذلك أنّ الخطيبَ قد يَضطرُّ في بعضِ الأحيانِ إلى توظِيفِ مِثلِ هاتِهِ المفاهِيمِ حَتَّى يَكُونَ لِكَلَامِهِ وَقْعًا عَلى مسامِعِ المتلقِّينَ، وهذا نَفْسُهُ ما تَقُومُ التَّداوُلِيَّةُ الحدِيثَةُ بالبَحثِ فِيهِ .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 345، 346 .

وعند العمريّ، فإنّ مُصطَلَحَ" المناسبة التداوليَّة " في كتاب الدَّلائِلِ، جاء اِستِجابَةً لاضطرارِ الجرجانيّ إلى البحثِ عنْ بلاغةِ تَحَاوُرِ الأسئِلَةِ الإعجازِيَّةِ، ولذلك عَمَدَ إلى " تعدِيلِ مَادَّةِ الأسْرارِ وتكمِيلِهَا ( بإضافةِ الكِنايةِ )، وربْطِهَا بمُقتَضَيَاتِ النَّظْمِ النَّحوِيّ، وجَعْلِهَا تابِعَةً لهُ، فلمْ تَعُدِ القمَّةِ موجُودَةً في اِتِّجاهِ تنامِي الغَرابَةِ، بل في اِتجاهِ مناسَبَةِ الكلَامِ للمقاصِدِ"[1]،وفي هذا الطَّرْحِ يبيّنُ العمريُّ الهدفَ الأساسَ مِنْ تأليفِ الدَّلائِلِ، وهو خِدْمَةُ الجرجانيّ للقرآنِ الكرِيمِ، هذا هُو المنطلَقُ الرئِيسُ الذي اِنْبَنَى عليْهِ الكتَابُ، لكن وِفْقَ رؤيَةٍ أشعريّةٍ تقُومُ على خِدمَةِ المعنَى، لَا الأصْواتِ، فالجرجانيُّ لم يخرُج عَنِ الهدَفِ الأوَّلِ الذي رَسَمَهُ سَابِقًا مَعَ كِتَابِهِ الأسْرَار، بل إنَّهُ ظلّ محافِظًا عليهِ، وليسَ الفَرْقُ بين الكتابيْن إلَّا فِي كون الأوَّلِ جَاءَ خِدْمَةً للبلاغَةِ فِي حدِّ ذاتِهَا، أمَّا الثاني فهُو توظِيفُ البلاغةِ لخِدمةِ الدِّراسَاتِ الإعجازيَّةِ، وهذا مذهَبُ عدِيدِ الباحثِينَ الذينَ تناولُوا موضُوعَ الجرجاني، فقد أجمَعُوا على أنَّ خدمَةَ القرآنِ الكرِيمِ كانتْ هي الهَدَفَ الأسْمَى الذي سَعَى الجرجانيُّ إلى تحقِيقِهِ، كما أنَّ لهَا تأثيرًا واضحًا على أسلوبِهِ في الكتابَةِ والتَّنْظِيرِ، على غِرارِ ما يراهُ البَاحِثُ الجزائريُّ سمير أبو زيد، في قوله أنّ " عبد القاهِرِ قد تمكَّنَ في سِياقِ مُعالجَتِهِ لِقَضِيَّةِ الإعجَازِ في القرآنِ، مِنْ وَضْعِ نَظريَّةٍ واضِحَةٍ، يمكِنُ بواسِطَتِهَا التَّمييزُ بين التعبِيرِ الصَّحِيحِ عنِ المعنى، مِنَ التعبِيرِ غيرِ الصِّحِيحِ، أوِ الرَّكِيكِ"[2] .

هذا وقد بيَّنَ العمريُّ بالموازَاةِ مع هذا الفرْقِ – الفرق بين الدلائل والأسرار – فرقًا آخَرَ جوهرِيًّا، يتمثَّلُ في مادَّةِ ومدخلِ كِلَا الكِتابيْنِ،" فمدخلُ الأسْرَارِ ونواتُهُ ومُهَيْمِنَتُهُ التَّخييلُ الذي يجد مَرْجِعِيَّتَهُ مُسْعَفَةً في نظريَّةِ المحاكاةِ، وَجَلَا *للتطبِيقِ في الشِّعرِ العباسِيّ، وإشكاليةً للمُحاوَرَةِ عندَ المؤوِّلِينَ، ومدخَلُ الدَّلائِلِ ونواتُهُ ومُهَيْمِنَتُهُ النّحوُ والإعرابُ بمفهومِهَا الواسِعِ الذي ينالُ عَلَاقَةَ المعانِي بالمقاصِدِ"[3]، وهذا أمرٌ بديهِيٌّ، كونُ" الأسرارِ" في حدِّ ذاتِهِ معنِيٌّ بالبلاغةِ التخييليَّةِ الشعريَّةِ، وأمّا الدّلائِلُ فإنه معنِيٌّ بالبلاغةِ الخطابيّةِ التّداوليّةِ .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 346 .

[2] سمير أبو زيد، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: أول محاولة في العلوم الإنسانية ؟ (الجزء الأول)، مجلة المواقف، للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد الأول– ديسمبر–جانفي 2007م، ص: 287 .

* جلا، يجلو، أجلى، جلاء، فهو جال، والمفعول مجلوّ

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 347 .

وبعد إيرادِهِ الفرْقَ بين الكتابيْنِ، اِنْتَقَلَ العمريُّ إلى وَصْفِ بِنْيَةِ كتابِ" الدَّلائِلِ"، تحت عنوانِ" الخطاطةُ العامَّةُ"، والملاحَظُ لمؤلَّفَاتِ العمرِيّ خاصَّةً مِنْهَا كتابُهُ" البلاغَةُ العربيَّةُ أُصُولُهَا واِمْتِدَادَاتُهَا"، يَجِدُ كثرةَ الخُطَاطَاتِ فِيهَا، وهذا الأمرُ راجِعٌ إلى كوْنِ العُمَرِيّ يسعَى لِبِنَاءِ بلاغَةٍ جديدةٍ تخرُجُ عَنْ نِطَاقِ الشَّواهِدِ والقوالِبِ الجاهِزَةِ، وتُعنى بالانفِتاحِ فِي الدِّراسةِ، وإعطاءِ فُسْحَةٍ كبِيرةٍ للقارِئِ لمعرِفةِ الخلفِيَّاتِ القائِمةِ وراءَ كُلِّ مشروعٍ بلاغيٍّ سواءٌ مشروعُ الجرجانِيّ، أو الخَفَّاجيّ، أو السّكاكيّ، أو القرطاجنّي ... الخ، وهذا بُغيَةَ تحقِيقِ الفِكرَةِ الأُولَى التِي اِنْطَلَقَ منها العُمريُّ وهي المشارِيعُ والمنجزاتُ .

**بِنيةُ كتابِ الدَّلائِلِ: الخُطاطةُ العامَّةُ:** بدأَ الجرجانيُّ عَمَلِهِ فِي الدَّلائِلِ( بعد المقدِّماتُ) بخلاصةٍ مركَّزةٍ أعطَى فِيهَا خُطاطةٌ للتَّحوِيلَاتِ الدِّلاليَّةِ البلاغيَّةِ التِي تَلْتَبِسُ أحيَانًا باللَّفْظِ فأَرْجَعَهَا إلى الكِنايةِ والمجازِ[1]: يقول " اِعلَمْ أَنَّ لهذا الضَّربِ اِتِّسَاعًا وَتَفَنُّنًا لَا إلى غايَةٍ، إلا أنّه على اِتِّساعِهِ يدُور في الأمرِ الأعمِّ على شيئيْن: الكنايةُ والمجازُ"[2].

وهذا التحديدُ- كمَا يقُول العمريُّ- شبِيهٌ مِنْ حيثُ الشَّكْلُ، بتحدِيدِهِ لِصُوَرِ المعنَى التي تجمَعُ شتاتَ المعانِي المختلِفةِ في مُقدِّمَةِ كتابِ" الأسرار"، أما مِنْ حيثُ المضمُونِ فهُناكَ اِختلافٌ كبيرٌ، لقد تخلَّى هُنا عَنِ التّشبِيهِ والتَّمثِيلِ غيرِ المجازِيّ، وأحلَّ الكِنايةَ مَحَلَّهُ، فهِي الآنَ طَرَفٌ جديدٌ يقتَسِمُ المجالَ مع المجازِ الذِي حصرَه المؤلِّفُ في الاسْتعارَةِ، وهذا الحَصْرُ يعني أيضًا السُّكوتُ عَنِ المجازِ غيرِ التَّشبِيهيّ(المرسل) .

بعد تعريفٍ موجزٍ لبِنيةِ الكِنايةِ والاستِعارةِ ووظِيفَتِهَا، يوقِفُ الجرجانيُّ الحدِيثُ عَنْ بِنَاءِ المعنَى ليُدْخِلَ العنصرَ الجدِيدَ الذِي اِقتَضَى تَأْلِيفَ كِتابِ" الدَّلَائِلِ"، العُنصُرَ الذِي لم يُتَطرَّقْ إليه فِي كتابِ الأسرارِ: النَّظْمُ"[3]، ومِنْ هنا تكُونُ نظريَّةُ النَّظم هي الأَساسُ التِي بُنِيَ عليهِ كتابُ" الدَّلَائِلِ"، وذلكَ لأنَّها تخْدِمُ بشكلٍ أساسيٍّ إعجازَ القرآنِ الكرِيمِ فِي بلاغتِهِ القائِمةِ على ترابُطِ الألفاظِ مع المعانِي

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 347 .

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق : محمود مُحَمَّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1404هـ/1984م، ص : 66 .

[3] نفسه، ص : 348 .

بشكلٍ يصعُبُ على القارِئِ أنْ يحذِفَ كلمَةً لِيَضَعَ وَاحِدَةً مكانَهَا حتَّى وإنْ كانَتْ مُرادِفَةً لها، ومما يُستشهَدُ به فِي بَلاغَةِ القُرآنِ الكرِيمِ، وكانَ أسَاسًا فِي ظُهورِ هاتِهِ النّظريّةِ، قوله تعالى﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [ سورة هود : 44 ] .

فَلَوْ أردنَا أنْ نحذِفَ أيَّ كلِمَةٍ مِنْ هذهِ الآيةِ ونَضَعَ مَكَانَهَا كلِمَةً مُرادفَةً لما أدّتْ مَعْنَاهَا الحَقِيقِي، كأنْ نُبَدِّلَ كلِمة " اِبْعلِي"، بكلمَةِ" اِشرُبِي"، فإنَّ المعنَى هَا هُنَا سيختَلُّ لأنَّ" البَلْع " يعني تناوُلُ الشيءِ سائلًا كانَ أو جامِدًا دُفعةً واحدةً، أما الشُّربُ فيكونُ بشكْلٍ متدرّجٍ، والمشهَدُ الذي وصفتْهُ هذه الآيةُ الكريمةُ هو مشهدُ الأرضِ وقد فُجِّرَتْ فيها المياهُ مِنْ كافَّةِ الأماكِنِ ثم أمرَهَا الله سُبحانهُ وتعالى أنْ تَتَوَقَّفَ في مرَّةٍ واحدَةٍ، فتوقَّفَتْ، فكان هذا التوقُّفُ موافِقًا تمامًا للمعنَى المرادِ بلفظةِ" اِبلعِي"، وليستْ" اِشرُبِي"، وهذا هُوَما يحمِلُهُ مفهُومُ الإعجازِ فِي معانِي القرآنِ الكرِيمِ ودِلَالَاتِها التِي حَاوَلَ الجرجاني أنْ يُقدِّمَهَا علَى ضوءِ نظريَّتِهِ" نَظَرِيَّةُ النَّظْمِ" .

هذا وقَدْ أوْرَدَ العمريُّ نصًّا للجرجانِيّ يراهُ أساسِيًّا في فَهْمِ الانتقالِ مِنَ" الأسرارِ" إلى " الدَّلائِلِ"، وهو نصٌّ يُبرِزُ فيه الجرجانيُّ أهميَّةَ نظريَّةَ النّظمِ فِي الجانِبِ الإعجازِيّ، حيثُ يقولُ: " اِعلم أنّ هَا هُنَا أسرارًا ودقائِقَ، لا يمكِنُ بيانُهَا إلا بعدَ أنْ تُقدِّمَ جُمْلَةً مِنَ القولِ في "النَّظم"، وفي تفسيرِهِ والمرادِ مِنه وأيّ شيء ؟ وما محصولُهُ ومحصُولُ الفَضِيلَةِ فِيه ؟ فينبغي لنا أنْ نأخُذَ في ذكره وبيانِ أمرِهِ، وبيانِ المزيّةِ التي تُدّعَى لهُ مِنْ أيْنَ تأتِيهِ ؟ وكيفَ تُعرَضُ فِيهِ ؟ وما أسبابُ ذلِك وما عِلَلُهُ ؟ وما الموجِبُ له ؟، وقد علِمْتَ إطبَاقَ العُلماءِ على تعظِيمِ شأنِ النّظمِ وتفخِيم قدْرِهِ، والتنوِيهِ بذكرِهِ، وإجماعِهِمْ أنْ لا فضْلَ مع عدَمِهِ، ولا قدْرَ لكلامٍ إذا هوَ لم يستَقِمْ له، ولو بَلَغَ في غرابَةِ معناهُ ما بَلَغَ"[1] .

كذلك تكلَّمَ العمريُّ عنْ أهميّةِ النظريّةِ في قولِهِ : " وعلى كُلٍّ، فإنَّ الجرجانيَّ حينَ وَقَفَ أمامَ إشكاليَّةِ إعجازِ كلامِ اللهِ تعالَى وسخافَةِ وَصْفِهِ بالرَّاغِبَةِ مُساوَاةً مع كلامِ البشرِ، لمْ يجِد بُدًّا مِنْ تجاوُزِ هاتِهِ الإشكاليّةِ إلا بالنُّزوعِ نحوَ نظريَّةِ النظمِ، وهِي النَّظريَّةُ التِي جعلَهَا عِمَادَ البحثِ والدِّراسَةِ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 80 .

فِي كتابِهِ" الدَّلائِلُ"، وقدْ عرَّف النظمَ بقولِهِ: " ليسَ النظمُ إلا أنْ تضَعَ كلامَكَ الوضْعَ الذِي يَقْتَضِيهِ علمُ النّحوِ، وتعمَلَ على قوانِينِهِ وأصُولِهِ، وتعرِفَ مَنَاهِجَهُ التي نُهِجَتْ فلا تزِيغُ عنهَا، وتحفَظَ الرُّسومَ التي رُسِمَتْ لَكَ، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منهَا "[1] "[2]، ثم ربط تقسيمَهُ للكلامِ الفصِيحِ- سواء الثنائيّ أو الثلاثيّ- بهاتِهِ النظريّةِ .

**1- التقسيم الثنائي**: اِعلم أنَّ الكلامَ الفصِيحَ ينقسِمُ إلى قِسميْن: قسمٌ تعزَى المزيَّةُ والحُسْنُ فيهِ إلى اللّفظِ، وقسمٌ يُعزى ذلك فيهِ إلى النّظمِ فالقسمُ الأوّلُ الكنايةُ والاستعارةُ والتمثِيلُ الكائِنُ على حدِّ الاستعارَةِ، وكلّ ما كانَ فِيه علَى الجُملةِ مجازٌ واِتّساعٌ وعدولٌ باللّفظِ عنِ الظاهِرِ(...) وأما القسمُ الثانِي الذِي تُعزى فِيه المزيّةُ إلى النّظمِ، فهو توخّي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه، والعمل بقوانينه وأصوله "[3] .

**2- التقسيم الثلاثي**: قالَ ملخِّصًا حديثَهُ عنِ النّظمِ وتداخُلِهِ بأوجهِ الحُسنِ الأخرَى تداخُلًا دقِيقًا يؤدِّي الخوضُ فِيهِ إلى الغَلَطِ: " وجملةُ الأمر أنَّ هٰهُنَا كلامًا حُسْنُهُ لِلَّفْظِ دون النَّظمِ، وآخرُ حُسنُهُ للنَّظمِ دُون اللّفظِ، وثالثا قد أتاهُ الحُسن مِنَ الجِهَتيْنِ ووَجَبَتْ له المزيّةُ بِكِلَا الأمريْنِ والإشكالُ فِي هذا الثّالثِ، وهو الذي لا تزالُ ترى الغَلَطَ فِيه، وتُراك قد حِفْتَ فيه على النّظمِ، فتركْتَهُ وطمَحْتَ ببَصَرِكَ إلى اللَّفظِ، وقدّرْتَ فِي حُسْنٍ كان بِه وباللّفظِ، أنّه لِلَّفظِ خاصّةً، وهذا هو الذي أردتُ حين قلتُ لك: إنَّ فِي الاستِعارَةِ ما لا يُمكِنُ بيانُهُ إلا مِنْ بَعدِ العِلمِ بالنّظمِ والوقوفِ على حقِيقتِهِ"[4]، ولا يتجلى النظمُ الحسَنُ إلا معَ كلامِ الله عزَّ وجَلَّ، ولذلك يقسَّمُ النظْمُ إلَى ثلاثةِ أنواعٍ: " بسيطٍ، ومتوسِّطٍ، ومعجِز "، ولقد أشارَ العمري إلى شيءٍ منْ هذا القبِيلِ حين قال: " والجرجانيُّ يضعُ أصبُعَهُ هنا على قضيَّةٍ جوهريَّةٍ فِي الشِّعرِ، قضيةُ التفاعُلِ بينَ المكوّنَاتُ، والتفاعُلُ هو مزيَّةُ شِعرِ الفُحولِ مِنَ الشعراءِ، فِي حين يركّزُ المتوسِّطُونَ والأقلُّ كفاءَةً على عُنصرٍ واحِدٍ عَنْ طرِيقِ التَّراكُمِ"[5] .

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:81 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 81 .

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 329- 452 .

[4] نفسه ، ص : 99، 100 .

[5] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 350 .

هذه هي الخُطّةُ الصريحةُ لكتابِ دلائِل الإعجازِ، فهوَ يُعيدُ مقُولةَ كتابِ الأسرارِ التي قَوامُهَا ورأسُ هرَمِهَا الاستعارةُ والتمثيلُ الاستعاريُّ، ثم يضيفُ إليهَا الكنايَةَ، قبلَ أنْ يوسّعَ ليستوْعِبَ كُلَّ صوَرِ المجازِ والعدولِ باللفظِ عَنِ الظاهِرِ كما سَلَفَ، يَسْتَعِيدُ هذه الخطاطَةَ تحتَ مصطلحِ اللّفظِ باعتباره جِنسًا أعلى فِي مقابلةِ النظمِ، ومِنْ هنا يمكن القول بأنَّ خُطاطَةَ الدَّلائِلِ أكثرُ بساطَةً ووضوحًا "[1].

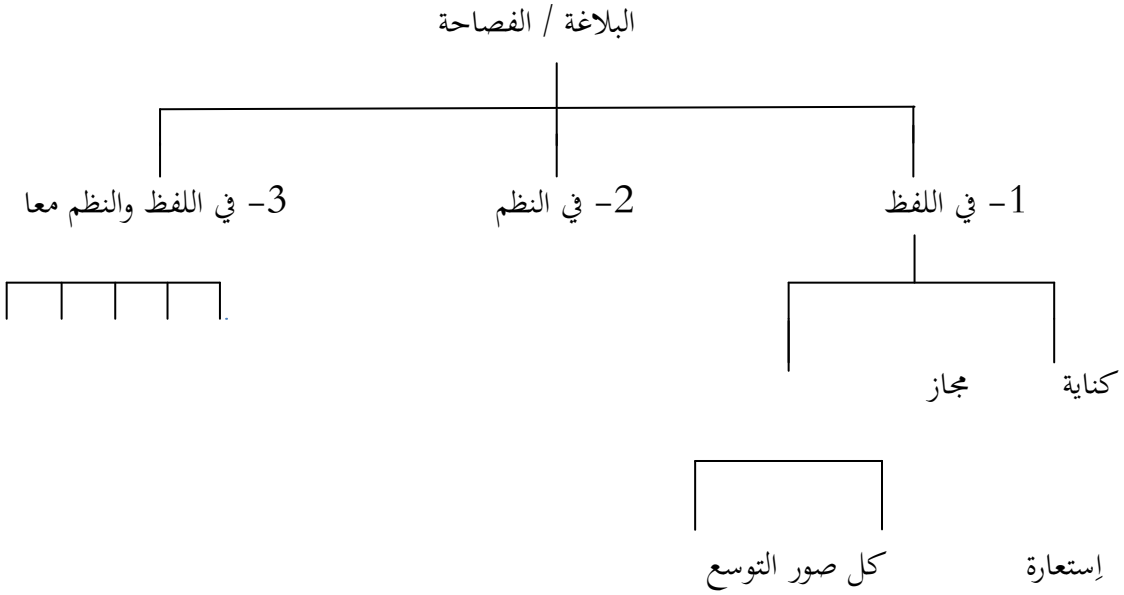


هذا وإنَّ نظريَّةَ الجرجانيّ القائمةِ على المعنَى دونَ اللَّفظِ، لم تكُن مُهمِلَةً للجانِبِ الصَّوتِي بشكلٍ كبِيرٍ، وهو ما يُبَيّنُهُ العمريُّ في قولِه: " وحينَ يتصدَّى الجرجانيّ" لمفْهومِ اللّفظِ عندَ القدماءِ، أو بعبارةٍ أخرى، يتفهَّمُهُ بعيدًا عنِ المزايَدَاتِ المذهبيَّةِ(حول اللفظِ: الصوتُ والمعنى: ما يدور في الذهنِ أو النّفسِ)، هو الذي تَفتّقَ عنْ أحدِ أهمّ إنجازاتِ الجرجانيّ في الدّلائِلِ، وهو: مفهُومُ صورةِ المعنَى، وصورة المعنى جانِبٌ مهمٌّ مما قصدَهُ القدماءُ باللّفظِ، يُضاف إليه الجانبُ الذِي لم يهتمَّ به الجرجاني لأسبابٍ مذهبيّةٍ( الموازناتُ الصوتيّةُ، والمفرداتُ)، مِنْ هُنا نجد الجرجانيَّ يشقّقُ المعنى إلى ثلاثِ مستويَاتٍ:

1- الغرض: المدح، مثلا .

2- القيم التي تكوّن الأغراض: الشجاعة والسخاء، مثلا .

3- صورةُ المعنى أو معنى المعنى .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 351 .

كذلك يرى العمريُّ" بأنّ الجرجانيَّ قد أعطَى الأصواتَ دورًا في حُدودِ ما يسمَحُ به تأوِيلُهَا دلاليًّا متحدّثًا عنِ الإيهامِ الذِي يترتَّبُ عنْ حدوثِ الإفادةِ مما مظهَرُهُ التِّكرارُ أو الحشوُ اللفظيُّ، بل يتراجَعُ أحيانًا ليعطِي مردُودِيَّتِهَا الإيقاعيّةَ العائِدَة إلى السّلاسةِ والتناغُمِ بعضَ المزيّةِ الثانويّةِ غيرِ المعتبرةِ في تفاضُلِ الكلامِ بلاغيًّا وقدْ حَدَّدَ بهذا الموقعِ المستوَى الهامشيَّ الذي أوَّلَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مُستعمِلًا لفظ التّحسِينِ والمحسِنِ لِعُمُومِ صُور البديعِ الصوتيّةِ والدّلاليّةِ كما نجِد عندَ السّكاكي ومَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُ"[1] .

**دعائمُ بلاغةِ الجرجانيّ**: هُناكَ أربَعُ عمليَّاتٍ كبرَى يَرَى العمريُّ أنها تمثّلُ دعائِمَ لبلاغَةِ الجرجانيّ وعلاماتٍ عليها وهيَ:

1- إقصاءُ الأصواتِ والمفرداتِ .

2- تأويلُ اللفظِ إلى صورةٍ للمعنَى وتقيُّدِهِ بالنّظمِ .

3- البناءُ على المتحقّقِ مِنَ الجُملِ والصُّورِ .

4- مِنَ النقل إلى الادعاء .

**1- إقصاء الأصوات والمفردات**: بِقطعِ النّظرِ عنْ تطوُّرِ موقفِ الجرجانيّ مِنْ أسرارِ البلاغَةِ إلى دلائل الإعجازِ، وبقطع النظرِ عنِ المكوّناتِ الدّلاليّةِ الانزياحيَّةِ والتركيبيَّةِ النحويَّةِ في كلٍّ مِنَ الكِتابيْنِ، فإنَّ هناكَ عنصُرًا ظلَّ ثابتًا لم يَلْحَقْهُ أثرُ التحوُّلِ أو التغيِيرِ إلّاَ في اِتجاهِ التدعِيمِ والتقويَّةِ، وهوَ موقِفُ المؤلّفِ مِنَ اللّفظِ المنطُوقِ المسمُوعِ في تجلّياتِهِ الكبرَى: التجنِيسُ والسَّجعُ، والوزنُ عامةً، ولقد عالَجَ المؤلّفُ هذه القضيَّةَ في مقدّمةِ الأسرارِ ثم تخَلَّصَ منهَا لِيَعْتَكِفَ على الموضُوعِ، أمَّا فِي الدّلائِلِ فقد صارَ مُشكِلُ اللفظِ مشكِلًا مؤرّقًا وهاجِسًا مسيْطِرًا مِنْ أوَّلِ الكتابِ إلى آخرِهِ ؛ خَذَلَ الوزنَ فِي أوَّلِ الكتابِ، ثم تخبَّطَ فِي قضيّةِ اللّفظِ مُبْدِيًا فِيها ومُعِيدًا، قبلَ أنْ يُصالِحَ القدماءَ مِنْ خِلالِ تأوِيلِهِ إلى صُورَةِ المعنَى "[2] .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 356، 357 .

[2] نفسه، ص : 360 .

**2- تأويلُ اللّفظِ إلى صُورةٍ للمعنَى وتقيُّدِهِ بالنظم:** في مُعالجتِهِ لهاتِهِ الجزئيّةِ تحدَّثَ العمريُّ أوّلَ الأمرِ عَنْ كلامِ الجرجانيّ عنِ الألفاظِ ومكانَتِهَا عندَ العُلماءِ، حيثُ أنّهم غلَّبُوا دوْرَ اللّفظِ علَى المعنَى، يقولُ العمريُّ: " وتردَّدَتْ عندَه-أي الجرجاني- صورةُ الدّاءِ الذِي يَستعصِي عنِ الدّواءِ، والجهلِ المتمكّنِ، وما إلَى ذلكَ مِنَ النُّعوتِ التِي تبيّنُ قوّةَ المقاومَةِ التِي يُبدِيهَا أنصارُ اللفظِ، يُحِيلُ الجرجانيُّ صراحَةً وضمنًا على بعضِ الفُحولِ القُدماءِ الذِينَ أساءَ المتأخّرُونَ فَهْمَ غَرَضِهِمْ مِنَ اللّفظِ ومنهُم اِبن قتيبةَ والجاحظُ، فالذي أَوْقَعَهُمْ فِي الغَلَطِ أنَّهُم " رأوا هؤلاءِ العلماءِ يُفْرِدُونَ اللّفظَ عَنِ المعنَى، ويجعَلُون له حُسنًا على حِدَةٍ، ورَأَوْهُمْ قد قسَّمُوا الشّعرَ فقالُوا إنَّ منهُ ما حَسُنَ لفظُهُ ومعناهُ ومنهُ ما حسُنَ لفظُهُ دُون معناه، ومنه ما حسُن معناهُ دون لفظِه، ورأوهُم يَصِفُونُ اللّفظُ بأوصافٍ لا يصفُون بها المعنَى "[1]

وعلى هَذَا الأساسِ عمِد الجرجانيُّ إلى حَلِّ تلكَ الإشكاليّةِ التي وَقَعَ فيهَا سَابِقُوهُ مِنْ دارسِي البلاغةِ، باستحداثِ" خطوةٍ جديدةٍ في البلاغةِ العربيّةِ وهيَ الحديثُ عنِ الصورةِ، صورةِ المعنَى ومعنى المعنَى، وهي منطقةٌ بينَ اللّفظِ باعتبارِهِ أصواتًا وبينَ المعنَى باعتبارِهِ معانٍ غفْلًا وأغراضًا "[2] .

والصورةُ التي قايَضَ بها الجرجانيُّ اللّفظَ في مفهُومِهِ القدِيمِ هيَ المعنَى الأوَّلُ، فهناك ضربانِ مِنَ المعنَى، ضربٌ يُتوَصَّلُ إليهِ بدلالةِ اللّفظِ وَحْدَهُ، كقولنَا خرجَ زيدٌ، وهذا معنى أولٌ، وضربٌ آخرُ لَا يُتوصَّلُ إليهِ بدلالةِ اللّفظِ وحدهُ، ولكنَّ اللّفظَ يُوصِلُ إلى المعنَى الأوّلِ الوضعيّ"[3]، " ثم لا تجِدُ لذلك المعنَى دِلالةً ثانيةً تصِلُ بها إلى الغرضِ، مدارُ هذا الأمرِ علَى الكنايةِ والاستعارةِ والتّمثِيلِ"[4].

ومثال ذلك قولُهُم: كثيرُ الرَّمَادِ، كنايةً على حُسنِ الضيافةِ، فحسْنُ الضيافةِ المعنى الثّانِي، لا يؤخَذُ مِنْ ظاهِرِ اللّفظِ، بل يُعقَلُ مِنْ معناهُ، وهو الغرضُ مِنَ القوْلِ"[5].

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص : 365

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 361 .

[3] نفسه، ص : 362 .

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص : 262 .

[5] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 362 .

**3- البناءُ على المتحقّقِ مِنَ الجُمل والصُّور:** حينَ يُعيدُ المرءُ آخِرَ عَملِ الجرجانيّ فِي الدَّلائِلِ على عَملِهِ فِي الأسْرارِ، يُلاحِظُ أَنَّ مِنْ بَينِ المبادِئِ التِي بَقِيَتْ مِعيَارًا لِلخُصُوصيَّةِ والتمييزِ البَلاغِيّ مَبدَأُ البِناءِ على الجُملِ والصُّورِ البلاغيَّةِ وتناسِي المستَوَيَاتِ المتبقّيَةِ سَعْيًا لمزِيدٍ مِنَ التركِيبِ؛ لقد عُولِجَتْ هذهِ القضيَّةُ فِي الدَّلَائِلِ مِنْ زاويَةِ النَّظمِ وعُولِجَتْ فِي الأَسْرارِ مِنْ زَاوِيةِ تَناسِي التَّشبِيهِ والمَجازِ والبِناءِ عَلَيْهِمَا، لِذلِك سَنَتَناوَلُ هذهِ القضيَّةَ تحتَ عُنوانَيْنِ:[1]

أ- البناءُ على الجُملِ: تقديمُ التَّمفصُل الدِّلاليّ على التقطِيعِ النّظمِي .

ب- البناءُعلى الصُّوَرِ البلاغيَّةِ: تراكيبُ الصُّوَرِ .

**أ- البناءُ على الجُمل: تقديمُ التَّمَفْصُلِ الدّلالِي على التَّقطِيعِ النَّظمِي:** " لقدْ كانَ مِنَ الطبِيعيّ، تبعًا لِلْمقدّماتِ، المذهبيّةِ والبنيَويّةِ، أنْ يتّجِهَ الجرجانيُّ إلَى التَّمَفْصُلِ الدِّلالِيّ وامتدَادِ الجُملِ، بقَطْعِ النَّظرِ عَنْ حُدُودِ الشّطرِ، أوْ حُدودِ البَيتِ، ودُونَ اِهتمَامٍ بِتوازُنِ الفَواصِلِ .

سنبْدَأُ مِنَ الأخِيرِ، أي مِنَ المستَوَى الأدْنَى الذِي يدْعُو فِيهِ الجرجانيُّ إلى تماسُكِ البيْتِ، ( ومِنَ الصُّدَفِ أنه قدَّم أجْلَى صُورةٍ له فِي آخِرِ الدَّلائِل ) . ثم ننظُر في مُتغيّراتِ هذِهِ القضيَّةِ وتجلّيَاتِهَا المختلِفَةِ"[2] .

**تماسُكُ البيتِ:** يرى الجرجانِيُّ أنّ البناءَ علَى الجُملةِ يغيّرُ معنَاهَا ويصيّرُهُ شيئًا آخرَ متميّزًا جدِيرًا بأنْ يُنسبَ إلَى قائِلِهِ ويختَصُّ به: " تَرى البيْتَ قد اِستحسنَهُ النَّاسُ وقضوْا لقائِلِهِ بالفَضْلِ فِيهِ وبأنَّهُ الذِي غاضَ علَى مَعنَاهُ بفِكْرِهِ، وأنه أبُو عُذرِهِ، ثم لا تَرَى ذلِكَ الحُسْنَ وتِلكَ الغرابَةَ كانَا إلَى لِمَا بناهُ على الجُملةِ، ومثالُ ذلك قولُ الفرزْدَقِ:

وَمَا حَمَلَتْ أُمُّ اِمْرِئٍ فِي ضُلُوعِهَا  أَعَقَّ مِنَ الجَانِي عَلَيْهَا هِجَائِيَا[3]

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 366 .

[2] نفسه، ص : 367 .

[3] ديوان الفرزدق، شرح وتقديم : كرم البستاني، دار الأبحاث، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009م، ص : 470 .

فصُورةُ المعنَى الذِي هُو مَعَ الفرزْدَقِ، " لا تُتَبَيَّنُ إلَّا عنْدَ آخِرِ حَرْفٍ مِنَ البيْتِ"[1] .

ومعنَى هذَا البيتِ أنَّ المتنبّي يُريدُ القولَ بأنّه ليسَ هُناكَ عاقٌّ فِي الدُّنيا لأمِّهِ أكثر مِنَ الرجُلِ الذِي يكونُ سببًا فِي أنْ أقومَ أنَا بِهجاءِ أمِّهِ، وهذِهِ الصُّورَةُ البيانيَّةُ التِي هِيَ فِي الحقِيقةِ عبَارةٌ عَنْ كِنايَةٍ، لا يَكتَمِلُ معنَاهَا إلّا مَع نهايةِ البيتِ كليًّا، ولو اِفترضنَا أننَا أردْنَا فَهْمَ المعنَى بِقطْعِ جزءٍ مِنَ البيتِ الشعريّ، أوْ حتَّى حرفٍ، لما اِستقَامَ المعنَى عَلى حقِيقتِهِ بِشكْلٍ تَامٍّ ونهائيٍّ، أي أنّنا لوْ توقَّفنَا مثلًا عند " هجائيا " وقُمنَا بحذفِ الحرفِ الأخِيرِ وهو اليَاءُ، فقلنا " هجاء"، لكانَ المعنَى:أنْ ليسَ هناك أعقُّ مِنْ أَنْ يَهْجُوَ أحدٌ أمّهُ، ويكونُ هو السببُ فِي ذلِك .

هذا مع نزْعِنَا لحرْفٍ واحدٍ فما بالُك بنزعِ كلمةٍ أو كلمتيْن، وهذا كله ما عبَّر عنهُ العمريُّ على لسانِ الجرجانِيّ بـ " تماسكُ البيتِ" .

**ب- البناءُ علَى الصُّورِ البلاغيّةِ: تراكيبُ الصُّوَرِ**: فِي العمليّةِ التركيبيّةِ التي أنجزَهَا الجرجانيُّ فِي القِسمِ الثالِثِ مِنَ الأسرارِ بحثًا عَنِ الخاصّيّ، الذِي يحمِلُ بطاقَةَ اِنتمَاءٍ، تحدَّث عَنِ ابتداعِ العِللِ وقَلْبِهَا فِي إطارِ عمليّةِ تناسِي التّشبِيهِ والمجازِ لِبناءِ صُورٍ جديدةٍ مركّبةٍ وكثيرةِ الوسائِطِ تطلُبُ مِنَ الذهنِ القِيامَ بمجمُوعةٍ مِنَ التّأويلاتِ، وقد اِستعْمَلَ الجرجانيُّ فِي هذا المجالِ مصطلحَ"التّناسي"، و" مخادعةُ النفسِ"، و" المسامحةُ"، و" عدمُ الاحتفالِ"، و" الاجتراءُ " ، و"الادّعاءُ "، ومغالطةُ النّفسِ وحملهَا علَى الاعتقادِ والاطمئنانِ، واِستِحكامِ الصُّورِ، وغيرِ ذلك مِنَ النُّعُوتِ .

ومِنَ الأمثِلةِ التِي أثارَهَا اِنتباهُ الجرجانِيّ تجديدُ الشعراءِ لِصُوَرِ التشبِيهِ بالشمسِ والبَدرِ والرّياضِ، عنْ طرِيقِ القبل والتناسِي: ويهمُّنا مثالُ الشّمسِ لتَعدُّدِ نماذِجهِ وصُوَرِ تحلِيلِهِ بَلْ سَنقْتَطِفُ فِقْرَةً منه فمِنْ ذلِك قولُ الشَّاعِرِ:[2]

1- قَامَتْ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ نَفْـ ـسٌ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي

قَامَتْ تُظَلِّلُنِي، وَمِنْ عَجَبٍ شَمْسٌ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص : 535 .

[2] البيت لابن العميد، ينظر : رامي عثمان المرايطة، رسائل ابن العميد دراسة فنية، أطروحة ماجيستير، إشراف : أ. د. هاني صبحي العمد، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، تشرين الأول 2008م، ص : 20 .

وقول البحتري:[1]

2- طَلَعَتْ لَهُمْ وَقْتَ الشُّرُوقِ، فَعَايَنُوا سَنَا الشَّمْسِ مِنْ أُفْقٍ، وَوَجْهُكَ مِنْأُفْقِ

وَمَا عَايَنُوا شَمْسَيْنِ قَبْلَهُمَا اِلْتَقَى ضِيَاؤُهُمَا وِفْقًا مِنَ الغَرْبِ وَالشَّرْقِ

وقول المتنبي:[2]

3- كَبَّرْتُ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ مِنْهَا الشُّمُوسُ، وَلَيْسَ فِيهَا المَشْرِقُ

علَّق الجرجانيُّ على المثالِ الأوّلِ بقولِهِ : " فلولَا أنّهُ أنْسَى نفْسَهُ هَاهُنَا اِستعارَةً ومجازًا منَ القوْلِ، وعملَ على دَعوَى شمْس عَلَى الحَقِيقَةِ لَمَا كانَ لهذا التعجُّبِ معنًى "[3]، ومعنَى ذلك أنَّ الشَّاعِرَ لو لَمْ يحتفِظْ بوجْهِ الشبهِ، ويتذكَّرُ أنهُ بِصَدَدِ اِمرأةٍ حَسْنَاءَ كالشَّمْسِ، لما كَانَ لِيُعجَبَهُ وجْهٌ، لأنَّ الحُسن لا يَمنعُ اِمرأةً مِنْ أَنْ تُظلّلَ مِنَ الشمسِ، فعجبُ الشَّاعِرِ ناتِجٌ عَنِ اِستسْلامِهِ للمعنَى الجديدِ والتَّعامُلِ معهُ كحقِيقةٍ، وهذه عمليَّةٌ نفسيَّةٌ يمارِسُها النّاسُ داخِلَ العالَمِ الشعريّ"[4].

وعلَّقَ على المثالِ الثانِي بقولِهِ: " مَعلُومٌ أنَّ القصدَ أنْ يُخرِجَ السّامِعِينَ إلى التَّعجُّبِ لرؤيةِ ما لَمْ يرَوْهُ قَطُّ، ولم تَجرِ العادَةُ بِهِ" وذلك لا يَتِمُّ" حتى يجتَرِئَ على الدَّعوَى جَرَاءَةً مَنْ لا يتوقَّفُ، ولا يَخشَى إنكارَ مُنْكَرٍ، ولا يَحفَلَ بتكذِيبِ الظَّاهِرِ لَهُ، ويسُومُ النفسَ، شاءتْ أم أبَتْ، تصوُّرَ شمسٍ ثانيةٍ طلعتْ مِنْ حيثُ تَغرُبُ الشَّمسُ فالْتَقَتَا وِفْقًا، وصارَ غَرْبُ تلك القديمةِ لهذهِ المتجدّدةِ شرقًا "[5].

**4- منَ النقلِ إلى الادّعاءِ:**وهذا على قسمين:

أ- النقل المفيد والنقل غير المفيد .

---

[1] ديوان البحتري، تح : حسن كامل الصيرفي، المجلد الثالث، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى 1963م، ص : 1546، 1547 .

[2] شرح ديوان المتنبي، ج2، ص : 29 .

[3] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص : 264

[4] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 373 .

[5] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص : 264 .

ب- الادّعاء: التحوّل .

**أ- النَّقلُ المفِيدُ والنَّقلُ غَيرُ المفِيدِ:** إنَّ النَّقلَ عندَ الجرجانِيّ على نوعينِ: نقلٌ مفيدٌ، ونقلٌ غيرُ مفيدٍ، فالمفيدُ ما كانَ فِيهِ سَببٌ بينَ الاسمِ الذِي وُظِّفَ لِلْمَجَازِ، والاسمِ الحقيقِيّ، وأما غيرُ المفِيدِ فهوَ ما يَنعدِمُ فيه ذاكَ السَّببُ، يقول الجرجانيُّ :" ثم اِعلمْ بعدُ أنَّ فِي إطلاقِ المجازِ على اللَّفظِ المنقولِ عنْ أصلِهِ شرْطًا، وهو أنْ يقَعَ نقلُهُ على وَجهٍ لا يَعرَى مَعهُ مِنْ ملاحظةِ الأصلِ، ومعنَى الملاحظةِ أنَّ الاسمَ يقعُ لما تقُولُ أنهُ مجازٌ فيهِ، بسببٍ بيْنَهُ وبينَ الذي تجعلُهُ حقيقَةً فيهِ، نحوُ أنَّ اليدَ تقعُ للنِّعمةِ وأصلُها الجارِحَةُ لأجلِ أنَّ الاعتباراتِ اللُّغويَّةِ تتْبَعُ أحوالَ المخلُوقِينَ وعادَاتِهِمْ، ومَا يَقْتَضِيهِ ظاهِرُ البنيةِ وموضوعُ الجِبِلَّةِ"[1]، " ومِنْ هنا اِستثنى الألفاظَ التي يَقَعُ فِيهَا اِشتِراكٌ مِنْ غيرِ سبَبٍ، مثلَ أنَّ الثَّوْرَ يكونُ اِسمًا للقِطْعَةِ الكبِيرةِ مِنَ الإِقْطِ .

حينَ نتأمَّلُ الأمثلَةَ التِي ذكَرَهَا الجرجانيُّ لما اِعْتُبِرَ اِستِعارَةً عندَ اللُّغويِّينَ دُون أنْ يدخُلَ في حيّزِ التَّشبِيهِ علَى المبالَغَةِ نجِدُهَا تنْضَوِي في بابِ ما سمَّاهُ البلاغيُّونَ المتأخِّرُونَ" مجازًا مرسَلًا"، وهو اِسمٌ مشتقٌّ مِنْ كلامِ الجرجانِيّ نفسِهِ، حينَ تحدَّثَ عنِ النّقلِ المقيَّدِ والنّقلِ غيرِ المقيَّدِ بالتشبِيهِ والمبالَغَةِ، هو الاستعارَةُ"[2].

هذا ويجسِّدُ العمريُّ تراتُبِيَّةَ النّقلِ بالخُطاطَةِ التّاليَة [3]:

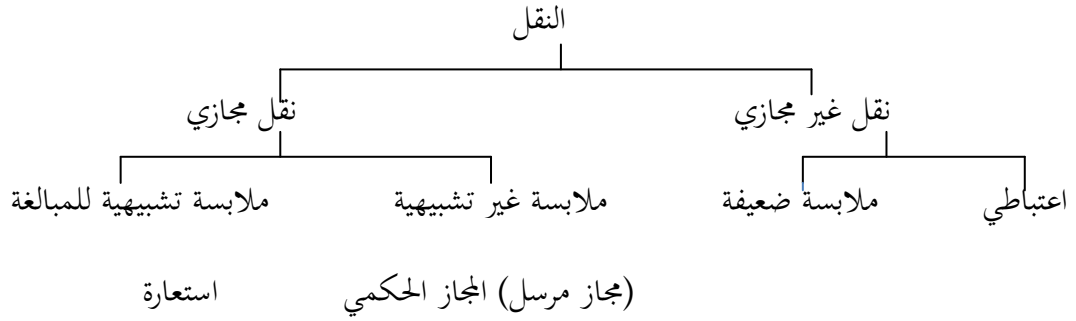


[1] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص : 343 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 379 .

[3] نفسه، ص : 379 .

**ب- الادعاءُ: التَّحوُّلُ**: لقدْ كانَ القولُ بالبناءِ علَى الصُّورَةِ وتوسِيعِ مجالِهَا عنْ طرِيقِ التّناسِي والادِّعاءِ، هذا المنحَى الذِي قَادَتْ إليهِ التجْرِبةُ الشعريَّةُ الجديدَةُ في العصرِ العباسِيّ، يجافِي القوْلَ بالنَّقلِ المعتمَّدِ فِي بناءِ العلاقَةِ الاستعاريَّةِ فِي الأسْرَارِ .

لمْ يجِدْ توجُّهُ الجرجانيّ نحوَ البناءِ على الصُّوَرِ وتوسِيعِ مجالِ الصُّورةِ، وتدعِيمِ ذلكَ نظريًّا بالقولِ بالادِّعاءِ، صدًى عندَ مَنْ جاءَ بعدَهُ مِنَ البلاغيّينَ، وتحوَّلتْ تحليلَاتُهُ وملاحظاتُهُ إلى صُوَرٍ بديعيّةٍ جزئيّةٍ مثلَ حُسْنِ التعلِيلِ، وأسلوبِ الحكِيم، وما إلى ذلكَ؛ دونَ النّظرِ فِي تفاعُلِ المستوَيَاتِ الدلاليّةِ داخِلَ الصُّورةِ وما تُتِيحُهُ مَفَاهِيمُهُ للتَّخْيِيلِ والتَّمْثِيلِ والتَّنَاسِي، مِنْ إمكانيَّاتِ لبناءِ بلاغَةٍ نصيَّةٍ[1] .

وكخُلاصَةٍ لهذا الفصل نَقُولُ، إنَّ دِراسَةَ العُمريّ لبلاغَةِ الجُرجانيّ كشفَتْ عَنْ مجمُوعَةٍ مِنَ الفوائِدِ التي نَسْرُدُهَا فِي النِّقاطِ التَّاليَةِ:

1- أنَّ البلاغةَ عندَ الجُرجانيّ كانتْ بلاغةً شامِلةً لمعنَى التخيِيلِ والتَّداوُلِ مَعًا، أي أنها حافظَتْ على النَّمطِ الأوَّلِ الذِي اِنطلَقَت مِنهُ .

2- أنَّ الجرجانيَّ حينَ دَرَسَ التخيِيلَ والتَّداوُلَ، دَرَسَ الأوَّلَ فِي كتابِهِ الأسرارِ، ودرَسَ الثَّانِي فِي كِتابِهِ الدَّلائِلِ، وقدْ وَصَفَ العُمريُّ الأوَّلَ بالغرابَةِ الشعريَّةِ، والثاني بالمناسبَةِ التداوليَّةِ .

3- أنَّ الجرجانيَّ فِي كِلَا الكِتَابَيْنِ كانَ مُهتمًّا بالمعنى اِنتصَارًا للمذهَبِ الأشعرِيّ، ضدَّ المذهبِ المعتزِلِيّ، وقد كانَ هذا الأخيرُ يرَى أنَّ القرآنَ الكرِيمَ مخلُوقٌ مِنْ مخلُوقاتِ الله تعالى، وأنّهُ قَبْلَ أنْ يتمَّ جمعُهُ فِي مُصحَفٍ واحِدٍ كانَ عِبارةً عَنْ أصواتٍ خلَقَهَا الله عز وجل، اِنطلاقًا مِنْ أنَّ الله تعالى خالِقُ كلِّ شيءٍ، والقرآنُ هو شيءٌ مِنْ تلكَ الأشياءِ، لكنْ فِي اِعتقادِ الأشاعِرةِ، القرآنُ الكريمُ، هو كلامُ الله تعالى المنزَّلِ على سيّدِنا مُحَمَّد ﷺ ، وهذا هو الاعتقادُ الأصحّ .

4- أيضا، مما نَسْتَفِيدُهُ مِنْ خلالِ قِراءةِ العمريّ لبلاغةِ الجرجانيّ، أنَّ كتابَهُ الأسرار، اِهتمَّ بخدمَةِ المعنَى للشِّعَرِ، وكتابُهُ الدّلائل، اِهتمَّ بخدمَةِ المعنى للإعجازِ، غيرَ أنَّهُ لم يقصِ الأصواتَ بشكْلٍ تَامٍّ ونهائِيّ .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 382، 384 .

5- أنَّ الجُرجانيَّ كانَ علَى اِطِّلاعٍ أيضًا، علَى المنطِقِ، كمَا لَاحظْنَا فِي هذِه الدِّراسَةِ، وقد أوْرَدْنَا تنوِيهَ العمريَّ بِهِ .

وقبلَ إنهائِنَا لهذا المبحَثِ نستشْهِدُ بقولِ العمريّ الذِي يُثبِتُ مِنْ خِلالِهِ كوْنِ مَشْرُوعِ الجرجانيّ اِمتدَادًا مِنِ اِمتِدادَاتِ البلاغيَّةِ، مِنْ حيثُ القواعِدِ المستنْبَطَةِ منهُ فيقُولُ: " كانَ الوُصُول إلى النَّسَقِ الإعرابيّ: الفاعليّة، والمفعوليّة، والظرفية، وما إلى ذلكَ مِنَ الأنساقِ المطّرِدَةِ؛ وكذا كشَفَ النَّسَقُ الصرفيُّ والنَسَقُ العروضِيُّ دعمًا حاسمًا للاتِّجاهِ النَّسَقِيّ فِي التَّفكِيرِ العرَبِيّ، وكان مِنْ أعراضِهِ وظواهِرِهِ البحثُ فِي العِلَلِ والأسْرارِ، فألِّفَتْ كتُبٌ كثِيرَةٌ في عِلَلِ النّحوِ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ، كما أُلِّفَتْ كُتُبٌ تحتَ عناوِينَ تبدَأُ بسِرٍّ وأسرارٍ في البلاغةِ واللُّغةِ، مِنها " سرُّ صناعةِ الإعرابِ لابنِ جنّي"، و" سرُّ الفصاحةِ لابنِ سنانٍ "، و" أسرارُ البلاغَةِ للجرجانيّ ""[1]، ويقولُ في نصٍّ آخرَ مبيّنًا دوْرَ الجرجانيّ في ظهورِ نظريّةِ مَعنَى المعنَى: " فهذِهِ الإمكانيَّةُ هيَ التِي اِستغلَّهَا الجرجانيّ فِي الدَّلائِلِ،لاستعمالِ مفهومِ اللَّفظِ للدِّلالَةِ على الاستعارَةِ والتَّمثِيلِ الاستعارِيّ والكِنايَةِ، ثم تأوِيلِ هذا المفهُومِ بمصطَلَحِ صُورةِ المعنَى ومَعنَى المعنَى، والجرجانِيُّ وإنِ اِعتَمَدَ أمثلَةَ الكنايةِ والاستعارةِ والتمثِيلِ لِبَيَانِ مفهُومِ الصُّورةِ، فإنَّهُ قدْ نَوَّهَ بأمثِلَةِ التشبِيهِ في سياقَاتٍ نظميَّةٍ دونَ أنْ يَذْكُرَهُ بِالاسْمِ"[2].

إنَّ البلاغَةَ الجُرجَانيَّةَ بَلاغَةٌ عامَّةٌ قائِمَةٌ على المعنى، تُقَابِلُهَا بَلَاغَةٌ أخرَى قائِمَةٌ على الصوتِ هي البلاغة الصّوتيَّةُ عند الخفاجِي، وهي ما سنتطرّق إليهِ فِي المبحثِ الموالِي .

**المبحث الثالث: أناقةُ الخِطابِ: الصحةُ والتّناسُبُ – قراءةٌ في كتابِ" سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي " –:**

نتناولُ فِي هذا المبحَثِ عالِمًا بلاغيًّا آخرَ، مِنْ مُعاصِرِي الجرجانِي، ألَا وهُوَ اِبنُ سنانٍ الخفاجيّ، الذي حَظِيَ بمكانَةٍ رفيعَةٍ في تاريخِ البلاغَةِ العربيَّةِ، على الرغمِ مِنْ قِصَرِ عُمْرِهِ، وقِلَّةِ مؤلَّفاتِهِ، التي مِنْ أشهَرِهَا كتابُهُ" سرُّ الفصاحَةِ"، وقد" سَار ابنُ سنانٍ في كتابِه على المنهَجِ الوصفيّ التحلِيليّ، ومِنْ خلالِهِ برزَتْ شخصِيَّةُ البلاغِيّ والأدِيبِ النَّاقِدِ، حيثُ كانَ لِرُوحِهِ الأدبيَّةِ أثرُهَا

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 13

[2] نفسه، ص: 430 .

الكبِيرُ في ثنايَا جُهُودهِ المبذُولةِ في كتابِهِ، مِنْ ذلك أنهُ عَنَى بإيرادِ النصوصِ الأدبيَّةِ والأمثلَةِ الشعريَّةِ، فأكثَرَ مِنْهَا "[1]، ولابنِ سِنَانٍ أيضًا ديوانٌ شعريٌّ" حَقَّقَهُ الأستاذانِ مختار نويرات ونسيب نشاوِي، في نسخةٍ صادرةٍ عنْ مطبوعاتِ مجمَعِ اللُّغةِ العربيَّةِ بدِمِشْقَ عام 2007م، مِنْ مَائةِ وسِتٍّ وأربعِينَ قصِيدَةٍ وقِطْعةٍ شعريَّةٍ"[2] .

وأما عنْ أسلُوبِ الخفاجِيّ فِي الكِتابَةِ، فقدْ" تميَّزَ بأنَّهُ أسلُوبُ العالِمِ الأدِيبِ، الذِي لَا يطْغَى فِيهِ ذوْقُ الأدِيبِ علَى ذوْقِ العَالِمِ، فأسلوبُهُ أقرَبُ إلى أسلوبِ المتأخِّرِينَ مِنَ الجُرجَانِيّ، مما جَعَلَ كتابَهُ أكثَرَ نَفعًا في تربيَةِ مَلَكَةِ النَّقْدِ"[3]، ومِنْ هُنَا يمكِنُ القولِ بأنَّ الخفَاجِيّ قد فَتَحَ البابَ للسَّكاكي فِي وَضْعِ الأُسُسِ الأُولَى للتَّقْعِيدِ البَلَاغِيّ، مَا جَعلَ العُمريَّ يَضَعُ بلاغَتَهُ تحتَ اِسم " أناقةُ الخطابِ" .

والمقصودُ بأناقَةِ الخِطابِ، فَصَاحَتُهُ وخُلُوُّهُ مِنْ كُلِّ ما يَشِينُ الكلمةَ مِنَ العُيوبِ النُّطقيّةِ أوِ المنطقيّةِ، وهو مَا يتجسَّدُ في مفهوميْ" الصحةُ والتناسُبُ"، وصفًا للبلاغَةِ الصوتيَّةِ عند الخفَّاجِيّ: "فالصحةُ هي فِي الغالبِ جوازُ مرُورٍ للمُحافَظَةِ، والتناسُبُ هو ترجِيحٌ للحسيّ البسِيطِ( المسمُوع هُنا ) على العقلِيّ المعقَّدِ الذي يرصُدُ عناصِرَ التَّنافُرِ والشُّذوذِ في اللُّغةِ والحياةِ، ويرصُدُ العلاقَاتِ البعِيدةِ؛ وبعبارَةٍ أخرَى، فإنَّ الحِسّيَ يُهادِنُ العقلَ ويُداعِبُ الأُذُنَ"[4]، هذانِ المفهُومانِ هما اللَّذَان يخْتَرِقَانِ – فِي نظرِ العُمري– " الكتابَ مِنْ أوَّلِهِ إلى آخرِهِ، ويستوْعِبَان مادَّتَهُ إلى حدٍّ كبِيرٍ، خاصَّةً

[1] درية ياسين عبد الرحمن أحمد، ابن سنان الخفاجي وجهوده البلاغية والنقدية من خلال كتابه " سر الفصاحة "، رسالة دكتوراه، إشراف: د. مُحَمَّد الحسن علي الأمين، قسم الدراسات الأدبية والنقدية، كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، السنة الجامعية، 1429-1430هـ/2008-2009م، ص: 17 .

[2] عبد الرزاق بوقطوش، استدراكات مختار نويرات ونسيب نشاوي اللغوية والبلاغية والتاريخية، في ديوان ابن سنان الخفاجي(422-466هـ)، مجلة التواصل في اللغات والآداب، جامعة عنابة، المجلد23، عدد52-ديسمبر، 2017م، ص: 132 .

[3] زينب بن قيراط، المنهج البلاغي عند ابن سنان الخفاجي، مجلة البدر، جامعة بشار، المجلد09، العدد09-2017م، 320

[4] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 423 .

حينَ نُكْمِلُ الصِحَّةَ بالاعْتِدَال، ونُكْمِلُ التَّنَاسُبَ بالانْسِجام، فيُمكِنُ القولُ بأنَّ عَمَلَ اِبنِ سنانٍ يقُوم على أساسيْن: 1- الصحةُ والاعتدالُ، 2- التناسبُ والانسِجامُ"[1].

وقَدْ عَمِدَ العمري إِلَى إعادةِ تنظِيمِ هذينِ الأساسينِ، وتوْسِيعِهِمَا إِلى أربعةِ أقسامٍ، هي:1- الصحةُ( المحافظةُ) 2- الاعتدَالُ 3- الانسِجامُ 4- التناسبُ، حيثُ يقولُ فِي هذا الصَّددِ: " هذِه القِسْمةُ معقُولةٌ وهادِفَةٌ، ولكنِّي فضَّلْتُ تَفْتِيتَ طرفيْهَا معَ الاستِمرارِ فِي مُراعَاةِ مَغزَاهَا حتَّى أَقْتَرِبَ مِنْ مادَّةِ الكتابِ أكثَرَ، وأحَقِّقَ مَزيدًا مِنَ الدّقةِ فِي الوصْفِ"[2]، والمقصُودُ مِنْ قولِ العُمريّ أنه يمكِنُ الاكتفاءُ بمفهوميْ الصحةِ والتناسُبِ للدِّلالَةِ على بلاغةِ الخفَّاجِي ( البلاغةُ الصوتيّةُ)، إلا أنَّ أَثَرَ تقسِيمِهَا إِلى أربعَةِ أقسَامٍ بُغْيَةَ مَعْرِفَةِ فَحوى مشرُوعِ الخَفَّاجِي، مِنْ حيثُ الشُّروطُ التي وَضَعَهَا لفصاحةِ اللِّسانِ العربيّ وتناسُبِ اللّفظةِ دِلالَةً وصوتًا، مع الغايَةِ التي وُضِعَتْ لَهَا .

ولقدْ مكنَتْنَا دِرَاسَةُ العُمريّ لمشرُوعِ الخفَّاجِي مِنْ معرِفَةِ مَضامِينِ تِلكَ الأقسَامِ الأربَعَةِ، التِي نعرِضُهَا على النَّحوِ التَّالِي:1-الصحةُ( أو المحافظةُ)، 2- الاعتدالُ، 3- الانسجَامُ، 4- التناسُبُ

**1- الصحةُ(أو المحافظة)**: تتجلّى دعوةُ المحافظَةِ فِي الإلحاحِ على اِحترامِ الأعرافِ والسُّنَنِ اللُّغوِيَّةِ والاجتماعيَّةِ، والفَنِيَّةِ، وقد تجلَّى إلحاحُهُ على ذلكَ فِي الاهتِمامِ بِصَفَاءِ المعجَمِ الشِّعريّ، وتقدِيمِ التَّمَفْصُلِ الطبِيعيّ للُّغةِ، ورَفْضِ الضَّرُورَاتِ الشّعريّةِ، كما تجلَّى فِي الحدِيثِ عَنِ المناسَبَةِ للأَغْرَاضِ"[3]

**أ- صفاءُ المعجَمِ: العاميَّةُ والخاصيَّةُ**: اِستدَلَّ العُمريُّ علَى هذَا العُنصُرِ بكوْنِ الخفاجِي جَعَلَ نِصفَ شُرُوطِ الفصاحَةِ مُتعَلِّقَةً بتخْلِيصِ المعجَمِ الشّعرِي مِنَ الشَّوَائِبِ المعجميَّةِ والذوقيَّةِ، وقدْ رَصَدَ العُمريُّ تلكَ الشُّروطِ، وهي: " 1- تباعُدُ المخارِجِ، 2- الحسْنُ في السَّمْعِ، 3- الخُلُو مِنَ التَّوَعُّرِ والوحشيَّةِ، 4- البُعْدُ عَنِ العاميَّةِ، 5- عدمُ الشذُوذِ، 6- الابتعادُ عمَّا يُكرَهُ ذِكره، 7-

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 422 .

[2] نفسه، ص : 423 .

[3] نفسه، ص : 423 .

الاعتدالُ، 8- التَّصْغِيرُ"[1]، والشّرُوطُ التِي يعنِيهَا العُمريُّ هنا، ويرى أنَّ لها عَلاقَةً بصَفَاءِ المعجَمِ، هي:الثالثُ والرابعُ والخامِسُ والسادِسُ"[2].

ويرى العمرِيُّ أنَّ العيبَ المقصُودَ يكمُنُ فِي اِستِعمَالِ ألفاظٍ مليئَةٍ بالشَّوائِبِ المعجَمِيَّةِ، و" الخروجِ عنِ العُرفِ العربِيّ والنُّزُوعِ إلى العاميَّةِ، ومِنْ هنا يفرّقُ اِبن سنانٍ بينَ مَذْهَبِ العامَّةِ فِي اِستعمالِ ألفاظِ اللُّغةِ ومذهَبِ العَرَبِ، ويُورِدُ أمْثِلَةً عِدَّةً لِذلكَ، وسنأخُذُ مثالًا واحِدًا عنْ كُلِّ شرْطٍ مع التَّعرِيفِ بِهِ .

**1- تباعُدُ المخارِجِ**: ومثالُ التَّألِيف مِنَ الحُروفِ المتباعِدَةِ كثيرٌ، جُلُّ كلامِ العربِ عليهِ، فلَا يحتاجُ إلى ذِكْرِهِ، فأمَّا تأليفُ الحرُوفِ المتقارِبةِ فمثالُهُ كلِمَةُ " الهَعْخَعْ" وحُرُوفِ الحَلْقِ مَزِيَّةٌ فِي القُبحِ إذَا كانَ التَّألِيفِ منها فَقطْ، وأنتَ تُدْرِكُ هذا وتَسْتَقْبِحُهُ كما يَقْبُحُ عندكَ بعضُ الأمزِجَةِ مِنَ الألوانِ، وبعضُ النّغَمِ مِنَ الأصواتِ"[3]، ولم يُرِدِ الخفاجيُّ في هذا الشّرطِ إلا قوْلَ الشَّاعرِ:

فَالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبْيَضُّ  وَالفَرْعُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدُّ

ضِدَّانِ لَمَّا اِسْتَجْمَعَا حَسُنَا  وَالضِدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِدُّ*

**2- الحُسنُ في السَّمعِ**: وذلك أنْ تجِدَ لِتألِيفِ اللَّفْظَةِ فِي السَّمْعِ حُسْنًا ومَزِيَّةً على غيرِهَا، وإنْ تَساويَا فِي التألِيفِ مِنَ الحُروفِ المتبَاعِدَةِ، كمَا أنَّكَ تَجِدُ لبَعضِ النَّغَمِ والألوَانِ حُسْنًا يُتَصَوَّرُ فِي

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 411، 412 .

[2] نفسه، ص : 423 .

[3] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م، ص : 64 .

* هذان البيتان من " القصيدة اليتيمة "، وهي قصيدة اختلف الأدباء والرواة في هوية قائلها، ويرى الدكتور صلاح الدين المنجد أنّ القصيدة كانت معروفة عند علماء الشعر ورواته منذ القرن الثالث الهجري، ورجّح قول ابن المبرّد أن القصيدة لا يعرف قائلها، رغم أنه ذكر قول من نسبها إلى ذي الرمّة، ومن نسبها إلى دوقلة المنجلي . ينظر : ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، الرابط : القصيدة اليتيمة : https://ar.wikipedia.org/wiki/

النَّفسِ ويُدْرَكُ بالبصَرِ والسَّمْعِ، دونَ غيرِهِ مما هوَ مِنْ جِنْسِهِ، كلُّ ذلك لِوَجْهٍ يَقَعُ التَّأليفُ عليهِ"[1]، ومثالُهُ قولُ المتنبّي[2]: إِذَا سَارَتِ الأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفَاوَحَ مِسْكُ الغَانِيَاتِ وَرِنْدُهُ

**3- الخلوُّ مِنَ التوعُّرِ والوحشيَّةِ** :ومِنْ ذلِك ما رُوِيَ عَنْ أَبِي عَلْقَمَةَ النَّحْوِيُّ مِنْ قولِهِ: " ما بِكُمْ تَتَكَأْكَؤُونَ عَلَيَّ تَكَأْكُأَكُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ ؟ اِفْرَنْقِعُوا عَنِّي"، فإنَّ " تتَكأكؤُونَ واِفرنقعوا"، وَحْشِيٌّ، وقدْ جمع العمري العلَّتيْنِ مع قُبحِ التأليفِ الذي يمجُّهُ السمعُ والتوعُّرُ، وما أكثرَ ما تجتمِعُ العلَّتَانِ في هذا الجِنسِ"[3]، ومِنَ الأمثلةِ التِي أوْردَهَا اِبنُ سنانٍ هنَا قولُ أَبِي تمامٍ:

بِنَدَاكَ يُؤْسَى كُلُّ جُرْحٍ يَعْتَلِي رَأْبَ الأُسَاةِ بِدَرْدَبِيسٍ قِنْطَرِ[4]

**4- البعدُ عَنِ العاميَّةِ**:وليسَ لأحدٍ أنْ يتخيَّلَ أَنَّ العُذْرَ فِي إيرادِ هذِهِ الألفَاظِ العاميَّةِ وأمثَالِهَا، تَعذُرُ مَا يَقَعُ موقِعُهَا فِي النَّظمِ، كما يَظُنُّ ذلكَ بعضُ المتخلِّفِينَ في هذِهِ الصِّناعَةِ، وذلكَ أَنَّهُ ليسَ يجِبُ على الإنسانِ أنْ يكُونَ شاعِرًا ولا كاتِبًا ولا صاحِبَ كلامٍ يُؤْثَرُ ولفْظٍ يُرْوَى، ولا يجِبُ عليهِ – لو وَجَبَ هذا – أنْ يَنْظُمَ تلكَ القصيدَةُ التِي وردَتْ فِيها هذِهِ اللَّفظَةُ ولا البَيتُ مِنَ القصِيدَةِ، فكيفَ تَعْذُرُهُ إذا أورَدَ لفظَةً قَبِيحَةً وهو قادِرٌ على حذْفِ البيتِ كُلِّهِ إنْ لم يكُنْ قادِرًا علَى تبدِيلِ كلمةٍ منه "[5]، ومِنْ ذلك قولُ المتنبي[6]:

تَسْتَغْرِقُ الكَفُّ فُودَيْهِ وَمَنْكِبَهُ وَتَكْتَسِي مِنْهُ رِيحَ الجَوْرَبِ الخَلِقِ

**5- عدمُ الشُّذوذِ**: يدخُلُ فِي هذا القِسمِ كُلُّ ما يُنكِرُهُ أهلُ اللُّغةِ، ويردُّهُ علماءُ النّحوِ مِنَ التصرُّفِ

[1] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 64، 65 .

[2] شرح ديوان المتنبي، ج1، ص : 322 .

[3] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 85 .

[4] شرح ديوان أبي تمام، ج2، الخطيب التبريزي، تقديم : راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ/ 1994م، ص : 385 .

[5] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 85 .

[6] شرح ديوان المتنبي، ج2، ص : 43 .

الفاسِدِ فِي الكلِمَةِ"[1]، حيثُ لا يَرعَى مَدْلُولَ اللَّفظةِ مِنْ جمِيعِ النّواحِي، وإنما يكتَفِي صَاحِبُهَا بكوْنِهَا شارِحَةً للمعنَى الذِي يُرِيدُهُ هوَ، حتى وإنْ لم يكنْ دقِيقًا، وفِي غَالِبِ الأحيانِ يحْدُثُ مِثْلُ هذا الأمرِ للشُّعراءِ ويكونُ السَّبَبُ فِي ذلِك مَا يَفْرِضُهُ عليهِمُ الوزنُ والقافِيَةُ والرويُّ، فالشاعِرُ هنا قدْ يدرِي أنَّ الكلِمَةَ التِي وَظَّفَهَا لَا تُؤَدِّي المعنَى بِشَكْلٍ دَقيقٍ، لكنَّهُ اِضطُرَّ إليهَا بالسَّبَبِ الذِي ذكرنَاهُ، ومِنَ الشَّوَاهِدِ التِي أوْرَدَهَا اِبنُ سِنَانٍ في هذا قولُ أبِي عُبَادَةَ:

وَأَبَتْ تَرْكِيَ الغُدَيَّاتُ وَالآ  صَالُ حَتَّى خُضِبْتُ بِالمِقْرَاضِ[2]

**6- الابتعادُ عما يُكرَهُ ذِكْرُهُ:**فالكلِمةُ إنْ وَرَدَتْ، وهيَ غيرِ مقصُوْد بها ذلِكَ المعنَى قبُحَتْ، واِنْكمُلَتْ فيهَا الصِّفاتُ التي بيَّنَّاهَا "[3]، ومثالُهُ قولُ أبي تمام:

مُتَفَجِّرٌ نَادَمْتُهُ فَكَأَنَّنِي  لِلدَّلْوِ أَوْ لِلْمَرْزَمِينِ نَدِيمُ[4]

**7- الاعتدالُ:**فإنهَا متَى زادَتْ عَنِ الأمثِلةِ المعتادَةِ المعرُوفَةِ قَبُحَتْ وخَرَجَتْ عنْ وجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الفصاحةِ"[5]، ومثالُه قولُ المتنبي: [6]

إِنَّ الكَرِيمَ بِلَا كِرَامٍ مِنْهُمُ  مِثْلِ القُلُوبِ بِلَا سُوَيْدَاوَاتِهَا

**8- التصغيرُ:**فإنِّي أراهَا تحسُنُ بهِ، ويجِبُ ذِكْرُهُ فِي الأقسَامِ المفصَّلَةِ، ولعلَّ ذلِك لموقِعِ الاختِصارِ بالتَّصغِيرِ"[7]، ومثالُهُ قولُ المتنبي:[8]

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادِلُيَيْلَتُنَا المَنُوطَةُ بِالتَّنَادِ

---

[1] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 77 .

[2] ديوان البحتري، تح : حسن كامل الصيرفي، المجلد الأول، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، 1963م، ص : 1208 .

[3] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 85 .

[4] شرح ديوان أبي تمام، ج2، ص : 147 . وفي هاته النسخة : متفجر نادمته فكأنني * للنجم أو للمرزمين نديم .

[5] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 88 .

[6] شرح ديوان المتنبي، ج1، ص : 220 .

[7] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 89 .

[8] شرح ديوان المتنبي، ج1، ص : 294 .

**09- أمثلةٌ على مذهبِ العامَّةِ فِي اِستعمالِ اللُّغةِ، ومذهَبِ العربِ:** ومِنَ الأمثِلَةِ التي أوْرَدَهَا العُمريُّ في هذَا الشَّأنِ، كلمةُ" تَفَرْعَنَ" في بيتٍ لأبِي تمَّام، فإنّ تَفَرْعَنَ مشتَقٌّ مِنِ اِسمِ فرعَون، وهو مِنْ ألفاظِ العامَّةِ وعادتُهُمْ أنْ يقُولُوا: تفرعَنَ فلانٌ، إذا وصَفُوهُ بالجبْرِيَّةِ، وكذلِك كلمةُ" فَطِيرْ" فهي عاميَّةٌ مبتذَلَةٌ، ومثلُهَا " سراوِيلَاتُها " و " عنبُ الثَّعلَبِ"، بل إنَّ " عِنَبَ الثعلب " مما تترفعُ عنهُ العامَّةُ"[1].

ومما يرفُضُهُ الذَّوقُ اِستعمالُ " القَمْلِ"في قَوْلِ زُهَيْرٍ:

وَأَقْسَمْتُ جَهْدًا بِالمَنَازِلِ مِنْ مِنًى  وَمَا سُحِفَتْ فِيهِ المَقَادِمُ وَالقَمْلُ[2]

**1-ب- تقديمُ التَّمَفْصُلِ الدّلالِي على التّقطيعِ النّظمِي:** خصَّصَ اِبنُ سنانٍ مجموعَةً مِنَ المباحِثِ ضِمنَ شرُوطِ فصاحَةِ الكلامِ المؤلَّفِ لقضيَّةِ تمفصُلِ الكلامِ دلاليًّا، هيَ على الأقلِّ: 1- التقديمُ والتأخيرُ2- القلبُ3- المعاظلةُ4- الحشوُ .

يتعلَّقُ الشرطانِ الأوَّلُ والثاني، بالخروجِ عَنْ نَسَقِ الكلامِ نحويًّا، بشكلٍ تتعقَّدُ فيهِ العلاقَاتُ، فيؤدِّي ذلِكَ إلى الغُمُوضِ أو الاستِحالَةِ، حيثُ تتبادَلُ الأطرَافُ المواقِعَ فيصيرَ العامِلُ معمُولًا أو العكسُ، في حينِ يتعلَّقُ الشرطُ الثالِثُ بتَدَاخُلِ الكلامِ وتراكُبِهِ نتيجَةَ الإلْحَاحِ على المجانَسَاتِ أوِ المقابَلَاتِ، ويتعلَّقُ الشَّرطُ الرَّابعُ بالإجراءَاتِ التَّكمِيليَّةِ التي يَقْتَضِيهَا تَوَازُنُ الكلامِ فِي الوُصولِ إلَى القافيَةِ أو السَّجْعَةِ، وباستثنَاءِ المعاظَلَةِ فإنَّ الشُّروطَ الثلاثَةَ الأُخرَى، الأوّلُ والثّانِي والرّابعُ، تندرِجُ فِي الحدودِ التي اِختَارَهَا المؤلِّفُ ضمنَ الإجراءَاتِ التركِيبِيَّةِ التي يَقْتَضِيهَا النَّظْمُ( الشعريُّ أو السجعيُّ)، ولذلكَ نجِدُهُ يُطالِبُ فِي سِياقِهَا بعدَمِ ركوبِ الضّرُورةِ، وتدخُلُ المعاظَلَةُ نفْسُهَا في بابِ الضرُورَةِ الشعريَّةِ بمفهومٍ آخَرَ، أي حدوثُ تراكُبٍ في النَّسَقِ بسبَبِ تماسُكِ الشاعِرِ بالتَّجَانُسِ والاشتِقَاقِ والمقابَلَاتِ، وقد تَنَبَّهَ النُّقَادُ لهذه الضَّرُورةِ وسجَّلُوهَا .

ونقل اِبنُ سنانٍ في هذا رأيَ الآمديَّ، في قولِ أبي تمامٍ :

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص : 424 .

[2] شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ثعلب الشيباني، وزارة الثقافة، الجزائر، طبعة سنة 2007م، ص : 99 .

خَانَ الصَّفَاءَ أَخٌ، خَانَ الزَّمَانُ أخاً عَنْه، فَلَمْ يَتَخَوَّنْ جِسْمَهُ الكَمَدُ[1]

لأنَّ ألفاظَ هذَا البيتِ يَتَشَبَّثُ بعضُهَا ببعضٍ، وتدخُلُ الكلمَةُ مِنْ أجْلِ كلِمَةٍ أخرى تُجَانِسُهَا وتُشْبِهُهَا، مثلَ: خانَ، وخانٌ، ويتخوّن، وأخٌ، وأخاً، فهذا هو حقيقَةُ المعاظَلَةِ"[2].

**1-جـ- مناسَبةُ المعانِي للأغراضِ**: تناوَلَ اِبنُ سنانٍ قضيَّةَ مُلاءَمَةِ المعانِي للأغراضِ في بابِ تأليفِ الألفاظِ، وبابِ المعانِي المفرَدَةِ، دون أنْ يُعْرِبَ عَنْ وَجْهِ الاختِلافِ بين المستويَيْنِ:"[3]

قال في الشّرطِ السّادسِ مِنْ شُروطِ المؤلِّف : ومِنْ وَضْعِ الألفاظِ موضِعَهَا ألَّا يُعَبَّرَ عَنِ المدحِ بالألفاظِ المستعمَلَةِ فِي الذمِ، ولَا فِي الذمِ بالألْفَاظِ المعروفَةِ للمدْحِ، بلْ يُسْتَعْمَلُ فِي جَميعِ الأغراضِ الألفاظَ اللائقةَ بذلكَ الغَرَضِ، فِي مَوْضِعِ الجَدِّ أَلْفَاظُهُ، وفي موضِعِ الهزلِ ألفاظُهُ"[4]، ومثالُ ما اِستُعملَ مِنَ الألفاظِ فِي غيرِ موضِعِهِ قولُ أبِي تمَّامٍ:

مَا زَالَ يَهْذِي بِالمَكَارِمِ دَائِبًا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ مَحْمُومُ[5]

قالَ في الشرطِ الخامِسِ مِنْ شُروطِ المعانِي المفرَدَةِ: ومِنَ الصِحَةِ صِحَّةُ الأوصَافِ فِي الأغراضِ وهوَ أنْ يُمْدَحَ الإنسانُ بما يَليقُ بِهِ وَلَا يُنَفَّرُ عنهُ، فيمدَحُ الخليفةُ بتأييدِ الدِّينِ وتقويَةِ أَمْرِهِ ... الخ ويُمدحُ الوزيرُ والكاتِبُ بالعقلِ والحِلمِ، وسَدَادِ الرَّأيِ ... الخ، ويُمدَحُ الأميرُ وقائِدُ الجيشِ بالشَّجَاعةِ والمعرِفَةِ بالحربِ ... الخ، وعلى هذَا السَّبِيلِ يجرِي الأمرُ في النَّسيبِ، فيُذكرُ فيه صِدقُ الهَوى والمحبَّةُ، وشدّةُ الوَجدِ والصَّبابَةُ ... الخ، وكذلك فِي كُلِّ غَرَضٍ مِنَ الأغراضِ الشعريَّةِ، مِنْ هجاءٍ وفخرٍ، وعتابٍ، ووصفٍ، وغير ذلك، حتى يكونَ كُلُّ شيءٍ موضُوعًا فِي المكانِ الذِي يلِيقُ بِهِ"[6]،

---

[1] شرح ديوان أبي تمام، ج2، ص : 215 . ( مرجع سابق ) . وفي هاته النسخة : خان الصفاء أخٌ، كان الزمانُ له * أخاً، فلم يتخوّن جسمه الكمدُ

[2] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 158 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 430 .

[4] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 161 .

[5] شرح ديوان أبي تمام، ج2، ص : 147 .

[6] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 256 .

ومِنَ الأمثلةِ التِي أوْرَدَهَا الخفاجِيُّ في هذَا الشّأنِ، قولُ أبي عُبادةَ في مدحِهِ الخلِيفةَ، وقد عِيبَ عليه هذا القول: لَا العَذْلُ يَرْدَعُهُ وَلَا التثَ عْنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهُ[1]

وقيل: مَنْ هو الذي يَجْسُرُ على عَذْلِ الخليفة وتعنيفه ؟ ؟ .

والنثرُ عندهُ مثلُ الشعرِ في الحاجةِ إلى معرفةِ المواضَعَاتِ في الخِطابِ والاصْطِلاحَاتِ[2].

**2- الاعتدالُ**: مَيَّزَ العمري بينَ مستويَيْنِ في الدعوةِ إلى الاعتدالِ عند الخفاجِيّ هما:

**2-أ- الاقتصادُ في البديعِ**:وهو مستوَى عامٌّ يتعلّقُ بالاقتصادِ في اِستعمالِ الصُّوَرِ البلاغيَّةِ، وكثيرًا ما لا يعدُو عَمَلُ البلاغيّ، اِبنُ سنانٍ أو غيرِهِ، في هذا المجالِ إعلانَ الموقِفِ، ويمثّلُ هذَا المستوَى العامّالإطارَ الذِي يَنْدَرِجُ فيه المستَوَى الخاصُّ ويفسَّرُ في إطارِهِ"[3].

**2-ب- مقاربَةُ الحقيقَةِ**: وهي مستوًى خاصٌّ يهتَمُّ بمجالِ الإلحاقِ والنّقلِ الدّلالِيَّيْنِ عنْ طرِيقِ التّشبِيهِ، والاستعارةِ، والتمثِيلِ، والإردافِ؛ بالإضافةِ إلى تناوُلِهِ مباشَرَةً لإشكاليَّةِ الوُضُوحِ والمبالَغَةِ، إمَّا ضِمْنَ شرُوطِ فصاحةِ اللّفظِ وبلاغَتِهِ، كما هو الحالُ بالنسبَةِ للوُضُوحِ، أو في تذيِيلِ الحدِيثِ عنْ شُروطِ بلاغَةِ المعنَى كما هُو الحالُ بالنسبةِ للمبَالَغَةِ"[4].

**3- الانسجامُ**: وكما وظَّفَ العمريُّ، الاعتدالَ كعنصُرٍ مُكَمّلٍ لعنصُرِ الصحَةِ، ها هُو ذَا يوظّفُ عنصُرَ الانسجامِ مُكمّلًا للتَّنَاسُبِ، فمِنْ" شرُوط بلاغةِ المعانِي المفرَدَةِ عند المؤلّفِ، ضمانُ اِنسجامِ الخِطابِ في مستويَيْن هما: المستوَى الدّلالِي المنطقِي، وقد جمَعَهُ المؤلّفُ في شرطيْنِ متكامليْنِ: أ- تجنُّبُ الاستحالَةِ والتَّنَاقُضِ، ب- عدمُ وضْعِ الجائزِ مكانَ الممتَنِعِ، ثم مستوَى الموضوعِ أو المحتوياتِ، وتناوَلَهُ تحت عنوانِ" صحةُ التناسُقِ والنّظمِ"[5].

---

[1] ديوان البحتري، تح : حسن كامل الصيرفي، المجلد الأول، ص : 614 .

[2] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 430 .

[3] نفسه، ص : 431 .

[4] نفسه، ص : 431 .

[5] نفسه، ص : 440، 441 .

**3-أ- الانسجامُ الدّلاليّ المنطقِيُّ**: في بيانِ المقصُودِ بالاستحالَةِ والتّناقُضِ، اِعتمَدَ ابنُ سنَانٍ علَى رصيدِهِ المنطقِي فتحدَّثَ عنْ جِهَاتِ التَّقَابُلِ الأرْبَعِ: الإضافةُ، والتّضادُّ، والعدمُ، والقنيةُ، والنفيُ، والإثباتُ، وشرحَ بتفصيلٍ وتمثيلٍ، كيفَ نَتَجَ التَّناقُضُ عَنِ الجمعِ بينَ المتقابِلَاتِ مِنْ جهةٍ واحِدَةٍ، كما هُو معلُومٌ، ثم اِنتهَى إلى القوْلِ:" وإذا كانَ هَذا مفهومًا، فالذِي يَقَعُ فِي النَّظمِ والنثرِ مِنْ هذا التَّناقُضِ عَلى هذا النّحوِ عَيْبٌ في المعانِي بغيرِ شَكٍّ، وإنْ كَانُوا قَد تسمَّحُوا فِي الشِّعرِ "[1]، وهو تسامُحٌ في غيرِ مَحَلِّهِ، فِي نظرِهِ، لأنه قائِمٌ على اِعتقادِهِمْ اِستقلَالَ الأبْيَاتِ عنْ بعضِهَا، فقاسُوا الأبياتَ علَى القصائِدِ: فما دامَ فِي وُسْعِ الشاعِرِ أنْ يمدَحَ في قصِيدَةٍ مَا يَهْجُوهُ فِي أخرى،لاستقلالِ القصائِدِ، فإنَّ ذلِكَ يجُوزُ فِي الأبياتِ على فَرَضِ اِستِقلَالِهَا، وتجنُّبُ هذا فِيمَا اِتَّصَلَمِنَ الكَلَامِ أحسَنُ في نظرِ اِبنِ سِنَانٍ"[2] .

**3-ب- اِنسجامُ المحتوَى**: المستوَى الثَّانِي مِنْ قضيَّةِ الانسِجامِ هو مستَوَى تَنَاسُقُ الموضُوعَاتِ داخلَ القصِيدةِ، وتمهِيدُ بعضِهَا لبعضٍ حتَّى لا يحدُثَ فِي الكلامِ اِنقطاعٌ، وقدْ لَاحَظَ اِبْنُ سنانٍ أَنَّ المحدَثِينَ مِنَ الشُّعراءِ بَرَعُوا فِي الرَّبطِ بينَ أجزاءِ القصائِدِ، فِي حينِ كانَ أكثَرُ خُرُوجِ القُدماءِ مِنَ النَّسِيبِ"[3].

ومنَ الأمثِلةِ التِي أوْرَدَهَا اِبنُ سنانٍ فِي هذا الشّأنِ ما يلي:

قول البحتري:

شَقَائِقُ يَحْمِلْنَ النَّدَى، فَكَأَنَّهُ  دُمُوعُ التَّصَابِي، فِي خُدُودِ الخَرَائِدِ

كَأَنَّ يَدَ الفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ أَرْفَلَتْ،  تَلِيهَا بِتِلْكَ البَارِقَاتِ الرَّوَاعِدُ[4]

فهذا خروجٌ إلى المدحِ .

ومِنَ الخُرُوجِ إلى الذّمِ قولُ إسحاقَ بْنَ إبراهيمَ في أحمدَ بْنَ هشامٍ:

---

[1] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 239

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 441 .

[3] نفسه، ص : 443 .

[4] ديوان البحتري، تح : حسن كمل الصيرفي، المجلد الأول، ص : 223، 224 .

فَمَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّى رَأَيْتَنَا  مِنَ العِيِّ، نَحْكِي أَحْمَدَ بْنَ هِشَامِ*

أمَّا إذَا اِبْتَدَأَ الشاعِرُ بالغرضِ، دون مُقَدِّمَاتٍ، فَمِنَ" الأحسنِ أنْ يكُونَ الابتِدَاءُ دَالًّا علَى المعنَى المقصُودِ"[1] .

**4- التناسبُ**: يوضّحُ العمريُّ أنَّ التناسُبَ هنَا لا يُعنَى بِهِ المناسَبَةِ، " ذلكَ أنَّ المناسَبَةَ حُكْمُ قِيمَةٍ يتعلَّقُ بِوَضْعِ الأمورِ مواضِعَهَا المناسبَةَ، ومِنْ هنا اِعتبَرْنَاه – يقولُ العمري- قيمةً عامَّةً مطلُوبَةً عندَ ابنِ سنانٍ بوجهٍ عَامٍّ؛ أما التناسُبُ فينصرِفُ إلى وجودِ طرفيْنِ مُتَجَاوِبَيْنِ دِلَالِيًّا أو صَوْتِيًّا، وقد خصَّصْنَا التّناسُبَ الدِّلالِي بمصطَلَحِ" التّعادُلِ"، والتناسُبَ الصّوْتِي بـ " التّوازُن "[2].

**4-أ- التناسب الدلالي: التعادل:** والذي يضم: 1- صحة التقسيم، 2- صحة المقابلة، 3- صحة التفسير، 4- تناسب الألفاظ من جهة المعاني .

ومِنْ ملاحظةِ الأمثلةِ نجدُ أنَّ هُناكَ تَقَارُبًا، بَلْ تداخُلًا، بين التّفسِيرِ، والمقابلةِ، والتقسِيمِ، فهي تلتَقِي فِي ذِكْرِ أطرَافٍ ومُقَابَلَتِهَا بأطرافٍ أخرَى مُوافِقَةً، أو مُخالِفَةً، أو مُرادِفَةً أو مُفسِّرَةً .

فمِنْ أمثِلةِ التَّفسِيرِ التِي تُطابِقُ أمثِلَةَ المقابَلَةِ، وتمُتُّ بالتّالِي إلى أمثِلَةِ التقسِيمِ بِصِلَةٍ، قولُ الفرزدَقِ:

لَقَدْ جِئْتَ قَوْمًا لَوْ لَجَأْتَ إِلَيْهِمُ  طَرِيدَ دَمٍ، أَوْ حَامِلًا ثِقْلَ مَغْرَمِ

لَأَلْفَيْتَ فِيهِمْ مُعْطِيًا وَمُطَاعِنًا  وَرَاءَكَ، شَزْرًا بِالوَشِيجِ المَقْوَمِ"[3]"[4]

قال: ابن سنان: هذا تفسيرٌ للأوّلِ مُوَافِقٌ .

وأوَّلُ مَا يُلاحَظُ- يقول العمري- أنَّ" مُوافق " هيَ إحدَى صِفاتِ المقابَلَةِ( والصِّفةُ الثانيةُ هي صفةُ مخالِفٌ)، وهي الصفَةُ التي تخلِطُ بينهَا وبينَ الطّباقِ المتوَافِقِ في البيتيْن وهو:

---

*لم نعثر على الديوان .

[1] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص : 270

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 444 .

[3] نفسه، ص : 445 .

[4] ديوان الفرزدق، ص : 396 . وفي النسخة التي اطلعنا عليها جاء قوله : لقد خنتَ قوما لو لجأتَ إليهمُ * طريد دمٍ، أو حاملا ثقل مغرم / لألفيت فيهم مُطعما ومُطاعنا * وراءك شَزْرًا بالوشيج المقوّم .

طريدَ دَمٍ ـــــــــــــــمُطَاعِنَا / حاملَ ثِقْلٍ ـــــــــــــــمُعْطِيَا

وهذا المثالُ نظيرُ مثالِ المقابَلَةِ التَّالي:

أَسَرْنَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا

فَمَا صَبَرُوا لِبَأْسٍ عِنْدَ حَرْبٍ وَلَا أَدَّوْا لِحُسْنِ يَدٍ ثَوَابَا *

ومتوافق على الشكل التالي:

+ (الأسر والإنعام) - (ثواب حسن اليد)/ + (القتل والإبادة) - (عدم الصبر في الحرب: الجبن)

وهذا المثالُ الأخيرُ يقْرُبُ مِنْ أمثِلَةِ حُسْنِ التقسِيم مِنْ زاوِيَةِ اِستقْصَائِهِ للأحوالِ الممكِنَةِ، فكُلُّ ما يمكِنُ عَمَلُهُ مع هؤلاءِ القومِ هوَ الإنْعَامُ أو القَتْلُ، وهمْ ليْسُوا أهلًا للإنْعَامِ ولَا أكْفَاءَ للدِّفاعِ عَنِ النَّفْسِ"[1] .

**4-ب- التناسُبُ الصوتِيُّ: التوازُنُ:** والذِي يَضُمُّ: 1- خفّةُ اللفظِ، 2- التوازُنُ الإيقاعِيُّ .

**4-ب1- خفَّةُ اللَّفظِ:** تكمُنُ فِي ثلاثةِ شُرُوطٍ مِنْ شُرُوطِ فصاحةِ المفرَدِ عِندَ الخفَّاجِي، وهيَ: الأوَّلُ، والثانِي، والسّابِعُ، إلى خفَّةِ الألفَاظِ علَى السَّمْعِ، إمّا لِخُلُوصِهَا مِنْ تَقَارُبِ المخَارِجِ، كما فِي الشرْطِ الأوَّلِ، أو لِمَزِيَّةٍ فِي التّألِيفِ تُوجِبُ حُسْنًا فِي السَّمعِ تَتَفَاوَتُ بِهِ الكلِمَاتُ المشتَرَكَةُ فِي تباعُدِ المخارِجِ، كمَا فِي الشَّرطِ الثانِي، أو لاعْتِدالِ الكلِمَةِ وكونُها مِنَ المعتَادِ المعرُوفِ مِنْ حيثُ عددُ الحُرُوفِ، كمَا فِي الشَّرطِ السَّابِعِ"[2] .

**4-ب2- التوازُنُ الإيقاعِيُّ:** أدرَجَ اِبنُ سنانٍ كُلَّ ما يتعَلَّقُ بالبِنْيَةِ الصَّوتِيَّةِ فِي الشِّعرِ، تحتَ مفْهُومٍ واحِدٍ، هو المناسَبَةُ بينَ اللّفْظيْنِ مِنْ طَرِيقِ الصِّيغةِ، وتندَرِجُ تحتَهَا المكوّناتُ التَّاليَةُ: 1-

* ينسب هذا البيت للطّرمّاح، لكننا لم نعثر عليه في ديوانه .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 446 .

[2] نفسه، ص : 448 .

السَّجَعُوالازدواجُ،2- القوافِي ومَا يتَّصِلُ بهَا مِنْ تصْرِيعٍ ولُزُومِ مَا لا يَلزَمْ،3- الترْصِيعُ،4- حملُ اللَّفظِ على اللفظِ،5- التوازُنُ بالمقدَارِ،6- المجانَسُ"[1].

هذا ويمكِنُ تلخيصُ دراسَةِ العمرِيّ لبلاغةِ الخفاجِيّ" البلاغة الصوتية " فِي النِّقاطِ التاليةِ:

1- أنَّ بلاغَةَ الخفاجيّ جاءتْ لخِدمَةِ المذهَبِ المعتزِلِي .

2- أنَّهَا بلاغَةٌ عامَّةٌ تُعنَى بالتَّخييلِ والتَّداوُلِ معًا .

3- أنَّ التَّخييلَ فِيها، على الرغمِ مِنْ كونِها عامّةٌ، قدْ غَلبَ على التَّداوُلِ، وذلكَ بِحُكْمِ أنَّ دِراسةَ الصَّوتِ والإِيقاعِ تتَّضحُ في الشّعرِ أكثَر مِنَ النَّثرِ .

4- أنّ الخفاجيَّ، وبِرغمِ محاولَةِ تفادِيهِ للمعْنَى وخدمتِهِ الصّوْتَ، لم يجِدْ بُدًّا مِنَ العودَةِ إلى المعنَى لضرُورَةِ وجودِهِ بلاغِيًّا .

## المبحث الرابع: البلاغَةُ المعضُودةُ بالنّحوِ والمنطِقِ:

فِي دِراسَتِنَا لأُصولِ البلاغةِ العربيّةِ عندَ العمرِيّ، أشرْنَا إلَى أنَّ مِنْ بيْنِ تِلك الأُصولِ" نَقْدُ الشِّعْرِ " عند اِبنِ قتيْبَةَ، ولعلَّنا فِي هَذا المبْحَثُ سنُواجِهُ مُصطَلَحَ النَّقدِ مرَّةً أخرَى، معَ حَازِمِ القرطَاجَنِّي الذِي جَعَلَهُ العمرِيُّ تحتَ عُنوانِ" البلاغة – العلمُ الكليُّ" ، ولذَا يَتَوَجَّبُ علينَا أنْ نوَضِّحَ الفرْقَ بيْنَ المصطلَحَيْنِ، مِنْ خِلالِ ما جاءَ فِي أعمَالِ العُمريّ الذِي يقُولُ: " الحقيقَةُ هي أنَّ البلاغَةَ التِي هِي عِلْمٌ كُلِيٌّ، هي البلاغَةُ النَّقديَّةُ التي تتَصَدَّى للنُّصُوصِ، وليس النَّقْدُ، وقد كانَ شدِيدَ الارتِباطِ بالشِّعرِ غيرَ بُعدٍ مِنْ أبْعَادِهَا "[2]، أيْ أنَّ النَّقدَ معَ اِبنِ قتيْبَةَ نَقْدٌ ظَهَرَ بالمَوَازَاةِ مع ظُهورِ البلاغَةِ، وأمَّا النَّقْدُ فِي عصرِ القرطَاجَنِّي فهو عِلْمٌ مستَقِلٌّ بذاتِهِ، وقدْ أُلِّفَتْ فِيهِ كُتُبٌ عدِيدَةٌ، كـ "عيارِ الشِّعر، ونقْدِ الشعرِ، والموازَنَة، والوسَاطَة ... الخ"، ولكنّ القرطاجَنِّي اِعتبرهُ مكمِّلًا لدَوْرِ البلاغَةِ فِي الدِّراسةِ، لتُصْبِحَ بِذلكِ علْمًا كُلِّيًا .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 449، 450 .

[2] نفسه، ص : 45 .

وعِلاوَةً علَى ذلكَ، فإنَّ البلاغَةَ فِي عصْرِ القرطاجَنِّي تَكُونُ قدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنْ مختَلَفِ العُلومِ الأدبيّة خاصَّةً الفلسفَةَ والمنطِق، وهو ما لمْ يكُنْ متوفِّرًا في العصرِ الجاهِليّ وصدْرِ الإسلامِ؛ وَهذا هُوَ جوهَرُ الاختِلافِ بينَ النَّقدِ عندَ حازِمٍ، والنَّقدِ عند اِبن قتيْبَةَ .

هَذا وتجدُرُ الإشارَةُ إلى أنَّ المقصُودَ بالبلاغَةِ المعضُودَةِ، البَلاغَةُ التِي اِسْتَعَانَتْ بعلْمَي النَّحوِ والمنطِقِ وتَقَوَّتْ بهمَا، وعنهَا يقُول العُمرِيُّ: " أخذْنَا هذا النَّعتَ: المعضُودَةُ، وهوَ غَرِيبٌ إلَى حدٍّ مَا، مِنْ نصِّ كلامِ حَازِمِ القرطاجنِّي، حينَ مَيَّزَ عَرَضًا بينَ مُستويَيْنِ مِنَ البلاغَةِ، البلاغَةُ المعضُودَةُ بالأصُولِ المنطقيَّةِ والحِكَمِيَّةِ، وهيَ البَلاغَةُ التي تسْتَهْوِي الهِمَمَ العالِيَةَ، والبلاغةُ غيرُ المعضُودَةِ، وهيَ التِي تَنْزِلُ إلى حَضيضِ صِناعَاتِ اللِّسانِ الجزئِيَّةِ، المبنِيَّةِ أكثَرُ آرائِهَا علَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ، ومِنَ الأكيدِ أَنَّ حازمًا كانَ يشعُرُ أنَّ البلاغَةَ السَّابقَةَ على عصرِهِ كانَتْ بلاغَاتٍ جزئِيَّةٍ، لأنها تعتَمِدُ هذه الأُصُولَ التي تضمَنُ، وحْدَهَا، الوُصُولَ إلى النِيَّاتِ المشتَرَكَةِ بين الظَّواهِرِ"[1]، وقدْ جَسَّدَهَا العُمريُّ في مفهُومِ" البلاغةُ علمُ الأَدَبِ"دارِسًا بِهِ مشرُوعَ السَّكاكِي، ومفهُومَ" البلاغةُ العِلْمُ الكُلِي " دارِسًا لمشْرُوعِ القرطاجَنِّي .

البلاغة المعضودة = بلاغة السكاكي + بلاغة القرطاجني .

## أولا: البلاغةُ علمُ الأدبِ:– قراءةٌفي كتابِ مفتاحِ العُلُوم للسَّكَاكِي –:

يُعَدُّ السَّكاكِيُّ أوْفَرَ البلاغيّينَ حَظًّا فِي إقبَالِ الدَّارِسِينَ على مُؤَلَّفِهِ" مفتاحُ العُلُومِ"، شَرْحًا، وتحقِيقًا، وتلْخِيصًا، بالإضافةِ إلى الدِّراسَاتِ الأكادِيمِيَّةِ الجامعيَّةِ، والمقالَاتِ البحثيَّةِ لمختلِفِ الباحثِينَ المعاصِرِينَ، ويرَى أحْمَد عبدُ المطَّلِب بأنَّ بلاغَةَ السَّكاكِي " لم تكُنْ إلَّا خُلاصَةَ البلاغَةِ العربيَّةِ علَى مَرِّ عُصُورِهَا، مُنذُ أواخِرِ القرنِ الثَّانِي الهِجريّ، حتى أواخِرِ القرنِ السَّادسِ، بعد أنْ لَعِبَتْ فِي تكوِينِهَا مُؤثِّرَاْت كثِيرَةٌ، منهَا الفلْسَفَةُ، وعلمُ الكلامِ، والأُصُولُ، واتَّضَحَ أنَّ البلاغَةَ التِي دَرَجَتْ علَى دِراسَتِهَا الأجيَالُ، ومازِلْنَا نَدْرُسُهَا فِي معاهِدِنَا وجامِعَاتِنَا، ليستْ إلَّا بلاغَةَ السَّكاكِي

[1] محمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 467 .

التِي أَفْسَدَتْهَا الفَلْسَفَةُ وضيَّقَتْ عليهَا الخِنَاقَ"[1]، وفِي هذا القَوْلِ إِشارَةٌ إلى مَدَى مَوْسوعِيَّةِ الرجُلِ، فِي اِطِّلاعِهِ على مختَلِفِ الدِّراسَاتِ البلاغيَّةِ العربيَّةِ التي سَبَقَتْهُ، ومَزْجِهِ إِيَّاهَا مع الوافِدِ الجدِيدِ مِنَ الدَّراسَاتِ غير العربيَّةِ، وهذَا يُحاكِي عَمَلَ العُمري فِي مَشرُوعِهِ البلاغِيِّ الجَدِيدِ .

كَمَا أنَّ فِي هذا القوْلِ أيضًا، إشارَةٌ إلى اِنتِقادِ الباحِث – أحمد مطلوب – وجودَ المنطِقِ والفلْسَفَةِ فِي بلاغَةِ السَّكاكِيِّ، واِعتِبَارِهِ أَنَّ تأثيرَهُمَا كَانَ جِدُّ سِلْبِيٍّ علَيْهَا .

ولقد كانَ مِنْ بين أهمِّ الموضُوعَاتِ التِي طَرَقَهَا السَّكاكِيُّ، وأضْحَتْ مِنْ بَعْدِهِ وَجْبَةً دَسِمَةً لدَى مختلِفِ الباحِثِين، مسألَةُ" مقتضَى الحالْ"، وهيَ" عبارَةٌ عنْ عنصُرٍ دِلالِيٍّ وتدَاوُلِيٍّ مُهِمٍّ فِي البلاغةِ العربيَّةِ عمُومًا، لا عندَ السَّكاكِي فَحسْبُ، ويُسْهِمُ بشكْلٍ فَعَّالٍ فِي اِستخْلَاصِ المعانِي، وتوْلِيدِ الدِّلَالَاتِ التي تتجاوَزُ المعنَى الحرفِيَّ للجُمَلِ، إلى مَعانٍ ثَوانٍ، تَحْمِلُ دلالاتٍ عقليَّةٍ اِسْتِلزاميَّةٍ، نحوَ التِي يُعالِجُهَا علمُ البيانِ"[2]، كما أنَّها تهتَمُّ بكلِّ ما يَتَقَارَبُ وحَالَ المتلَقِّي، مِنْ ظُرُوفٍ اِجتماعيَّةٍ، ومستَوَى تعلِيمِيٍّ، وحتَّى الجانبَ النَّفسِيَّ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الأُمورِ ...الخ، فعلَى سبِيلِ المثالِ، إذا قُلنَا:" مَا الشُّجاعُ إِلَّا عَلِيٌّ"، فإنَّ هذا المثالَ لَا يمكِنُ النّفاذُ إلَى مَدْلُولِهِ، إلَّا اِنطِلَاقًا ممَّا تَقْتَضِيهِ الحالُ المنَاسِبَةُ، فإنْ كانَ الحدِيثُ عنْ سِيرَةِ عليِّ بنِ أبِي طالِبٍ، فإنَّ الحالَ هنا تقتَضِي أنَّهُ هو المقصُودُ بالشَّجاعَةِ، أمَّا إذا كانَ الحدِيثُ عنْ شَخْصٍ مَا اِسْمُهُ علِيٌّ، فهُو المقصُودُ، وأما إنْ كانَ الحدِيثُ عنِ الشَّجاعَةِ بشَكْلٍ عَام، فهُنا يُغَلَّبُ عليُّ بنُ أبِي طالِبٍ على مَا جَرَتْ علَيْهِ العادَةُ .

كما أنّ للسَّكاكِيِّ أسلُوبًا خاصًّا فِي الكِتابَةِ، أشارَ إليهِ عدِيدُ الباحِثِين، على غِرَارِ الباحثِ العربِيِّ سَالي عبدُ العزِيز، الذي يرى أنَّ أسلُوبَ السَّكاكِي فِي مِفْتَاحِهِ كانَ" أسلُوبَ العالِمِ لَا أُسْلُوبَ الأدِيبِ، فقدْ غَمَرَ الكتابَ بنظْرَتِهِ الفلسَفِيَّةَ، وإخضاعِ المسائِلِ البلاغيَّةِ لعِلَمِ المنطِقِ، فهُو لم يَكُنْ يهدِفُ إلى النَّاحِيَةِ الجماليَّةِ، وإنَّما إلى القَوَاعِدِ والأُسُسِ"[3]، ونحنُ نرَى أنّهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ جِدًّا

[1] أحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، منشورات مكبة النهضة، بغداد، العراق، الطبعة الأولى، 1384هـ/1964م، ص: 400

[2] باديس لهويمل، السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلم، متابعة تداولية، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، العدد09-2013م، ص: 179 .

[3] سالي عبد العزيز أحمد الحاج، جهود السكاكي في علم البيان(ت626هـ)، رسالة ماجيستير، إشراف: د. عبد الرحمن عطا المنان محمَّد، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، السنة الجامعية 1430-1431هـ/2008-2009م، ص: 13 .

أنْ يكُونَ أسلُوبُ السكاكِي أقْرَبَ إلى العَالِمِ منهُ إلَى الأدِيبِ، ذلكَ أنَّهُ عالِمُ بلاغَةٍ، وكتابُهُ هذا كتَابٌ بلَاغِيٌّ، وبالتَّالِي لا يَكُونُ للجَانِبِ الأدبِيّ إلىَ أُسْلُوبِهِ أيُّ سَبِيلٍ .

وعنْ دراسَةِ العمري لمشرُوعِ السَّكاكِي، فإنَّها تَتَعَلَّقُ هيَ الأُخرَى بكتَابِهِ" مفتاحُ العُلُومِ"، الذِي جاءَ لتنْظِيمِ الدَّرسِ البَلاغِيّ، وتبسِيطِهِ لِيَكُونَ في مُتَنَاوُلِ النَّاشئَةِ، وذلكَ مِنْ أجلِ التَكَيُّفِ معَ متطلَّبَاتِ عصرِ السَّكاكِي، كما أَنَّ التَّجدِيدَ عندَ العُمريَّ مِنْ متطلَّبَاتِ هذا العصرِ، وعنهُ يقول: " اشتُهرَ السَّكاكيُّ في تارِيخِ الثقافَةِ العربيَّةِ بقراءَتِهِ الخاصَّةِ للبلاغَةِ العربيَّةِ، تلك القراءَةُ التِي صُنِّفَتْ مباحِثُهَا إلى مَعَانٍ وبَيَانٍ وبَدِيعٍ، وقد ثُبِّتَ هذا التَّقْوِيمُ للرجُلِ ولِعَمَلِهِ، فاستَقَرَّ مِنْ خلالِ الشُّرُوحِ القويَّةِ التِي تَنَاوَلَتِ الجُزءَ البلاغِيَّ مِنْ كتابِهِ مِفتاحُ العُلومِ، خاصَّةً" الإيضاحُ فِي علُومِ البلاغَةِ" للقزوِينِي الذِي أحْكَمَ القراءَةَ البلاغِيَّةَ للسَّكَاكِي بالرُّجُوعِ بِهِ إلى أصُولِهِ، إلى عَمَلِ عبدِ القاهرِ الجرجانِي في الدَّلائلِ والأسرارِ"[1]، وقدْ قسَّمَ العُمريُّ دراسَتَهُ لهذا الكتابِ علَى خمْسَةِ محاوِرَ هِيَ: 1- مفهُومَ الأدبَ عندَ السَّكاكِي، 2- وَظَائِفُ عِلمْ الأدبِ عندَ السَّكَاكِي، 3- أسَاسُ مشرُوعِ السَّكَاكِي، 4- دَائِرَةُ البلاغَةِ عند السَّكاكِي، 5- بلاغَةُ الانْزِيَاحِ عند السَّكاكِي .

**1- مفهومُ علمِ الأدبِ عندَ السَّكَاكِي:** لقدْ بيَّن العُمري مِنْ خِلالِ دِرَاسَتِهِ، أنَّ مَفْهُومَ الأدبِ عندَ السَّكاكِي لا يُعنَى بِهِ المفهُومَ المتدَاوَلَ عنْدَنَا اليَوْمَ، أيْ الأدبُ الجاهِلِيُّ، وصدرُ الإسْلامِ، والأمَوِيُّ، والعباسِيُّ، والأندلُسِيُّ ... الخ، الذِي يَتَنَاوَلُ مجمُوعَ مَا أُنْتِجَ مِنْ شعرٍ ونثرٍ فِي مختَلَفِ هاتِهِ العُصُورِ، إضافَةً إلى مَعرِفَةِ أحوالِ النَّاسِ فِيهَا، ثقافِيًّا، وسيَاسِيًّا، واجتِماعِيًّا، ودينِيًّا ... الخ .

فهذا الأدبُ المذكُورُ لا يقصِدُهُ السَّكَاكِيُّ، بل يقصِدُ مجمُوعَ المعارِفِ اللُّغويَّةِ، والأدبيَّةِ التِي وَصَلَ إلَيْهَا العِلْمُ فِي عَصْرِهِ، ولذَا يَصِفُ أدبَ السَّكاكِي بأنَّهُ " يبدأُ مِنْ عِلمَيِ الصَّرْفِ والنَّحْو، ثمَّ يَتَوَسَّعُ إلى عِلْمَيِ المعانِي والبَيانِ ومَا يقتَضِيَانِهِ أوْ يَطْلُبَانِهِ مِنْ مباحِثِ الاستِدلالِ والشِّعرِ"[2]، وهُنا نُلاحِظُ أَنَّ العمرِيَّ لم يغْفَلْ عنْ علْمِ البلاغَةِ ولا الفلسَفَةِ فِي هذا التَّعرِيفِ، مُستدِلًّا على ذلِكَ بما ذَهَبَ إلَيْهِ السكاكِيُّ في قولِهِ: " وقدْ ضَمَّنْتُ كِتَابِي هذا مِنْ أنواعِ الأدبِ، دونَ اللُّغةِ، ما رأيْتُهُ لابُدَّ منْهُ، وهيَ عدةُ أنواعٍ متآخِذَةٍ، فأوْدَعْتُهُ عِلْمَ الصَّرفِ بِتَمَامِهِ، وأنه لا يَتِمُّ إلا بالاشتِقَاقِ المتنَوِّعِ إلى

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 479 .

[2] نفسه، ص : 467.

أنواعِهِ الثَّلاثَةِ، وقد كَشَفْتُ عنها القِناعَ؛ وأَوْرَدْتُ علمَ النّحوِ بِتَمامِهِ، وتَمَامُهُ بعلمَيِ المعانِي والبيانِ"[1]، ومِنْ هذا التعريفِ يتَّضِحُ أنَّ السَّكاكِي بَنَى كتابَهُ على أساسَيْنِ هما : " الصرفُ بِتَمَامِهِ، وتمامُه علم الاشتقاقِ، والنحو بتمامِهِ، وتمامُه بعلمي المعاني والبيان، غير أنَّه سُرعانَ ما رأى أنَّ عِلميِ المعانِي والبيانِ المتمِّمَانِ- في تصوُّرِهِ الأوَّلِي – لعلمِ النَّحوِ، جديرانِ بأنْ يَنْفَرِدَا بمبحثٍ خَاصٍّ مُسْتَقِلٍّ إلى جانِبِ الصَّرفِ والنحوِ، فانزاحَ عنِ التَّقْسيمِ الثُّنائِيِّ إلى تقسيمٍ ثلاثِيٍّ بَانِيًا كتابَهُ مِنْ ثَلَاثَةِ أقسَامٍ هي : علمُ الصَّرفِ، وعلمُ النّحوِ، وعلمَا المعانِي والبيانِ"[2] .

ولقد كانَ تركِيزُ العمريِّ على علمِ الأدبِ، لكيْ يبيّنَ أنَّ البلاغَةَ عند السَّكاكِي كانَتْ شَامِلَةً لعلومٍ أخرَى كالنَّحوِ والفَلسَفَةِ، غير أنّها مَا فَتِئَتْ تَتَقَزَّمُ فيما بَعدُ فِي العلومِ الثَّلاثَةِ التِي نَعْرِفُها اليومَ .

**2-وظائِفُ علمِ الأدبِ عندَ السَّكاكِي**: تتحدَّدُ هاتِهِ الوظائِفُ عند العمَرِي في ثلاثةِ مستوَيَاتٍ هِيَ:[3]

**2-أ- المستوَى الأدْنَى**: وهو مُستَوَى المعرفةِ الأوليَّةِ بالموضُوعِ، وإدراكِ بعضِ مفاهِيمِهِ ومُصْطَلَحَاتِهِ، وهُو أمرٌ مُتَيَسِّرٌ، لأنهُ لا يَصِلُ إلى مُستوَى مُعَانَاةِ النُّصوصِ لَا إنتاجًا ولَا تَلَقِّيًا .

**2-ب-المستوَى الأوْسَطُ**: وهوَ مُستَوَى إنْتاجُ النُّصُوص الأدبيَّةِ، أيْ النُّصوصُ السَّلِيمَةُ، والذِي يقُومُ على الاحْتِرازِ مِنْ الأخطَاءِ وسُلُوكِ طرِيقِ الصَّوابِ، وهذا المستَوَى هُوَ الغرضُ الأوَّلُ والأسَاسُ لعلْم الأَدَبِ .

**2-جـ- المستَوَى الأعْلَى**: وهوَ مُستَوَى الطُّمُوحِ إلى تحْقِيقِ مَزِيَّةٍ إضَافِيَّةٍ للصَّوَابِ، كالفهَمِ، أوِ التّأَوِيلِ لكلامِ الله تَعالَى .

---

[1] السكاكي، مفتاح العلوم، تح : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1407هـ/1987م،ص : 06

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 468، 469 .

[3] نفسه، ص : 470 .

وما يُمكِنُ مُلَاحَظَتُهُ مِنْ خلالِ هذِهِ المستوَيَاتِ، أَنَّ السَّكاكِيَّ كانَ يسعَى إِلَى صِناعَةِ الفَرْدِ القادِرِ عَلَى إدرَاكِ مُخْتَلِفِ عُلُومِ عصرِهِ اللُّغويَّةِ والأدبيَّةِ، حتى يكُونَ بَلِيغًا بِحَقٍّ، ولهذا يَقُولُ في نَصٍّ آخَرَ: " اِعْلَمْ أَنَّ عِلْمَ الأدَبِ متَى كانَ الحَامِلُ علَى الخَوْضِ فِيهِ مجرَّدُ الوُقُوفِ علَى بعضِ الأوضَاعِ، وشيءٍ مِنَ الاصطِلَاحَاتِ، فَهُوَ لدَيكَ عَلَى طَرَفِ التَّمَامِ، أمَّا إِذَا خُضْتَ فِيهِ لِهِمَّةٍ تَبْعَثُكَ علَى الاحتِرازِ عَنِ الخطَأ فِي العربيَّةِ، وسُلُوكِ جَادَّةِ الصَّوَابِ فِيهَا، اِعترَضَ دُونَكَ مِنْهُ أنْواعُ التَّلَقِي لِأَدْنَاهَا عِرْقَ القِرْبَةِ، لاسِيَمَا إذا اِنْضَمَّ إِلَى هِمَّتِكَ الشَّغَفُ بالتَّلَقِي لمرادِ الله تعالى مِنْ كلَامِهِ، الذِي لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بينِ يَديهِ ولَا مِنْ خَلْفِهِ، فهنَاك يَسْتَقْبِلُكَ منهَا مَا لَا يَبْعُدُ أنْ يُرجعَكَ القَهْقَرَى "[1].

**3- المعانِي والبيانُ أساسُ مشرُوعِ السَّكاكِي:** أساسُ مشرُوعِ السَّكاكِي هوَ عِلْمَا المعَانِي والبَيانِ، اللَّذَيْنِ جَعَلَ منهُما "تَتْمِيمًا للنَّحوِ كما سَبَق ذكرُهُ، ثم اِنْتَبَهَ إلى أنَّ المعانِيَ قائِمةٌ على عِلمِ الحُدُود والاستِدلالِ، فخَاضَ فِيهِما تكمِيلًا لمرَادِهِ، وهوَ مَا يُوَضِّحُهُ العمريُّ مِنْ خلالِ الخُطاطَةِ التَّاليَةِ:

النحو ← المعاني ← الحد والاستدلال

وبذلِكَ يَكُونُ السَّكاكِيُّ قد جَعَلَ النحوَ والاستِدْلَالَ على حَدٍّ سواءٍ في خِدْمَةِ طَرَفٍ ثالِثٍ موجُودٍ بينهُمَا، هو عِلْمُ المعانِي مُكمَّلًا بعلْمِ البيَانِ، مِنْ خلالِ إيجادِ المِنْطقَةِ التِي لمْ يستَطِعِ النُّحاةُ والمناطِقَةُ الأوائِلُ التَّفاوُضَ الإيجَابِيَّ حَوْلَهَا، وفي هذا المجالِ اِعتُرِفَ للسَّكَاكِي بالأصَالَةِ والتَّجْدِيدِ .

إنَّ علمَ المعانِي والبَيانِ في مُنجَزِ السَّكاكِي، مِنْطَقَةٌ حَمِيمَةٌ يتسَرَّبُ منهَا المنطِقُ إلى النَّحوِ، والنَّحْوُ إلى المنطِقِ، ولذلِك نَرَى- يقول العمري - أنّ خُطاطَةَ المنجَزِ فِي المفتَاحِ تقتَضِي قَلْبَ اِتجَاهِ السَّهْمِ بين النَّحوِ والمعانِي:

النحو ← المعاني والبيان ← الحد والاستدلال

وحينَ يُهَيْمِنُ هذا التَّصوُّرُ ويصبِحُ مُنجَزًا، تَظْهَرُ كَلِمَةُ" بلاغة "[2].

[1] السكاكي، مفتاح العلوم، ص : 07 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 471، 472 .

ولعل اِعْتِبَارَ السَّكاكِي عِلْمَا المعانِي والبيَانِ أَسَاسَ مَفْهُومِ البلاغَةِ عندَهُ، هُوَ السَّبَبُ الذِي أَدَّى إلى اِنْحِصَارِهَا فِيهِمَا، مَعَ عِلْمِ البدِيعِ أيْضًا، دُونَ بَقِيَّةِ العُلُومِ .

**4- دائرةُ البلاغةِ عندَ السَّكاكِي:** واِعتبارًا بما سَبَقَ ذكرُهُ، فإنَّ بلاغَةَ السَّكَاكِي، كما يَصِفُهَا العُمَرِيُّ" تقَعُ عند تَقَاطُعِ ثلاثَةِ مباحِثَ مُتَدَاخِلَةً ومُتَنَافِرَةً فِي الوقتِ نَفْسِهِ، هي النَّحوُ والمنطقُ والشِّعرُ، وبذلِك يمكِنُ تمثِيلُ بلاغةِ السَّكَاكِي بالتقَاطُعةِ التَّالِيَةِ:

| | الشعر ( البديع ) | |
|---|---|---|
| المنطق ( الاستدلال ) | البلاغة ( المعاني والبيان ) | النحو |

إنَّ البلاغَةَ عندَ السَّكاكِي هِيَ- بالدَّرجةِ الأُولى - بلاغةُ المعانِي والبَيَانِ، وهي معضُودَةٌ بالنَّحوِ والمنطِقِ، فالمعانِي تَسْتَعْمِلُ" المفاهِيمَ والمصطَلَحَاتِ النَّحْوِيَّةِ، فِي وَصفِ الإجْرَاءَاتِ التركِيبِيَّةِ التِي تَتَطَلَّبُهَا مُلَاءَمَةُ الكلامِ للأحْوالِ، وتحتاجُ إلى التَّحدِيدِ المنطِقِيّ للمفَاهِيمِ، وتقَعُ المعانِي بينَ النَّحْوِ والمنطِقِ، مجالُهَا التطبِيقِيُّ المثالِيُّ، الخطابُ الإقناعِيُّ المرتَبِطُ بمقدِّمَاتٍ ملمُوسَةٍ محدَّدَةٍ تُسَاهِمُ في تشكِيلِ الخطابِ"[1]، أمَّا البيانُ، فهُو ينْتَمِي إلَى جوْهَرِ العمليَّاتِ الاسْتِدَلَالِيَّةِ، وهو يَقَعُ فِي منطقةٍ بينَ الشعرِ والمنطِقِ، بين وظِيفةِ التَّخييلِ ووظِيفَةِ المعرِفَةِ والاسْتِدْلَالِ"[2]، وأمَّا البديعُ، فقدْ جَعَلَهُ السَّكاكِيُّ فِي مرتبَةٍ مُتَدَنِّيَةٍ مِنْ علومِ البلاغَةِ، وهو الذِي ينحَصِرُ دَوْرُهُ في مُساعَدَةِ علمَيِ المعانِي والبَيانِ عَلَى تَفْعِيلِ وُجُودِهِمَا، وهذا ما ذَهبَ إليهِ العمَرِيُّ في قولِهِ: " هَكذَا تَحِلُّ البلاغَةُ( أي المعانِي والبيانِ مدْمَجَيْنِ)مَحَلَّ الصّدارةِ، وتَصِيرُ العلومِ الأخرَى مُسَاعِدَةً لها، اِبتداءً مِنَ النَّحوِ وانتهَاءً بالمنطِقِ والشِّعرِ ممثلا بالعَرُوضِ والقافيَةِ، بل وبالبَدِيعِ أيضًا .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 477 .

[2] نفسه، ص : 476 .

إنَّ ما قَدَّمَهُ السَّكاكيُّ في النَّحوِ والمنطِقِ والعروضِ والقافيَةِ، لم يُحِلَّهُ أوْ لم يُحَقِّقْ لهُ أيَّ مكانَةٍ بينَ أعلامِ تلكَ العُلومِ، لأنَّ مَا قَدَّمَهُ هناك لا يَحْمِلُ بَصَمَاتِهِ بِوُضُوحٍ، وذلك بخِلافِ صِيَاغَتِهِ لِعِلْمَيِ المعانِي والبيانِ، وبذلِكَ نُسِيَ مَشْرُوعُهُ الذي أعْلَنَ عنهُ في الصّفحاتِ الأُولى مِنَ الكتابِ: عِلْمُ الأَدَبِ، وحُفِظَ مُنْجَزُهُ الذِي لمْ يَأْخُذِ اِسْمَ البلاغَةِ إلَّا بعدَ الانْتِهَاءِ منهُ"[1].

**5- بلاغَةُ الانزياحِ عند السَّكاكيّ**: إذا كانَ مفهُومُ الانزِياحِ- اِنطلاقًا مِنَ الاتِّجاهِ النّحويّ - عند سيبوَيْه يتجَسَّدُ فِي الحدِيثِ عَنِ التَّوَسُّعِ، وعند أبِي عُبَيْدَةَ فِي المجازِ، وعند اِبنِ جِنّي في شجاعَةِ العربيَّةِ، فإنَّهُ عندَ السَّكَاكِي يتجسّدُ في رَصْدِ الأُصُول، وصُوَرِ الخُروجِ عنهَا، تحتَ تأثِيرِ المقامَاتِ"[2]، فالنَّحوُ والمعانِي يلتقِيَانِ فِي وظيفَةِ تَأْدِيَةِ المعنَى، غيرَ أَنَّ المعنَى الذِي يُؤَدِّيهِ هذا ليْسَ المعنَى الذِي يُؤَدِّيهِ ذَاكَ، فالنَّحوُ يؤَدِّي أصْلَ المعنَى مُطْلَقًا، ومَصْدَرَ المقاييسِ المعْتَمَدَةِ فِي تحدِيدِ هذا الأصْلِ" اِستقراءُ كلامِ العربِ" لاستِنْبَاطِ الـ " قوانِينِ"، أما المعانِي فَتَرْصُدُ الإفادَةَ ومَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ الاسْتِحْسَانِ وغيرِهِ"[3] .

ومنْ هنا نَقُول بأنَّ بلاغَةَ الانزِياحِ عند السَّكاكِيّ تَتَجَسَّدُ في:

**أ-خُرُوجُ المعانِي عَنِ النّحو**: وهوَ مَا حَدَّدَهُ العُمرِيُّ في ثلاثةِ وظائِفَ للمَعَانِي تَحِيدُ بها عَنِ النَّحو، وهي زيادَةُ الفائِدَةِ، والاستحسانُ، والإقناعُ"[4].

**ب-الدلالةُ الوضعيّةُ والدلالةُ الاستلزاميّةُ**: يشيرُ مصطلَحُ" الدّلالَةُ الوضعيّةُ " إلى المعنَى المنْزَلِ في بابِ البلاغةِ مَنْزِلَةَ أصواتِ الحيوانَاتِ، ويشيرُ مصطلَحُ " الدّلالَةُ الاستلزاميَّةُ" إلى ما تقتضِيهِ حالُ المخاطَبِ مِنْ خُروجٍ عَنِ السِّياقِ المألُوفِ مُرَاعَاةً لَهُ( أيْ مراعَاةً لهذا المخاطَبِ)، ولقد سَاقَ العُمرِيُّ في هذا الشّأنِ قول السّكاكِي: " إنّ مُقتضَى الحالِ عندَ المتكلِّمِ يتفاوَتُ كما سَتَقِفُ عليهِ إذا أفْضَتِ النَّوْبَةُ إلى التعرُّضِ له مِنْ هذا الكِتابِ، بإذن الله تعالى، فتارَةً تقتضِي ما لا يَفْتَقِرُ في تأدِيَتِهِ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 472 .

[2] نفسه، ص : 487 .

[3] نفسه، ص : 479 .

[4] نفسه، ص : 480 .

إلى أَزْيَدَ مِنْ دِلَالَاتٍ وضعِيَّةٍ، وألفاظٍ كيفَ كانَتْ، ونُظِمَ لها لمجَرَّدِ* التأليفِ بينهَا، يُخْرِجُهَا عنْ حُكْمِ المعِيقِ، وهو الذِي سَمَّيْنَاهُ في علمِ النحوِ، أصلُ المعنَى، ونزَّلْنَاهُ هَهُنَا مَنْزِلَةَ أصواتِ الحيوانَاتِ، وأخرَى مَا تَفْتَقِرُ فِي تَأْدِيَتِهِ إلى أزيدَ"[1]، وهذا هُو المستَوَى البلاغِيُّ المدرُوسُ في مَبَاحِثِ الإنشاءِ والخَبَرِ، مما لا يُسْعِفُ هذا السِّيَاقَ تَتَبُّعُهُ، وبهذا تدْخُلُ المباحِثُ التركِيبِيُّةُ في بابِ المجازِ، باعتبارِهَا زِيادَةٌ على مَا تَقْتَضِيهِ الدِّلَالَةُ الوضْعِيَّةُ، ومِنْ أَقْرَبِ ذلك للتَّمْثِيلِ، خروجُ الأمرِ والنَّهيِ والاستفهَامِ عَنْ مَعْنَى ظاهِرِ اللَّفْظِ"[2]

**جـ-هيمَنَةُ النّحو والمنطِقِ علَى الوظائِفِ الدّلاليّةِ:** برغْمِ الانقِلابِ الذِي وَقَعَ داخِلَ مِفتاحِ العُلُومِ بانتقَالِ المركزِ مِنَ الصَّرْفِ والنَّحْوِ إلى عِلْمَيِ المعانِي والبيانِ، وظُهُورِ البلاغَةِ لتَعنِيَ ما عَنَاهُ علمُ الأَدَبِ فِي المشْرُوعِ الأوَّلِ، فَإِنَّ الانطِلَاقَ مِنَ النَّحوِ ومِنَ المفهُومِ الذِي أُعطِي لعِلْمِ الأدَبِ: التَّحَرُّزُ مِنَ الخطأ، قدْ جعلهُمَا يَبْسُطَانِ ظِلَالَهُمَا على صِيَاغَةِ السَّكَاكِي للبلاغةِ العربيّةِ، أَضِفْ إلى ذلِك مُحاوَلَةَ صِياغَةِ التَّحويلاتِ الدِّلاليَّةِ صياغَةً اِستِدلالِيَّةً منطِقيَّةً"[3].

وقدْ وَضَّحَ العُمرِيُّ هاتِهِ الهيمنَةِ مِنْ خلالِ زاوِيَتَيْنِ اِثنتيْنِ هما: تقدِيمُ المقُولاتِ النحويَّةِ على الوَظائفِ البلاغيّةِ، وتغيِيبُ النُّصوصِ والحرَكَةِ الأدبيَّةِ .

* **تقديمُ المقولاتِ النّحويّةِ على الوظائِفِ البلاغيّةِ:** فعلَى سبِيلِ المثالِ، نجِدُ أَنَّ السَّكاكِي قدْ شُغِلَ بطبِيعةِ المحْذُوف بالتفرِيقِ بين المحذُوفِ، وحذْفِ المسنَدِ إليْهِ، كما يميّزُ بينَ حَذْفِ المسنَدِ إليْهِ المبتَدَأ وحذْفِ المسنَدِ إليه الفاعِلِ ، وهكذا ...، دون بيانِ الفرْقِ بينَ أنْ يكُونَ المحذُوفُ مِنْ هذهِ الفِئَةِ أوْ تِلكَ، والحالُ أنَّ التَّصنِيفَ البَلَاغِيَّ يقتَضِي بَيَانَ وَظِيفَةِ الحذْفِ لَا بيانَ اِسْمِ المحذُوفِ، فالذِي يَشْغَلُ البلاغيَّ أصْلًا هو لماذَا حَذَفَ المحذُوفَ، ولماذا قدَّمَ المقدَّمَ أو أخَّرَ المؤَخَّرَ ؟، وليسَ كونَهُ مبتَدَأً أو خبرًا أو فاعِلًا أو مفْعُولًا بهِ، أو غيرَ ذلِك مِنَ المقُولَاتِ النَّحوِيَةِ"[4] .

---

*في المفتاح : " المجرد " .

[1] السكاكي، مفتاح العلوم، ص : 163 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 481 .

[3] نفسه، ص : 483 .

[4] نفسه، ص : 483 .

*تغييبُ النُّصوصِ والحرَكةِ الأدبيَّةِ: اللَّذانِ كانَا مَصدَرًا لتَغْذِيَةِ البدِيعِ ونَقدِ الشِّعرِ، وهو أمرٌ تَرَتَّبَعنِ المعالجَةِ النّحويَّةِ الصرفِ"[1].

**ثانيا: البلاغةُ العلمُ الكُلِيُّ: – قراءَةٌ فِي كتابِ" منهاجُ البلغاءِ" لحازمٍ القرطَاجَنِّي –:**

لقدْ وَصَلَتِ البَلاغةُ معَ حازمٍ القرْطاجَنِّي إلى درجَةِ النُّضْجِ، ولِذلِكَ وَصَفَهَا العُمَرِيُّ بالعلْمِ الكُلِّيِّ، والأمرُ راجِعٌ إلى طبِيعةِ العصْرِ الذِي عاشَ فِيهِ القرطَاجَنِّي، مِنْ جِهَةٍ، وإلى ثَقَافَةِ القرْطاجَنِّي، البلاغيَّةِ، والأدبيَّةِ، وغيرِهَا ...، مِنْ جِهَةٍ أخرَى، فبالنِّسبةِ لحازمٍ، فهو – كما تقول الباحِثَةُ بُشرى عبْدُ المجيدِ تَاكْفَرَاسِتْ–: " قارئٌ ومتلَقٍّ نموذَجِيٌّ، اِعتمَدَ على اِستراتِيجِيَّةِ التعاوُنِ النَّصِي، وذلِكَ بِتَحْيِينِ القراءَاتِ السَّالِفَةِ، وتَأْثِيثِ الفراغَاتِ والبياضَاتِ المترُوكَةِ، وذلِكَ بِلُجُوئِهِ إلى تأْطِيرٍ معرِفِيّ تقوِيمِيّ تحوِيلًا وتحوِيرًا، وقَلْبًا وقِرَاءَةً"[2]، كما يرى الباحثُ شادِي عبدُ الرَّشِيدِ بأَنَّ حازمًا" يمثِّلُ علامَةً فارِقَةً، وسابِقَةً فِكْرِيَّةً، فِي التُّراثِ النَّقدِيّ والبلاغِيّ العربِي، حيثُ اِستطَاعَ أنْ يُبرهِنُ على وُجُودهِ وتميُّزِهِ، مِنْ خلالِ إرسَائِهِ المصطَلَحَ البَلَاغِيَّ، فقدْ ساهَمَ بمَوْسُوعِيَّتِهِ الفكرِيَّةِ العربِيَّةِ، واِطِّلَاعِهِ على الثَّقَافَاتِ الأُخرَى، فِي تَوْلِيدِ مُصطلَحَاتٍ متنوِّعَةٍ وكثِيرَةٍ، فجاءَ كتابُهُ" المنهاج" زاخِرًا بالمصطلَحَاتِ البلاغيَّةِ، والنَّقديَّةِ، والعرُوضيَّةِ، والأسلوبِيَّةِ، والفلسفِيَّةِ "[3]، وعنْ مَنْهَجِهِ فِي الكتابَةَ تقول الباحِثَةُ خديجة كْلَاتَمَة: " لقدْ كان حازمُ فِي مِنْهَاجِهِ، يسْلُكُ سُبُلًا اِستِدْلَالِيَّةً حِجَاجِيَّةً مُتَنَوِّعَةً، مَزَجَ فِيهَا بينَ الآليَّاتِ الاستِدْلَاليَّةِ المنطقيَّةِ، والآليَّاتِ الاستدلاليَّةِ الإسلامِيَّةِ الخالِصَةِ، ولم يكُنْ باتِّخاذِها لآليَّاتِ المنطقيَّةِ للاستدْلَالِ على قضاياهُ وإِثْبَاتِهَا منطقِيًّا صَارِمًا، حيثُ يعتمِدُ القوانِينَ المنطقيَّةِ فِي عَرْضِهِ الدَّليلَ، ويهتَمُّ بشكلِ الاستدْلِالِ وضبْطِ عَنَاصِرِهِ، بل كانَ على وَعْيٍ أنَّهُ أمامَ خِطابٍ طبِيعِيّ يفرِضُ عليهِ أسْلُوبًا مَرِنًا فِي الاستدْلَالِ، كما كانَ يُدركُ أَنَّ القواعِدَ التِي يخضَعُ لها هَذَا الخطابُ غيرُ القواعِدِ الصُّورِيَّةِ التي يفرِضُهَا المنطِقُ، وعليهِ تطوِيُع هذِهِ القواعِدِ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 484 .

[2] بشرى عبد المجيد تاكفراست، التلقي في النقد العربي القديم، حازم القرطاجني نموذجا، مجلة التواصل الأدبي، جامعة عنابة العدد06–جوان2011م، ص: 148 .

[3] شادي عبد الرشيد، المصطلح البلاغي في التراث العربي القديم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني أنموذجا، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، المجلد12، العدد02–2020م، ص: 1055 .

وِفْقَ خَصَائِصِ الخطابِ الطَّبِيعِيّ"[1]، ويرى الباحِثُ نجمْ مجِيدْ علِي مهدِي في ذاتِ الصَّدَدِ، أنَّ" الأسلوبَ عندَ حازِمٍ يشمَلُ جانِبًا مِنَ البِنَاءِ اللُّغوِيّ، يَتَعَلَّقُ بالأحوالِ المعنويَّةِ، فِي حينٍ يخْتَصُّ النَّظمُ بالتأليفَاتِ اللَّفظِيَّةِ، ويُلاحَظُ على الأسلُوبِ حُسْنُ الاطِّرَادِ، والتَّناسُبُ، والتلطُّفُ فِي الانتِقالِ مِنْ جهةٍ أُخرَى، ويُلاحَظُ في النَّظمِ أيضًا حُسْنُ الاطِّرَادِ مِنْ بعضِ العبارَاتِ، وهوَ الذِي يَخْلِطُ بين مفهومِ أرسْطُو للأُسلوبِ، ومفهُومِ عبدِ القاهِرِ الجرجَانِيّ في نظريَّتِهِ فِي النَّظمِ"[2] .

وجميعُ هاتِهِ الأقوالِ، قدْ كَشَفَتْ لَنَا عَنْرَجُلٍ لَهُ بَاعٌ كبِيرٌ، وقَدَمٌ رَاسِخَةٌ فِي البلاغَةِ العربيَّةِ، مَا يدلُّ قَطْعًا علَى أنَّ اِهتِمَامَ العُمرِيَّ بعمَلِ حازِمٍ، وَوَصْفِهِ إِيَّاهُ بالعلْمِ الكُلِّي، لم يكُن على وَجهِ الصُّدفَةِ، أو الاعتبَاطِ، وإنما كانَ لهُ دوافِعُ موضُوعِيَّةٌ، وعلميَّةٌ، تُؤَهِّلُهُ بِحَقٍّ لنَيْلِ تلكَ المرتَبَةِ .

وقد تناوَلَ العُمريُّ، في خِضَمِّ دراسَتِهِ لِعَمَلِ القرطَاجَنِّي سبعَةَ محاوِرَ هِيَ: 1- نظرَةٌ فِي مشرُوعِ حازِمٍ القرطاجَنِّي، 2- البلاغَةُ عندَ حازِمٍ القرطاجَنِّي، 3- عرضُ خطَّةِ مِنهاجِ البُلغاءِ وسِراجِ الأُدباءِ للقرطاجَنِّي، 4- نقدُ خطَّةِ المنهَاجِ، 5- تداخُلُ مَنَاهِجِ الكتابِ( منهاجُ البُلغاءِ)، 6- الرُّؤيَةُ الشِّعريَّةُ عندَ حازِمٍ القرطاجَنِّي، 7- التَّقاطُعُ بين الشِّعرِ والخَطَابَةِ عندَ حازِمٍ القرطَاجَنِّي .

**1-نظرةٌ فِي مشرُوعُ حازِمٍ:** لم يَصِلْنَا مِنْكتابِ مِنهاجِ البُلغاءِللقرْطَاجَنِّيقِسْمُهُ الأوَّلُ، ولذلكَ يَرَى العُمرِيُّ أنَّنَا " نحتاجُ إِلَى تَصَوُّرٍ ولَوْ نِسْبِيٍّ لمادَّةِ هذا القِسْمِ، وما يَكُونُ قدْ سَبَقَهُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ عامَّةٍ لكيْ نَتَحَدَّثَ عَنْ مَشْرُوعِ حَازِمٍ"[3]،كذلِك يَرَى بِأَنَّ حازِمًا" يَعْتَبِرُ عَمَلَهُ تكمِيلاً لعَمَلِ الحُكَمَاءِ الذِينَ تَناوَلُوا مَوْضُوعَ" الشعريَّةِ"، وذلكَ مِنْ حَيْثُ نَظَرُهُ فِي الكُلِيَّاتِ علَى ضوْءِ مَتْنٍ إِضَافِيٍّ غَنِيٍّ، وتخصِيصًا له مِنْ حيْثُ تَوْجِيهُ القوانِينِ البلاغيَّةِ نحوَ الخُصوصِيَّةِ الشِّعريَّةِ لِشِعْرِ أُمَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، أيْ الشِّعْرُ العَرَبِيُّ"[4].

---

[1] خديجة كلاتمة، آليات الاستدلال الحجاجي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، العدد08-2012م، ص: 188.

[2] نجم مجيد علي مهدي، الجهود النقدية لحازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، العراق، العدد2011/70م، ص: 123، 124 .

[3] نفسه، ص : 485 .

[4] نفسه، ص : 486 .

ومِنْ هَذَا كُلِّهِ نَسْتَطِيعُ القوْلَ بِأَنَّ القرْطَاجَنِّي اِعْتَمَدَ علَى دَعَامَتَيْنِ اِثْنَتَيْنِ لِبِنَاءِ مَشْرُوعِهِ البَلَاغِيِّ الممثَّلِ فِي " البلاغةِ العِلْمِ الكُلِّي " وهُمَا: الدِّراسَاتُ العربيَّةُ، والبَلَاغَةُ اليُونانيَّةُ .

**أ- الدراسَاتُ العربيَّةُ:** وذلِك مِنْ خلالِ سَعْيِهِ إلى تَتْمِيمِ مَشْرُوعِالسَكَّاكِي .

**ب- البلاغَةُ اليُونانيَّةُ:** وكانَ اِطِّلَاعُهُ عليْهَا إمَّا اِطِّلَاعًا مباشِرًا أو عنْ طرِيقِ الاستِعَانَةِ بتَرْجَمَاتِ الفلاسِفَةِ العرَبِ، وفِي هذَا الصَّدَدِ يرَى العُمَرِيُّ بِأَنَّ حَازِمًا " اِسْتَوْعَبَ تَصَوُّرَالفَارابِي وصِيَاغَةَ اِبنِ سِينَا، واِنتدَبَ نَفْسَهُ لتَدَارُكِ النَّقْصِ الذِي أَشَارَا إليهِ"[1].

وبخصوصِ الشّعرِ العربِيّ، يرَى القرطَاجَنِّي أَنَّهُ أَوْسَعُ وأَشْمَلُ مِنْ شِعْرِ اليُونَانِ، وأَنَّ إِمْكَانِيَّةَ تَطْبِيقِ القوانِينِ الشِّعريّةِ التِي جاءَ بهَا أرسْطو علَى الشِّعرِ العربِيّ سيَعُودُ بالنَّفْعِ علَى مَسارِ البَلَاغَةِ، وهوَ مَا نَسْتَشِفُّهُ مِنْ خِلَالِ قولِهِ: " ولوْ وَجَدَ هذَا الحكِيمُ أرسْطُو فِي شعرِ اليُونَانِيّينَ مَا وَجَدَ فِي شعرِ العربِ، مِنْ كَثْرَةِ الحِكَمِ والأمثَالِ والاسْتِدْلَالَاتِ واِخْتِلَافِ ضُرُوبِ الإبداعِ فِي فُنُونِ الكلامِ لفظًا ومعنًى وتَبَحُّرِهِمْ فِي أصنافِ المعانِي وحينِ تَصَرُّفِهِمْ فِي وَضْعِهَا وَوَضْعِ الألفَاظِ بإزَائِهَا وفِي إِحْكَامِ مَبَانِيهَا وَاِقْتِرَانَاتِهَا ولُطفِ اِلْتِفَاتَاتِهِمْ وتَتْمِيمَاتِهِمْ واِسْتِطْرَادَاتِهِمْ، وحُسْنِ مآخِذِهِمْ ومَنَازِعِهِمْ بالأقَاوِيلِ المخيَّلَةِ كيفَ شَاؤُوا، لزَادَ علَى ما وَضَعَ مِنَ القَوانِينِ الشِّعريَّةِ"[2].

هناك إذنْ مُهِمَّةٌ تنتَظِرُ الإنجازَ وهِي إضافَةُ قوانِينٍ تستوْعِبُ الخُصوصِيَّةَ العربيَّةَ التِي نَوَّهَ بِهَا حَاشِدًا مع اِبنِ سِينَا، شَتَّى الأوْصَافِ، هذهِ المهمَّةُ التي أشفَقَ منهَا الفَارَابِي تواضُعًا، فِي ظاهِرِ اللَّفْظِ، وجَعَلَهَااِبنُ سِينَا مَشْرُوعًا للمُسْتَقْبَلِ، هي المهِمَّةُ التِي اِنْتَدَبَ حَازِمُ نَفْسَهُ لِإِنْجَازِهَا "[3].

هذا، ويُفهَمُ مِنْ كَلَامِ حَازِمٌ وممارَسَةِ التَّنظِيرِ عَامَّةً أَنَّ لِكُلِّ عِلْمٍ مُستوَيَيْنِ: مُستوَى الظَّاهِر ( أوِ الظواهِرْ) ومُستَوَى مَا وَراءِ الظَّاهِرِ أيَّ القَوانِينِ، وفِي اِعتِبَارِهِ أَنَّ المستَوَى الأوَّلَ قَدْ أُنْجِزَ فِي مَجَالِ

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 486 .

[2] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 96 .

ملاحظة : إن النسخة التي اعتمدنا عليها لا تتوفر على ترقيم واحد لعدد الصفحات من البداية إلى النهاية، وإنما تبدأ من الصفحة الأولى إلى الصفحة ست وعشرون ومئة، وهذه الصفحات كلها عبارة عن مقدمات، ثم يعود محقق الكتاب ليستأنف الترقيم من جديد أثناء عرض مضامين الكتاب .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 486 .

البلاغةِ وفَرَغَ مِنْهُ، وأنَّ مُهمَّةَ البَلاغِيِّ المنتَظَرِ فِي إطارِ العِلْمِ الكُلِّي أو البَلاغَةِ المعضُودَةِ بالمنطِقِ والفلسَفَةِ هِيَ إنجازُ المرحَلَةِ الثَّانِيَةِ، مرحلةُ اِسْتِخْلَاصِ القوَانِينِ الكُلِيَّةِ، أوِ الشُّرُوعِ فِي إنْجَازِهَا "[1].

**2- البلاغَةُ عندَ حازِمٍ**: إنَّ الدِّراسَةَ العمِيقَةَ التِي عَمِلَ القَرطَاجَنِّي على تَقدِيمِهَا، والتِي جَمَعَتْ بينَ كُلِّ ما تُوُصِّلَ إليهِ مِنْ تُراثٍ عَرَبِيٍّ أو يونَانِيٍّ، جَعَلَتْهُ يُعطِي نظرَةً متمَيِّزَةً عنْ غيرِهِ مِنَ المؤَلِّفِينَ، فهُو لَا يَنْظُرُ فِي عُلُومِهَا ولَا فِي قُدرتِهَا على تَفعِيلِ الاتِّصالِ بينَ الملْقِي والمتلَقِّينَ، وإنما ينْظُرُ إلى قِيمَةِ البلاغَةِ وسِعَةِ مجَالِهَا، وبُعْدِ الشُّقَّةِ على طَالِبِ العِلمِ عندَ تحصِيلِهَا، ومِنْ هُنا يقولُ حازِمُ: " وكيف يظُنُّ إنسانٌ أنَّ صناعَة البلاغَةِ يتَأتَّى تَحصِيلُهَا فِي الزَّمَنِ القرِيبِ، وهيَ البحرُ الذِي لمْ يَصِلْ أحَدٌ إلَى نِهَايَتِهِ مَعَ اِسْتِنْفَادِ الأعمارِ فِيهَا، وإنَّمَا يَبْلُغُ الإنسَانُ منهَا مَا فِي قُوَّتِه أنْ يَبْلُغَهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ العُلُومِ قدْ نَفَذَ فِيهَا قومٌ فِي أزمِنَةٍ لا تَسْتَغْرِقُ إلّا جُزْءًا يَسِيرًا مِنَ العُمُرِ ؟ فلوْ قدَّرْنا أنَّ إنْسَانًا ذكيًّا ينظُرُ فِي علمٍ مِنَ العُلُومِ شهرًا أو عَامًا لَتَحصَّلَتْ لهُ مِنْ ذلِكَ العِلْمِ مَسَائِلُ مُحَقَّقَةٌ، ولا يحصُلُ لهُ فِي هذَا القَدْرِ مِنَ الزَّمَانِ مِنْ هذهِ الصِّناعَةِ شيْءٌ يعتَدُّ بِهِ، إذْ أكثَرُ مَا يُسْتَحْسَنُ ويُسْتَقْبَحُ فِي عِلْمِ البلاغَةِ لَهُ اِعْتِبَارَاتٌ شتَّى بِحَسَبِ المواضِعِ، ولا يَقِفُ الإنسانُ علَى تلكَ المواضِعِ إلَّا بِطُولِ المُزَالَةِ "[2]، وهوَ مَا يَعْكِسُ التطوُّرَ الكبِيرَ الذِي وَصَلَتْ إليهِ البلاغَةُ فِي عصرِ القرطَاجَنِّي، ولا غُرُوَّ إذْ نَجِدُهُ قدْ عَمَدَ إلى وصْفِهَا بـ " العلمِ الكُلِّي " .

ويصِفُ العُمرِيُّ البلاغةَ عندَ القرطَاجَنِي بـ " العلمِ الكُلِّي " وهذِهِ العِبارةُ هيَ" لحازِمِ القرطاجني، تفسِّرُ ما اِنتَهَى إليهِ مشرُوعُ السَّكاكِي وهوَ يُحاوِلُ رَسْمَ حُدُودِ علمِ الأدبِ، فإذَا كانَ السَّكاكِي قَصَدَ تكمِيلَ( أو تَتْمِيمِ ) النحوِ والتَّصرِيفِ بعلمِ المعانِي، فَحَدَثَ أنْ كَانَ النَّحوُ والصَّرفُ مجرَّدَ تمهِيدٍ وأدواتٍ أوليّةٍ لعلمِ المعانِي، فإنَّ حازمَ القرطاجَنِّي صرَّحَ بِوُضُوحٍ بِأَنَّ البلاغَةَ هيَ العلمُ الكُلِّيُّ لمعْرِفَةِ تنَاسُبِ المسْمُوعَاتِ والمفْهُومَاتِ"[3]، حيث يقُولُ: " ومعرِفَةُ طُرُقِ التَّناسُبِ فِي المسمُوعَاتِ والمفهُومَاتِ لا يُوصَلُ إلَيْهَا بِشيْءٍ مِنْ عُلُومِ اللِّسانِ، إلَّا بالعلمِ الكُلِّي فِي ذلك، وهُوَ علمُ البلاغَةِ الذِي تنْدَرِجُ تحتَ تفاصِيلِ كُلِيَّاتِهِ ضُرُوبُ التَّنَاسُبِ والوَضْعِ، فيُعرَفُ حالُ مَا خَفِيَتْ بِهِ طُرُقُ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 487 .

[2] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 78 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص : 56 .

الاعتباراتِ مِنْ ذلك، بحَالِ مَا وَضَحَتْ فيهِ طُرُقُ الاعتبارِ، وتُوجَدُ طُرُقُهُمْ فِي جمِيعِ ذلِكَ تَتَرَامَى إِلَى جِهة واحدة مِنِ اعتِمادِ مَا يُلائِمُ، واجْتِنَابِ مَا يُنَافِرُ"[1]، مِنْ هُنَا نقُولُ بِأَنَّ بَلَاغَةَ القرْطَاجَنِّي تَقُوم علَى مفاهيمَ أساسُها هي: النَّظمُ، والأسلُوبُ، والتناسُبُ .

**3- عرضُ خطّةِ المنهاجِ( منهاجُ البلغاءِ)**: بالرَّغم مِنْ أَنَّ علمَ البلاغةِ عندَ القرطَاجَنِّي يتمَثَّلُ أَسَاسًا فِي صِناعتَيِ الشعرِ والخطابَةِ، إلا أنَّ اِهتِمامَ حازِمٍ اِنْصَبَّ علَى الشعرِ وَحْدَهُ، والشعرُ عندَهُ" كلامٌ مُخَيَّلٌ موزُونٌ، مختَصٌّ فِي لِسانِ العربِ بزيادَةِ التَّقْفِيَةِ إلى ذلكَ، والْتِئَامِهِ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ مخيَّلةٍ، صادِقَةٍ كانتْ أو كاذبَةٍ، لا يُشتَرَطُ فيهَا بما هِيَ شِعرٌ غيرُ التَّخييلِ، والتَّخييلُ فِي الشعرِ يَقَعُ مِنْ أربَعَةِ أنْحَاءٍ: مِنْ جهَةِ المعنَى، ومِنْ جهةِ الأُسلُوبِ، ومِنْ جهةِ اللَّفظِ، ومِنْ جهةِ النَّظْمِ والوَزْنِ"[2] ، ويرى العمريُّ بأَنَّ "موضُوعَ كتابِ" منهاجِ البلغَاءِ" هو بلاغَةُ الشعرِ أو الشِّعريَّةِ حسْبَ تَعْبِيرِهِ"[3]، وأنَّ أَقْسَامَ الكِتَابِ الأَربَعَةَ( اللَّفظُ، والمعنَى، والنَّظْمُ، والأُسلُوبُ)، لم تتناوَلْ سِوَى صناعَةَ الشِّعرِ .

وفِي هذَا سَيُوقِفُنَا العُمري عندَ نُقْطَةٍ مُهِمَّةٍ، هي أنَّ القرطاجَنِّي-في هذا النّصِ- لم يهتمَّ بِتَرْتِيبِ عناصِرِ الشِّعرِ الأَرْبَعَةِ كمَا هُو مُنْتَظَرٌ منهُ، وقدْ كَانَ مِنَ المفرُوضِ أنْ يَذْكُرَ اللَّفْظَ معَ المعْنَى، والنَّظْمَ مع الأُسلُوبَ، غيرَ أنَّهُ لم يقُمْ بذلِكَ؛ ولكنَّ العُمريَّ عَلَّلَ هذا الاخْتِلَالَ أو التَّبَايُنَ بقولِهِ: " لقدْ كانَ علَيْنَا أنْ نَنْتَظِرَ حتَّى الصَّفْحَةَ الثَّالثَةَ والسِتِّينَ بعدَ الثَّلَاثِمِئَةِ مِنَ المنهَاجِ، أيْ آخِرَ الكِتابِ، لكي يُبَيِّنَ لنَا حَازِمُ، عرَضًا، العلاقَةَ الخاصَّةَ بينَ اللَّفظِ والنَّظْمِ مِنْ جِهَةٍ، وبينَ المعنَى والأُسْلُوبِ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، أي كَوْنُ الثَّانِي مِنْ كُلٍّ منْهُمَا اِمْتِدَادًا للْأَوَّلِ"[4]، يقولُ حازِمُ : " لَمَّا كانتِ الأغراضُ الشِّعرِيَّةُ يُوقَعُ فِي واحدٍ منهَا الجُملَةَ الكبِيرَةَ مِنَ المعَانِي والمقَاصِدِ، وكانتْ لِتِلكَ المعانِي جِهَاتٌ فيهَا تُوجَدُ ومَسَائِلُ منهَا تُقْتَنَى، كجِهَةِ وَصْفِ المحبُوبِ، وجِهةِ وصْفِ الخيَالِ، وجِهَةِ وَصْفِ الطُّولِ، وجِهَةِ وَصْفِ يومِ النَّوَى، وما جَرَى مجْرَى ذلِكَ فِي غرضِ النَّسِيبِ، وكانتْ تَحْصُلُ لِلنَّفْسِ

[1] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 202 .
[2] نفسه، ص : 79 .
[3] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 487 .
[4] نفسه، ص : 488 .

بالاسْتِمْرَارِ على تلكَ الجِهَاتِ والنَّقْلَةِ مِنْ بعضِهَا إلى بَعْضٍ، وبكيفيَّةِ الاطِّرَادِ فِي المعانِي صورةٌ وهيئةٌ تُسَمَّى الأُسلُوبُ إِلَى المعَانِي نِسْبَةُ النَّظْمِ إِلَى الألفَاظِ"[1] .

هذا ويرَى العُمرِيُّ أنَّ تَقْدِيمَ حَازِمٍ للمَعْنَى علَى الأُسْلُوب، وللَّفْظِ على النَّظْمِ هو أمْرٌ منْطِقِيٌّ، ينطلِقُ مِنْ تقدِيمِ الجملَةِ على النَّصِ، فالجملَةُ هِيَ الأسَاسُ الذِي يُبْنَى عليهِ النّصُّ، ولذَا يقولُ : " إنّ مِنهاجُ البُلغَاءِ مبْنِيٌّ على تَصَوُّرِ مستويَيْنِ: مستَوَى الجُمْلَةِ، ويُعَالِجُهُ مَبْحَثَا اللَّفْظِ والمعْنَى، ومُسْتَوَى النَّص، ويُعَالِجُه مَبْحَثُ النظمِ والأُسْلُوبِ، هذا في نَظَرِنَا هو المنطِقُ الذي حَذَا بحازِمٍ إلى هذَا التَّقسِيمِ"[2].

**4- نقدُ العمريّ لخطَّةِ المنهَاجِ:** يقُولُ العُمريُّ: " تبدُو لنَا الخُطَّةُ التي اِعْتَمَدَهَا حازمُ لتحقِيقِ مُرَاهَنَتِهِ فِي الانتِقالِ مِنَ الجمْلَةِ إلى النَصِ غيرَ مضمُونَةِ العوَاقِبِ مِنْ عِدَّةِ جوانِبَ منهَا: التَّفرِيقُ بين اللَّفظِ والمعنَى، والتفرِيقُ بين النَّظمِ والأُسلُوبِ، والتَّفرِيقُ بين الجُمَلِيّ والنّصِيّ، إضافةً إلى تَدَاخُلِ مَنَاهِجِ الكتابِ"[3].

**أ- التفرِيقُ بينَ اللَّفْظِ والمعنِي:** إنَّ تقسِيمَ المستَوَى الأوَّلِ، مُستَوَى الجمْلَةِ، إلى لفظٍ ومعنَى، جَديرٌ بأنْ يُوقِعَهُ فِي الحَرَجِ نَفْسِهِ الذِي وَقَعَ فيهِ كُلٌّ مِنَ الجرجَانِيّ وابْنِ سنانٍ الخَفَّاجِيّ، فالمعنَى الشِّعرِي يَصيرُ فِي نهايةِ المطافِ إلَى تَجَسُّدٍ لفظِيٍّ سَمَّاهُ الجرجانِيُّ، بعدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ، " صُورَةُ المعْنَى " وهذا عندَهُ هو التَّأوِيلُ الممْكِنُ لِفَهْمِ حَدِيثِ القُدمَاءِ عنْ مُلَاءَمَةِ اللَّفظِ لمَوْقِعِهِ وتمكُّنِ القافِيَةِ مِنْ مَوْقِعِهَا ... الخ، فالكلْبُ الجبَانُ، وكثرَةُ الرَّمَادِ، صُورَةٌ ملمُوسَةٌ تُجَسِّدُ معنًى اِجْتِمَاعِيًّا هُو الكَرَمُ، أو هُمَا معنيَانِ أوَّلِيَانِ يُستعمَلَانِ مجازًا ومَعْبَرًا للوُصُولِ إلى المعنَى الثَّانِي الحقِيقِيّ"[4] .

**ب- التفرِيقُ بين النَّظمِ والأُسلُوبِ:** يرى العُمرِيُّ أنَّ وجودَ " التَّدَاخُلِ رَاجِعٌ إلى أَنَّ الحدِيثَ عَنِ" النظْمِ"، أخذَ فِي البِدايَةِ صِيغَةَ المدْخَلِ البلاغِيّ العَامّ، البلاغَةُ هيَ النَّظْمُ، قال ( أي حازم ) : [ النَّظْمُ صناعَةٌ آلَتُهَا الطَّبْعُ"، " ومَرَدُّ الطَّبْعِ إلى فَهْمِ أسرارِ الكلَامِ، البصِيرَةِ بالمذاهِبِ والأغراضِ"،

[1] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 327 .

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 489 .

[3] نفسه، ص : 489، 490 .

[4] نفسه، ص : 490 .

وذلِكَ إِنَّمَا يكونُ " بِقُوَى فكريَّةً وإهتِداءَاتٍ خاطرِيَّةً "، وقد عَدَّدَ عَشْرًا مِنْ تلكَ القُوَى، منها: القوَّةُ علَى التشبِيهِ، والقوَّةُ على تَصَوُّرِ كُليَّاتِ الشعرِ، والقُوةُ على تَصَوُّرِ صُورةِ القَصِيدَةِ، والقوَّةُ على تَخَيُّلِ المعَانِي، والقوةُ علَى مُلَاحَظَةِ التَّنَاسُبِ بين المعَانِي ... لقدْ أفْلَتَ " النَّظْمُ " مِنْ بَيْنِ يَدَيِ المؤَلِّفِ باعتِبَارِهِ اِمتِدَادًا لِلَّفْظِ( أو العبارَةِ)، كما هو الأمْرُ فِي أصلِ المشرُوعِ، وحلَّ مَحَلَّهُ النظمُ باعتبَارِهِ كَفَاءَةً فِي إِنْتَاجِ القصِيدَةِ، اِبْتِدَاءً مِنَ التشبِيهَاتِ وَ وُصُولًا إلى تَخَيُّلِ الهيْكَلِ العَامّ وانتِهَاءَ إلى المقدرَةِ النَّقدِيَّةِ التَّمييزِيَّةِ، والقوَّةُ المائِزَةُ حُسْنُ الكلامِ مِنْ قَبِيحِهِ، بالنَّظرِ إلى نَفْسِ الكلامِ وبالنِّسبَةِ إلى المَوْضِعِ الموقِعِ فيه الكلَامُ "، وهنا يمتدُّ الحدِيثُ بالمؤلِّفِ فيجعَلُ هذهِ القوَّةَ المائِزةَ تتَجاوَزُ مُستوَى النَّظمِ الذي هُو قَسِيمُ أربعٍ فِي المشرُوعِ، إلى النَّظمِ الذي يُهَيْمِنُ على كُلِّ الأقسامِ الأخرى: فالمائِزُ يُقوِّمُ الكلامَ " مِنْ جهةِ لَفْظٍ أو معنًى أو نِظامٍ أو أُسلُوبٍ]"[1].

**4-جـ- التفريقُ بين الجُمَلِيّ والنّصِي:** ومِنَ النُّقودِ أيضًا التِي وَجَّهَهَا العُمَرِيُّ لِخُطَّةِ المنهاجِ، " تَدَاخُلُ الجمِلِي والنَّصِي، وهو ما أدَّى إلى " تِكْرارِ كثِيرٍ مِنَ القضَايَا والموضُوعَاتِ مِثَلَ قَضِيَّةِ علاقَةِ المعَانِي بالأغراضِ التِي أُثِرَتْ فِي الحدِيثِ عَنِ المعنَى مِنْ حَيْثُ تَوَلُّدُ الأغرَاضِ، ثُمَّ نُوقِشَتْ فِي بَابِ الأُسلُوبِ مِنْ حَيْثُ أُصُولُهَا وَبَوَاعِثُهَا، والأمْرَانِ مُلْتَبِسَانِ مُتَلَاصِقَانِ، لا يمكِنُ الحدِيثُ عنْهُمَا مُنْفَصِلَيْنِ"[2].

ونحنُ نرَى أَنَّ التَّداخُلَ رَاجِعٌ إلى ما أَشَارَ إليهِ العُمرِي مِنْ قَبْلُ فِي كَوْنِ الجملةِ أسَاسِ النَّصِ، ومِنَ المنطِقِيّ أنَّمَا يُطَبَّقُ عَلَيْهَا، يُطَبَّقُ على النَّصِ أيْضًا، وهوَ مَا نَوَّهَ به العُمرِيُّ في قولِهِ: " تكرَارُ القضَايَا والموضُوعَاتِ"، ومِنْ جِهةٍ نَجِدُ أَنَّ العُمريُّ قدْ وَجَدَ حَلًّا لهاتِهِ المشكِلَةِ، باعتِبَارِهِ أَنَّ حَازِمًا رُبَّمَا " حَاوَلَ إنشاءَ بَلَاغَةٍ للبلاغَاتِ التِي سَبَقَتْ" بلاغةَ اللَّفظِ، وبلاغةَ المعنَى، وما تَرَكَّبَ مِنْهُمَا )، وقد أَحَسَّ بأَنَّ البلاغاتِ السَّابِقَةِ مُجَرَّدَ مَدَاخِلَ تُوصِلُ إلى مَرْكَزٍ واحِدٍ، ولكنَّ عملَهُ بَدَا مُشَوَّشًا بسبَبِ عَدمِ تقدِيمِ تصوُّرٍ واضِحٍ ومُتَّسِعٍ يدمِجُ هذهِ البلاغاتِ في بَعضِهَا "[3]، وهذا في رأيِي- وإنْ كانَ يَنْتَقِلُ مِنَ النَّقْدِ إلى المدحِ- سَبَبٌ آخَرُ لاعتبَارِ بلاغَةِ القرطَاجَنِّي " العلمَ الكُلِّيَّ" لأنهُ كانَ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العبية أصولها وامتداداتها، ص : 491، 492 .

[2] نفسه، ص : 493 .

[3] نفسه، ص: 493 .

سَبَّاقًا فِي الإشارَةِ إلى بلاغةٍ واحدةٍ تدمِجُ بلاغاتٍ خاصَّةٍ، قبْل جِيرارْ جِينِيتْ( Gérard GENETTE) الذي أشَارَ إليهِ العمريُّ فِي حدِيثِهِ عَنْ طبِيعةِ تَأْرِيخِهِ للبَلَاغَةِ العربيَّةِ بقولِهِ: " وهوَ تارِيخٌ يَشهَدُ بِوُجودِ بلاغَاتٍ خاصَّةٍ، بِقَدْرِ ما يُؤَكِّدُ النُّزُوعَ الدَّائمَ إلى بَلوَرَةِ بلاغَةٍ عامَّةٍ لِكُلِّ الخطابِ الاحتِمَالِيّ التَّخييلي والتَّدَاوُلِي، كما يُبيّنُ كيفَ تَتَدَاخَلُ النَهْضَاتُ العلميَّةُ فِي الحِوارِ اللِّساني والمنطِقِي خَاصَّةً، مِنْ أجلِ هَيْمَنَةَ بَلاغَاتٍ جزئيَّةٍ يَدَّعِي التَّعمِيمَ، مما دَعاهُ جِيرارْ جِينِيتْ البلاغَاتُ المعمَّمَةُ: بلاغةُ الشعرِ وبلاغَةُ الحِجاجِ، وهي في نظرِنَا – يقولُ العمريُّ– بلاغاتٌ فرعيّةٌ تفْتَقِرُ إلى مَا تُقَدِّمُهُ لهَا البلاغَةُ العامَّةُ"[1].

إذنْ، فالقرطاجنّي اِستَطاعَ أنْ يكتَشِفَ وُجودَ بلاغَةٍ تستَوْعِبُ مجموعَةً مِنَ البلاغَاتِ، لكنَّهُ لم يستطِعْ أنْ يُسَمِّيَهَا .

**5– تداخُلُ مناهِجِ الكتابِ:** إنَّ تَفْرِيعَ القسمِ الواحِدِ إلى أربَعَةِ مناهِجَ تقْسِيمٌ مُفْتَعَلٌ غيرُ مُقْنِعٍ، فقد أدَّى إلى تقْسِيمِ المادَّةِ الواحِدَةِ مِنَ البابِ الواحِدِ تقسِيمًا غيرَ مُقْنِعٍ، يمكنُ مُعايَنَةُ ذلِك بالمقَارَنَةِ بين المنْهَجيْنِ الثالثِ والرابعِ مِنَ البابِ الثَّالثِ، فالمنْهَجَانِ يُعالِجَانِ تَرتِيبَ أجزَاءِ القولِ فِي القَصيدَةِ":[2]

| | المنهج الثالث | المنهج الرابع |
|---|---|---|
| العنوان | "تقدير الفصول وترتيبها و وصل بعضها ببعض ..."(ص287) | "إحكام مباني القصائد وتحسين هيئاتها " (303) |
| المحتوى | أ– الاعتناء بالمقدمات (ص297)<br>الاعتناء بآخر الفصول (ص300)<br>قانون ترتيب الفصول (ص288) | الإبداع في الاستهلال (ص309)<br>التخلصات (ص314)<br>(ترتيب تيمات الأغراض) |

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 06 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 493، 494 .

| | | |
|---|---|---|
| المحتوى | ب- الكم : الموفي والمقصر (ص292) | ب) التقصير والتطويل والتوسط (ص303)<br>المقطعون والمقصدون (ص323) |

يُوضِحُ العمريُّ مِنْ خلالِ هذا الجَدوَلِ مَدَى التَّداخُلِ الكَبِيرِ بينَ مَنَاهِجِ الكتابِ"كتابُ مِنهاجِ البلغاءِ"، حيثُ يتَجَلَّى لِلْعَيَانِ، منذُ الوهْلَةِ الأُولَى، ذلِكَ التَّشابُهُ الشَّديدُ بينَ العِبارَاتِ سَوَاءٌ فِي العنوانِ أوْ فِي المحتَوَى، فـ" الفُصُولُ" هي نَفْسُهَا " مبانِي القصائِدِ"، و" المقدِّمَاتُ" هي نَفْسُهَا " الاستهْلَالُ"، و" التَّخلُّصُ أو حُسْنُ التَّخلُّصِ " هو نَفْسُهُ " الاعتنَاءُ بآخرِ الفصلِ " ... الخ .

وإضافَةً إلى هَذا، أشَارَ العُمريُّ إلى ذلِكَ الخَلْطِ فِي وَضْعِ عَنَاوينِ الكِتابِ، أو التَّوسُّعِ المفرِطِ فِي تَسمِيَةِ العنوانِ الواحِدِ، " إذْ نَجِدُ أَنَّ عنوانَ المَعْلَمِ الواحِدِ، أو المَنْهَجِ، يَستغرِقُ ثلاثَةَ سُطورٍ أحيَانًا، كما هُوَ الحالُ في عنوانِ المنهجِ الثَّالثِ مِنَ البابِ الثانِي، ونَصُّهُ: ( المنهجُ الثَّالثُ، فِي الإبانَةِ عمَّا بِهِ تَتَقَوَّمُ صنْعَتَا الشِّعرِ والخَطابَةِ مِنَ التَّخييلِ والإقناعِ، والتَّعرِيفِ بأنحَاءِ النَّظرِ فِي كِلْتَا الصَّنْعَتَيْنِ، مِنْ جِهَةِ مَا بِهِ تَقَوَّمَتْ، ومَا بِهِ تُعْتَبَرُ أحوَالُ المعانِي فِي جِميعِ ذلِكَ، مِنْ حَيثُ تَكونُ مُلائِمَةً للنُّفوسِ أوْ مُنافِرَةً لهَا)"[1] .

**6- الرُّؤيةُ الشِّعريّةُ عندَ حَازِمٍ**: لقدِ اِهتَمَّ حَازِمُ بالشِّعرِ اِهتمَامًا كبِيرًا، ما جعَلَهُ يَقِفُ مُطَوَّلًا عند مسْألةِ الصِّدقِ والكَذِبِ فِي الشِّعرِ، خاصَّةً وأنَّها مَسأَلَةٌ جِدُّ حَسَّاسَةٍ، فنحنُ لا نَجِدُ الشعرَ عندَ العُصاةِ مِنَ النَّاسِ فقط، وَإنما نَجِدُهُ لَدى العُلمَاءِ والمتدَيِّنِينَ أيضًا، وليسَ قَوْلُهُمْ:" أعذَبُ الشِّعرِ أَكْذَبُهُ " بالذي يُقَلِّلُ مِنْ قِيمَتِهِ، وعلَى أيِّ حالٍ فالمسألَةُ ليْسَتْ بالجدِيدَةِ، وإنما كانَ قَدْ طَرَحَهَا الجُرجَانِيُّ مِنْ قبَلُ، حيثُ يقُولُ: " وكذلِكَ قولُ مَنْ قَالَ:" خَيْرُ الشِّعْرِ أَكْذَبُهُ "، فهذَا مُرَادُهُ أَنَّ الشعْرَ لَا يُكتَسَبُ مِنْ حيثُ هو شِعْرٌ فضْلًا، ونَقصًا، وانحِطَاطًا، وارْتفَاعًا، بأنْ ينْحَلَ الوَضيعُ مِنَ الرِّفْعَةِ ما هُو مِنهُ عَارٍ، أو يَصْفُ الشَّريفَ بِنَقصٍ وَعَارٍ(...) وأمَّا مَنْ قَالَ فِي مُعارَضَةِ هذا القَوْلِ: خيرُ الشعرِ أصْدَقُهُ كما قال الشاعر [2]:

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العبية أصولها وامتداداتها، ص : 494 .

[2] البيت لحسان بن ثابت الأنصاري، ينظر: ديوان حسان بن ثابت، تح : الأستاذ عبد أ. مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1414هـ/1994م، ص : 173 .

وَإِنَّ أَحْسَنَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ  بَيْتٌ يُقَالُ – إِذَا أَنْشَدْتَهُ – : صَدَقَا .

فقد يجُوزُ أنْ يُرادَ به أَنَّ خيرَ الشِّعرِ مَا دَلَّ عَلَى حِكْمَةٍ يَقْبَلُهَا العَقْلُ، وأدَبٍ يَجِبُ بِهِ الفَضْلُ، والأوَّلُ أوْلَى لأنَّهُمَا قَولانِ يَتعَارَضَانِ في اِختيَارِ نَوْعَيِ الشِّعرِ، فَمَنْ قالَ خَيرُهُ أَصْدَقُهُ، كانَ تَرَكَ الإغْرَاقَ، والمُبَالَغَةَ، والتَّجَوُّزَ، إلَى التَّحقِيقِ، والتَّصْحِيحِ، ومَنْ قالَ: أَكْذَبُهُ، ذَهَبَ إلى أَنَّ الصَّنْعَةَ إنما يَمُدُّ بَاعَهَا، ويَنْشُرُ شُعَاعَهَا، ويَتَّسِعُ مَيْدَانُهَا، وهناكَ يَجِدُ الشَّاعرُ سَبِيلًا إلَى أنْ يُبدِعَ ويزِيدَ"[1] .

وقدْ عالَجَ حَازِمُ الأمرَ مِنْ زاويتَيْنِ اِثْنتيْنِ – اجتهَدْنَا في تَسْمِيَتِهِمَا – هما:

**أ– عدمُ صلاحِيَةِ المقُولةِ علَى الدَّوامِ**: وهوَ مَا ذَهَبَ إليهِ صَاحبِ كتابِ العُمْدَةِ، في قولِهِ: " وَمِنْ فضائِلِ الشعْرِ أَنَّ الكَذِبَ الذِي أَجْمَعَ الناسُ علَى قُبْحِهِ حَسَنٌ فيهِ، وحَسْبُكَ مَا حَسَّنَ الكَذِبَ واِغْتُفِرَ لَهُ قُبْحُهُ "[2] .

**ب– تبرِيرُ دعْوَى الكَذبِ فِي الشِّعرِ –إنْ وُجدَتْ–**: وإنما سَاغَ فِي الشعرِ وُقُوعَ الكَذِبِ فِي المُمْكِنَاتِ ولم يسغْ فِي المستَحِيلاتِ، لِأَنَّ الأمْرَ إذَا كانَ مُمْكِنًا سَكَنَتْ إليهِ النَّفْسُ، وَجَازَ تَمْوِيهُهُ عليْهَا، والمحالُ تَنْفُرُ مِنْهُ النَّفْسُ ولا تَقْبَلُهُ البَتَّةَ، فكانَ مُناقِضًا لغرَضِ الشِّعرِ، إذِ المقصُودُ بالشِّعرِ الاحتِيَالِ فِي تحرِيكِ النَّفسِ لمقتَضَى الكَلَامِ لِإيقَاعِهِ منهَا بِمَحَلِّ القُبُولِ بما فيهِ مِنْ حُسْنِ المحَاكَاةِ والهيْئَةِ بَلْ ومِنَ الصِّدقِ والشُّهرَةِ فِي كثِيرٍ مِنَ المواضِعِ"[3] .

ويرَى العُمريُّ أَنَّ حَازِمًا سَعى فِي هذَا الإطارِ إلى " تَرتِيبِ الأغراضِ والأقاوِيلِ الشِّعريَّةِ حَسْبَ الصِّدقِ والكَذِبِ أو حَسْبَ الحُصُولِ والاختِلَافِ، تمهِيدًا لِتَرْتِيبِهَا فِي سُلَّمِ الحُسْنِ إلى مُسْتَحْسَنَةٍ (+) ومُسْتَصَاغَةٍ(+–) وغيرِ مُسْتَحْسَنَةٍ وَلَا مُسْتَصَاغَةٍ(–)"[4] .

[1] عبد القاهر الجرجاني، أسرارا البلاغة في علم البيان، ص : 236، 237 .

[2] ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، الجزء الأول، تح : السيد مُحَّد بدر الدين الشعباني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى 1225هـ/1907م، ص : 06 .

[3] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 265 .

[4] مُحَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 496 .

وبهذَا يَكونُ العُمرِيُّ قَد شَرَحَ لَنَا عَمَلَ القَرطاجَنِّي مع الأغرَاضِ والأقاوِيلِ الشِّعريّةِ، حسْبَ الصِّدقِ أو الكذِبِ، تمهِيدًا لترتِيبِهَا فِي سُلَّمِ الحُسْنِ، وقدْ قَابَلَ كلِمَةَ " الصّدق " بـ "الحُصول"، أي أنَّ حُصُولَ الشَّيْءِ الذي أشَارَ إليهِ الشَّاعِرُ، وقدْ حَصَلَ فعْلًا، والشاعِرُ صادِقٌ فِي نَقْلِهِ الخَبَرَ، وأمَّا كلمةُ "الكذب" فقد قابَلَهَا بـ" الاختِلافِ"، إشارَةً إلى الاخْتِلَافِ فِي إمْكانِيَّةِ حُصُولِ ذلِكَ الأمْرِ أو عَدَمِ حُصُولِهِ، ولَعَلَّ تَوْظِيفَهُ لكلِمَةِ " الاختلافِ " رَاجِعٌ إلى نُزُوعِهِ نحوَ تَبرِيرِ دَعْوَى الكَذِبِ فِي الشِّعرِ التي أَشَرْنَا إِلَيْهَا .

هذا وإِنَّ النَّتِيجَةَ التِي تَوَصَّلْنَا إليها مِنْ خِلالِ رُؤْيَةِ القرطَاجَنِّي الشِّعريَّةِ، تتجَلَّى فِي كوْنِ الأقوَالِ الشِّعريَةِ علَى ثَلَاثَةِ أنْوَاعٍ هِيَ:1- المُسْتَحْسَنُ: وهُوَ المُمْكِنُ سَوَاءٌ كانَ صِدْقًا أوْ كَذِبًا، 2- المُسْتَصَاغُ: وهو الممتَنَعُ سواءٌ مَا كَان صِدْقًا أو كَذِبًا، 3- لَا مُسْتَحْسَنٌ ولا مُسْتَصَاغٌ: وهوَ المستَحِيلُ.

يقولُ العُمرِيُّ: " فالمستَحْسَنُ هوَ الاقتصَادِيّ والمُمْكِنِ سَوَاءٌ كَانَا حَاصِلَيْنِ أوْ مُخْتَلِفَيْنِ، والمستَصَاغُ مِنَ المعانِي هو الممتَنَعُ سواءٌ كانَ حَاصِلًا أو مختَلِفًا، وغيرُهُمَا المقصِّرُ والمستَحِيلُ، فهناكَ إِذَنْ طَرَفَانِ مَرْفُوضَانِ وَوَسَطٌ مَقْبُولٌ: مُسْتَحْسَنٌ ومُسْتَصَاغٌ، فالشِّعْرُ مَوْجُودٌ إِذَنْ فِي مِنْطَقَةِ وَسَطٍ بينَ التَّقْصِيرِ والاسْتِحَالَةِ، ويُستَثْنَى مِنْ هذَا التَّصْنِيفِ الخِطَابُ السَّاخِرُ الذِي يَسْتَهَدِفُ " الزِّرَايَةَ والإِضْحَاكَ"، فالاسْتِحَالَةُ فِيه مَقْبُولَةٌ لأنَّه محمُولٌ علَى المفَارَقَةِ أصْلًا "[1].

**7- تقاطُعُ الخَطابِي والشِّعْرِي:** يمِيّزُ القَرْطاجَنِّي فِي تَدَاخُلِ الخَطَابَةِ مَعَ الشِّعرِ بينَ أمْرَيْنِ اِثنيْنِ هُما:

**أ- العُمدةُ:** وَيُسَمِّيهَا كذلِك " الأصِيلُ، والقَوَامُ "، وهي تُشيرُ إلى المكوِّنِ الأصْلِيِّ فِي كُلِّ نَوْعٍ، فهيَ تَعْنِي التَّخييلَ فِي الجانِبِ الشِّعرِي، وتَعنِي أيْضًا الإِقْنَاعَ فِي الجانِبِ الخَطَابِي .

**ب- التَّابِعُ:** ويُسَمِّيهِ كذلِك " الدَّخيلُ "، ويُشير إلى المكوِّنِ غيرِ الأصْلِيِّ*، فهوَ يَعنِي التِّخييلِ إذا وُجِدَ فِي الخَطَابَةِ، ويَعنِي أيْضًا الإِقْنَاعَ إذا وُجدَ فِي الشِّعَرِ .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العبية أصولها وامتداداتها، ص : 496، 497 .

* عبارة غير الأصلي من اجتهاد الطالب .

وعمَلًا بذلِكَ، يَشترِطُ القرْطَاجَنِّي أنْ تَكُون الأَقَاوِيلُ التَّخييلِيَّةُ فِي الخَطابَةِ تَابِعَةً لِلْأَقَاوِيلِ الإِقْنَاعِيَّةِ، لِأَنَّ الأساسَ فِي الخَطابَةِ هوَ الإِقنَاعُ لَا التَّخْيِيلُ، والعَكْسُ صَحِيحٌ بالنِّسبَةِ للجَانِبِ الشِّعرِيّ، حيثُ يكونُ الإقنَاعُ تَابِعًا للتَّخييلِ، لأنَّ الأساسَ فِي الشِّعرِ التَخييلُ وليْسَ الإِقْنَاعُ، يقُولُ حازِمُ : " وَينبَغِي أنْ تكُونَ الأقَاوِيلُ المقنِعَةُ، الوَاقِعَةُ فِي الشِّعرِ، تَابِعَةً لِأقاوِيلَ مخيَّلَةً، مُؤَكِّدَةً لمعَانِيهَا، مُنَاسِبَةً لها فِيمَا قُصِدَ مِنْهَا مِنَ الأغرَاضِ، أوْ أنْ تَكُونَ المخيَّلَةُ هِيَ العُمْدَةُ، وكذلِكَ الخَطَابَةُ ينبَغِي أَنْ تكُونَ الأَقاوِيلُ المخَيَّلَةُ الوَاقِعَةُ فيهَا تَابِعَةُ لأقاوِيلَ مُقْنِعَةً مُنَاسِبَةً لها مُؤَكِّدَةً لمعانِيهَا، وأنْ تَكُونَ الأقاوِيلُ المقنِعَةُ هِيَ العُمَدَةُ"[1] .

ومعَ ذلِك، فَإِنَّ حَازِمَ يَرَى بِأَنَّ التَّابِعَ، وإِنْ كانَ ضَرُورِيًّا أحيَانًا بالنِّسبَةِ لِلْأَصِيلِ ( العُمدَة )، فإِنَّ الاسْتِكَثَارَ مِنْهُ، على حِسَابِ الأَصِيلِ، أَمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ وغيرُ مَقْبُولٍ، وأنَّ الإِتْيَانَ باليَسِيرِ منهُ أفضَلُ، يقُولُ حَازِمُ : " وينْبَغِي أَلَّا يُسْتَكْثَرَ فِي كِلْتَا الصِّنَاعَتَيْنِ مِمَّا لَيْسَ أَصِيلًا فِيهَا كالتَّخْيِيلِ فِي الخَطَابَةِ، والإِقْنَاعِ فِي الشِّعْرِ، بَلْ يُؤْتَى فِي كِلْتَيْهِمَا بِاليَسِيرِ مِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الإِلْمَامِ"[2].

هذا وقدْ بَيَّنَ العُمرِيُّ مَرَدَّ التَّدَاخُلِ بينَ الشّعرِيّ والخَطَابِي عِندَ القَرطاجَنِّي إلَى " كوْنِ الشِّعرِ والخَطَابَةِ يَلْتَقِيَانِ فِي الغَرَضِ والمقْصَدِ، وهُو إعْمَالُ الحِيلةِ فِي إِلْقَاءِ الكَلامِ مِنَ النُّفوسِ بِمَحَلِّ القُبُولِ لتَتَأَثَّرَ لمقتَضَاهُ، ولكنَّهُ يُؤَكِّدُ مع ذلِكَ، دَوْرَ الغَرَابَةِ فِي تحقِيقِ الوَظِيفَةِ الشِّعريَّةِ"[3]، أيْ أَنَّ الشِّعرَ مُحْتَاجٌ دائِمًا إلى الغَرابَةِ، وأمَّا الخَطابَةُ فإنَّهَا تَستَطِيعُ الاسْتِغْنَاءَ عَنِ الغَرَابَةِ، والاكْتِفَاءِ بِإِعْمَالِ الحِيَلِ فقطٌ.

وكخُلاصَةٍ لهذَا المبحَثِ نَقُولُ: إِنَّ مَا يمكِنُ اِسْتفَادَتُهُ مِنْ دراسَةِ العُمرِيّ لمشرُوعَيِ السَّكاكِي والقَرْطَاجَنِّي مَعًا، يتّضِحُ فِي النِّقاطِ التَّاليَةِ:

1- المقصُودُ بالبَلاغَةِ المعضُودَةِ، أيْ البلاغَةُ القَائِمَةُ على عِلْمَيِ النَّحوِ والمنْطِقِ، فهي مَعضُودَةٌ بهمَا

2- عِلْم النَّحوِ يَتَجَسَّدَ في مشرُوعِ السَّكَاكِي، وعلمَ المنطِقِ يَتَجَسَّدُ فِي مشرُوعِ القرْطَاجَنِّي .

[1] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 326 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 396 .

[3] نفسه، ص : 497 .

3- السَّكَاكِي حِين اِسْتَثْمَرَ النَّحْوَ فِي خِدْمَةِ البَلاغةِ، لم يَكُنْ مُكْتَفِيًا بدراسةِ النّحوِ وَحْدَهُ، وإنَّما بأبعدَ مِنْ ذلِكَ، بدراسَةِ عِلْمِ الأَدَبِ كَكُلٍّ .

4- اِسْتَفَادَ القَرطَاجَنِّي كَثِيرًا مِن اِطِّلاعِهِ علَى المنطِقِ الصُّورِي، فِي تقدِيمِ نَظرِيَّتِهِ الجدِيدَةِ في البلاغة، والتي سَمَّاهَا " العلمُ الكُلِّي" .

5- أَنَّ كُلًّا مِنَ السَّكَاكِي والقَرْطَاجَنِّي، عَانَا مِنْ عَدَمِ فَهْمِ، أَوْ عَدَمِ اِهْتِمَامِ الباحِثِينَ بهما، لكنَّ مُعَانَاةَ القرْطَاجَنِّي كانتْ أَشَدَّ وأَعْظَمَ؛ فالسَّكَاكِي تَجَلَّتْ مُعَانَاتُهُ فِي كَوْنِ بَلَاغَتِهِ بُتِرَتْ، فَتَحَوَّلَتْ مِنْ بَلَاغَةٍ تَهْتَمُّ بِعِلْمِ الأَدَبِ كَكُلٍّ، إلى بَلَاغَةٍ تهتَمُّ بالمعَانِي والبَيَانِ، والبَدِيعِ فَقَط، وهُوَ مَا لم يَكُنْ السَّكَاكِي يَسْعَى إليهِ .

وَإذا كَانَ السَّكَاكِيُّ قدْ عُدَّ ضَحِيَّةَ قِلَّةِ اِهْتِمَامِ البَاحِثِينَ بمشرُوعِهِ البَلاغِيِّ، علَى الوجْهِ الذِي كَانَ يُرِيدُهُ هوَ، فَإِنَّ القرْطَاجَنِّي هو الآخرُ، يُعَدُّ ضَحِيَّةَ الإِهمَالِ الكُلِّي مِنْ لَدُنِ البَاحِثِينَ، ذلكَ أَنَّهم لَمْ يَفْهَمُوهُ حَقَّ الفَهْمِ، وكانَتْ أَعمَالُهُمْ فِي جُلِّهَا مُنْصَبَّةً عَلَى المفْتَاحِ لِلسَّكَاكِي .

ومِنَ النُّصُوصِ التي يمْكِنُ الاسْتِدلَالُ بها عَلَى اِعْتِبَارِ العُمرِيِّ لِعَمَلَي القرْطَاجَنِّي والسَّكَّاكِي ضِمْنَ الامتِدادَاتِ قولُهُ: " إنَّ السَّكَاكِي وحَازِمُ، يسْعَيَانِ فِي نَظَرِي نَحوَ شَيْءٍ وَاحدٍ مِنْ زَاوِيَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ كثِيرًا، بل تَبْدُوانِ مُتَنَاقِضَتَيْنِ، والمشتَرَكُ بينَهُمَا هُوَ السَّعْيُ إلَى تَوْفِيرِ أَدَاةٍ معرِفِيَّةٍ تأخُذُ الإِنْسَانَ واللُّغَةَ، أو بعبارَةٍ أخْرَى أدَقُّ: تأخُذُ الفَعَالِيَّةَ اللُّغوِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ، بعَينِ الاعتِبَارِ، مِنْ هُنا فَكَّرَ حازِمُ فِي البَلاغةِ باعتِبارِهَا عِلْمًا كُلِيًّا، يُسْتَخْلَصُ رَحِيقُهُ مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ الجُزْئِيَّةِ، وفَكَّرَ السَّكَاكِيُّ فِي شَيْءٍ مماثِلٍ سَمَّاهُ عِلْمَ الأَدَبِ، وَاِكْتَشَفَ فِي الأَخِيرِ أنهُ تركِيبٌ بينَ عُلُومِ اللُّغةِ والمنْطِقِ، فِي خُلَاصَةٍ سَمَّاهَا عِلْمَ المعَانِي والبَيَانِ، قبْلَ أَنْ يَنْتَبِهَ، فِي نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ إِلَى أَنَّ هَذَيْنِ العِلْمَيْنِ هُمَا البَلَاغَةُ بِعَيْنِهَا "[1].

ومِنَ المفَارَقَاتِ العَجِيبَةِ أنْ نَجِدَ القرَطَاجَنِّي يَصِفُ عِلْمَهُ بالعلْمِ الكُلِّي، لَكِنَّهُ يَلْقَى مَعَ ذَلكَ إِهْمَالًا كُلِيًّا، أو شِبْهَ كُلِيٍّ، لا نَعنِي بهذَا عَمَلَ مُحَقِّقِي الكتابِ ومقدِّميهِ، كالشيْخِ مُحَمَّد الفاضل بنْ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العبية أصولها وامتداداتها، ص: 478 .

عاشُور، ولَا مُجْمَلَ البَاحِثِينَ مِنْ طَلَبَةٍ وأساتِذَةٍ، وإنما نَعْنِي عَمَلَ البُلَغَاءِ الذِينَ عَكَفُوا عَلَى مِفْتَاحِ السَّكَاكِيّ، وَأَهْمَلُوا مِنْهَاجَ القَرْطَاجَنِّي .

## الباب الثاني: تطبيقات العمري على البلاغة الجديدة، والمناهج النقدية المتّبعة

### الفصل الأول: دراسة تحليلية في بلاغة الخطاب الاحتمالي ( الخطبة، والشعر )

### الفصل الثاني: دراسة تحليلية في بلاغة الخطاب الاحتمالي ( القصة والمناظرة )

### الفصل الثالث: دراسة تحليلية لمناهج العمري في مشروعه البلاغي الجديد

فِي هَذا البابِ سَوْفَ نَتَطَرَّقُ إلَى الجَانِبِ التَّطْبِيقِيّ الثَّانِي مِنْ مُذَكِّرَتِنَا، والذِي يَتَعَلَّقُ بالبلاغَةِ الجدِيدةِ عِندَ العُمرِيّ، ذَلِكَ أنَّنَا تَنَاوَلْنَا فِي البَابِ الأوَّلِ الجانِبَ النَّظرِيَّ مِنَ الدِّراسَةِ مَعَ التَّطْبِيقِ عَلَى البَلاغَةِ القَدِيمَةِ فَقَطْ، وبَقِيَتْ لَنَا البَلاغَةُ الجَدِيدَةُ لَمْ نَدْرُسْ تَطبِيقَ العُمرِي عَليهَا .

وَمِنَ أجْلِ رَبْطِ أجْزاءِ المذكّرَةِ، اِرْتَأَيْنَا أَنْ نُذَكِّرَ أَوَّلَ الأمْرِ بِمَا كُنَّا قدْ تَوَقَّفْنَا عندَهُ فِي اِسْتِنْبَاطِ مفهُومِ البلاغَةِ الجدِيدَةِ عندَ العُمرِيّ، حيثُ قلنَا بِأنَّهَا قدْ مَرَّتْ عَلَى ثَلاثَةِ مَرَاحِلَ هِيَ:

- مرحلةُ البحثِ .

- مرحلةُ الاصطِلاحِ .

- ومرحلةُ الاكتِمالِ .

وكانَ مفهُومُ البلاغَةِ الجدِيدَةِ عِندَ العُمرِيّ يحُومُ حَولَ التَّعرِيفِ الأوَّلِ الذِي اِنْطَلَقْنَا مِنهُ وهوَ: " علمُ الخِطابِ الاحتِمَالِيّ الهادِفِ إلى التَّأثِيرِ أوِ الإقنَاعِ أَوْ هُمَا مَعًا، إيهَامًا أوْ تَصْدِيقًا "[1]، وأنَّها بهذَا التَّعرِيفِ لَا تَقِفُ عند المعانِي والبَيانِ والبَدِيعِ فقط، بَلْ تَشْمَلُ جمِيعَ أنْواعِ الخِطابِ، مِنْ قِصّةٍ، ورِوايَةٍ، وإشهَارٍ، وخُطبَةٍ، وصُورَةٍ، ... الخ .

وسنَرَى فِي الفَصْلَيْنِ المواليَيْنِ، المكوّنَيْنِ لهذَا البَابِ، تَطْبِيقَاتِ العُمَرِي علَى البَلاغَةِ الجدِيدَةِ ( الخُطبةُ، والشّعرُ، والقِصّةُ، والمناظَرَةُ )، كما نَرَى فِي الفَصْلِ الأَخِيرِ تَطبِيقَاتِهِ لِلْمَنَاهِجِ المتَّبَعَةِ ( البِنيَوي، والتَّدَاوُلِي، والتَّارِيخِي، والتَّأْوِيلِي (نَظَرِيَّةُ التَّلَقِي) ) .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 06 . ( بتصرّف ) .

# الفصل الأول: دراسة تحليلية في بلاغة الخطاب الاحتمالي ( الخطبة والشعر )

## المبحث الأول: بلاغة الخطبة

## المبحث الثاني: بلاغة الشعر

## المبحثُ الأوَّلُ: بلاغَةُ الخُطبةِ:

بلاغَةُ الخطبَةِ عندَ العُمرِيّ لَا تتَعلَّقُ بالجانِبِ العرَبِيّ فَحسْبُ، وإنَّما تَنْطَلِقُ مِنَ اليونَانِيّ فَالعَرَبِي، وذلِكَ كَوْنُ البلاغَةِ كُلِّهَا فِي النِّهايةِ بلاغَةً للإِنسَانِيَّةِ جَمْعَاءَ؛ فَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ باليُونَانِ فَهُوَ محصورٌ في عَناصِرِ بِناءِ الخطابَةِ عندَ أرِسطُو، وهي ثلاثَةٌ: الحُججُ ( البراهِينُ )، والأسلُوبُ، وترتِيبُ أجْزَاءِ القوْلِ، إضافَةً إلى عُنْصُرٍ رابِعٍ وَضَعَهُ البلاغِيُّونَ العرَبُ، وهو عنصُرُ الإلقاءِ "[1]، ويُقَسِّمُ أرِسطُو الخَطَابَةَ إلى ثَلاثَةِ أنْوَاعٍ: خُطبٌ مَشُورِيَّةٌ، وخُطَبٌ مُشَاجَرِيَّةٌ، وَخُطَبٌ دِينِيَّةٌ، وهَذا اِعْتِبَارًا بِحَالِ المستَمِعِينَ، حيثُ يقُولُ: " أنواعُ الخطابَةِ ثلاثَةٌ تتنَاسَبُ معَ السَّامِعِينَ، لِأَنَّ كُلَّ خُطْبَةٍ تَتَأَلَّفُ مِنْ ثَلَاثَةِ عناصِرَ: الخطِيبُ، والموضُوعُ الذي يَتَنَاوَلُهُ، والشَّخصُ الذِي يُوَجِّهُ إليهِ الخِطَابَ، – أعنِي السَّامِعَ الذِي إليْهِ يُحِيلُ الغايَةَ أوِ الهَدَفَ مِنَ الخطبَةِ – أما السَّامِعُ، فهُوَ بالضَّرُورةِ مُجَرَّدُ مُشاهِدٍ أو قاضٍ، والقاضِي إمَّا أَنْ يَحْكُمَ علَى الأُمُورِ الماضِيَةِ أو علَى الأُمُورِ المقْبِلَةِ، فَمَثَلًا العُضْوُ فِي جمْعِيَّةٍ عُمُومِيَّةٍ هوَ حَاكِمٌ ( قَاضٍ ) علَى الأُمُور المقْبِلَةِ، والقاضِي يَقْضِي فِي الأُمُور الماضِيَةِ، والمشَاهِدُ يَحْكُمُ على مَهَارَةِ الخطِيبِ، ولهذا كانَ هُناكَ بالضَّرُورَةِ ثَلَاثَةُ أنواعٍ مِنَ الخُطبِ: المشُورِيَّةُ، والمشَاجَرِيَّةُ، والبُرْهَانِيَّةُ "[2] .

**أولا: الحجَجُ والبراهِينُ**: فِي البلاغَةِ اليُونانِيَّةِ، يُطلِقُ أرِسطُو علَى الحُججِ مُصْطَلَحَ التَّصْدِيقَاتِ، وهي عندَهُ قِسْمَانِ، صِنَاعِيَّةٌ وغَيرُ صِنَاعِيَّةٍ، فالأُولى هِيَ تِلكَ التي كَانتْ مَوْجُودَةً مِنْ قَبْلُ، ولم نأتِ نحنُ بهَا، مِثلَ: الشُّهودِ، والتَّعذِيبِ، والصُّكوكِ، وما أشْبَهَهَا؛ وأمَّا الثانِيَةُ فهي كُلُّ ما يمكِنُ إعدَادُهُ بالحِيلةِ وبمجْهُودِنَا، وهكذَا مَا علَيْنَا إلَّا الاسْتِفَادَةُ مِنَ الأُولى، بينَمَا الثانِيَةُ فَيَجِبُ علَيْنَا اِكْتِشَافُهَا بِأَنْفُسِنَا "[3] .

---

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 20 .

[2] نفسه، ص : 38 .

[3] نفسه، ص : 24 .

أمَّا عندَ العرَبِ، فَإِنَّ الحُججَ تَظْهَرُ مِنْ تَقْسِيمِ الخطابَةِ، وهيَ علَى ثَلَاثةِ أَنْوَاعٍ: الخَطَابَةُ الدِّينِيَّةُ، والخَطَابَةُ السِّيَاسِيَّةُ، والخَطَابَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ، ولِكُلِّ وَاحِدٍ منهَا مَقَامَاتٌ يَقِلُّ فِيهَا الحِجَاجُ أو يزيدُ على حَسَبِ النَّوْعِ .

**1- مقاماتُ الخطابَةِ الدِّينيَّةِ**: تُقَسَّمُ إلى ثلاثَةِ أنواعٍ هِيَ: التَّعلِيمِيَّةُ، الوعظيَّةُ، الحجَاجِيَّةُ .

**أ- الخطابَةُ التعلِيمِيَّةُ**: هي التِي يَقِلُّ فيهَا عُنْصُرُ المنطِقِ والحِجاجِ والاهْتِمَامِ بتَجْمِيلِ الأُسْلُوبِ، بَلْ تَسْتَثْمِرُ عناصِرَ التَّأْكِيدِ، والأمْرِ، والنَّهْيِ، وَالعَرْضِ، وغيرها مِنْ أدَوَاتِ الجُملةِ الإِنْشَائِيَّةِ "[1]، ومثالُ ذلك خُطْبَةُ أبِي بِكْر الصِّدِيقِ فِي أُسَامَةَ وَجَيْشِهِ، التِي جَاءَ فِيهَا: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قِفُوا أُوصِيكُمْ بِعَشْرٍ فَاحْفَظُوهَا عَنِّي: لَا تَخُونُواْ، وَلَا تَغِلُّواْ، وَلَا تَغْدِرُواْ، وَلَا تُمَثِّلُواْ، وَلَا تَقْتُلُواْ طِفْلًا صَغِيرًا، وَلَا شَيْخًا كَبِيرًا، وَلَا اِمْرَأَةً، وَلَا تَعْقِرُواْ نَخْلًا وَلَا تُحْرِقُوهُ، وَلَا تَقْطَعُواْ شَجَرَةً مُثْمِرَةً، وَلَا تَذْبَحُواْ شَاةً وَلَا بَقَرَةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ ... ، سَوْفَ تَمُرُّونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَغُواْ أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدْعُوهُمْ وَمَا فَرَغُواْ أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَوْفَ تُقْدِمُونَ عَلَى قَوْمٍ يَأْتُونَكُمْ بِآنِيَةٍ فِيهَا أَلْوَانُ الطَّعَامِ، فَإِذَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَاذْكُرُواْ اِسْمَ الله عَلَيْهَا، وَتَلْقَوْنَ أَقْوَامًا قَدْ فَحَصُواْ أَوْسَاطَ رُؤُوسِهِمْ وَتَرَكُواْ حَوْلَهَا مِثْلَ العَصَائِبِ فَأَخْفِقُوهُمْ بِالسَّيْفِ خَفْقًا ... اِنْدَفِعُواْ بِاسْمِ الله "[2] .

**ب- الخطابَةُ الوعظِيَّةُ**: المسْتَمِعُ فِي الخطابَةِ الوعظِيَّةِ مَوْضُوعٌ مَوْضِعَ الغافِلِ المقَصِّرِ فيمَا يجِبُ عليهِ، وأكثرُ مَا تظهَرُ فِيهِ هذهِ الخطابَةُ فِي العصرِ الأمَوِيِّ، عَصرِ الأحزَابِ، والانْشِغَالِ بالصِّرَاعِ الدُّنْيَوِيِّ التَّارِيخِي، فالخطِيبُ فِي العصرِ الأَوَّلِ كانَ أَمْيَلَ إلَى الهدوءِ لِانْدِمَاجِهِ فِي المجتمَعِ وفَعَالِيَّتِهِ فيهِ، أمَّا فِي العصرِ الأمَوِيِّ فربما أحْسَنَ الواعِظُ الذي أصْبَحَ لَا يُمَارِسُ إلَّا هذِهِ السُّلْطَةَ، إفْلَاتُ المسْتَمِعِ مِنْ قَبْضَتِهِ فَاعْتَبَرَهُ مُنْكِرًا أوْ مُتَنَكِّرًا، وقدْ قَامَ الوعظُ أوَّلَ الأمْرِ بالمزاوَجَةِ بينَ الوَعدِ والوَعِيدِ، أو نَبْذِ

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 41 .

[2] مُحَمَّد رضا، أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، درا الكتب العلمية، بيروت، لبنان ( ب، س )، ص : 44، 45 .

الدُّنيا وتحبِيبِ الآخِرةِ "[1]، فمثالُ الأُولَى خُطَبُ الإمامِ عليِّ بنِ أبِي طالِبٍ، ومنهَا مَا كانَ فِي معركَةٍ قَادَهَا، " لما رَأَى مَيْمَنَتَهُ قَدْ عَادَتْ إلى مَوَافِقِهَا ومَصَافِّهَا، وَكَشَفَتْ مَنْ بِإِزَائِهَا مِنْ عَدُوِّهَا، حتى ضَارَبُوهَا فِي مَوَاقِفِهِمْ ومَرَاكِزِهِمْ، أَقْبَلَ حتَّى اِنْتهَى إليْهِمْ، فقال: " إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ، يَحُوزُكُمُ الطُّغَاةُ الجُفَاةُ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ العَرَبِ، والسَّنَامُ الأَعْظَمُ، وعُمَّارُ اللَّيْلِ بِتِلَاوَةِ القُرْآنِ، وَأَهْلُ دَعْوَةِ الحَقِّ إِذَ ضَلَّ الخَاطِئُونَ، فَلَوْلَا إِقْبَالُكُمْ بَعْدُ إِدْبَارِكُمْ وَكَرُّكُمْ بَعْدَ اِنْحِيَازِكُمْ، وَجَبَ عَلَيْكُمْ مَا وَجَبَ عَلَى المُوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ دُبُرَهُ، وَكُنْتُمْ مِنْ الهَالِكِينَ، وَلَكِنْ هَوَّنَ وَجْدِي، وَشَفَى بَعْضَ أُحَاحَ نَفْسِي، أَنِّي رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ حُزْتُمُوهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَأَلْزَمْتُمُوهُمْ عَنْ مَصَافِّكُمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ، تَحُسُّونَهُمْ بِالسُّيُوفِ تَرْكَبُ أُولَاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالإِبِلِ المطْرُودَةِ إِلَيْهِمْ، فالآنَ فَاصبِرُوا ... نَزَلَتْ عَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، وَثَبَّتَكُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِاليَقِينِ، وَلِيَعْلَمَ المنْهَزِمُ أَنَّهُ مُسْخِطٌ رَبَّهُ، ومُوبِقٌ نَفْسَهُ؛ إِنَّ فِي الفِرَارِ مَوْجُودَةَ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، والذُلَّ اللَّازِمِ لَهُ، وَالعَارَ البَاقِي، واِعْتِصَارَ الفَيْءِ مِنْ يَدِهِ، وَفَسَادَ العَيْشِ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَارَّ لَا يَزِيدُ الفِرَارُ فِي عُمْرِهِ، وَلَا يُرْضِي رَبَّهُ، فَمَوْتُ المرْءِ مُحِقًّا قَبْلَ إِتْيَانِ هَذِهِ الخِصَالِ خَيْرٌ مِنَ الرِّضَا بِالتَّلَبُّسِ بِهَا وَالإِصْرَارِ عَلَيْهِ "[2]؛ ومثالُ الثانيةِ خُطبُ الحسَنِ البصرِيّ رحمه الله تعالى فِي الوَعظِ، " فَمِمَّا قَالَهُ في يومِ الفطْرِ، وقدْ رأَى النَّاسَ هيئاتهم، إِنَّ الله تباركَ وتعالَى جَعَلَ رَمَضَانَ مِضْمَارًا لِخَلْقِهِ، يَسْتَبِقُونَ فِيهِ بِطَاعَتِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ، فَسَبَقَ أَقْوَامٌ فَفَازُواْ، وَتَخَلَّفَ آخَرُونَ فَخَابُواْ، فَالعَجَبُ مِنَ الضَّاحِكِ اللَّاعِبِ فِي اليَوْمِ الذِي يَفُوزُ فِيهِ المحْسِنُونَ، وَيَخْسَرُ فِيهِ المبْطِلُونَ؛ أَمَا وَالله لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ، لَشُغِلَ مُحْسِنٌ بِإِحْسَانِهِ، وَمُسِيءٌ بِإِسَاءَتِهِ، عَنْ تَرْجِيلِ شَعْرٍ أَوْ تَجْدِيدِ ثَوْبٍ "[3] .

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 43، 44، 45 .

[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج1، مكتبة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، 1352هـ/1923م، ص : 185، 186 .

[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج2، ص : 471 .

**جـ- الخطابَةُ الحِجاجِيَّةُ ( مقامُ المَناظَرَاتِ المذهبِيَّةِ )**: علَى خِلافِ الخَطَابَتيْنِ التَّعَلُمِيَّةِ والوَعْظِيَّةِ، تأتِي الخطَابَةُ الحجَاجِيَّةُ لِتُوَاجِهَ نَوْعًا ثَالِثًا مِنْ المسْتَمِعِينَ، والذي هُو علَى حَسَبِ تصنِيفِ اِبنِ رُشدٍ مِنَ المقْتَدِرِينَ على التَّأْويلِ المتطَلَّبِ إِقْنَاعُهُمْ بَرْهَنَةً وَحِكْمَةً، وهو مِنْ جهةٍ أخرَى مَوْضُوعٌ مَوْضِعَ المنْكِرِ الجاحِدِ، حَسْبَ تصنِيفِ البلاغَةِ العربِيَّةِ لمنْ يُلقِي إليْهِمُ الخَبَرَ، فاقْتَضَى الأمرُ أَنْ يعتَمِدَ علَى الحُججِ العقليَّةِ والنَّقليَّةِ، حسبَ نوْعِ الثقافَةِ والأَيْدَيُولُوجِيَّةِ التي يحمِلُهَا المخاطبُ، غير أنَّ المناظَراتِ لم تَكُنْ فِي أوَّلِ نشْأَتِهَا خَالِيَةً مِنْ تَدَخُّلِ عَناصِرَ عقليَّةً إقناعيَّةً تَصِلُ أحيانًا إلى حَدِّ التَّعسُّفِ والاحتِيالِ "[1]، ومثالُ ذلك مُناظَرَةُ الأوْزاعِيِّ مَع غيْلَانَ في مجلِسِ هشامِ بنِ عبدِ الملك، قَالَ الأَوْزَاعِيُّ: أَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسٍ أَوْ ثَلَاثٍ ؟ فَقَالَ غَيْلَانُ: عَنْ ثَلَاثٍ، قَالَ الأَوْزَاعِيُّ: هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ الله قَدْ أَعَانَ عَلَى مَا حَرَّمَ ؟ قَالَ غَيْلَانُ: مَا عَلِمْتُ، (وعَظُمَتْ عِنْدَهُ) . قَالَ: فَهَلْ عَلِمْتَ أَنَّ الله قَضَى عَلَى مَا نَهَى ؟ قَالَ غَيْلَانُ: هَذِهِ أَعْظَمُ، مَالِي بِهَذَا عِلْمٌ ، قَالَ: فَهَلْ عَلِمْتَ أَنَّ الله حَالَ دُونَ مَا أَمَرَ ؟ قَالَ غَيْلَانُ: حَالَ دُونَ مَا أَمَرَ ؟ مَا عَلِمْتُ ، قَالَ الأَوْزَاعِيُّ: هَذَا مُرْتَابٌ، مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ، فَأَمَرَ هِشَامُ بِقَطْعِ يَدِهِ وَرِجْلِهِ، ثُمَّ أَلْقَى بِهِ فِي الكنَّاسَةِ "[2]، ثم اِلْتَفَتَ هِشامُ إلَى الأوزَاعي وقال له: " قَدْ قُلْتَ يَا أَبَا عَمْرُو فَفَسِّرْ، فَقَالَ: نَعَمْ، قَضَى عَلَى مَا نَهَى عَنْهُ، نَهَى آدَمَ عَنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ وَقَضَى عَلَيْهِ بِأَكْلِهَا، وَحَالَ دُونَ مَا أَمَرَ، أَمَرَ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَأَعَانَ عَلَى مَا حَرَّمَ، حَرَّمَ المَيْتَةَ وَأَعَانَ المضْطَرَّ عَلَيْهَا "[3] .

**2- مقاماتُ الخطابةِ السِّياسيّة**: تقسَّمُ الخطابةُ السياسيَّةُ عندَ العُمريّ إلى قِسميْن هما: خطابَةُ الأندادِ، وخطابَةُ غير الأندادِ، وهذا مَا يُستَشَفُّ مِنْ قولِهِ: " يمكنُ تصنِيفُ الخطابةِ السياسيّةِ

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 46 .

[2] ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الثاني، تح : مفيد مُحَمَّد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1404هـ/1983م، ص : 219

[3] نفسه، ص 220 .

حسَبَ العلاقةِ بينَ المتحاوِرِينَ، إلى صنفيْنِ كبيريْنِ يَضُمَّانِ تصنِيفاتٍ فرعيّةٍ وهما: 1- الحوارُ بينَ الأندادِ، 2- الحوارُ بين الرّاعِي والرعيّةِ "[1] .

**أ- خطابَة الأندادِ:** أغلبُها كانَ على الخِلافةِ، ويعتَمدُ هذا الحوارُ على النُّصح والمشاوَرَاتِ والمناظَرَاتِ، ومثالُهُ خُطبَةُ أبِي بكرٍ الصِّدّيقِ يوم السَّقيفَةِ، وهي خطبَةٌ طويلةٌ جِدًّا، اِقتطَفْنَا منها مَا يَلِي: قال الصدّيق بعد أنْ حمد الله وأثنَى عليهِ وصلَّى على رسُوله الكريم ﷺ: " أَمَّا بَعْدُ، يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، فَإِنَّكُمْ لَا تَذْكُرُونَ مِنْكُمْ فَضْلًا إِلَّا وَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ، وَإِنَّ العَرَبَ لَا تَعْرِفُ هَذَا الأَمْرَ إِلَّا لِهَذَا الحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ دَارًا وَنَسَبًا، وَلِكَنْ قَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، فَبَايِعُواْ أَيَّهُمَا شِئْتُمْ * "[2] .

وهناك خُطبٌ أخرى أشارَ إليهَا العُمري ولم نرَ أنَّ هنالِك بُدًّا مِنْ إيرادها جمِيعًا، كخُطبةِ عثمانَ بنِ عفان ﷺ بعدَ مقتَلِ سيّدنا عمرَ بنَ الخطاب ﷺ إضافَةً إلى نوعٍ آخرَ مِنَ الخُطبِ التِي تُذْكَرُ في ذاتِ الصّددِ، إلا أنها تَتميَّزُ بكونِها داخِلَ الأحزَابِ والجمَاعاتِ، كتشاوُرِ الخوارِجِ في شأنِ عبد الله بنِ الزُّبيرِ وتشاوُرِ الشِّيعة حينَ عزَمَ الحُسين على السَّفرِ إلى الكُوفةِ، والمشاورَاتِ داخلَ حَرَكَةِ التوَّابِينَ بعد مَقتَلِ الحسين وغيرها ... .

ثم جاءَ نوعٌ آخرُ مِنَ الخطابةِ الاستشاريَّةِ المظهريَّةِ التي لا تشَاوُر فيها، غير أنَّ مِنَ الخطباءِ مضنِ اِصطنَعَ لها لُغَةَ الخُطبِ الاستشاريَّةِ، كقضيَّةِ بيْعَةِ يزيدِ بنِ مُعاويَةَ، ومثالُه قولُ يزِيدِ بن المقنع " أَمِيرُ المؤْمِنِينَ هَذَا – وأشار إلى معاوية –، فَإِنْ هَلَكَ فَهَذَا – وأشار إلى يزيد –، فَمَنْ أَبَى فَهَذَا – وأشار إلى سيفه، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةَ : اِجْلِسْ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الخُطَبَاءِ "[3] .

---

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 50، 51 .

[*] أخذ بيد سيدنا عمر بن الخطاب، وبيد سيدنا عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنهما وعن الصدّيق، وعن الصحابة أجمعين .

[2] أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، الجزء الثالث، تح : مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرف، مصر، الطبعة الثانية، 1387هـ/1967م، ص : 205، 206 .

[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الجزء الثاني، ص : 232 .

هذا ويشيرُ العمريُّ إلى أنَّ " الخُطبِ السياسيَّةِ الهادئةِ القائمةِ على الحِجاجِ قليلَةٌ جدًّا في الخطابَةِ العربيَّةِ، وذلك أنَّ العلاقةَ بين الأنْدادِ أَنْفُسِهِمْ كانتْ مَيَّالَةً إلى حسْمِ الأمورِ بطُرُقٍ أُخْرَى غَيْرَ طُرُقِ الإِقْنَاعِ، وَمَعَ ذَلِكَ نجدُ نماذجَ للحِوارِ الهادِئ بينَ الخوارِجِ والأطرافِ الأخرَى، والأمرُ راجعٌ في نظرِنا إلى عدمِ مُطَالَبَتِهِمْ بالخلافةِ "[1] .

**ب– خطابَةُ غيرِ الأندادِ ( الحوارُ بينَ الرَّاعِي والرعيَّةِ )**: ما يُلاحظُ على هَذا النَّوعِ أنَّه لم يكنْ معرُوفًا في عهدِ النبي ﷺ على الرَّغمِ مِنْ عدمِ وجُود نِدٍّ لهُ، وذلك لأنّ رسولَ الله ﷺ لم يكنْ يتعامَلُ مع رَعِيَّتِهِ بالطريقةِ التي سنَعْرِفُهَا الآن معَ بعضُ القُوَّادِ أو الخُلَفَاءِ، بل كانَ عَادِلًا وَرَاحِمًا قولًا وفعلًا، قال الله تعالى :وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ [ سورة الأحزاب : 43 ]، وعلى هذا تَكونَ بدايَةُ هذا النَّوعِ عندَ العُمري " يَوْمَ الدَّارِ حِينَ اِتَّهَمَ الثُّوَارُ سِيَاسَةَ الخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَدْ فُرِضَ عَلَيْهِ وَقْتَئِذٍ أَنَّ يُلِينَ خِطَابَهُ، وَيَقْبَلَ النَّصَفَ فِي نَفْسِهِ، وَيُخَاطِبَهُمْ مُخَاطَبَةَ النَّدِ لِلنَّدِ "[2]، ومما جاءَ فِي خُطبةِ عثمانَ بعدَ حَمْدِهِ الله عزَّ وجل والثَّناءِ عليهِ والصلاة على النبي ﷺ قولُهُ: " أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّكُمْ لَمْ تَعْدِلُواْ فِي المنْطِقِ، وَلَمْ تُنْصِفُواْ فِي القَضَاءِ، أَمَّا قَوْلُكُمْ تَخْلَعُ نَفْسَكَ، فَلَا أَنْزَعُ قَمِيصًا قَمَّصَنِيهِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَأَكْرَمَنِي بِهِ، وَخَصَّنِي بِهِ عَلَى غَيْرِي، وَلَكِنِّي أَتُوبُ وَأَنْزِعُ، وَلَا أَعُودُ لِشَيْءٍ عَابِهِ المُسْلِمُونَ، فَإِنِّي – والله – الفَقِيرُ إِلَى الله، الخَائِفُ مِنْهُ ( ... ) وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: تُقَاتِلُونَ مِنَ دُونِي، فَإِنِّي لَا آمرُ أَحَدًا بِقِتَالِكُمْ، فَمَنْ قَاتَلَ دُونِي فَإِنَّمَا قِتَالٍ بِغَيْرِ أَمْرِي ... "[3].

والنوعُ الثاني هو خطابُ الاتهامُ والتهدِيدُ والوعيدُ الذي قامتْ عليهِ خطَبُ بني أميَّةَ بَعد انهزامِ الشِّيعةِ وقتْلِ زعمَائِهِمْ، واتَّسعَتِ الهوَّة بينهمْ وبين الخطابِ الأمويِّ وجماهِيرِه في الكُوفةِ، مع اِتِّساعِهَا أيضًا بينَهُم وبين أهلِ الحِجازِ ( مكة والمدينة ) بعدَ اِسْتِباحَةِ المدِينةِ وقتْلِ ابنِ الزبير في

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 54 .

[2] نفسه ، ص : 55 .

[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج1، ص : 104 .

مكَّةَ "[1]، وفِي هذا خُطب كثيرةٌ منها خطبةُ الحجّاجِ بنِ يوسفَ الثَّقفي في أهلِ الكوفةِ حينَ عزمَ على الحجِّ، فقال: يَا أَهْلَ الكُوفَةِ، إِنِّي أُرِيدُ الحَجَّ وَقَدِ اِسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمُ اِبْنِي مُحَمَّدًا، وَأَوْصَيْتُهُ بِخِلَافِ وَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ فِي الأَنْصَارِ، فَإِنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُقْبَل مِنْ مُحْسِنِهِمْ، ويُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَإِنِّي قَدْ أَوْصَيْتُهُ أَلاَّ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِكُمْ، وَلَا يَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ، أَلَا وَإِنَّكُمْ سَتَقُولُونَ بَعْدِي: لَا أَحْسَنَ الله لَهُ الصَّحَابَةَ ، أَلَا وَإِنِّي مُعَجِّلٌ لَكُمُ الجَوَابَ: لَا أَحْسَنَ الله لَكُمُ الخِلَافَةَ "[2] .

وهناكَ نوعٌ ثالثٌ يتمثَّلُ في الخطابةِ السياسيّةِ الدينيّةِ، والتي جاءَتْ بعدَ فشلِ الخطابَةِ السياسيَّةِ المباشِرةِ، فظهَرَتِ الوُعودُ بالصَّلاحِ والاستقامَةِ وأداءِ الحقُّوقِ ... الخ، وأكثرُ ما نَجدُ هذا النَّوعَ عند الخليفةِ عمرَ بنَ عبد العزيزِ، الذي جمعَ بين الإمارةِ والزُّهد، ومما جاء في خُطَبِهِ قوله: " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا نَحْنُ مِنْ أُصُولٍ قَدْ مَضَتْ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ أَصْلِهِ ؟ وَإِنَّمَا النَّاسُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَغْرَاضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِمُ المَنَايَا، وَهُمْ فِيهَا نُصْبَ المصَائِبِ، مَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرْقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ، لَا يَنَالُونَ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ "[3] .

وكان الحوارُ بين الرّاعِي والرعيّةِ يستولِي علَى الخطابةِ في آخرِ العصرِ الأمويّ، إذِ انشغلَ الشِّيعةُ في هذه الفترةِ بالعملِ السِّريّ المنظَّمِ فقلَّتْ خُطَبُهُمْ أو لَمْ يَصِلْنَا –كما يرى العمري – منها شيءٌ كثِيرٌ "[4] .

**الرؤيَةُ العامَّةُ للخطابتيْنِ (السياسيَّةُ والدينيَّةُ)**: يرى العُمريُّ أنَّ الرؤيَةَ العامَّةَ بين الخطابَتيْنِ مُوَحَّدَةٌ تتمثَّلُ في أربعَةِ عناصِرَ هي: 1- الدَّعوةُ إلى الطَّاعةِ، 2- الدَّعوةُ إلى العِصيَانِ، 3- الوعدُ، 4-

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 55 .

[2] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الجزء الأول، تح : مُحَمَّد إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، العراق، الطبعة الأولى 1428هـ/2007م، ص : 220 .

[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الجزء الثاني، ص : 189 .

[4] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 57 .

التهدِيدُ والوعِيدُ [1] .

| الرؤية العامة | نوع الخطبة |
|---|---|
| الدعوة إلى الطاعة | – طاعة الله عز وجل / خطابة دينية<br>– طاعة أولي الأمر عند بني أمية / خطابة سياسية<br>– الطاعة والوفاء للحزب عند الشيعة / خطابة سياسة |
| الدعوة إلى العصيان | – الثورة على الخصوم ومحاربتهم، كالخوارج والشيعة / خطابة سياسية |
| الوعد | – الوعد بالجنة وحسن الثواب عند الوعاظ / خطابة دينية<br>– الوعد بالجنة وحسن الثواب عند الخوارج / خطابة سياسية<br>– الوعد بالعطاء الجزيل وحسن المعاملة عند بني أمية / خطابة سياسية |
| التهديد والوعيد | – التهديد بعذاب الله ونقمته عند الوعاظ / خطابة دينية<br>– التهديد بعذاب الله ونقمته عند الشيعة / خطابة سياسية<br>– التهديد بالحرمان والقتل عند بني أمية/خطابة سياسية |

**3– مَقاماتُ الخطابَةِ الاجتماعيَّةِ:** يصنِّفُ العمريُّ الخطابَةَ الاجتماعيَّةَ إلى صِنْفَيْنِ، خُطَبٌ ذَاتُ طبيعَةٍ موضوعيَّةٍ، وخطَبٌ ذاتُ طبيعةٍ وجدانيَّةٍ، تتناوَلُ الأولى العلاقَةَ بينَ النَّاسِ، وتعظِيمِ المجتمَعِ

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 58، 59 .

مثلَ: خُطَبِ الإمْلَاكِ، والصُّلَحِ، والمخَاصَمَاتِ القَضَائِيَّةِ، وتهدِفُ الثانيَةُ إلى المشارَكَةِ أو الإشْرَاكِ في المسرَّاتِ والأحزَانِ، كالتعزِيَةِ، والتَّهنِئَةِ، وَوَصْفِ المشاهِدِ والبِلَادِ "[1] .

**أ- الخُطبُ الموضُوعِيَّةُ:** يكونُ المتلَقِّي فِي الخُطبِ ذاتِ الطبِيعةِ الموضُوعيّةِ مجرَّدَ حَكَمٍ يَنْظُرُ فِي حُججِ المتخاصِمِينَ بِحِيَادٍ يجعَلُهُمَا يَعتَمِدانِ الحجَّةَ المقنِعَةَ والأحوَالَ المؤثِّرَةَ، كمَا يَعتَمِدَانِ التَّأثِيرَ الأُسلوبِيَّ "[2]، ومثالُ ذلكَ مخاصَمَةُ أبِي الأسْوَدِ الدُّؤلِي وزوجَتِهِ عندَ زِيادِ بنِ أبِيهِ، ذلكَ أنَّه قدْ " جرَى بينَ أبِي الأسْودِ الدُّؤلِي وامرَأتِهِ كلامٌ في ابنٍ لَهَا منهُ، وأرادَ أخذَهُ منهَا، فسارَا إلى زِيادٍ وهوَ فِي البصرَةِ، فَقالتِ المرأةُ: أَصْلَحَ الله الأَمِيرَ، هَذَا اِبْنِي، كَانَ بَطِنِي وِعَاءَهُ، وَحِجْرِي فِناءَهُ، وَثَدْيِي سِقَاءَهُ، أَكْلَؤُهُ إِذَا نَامَ، وَأَحْفَظُهُ إِذَا قَامَ، فَلَمْ أَزَلْ بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامٍ، حَتَّى إِذَا اِسْتَوْفَى فِصَالُهُ، وَكَمُلَتْ خِصَالُهُ، وَاِسْتَوْكَعَتْ أَوْصَالُهُ، أَمَّلْتُ نَفْعَهُ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرْهًا، فَآدِنِي أَيُّهَا الأَمِيرُ، فَقَدْ رَامَ قَهْرِي وَأَرَادَ قَسْرِي ؛ فَقَالَ أَبُو الأَسْوَدِ: أَصْلَحَكَ الله، هَذَا اِبْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ، وَوَضَعْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدَبِهِ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ، وَأَمْنَحُهُ عِلْمِي، وَأُلْهِمُهُ حِلْمِي، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ، وَيَسْتَحْكِمَ فَتْلُهُ ؛ فَقَالَتِ المرْأَةُ: صَدَقَ أَصْلَحَكَ الله، حَمَلَهُ خِفًّا، وَحَمَلْتُهُ ثِقْلًا، وَوَضَعَهُ شَهْوَةً، وَوَضَعْتُهُ كَرْهًا ؛ فَقَالَ لَهُ زِيَادُ: أُرْدُدْ عَلَى المرْأَةِ وَلَدَهَا، فَهِيَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ وَدَعْنِي مِنْ سَجْعِكَ "[3] .

ويُضيفُ العُمري إلى هذَا النَّوعِ خُطَبًا ورَدتْ فِي الجاهليَّةِ، مِثلَ خُطبةِ أبِي طَالِبٍ عَمّ رسُولِ الله ﷺ، عندَ زواجِ الرَّسولِ ﷺ بالسيِّدةِ خَديجةَ، وخُطبَةِ بِلالِ بْنِ رباحَ فِي زواجِ أخيهِ خالِد، وخُطبِ الحَسنِ البَصرِيِّ التي كانَ يُلقِيهَا فِي مُناسباتِ الزَّواجِ، وكان المقامُ يقْتضِي في هَاتهِ الخُطبِ أنْ يُطِيلَ الخَاطِبُ ويُقَصِّرَ المجِيبُ "[4]، وهذه هِي خُطبُ الإملاكِ، أمَّا خُطبُ الصُّلح والحَمالَاتِ

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 66 .

[2] نفسه، ص : 62 .

[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الجزء الثاني، ص : 376، 377 .

[4] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 66 .

فَتَتَمَيَّزُ بالإطالةِ لأجْلِ إعطاءِ الفُرصَةِ الكامِلَةِ لِلمُتخَاصِمِينَ حتَّى يتسَامحُوا ويَتصَالحُوا فيمَا بينَهمْ، كَخُطَبِ النحّارِ بْنِ أَوْسٍ العُذْرِيّ، " فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الحَمَالَاتِ وَفِي الصَّفْحِ وَالاحْتِمَالِ وَصَلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ وَتَخْوِيفِ الفَرِيقَيْنِ مِنَ التَّفَانِي وَالبَوَارِ، كَانَ رُبَّمَا رَدَّدَ الكَلَامَ عَلَى طَرِيقِ التَّهْوِيلِ وَالتَّخْوِيفِ، وَرُبَّمَا حَمِيَ حَتَى نَخَرَ "[1] .

**ب- الخُطبُ الوُجدانيَّةُ:** يكونُ الخطِيبُ فِي الخُطَبِ الوُجدانيَّةِ أَشْبَهَ مَا يَكونُ بِوَضْعِ الشَّاعرِ، فالاسْتمَالَةُ فيهَا مُقدَّمةٌ علَى الحُجةِ فِي الغالبِ، إذْ يسعَى الخطِيبُ لمشارَكَةِ الآخَرِينَ ما يَجِدهُ أو يتظَاهرُ بِهِ، أو إشعارِهِمْ بمشارَكَتِهِ إيَّاهُم وتَعَاطُفِهِ معهُم فيمَا ألمَّ بهِمْ، على أنَّ الخطِيبَ في مثلِ هذهِ الموضُوعاتِ قدْ يُواجِهُ نَفْسَهُ مُرسِلًا ومُتَلَقِّيًا، كمَا فِي نَدْبِ الموتَى وتَأْبِينِهِمْ "[2]، ومثالُه كلِمَةُ فَرْغَانَةَ على قبْرِ الأحْنَفِ بْنِ قيسٍ: " إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، رَحِمْكَ اللهُ أَبَا بَحْرٍ مِنْ مُجَنٍّ فِي جَنَنٍ، ومُدْرَجٍ فِي كَفْنٍ، فَوَ الذِي اِبْتَلَانَا بِفَقْدِكَ، وَأَبْلَغَنَا يَوْمَ مَوْتِكَ، لَقَدْ عِشْتَ حَمِيدًا، وَمُتَّ فَقِيدًا، وَلَقَدْ كُنْتَ عَظِيمَ الحِلْمِ، فَاضِلَ السِّلْمِ، رَفِيعَ العِمَادِ، وَارِيَ الزِّنَادِ، مَنِيعَ الحَرِيمِ، سَلِيمَ الأَدِيمِ، وَإِنْ كُنْتَ فِي المَحَافِلِ لَشَرِيفًا، وَعَلَى الأَرَامِلِ لَعَطُوفًا، وَمِنْ النَّاسِ لَقَرِيبًا، وَفِيهِمْ لَغَرِيبًا، وَإِنْ كُنْتَ لَمُسَوَّدًا، وَإِلَى الخُلَفَاءِ لَمُوَفَّدًا، وَإِنْ كَانُوا لِقَوْلِكَ لَمُسْتَمِعِينَ، وَلِرَأْيِكَ لَمُتَّبِعِينَ "[3] .

## نماذج من الأقيسة الخطابية:

**أ- التعارُض والتّضادُ:** أوْردَ العُمري في هذا النَّوعِ أمثلَةً كثِيرةً مِنْ خُطَبِ العربِ ومُناظَراتِهم، كَخُطبِ الحجَّاجِ بْنِ يوسُفَ الثَّقفِي، والأحنَفِ بْنِ قيسٍ وغيرهما ... ونذْكُرُ مِنْ ذلِك مَا كانَ مِنَ الأحْنَفِ بْنِ قيسٍ مع سيِّدنَا معاويَةَ ﷺ، فقدْ " رُوِيَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا نَصَّبَ يَزِيدَ لِوَلَايَةِ العَهْدِ أَقْعَدَهُ فِي قُبَّةٍ حَمْرَاءَ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُسَلِّمُونَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، ثُمَّ يَمِيلُونَ إِلَى يَزِيدَ، حَتَّى جَاءَ

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأول، ص : 105 .

[2] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 67 .

[3] الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص : 302 . / فرغانة : هي فرغانة بنت أوس بن حجر / أجنه في الجنن أي وضعه في القبر، وأجنه أي ستره .

رَجُلٌ فَفَعَلَ ذَلِكَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ، اِعْلَمْ أَنَّكَ لَوْ لَمْ تُوَلِّ هَذَا أَمْرَ المسْلِمِينَ لَأَضَعْتَهَا – والأحنف جالس – فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: مَا بَالُكَ لَا تَقُولُ يَا أَبَا بَحْرٍ ؟ فَقَالَ: أَخَافُ الله إِنْ كَذَبْتُ، وَأَخَافُكُمْ إِنْ صَدَقْتُ "[1]، والتضادُّ المقصودُ هنا في قولِهِ: أخافُ الله إنْ كذبتُ وأخافُكم إنْ صدقْتُ .

**ب– التَّقسِيمُ المستقْصِي**: ومِنْ أمثلَةِ هذا النّوعِ قولُ الحجّاجِ في إِحدَى خُطَبِهِ لأهلِ البصرَةِ: " مَا لِي أَرَى عُلَمَاءَكُمْ يَذْهَبُونَ، وَجُهَّالَكُمْ لَا يَتَعَلَّمُونَ "، فهو هُنا أَقْصاهُمْ مِنَ العِلمِ، ومِنَ التعلُّم مَعًا، ونَصُّ الخطبَةِ كالآتي : " قَالَ الحَجَّاجُ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ: إِنَّ الله كَفَانَا مَؤُونَةَ الدُّنْيَا، وَأَمَرَنَا بِطَلَبِ الآخِرَةِ، فَلَيْتَهُ كَفَانَا بِمَؤُونَةِ الآخِرَةِ وَأَمَرَنَا بِطَلَبِ الدُّنْيَا، مَا لِي أَرَى عُلَمَاءَكُمْ يَذَهَبُونَ، وَجُهَّالَكُمْ لَا يَتَعَلَّمُونَ، وَشِرَارَكُمْ لَا يَتُوبُونَ ؟ مَا لِي أَرَاكُمْ تَحْرِصُونَ عَلَى مَا كُفِيتُمْ، وَتُضِيعُونَ مَا بِهِ أُمِرْتُمْ ؟ إِنَّ العَمَّ يُوشِكُ أَنْ يُرْفَعَ، وَرَفْعُهُ ذَهَابُ العُلَمَاءِ، أَلَا وَإِنِّي أَعْلَمُ بِشِرَارِكُمْ مِنَ البَيْطَارِ بِالفَرَسِ، الذِينَ لَا يَقْرَءُونَ القُرْآنَ إِلَّا هَجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبُرًا، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَأْكُلُ مِنْهَا البَرُّ وَالفَاجِرُ، أَلَا وَإِنَّ الآخِرَةَ أَجَلٌ مُتَأَجِّرٌ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ، أَلَا فَاعْمَلُواْ وَأَنْتُمْ مِنَ الله عَلَى حَذَرٍ، وَاِعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوه، لِيَجْزِيَ الذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الذِينَ أَحْسَنُوا بِالحُسْنَى، أَلَا وَإِنَّ الخَيْرَ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ الشَرَّ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي النَّارِ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، وَأَسْتَغْفِرُ الله لِي وَلَكُمْ "[2] .

**صُوَرُ الحجَاجِ**: يُعدُّ الحجاجُ مِنْ أهمّ الركائِزِ التِي تَعتَمِدُ عليْهَا الخُطبَةُ، سَواءٌ كانَتْ يُونانِيَّةً أوْ عربِيَّةً، أو غيرَ ذلِكَ، ولِذلِكَ يُفرِدُ لَه العُمريُّ فصْلًا خاصًّا يَدرُسُ فيه صُوَرَهُ الثَّلاثَةَ وهي: " القِيَاسُ، والمثَالُ، والشَّاهِدُ "، ذَلك أنَّ الخَطيبَ إذا أرادَ أنْ يَحْتَجَّ أَوْ يُحَاجِجَ، فإنهُ مُجبَرٌ بالضَّرورَةِ علَى الأخْذِ بإحدَى هذهِ الصُّوَرِ، أوِ الأخذِ بِجَمِيعِهَا، وهاتِهِ الصُّوَرُ الثَّلَاثَةُ يجمَعُهَا أمرٌ واحدٌ فِي نَظرِ العُمري

[1] المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، المجلد الأول، تح : عبد الحميد هنداوي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، طبعة سنة 1319هـ/1998م، ص : 98 .

[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الجزء الثاني، ص : 283 .

وهُوَ " الدَّعْوَةُ إِلى الانسِجَام إِمَّا داخلِيًّا أو خارجِيًّا، فالانسِجامُ الدَّاخليُّ هو القيَاسُ الخطابِيُّ، الذي يتَّسعُ ليشمَلَ جمِيعَ صُوَرِ الاسْتِقراءِ والاسْتِنتاجِ القَائِمَةِ على الاحتِمَالِ لا القَطْعِ "[1]، وأما الانْسجامِ الخارِجِيِّ، فهوَ ما يُسمَّى عندَ أرِسطُو بالحُججِ الجَاهِزَةِ أوْ غيرِ الصِّنَاعِيَّةِ "[2] .

**أ- صُورُ الحِجاجِ فِي ضَوءِ الانسِجامِ الدَّاخِلي:** وهي ثلاثَةٌ كمَا قُلنا مِنْ قبلُ: " القِياسُ، والمثالُ، والشَّاهدُ " .

**1- القياسُ:** وقدْ جمَع أرسْطُو مجمُوعةً مِنَ البراهِينِ الخطابِيَّةِ تحْتَ مَا تُرْجِمَ بالقِياسِ المضمرEnthyméme الذِي يَقُوم عَلى الاحتِمالاتِ، والاحتمَالَاتُ نَوْعَانِ، نَوْعٌ عَامٌّ يمكن أَنْ يطبَّقَ فِي جمِيعِ الموادِ، مِثْلَ مَبْدأ الأقلِّ والأكْثِرِ، وتُدعَى المواضِعِ العامَّةِ Lieux communs أوِ المواضِعِ Lieux فَحسْبُ، هناكَ حُجَجٌ خاصَّةٌ مُسْتَخلصَةٌ اِنطِلاقًا مِنْ مَفاهيمَ خاصَّةً وهيَ فِي هذِهِ الحالَةِ تُطبَّقُ فِي الموادِ التِي لَهَا عَلاقَةٌ بهذهِ المفاهِيمِ، وقَدمَ أرسطُو فِي كتابِ الخَطابَةِ ثَمانٍ وعشرِينَ حالةً مِنَ البَرهَنةِ بِالقِياسِ المضمَرِ وهِي الأقْيِسةُ الاسْتِدلَالِيَّةُ، وأربعةً مِنَ الأقْيسَةِ التَّفْنِيدِيَّةِ، واِهتمَّ بِيرلمان وأولبريخت تِيتيكا مِنْ هذهِ الأفكارِ العامَّةِ أوِ المواضِعِ، بِفِكْرَتَيِ الكمِّ والكيْفِ، كانَ بالإِمكانِ فِي نَظرِهِمَا إِدماجُ ما سِواهُما فِيهمَا مِثلَ فِكْرَةَ التَّرتِيبِ، والوُجودِ والجَوهرِ والشَّخْصِ "[3] .

**2- المثَلُ:** يقومُ المثَلُ فِي الخطابَةِ مَقَامَ الاسْتقرَاءِ فِي المنطِقِ، أوِ المثلِ هُو اِستقْراءٍ بَلَاغِيٍّ، والمثَل حُجَّةً تقُومُ علَى المشَابَهَةِ بيَن حَالتيْنِ فِي مُقدِّمَتِهِمَا، ويُرادُ اِسْتنتَاجُ نهايَةَ إِحْدَيْهِمَا بالنَّظرِ إلى نهايَةِ مُمَاثِلَتِهَا "[4]

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 71 .
[2] نفسه، ص : 90 .
[3] نفسه، ص : 71، 72 .
[4] نفسه، ص : 82 .

والمثَلُ عندَ أرسْطُو يَنْقسِمُ إلى قِسْمَيْنِ، تَارِيخِي ومُصْطَنَعٌ، فالمُصْنَطَعُ إمَّا أَنْ يكونَ بالتَّشابُهِ، كالاسْتشهَادِ علَى فَسادِ القُضاةِ بالقُرعةِ وتَفْنِيدِ رأيِ مَنِ اِقتَرَحَ ذلكَ بِفَسادِ اِخْتِيارِ المتَصارِعِينَ أو رُبَّانِ السَّفينةِ، وإمَّا أَنْ يكُون مَثَلًا حُرَافِيًّا، كَقِصَّةِ اِستِعبَادِ الفُرْسِ، التِي حَاكَهَا الشَّاعرُ اليُونانيُّ اِسْطِيسْحُورْسْ لأهْلِ صِقِلِيَّةَ .

والنَّوعُ الثَّانِي التَّارِيخِي، فهوَ كأنْ تُريدَ الحُصولَ عَلى شَيْءٍ مَا، وكانَ غَيرُكَ قدْ حَصَلَ عليْهِ قَبْلكَ فِي زمَنٍ مضَى، عَنْ طَرِيقِ سُلوكِ فِعلٍ مُعَيَّنٍ، فَيُصْبِحُ مِنَ الواجِبِ عليْكَ أنْ تَسلُكَ نَفسَ السُّلوكِ لِتَنَالَ هذا الشيءَ، " كَمَا لوْ قَالَ قائلٌ إنَّهُ ينبَغِي لِلْملِكِ أنْ يَستَعِدَّ ولَا يُخلي العدُوَّ ودخُولَ مِصرَ، فإنَّ دَارْيُوسَ أيْضًا فِي تِلكَ الغُزَاةِ لمْ يتقَدَّمْ دُونَ أنِ اِحْتوَى عَلى مِصْرَ، فَلمَّا حَوَاهَا دَلَفَ ... والآن أيضًا إنْ أخذَ العَدُوُّ مِصرَ مَضَى قُدُمًا، فَليسَ ينْبَغِي لِلملِكِ أنْ يُرَخِّصَ فِي ذلكَ "[1] .

وبالنِّسبةِ لتعرِيفِ المثالِ عندَ العَربِ، فقدْ أوْرَدَ العُمريُّ مجمُوعَةً مِنَ التَّعرِيفَاتِ، منهَا تَعرِيفُ ابْنُ وَهَبٍ الذِي يقُولُ: " وَأمَّا الأمْثَالُ فإنَّ الحُكمَاءَ، والعُلمَاءَ، والأُدبَاءَ، لمْ يزَالُوا يَضرِبُونَ الأمْثَالَ ويُبَيِّنُونَ للنَّاسِ تَصْرِفُ الأحْوالَ بِالنَّظائِرِ والأَشْكَالِ، ويَرَوْنَ هَذا النَّوْعَ مِنْ القوْلِ أنْجَحَ مَطْلَبًا، وأقْربَ مذْهَبًا، ولذلِكَ قال الله عز وجل : ﴿ ٥٧ ﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿ ٥٨ ﴾ [ سورة الروم : 58 ]، وإنَّمَا فَعَلَتِ العُلمَاءُ ذَلكَ لِأَنَّ الخبرَ فِي نَفسِهِ، كانَ ممكِنًا فهو مُحتاجٌ إلَى مَا يَدُلُّ على صِحَّتِهِ، والمثلُ مقرُونٌ بالحُجَّةِ ..."[2]، وعندَ الرَّاغِبِ الأَصْفَهَانِي " المثلُ عِبارَةٌ عنْ قَولِ شيْءٍ فِي شَيْءٍ يُشْبُهُ قوْلًا فِي شيْءٍ آخَرَ بَيْنَهُمَا مُشَابَهَة، ليبيّنَ أحدُهُمَا الآخر، ويصَوِّرُهُ، نحو قوْلهم : الصّيْفَ ضَيَّعْتَ اللَّبَنَ، فَإنَّ

[1] أرسطو طاليس، الخطابة الترجمة العربية القديمة، تح : عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1979م، ص : 138، 139

[2] ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، 118 .

هذا القولَ يشبِهُ قولَكَ : أَمْهَلْتَ وَقْتَ الإِمْكَانِ أَمْرَكَ "[1]، إضافَةً إلى تعرِيفَاتٍ أُخرَى أَوْرَدَهَا العُمرِيُّ لبعضِ العُلماءِ مِثلَ الزّركشي، والرّازي وغيرهم ... .

وعنْ معنَى المثلِ فِي القرآنِ الكرِيمِ، اِسْتَشْهَدَ العُمري بقولِهِ تعالى: ۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [ سورة الحشر : 21 ]، وقوله تعالى : ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ [ سورة العنكبوت : 43 ] ، فالمثَلُ فِي القُرآنِ مُرتَبِطٌ بالتَّفَكُّرِ، والاعْتِبارِ، والتَّعقُّلِ، والتَّعَلُّمِ، لَا لِمُجَرَّدِ الذِّكْرِ .

هذا ويرى العمريُّ أنَّ المثلَ يُعتبرُ دعامَةً كُبرى مِنْ دعائِمِ الخَطابَةِ لِمَا يُحَقِّقُهُ مِنْ إقناعٍ وتأثِيرٍ، وإذَا أَخَذْنَاهُ بمعنَاهُ الوَاسِعُ الذِي يشمَلُ التَّشبِيهَ والاسْتِعارَةَ، ولنَ نفَعلَ ذلكَ إِلَّا فِي حُدودٍ ضَيِّقَةٍ، صَار أَهمَّ دَعائِمِ هذِه البلاغةِ "[2] .

## نماذِجُ عنِ المثلِ:

**1- المثلُ التاريخي:** كقَصصِ الأُممِ في القرآنِ الكرِيمِ، وبالنّسبَةِ للخَطابةِ يكُونُ فِي الحالَاتِ التِي يَحصُلُ فِيها حَرَجٌ عندَ الخَطيبِ، فَيضْطَرُّ عندهَا لِتَبْرِيرِ الوضعيَّةِ المحرِجَةِ التِي يَمُرُّ بِهَا فِي خُطْبَتِهِ، مثل مَا أُثِرَ عَنِ الحَجَّاجِ بَعدَ مقتَلِ اِبنِ الزُّبيرِ حيث قَالَ: " مَوْجُ لَيْلٍ اِلْتَطَمَ، وَاِنْجَلَى بِضَوْءٍ صُبْحُهُ، يَا أَهْلَ الحِجَازِ، كَيْفَ رَأَيْتُمُونِي ؟ أَلَمْ أَكْشِفْ ظُلْمَةَ الجَوْرِ، وَطِحْيَةَ البَاطِلِ بِنُورِ الحَقِّ ؟ واللهِ لَقَدْ وَطِئَكُمُ الحَجّاجُ وَطْأَةَ مُشْفِقٍ، وَعَطْفَةَ رَحِمٍ، وَوَصْلَ قَرَابَةٍ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَزِلُّواْ عَنْ سَنَنٍ أَقَمْنَاكُمْ عَلَيْهِ، فَأَقْطَعَ عَنْكُمْ مَا وَصَلْتُهُ لَكُمْ بِالصَّارِمِ البَتَّارِ، وَأُقِيمَ مِنْ أَوْدِكُمْ مَا يُقِيمُ المُثَقِّفُ أَوْدَ القَنَاةِ بِالنَّارِ، ... ثُمَّ نزلَ وَهُو يقُولُ [3] :

---

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، الجزء الأول، تح : مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، ( ب، س )، ( ب، ط )، ص : 596 .

[2] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 85 .

[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الجزء الثاني، ص: 397 .

أَخُو الحَرْبِ إِنْ عَضَّتِ الحَرْبُ عَضَّهَا * وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ شَمَّرَا [1]

**2- المثلُ الخُرافيُّ:** كالذِي نَجدُه فِي حِكايَاتِ اِبنِ المقفَّعِ، ومثالُهُ فِي الجانِبِ الخطَابِي خُطبةَ عبدِ الملِكِ بنِ مَروانَ حينَ رَفَضَ أهلُ المدِينةِ أُعْطِيَاتِهِ لهمْ فخطَبَ قائلا: " يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَثَلُنَا وَمَثَلُكُمْ أَنَّ أَخَوَيْنِ فِي الجَاهِلِيَّةِ خَرَجَا مُسَافِرَيْنِ، فَنَزَلَا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ تَحْتَ صَفَاةٍ، فَلَمَّا دَنَا الرَّوَاحُ خَرَجَتْ إِلَيْهِمَا مِنْ تَحْتِ الصَّفَاةِ حَيَّة تَحْمِلُ دِينَارًا، فَأَلْقَتْهُ إِلَيْهِمَا، فَقَالَا: إِنَّ هَذَا لِمَنْ طَنز، فَأَقَامَا عَلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَامٍ، كُلَّ يَوْمٍ تُخرِجُ إِلَيْهِمَا دِينَارًا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِلَى مَتَى نَنْتَظِرُ هَذِهِ الحَيَّة ؟ أَلَا نَقْتُلُهَا وَنَحْفِرُ هَذَا الكَنْزَ فَنَأْخُذَهُ، فَنَهَاهُ أَخُوهُ وَقَالَ: مَا تَدْرِي لَعَلَّكَ تَعْطِبُ وَلَا تُدْرِكُ المالَ، فَأَبَى عَلَيْهِ، وَأَخَذَ فَأْسًا مَعَهُ، وَرَصَدَ الحَيَّةَ حَتَّى خَرَجَتْ، فَضَرَبَهَا ضَرْبَةً جَرَحَتْ رَأْسَهَا وَلَمْ تَقْتُلْهَا، فَثَارَتِ الحَيَّةُ فَقَتَلَتْهُ وَرَجَعَتْ إِلَى حِجْرِهَا، فَقَامَ أَخُوهُ فَدَفَنَهُ وَأَقَامَ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ خَرَجَتِ الحَيَّةُ مَعْصُوبًا رَأْسُهَا، لَيْسَ مَعَهَا شَيْءٌ، فَقَالَ لَهَا: يَا هَذِهِ، إِنِّي وَاللهِ مَا رَضِيتُ مَا أَصَابَكِ، وَلَقَدْ نَهَيْتُ أَخِي عَنْ ذَلِكَ، فَهَلْ لَكَ أَنْ نَجْعَلَ اللهَ بَيْنَنَا أَلَا تَضُرِّينِي وَلَا أَضُرَّكِ، وَتَرْجِعِينَ إِلَى مَا كُنْتَ عَلَيْهِ ؟ قَالَتِ الحَيَّةُ: لَا، قَالَ: وَلِمَ ذَلِكَ ؟ قَالَتْ: إِنِّي لِأَعْلَمَ أَنَّ نَفْسَكَ لَا تَطِيبَ لِي أَبَدًا وَأَنْتَ تَرَى قَبْرَ أَخِيكَ، وَنَفْسِي لَا تَطِيبُ لَكَ أَبَدًا وَأَنَا أَذْكُرُ هَذِهِ الشَجَّةَ، ثُمَّ أَنْشَدَهُمْ قَوْلَ النَّابِغَةَ [2]:

فَقَالَتْ أَرَى قَبْرًا تُرَاهُ مُقَابِلِي * وَضَرْبَةَ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِيَ فَاغِرَهْ [3]

**3- الشّاهدُ:** الشاهِدُ هُو المثالُ التَّشبِيهِي الذِي يَقومُ عَلَى الاسْتعارَةِ والرَّمزِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ [4]، ومثالُهُ الحوارُ الذِي جَرى بَين اِبنِ الزُّبيرِ ومُعاوِيَةَ بنَ أَبِي سُفيانَ، فقدْ " دَخَلَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ علَى مُعاوِيَةَ

[1] هذا البيت هو لحاتم الطائي، ينظر : ديوان حاتم الطائي، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1401هـ/1981م، ص : 49 .

[2] ديوان النابغة الذبياني، تح : عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1416هـ/1996م، ص : 121 . وفي هذه النسخة : وجدنا البيت التالي : أَبَى لِيَ قَبْرٌ، لَا يَزَالُ مُقَابِلِي * وَضَرْبَةَ فَأْسٍ، فَوْقَ رَأْسِيَ فَاقِرَهْ

[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الجزء الثاني، ص : 148 .

[4] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 89 .

فقالَ: يَا أَمِيرُ المؤْمِنِينَ، لَا تَدَعُنَّ مَرْوَانَ يَرْمِي جَمَاهِيرَ قُرَيْشٍ بِمَشَاقِصِهِ، وَيَضْرِبَ صَفَاتَهُمْ بِمَعُولِهِ، أَمَّا والله لَوْلَا مَكَانُكَ، لَكَانَ أَخَفَّ عَلَى رِقَابِنَا مِنْ فَرَاشَةٍ، وَأَقَلَّ فِي أَنْفُسِنَا مِنْ خُشَاشَة، وأَيْمُ الله، لَئِنْ مَلَكَ أَعِنَّةَ خَيْلٍ تَنْقَادُ لَهُ، لَتَرْكَبُنَّ مِنْهُ طَبَقًا تَخَافُهُ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: إِنْ يَطْلُبْ مَرْوَانُ هَذَا الأَمْرَ، فَقَدْ طَمَعَ فِيهِ مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَإِنْ يَتْرُكْهُ يَتْرُكُهُ لِمَنْ فَوْقَهُ، وَمَا أَرَاكُمْ بِمُنْتَهِينَ، حَتَّى يَبْعَثَ الله عَلَيْكُمْ مَنْ لَا يَعْطِفُ عَلَيْكُمْ بِقُرَابَةٍ، وَلَا يَذْكُرُكُمْ عِنْدَ مُلِمَّةٍ، يَسُومَكُمْ خَسْفًا، وَيَسُوقَكُمْ عَسْفًا ، فَقَالَ اِبْنُ الزُّبَيْرِ: إِذَنْ وَالله يُطْلَقُ عِقَالُ الحَرْبِ تَمُورُ كَرِجْلِ الجَرَادِ، حَافَاتُهَا الأَسَلُ، لَهَا دَوِيٌّ كَدَوِيِّ الرِّيحِ، تَتْبَعُ غِطْرِيفًا مِنْ قُرَيْشٍ، لَمْ تَكُنْ أُمُّهُ رَاعِيَةٌ ثُلَّة ، فَقَالَ مُعاوِيَةُ: أَنَا اِبْنُ هِنْدٍ، أَطْلَقْتَ عِقَالِ الحَرْبَ، فَأَكَلْتَ ذُرْوَةَ السَّنَامِ، وَشَرِبْتَ عُنْفُوَانَ المَكْرَعِ، وَلَيْسَ لِلْآكِلِ بَعْدِي إِلَّا الفَلَذَةَ، وَلَا لِلشَّارِبِ إِلَّا الرَّوْنَقِ "[1] .

**ب– صُورُ الحِجاجِ فِي ضَوْءِ الانْسِجامِ الخَارِجِي:** يدخلُ ضِمنَ هَذا النَّوْعِ عندَ أرْسطُو، القَوانِينُ والشُّهودُ، والاعترافَاتُ، وأقوالُ الحُكماءِ، وتَخْتَصُّ إِجْمَالًا بِالخطابَةِ القضائِيَّةِ، أمَّا عِندَ العَرَبِ، فَيُدْخِلَ ضِمْنَهُ الآياتُ، والأحادِيثُ، والأشْعارُ، والأمْثالُ، والحِكَمُ "[2] .

**أمثلَةُ ذلِكَ:**

**1– خطبَةُ مُصعَبِ بْنِ الزُّبير فِي أهلِ العراقِ:** حِين وُلِّيَ مُصعبُ بنُ الزُّبيرِ علَى العِراقِ مِنْ طَرَفِ أخِيهِ عبدِ الله بنِ الزُّبيرِ خَطَبَ فِي النَّاسِ قَائِلًا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الجزء الثاني، ص : 154، 155 . ( مرجع سابق ) ./ الشرح : المشاقص : جمع مشقص، كمنبر وهو النصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش– الخشاشة : واحدة الخشاش بتثليث الحاء، وهي حشرات الأرض والعصافير ونحوها ... وفي الأصل حشاشة وهو تصحيف –الطبق : هو الحال، ومنه قوله تعالى : " لتركبنّ طبقا عن طبق "، أي يوليكم ذلا – العسف : الظلم، وسلوك طريق على غير هداية – تمور : تضرب – الغطريف : السيد الشريف – الثلة : جماعة الغنم أو الكثيرة منها – عنفوان الشيء : أوّله أو أوّل بهجته، والمكرع : المورد، مفعل من كرع في الماء أو في الإناء – الفلذة : القطعة من اللحم .

[2] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 90 . ( مرجع سابق ).( بتصرف ) .

طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الشَّامِ، ... ثم قال : وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الحِجَازِ، ... ثم قال : وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦ [ سورة القصص : 1- 6 ] وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ العِرَاقِ [1] .

ويُقسِّمُ العُمريُّ الاستِشهادَ بِالقُرآنِ فِي الخَطابَةِ إلى ثَلاثةِ أقْسَامٍ هِيَ: الأوَّلُ منهَا يَتضمَّنُ " الاحتجَاجُ لِقضيَّةٍ مُختلَفٍ فِيهَا "، والثاني " تمثِيلُ حالةٍ مُشابِهَةٍ "، وأمَّا الثّالثُ فهُوَ " الاسْتئْنَاسُ وخَلْقُ جَوٍّ دِينِيّ " .

**أ- الاحتِجاجُ لقضيَّةٍ مختلَفٍ فِيهَا:** كاحْتِجاجِ الحَسَنِ لِحَقِّهِ فِي الخِلافةِ بِقولِهِ تعالى: " وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ [ سورة الشورى: 23 ] إذْ قَالَ: فَاقتِرَافُ الحَسَنةِ مَوَدَّتُنَا؛ باعتِبارِ أَنَّ الآيَةَ صِلَةٌ لِمَا قَبْلَهَا، وَهُوَ قولُه تعالَى: قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ [ سورة الشورى: 23 ] .

**ب- تمثِيلُ حالَةٍ مُشابِهَةٍ:** كمَا فِي اِسْتطْرادِ الحِجاجِ في قولِهِ: وَإِنَّكُمْ كَأَهْلِ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثاني، ص : 300 .

وهذا اِقتبَاسٌ مِنْ قولِهِ تعالى مِنْ سورَةِ الأنعامِ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ [ سورة الأنعام : 112 ] .

**جـ- الاستئْناسُ وَخلْقُ جَوٍّ دِينِيٍّ**: وهذهِ الوظِيفةُ غَالِبَةٌ تَكونُ عَلَى خُطبِ المناسَبَاتِ الدِينيَّةِ والاجتمَاعيَّةِ "[1] .

**ثانيا: الأُسلُوبُ**: لِلأسلُوبِ مَكانَةٌ جِدُّ مُعتبَرَةٍ فِي البَلاغَتيْنِ العَربيَّةِ واليُونانيَّةِ، وتَعُودُ أهمِيَّةُ الأُسلُوبِ فِي نظرِ أَرِسْطُو إِلَى أَنَّ عَامَّةَ النّاس يتَأثّرُونَ بِعُقولِهِمْ فَلا يَكفِي المرْءَ مَعرِفَةً مَا ينبَغِي أنْ يُقال بَلْ أَنْ يَقول مَا يَنبغِي، وهُو يَتغيَّرُ بِتغيُّر المقامِ، أُسلوبٌ كتابِيٌّ، أسلوبُ مُناقشةٍ، أسلوبُ مُحاكمةٍ ... الخ، إضافَةً إِلَى ذلِك، فإننَا نجدُ – وعلى سبيل المثال لا الحصر- الخُطبَ التِي تُحدثُ أثرًا جَميلًا عندَ الإلقَاءِ، تكُونُ هَزيلةً عِندمَا تُكتبُ؛ وممَّا يزِيدُ فِي بهاءِ الأُسلُوبِ الخَطابِيّ، حذفُ أدواتِ الوَصلِ والتَّردِيدِ، لأنَّ التَّرديدَ، أو التِّكرارَ فِي الإلقاءِ يسبّبُ مَللًا وضَجَرًا لَدى السَّامِعِينَ، وأما الأُسلُوبُ المؤدَّى فِي المحافِلِ الشَّعبِيَّةُ فلا يحتاجُ إلى تدقِيقٍ فِي التَّفَاصِيلِ، بِقدرِ مَا يهتَمُّ بالتهْيِيج، والحَماسِ، أمَّا فِي القَضاءِ فالعَكْسُ، إذْ يكونُ الاهتِمامُ بِكُلِّ تَفاصِيلِ القضيَّةِ دُونَما إِعارَةٍ لِلجانِبِ الحَمَاسِيّ، وفيمَا يتعلَّقُ بأهميَّةِ الأُسلُوبِ فِي الخطابَةِ العربيَّةِ فَإنَّهَا تَعُودُ إلى ثلاثةِ أشيَاءَ:

**1- هَيمنَةُ الشِّعرِ**: وَمثالُهُ المحاكَمَةُ التِي جَرتْ بينَ عَمرِو بْنِ كُلثُومٍ والحَارثِ بْنِ حِلِّزةَ اليَشْكُرِي، وكانَ الأوَّلُ تَغْلِبِيًّا، أمَّا الثَّانِي فَكانَ بَكْرِيًّا، وقدْ وَقَعَتْ بينَ بَكرٍ وتَغْلِبَ، كما هُو معلومٌ في التَّاريخِ معارِكُ كثِيرةٌ، تجمَعُها الحربُ الطَّويلَةُ التِي سُمِّيَتْ " حَربَ البَسُوسَ "، وما لبِثَ الفَريقَانِ أنْ تَصالحَا عند المنذرِ بْنِ ماءِ السَّماءِ، ولكنْ عِنْدَمَا " هَلكَ التَّغْلِبِيُّونَ بِرِيحٍ سَمُومٍ، هَبَّتْ عَليْهِم، وسلِمَ البَكرِيُّونَ، طَلَبَتْ تَغلِبُ بِديَّةِ أبنَائِهَا، فَأبتْ بَكْرُ، وتَحَاكَمَ الفَرِيقانِ إِلى عَمْرِو بْنِ هندٍ، وقالَ عَمْرُو

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 93 .

ابْنُ كُلثُومٍ، بعد أنِ اِختارُوهُ مُحامِيًا عَنْهُمْ: بِمَنْ تَرَوْنَ بَكْرًا تَعْصِبُ أَمْرَهَا اليَوْمَ ؟، قَالُواْ: بِمَنْ عَسَى إِلَّا بِرَجُلٍ مِنْ أَبْنَاءِ ثَعْلَبَةَ ، قَالَ عَمْرُو: أَرَى أَنَّ الأَمْرَ، وَالله، سَيَنْجَلِي عَنْ أَحْمَرَ أَصْلَعَ مِنْ بَنِي بَكْرٍ ، وقدْ توقَّع عمرُو بنُ هندٍ مِثل ذلِكَ، وأرادَ كِلاهُمَا النُّعمَانَ بْنَ هَرَمٍ، وكانَ مِنْ شيُوخِ بكْرٍ، مِنْ ثعلَبَةَ ابْنِ غنَمِ بْنِ يَشْكُرَ، فلَمَّا أَصْبحُوا، كانَ مَا توقَّعَ العُمَرَانِ مِن اِختِيارِ بَكرٍ لِلنُّعمَانِ بْنِ هَرَمٍ، فَأَقْبَلَ فِي قومِهِ مُتَشَامِخًا، فَتحرَّشَ بِهِ عَمْرُو بْنُ كلثُومٍ قَائِلًا: يَا أَصَمُّ ... جَاءَتْ بِكَ أَوْلَادُ ثَعْلَبَةَ تُنَاضِلُ عَنْهُمْ، وَهُمْ يَفْخَرُونَ عَلَيْكَ ؟، قَالَ: وَعَلَى مَنْ أَظَلَّتِ السَّمَاءُ يَفْخَرُونَ ... ثُمَّ لَا يُنْكَرُ ذَلِكَ، فَقَالَ عَمْرُو: وَالله لَوْ لَطَمْتُكَ لَكْمَةً مَا أَخَذُواْ لَكَ بِهَا ، فَأَجَابَهُ: وَالله لَوْ فَعَلْتَ مَا أَلْفَتَّ بِهَا أَنْتَ وَمَنْ فَضَّلَكَ، فَغَضِبَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ لِهَذَا التَّعْرِيضِ، وَكَانَ يُؤْثِرُ بَنِي تَغْلِبَ عَلَى بَنِي بَكْرٍ، فَأرادَ إِسْكاتَهُ، فَأَغْلَظَ لهُ هَذا فِي الكلَامِ، فازدادَ غَضَبُهُ، وطَرَدَ النُّعْمَانَ، وعِنْدَ ذاكَ وَقَفَ عَمْرُو بْنُ كُلثُومٍ فَارْتَجَلَ قِسْمًا مِنْ مُعَلَّقَتِهِ، وَتَهَوَّرَ فِي المبَالَغةِ بِالفخرِ حتَّى عَرَّضَ بِالملكِ، ظَانًّا أنهُ يفُوزُ بالظَّفَرِ علَى البَكرِيِّينَ بعدمَا شَاهَدَ مِنْ طَرْدِ خَطِيبِهِمْ، ولكنَّهُ مَا كادَ يَنتَهِي مِنْ قَصِيدتِهِ حَتَّى وَقَفَ الحَارِثُ وأَلْقى مُعَلَّقَتَهُ، وفِيهَا اِحْتَالَ بِرَزانَةٍ ودَهَاءٍ، فَسَدَّ تِلكَ الثَّلْمَةَ التِي أَحْدَثَهَا سُلوكُ النّعمَانِ واِستَمَالَ المِلكَ إِلى قومِهِ فَفازَ بِالغَلَبَةِ "[1] .

2- خوضُ الخطابَةِ العربيَّةِ فِي الموضُوعاتِ الشِّعريةِ: " الشعرُ، التعزيةُ، الوصفُ ... الخ .

3- إضافةً إلى ذلكَ، كوْنُ العدِيدِ مِنَ الخُطباءِ فِي الأصْلِ شُعراءَ "[2] .

## نماذِجُ عنِ الأُسلُوبِ:

**1- في العصرِ الأوَّلِ:** كانَ الاهتِمامُ بالانْزِيَاحِ فِي هذَا العصْرِ قَلِيلًا، ومِنَ الأمْثلَةِ القَليلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذلِكَ خطبةُ عُثمانَ بْنِ عفَّانَ التِي كانَتْ فِيهَا بِالجانِبِ البَيانِي، وَقدْ أَلْقَاهَا حِينَ نَقَمَ عَليهِ النَّاسُ مَا نقمُوا فَقامَ وقالَ: إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ، وَإِنَّ لِكُلِّ نِعْمَةٍ عَاهَةٌ، فِي هَذَا الدِّينِ عَيَّابُونَ

[1] الزوزني، شرح المعلقات العشر، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، طبعة 1983م، ص : 259، 260 .
[2] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 97، 98، 99، 100 .

ظَنَّانُونَ، يُظْهِرُونَ لَكُمْ مَا تُحِبُّونَ، وَيُسِرُّونَ مَا تَكْرَهُونَ، يَقُولُونَ لَكُمْ وَتَقُولُونَ طَعَامٌ مِثْلَ النَّعَامِ، يَتْبَعُونَ أَوَّلَ نَاعِقٍ، أَحَبُّ مَوَارِدِهِمْ إِلَيْهِمُ النَّازِحُ، لَقَدْ أَقْرَرْتُمْ لِابْنِ الخَطَّابِ بِأَكْثَرَ مِمَّا نَقَمْتُمْ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ قَمَّكُمْ، وَقَمَعَكُمْ، وَزَجَرَكُمْ زَجْرَ النَّعَامِ المحْزَمَةِ، وَاللهِ إِنِّي لَأَقْرَبُ نَاصِرًا، وَأَعَزُّ نَافِرًا، وَأَقْمَنُ – إِنْ قُلْتُ هَلُمَّ – أَنْ تُجَابَ دَعْوَتِي مِنْ عُمَرَ، هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ حُقُوقِكُمْ شَيْئًا ؟ فَمَا لِي لَا أَفْعَلُ فِي الحَقِّ مَا أَشَاءُ ؟ إِذَنْ فَلِمَ كُنْتُ إِمَامًا ؟ "[1] .

**2– فِي العصرِ الأمَويّ** : وَفِي هذَا العصْرِ يكُونُ الاهتِمامُ بالأُسلُوبِ أكثَرَ، ومثالُ ذلِكَ خُطبَةُ الحجَّاجِ بْنِ يوسفَ الثَّقفِي بعدَ مقتلِ ابنِ الزبير [*] .

**أَقْسَامُ الخطابةِ العربيَّةِ فِي القرْنِ الأوَّلِ حسْبَ العُنصرِ الصَّوتِي**: يُؤَكِّدُ العُمريُّ علَى وُجودِ جَانبَيْنِ بارِزيْنِ مِنَ البِناءِ الفَنِّي للنَّصِ الخَطابِي هُما: البِناءُ الدِّلالِي، والإِيقَاعُ، حيثُ يتعلَّقُ الأوَّلُ بكثْرَةِ المعانِي أوْ قِلَّتِهَا، علَى حسَبِ نوعيَّةِ الخِطابِ ومَكانتِهِ، أمَّا الثَّانِي فإِنهُ يُرَكِّز علَى جَماليَّةِ اللَّفْظَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الصَّوتِيَّةِ والجرَسِ الذِي تُحْدِثُهُ، حيثُ تتْرُكُ تأثِيرًا بَالغًا فِي النَّفسِ، ومِنَ المصطَلحَاتِ الصَّوتِيَّةِ التِي ذَكرَهَا العمَريُّ، مُصطَلَحُ الازْدِوَاجِ، ومُصطلح التوازُنِ، ومُصطلح التَّرْصِيعِ ... الخ [2] .

ونظرًا للأهميَّةِ البالِغةِ للجَانِبِ الصَّوتِي فِي صِياغَةِ الخُطَبِ العَربيَّةِ، فَقَدْ قَامَ العُمريُّ بِتقسِيمِ الخَطابَةِ إِلى ثَلاثَةِ أنْواعٍ حَسْبَ العُنصرِ الصَّوتِي وهِيَ:

**أ– خُطَبٌ كثيفَةُ الصِّناعةِ ( مَسجوعَةٌ )**: هذا الطَّابِعُ هو طَابِعُ أغْلَبِ مَا وَصَلَنَا مِنْ خُطَبِ الجاهليَّةِ، ومِثَالُهُ سَجَعُ الكُهَّانِ، كسَجَعِ الكاهِنِ الخُزاعِي عبْدُ عمْرِو بْنِ الحَمَقْ فِي الحكومَةِ بيْنَ هاشِم ومُعاوِيَةَ، وقدِ اِنْتَهَتْ بانْتصَارِ هَاشِم علَى مُعاوِيةَ، وجَلَاءِ مُعاوِيةَ إِلَى الشَّامِ مُدَّةَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ كامِلةً، على حَسَبِ الاتِّفاقِ المبْرَمِ بينَهُمَا، وكان مَضْمُونُ خُطبَةِ الكاهِنِ ما يَلِي : وَالقَمَرِ

[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الجزء الأول، ص : 102 .

[*] ذكرنا هذه الخطبة من قبل .

[2] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 101–114 .

البَاهِرْ، وَالكَوْكَبِ الزَّاهِرْ، وَالغَمَامِ المَاطِرْ، وَمَا بِالجَوِّ مِنْ طَائِرْ، وَمَا اِهْتَدَى بِعَلَمٍ مُسَافِرْ، مِنْ مُنْجِدٍ وَغَائِرْ، لَقَدْ سَبَقَ هَاشِمُ أُمَيَّةَ إِلَى المَآثِرْ، أَوَّلٌ مِنْهُمْ وَآخِرْ، وَأَبُو هَمْهَمَةَ بِذَلِكَ خَابِرْ "[1] .

**ب- خُطبٌ مُتوسِّطةُ الصِّناعةِ ( بينَ السَّجعِ والازْدِواجِ )**: وهذَا الاتِّجاهُ يُزَاوِجُ بينَ الصَّنْعَةِ الصَّوتِيَّةِ وغيرِها مِنَ المقوِّماتِ الأُخرى، ويُقيمُ إيقاعَهُ علَى مُوازَنَاتٍ تَتَراوَحُ بينَ الازْدِواجُ والسَّجعِ مَعَ تَفاوُتِ بين الفَواصِلِ أحْيَانًا، والتّخلِي عَنِ القَوافِي أحيانًا أُخرَى، بَل يَتصَرَّفُ الخَطِيبُ مِنْ حِينٍ لآخَرَ إلى الفِكرةِ فَيَسْتَرْسِلُ مَعَهَا دُونَ مُرَاعَاةٍ لِلْمُوازَنَةِ بينَ الفَواصِلِ "[2]، مِثْلَ خُطَبِ الحَجَّاجِ، وأبِي حمْزَةَ، وَزِيادٍ .

**جـ- خطبٌ مرْسلَةٌ ( قلِيلةُ الصِّناعَةِ )**: وهِي خُطَبٌ قَلِيلَةُ العِنَايَةِ بِالموازنَاتِ الصَّوتِيَّةِ - الإِيقَاعِيَّةِ، وخاصَّةً الجِناسُ، الذِي لَا يَكادُ يَظهَرُ إلَّا لِمَامًا، غَيرَ أَنَّ أَصحابَ هَذهِ الخُطبِ لَمْ يُهْمِلُوا الإِيقَاعَ إِهْمَالًا مُطْلَقًا، بلْ حَاولُوا تَحقِيقَ شيءٍ مِنهُ بِاعتِمادِ الجُملِ والفَواصِلِ القَصِيرةِ غَالِبًا "[3]، مِثْلَ خُطبِ رَسُولِ الله ﷺ، وَالخُلَفاءِ الراشدينَ، ورجالِ الدَّولةِ فِي الصَّدرِ الأَوَّلِ الإِسْلَامِيّ ( حَجَّةُ الوداع ) .

**<u>ثَالثًا : تَرتِيبُ أجزاءِ القَولِ</u>**: يُعتبَرُ كُورَاكُوسْ أوَّلَ مَنْ وضَعَ تَرتِيبَ الأجزاءِ الكُبرَى لِلخِطابِ، غَيرَ أنَّ أرِسطُو رَأى بِأَنَّ التَّقسِيمَ التَّقلِيدِيَّ ليْسَ مُنَاسِبًا إلَّا فِي بَعْضِ أنْوَاعِ الخَطَابَةِ، يَقْصِدُ بِذلك مَا يَتعلَّقُ بِعرْضِ القِصَّةِ والبَرْهَنَةِ عَليهَا، أمَّا عِندَ بِيرلمانْ فالتَّرتِيبُ إذا كانَ فِي القَضايَا الشَكليَّةِ فقطْ يَكُونُ غَيرَ ذِي أهمِّيةٍ، وعَكْسَ ذلِك عِندَمَا يَكُونُ فِي القَضايَا الحِجَاجِيَّةِ، ومِما اِنْتَقَدَهُ أرِسطُو فِي أجْزاءِ القَوْلِ ما يلِي:

أ- اِنتقَدَ وُجُودَ القَصِّ، إلا فِي الخُطبِ القَضائيَّةِ .

ب- اِنتقَدَ الاسْتِهلَالَ والمنَاقَشَةَ بالتَّسَاجُلِ وَالتِّكْرَارِ بِإِيجَازٍ فِي الخُطَبِ الاحْتِفَالِيَّةِ ( إلَّا إنْ كانَ فِيهَا

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 317 .
[2] نفسه، ص : 118 .
[3] نفسه، ص : 122 .

مُنَاظَرَةٌ ) .

جـ- اِنْتقدَ وُجُودَ الخاتِمةِ فِي الخُطبِ القَضائِيَّةِ، بلْ إنَّ الضَّرورَةَ فِي رأيِهِ لا تكُونُ هُنا إلَّا للقضيَّةِ والدَّليلِ .

د- تَرتِيبُ أجزاءِ القَوْلِ عندَ أرِسطُو يَكُونُ علَى النَّحوِ التَّالِي:

د-1- الدّعوةُ إلَى العَاطِفةِ فِي المقدّمَةِ والخَاتِمةِ، والدّعوةِ إلى العَقلِ والوَاقِعيَّةِ فِي العَرْضِ والدَّلِيلِ .

د-2- الدعوةُ للاسْتِهوَاءِ والاسْتِمالَةِ فِي المقدّمةِ، ثُم الإعلانِ عَنِ التَّقسِيمِ والتَّخطِيطِ .

د-3- يَنبغِي أنْ يكُونَ العَرْضُ وَاضحًا ومُختصَرًا، خَالِيًا مِنَ الاستطْرادِ والتَّشخِيصِ، يكتَفِي بالإعْدادِ لمْرحَلةِ البرْهَنَةِ ، وهوَ يضُمُّ ذكْرَ الوَقائِعِ ووَصْفِهَا، زَمانِيًّا ومَكَانِيًّا، كما يَصفُ الذَّواتَ .

د-4- تَقُومُ البرهنَةُ عندَ أرسِطُو علَى تقْدِيمِ بعضِ الأدِلَّةِ القَويَّةِ وتأخِيرِ بَعْضِهَا، وتُقَدَّمُ الحُجَجُ تَنَازُلًا مِنَ الأقوَى إلى الأضْعَفِ، أوِ العَكْسُ ( تَصَاعُدًا )، أو توزِيعٌ بينَ التّنازُلِ والتَّصَاعُدِ .

وفِي البلاغَةِ العربيَّةِ يَرى العُمريُّ أنَّه لَا يُوجدُ نِظامٌ يقنّنُ ما ينبَغِي للخطِيبِ أنْ يَتَّبِعَهُ فِي تَرتيبِ أجزاءِ خُطبتِهِ عَدا الإلحاحِ علَى الاسْتهلَالِ الدّينِي، وقدْ رَاعَى الخُطَباءِ العَربِ ( خاصَّةً فِي خُطَبِ الكُتُبِ ) تَضْمِينُ المقدّمةِ مَا يَدلُّ علَى الموضُوعِ، وأمَّا فِي خُطَبِ القرْنِ الأوَّلِ فَلا يُوجَدُ حرْصٌ علَى الاهتِمامِ بالمقدّمةِ، والعَرْضِ، والخاتِمةِ بالنّسبة للخَطِيبِ، غيرَ أنهم اِهتمُّوا بِوسَائِلِ الإقناعِ .

ومِنَ الخُطَبِ التِي لَمْ يَكنْ فِيهَا اِسْتهلالٌ دِينِيٌّ، خُطبَةُ زِيادٌ البَتْراءُ، ومعَ ذلِك فَهِي لَا تَخْلُو مِنْ تَرتِيبٍ لِلمعَانِي، وتَسَلْسُلٍ فِي الأفْكارِ، وارتبَاطِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ .

هذَا ويَعُود عَدَمُ اِهتِمامِ العَربِ بالتَّرتِيبِ إلى أنَّ اِطِّلَاعَهُمْ علَى الفِكرِ اليُونَانِي فِي القَرْنِ الأوَّلِ لَمْ يَكُنْ كَثِيرًا، ولَمْ يَتَسَنَّ لَهُمُ الأمْرُ إلَّا معَ العَصْرِ العَبَّاسِي، بَلْ وحَتَّى بَعدَ اِطِّلَاعِهِمْ فَإنَّ أرِسطو نفسَهُ

لَمْ يُلْزِمِ الخطابةَ الاحتفاليَّةَ التَّنظِيمَ وَالتَّرتِيبَ الذِي أَلْزَمَ القضَائيَّةَ والاسْتشَارِيَّة به، وأغلبُ الخطابَةِ الأمويَّةِ اِحْتِفَالِيٌّ؛ كمَا أَنَّ أَكْثَرَ الخُطَبِ العَرَبِيَّةِ قَائِمةٌ علَى الإيجازِ والشَّاعِرِيَّةِ "[1] .

## المبحثُ الثَّانِي: بَلَاغَةُ الشِّعرِ:

فِي بلاغةِ الشِّعرِ، اِنْطلَقَ العُمَريُّ مِنَ " المكوّنِ الصَّوْتِي "، لما لِهذا الأخِيرِ مِنْ قُدْرَةٍ علَى صَوْغِ القَصيدَةِ الشِّعريَّةِ، بِنَوْعَيْهَا العَمُودِيّ والحُرّ، ومِنْ هذا المكوّن تَمكَّنَ العُمريُّ مِنَ الوُصولِ إلى ثَلاثةِ أنوَاعٍ – أو اِتجاهَاتٍ – للشِّعرِ العربِي، سمّاهَا " اِتِّجَاهَاتُ التَّوَازُنِ الصَّوْتِيّ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيّ " .

**اِتجاهاتُ التوازنِ الصوتِي فِي الشِّعرِ العَربِي:** هُناكَ ثَلاثَةُ اِتجاهاتٍ لِلشعرِ العَرَبِي القَدِيمِ، على غِرارِ ما يَراهُ العُمريُّ، وهِيَ: اِتجاهُ التَّراكُمِ، واِتِّجاهُ التَّفاعُلِ، واِتِّجاهُ التَّكامُلِ، وقدْ أبانَتْ الاتِّجاهَاتُ الحدِيثَةُ عَنْ آليَّاتِ اِشتِغالِ الموازَناتِ الصوتِيَّةِ التِي يُمكِنُ إرجَاعُهَا إلَى ثلاثةِ أُسُسٍ أو شُرُوطٍ وهِيَ: كثافَةُ الأصوَاتِ المتردِّدَةِ، والفَضاءُ الذِي تَتَوَزَّعُ فيهِ الأصوَاتُ، والتَّفاعُلُ الحاصِلُ بينَ الأصْواتِ والدِّلالَةِ؛ غيرَ أَنَّ الموازَنَاتِ الصَّوتيَّةِ ليستْ فِي الظَّاهِرِ إلَاّ أحدَ العناصِرِ الثَّلاثةِ المكوّنةِ للإيقاعِ أوْ لِلْبِنْيَةِ الإيقَاعِيَّةِ، وهِي: الوزْنُ العرُوضِيُّ، والأداءُ الشَّفوِيُّ، والموازَناتُ الصوتِيَّةُ "[2] .

هذَا وسنَتَناوَلُ اِتجاهَاتِ الشِّعرِ العربِيّ القدِيم، وشُروطِ اِشتغالِ الموازنَاتِ، والعنَاصِرِ المكوّنةِ للإيقاعِ علَى النَحوِ التَّالِي:

### أولا: اِتجاهاتُ الشِّعرِ العربِيّ القدِيمِ:

**1– اِتجاهُ التَّكامُلِ:** يمثِّلُ هذَا الاتِّجاهُ حالَةَ تكَامُلِ الموازناتِ الصَّوتيَّةِ معَ الوَسائِلِ الشِّعريَّةِ الأُخرَى، خاصَّةً التَّشبِيهِ، والاستِعارَةَ، اللَّذَيْنِ اِعْتُبِرَا مِقْيَاسَيْنِ أسَاسِيَّيْنِ فِي تقوِيمِ الشِّعرِ القدِيمِ، وهذَا الاتِّجاهُ هو الغالِبُ فِي الشِّعرِ العرَبِيّ القدِيمِ، الميَّالِ إلَى الوُضوحِ والإبلاغِ ونَبْذِ كُلِّ مَظاهِرِ التَكلُّفِ

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 142 .

[2] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية، ص : 135، 136، 137 .

والتَّصَنُّعِ، التِي مِنْ شَأنِهَا أَنْ تَعُوقَ الوظِيفةَ الإِبلاغِيَّةَ، ويمثِّلُ هذَا الاتجاهَ شِعْرُ المعَلَّقَاتِ، والنَّقَائِضُ، وعيونُ المراثِي الجاهليَّةِ والإِسْلامِيَّةِ .

**خصائِصُ الاتِّجاهِ التَّكامُلِيِّ**: اِعتَمدَ العُمريُّ على شعرِ النَّابِغةِ الذُّبيَانِي، كأنمُوذَجٍ لِمَعْرِفَةِ خَصائصِ هذَا الاتِّجاهِ، وبِذلِك اِسْتَطاعَ اِستِنْباطَ الخَصائِصِ التَّاليَةِ:

**أ– ضعفُ الاشتِقاقَاتِ والتَّرديدَاتِ**: وهذا يكون إما اشتقاقا وترديدا نازلا إلى مستوى الصفر، أو مرتفعا، فعلى سبيل المثال نجد من المرتفع الأبيات: 24-25-26-27-، والأبيات 32-34-35 والأبيات 6-8-11-10 مِنْ مُعَلَّقَةِ زُهَيرٍ .

-24: فَمَنْ أَطَاعَكَ، فَانْفَعْهُ بِطَاعَتِهِ  كَمَا أَطَاعَكَ، وَادْلُلْهُ عَلَى الرُّشْدِ

-25: وَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبْهُ مُعَاقَبَةً  تَنْهَى الظَّلُومَ، وَلَا تَقْعُدْ عَلَى ضَمَدِ

-26: أَعْطَى لِفَارِهَةٍ حُلْوٍ تَوَابِعُهَا  مِنَ المَوَاهِبِ لَا تُعْطَى عَلَى نَكَدِ

-27: الوَاهِبِ المِئَةِ المَعْكَاءِ، زَيَّنَهَا  سَعْدَانَ، تُوضَحُ فِي أَوْبَارِهَا اللَّبَدِ [1]

وقوله:

-32: يَحُفُّهُ جَانِبَا نِيقٍ، وَتَتْبَعُهُ  مِثْلُ الزُّجَاجَةِ، لَمْ تَكْحَلْ مِنَ الرَّمَدِ

-34: فَحَسَّبُوهُ فَأَلْفَوْهُ، كَمَا حَسَبَتْ  تِسْعًا وَتِسْعِينَ، لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدِ [2]

وقوله:[3]

-06: أَمْسَتْ خَلَاءً، وَأَمْسَى أَهْلُهَا اِحْتَمَلُواْ  أَخْنَى عَلَيْهَا الذِي أَخْنَى عَلَى لُبَدِ

[1] ديوان النابغة الذبياني، ص : 13 .

[2] نفسه، ص : 14 .

[3] نفسه، ص : 10، 11 .

-08: مَقْذُوفَةً بِدَخِيسِ النَّحْضِ، بَازِلُهَا  لَهُ رَصِيفٌ، رَصِيفُ القَعْرِ بِالمَسَدِ

-10: مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ، مَوْشِيٌّ أَكَارِعُهُ  طَاوِي المَصِيرِ، كَصَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرَدِ

-11: سَرَتْ عَلَيْهِ، مِنَ الجَوْزَاءِ، سَارِيَةٌ  تَزْجِي الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ البَرَدِ "

**ب- اِعتمادُ التَّوازُنِ السَّجعِيّ التَّجنِيسِيّ، والتَّرصِيعِي:** كقولِهِ فِي وَصْفِ الثَّوْرِ الوَحْشِيّ:

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ، مَوْشِيٌّ أَكَارِعُهُ  طَاوِي المَصِيرِ، كَصَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرَدِ

**جـ- اِعتمادُ السَّردِ الخَطِّي القَليلِ الرُّجوعِ:** فَفِي المَعَلقةِ مِنْ ظواهِرِ هذَا النُّزوعِ، قِصَّةُ الثَّورِ الوحشِي، وقصَّةُ زَرْقَاءِ اليَمَامةِ، وقصَّةُ سُليمَانَ عليْهِ السَّلام ... الخ "[1] .

**د- سماحَةُ اللَّفظِ وسُهُولةُ مخْرَجِهِ:** وهذِهِ الخاصِيَّةُ هِي التِي أشَارَ إليْهَا أحدُ النُّقَّادِ القدَمَاءِ، وهُوَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ، ويَرى العُمرِيُّ أنَّهُ " مِنَ النَّظرِ إلى البِناءِ النَّظرِيّ عَامَّةً، لكتابِ " نَقدِ الشِّعرِ " نَجْزِمُ بأنَّ المقصُودَ باللَّفظِ هُو البِناءُ الصَّوتِيُّ "[2] .

والمثالُ الذي اِستدَلَّ بِهِ قُدامةُ هو قَوْلُ الحادِرةِ الذُّبيانِي: [3]

وَتَصَدَّقَتْ حَتَّى اِسْتَبَتْكَ بِوَاضِحٍ  صِلْتٍ، كَمُنْتَصِبِ الغَزَالِ الأَثْلَعِ

كَغَرِيضِ سَارِيَةٍ أَدَرَّتْهُ الصَّبَا  بِنَزِيلِ أَسْحَرَ طَيِّبِ المُسْتَنْقَعِ

وقد بيَّنَ العُمريُّ المزايَا الصَّوتيَّةَ لِبَيْتَيِ الحَادِرةِ الذُّبيانِيّ فيمَا يَلِي:

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص : 150، 151 .

[2] نفسه، ص : 159 .

[3] ديوان شعر الحادرة، تح : د. ناصر الدين الأسد، مستل من " مجلة معهد المخطوطات العربية "، المجلد 15، الجزء2، (ب، ت )ص : 305-307

**1- التجنيسُ السَّجعِيُّ**: وَتَصَدَّقَتْ حَتَّى اِسْتَبَتْكَ بِوَاضِحٍ صِلْتٍ كَمُنْتَصِبِ الغَزَالِ الأَثْلَعِ

متفاعلن | مستفعلن

ت ص ت | ت س ت | تـ ـ ن ص ت ن ت ص ب ل .ل .ت ل

لن يُخطِئ القَارِئ التَّجاوُبَ بينَ " تصدّقتْ "و" استَبَتْكَ " لما هُناكَ مِنْ مُضارَعَةٍ بينَ القَافِ والكَافِ، يُبرِزهَا المحِيطُ المتكوّنُ مِنَ التَّوازُن النَّحوِيّ، ومِنْ وُجودِ وِحْدَتَيْنِ صَوْتِيَّتَيْنِ مُتَمَاثِلَتَيْنِ ( ت ت )، كمَا لنْ يُخطِئ تَجَاوُبَ " صِلْتٍ "مع " وَاضِحٍ "، بالقافيَةِ، والمضارَعَةِ التَّقْطِيعِيَّةِ، ومعَ " مُنْتَصِبٍ " بالاشتِراكِ فِي التَّاءِ والصَّادِ "[1] .

**2- ترصِيعُ المضَارَعَةِ:** كَغَرِيضِ سَارِيَةٍ أَدَرَّتْـهُ الصَّـــبَا

بِنَزِيـلِ أَسْحَرَ طَيِّبِ المُسْتَنْقَعِ

يقوّي هذَا التَّوازُنُ تماثُلَ الصِّيغَتَيْنِ فِي أَوَّلِ الشَّطرَيْنِ .

ك. غريض

بـ. نزيل

← فعيل

**2- اِتجاهُ التَّراكُمِ**: التَّراكُمُ خاصِيَّةٌ عامَّةٌ بيَن جمِيعِ الاتِّجاهَاتِ، لكِنَّهُ فِي هذَا اِتِّجَاهٌ يَغلِبُ علَى بَقِيَّةِ العناصِرِ التِي تَتفَاعَلُ معَهُ فِي تكوِينِ القَصِيدَةِ، كالدِّلَالَاتِ الصَّوتِيَّةِ، والبِنيَةِ المجازِيَّةِ، فهوَ يَضُمُّ الشِّعرَ الذِي تَتقدَّمُ فِيهِ البِنيةُ التَوازُنِيَّةُ علَى البِنيةِ الدِّلالِيَّةِ ( المجازِيَّة خاصَّة ) وفِي الحَالَاتِ القُصوَى يكُونُ الشِّعرُ المتضَمِّنُ للتَّراكُمِ شعْرَ مُوازَنَاتٍ، وهوَ شِعْرٌ يَعتَمِدُ علَى الأُسلُوبِ الذِي يمكِنُ أَنْ يَدخُلَ فِي بَابِ التَّعوِيضِ، والتَّعوِيضُ لُجوءُ الشَّاعرِ إلى التَّوازُناتِ فِي سِياقٍ أو مُناسَبةٍ لا تَتوفَّرُ فِيها الصُّورُ

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص : 153 .

المجازِيَّةُ، وقدْ تنبَّهَ إلى ذلِك ياكُوبْسُونْ (Jakobson) فاعتبرَ أنَّ القَصِيدَةَ الخَالِيَةَ مِنَ الصُّورِ المجازِيَّةِ تُهيْمِنُ عليْهَا التَّوازُناتُ، مُستدِلًّا علَى ذَلِكَ بِأُنشُودَةِ مَعرَكَةِ هُوسِتْ، والقصائِدِ الغِنائيَّةِ عندَ بُوشكِينْ (Alexander PUSHKIN)، وتعويضُ الصُّوَرِ البيانيَّةِ يكونُ عندَهُ بالصُّوَرِ النحوِيَّةِ، ويمكِنُ بِذلِكَ تعوِيضُ حالاتٍ أَوْسَعَ، كَضُعْفِ الوَزْنِ، ولقدِ اِختَزَلَ العُمَرِيُّ مُناسبَاتِ هَيْمَنَةِ الموازَنَاتِ فِي الحالَاتِ التَّالِيَة:

**أ- شِعرُ الترنُّمِ**: ويكُونُ لِمُناسَباتٍ حياتِيَّةٍ بِغَرَضِ الإطْرَابِ، أوِ التَّحْمِيسِ، أو الدَّفعِ للعَملِ، أو الحثِّ على السَّيْرِ، أو تَفْرِيغِ الألَمِ والحثِّ على الانتِقامِ، ومثالُهُ مَراثِي الشَّواعِرِ، كشِعرِ الخَنْساءِ .

**ب- شعرُ العُصورِ المنْعُوتةِ بالجُمودِ**: وفيهِ يكُونُ بِناءُ القَصيدَةِ مُقْتصِرًا علَى رَصْفِ الكَلِماتِ حَسْبَ تَجَانُسِهَا الصَوتِي، أوْ تَقَابُلِهَا الدِّلَالِي، دُونَ عُمْقٍ فِكريٍّ أو تَصوِيرٍ بيانِي، وهذا الشِّعرُ يُمكنُ اِلْتِمَاسُهُ فِي الصِّراعِ الذِي عَرَفَهُ القَرْنُ الثَّامِنُ الهِجريُّ، وقدْ نشَأَ هذَا الصِّراعُ بيَن مَذْهَبِ التَّجْنِيسِ الذِي دَافَعَ عَنهُ الصَّفَدِيُّ، مُؤلِّفُ كتابِ " جِنَانُ الجِنَاسِ "، ومذهبِ الثَّوْرِيَّةِ الذِي يَتبَنَّاهُ اِبْنُ نَبَاتَةَ، واِبنُ حُجّةَ الحَمَوِيُّ .

**جـ- الشِّعرُ الخَطابِي**: وَيتمثَّلُ هذَا النَّوعُ مِنَ الشِّعرِ فِيما قِيلَ فِي الصِّراعِ بيْنَ المسلِمِينَ وخُصُومِهِمْ في صدْرِ الإسلَامِ، وبعضِ الشِّعرِ الدَّائرِ بينَ الأحزَابِ السِّياسيَّةِ في العصرِ الأمَوِيِّ، وضمْنَ هذَا الشِّعرِ يُوجدُ الشِّعرُ الفلسفِيُّ-الاجتماعيُّ، أو شِعرُ النَّقدِ الاجتِماعِيِّ، كشِعرِ اللُّزُومِيَّاتِ مَثَلًا .

**د- مُقاوَمَة البِنيةِ النَّثريَّةِ للوزْنِ**: والمقصُودُ بهذا العُنصُرِ، الأوْزانُ الشَّبيهةُ بالأَسجَاعِ، وهِي الأوْزانُ التِي اِستُعملتْ فِي الأغراضِ الشَّعبيَّةِ فِي الشُّغلِ ( كالبِناءِ وحفْرِ الآبارِ )، والتَّحرِيضِ علَى القِتالِ، والحِداءِ، والتَّرنُّم للأطفالِ ... الخ، ويكُونُ فِي مُقدِّمةِ القَصيدَةِ رَجْزٌ يَلِيهِ بعضُ المجزُوءَاتِ، ومِنْ ذلِكَ

أراجِيزُ العَجَّاجِ، وابنِهِ رُؤْبَةُ، وأبُو نَجْمٍ العَجْلِي ... وغيرِهم "[1]، وفي الجدوَلِ الآتِي سَنقُومُ بالإِحالةِ إلى بعضِ الأمثِلَةِ الدَالَّةِ على كُلِّ نَوْعٍ .

| النوع | المثال |
|---|---|
| شعر الترنم | قول الخنساء : يا عين مالك لا تبكين تسكابا*إذ راب دهر وكان الدهر ريّابا؟ |
| شعر العصور المنعوتة بالجمود | التخميس والتشطير و... الخ من شعر الضعف |
| الشعر الخطابي | الكميت في الصراع بين الأمويين مع أعدائهم |
| مقاومة البنية النثرية للوزن | خذ من شعر الذين أشرت إليهم رؤبة ..... الخ |

**3- اِتجاهُ التَّفاعُلِ**: يَهْتمُّ هذَا الاتِّجَاهُ أكثرَ الأمْرِ بالبَديعِ، الذِي هُوَ أَسَاسًا:[ 1)- التجنِيسُ المركَّبُ ( الصوتِي الدِّلالِي )، 2)- الاستِعارَةُ، 3)- الطِّباقُ ]، فهذِهِ الأنوَاعُ هِيَ المعتَبَرَةُ فِي البَديعِ، والاتِّجاهُ التفاعُلِيُّ يمتازُ بِتركِيبِ العَناصِرِ الصَّوتيَّةِ والدِّلَاليَّةِ تركِيبًا مُعَقَّدًا، يجْعَلُ اِحْتمَالَاتِ القِراءةِ والتَّأويلِ كثيرَةً مُتعدِّدَةً، فتَجِدُ الوِحْدَةَ التَّوَازُنِيَّةَ ترتبِطُ بِعدَّةِ جِهاتٍ صوْتيَّةٍ ودِلاليَّةٍ علَى المستوَيَيْنِ الأُفُقِي والعَمُودِي، ويحدُثُ التَّفاعُلُ فِي مُستوَى التَّجنِيسِ، حيثُ يَختلِطُ بالاستِعارَةِ والطِّباقِ، وفِي مُستوَى التَّرصِيعِ، حيثُ يُتيحُ التَّضمِينُ الموهَمُ إمكانَاتٍ مُتعدِّدةٍ لِلقِراءةِ، وفِي خِضَمِّ دِرَاسَتِهِ هذهِ، اِعتَمدَ العُمريُّ - علَى سَبِيلِ الاسْتشهَادِ والتَّمثِيلِ - ، عَلى شعرِ أبِي تمَّامٍ الطَّائِي، والذِي مِنْ خِلالِهِ قَامَ بِاكتِشافِ جَوانِبَ عَدِيدَةً لِهذَا الاتِّجاهِ وهي:

**1- التَّجنِيسُ السَّجعِيُّ والتَّجنِيسُ اللَّفظِيُّ:**

**أ- التجنِيسُ السَّجعِيُّ**: يمكنُ حصْرُ التَّجنِيسِ السَّجْعِيّ عنَدَ أبِي تمَّامٍ فِي ثلاثِ صُوَرٍ:

**أ-1- الصُّورَةُ الأُولَى**: يَكونُ فِيهَا الصَّوتُ المكرَّرُ قَاسِمًا مُشْتَرَكًا بَين تَجْنِيسَيْنِ لَفْظِيَّيْنِ، مثْلَ السِّينِ فِي قوله:[2]

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص : 166-171 .

[2] الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ج1، ص : 45 .

إِنَّ الأُسُودَ أُسُودُ الغَابِ هِمَّتُهَا  يَوْمَ الكَرِيهَةِ، فِي المَسْلُوبِ لَا السَّلَبِ

أ س د  أ س د  س ل ب  س ل ب

س  س  س  س

وفي قوله: [1]

وَ يَا أَسَدَ المَنُونِ فَرَسْتَ مِنْهُ  غَدَاةَ فَرَيْتَهُ أَسَدَ الأُسُودِ

والكاف في قوله: [2]

فَتًى كَانَ عَذْبَ الرُّوحِ، لَا مِنْ غَضَاضَةٍ  وَلَكِنَّ كِبرًا أَنْ يُقَالَ : بِهِ كِبرُ

تج. ل :  ك ن  ك ن ك ب ر  ك ب ر

**أ–2– الصُّورة الثَّانِيةُ:** إذا لَمْ يَتَيَسَّرْ لِأَبِي تَمامٍ سَجْعٌ تَجنِيسِيٌّ، عَمدَ إِلى دَعْمِ التَّجنِيسِ اللَّفظِي بِتجنِيسٍ سَجْعِي لَا يَنتَمِي إِلَى كَلِمَاتٍ مُتجانِسَةٍ، وهذَا يُمَثِّلُ الصُّورة الثَّانية:

أَ لَحْدٌ حَوَى حَيَّةَ المُلْحِدِينَ  وُلِدْنَ تَرَى حَالَ دُونَ الثَّرَاءِ ؟

ل ح د ح  ل ح د

ح د ح ح  د  د  ح د

ومثل قوله: [3]

أَلَا إِنَّ النَّدَى وَالجَوَّ حَلَّا  بِحَيْثُ حَلَلْتَ، مِنْ حُفَرِ الصَّعِيدِ

تج. ل.  ح ل  ح ل ل

[1] شرح ديوان أبي تمام، ج2، ص : 209 .
[2] نفسه، ص : 219 .
[3] نفسه، ج2، ص : 209 .

تج. س. 1 ل ل ل

تج. س. 2 ح ح ح ح

فالملاحَظُ هنا أَنَّ صَوْتَيِ اللَّفْظَيْنِ المتجَانِسَيْنِ قَد دُعِمَا مَعًا بِتجنِيسٍ سَجعِي، وفِي ذلِك مَزِيدُ تركِيبٍ .

والذِي يُتأَكَّدُ مِنْ شِعرِ أَبِي تَمامٍ هُوَ أنهُ لَا يَتنَازَلُ عَنْ دَعْمِ التَّجنِيسِ اللَّفظِي بِالتَّسجِيعِ، إِلَّا لِغَرَضٍ فَنِّيٍ يَقتضِي فَسْحَ المجالِ لِعُنْصُرِ بِنائِيٍّ آخَرَ لِيُساهِمَ فِي تَعْقِيدِ التركِيبِ التَّفاعُلِي الذِي يَبْنِي عَلَيْهِ فَنَّهُ .

**أ–3– الصُّورةُ الثَّالثةُ:** قَدْ يَتضاءَلُ التَّجنِيسُ اللَّفظِي لِضُعْفِ العنَاصِرِ المشتَرَكَة بين اللَّفظيْنِ، أوْ لِكوْنِهَا مِنْ مُستوى المضارَعَةِ أوِ المقارَبَةِ، فَيبْدُو التَّجنِيسُ وكأَنَّهُ سَجْعِيٌّ خَالِصٌ، أيْ يُغَلِّبُ المسْمُوعَ علَى المفهُومِ، وأحْسَبُ – يقول العمري – أَنَّ هَذَا حَالُ المثالَيْنِ التَّالِيَيْنِ: [1]

نَكَّسْتُ رَأْسِي بَيْنَ جُلَّاسِي وَنَحْنُ مِنْ سَاقٍ وَمِنْ حَاسِي

س س س س س

يَا صَاحِبَ القَبْرِ دَعْوَى غَيْرَ مُتَّئِبٍ إِنْ قَالَ أَوْدَى النَّدَى وَالبَدْرَ وَالأَسَدَ

د د د د د

غيرَ أَنَّهُ يَجبُ الانتِباهُ إِلى دَوْرِ المدِّ وَالموقِعِ الأَخِيرِ، مَوْقِعِ التَّقْفِيَةِ فِي المثَالَيْنِ مَعًا .

**2– التَّفاعُلُ الصَّوتِي الدِّلالِي:** إِنَّ الاتِّجاهَ البَدِيعِيَّ مَعَ أَبِي تَمامٍ، قَدِ اِتَّجَهَ إِلى تَقْوِيَةِ المَوَازَنَةِ الصَّوْتِيَّةِ بالمقَابَلَةِ القَوِيَّةِ بينَ الحَقِيقةِ وَالمجازِ، أَو بيْنَ المتضَادَّيْنِ دِلَالِيًّا، فَنَتَجَ عَنْ ذلِكَ مَا يُمكنُ أَنْ نَدْعُوَهُ التَّجنِيسُ الاستِعارِيُّ أَوِ المجازِيُّ والتَجنِيسُ المطابَقُ، وليْستْ مَزِيَّةُ التَّجنِيسِ الاسْتِعارِيِّ والمطابَقُ فِي

[1] الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، تح: راجي الأسمر، الجزء الثاني، ص:346 .

قُوّةِ التَّقابُلِ الدّلالِي فحَسْبُ، بلْ هِي مَوجُودةٌ كذلِك وَبِالأسَاسِ، فِي كَوْنِ الاستِعارَةِ والطِّباقِ مُقَوّمَيْنِ بِنَائِيَّيْنِ فِي الشِّعرِ، بلْ هُما مَعَ التَّجنِيسِ أَقْوَى مُقوّماتِ الشِّعرِ القَدِيمِ، فَيَتِمُّ بِذلِكَ إيقاع مُقوّمٍ شعرِيٍّ علَى مُقوّمٍ آخرَ، وبِهذهِ العمليَّةِ التركيبيَّةِ نُصبحُ أمامَ ظَاهِرةٍ جدِيدةٍ، هِي ظاهِرَةُ الصُّورةِ المركَّبَةِ مِنْ صُورتَيْنِ، صَوْتِيَّةٍ ودِلَالِيَّةٍ:

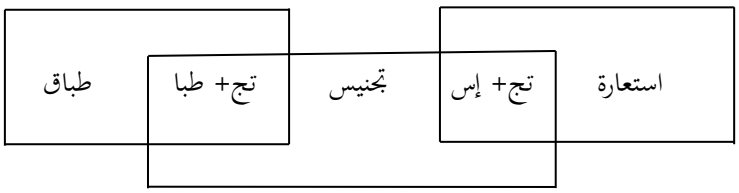


ومثال ذلك :

قول أبي تمام في الأبيات، 18-19-20 من بائيته:[1]

مِنْ عَهْدِ إِسْكَنْدَرٍ، أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ، قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي، وَهْيَ لَمْ تَشِبِ

حَتَّى إِذَا مَخَضَ الله السِّنِينَ لَهَا مَخْضَ البَخِيلَةِ كَانَتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ

أَتَتْهُمُ الكُرْبَةُ السَّوْدَاءُ سَادِرَةً مِنْهَا وَكَانَ اِسْمُهَا : فَرَّاجَةُ الكُرُبِ

ويتردد في أبيات مفردة نوردها بأرقامها في القصيدة: [2]

3- وَالعِلْمُ فِي شُهُبِ الأَرْمَاحِ لَامِعَةً بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

12- فَتْحٌ تُفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا القُشُبِ

24- بِسُنَّةِ السَّيْفِ، وَالخَطِيُّ مِنْ دَمِهِ لَا سُنَّةِ الدِّينِ وَالإِسْلَامِ مُخْتَضِبِ

28- ضَوْءٌ مِنَ النَّارِ وَالظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضُحًى شُحُبِ

[1] الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ص : 36، 37 .

[2] نفسه، ص : 33-48 .

33- وَلَا الخُدُودُ وَقَدْ أُدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ أَشْهَى إِلَى نَاظِرِي مِنْ خَدِّهَا التُّرُبِ

59- تِسْعُونَ أَلْفًا كَآسَادِ الشَّرَى نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ التِّينِ وَالعِنَبِ

61- وَمُغَضَّبٍ رَجَعَتْ بِيضُ السُّيُوفِ بِهِ حَيَّ الرِّضَا مِنْ رَدَاهُمْ مَيِّتَ الغَضَبِ

63- كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرٍ وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضٍ شَنَبِ

هذَا وَيرَى العُمرِيُّ بِأَنَّ التَّجنِيسَ المجازِيَّ ( وهو التفَاعُلُ الصَّوتِيُّ الدِّلالِي ) القائِمُ علَى المزْجِ بينَ التَّجنِيسِ والطِّباقِ يمكِنُ أَنْ نُمَيِّزَ مِنْهُ ثَلَاثَ حَالَاتٍ هِيَ:

أ- المجانَسَةُ بينَ كَلِمَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ تَقَابُلَ تَعَارُضٍ أوْ تَنَاقُضٍ، مثلَ " محتَسِب " و" مُكتَسِب " في قوله:

هَيْهَاتَ زَعْزَعَةُ الأَرْضِ الوَقُورِ بِهِ عَنْ غَزْوِ مُحْتَسِبٍ، لَا غَزْوِ مُكْتَسِبِ [1]

ب- إضافَةُ اللَّفْظَيْنِ المرَدَّدَيْنِ أوِ المتَجَانِسَيْنِ إلَى لَفْظَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ تَقَابُلًا قَوِيًّا، كإِضافَةِ "مُنقَلِبٍ " إلى " سُوء "و" حُسن " في قوله:

وَحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تَبْقَى عَوَاقِبُهُ جَاءَتْ بَشَاشَتُهُ مِنْ سُوءِ مُنَقَلَبِ [2]

جـ- المجانَسَةُ بين المثبَتِ والمنْفِي، كقوله:

يَا رُبِّ حَوْبَاءَ لَمَّا اِجْتَثَّ دَابِرُهُمْ طَابَتْ، وَلَوْ ضُمِّخَتْ بِالمِسْكِ لَمْ تَطِبِ [3]

وقوله:وَصَيَّرُوا الأَبْرُجَ العُلْيَا مُرَتَّبَةً مَا كَانَ مُنْقَلِبًا، أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ [4]

---

[1] الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ص : 44 .

[2] نفسه، ص : 41 .

[3] نفسه، ص : 47 .

[4] نفسه، ص : 34 .

د- الكلِمَةُ التِي تَكُونُ مَحَلَّ نِزَاعٍ بَينَ كَلِمَتَيْنِ، إحدَاهُما تُجَانِسُهَا والأُخرَى تُطَابِقُهَا، كما فِي البيتِ التَّالي:[1]

شَجًا فِي الحَشَا، تَرْدَادُهُ لَيْسَ يَفْتُرُ بِهِ صُمْنَ آمَالِي، وَإِنِّي لَمُفْطِرُ

فكلِمةُ " مُفطِر " تُوازِن " يَفتُر " وتُقابِلُ " صُمن " تقابُلًا قَوِيًّا .

وأمَّا الترْصِيعُ فإنَّهُ قَليلٌ فِي شعرِ أبِي تمامٍ، فلَا يُصادِفُ الدَّارِسُ مِنْهُ -كما يرى العمري - أكثَرَ مِنَ الأمْثلَةِ القَليلَةِ التِي تَتَداوَلُهَا كُتُبُ البَلاغةِ والبَدِيعِ، مثْلُ قوله: [2]

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِالله، مُنْتَقِمٍ لله، مُرْتَقِبٍ فِي الله، مُرْتَغِبِ

والميزةُ الأسَاسِيَّةُ لِتَرْصِيعِ أبِي تَمامٍ هِي التَّركِيبُ المعقَّدُ بيَن العَناصِرِ التَّوَازُنِيَّةِ والدِّلَالِيَّةِ، التِي تَعُوقُهُ عَنِ السَّيرِ فِي اِتِّجاهٍ واحِدٍ، كقولِهِ فِي البيتينِ التَّاليْنِ: [3]

ضَمَّ الفَتَاءَ إِلَى الفُتُوَّةِ بُرْدُهُ وَسَقَاهُ وَسْمِيَّ الشَّبَابِ الصَيِّبُ

وَ صَفَا كَمَا يَصْفُو الشِّهَابُ وَإِنَّهُ فِي ذَاكَ مِنْ صِبْغِ الحَيَاءِ لَمُشْرِبُ

التحليل:

[1] الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ص : 344 .

[2] نفسه، ص: 41 .

[3] نفسه، ص : 80 .

**أ– التجنيس:**

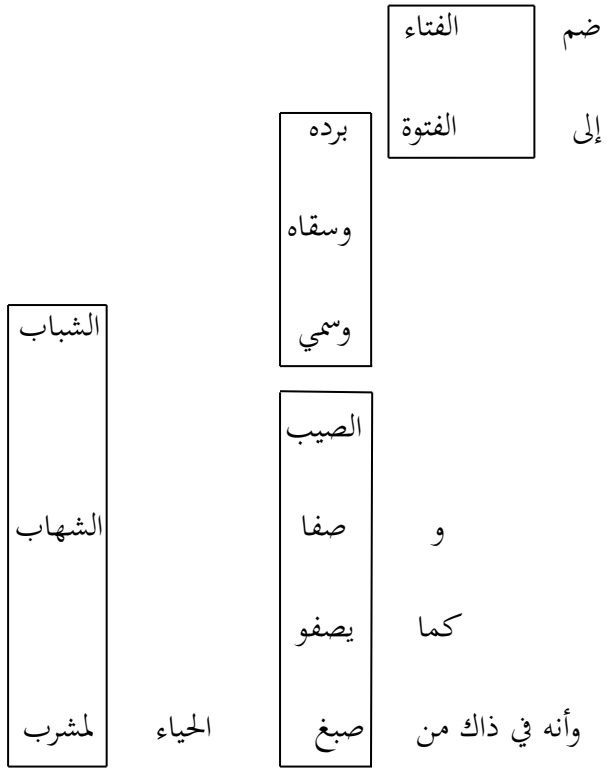


**ب– الترصيع:**

ضَمّ الفَتَاءَ إِلَى الفُتُوَّةِ بُرْدُهُ

وَسَقَاهُ وَسْمِيَّ الشَّبَابِ الصَيِّبُ

وَ صَفَا كَمَا يَصْفُو الشَّبَابُ وَإِنَّهُ

فِي ذَاكَ مِنْ صِبْغِ الحَيَاءِ لَمُشْرِبُ

فهَهُنَا تتَجاوَبُ "بُرْدُهُ "مع " إِنَّهُ " و"الصَّيِّبُ "مع "المشرَبِ" و"الشَّبابُ " مع " الشِّهابِ "كما تَتجاوَبُ الأفعالُ "ضَمَّ "و"سَقَاهُ "و"صَفَا " فِي أَوَّلِ القَرَائِنِ–الجُمَلِ .

وهَذا التَّقطِيعُ الذِي يُرضِي المطَالِبَ التَّوَازُنِيَّةَ المذكُورَةَ، يُشاكِسُ الدِّلالَةَ كمَا يُشَاكِسُ الوَزنَ العَرُوضِيَّ، وذلِكَ مَقْصُودٌ، بَلْ هوَ مَا يميّزُ التَّرصِيعَ عندَ أَبِي تَمَّامٍ .

ومَنَ الشُّعراءِ أيْضًا، الذِينَ عُنِيَ العُمرِيُّ بِدِرَاسَتِهِمْ " أبو الطيب المتنبي "، الذِي عُرِفَ بِكثْرَةِ التّقسِيمَاتِ، وقدْ حَقَّقَ بِذلكَ تَراكُبَ الصُّوَرِ الدِّلاليَّةِ والصَّوْتيَّةِ، فلمْ تَعُدِ الأَلْفَاظُ تُكَرَّرُ لِتَوَازُنِ صِيَغِهَا، ولَا التَّراكِيبُ لِتَوَازِي مَوَاقِعِهَا، بَلْ لِمَا بَينَهُمَا، أيْضًا، مِنْ علاقَاتٍ مَعنَوِيَّةٍ تَقَابُلِيَّةٍ، وهذا مَا أَدَّى بِالبَلاغِيِّينَ إلى تَفرِيعِ التَّوازُنِ التَّرْصِيعِيّ والدِّلالِي عَنْ مُصطَلحٍ وَاحِدٍ كالتَّقْسِيمِ، والمقَابَلَةِ، والمنَاسَبَةِ و ... الخ "[1] .

**التَّوازُنُ والدِّلَالَةُ**: دَرَسَ العُمرِيُّ مَسْأَلَةَ التَّوازنِ والدِّلالةِ مِنْ خِلالِ جانبَيْنِ، يتعلَّقُ الأوَّلُ بظاهِرةِ الاشتِقاقِ والتَّرديدِ فِي الاتِّجاهَاتِ الثَّلاثةِ للشِّعرِ العَرَبِيّ القدِيمِ الآنِفَةِ الذِّكْرِ [*]، ويتعلَّقُ الثَّانِي بالاتِّسَاقِ والتَّضمِينِ، وهذهِ الأخِيرةُ تُمَثِّلُ مُستَوَياتِ تَفاعُلِ الصَّوتِ والدِّلَالةِ دَاخِلَ البَيتِ الشِّعرِي .

هذا وتجدر الإشارة إلى أنّ العلاقة بين الجانب التوازني أو الوزن، مع الجانب الدلالي، هي التي تبرز معنى بلاغة الشعر، ولقد كنا أشرنا آنفا إلى اِتجاهات الشعر العربي القديم من ناحية الوزن، والآن نرى كيف مكَّنَتِ الأوزانُ القصيدةَ من تحقيق معنى التبليغ .

**أوَّلًا: ظاهِرةُ الاشْتِقاقِ والتَّرْدِيدِ**: اِعْتَبَرَ العُمرِيُّ " الاشتقاق "و " الترديد " مِنَ الآليَّاتِ التَّوَازُنِيَّةِ التِي حَظِيَتْ بِاهتِمامٍ كبِيرٍ فِي الشِّعرِ العَرَبِيّ القَدِيمِ، كما تَفرّعتْ عَنِ الاشتِقاقِ صُورَةٌ مُوهِمَةٌ دُعِيَتْ " شِبهَ الاشتِقاقِ " .

**1- فِي الاتِّجاهِ التَّكامُلِيّ**: يمثِّلُ هذَا الاتِّجاهُ، كمَا أَشرْنَا سَابِقًا، أوَّليَّاتِ الشِّعرِ العرَبِي، وهُو شِعرُ الجَاهلِيّينَ الذِين اِسْتعمَلُوا الاشتِقاقَ والتَّرْدِيدَ اِستِعمَالًا مَلحُوظًا، ولقدْ نوَّهَ العُمريُّ بِضرُورةِ التَّفرِيقِ بينَ الشِّعرِ الجَاهِلِيّ الحَقِيقِي، والشِّعرُ المنسُوبُ إلى الجَاهلِيّينَ مِنْ لَدُنِ شُعراءَ غَيرَ مَوْهُوبِينَ فِي المَوَازَنةِ بينَ العناصِرِ الشِّعريَّةِ، فَأَنْتَجُوا شِعْرًا حَقَّقُوا لهُ تُخْمَةً مِنَ التَّوازُنِ الصَّوتِي علَى حِسابِ المقوِّمَاتِ

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص : 182-202 ( بتصرف ) .

[*] اتجاهات الشعر العربي القديم هي : الاتجاه التكاملي، والاتجاه التراكمي، والاتجاه التفاعلي .

الشعريَّةِ الأُخرَى، وفِيمَا يَلي نَتَعرَّفُ علَى ظَاهِرةِ الاشتِقاقِ، والتَّرْدِيدِ فِي الاتِّجاهِ التَّكامُلِيِّ الجاهِلِي مِنْ خِلالِ أَخْذِ شِعْرِ اِمْرِئِ القيْسِ، وزُهَيْرٍ كأُنمُوذَجٍ لِلدِّراسَةِ .

**أ- الاشتِقاقُ والتَّرْدِيدُ فِي بَائِيَّةِ اِمرِئِ القيْسِ:**[1]

3- أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً وَجَدْتُ بِهَا طِيبًا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

5- أَلَا لَيْتَ شِعْرِي، كَيْفَ حَادِثُ وَصْلِهَا ؟ وَكَيْفَ تُرَاعِي وَصْلَةَ المُتَغَيِّبِ

11- فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِنْ تَفَرُّقٍ أَشَتَّ وَأَنْأَى مِنْ فِرَاقِ المُحَصَّبِ

14- وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ، وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

17- يُغَرِّدُ بِالأَسْحَارِ فِي كُلِّ سُدْفَةٍ تَغَرُّدَ مَيَّاحِ النَّدَامَى المُطَرَّبِ

34- فَيَوْمًا عَلَى سِرْبٍ نَقِيٍّ جُلُودُهُ وَيَوْمًا عَلَى بَيْدَانَةٍ أُمِّ تَوْلَبِ

37- فَلَأْيًا بِلَأْيٍ مَا حَمَلْنَا وَلِيدَنَا عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكِ السُّرَاةِ مُجَنَّبِ

42- خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وُدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلَّبِ

43- فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ وَبَيْنَ شَبُوبٍ كَالقَضِيمَةِ قَرْهَبِ

هذَا وَيرَى العُمري بِأَنَّ ظَاهِرَةَ الاشْتِقاقِ والتَّرْدِيدِ فِي بائِيَّةِ اِمْرئ القيْسِ، لم تُمَثِّلْ سِوى سُدْسَ القَصِيدة، وأمَّا البِنيَةُ البَارِزَةُ فَهي التَّجنِيسُ السَّجْعِيُّ والتَّرصِيعُ مثل قولِهِ:

24- لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَصَهْوَةَ عِيرٍ، قَاتِمٍ فَوْقَ مِرْقَبِ

[1] أبو سعيد السكري، ديوان امرئ القيس وملحقاته، تح : أنور عليان أبو مويلم، ومُحَمَّد علي الشوابكة، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 1421هـ/2000م، ص363 وما بعدها .
ملاحظة : كل رقم مكتوب قبل البيت الشعري يشير إلى موقع ذلك البيت من القصيدة .

25- وَيَخْطُو عَلَى صُمٍّ صِلَابٍ كَأَنَّهَا حِجَارَةُ غِيلٍ وَارِسَاتٍ بِطُحْلَبِ

26- لَهُ كَفَلٌ كَالدِّعْصِ لَبَّدَهُ النَّدَى إِلَى حَارِكٍ مِثْلِ الغَبِيطِ المُذَأَّبِ

وقد اِجتهدنا في إنجاز هذا الجدول التوضيحي، والذي من خلاله نستشف مدى توظيف الاشتقاق والترديد، والتجنيس السجعي والترصيع في ما أوردناه من أبيات امرئ القيس .

| البيت الشعري | الاشتقاق والترديد | البيت الشعري | التجنيس السجعي والترصيع |
|---|---|---|---|
| 03 | طيبا / تطيب | 24 | قاتم فوق مرقب |
| 05 | كيف وصلها / كيف ... وصلة | | ق ق ق |
| 11 | تفرّق / فراق | 25 | صم صلاب |
| 14 | يفخر ... كفاخر / يغلبك ... مغلب | | ص م ن ص ل ب ن ن |
| 17 | يغرّد / تغرّد | 26 | كالدعص لبده الندى |
| 34 | فيوما على / ويوما على | | د د د |
| 37 | فلأيا / بلأي | | |
| 42 | خفاهن / خفاهن | | |
| 43 | فعادى / عداء | | |

**ب– الاشتقاقُ والتَّرْدِيدُ فِي مُعلَّقَةِ زُهيرٍ**: يَظهَرُ الاشْتِقاقُ والتَّرْدِيدُ فِي المُعَلَّقَةِ [1] فِي الأبْيات التَّاليَة *

06- فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ، قُلْتُ لِرَبْعِهَا أَلَا اَنْعِمْ صَبَاحًا، أَيُّهَا الرَّبْعُ، وَاِسْلَمِ

10- بَكَرْنَ بُكُورًا، وَاَسْتَرَحْنَ بِسُحْرَةٍ فَهُنَّ وَوَادِي الرَسِّ كَاليَدِ لِلْفَمِ

11- جَعَلْنَ القَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحُزْنَهُ، وَكَمْ بِالقَنَانِ مِنْ مُحَلٍّ وَمُحْرَمِ

[1] الزوزني، شرح المعلقات العشر، ص : 133-155 .

* ملاحظة : أورد العمري ستين بيتا من المعلّقة لكننا اكتفيا بنصفها فقط .

13- وَوَرَّكْنَ فِي السُّوبَانِ يَعْلُونَ مَتْنَهُ عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ المُتَنَعِّمِ

14- كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ، حَبُّ الفَنَا، لَمْ يُحَطَّمِ

16- سَعَى سَاعِيًا غِيظُ بْنُ مُرَّةَ بَعْدَمَا تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ العَشِيرَةِ بِالدَّمِ

20- وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعًا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ المَالِ، نَسْلَمِ

25- يُنَجِّمُهَا قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةً وَلَمْ يَهْرَقُوا مَا بَيْنَهُمْ مِلْءَ مُحْجَمِ

26- فَمَنْ مُبْلِغُ الأَحْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانَ : هَلْ أَقْسَمْتُمُ كُلَّ مُقْسَمِ ؟

27- فَلَا تَكْتُمَنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى، وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهَ يَعْلَمِ

30- مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا دَمِيمَةً وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا، فَتَضْرِمِ

31- فَتَعْرِكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحْ كِشَافًا، ثُمَّ تُنْتِجْ، فَتُتْئِمِ

**جدول توضيحي:**

| البيت الشعري | الاشتقاق والترديد |
|---|---|
| 06 | لربعها / الربع |
| 10 | بكرن / بكورا - استحرن / سحرة |
| 11 | القنان / بالقنان |
| 13 | الناعم / المتنعم |
| 14 | منزل / نزل به |
| 16 | سعى / ساعيا |
| 20 | السلم / نسلم |
| 25 | قوم / لقوم |
| 26 | أقسمتم / مقسم |
| 27 | تكتمن / يكتم |

| | |
|---|---|
| 30 | تبعثوها / تبعثوها – تضر / ضريتموها |
| 31 | تعرككم / عرك |

**2– فِي الاتِّجاهِ التَّراكُمِيّ** : يُوَجِّهُ العُمريُّ دِرَاسَتَهُ لهذَا الاتِّجاهِ علَى أَرَاجِيزِ العَجَّاجِ، وابْنِهِ رُؤْبَة، وقدِ اِعْتبَرَ بِأَنَّ الاشْتقَاقَ والتَّرْدِيدَ هنَا يَتميَّزَانِ عَنْ الاتِّجاهِ السَّابقِ ( الاتجاه التكاملي ) لِكوْنِهِمَا يحمِلانِ الأَلْفاظَ المردَّدَةَ، أوِ المشْتقَّةَ، أوِ الموهَمَةَ بالاشتِقاقِ، أساسَ البِنيَةِ التَّوَازُنِيَّةِ، كمَا فِي قولِ العَجَّاجِ فِي السَّيْلِ: [1]

وَيَقْلَعُ النَّخْلَ الرِّطَابَ المُرْطَبَا

وَالزَّيْتَ لَمْ يَرْطَبْ، وَزَيْتًا أَرْطَبَا

فهذان الشطران مبنيان على كلمتي " رطب " و " زيت " [2] .

وفي الأشطر التالية نجد سيطرة لمادة (غ ن ) [3]:

إِنَّ الغَوَانِي قَدْ غَنِينَ عَنِّي

وَقُلْنَ لِي : عَلَيْكَ بِالتَّغَنِّي

عَنَّا، فَقُلْتُ لِلْغَوَانِي إِنِّي

عَنِ الغِنَى، وَأَنَا كَالمِظَنِّي

وفِي أَشْطُرٍ أخرَى يَعمَدُ العَجَّاجُ إِلى تَقْلِيبِ الصِّيَغ وتَشْقِيقِهَا، وذلِكَ فِي مَدْحِهِ مُصْعَبَ بْنَ

[1] عبد الملك بن قريب الأصمعي، ديوان العجاج، تح : الدكتور عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1416هـ/1995م، ص : 135 .

[2] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص : 210 .

[3] عبد الملك بن قريب الأصمعي، ديوان العجاج، تح : الدكتور عزة حسن، ص : 201 .

الزُّبَيرِ وهَجْوِ المخْتَارِ بْنِ أَبِي عبيدِ [1]:

لَقَدْ وَجَدْتُمْ مُصْعَبًا مُسْتَعْصِبَا

حِينَ رَمَى الأَحْزَابَ وَالمُحَزَّبَا

وَخَشِيَ الأَعْجَامَ وَالمُخَشَّبَا

وَالدَّرْبَ ذَا البَيَانِ وَالمُدَرّبَا

ومِنَ الميزَاتِ التِي لَاحَظَهَا العُمريُّ فِي شِعْرِ الأَرَاجِزِ، أَنَّ الاشْتِقاقَ مُدْعَمٌ بِتِكرارِ أَصْوَاتِ الأَلْفَاظِ المشتَقَّةِ فِي كَلِمَةٍ لَا تَنْتَمِي إلى نَفْسِ الجِذْرِ، كمَا يُلاحَظُ عَدمُ الحِرصِ علَى المقَابَلاتِ الدّلالِيَّةِ فِي الصِّيَغِ الصَّرْفِيَّةِ المشتَقَّةِ، والمِيْلِ إلَى الإعرابِ؛ ومِنْ هذَا قوْلُ رُؤْبَةَ بْنِ العَجَّاجِ: [2]

إِذَا شَحَا لِشَدْقَمَاتٍ شَدَّ قَمَهْ

لَاقَيْنَ مَضَّاغًا هَقَبًّا قَهْقَمَهْ

مِنْ طُولِ مَا هَقَّمَهُ تَهَقَّمَهْ

مُطْلَقَةً أَنْيَابُهُ لَا تَكْعُمَهْ

وقوله: [3]

لَوْ كُنْتُ اَسْطَعُكَ لَمْ يُشَغْشَغِ

شُرْبِي وَمَا المَشْغُولُ مِثْلُ الأَفْرَغِ

[1] عبد الملك بن قريب الأصمعي، ديوان العجاج، تح : الدكتور عزة حسن، ص : 135 .

[2] ديوان رؤبة بن العجاج، تح : وليد بن الورد البرنوسي، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر، الكويت، الطبعة الأولى 2008م، ص : 153 .

[3] نفسه، ص : 97 .

عَرَفْتُ أَبِيّ نَاغٍ فِي النُّشَّغِ

إِلَيْكَ أَرْجُو مِنْ نَدَاكَ الأَسْوَغِ

إِنْ لَمْ يُعِقْنِي عَائِقُ التَّسَغْسُغِ

فِي الأَرْضِ فَارْقَبْنِي وَعَجْمِ المُضَّغِ

كذلِكَ لَاحَظَ العُمريُّ مُلَاحَظَتَانِ هُمَا:

أ- أَنَّ هذَا النَّوعَ مِنَ الشِّعرِ يَعْمَدُ عَلى التَّخَلِّي نِسْبِيًّا عنْ مطْلَبِ المعنَى فِي الدِّقةِ والوُضُوحِ لِصَالِحِ التَّوازُنِ الصَّوتِي، وبذلِكَ تَتَأَسَّسُ دِلالَةٌ ثانَوِيّةٌ تَتَمثَّلُ فِي الدّلالَةِ الشِّعريَّةِ الرَّمزيَّةِ .

ب- أنَّ هاتِهِ الأَراجِيزَ تَقْتَرِبُ مِنْ سَجَعِ الكُهَّانِ، وذلِكَ راجِعٌ إِلى الدِّلالَةِ الثَّانَويَّةِ المذكُورَةِ [1] .

**3- فِي الاتِّجاهِ التَّفاعُلِي**: يَظْهَرُ فِي هذَا الاتِّجاهِ جَانِبُ الإِبْهَامِ، بإعطاءِ شِبْهِ الاشتِقَاقِ، الذِي سُمِّيَ عندَ بَعضِ القُدَمَاءِ الاشتِقاقَ الموهِمَ، مَكَانةً واسِعَةً، ويَتعَلَّقُ شِبهُ الاشتِقاقِ بالمجانَسَةِ بينَ كَلِمَتَيْنِ مِنْ أَصْلَيْنِ مُعْجَمِيَّيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، غيرَ أَنَّ تَجَانُسَهُمَا الصَّوْتِيَّ التَّامَ وهيْئَةَ اِشْتِقَاقِهِمَا تُوهِمُ أَنَّهُمَا مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، ومِنْ ذلِكَ قوْلُ أَبِي تمَّامٍ:[2]

1- مَتَى أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةِ الحَيِّ ذَاهِلُ وَقَلْبُكَ مِنْهَا مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِلُ ؟

2- تُطِلُّ الطُّلُولُ الدَّمْعَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ وَتَمْثُلُ بِالصَّبْرِ الدِّيَارُ المَوَاثِلُ

3- دَوَارِسُ لَمْ يَحْفُ الرَّبِيعُ رُبُوعَهَا وَلَا مَرَّ فِي أَغْفَالِهَا، وَهْوَ غَافِلُ

4- فَقَدْ سَحَبَتْ فِيهَا السَّحَائِبُ ذَيْلَهَا وَقَدْ أُخْمِلَتْ بِالنَّوْرِ فِيهَا الخَمَائِلُ

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة، ص : 212 .

[2] الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ج2، ص : 53، 54 .

5- تَعَفَّيْنَ مِنْ زَادِ العُفَاةِ إِذَا اِنْتَحَى عَلَى الحَيِّ صِرْفُ الأَزْمَةِ المُتَمَلْحِلُ

6- لَهُمْ سَلَفٌ سُمْرُ العَوَالِي وَسَامِرٌ وَفِيهِمْ جَمَالٌ لَا يَغِيضُ وَجَامِلُ

7- لَيَالِيَ أَضْلَلْتَ العَزَاءَ وَجَوَّلَتْ بِعَقْلِكَ آرَامُ الخُدُورِ العَقَائِلُ

وهاتِهِ الأبَياتُ السَّبْعَةُ مُكَدَّسَةٌ كمَا يَرى العُمرِيُّ، بِتِسْعةِ تَجْنِيسَاتٍ مُوهِمَةِ الاشتقَاقِ، وأمَّا فِي الأبْياتِ التِي تَلِيهَا فقدِ اِكْتَفَى الشَّاعرُ بالترْدِيدِ والتِّكرارِ كقولِهِ:[1]

8- مِنَ الهِيفِ لَوْ أَنَّ الخَلاَخِلَ صُيِّرَتْ لَهَا وُشُمًا جَالَتْ عَلَيْهَا الخَلَاخِلُ

9- مَهَا الوَحْشِ، إِلَّا أَنَّ هَاتَا أَوَانِسٌ، قَنَا الخَطِّ، إِلَّا أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

10- هَوًى كَانَ خِلْسًا، إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ الهَوَى هَوًى جِلْتَ فِي أَفْنَائِهِ، وَهْوَ خَامِلُ

11- أَبَا جَعْفَرٍ، إِنَّ الجَهَالَةَ أُمُّهَا وَلُودٌ، وَأُمُّ العِلْمِ جَدَّاءُ حَائِلُ

أمَّا الوجهُ الثَّانِي مِنَ الاشْتِقاقِ الموهِمِ عندَ أبِي تمامٍ فهُوَ الاشتِقَاقُ مِنْ الأسْمَاءِ كقَولِهِ:

سَيْفُ الإِمَامِ الذِي سَمَّتْهُ هِمَّتُهُ لَمَّا تَخَرَّمَ أَهْلُ الأَرْضِ، مُخْتَرِمَا

إِنَّ الخَلِيفَةَ لَمَّا صَالَ كُنْتَ لَهُ خَلِيفَةَ المَوْتِ فِيمَنْ جَارَ أَوْ ظَلَمَا

قَرَّتْ بِقَرَّانَ عَيْنُ الدِّينِ وَاِنْتَشَرَتْ بِالأَشْمَرَيْنِ عُيُونُ الشِّرْكِ فَاصْطَلَمَا [2]

**جدول توضيحي:**

| البيت الشعري | الاشتقاق من أصل واحد | البيت الشعري | الترديد والتكرار | بقية الأبيات | الاشتقاق من الأسماء |
|---|---|---|---|---|---|

[1] الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ج2، ص : 55 .

[2] نفسه، ص : 82 .

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| | | | | الشعرية | |
| 01 | ذهلية / ذاهل | 08 | الخلاخل / الخلاخل | الأول | تخرّم / مخترم |
| 02 | تطل / الطلول | 09 | إلا أنّ هاتا / إلا أنّ | الثاني | الخليفة ( خليفة الله ) |
| 03 | أغفالها / غافل | 10 | تلك | | / خليفة الموت |
| 04 | سحبت / السحائب | | أمُّ الجهالة / أمُّ العلم | الثالث | عين الدين / عيون |
| 05 | تعفين / العفاة | | | | الشرك |
| 06 | سمر / سامر | | | | |
| 07 | عقلك العقال | | | | |

## ثَانِيًا: مُستَوياتُ تَفَاعُلِ الصَّوتِ والدِّلالَةِ دَاخِلَ البَيتِ ( الاتساق والتضمين ):

مَيَّزَ العُمرِيُّ بينَ نَوْعَيْنِ مِنَ التَّضمِينِ، التَّضمِينُ الدَّاخِلِيُّ الذِي يَهْتَمُّ بِتَرَابُطِ الشَّطرَيْنِ، والتَّضمِينُ الخَارِجيُّ الذِي يهتَمُّ بِتَرَابُطِ الأبْيَاتِ، وقدْ لَاحَظَ أَنَّ التَّضْمِينَ الدَّاخِلِيَّ يَلْعَبُ دَوْرًا مُشَعْرِنًا فِي الشِّعرِ العَرِبِيّ يقْتَضِي تَتَبُّعَهُ وكشْفَ فَعَالِيَّاتِهِ، ونقيضُ التَّضمِينِ " الاتِّساقُ "، وهُو تَطَابُقُ التَّقطِيعِ النَّظمِيّ الصَّوتِي مَعَ التَّمَفْصُلِ الدِّلَالِي .

هذَا ويَرَى العُمرِيُّ بِأَنَّ مَواقِفَ البَلاغِيِّينَ والنُّقَادَ مِنْ الاتِّسَاقِ والتَّضمِينِ تَمْتَدُّ مِنْ مَوْقِفِ أَبِي العبَّاسِ، وابْنِ طَبَاطِبَا، وابنِ الأثِيرِ .

**1/– هَيْمَنَةُ الاتِّساقِ – الخُطَاطَةُ الإمْرُقَيْسِيَّةُ** [*] **–**: مِنْ خِلالِ التَّنظِيرِ عندَ " ثَعْلَبْ " الذِي أَخَذَ مِنهُ العُمرِيُّ شِعرَ اِمْرِئِ القَيْسِ نَمُوذَجًا، يَخْلُصُ العُمريُّ إِلى الملاحَظَاتِ التَّاليَةِ:

أ– أنَّ اِرْتِبَاطَ الأبْيَاتِ لَا تَكونُ إِلَّا بِرَابِطَةِ الضَّمِيرِ، وعَوْدَةِ الكلَامِ علَى مُتَقَدِّمٍ، أوْ بِرابِطَةِ العَطْفِ وغيرِ ذلِكَ مِنَ الرَّوابِطِ المعْنَوِيَّةِ المفتَرَضِ وُجُودُهَا فِي كَلامٍ يَدُورُ حَولُ مَوْضُوعٍ مُعيّنٍ، وأمَّا التَّضمِينُ فهُو ضَئِيلٌ جِدًّا .

[*] الخطاطة الإمرقيسية : نسبة إلى امرئ القيس .

ب- اِستِقْلَالُ الشَّطرِ الأَوَّلِ عَنِ الثَّانِي فِي أبْياتِ اِمرِئِ القيْسِ، وكمَا تَنْكَسِرُ حِدَّةُ التَّضمِينِ عندَ اِمرِئِ القيْسِ بِسَبَبِ الفَصْلِ بَينَ طَرَفَيِ التَّضمِينِ، وبُعدِهَا عَنِ القَافيَةِ كَقولِهِ [1]:

فَصَبَّحَهُ عِنْدَ الشُّرُوقِ غَدِيَّةً، كِلَابُ اِبْنِ مُرٍّ أَوْ كِلَابُ اِبْنِ سُنْبُسِ

وَبَاتَ إِ لَى أَرْطَاةِ حِقْفٍ كَأَنَّهَا إِذَا أَلْثَقَتْهَا غَبْيَةٌ، بَيْتُ مِعْرَسِ

وهناك حالات أقلّ شيوعا مثل قوله[2] :

لَمَّا سَمَا مِنْ بَيْنِ أَقْرَنَ فَالـ أَجْبَالِ، قُلْتُ : فِدَاؤُهُ أَهْلِي

وبالرغم من التباعد بين الطرفين فإن توقف استقامة المعنى على القافية، كما في قوله [3]:

وَأَيْقَنَ، إِنْ لَاقَيْنَهُ أَنَّ يَوْمَهُ بِذِي الرِمْثِ، إِنْ مَاوَتْنَهُ، يَوْمُ أَنْفُسِ

وهناك حالات يتصل ففيها الطرفان اتصالا مباشرا مثل قوله [4]:

1- أَعِنِّي عَلَى بَرْقٍ أَرَاهُ وَمِيضِ يُضِيءُ حَبِيًّا فِي شَمَارِيخَ بِيضِ

2- وَيَهْدَأُ تَارَاتٍ سَنَاهُ، وَتَارَةً يَنُوءُ كَتِعْتَابِ الكَسِيرِ المَهِيضِ

3- وَتَخْرُجُ مِنْهُ لَامِعَاتٌ كَأَنَّهُ أَكَفُّ تَلَقَّى الفَوْزَ عِنْدَ المُفِيضِ

4- قَعَدْتُ لَهُ، وَصُحْبَتِي بَيْنَ ضَارِجٍ وَبَيْنَ تِلَاعٍ يَثْلَثٍ فَالعَرِيضِ

وأمَّا الوَسِيلةُ الثَّانِيةُ التِي تُقَلِّلُ مِنْ أهمِيَّةِ التَّضمِينِ فِي دِيوانِ اِمرِئِ القيسِ، فهِيَ إِعطَاءُ إِمْكَانِيَّاتٍ لِلتَّأوِيلِ، إِذْ لَا يَشعُرُ القارِئُ بِالتَّضمِينِ إِلَّا بَعدَ قِراءَةِ الشَّطرِ الثَّانِي، كأنْ يَكُونَ الفِعْلُ قَابِلًا لِلُّزُومِ

[1] أبو سعيد السكري، ديوان امرئ القيس وملحقاته، ص : 529-527 .

[2] نفسه، ص : 606 .

[3] نفسه، ص : 531 .

[4] نفسه، ص : 459، 460 .

والتَّعْدِيَةِ، فيَصِحُّ الوَقْفُ ولَا يَصِحُّ الابْتِدَاءُ، وأغْلَبُ مَا وَرَدَ مِنْ شِعْرِ اِمرئ القيس مِنْ هذَا، يُسمِّيهِ العُمرِيُّ " شِبْهُ التَّضْمِينِ " وَهُوْ وَسِيلَةٌ شِعْرِيَّةٌ رَفِيعَةٌ، تُتِيحُ تَعَدُّدِيَّةَ القِراءَةِ والتَّأْوِيلِ .

واِعتِبَارًا بما قامَ بِهِ ثَعْلَبْ فِي قراءَةِ شِعرْ اِمرئ القيْسِ، يُقَسِّمُ العُمرِيُّ شِعْرَ اِمرِئِ القيْسِ إلى خَمْسِ طَبَقَاتٍ هِيَ:

**الطَّبَقَةُ الأُولَى:** هِي التِي يَكُونُ فِيهَا اِسْتِقْلَالُ البَيْتِ كُلِّهِ عنْ بَقِيَّةِ الأبيَاتِ الشِّعرِيَّةِ ( الشطران معا )، وفيه مِنْ شِعْرِ اِمرِئِ القيسِ الشَّيْءُ القَلِيلُ .

**الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ:** هِيَ المَمَثَّلَةُ فِي الأبيَاتِ الغرّ التِي يَسْتَقِلُّ فيهَا الشَّطرُ الأوَّلُ عَنِ الثَّانِي مِنَ البَيتِ الشعْرِي، وهذَا يُمَثِّلُ أَغْلَبَ شِعْرِهِ .

**الطَّبَقَةُ الثَّالِثَةُ:** هِي التِي تَضُمُّ أَغْلَبَ أَبْيَاتِهِ المضَمَّنَةِ .

**الطَّبَقَةُ الرَّابِعَةُ:** هِي التِي يَعْمَدُ فِيهَا امْرؤُ القيسِ إلى تَوْظِيفِ التَّرْصِيعِ فِي حُدودِ الأَشطُرِ، سَواءٌ أَوْقَعَ التَّقْطِيعَ التَّرْصِيعِيَّ عَلَى التَّقْطِيعِ العَرُوضِيِّ أَوْ لَمْ يَلْتَزِمْ ذَلِكَ .

**الطَّبَقَةُ الخَامِسَةُ:** هِي التِي تَضُمُّ مَا اِعْتُبِرَ رَدِيئًا مِنْ شِعْرِهِ، وَهَذا قَلِيلٌ جِدًّا .

ومِنْ حَالاتِ سَيْطَرَةِ الاتِّساقِ عَلى التَّضْمِينِ فِي شعرِ اِمرِئِ القيْسِ يُبرِزُ العُمريُّ الأبيَاتَ 4، 5، 6 مِنْ قصِيدتِهِ " لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي " وهي [1] :

4- فَإِنْ أَمْسَ مَكْرُوبًا فَيَا رُبَّ بَهْمَةٍ  كَشَفْتَ إِذَا مَا اَسْوَدَّ وَجْهُ الجَبَانِ

5- وَإِنْ أَمْسَ مَكْرُوبًا فَيَا رُبَّ قَيْنَةٍ  مُنَعَّمَةٍ، أَعْمَلْتَهَا بِكِرانِ

6- لَهَا مِزْهَرٌ يَعْلُو الخَمِيسِ بِصَوْتِهِ  أَجَشُّ إِذَا مَا حَرَّكَتْهُ اليَدَانِ

[1] أبو سعيد السكري، ديوان امرئ القيس وملحقاته، ص : 498، 499 .

7- وَإِنْ أَمْسَ مَكْرُوبًا فَيَا رُبَّ غَارَةٍ شَهِدْتُ عَلَى أَقَبَّ رِحْوِ اللُّبَانِ

**2/- هَيْمَنَةُ التَّضَمِينِ الدَّاخِلِيّ:** لقدْ دَرسَ العُمرِيُّ قضيَّةَ هَيْمَنَةِ التَّضمِينِ الدَّاخِلِيّ مِنْ خِلالِ ثَلاثَةِ عناصرَ هِيَ: أ- نحوَ إِدْمَاجِ الشَّطريْنِ تَرْصِيعًا ( الخطاطة الزهيرية - نسبة إلى زهير بن أب سلمى )، ب- إدماجُ الشَّطْرَيْنِ، جـ- اعتمَادُ الشَّطرِ وِحْدَةً: الأراجيز .

**أ- نحوَ إِدْمَاجِ الشَّطْرَيْنِ تَرْصِيعًا:** حَيثُ تكُونُ أَطرَافُ المعنَى فِي الشَّطرَيْنِ أَكثَرَ تَمَاسُكًا، وقدْ يَنْدمِجُ الشَّطرانِ بِفصْلَةٍ أَساسِيَّةٍ فِي بِناءِ المعنَى، وهوَ مَا يَظْهرُ فِي قَصائِدِ زُهيرٍ، وقدْ حاوَلَ العُمريُّ تَقطِيعَ كَافِيَّةِ زُهيْرٍ تَقْطِيعًا يُراعِي تَمَفْصُلَ الجُمَلِ إِلَى فَصْلاتٍ أو فَصْلَاتِ-قَرَائِنَ، بِالنَّظرِ إِلى مَوْقِعِهَا مِنْ تَمَفْصُلِ البَيتِ وَزْنِيًّا، القَاسِمَةُ، وَالقَاسِمَةُ الدَّاخِلِيَّةُ .

ومِمَّا لَاحَظَهُ العُمريُّ فِي كَافِيَّةِ زُهيرٍ مَا يلي:

أ- أنَّ عَدَدَ حَالاتِ التَّضمِينِ الدَّاخلِيّ، بينَ الشَّطْرينِ، يَتجاوَزُ نِصفَ الأبْيَاتِ .

ب- أنَّ عَدَدَ حَالاتِ التّضمِينِ الدَّاخِلِي، بينَ البَيْتَيْنِ، نَادِرٌ جِدًّا .

جـ- عَدَمُ مُصَادَفَةِ مَشْطُورِ البَحرِ لِوَقْفٍ دِلَالِيّ، إِلَّا فِي حَالاتٍ نَادِرةٍ، لَا تدْخُلُ فِي نَسَقٍ تَرْصِيعِيّ ذِي مَرْدُودٍ إِيقَاعِيّ .

د- البِنْيَةُ الغَالِبَةُ عَلَى النَّصِ هِيَ بِنْيَةٌ تَضمِينِيَّةٌ بِالنِّسبَةِ للتَّمَفْصُلِ العَرُوضِيّ، مَا أَدَّى إِلى إِجْرَاءٍ إِيقَاعِيّ تَعْوِيضِيّ .

هـ- أَبيَاتُ القَصِيدَةِ مُرَكَّبَةٌ مِنْ وِحْدَاتٍ تَرْصِيعِيَّةٍ، وَهَاتِهِ الوِحْدَاتُ مُكَوَّنَةٌ مِنْ أَنْسَاقَ يُمْكِنُ كَشْفُهَا.

| الأنساق الترصيعية ( عدد الوحدات ) | عدد الأبيات التي ورد فيها كل نسق |
|---|---|
| 04 | 13 |
| 05 | 10 |

| | |
|---|---|
| 06 | 03 |
| 03 | 02 |
| 01 | 06 |

وهذَا الجَدْولُ أوْرَدَهُ العُمريُّ كَدِرَاسَةٍ لِلْأَنْسَاقِ التَّرْصِيعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الكَمُّ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ المَوْضُوعَاتُ فَنُقَدِّمُ الجَدْوَلَ التَّالِي:

| الأبيات | الموضوع |
|---|---|
| من 1 إلى 6 | رحيل الخليط، وحركة الرحلة في الصحراء |
| من 7 إلى 24 | تساؤل الشاعر هل تبلغه الناقة وصفها وتشبيهها بالقطاة ... الخ |
| من 25 إلى 33 | الحديث عن العهد والجوار والتهديد بالهجاء |

## الأَنْسَاقُ الإِيقَاعِيَّةُ فِي كُلِّ مَجْمُوعَةٍ:

**المجموعَةُ الأُولَى ( من 1 إلى 6 )**: ثلاثُ وِحْداتٍ / خَمسُ وِحداتٍ / أَربعُ وِحداتٍ / أربعُ وِحداتٍ / خَمسُ وِحداتٍ .

**المجموعَةُ الثانيَةُ ( من 7 إلى 24 )**: ثلاثُ وِحْداتٍ / خَمسُ وِحداتٍ / أَربعُ وِحداتٍ / أربعُ وِحداتٍ / خَمسُ وِحداتٍ / أَربعُ وِحداتٍ / أَربعُ وِحداتٍ / أَربعُ وِحداتٍ .

**المجموعَةُ الثالثَةُ ( من 25 إلى 33 )**: ثلاثُ وِحداتٍ / خَمسُ وِحداتٍ .

وَمِمَّا لَاحَظَهُ العُمريُّ مَا يَلِي:

أ- هُناكُ تَطابُقٌ فِي الأَنْسَاقِ بينَ المجمُوعَتَيْنِ ( 1-6 ) و( 25-33 )، والذِي يَعُودُ إلى التَّشابُهِ فِي الموضُوعِ أوِ الحالَةِ التِي عَاشَهَا الشَّاعرُ، فالمجمُوعَةُ الأُولَى تُمَثِّلُ المخَالَطَةَ ثُمَّ الفِراقَ، والمجمُوعَةُ الثَّانيةُ تُمَثِّلُ الغَدْرَ الموجِبَ لِلتَّهْدِيدِ، وفِي كِلْتَيْهِمَا يَكونُ الحُزنُ، والأسَى، والعَذابُ النَّفْسِيُّ .

ب- يُوجَدُ صِراعٌ بينَ آليَّتَيِ التَّضمِينِ العَرُوضِيّ، والتَّقطِيعِ التَّرْصِيعِيّ، فالأوَّلُ يُحاوِلُ خَلْقَ حَرَكَةٍ وسُرْعَةٍ دَاخِلَ البَيتِ، بينمَا يَعمَلُ الثَّانِي علَى إبْطاءِ حَرَكَةِ القَصيدَةِ مِنْ خِلالِ تَكثِيرِ فُرَصِ الوَقْفِ .

جـ- يَبْدُو النَّصُّ الشِّعريُّ عِندَ زُهيْرٍ وَكأَنَّهُ مَجمُوعَةَ جُمَلٍ نَثْرِيَّةٍ، لَكِنَّهُ مَعَ ذلِك يحتَفِظُ بِوِحْدَاتِهِ بِقَدْرٍ خَفِيٍّ مِنْ التَّوَازُنِ، وَمِثَالُ ذلِك قَوْلُهُ:[1]

وَقَالَ : سَأَقْضِي حَاجَتِي، ثُمَّ أَتَّقِي  عَدُوِّي، بِأَلْفٍ، مِنْ وَرَائِيَ، مُلْجَمِ

وقد قسَّم العمَرِيُّ هذا البَيْتَ إلى ثَلَاثِ وِحْدَاتٍ هِيَ:

وَقَالَ سَأَقْضِي حَاجَتِي/ ثُمَّ أَتَّقِي عَدُوِّي بِأَلْفٍ/ مِنْ وَرَائِيَ مُلْجَمِ

وقدْ قُمْنَا بِتَحلِيلِ هذَا البَيتِ عَلى النَّحوِ التَّالِي:

**المَقَاطِعُ الطِّوَالُ**: -وقال-سأقضي-أنا-حاجة-أنا

5 4 3 2 1

-ثم-أتق-أنا-عدو-أنا-بألف

6 5 4 3 2 1

-من-وراء-أنا-ملجم

4 3 2 1

**المَقَاطِعُ القِصَارُ**: -وقال-سأقضي-أنا-حاجتي

4 3 2 1

-ثم-أتق-أنا-عدوي-بألف

[1] أبو العباس ثعلب، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص : 22 .

5 4 3 2 1

-من-وراء-أنا-ملجم

4 3 2 1

- مَجمُوعُ المقاطِعِ فِي المجمُوعَةِ الأُولَى هُوَ: 09 ( 05 طوال و04 قصار )

- مَجمُوعُ المقاطِعِ فِي المجمُوعَةِ الثَّانِيةِ هُوَ: 11 ( 06 طوال و05 قصار )

- مَجمُوعُ المقاطِعِ فِي المجمُوعَةِ الثَّالِثَةِ هُوَ: 08 ( 04 طوال و 04 قصار )

**ب- إِدْمَاجُ الشَّطْرَيْنِ**: المقصُودُ بِإدماجِ الشَّطرَيْنِ هُنَا، هُو أَلَّا يَكُونَ البَيتُ الشِّعرِيُّ مُتَّصِلًا اِتِّصَالًا كَامِلًا، وَلَا يَكونَ هُنَالِكَ أَيُّ فَصْلٍ بَينَ شَطْرَيِ البَيْتِ، مِثلَ قَولِ الشَّاعِرِ[1] :

فَالعِرَاقِيُّ، بَعْدَهُ، لِلْحِجَازِيّ، قَلِيلُ الخِلَافِ، سَهْلُ القِيَادِ

وقدِ اِقْتَبَسَ العُمرِيُّ كلِمَةَ " إِدْمَاجٍ " مِنْ قَولِ اِبن رَشِيقٍ القَيروَانِي: " المُدَاخَلُ مِنَ الأَبْيَاتِ مَا كانَ قَسِمُيهُ ( أيْ شَطْرُهُ ) مُتَّصِلًا بالآخَرِ غَيرَ مُنْفَصِلٍ عَنهُ، قَدْ جَمَعَتْهُمَا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وهوَ المُدْمَجِ أَيْضًا "، وقدْ تجَنَّبَ العُمرِيُّ لَفْظَ المُدَاخَلِ حَتَّى لاَ يَلْتَبِسَ مَعَ المُدَاخَلَةِ، وحتَّى يكُونَ هُنالِكَ تَنَاسُقٌ وانْسِجَامٌ بينَ هَذَا العُنوانِ والعُنوانِ السَّابِقِ لَهُ " نَحْوَ إِدْمَاجِ الشَّطْرَيْنِ تَرْصِيعًا ( الخُطَاطَةُ الزُّهَيْرِيَّةُ ) " .

وهذِهِ الظَّاهِرَةُ تَكونُ فِي البُحورِ القَصِيرةِ، والتِي تُصابُ بِعِلَّةٍ تَفْقِدُ بِهَا وَزْنَهَا، كما هُوَ الحَالُ فِي السَّرِيعِ، والمنْسَرِحِ، والعروضُ الثانِيَةُ مِنَ الكَامِلِ ( فعلن ) وفِي بَحْرِ الخَفِيفِ أيْضًا، وَهو يَقِلُّ عندَ الشُّعراءِ الجَاهِلِيّينَ وَيكْثُرُ عِندَ غيرِهِمْ .

[1] ديوان رؤبة بن العجاج، تح : وليد بن الورد البرنوسي، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر، الكويت، الطبعة الأولى 2008م، ص : 153 .

كَما أَنَّ لِلإدْمَاجِ أَسبَابًا ذاتيَّةً، خَاصَّةً بِالشَّاعِرِ، أَوْ مَوضُوعِيَّةً، ترجِعُ إِلى طَبِيعَةِ الأَفْكَارِ المتَنَاوَلَةِ، والمعقَّدَةِ أَوِ الفَلْسَفِيَّةِ .

وَإذا كانَ العُمريُّ قدِ اِعْتَمَدَ فِي الدِّراسةِ السَّابقَةِ علَى اِمرئِ القيْسِ وَزُهيْرٍ، فإنَّهُ فِي هذِهِ يَعْتَمِدُ عَلَى شِعْرِ أَبِي العَلاءِ المعَرِّي، وخَاصَّةً قَصِيدَتَهُ المشهُورَةُ فِي رِثاءِ أَبِي حَمْزَةَ، فَقَدْ بَلَغَ عَدَدُ الأبيَاتِ التِي تَقَعُ القَاسِمةُ فِيهَا وَسَط الكلِمَةِ 37 بيتًا مِنْ مَجْمُوعِ 52 بيتًا، وهُناكَ حَالَاتٌ يَصِلُ فِيها تَرَابُطُ الشَّطْرِيْنِ ومُكَافَحَةُ هذَا التَّرابُطِ لِلْوَقْفِ إِلى حَدِّ وُقُوعِ القَاسِمَةِ علَى حَرْفَيْنِ مُدْغَمَيْنِ كَمَا فِي المثَالِ السَّابِقِ .

فَالعِرَاقِيُّ، بَعْدَهُ، لِلْحِجَازِيّ، قَلِيلُ الخِلاَفِ، سَهْلُ القِيَادِ

ولَقَدْ نَفَى العُمرِيُّ أنْ يَكونَ المَعَرِّي غيْرَ مُهْتَمٍّ بِالتَّقطِيعِ الدَّاخِلِي لِلبَيْتِ الشِّعرِي، وأنَّهُ إِنَّمَا كانَ يَهْتَمُّ بِالمعنَى وَصِيَاغَةِ الجُمَلِ فِي حُدُودِ البحرِ فَقَطْ، فَهذَا أَمْرٌ غَيرُ مَقبُولٍ، والدَّلِيلُ علَى ذَلِكَ مَا يتوَفَّرُ عليْهِ البَيْتُ مِنْ مَعالِمَ تَرْصِيعِيَّةً، كَلَفْظَةِ " العِرَاقِيّ " التِي تَتَجَاوَبُ مَعَ " الحِجَازِيّ " .

ثُمَّ إِنَّ تَقْطِيعَ الشَّطرِ الثَّانِي إِلى قَرِينَتَيْنِ مُتَوَازِيَتَيْنِ تَرْكِيبِيًّا، مُتَوَازِيَتَيْنِ صَوْتِيًّا، كُلُّ وَاحِدَةٍ منهُمَا قائِمَةُ الذَّاتِ دِلالِيًّا، يُشْعِرُ بِأَنَّ البَيْتَ مُكَوَّنٌ فِي أَرْبَعِ وِحْدَاتٍ هِيَ:

فَالعِرَاقِيُّ/ لِلْحِجَازِيّ/ قَلِيلُ الخِلَافِ/ سَهْلُ القِيَادِ

**جـ- اِعْتِمَادُ الشَّطْرِ وِحْدَةً:( الأَرَاجِيزُ )**: لَقَدْ كَانَ النُّقَّادُ والبَلَاغِيُّونَ القُدمَاءُ يَنْتَقِصُونَ عَنْ مَكَانَةِ الرَّجْزِ، وحتَّى الشُّعراءُ الجَاهِلِيُّونَ لَمْ يَكونُوا يَنْظُمُونَ القَصائِدَ عَلى بَحْرِ الرَّجزِ، وهذَا الأمْرُ لم يَرُقْ لِلْعمَرِيّ، ذلِك أنَّهُ أَشارَ إِلى التَّشابُهِ الشَّدِيدِ بينَ بِنْيَةِ الرَّجْزِ وَبِنْيَةِ الكَامِلِ، ويرَى العُمرِيُّ أَنَّ الأمْرَ يرْجِعُ إِلى المنافَسَةِ الشَّدِيدَةِ التِي يَفْرِضُهَا النَّثرُ علَى الرَّجزِ، ولِذلِكَ لَجَأَ الرُّجَّازُ إِلى عِدَّةِ إِمْكَانِيَّاتٍ أَهَمُّهَا مُضَاعَفَةُ القَوَافِي بِالتِزَامِهَا فِي جَمِيعِ الأَشْطُرِ، كَما قَوَّوُا القَافِيَةَ بِتَوْظِيفِ الغَرابَةِ المعْجَمِيَّةِ

والصَّوتِيَّةِ، وقدْ قَدَّمَ العُمريُّ مِثالًا يَحتَوِي علَى تَمَاسُكِ الأشْطُرِ وَتَرَابُطِهَا، وهُوَ قَوْلُ العَجَّاجِ فِي أُرْجُوزَةٍ مِنِ اِثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ بَيْتًا، مِنْهَا:[1]

1- اَلحَمْدُ لله الذِي اِسْتَقَلَّتِ

2- بِإِذْنِهِ السَّمَاءُ وَاِطْمَأَنَّتِ

3- بِإِذْنِهِ الأَرْضُ وَمَا تَعَتَّتِ

4- وَحَى لَهَا القَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ

5- وَشَقَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ

6- رَبُّ البِلَادِ وَالعِبَادِ القُنَّتِ

7- وَاَلجَاعِلُ الغَيْثَ غِيَاثَ المُسْنَتِ

8- وَالجَامِعُ النَّاسَ لِيَوْمِ المَوْقِتِ

9- بَعْدَ المَمَاتِ، وَهْوَ مُحْيِ المُوَّتِ

10- يَوْمَ تَرَى النَّفْسُ مَا أَعَدَّتِ

11- مِنْ نُزلٍ إِذَا الأُمُورُ غُبَّتِ

12- مِنْ سَعْيِ دُنْيَا طَالَ مَا قَدْ مُدَّتِ

13- حَتَّى اِنْقَضَى قَضَاؤُهَا، فَأَدَّتِ

14- إِلَى الإِلَهِ خَلْقَهُ إِذْ طَمَّتِ ... الخ .

[1] عبد الملك بن قريب الأصمعي، ديوان العجّاج، تح : د. عزّة حسن، ص : 261-268 .

ومِنَ الملاحَظَاتِ التِي أوْرَدَهَا العُمرِيُّ فِي هَذا الرَّجْزِ مَا يَلِي:

1- أنَّ الرَّاجِزَ وَظَّفَ مَجمُوعَةً مِنَ الجُمَلِ النَّثريَّةِ، ثُم قَامَ بِتَكْسِيرِهَا بِالقَوافِي، وهاتِه الجُملُ هِي: أ- الحمْدُ لله الذِي اِستقَلَّتْ / بإذنِهِ السَّماءُ، ب- واِطمَأَنَّتْ/ بِإذنِهِ الأرْضُ / وَمَا تَعَتَّتْ، جـ - وَحَى لها القَرارَ فَاستَقَرَتْ، د- وشدَّهَا بِالرَّاسيَاتِ الثُّبَّتْ / رَبُّ البِلادِ والعِبادِ القُنَّتْ، هـ- والجاعلُ الغَيْثَ عِياثَ المُسنَتْ، و- والجامِعُ النَّاسَ لِيومِ المؤقِتْ / بَعد المماتِ، ز- وهُو مُحيِي المُوَّتْ / يومَ تَرى النُّفوسُ مَا أعدّتْ / مِنْ نُزُلٍ إذِ الأمور غُبَّتْ / مِنْ سَعْيِ دنيَا طَال مَا قَدْ مُدَّتْ / حتَّى اِنقضَى قَضاؤُها فأدَّتْ / إلى الإلَهِ خَلْقَهُ إذْ طمَّتْ / غَاشِيةً النَّاسَ التِي ... الخ .

2- يمكِنُ الحَدِيثُ هُنَا فِي حالاتٍ كثِيرةٍ عمَّا أسْماهُ عُلمَاءُ القِراءاتِ " قُبْحُ الابْتِدَاءِ "، فهُناكَ حَالاتٌ قدْ يكُونُ الوَقفُ فيهَا مُمْكِنًا والابتداءُ بَعدَهَا قَبِيحًا، خاصَّةً الابتِداءُ بِحُروفِ الجَرِّ والظَّرْفِ، وحتَّى ... الخ، وكلُّ مَا يَسْتَقِلُّ معناهُ .

3- قدْ يبدُو لِلقارِئِ العِادِيّ أَنَّ الأُرجُوزةَ تَعتمِدُ فِي تَقطِيعِهَا عَلى القَافِيةَ وَحْدَهَا، غيرَ أَنَّ فِيهَا قَوَافِيَ دَاخِلِيَّةً تُعَاكِسُ هِي الأُخرَى المسَارَ النَّثرِيَّ لِلأرْجُوزَةِ، الحمد للْ/له الذي اس/تقلتِ .

4- اِختِلافُ بِنْيَتَيِ الوِحْدَتَيْنِ الدِّلَالِيَّتَيْنِ، وهُما: الوِحدَةُ الأُولَى: الجُمل الخَمسُ الأَوَائِلُ: وتَدُورُ حولَ قُدرَةِ الله عَامَّةً، والوِحدة الثانية: الجُملة السَّادِسَةُ: وتَتَحَدَّثُ عَنْ يَومِ المحشَرِ .

وقدْ أشَارَ العُمَرِيُّ إلى أَنَّ مَسْعَاهُ مِنْ هاتِهِ الدِّراسَةِ إبْرَازُ عَناصِرِ التَّعوِيضِ الظَّاهِرةِ والخَفِيَّةِ التِي يَلْجَأُ إليهَا الرَّاجِزُ فِي مُقاوَمَةِ هَيْمَنَةِ الجُمَلِ النَّثْرِيَّةِ المتَمَرِّدَةِ عَلَى قَوانِينِ النَّظمِ: الاتِّسَاقُ .

كَمَا سَعَى العُمَرِيُّ إلى إثْبَاتِ بَلَاغَةِ الأَرَاجِيزِ كَجُزْءٍ مِنْ بَلاغَةِ الشِّعرِ، التِي هِيَ الأُخرَى جُزْءٌ مِنْ بَلاغَةِ الخِطابِ، المتَمَثِّلَةِ فِي مَشْرُوعِهِ البَلَاغِيّ الجَدِيدِ .

# الفصل الثاني: دراسة تحليلية في بلاغة الخطاب الاحتمالي ( القصة والمناظرة )

## المبحث الأول: بلاغة القصة

## المبحث الثاني: بلاغة المناظرة

**المبحَثُ الأوَّلُ: بَلاغَةُ القِصَّةِ:** نَصِلُ الآنَ مَعَ هذَا المبْحثِ إلى النَّوْعِ الثَّالِثِ مِنْ بَلَاغَاتِ الخِطابِ الاحْتِمَالِي، ألَا وَهُو بَلاغَةُ القِصَّةِ، مُعْتَمِدِينَ فِي ذلِكَ علَى الدِّراسَةِ التِي قَدَّمَهَا العُمَرِيُّ لِقِصَّةِ " حَيُّ بْنُ يَقْظَانٍ "، مُحاوِلِينَ تتبُّعَ أهمِّ الخطُواتِ التِي مَرَّ بِهَا العُمرِيُّ لِمَعرِفةِ طَبِيعةِ هذَا النَّوْعِ مِنَ البَلَاغَةِ .

وتَقومُ هاتِهِ القِصَّةُ عَلى آلِيَّتَيِ التَّخْيِيلِ والحِجاجِ، إلَّا أَنَّ الحِجَاجَ يَبدُو مُسَيْطِرًا، وَبِشَكْلٍ كَبِيرٍ عَلَى كافَّةِ أَحْدَاثِهَا، كَمَا يَتَمَيَّزُ بِأَنَّهُ لَيسَ حِجَاجًا بَينَ طَرَفَينِ، بَلْ إِنَّهُ حِجاجٌ دَاخِلِيٌّ بَينَ " حَيٍّ "، ونفْسِهِ، وهذَا شَبِيهٌ بِمَا يُسَمَّى فِي الدْرَامَا والفُنُونِ بِالمونُولُوغْ Monologue، حيثُ يَقُومُ المَمَثِّلُ بتَأْدِيَةِ دَوْرَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، فَتَجِدُهُ يُكَلِّمُ نَفْسَهُ وَيُحَاوِرُهَا مَرَّةً بِشَخْصِيَّةٍ وَمَرَّةً بِأُخْرَى .

تَأتِي قِصَّةُ حَيِّ بْنِ يَقْظَانَ لِلأدِيبِ الكَبِيرِ بْنِ طُفَيْلٍ فِي عَصْرٍ عَرَفَتْ فِيهِ البلاغَةُ العربِيَّةُ تَطَوُّرًا كَبِيرًا، وذلِكَ بِحُكْمِ تَدَاخُلِهَا مَعَ عِلمِ الكَلامِ ودُخُولِ العُنصُرِ الحِجاجِيِّ المتَشَبِّعِ بِثقَافَاتٍ مُختَلِفَةٍ، هِنْدِيَّةٍ، وفَارِسِيَّةٍ، وغيرِهَا ...، إلى ساحَةِ الصِّرَاعِ الفِكرِيِّ والحَضارِيِّ، الذِي كانَ يَتَصَدَّرُ الجانِبَ الثَّقافِي فِي عَصْرِ اِبْنِ طُفَيْلٍ، فما طبيعة هذا الصِّرَاعِ ؟ ومَا عَلَاقَتَهُ بالبَلَاغَةِ ؟ .

إنَّ طَبِيعةَ الصِّرَاعِ الفِكرِيِّ الذِي عَرفَهُ العَالَمُ الإسْلَامِيُّ فِي عصْرِ اِبنِ طُفَيْلٍ يَتَمَثَّلُ فِي ظهُورِ طَائِفَةٍ مِنَ الأُدبَاءِ والمفَكِّرِينَ المتَشَبِّعِينَ بِثقافَاتٍ أَعْجَمِيَّةٍ غَيرِ عَرَبِيَّةٍ، والدَّاعِينَ إلى نُصْرَةِ هَاتِهِ الثَّقافَاتِ عَلى حِسابِ الثَّقافَةِ العَربِيَّةِ، حتَّى وَصَلَ الأمْرُ إلى مَسِّ العَقِيدةِ الإسلامِيَّةِ فِي حَدِّ ذَاتِهَا، مُسْتَعْمِلِينَ فِي ذلكَ " فنَّ الكلامِ " أو " عِلْمَ الكلامِ "، فِي التَّرويجِ لأَفْكَارِهِمْ؛ وكُنَّا قَدْ أَشَرْنَا فِيما سَبَقَ إلى عالِمٍ جَليلٍ، كان لهُ شَرَفُ السَّبْقِ فِي التَّصدِّي لمزاعِمِ هؤُلاءِ المغرِضِينَ، ألا وهوَ الجَاحِظُ مِنْ خلالِ " البيانِ والتَّبْيِينِ "، غير أنَّ عَمَلَ الجَاحظِ مَحْصُورٌ فِي جَانِبِ البَلاغَةِ والبَيانِ فَقَطْ، وأَمَّا اِبنُ طُفَيْلٍ فقدْ أَخَذَ عَلى عَاتِقِهِ الدِّفاعَ عَنِ الجانِبِ الآخَرِ وهوَ جَانِبُ العَقِيدَةِ الإسْلامِيَّةِ، مِنْ خِلالِ الاعْتِمادِ علَى السِّلاحِ نَفْسِهِ الذِي اِعْتَمَدَهُ المغرِضُونَ، وهُو عِلمُ الكَلَامِ، عَارِضًا أَفْكَارَهُ فِي قَالَبٍ قَصَصِيٍّ حِجَاجِيٍّ فَرِيدٍ مِنْ نَوْعِهِ .

لقدْ أرادَ اِبنُ طُفَيْلٍ مِنْ خِلالِ قِصَّتِهِ " حيُّ بنُ يقظانٍ "، أنْ يُثبِتَ لِأَعدَاءِ الإِسلامِ، وُجودَ الله عز وجلّ، وَوِحْدَانِيَّتَهُ سُبحانهُ وتعَالى، اِعتمَادًا على الأُسلوبِ القَصصِيّ، وذلكَ مِنْ خِلالِ اِبتكارِهِ قِصَّةً عَنْ طِفلٍ عَاشَ وَحيدًا فِي غابَةٍ بينَ مَجمُوعةً مِنَ الوُحوشِ والحيَوانَاتِ، الذِينَ – وبطبِيعةِ الحَالِ – لَا يَقْدرُونَ أَنْ يُعَلِّمُوهُ اللُّغةَ والفِكْرَ، أوِ الدِّينَ، أو غيرَ ذلكَ، أيْ أَنَّهُ مِنَ الجانِبِ المنطِقِيّ – الذي يَعتمِدُ عليهِ عُلمَاءُ الكلامِ و أهلُ المنطِقِ – لَا يمكِنُ لهُ أَنْ يَعرِفَ بِوُجودِ إِلَهٍ، ولكنَّ هَذَا الطِّفلَ فِي نهايَةِ القِصَّةِ يَصِلُ بَعد تَفكِيرٍ طَوِيلٍ إلى التيقُّنِ مِنْ أَنَّ هُنالِك قُوَّةً خارِقةً هِي التِي كَانتْ وَرَاءَ وُجودِ هذا الكَوْنِ، وهي التي تَحْفَظُهُ، إنّه الله جلّ فِي عُلَاه .

هَكذَا اِسْتَطاعَ اِبنُ طُفَيْلٍ أَنْ يُحَاجِجَ الملْحِدِينَ والمعَانِدِينَ، فِي مَسْأَلَةِ وُجودِ الله تَعالَى وَوِحْدَانِيَّتِهِ، عَبرَ بَلَاغَةٍ مُتَضَمَّنَةٍ فِي قِصَّةٍ خيَالِيَّةٍ، وهُو مَا يُؤَكِّدُ مِنْ وِجهَةِ نَظرٍ أُخرَى، وُجُودَ مَا يُعْرَفُ بـ " بَلَاغَةِ القِصَّةِ " .

ولقدْ عَمَدَ العُمرِي إِلى دِراسَةِ هذَا الجَانِبِ مِنْ خِلالِ مَقَالٍ بِعُنْوَانِ: " تَدَاخُلُ الحِجَاجِ والتَّخْيِيلِ "، قَدَّمَ فِيهِ دِراسَةً تَطبِيقِيَّةً سَمَّاهَا : " حَيُّ بْنُ يَقظانٍ بَينَ التَّخْيِيلِ والحِجاجِ "، وَهِيَ مَا سَنُحاوِلُ عَرْضَهُ فِي هَذا المبْحَثِ .

فِي تَقْدِيمِهِ لِلقِصَّةِ يَقُولُ العُمرِيُّ : " قَدَّمَ اِبنُ طُفَيْلٍ قِصَّةَ حَيّ بْنِ يَقظَانَ بِمقدِّمَةٍ نَظَرِيَّةٍ أَبرَزَ فِيهَا دِقَّةَ الموضُوعِ المتَنَاوَلِ والحَرَجَ الذِي يُحيطُ بِهِ، فقدْ صَرَّحَ بِأَنَّ الموضُوعَ حِوَارِيٌّ مِنْ جِهةٍ، وغيرُ قَابلٍ لِلمُعالجَةِ عَلى سَبِيلِ الإِدرَاكِ النَّظرِيّ المستَخْرَجِ بالمقَاييسِ، وتقدِيمِ المقدِّمَاتِ وإِنْتَاجِ النَّتَائِجِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى "[1]، " وَقُصارَى مَا يمكِنُ فِيهِ التَّلوِيحُ والتَّلْمِيحُ، وترجِعُ الصُّعوبَةُ، فِي نظرِهِ، إِلى كَوْنِ المخَاطَبِ فِي حَيّ بْنِ يَقْظَانَ مُتَفَاوِتُ الكَفاءَةِ والانْتِمَاءِ؛ قدْ يكونُ مِنْ أُولِي الألْبَابِ الذِينَ يُقْنِعُهُمْ التَّلْمِيحُ، وقدْ يكُونُ مِنْ الخَفَافِيشِ الذِين لَا يَتَحَرَّكُونَ إِلَّا فِي الظَّلَامِ "[2] .

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج طبيعته، ومجالاته، ووظائفه، ص : 13 .

[2] نفسه، ص : 13 .

**آلِيَّاتُ بَلاَغَةِ القِصَّةِ:** مِنْ خِلالِ تَتَبُّعِ قِراءَةِ العُمريّ لِقصّةِ حَيّ بْنِ يَقظانَ، تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ بَلاغَةَ القِصَّةِ تَكمُنُ فِي خَمسَةِ عَنَاصِرَ وهِيَ: اِستِعمَالُ الخيَالِ، كسْرُ حَاجزِ الأَعرَافِ، اِستِعمَالُ الاستِعارَةِ، الاعتِمادُ علَى الحِوارِ، الاعْتِمادُ عَلَى المَنْطِقِ .

**أَوَّلًا: اِسْتِعْمَالُ الخَيَالِ:** إِنَّ قِصَّةَ حَيّ بْنِ يَقظَانٍ، قِصَّةٌ تَجمَعُ بينَ التَّخيِيلِ والتَّداوُلِ، ولكنَّهَا تَنْطَلِقُ مِنَ الجانِبِ التَّخيِيلِي أَوَّلًا، فَهِيَ تَفتَحُ لِمُخَيّلَةِ القَارِئ نافِذَةً وَاسِعةً مِنَ التَّأوِيلَاتِ والتَّكَهُّنَاتِ التِي يَزِيدُ اِتِّسَاعُهَا علَى قَدْرِ اِطِّلَاعِ القارِئِ وثَقَافَتِهِ القَبْلِيَّةِ، ولعلَّهَا بِالنِّسبةِ لِلمُسْلِمِ تُذَكِّرُ بقِصَّةِ نَبِيّ الله آدمَ عليهِ السَّلامُ، إذَا اِعْتَبَرْنا أَنَّ حَيَّ بنَ يَقظانَ نَشأَ مِنْ غيرِ أَبٍ ولَا أُمٍّ، ولكنَّهُ رغمَ هذَا اِسْتَطَاعَ الوُصُولَ إِلى التَّوحِيدِ، وكذلِكَ كانَ آدم عليه السلام في نشأته ( مِنْ غيرِ أبٍ ولَا أُمٍّ )، وفِي اِعتقادِهِ ( توحِيدُ الله عَزَّ وَجَلَّ )؛ وإذا كانَ آدَمُ نَبِيًّا فَإِنَّ اِبْنَ طُفَيْلٍ يَجعَلُ حَيَّ بْنَ يَقظانَ فِي دَرجَةِ الوَلِيّ الصَّالِحِ، وهذا مَا ذَهَبَ إِليهِ العُمَرِيُّ .

وَبالنِّسبَةِ لِنشأَةِ آدمَ عليهِ السَّلامُ، فقدْ جاءَ فِي قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ لابْنِ كثِيرٍ قَولُه: " قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، حَدَّثَنِي قَسَامَةُ بْنُ زُهَيْرٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَبْيَضُ، وَالأَحْمَرُ، وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، الخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ، وَالسَّهْلُ، وَالحَزَنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ "[1] .

إِنَّ التّشابُهُ بينَ حَيّ بْنِ يقظَانَ ونَبِيّ الله آدمَ عليْهِ السَّلامُ يظهَرُ فِي أمرَيْنِ، فِي النَّشأَةِ، وفِي الدَّرَجةِ العالِيَةِ مِنَ التَّوحِيدِ ( الوِلاية، والنّبوَّة )، وهذه هي الصُّورةُ التِي تُبنَى فِي مُخَيّلَةِ كُلِّ مُسلِمٍ، وهِي ذَاتُها الصُّورةُ التِي أرادَها ابْنُ طُفيلٍ .

[1] عماد الدين بن كثير، قصص الأنبياء، تح : الشيخ أحمد جاد، دار الغد الجديد، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1429هـ/2008م، ص : 31 .

**ثانيًا: كَسْرُ حَاجِزِ الأَعْرَافِ:** إِنَّ مَسألَةَ كَسرِ حَاجزِ الأعرَافِ لَا تَعنِي بتاتًا مَا تَطرَّقنَا إليهِ فِي الحديثِ عنِ اِستِعمالِ الخيَالِ، ذَلكَ أَنَّ اِسْتِعْمَالَ الخيالِ يَشترِطُ كَوْنَ حَيِّ بنِ يقظانَ مَخلُوقٌ مِنْ شَجرَةٍ، أمَّا هُنا فإِنَّهُ يكُونُ مولُودًا مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ، أوْ عَلَى الأقلِّ مِنْ أُمٍّ فَقطْ ( دُونَ أَبٍ )، وهوَ مَا يجعَلُ القارِئَ يَستَحضِرُ قِصَّةَ نَبِيِّ الله عِيسَى عليهِ السَّلامُ، الذِي كانتْ نَشأَتُهُ كَاسِرَةً لِكُلِّ مَا هُوَ مُتعارَفٌ عليْهِ، ولقدْ جَاءَ ذكرُهُ فِي قَصَصِ الأنبياءِ فِي قولِ اِبْنِ كَثِيرٍ: " وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَرْيَمَ لَمَّا جَعَلَتْهَا أُمُّهَا مُحَرَّرَةً تَخْدِمُ بَيْتَ المقْدِسِ، وَأَنَّهُ كَفَلَهَا زَوْجُ أُخْتِهَا أَوْ خَالَتِهَا، نَبِيُّ ذَلِكَ الزَّمَانِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ اِتَّخَذَ لَهَا مِحْرَابًا وَهُوَ المكَانُ الشَّرِيفُ مِنْ المسْجِدِ لَا يَدْخُلُهُ أَحَدٌ عَلَيْهَا سِوَاهُ، وَأَنَّهَا لَمَّا بَلَغَتِ اِجْتَهَدَتْ فِي العِبَادَةِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ نَظِيرُهَا فِي فُنُونِ العِبَادَاتِ، وَظَهَرَ عَلَيْهَا مِنَ الأَحْوَالِ مَا غَبَطَهَا بِهِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهَا خَاطَبَتْهَا المَلَائِكَةُ بِالبِشَارَةِ لَهَا بِاصْطِفَاءِ اللهِ لَهَا، وَبِأَنَّهُ سَيَهَبُ لَهَا وَلَدًا زَكِيًّا يَكُونُ نَبِيًّا كَرِيمًا طَاهِرًا مُكَرَّمًا مُؤَيَّدًا بالمعْجِزَاتِ، فَتَعَجَّبَتْ مِنْ وُجُودِ وَلَدٍ مِنْ غَيْرِ وَالِدٍ لَأَنَّهَا لَا زَوْجَ لَهَا، ... "[1]، وهذَا هُو مَحَلُّ الشَّاهِدِ فِي عَدَمِ وُجودِ زوْجٍ لِسَيِّدَتِنَا مَريمُ عَليهَا وعَلَى نَبِيِّنَا عِيسَى السَّلَامُ .

إِضافَةً إِلى قِصَّةِ عِيسَى عليهِ السَّلامُ، قدْ يَسْتَحْضِرُ القَارئُ ربَّمَا قِصَّةً أُخرَى هِيَ قِصَّةُ مُوسَى عَليهِ السَّلامُ، لَيسَ فِي نَشأَتِهِ، فقدْ نَشَأَ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ فَحَسْبُ، وَإِنَّما فِي اِحْتمَالِ قَتْلِهِ مُنذُ أَنْ حَمَلَتْ أُمُّه بِهِ، لَولَا أَنَّ الله عز وجلَّ أَخفَى حَمْلَهَا حَتَّى وَضَعَتْهُ، وفِي اِحتمَالِ قَتْلِهِ أَيضًا أَوْ هَلَاكِهِ عِندمَا وَضَعَتْهُ فِي اليَمِّ، وكذلِكَ عِندمَا شَاءتِ الأقدَارُ أَنْ يُوصِلهُ اليَمُّ إِلَى قَصرِ الفِرعَوْنِ، ولولَا أَنَّ زَوْجةَ الفِرعوْنِ قَامَتْ بِرِعَايَتِهِ لقُتِلَ، لأَنهُ وُلِدَ فِي العَامِ الذِي يُقْتَلُ فِيهِ كُلُّ مَولُودٍ ذَكَرٍ، وهذَا مَا يُبَيِّنُهُ قَولُ اِبنِ كثِيرٍ: " وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المفَسِّرِينَ أَنَّ القِبْطَ شَكَوْا إِلَى فِرْعَوْنَ قِلَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِسَبَبِ قَتْلِ وِلْدَانِهِمُ الذُّكُورُ، وَخَشَوْا أَنْ تَتَفَانَى الكِبَارُ مَعَ قَتْلِ الصِّغَارِ، فَيَصِيرُونَ، هُمُ الذِينَ يُلَبُّونَ مَا كَانَ يُلَبِّيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الأَعْمَالِ الشَّاقَةِ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِ الأَبْنَاءِ عَامًا، وَأَنْ يُتْرَكُواْ عَامًا، فَذَكَرُوا أَنَّ

[1] المرجع السابق، ص : 411 .

هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وُلِدَ فِي عَامِ المُسَامحَةِ عَنْ قَتْلِ الأَبْنَاءِ، وَأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ وُلِدَ فِي عَامِ قَتْلِهِمْ، فَضَاقَتْ أُمُّهُ بِهِ ذَرْعًا وَاحْتَرَزَتْ مِنْ أَوَّلِ مَا حَبَلَتْ بِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَظْهَرُ عَلَيْهَا مَخَايِلُ الحَبْلِ، فَلَمَّا وَضَعَتْ أُلْهِمَتْ أَنِ اتَّخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا، فَرَبَطَتْهُ فِي حَبْلٍ وَكَانَتْ دَارُهَا مُتَاخِمَةً لِلنِّيلِ، فَكَانَتْ تُرْضِعُهُ، فَإِذَا خَشِيَتْ مِنْ أَحَدٍ وَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ، فَأَرْسَلَتْهُ فِي البَحْرِ، وَأَمْسَكَتْ طَرَفَ الحَبْلِ عِنْدَهَا فَإِذَا ذَهَبُوا اسْتَرْجَعَتْهُ ( ... ) ، فَكَانَتْ تَصْنَعُ مَا أُمِرَتْ بِهِ فَأَرْسَلَتْهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَذَهَلَتْ أَنْ تَرْبِطَ طَرَفَ الحَبْلِ عِنْدَهَا فَذَهَبَ مَعَ النِّيلِ فَمَرَّ عَلَى دَارِ فِرْعَوْنَ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ قال الله تعالى: لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ "[1] .

وفيما يتعلَّقُ بِقِصَّةِ حَيٍّ يقُول اِبنُ طُفيل: " فَمنهُم مَنْ بَتَّ الحُكمُ وجزَمَ القضيَّةَ بِأَنَّ حَيَّ ابْنَ يَقظانٍ مِنْ جُملةِ مَنْ تَكوَّنَ فِي تِلكَ البُقعَةِ مِنْ غَيرِ أُمٍّ ولَا أَبٍ، ومنهُمْ مَنْ أَنكرَ ذَلكَ وَرَوَى مِنْ أَمْرِهِ خَبَرًا نَقُصُّهُ عليكَ، فقالَ أَنَّهُ كانتْ هُناكَ جَزِيرةٌ عَظِيمةٌ، مُتَّسِعَةُ الأَكنَافِ، كَثيرَةُ الفَوائِدِ، عَامِرةُ بالنّاسِ، يملِكُهَا رَجلٌ منهُمْ، شديدُ الأَنفةِ والغِيرةِ، وكانتْ لَهُ أُختٌ ذاتُ جمالٍ وحُسنٍ باهِرٍ، فَعَضَلَهَا وَمَنَعَهَا الأَزْوَاجَ، إِنْ لم يَجِدْ لَهَا كُفْؤًا، وكانَ لهُ قَريبٌ يُسمَّى يَقظانًا فَتَزَوَّجَهَا سِرًّا عَلَى وَجْهٍ جائِزٍ فِي مَذْهَبِهِمُ المشهُورُ فِي زَمَنِهِمْ، ثُمَّ إنها حَملتْ مِنْهُ وَوَضَعَتْ طِفْلًا، فلمَّا خَافَت أَنْ يُفتَضحَ أَمرُها ويَنْكشِفَ سِرُّهَا وَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ ... "[2] .

**ثَالِثًا: اِسْتِعْمَالُ الاسْتِعَارَةِ ( أَوْ كَمَا يُسَمِّيهَا العُمَرِيُّ بِـ" الفَضَاءُ الاسْتِعَارِيُّ " )**: يَتمثَّلُ الفضَاءُ الاستعارِيُّ فِي ثَلاثَةِ أَنواعٍ مِنَ الاستِعارَاتِ، اِستِعارَةُ الإِطارِ، واِستِعارَةُ الرُّؤيَةِ، واِستِعارَةُ الإِيضاحِ .

**أ– اِسْتِعَارَةُ الإِطَارِ**: استِعارَةُ الإِطارِ هِي القِصَّةُ بِأَكْمَلِهَا، مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، وذلِكَ بِالاعتِبارِ الذِي جَعَلَ أحدَ النُّقَّادِ المحدَثِينَ يَعتبِرُ الرِّوايَةَ اِسْتِعارَةً مُوَسَّعَةً، وهذَا المستَوَى الاسْتِعارِيُّ يَتَكَشَّفُ

[1] عماد الدين بن كثير، قصص الأنبياء، ص : 215، 216 .

[2] ABI JAAFAR EBN TOPHAILL, HAI EBN YOKDAN, AB EDUARDO POCOCKIO EDITIO FECUNDA PRIORI EMEMDATIOR, 1700, P : 30-33. ( ملاحظة : هذه النسخة مطبوعة باللغتين العربية، والإنجليزية في كتاب واحد )

مِنْ خِلالِ التَّحلِيلِ العَامّ: فِي جَمِيعِ المستوَيَاتِ، كُلمَا كَان الحَديثُ عَنِ الرُّؤيةِ العَامَّةِ وَالوظائِفِ الرَّمْزِيَّةِ للنَّصِ، ومعَ ذلِك نُشيرُ إِلى مَلَامِحِهِ الكُبْرَى مِنْ خِلالِ التَّشْبِيهَيْنِ التَّاليَيْنِ:[1]

**الأَوّلُ:** ويتمَثّلُ فِي تشبِيهِ تَارِيخِ البَشريَّةِ كُلِّهِ بِقِصَّةِ حِيّ بْنِ يقظانَ، وَكأنَّ قِصَّةَ حَيٍّ هِي قِصَّةُ الإنسانِ ووَفَاةَ حَيٍّ وَفَاةُ الإنسانِ، والأحدَاثَ التِي عَاشَهَا حَيٌّ إنما هِيَ تَمْثِيلٌ لحيَاةِ الإنسَانِ، وفِي هَذا تَقَارُبٌ مَعَ الحياةِ البِدَائِيَّةِ التِي عَاشَهَا البَشَرُ قَبْلَ التَحَضُّرِ، وهِي رَغمَ وَحْشِيَّتِهَا لَا تَخلُو مِنَ العَقِيدةِ الصحيحَةِ، وهِي التَّوْحِيدُ، علَى الرَّغمِ مِما اِبْتَكَرَتْهُ العَديدُ مِنَ الشُّعوبِ البِدَائِيَّةِ مِنْ دِيَانَاتٍ ومُعْتَقَدَاتٍ، وآلِهَةٍ مَا أَنْزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، ولَا وَافَقَتْ مَنْطِقَ العَقْلِ .

وَالانْطلَاقُ فِي هَذا المثَالِ – عَلَى حَسَبَ مَا يراهُ العُمريُّ – يَكونُ مِنْ طَرْح السُّؤالِ التَّالِي: هَلْ يُمْكِنُ الوُصُولُ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَنْ طَرِيقِ العَقْلِ وَالفِطْرَةِ ؟ .

إنَّ الجوابَ عَلَى هذَا السُّؤالِ يُعِيدنَا إِلَى الفِكرةِ الأُولَى التِي بَدَأْنَا بِها هَذا المبْحَثَ، ومَفَادُهَا أَنَّنَا إِذَا اِعْتَبَرْنَا وُجُودَ إِنسَانٍ فِي غَابةٍ نَائِيةٍ بَعِيدةٍ عَنِ البَشَرِ، وقدْ كَانَ مَوْلِدُهُ مَوْلِدًا خُرَافِيًّا ( مِنْ شَجَرٍ )، أَوْ إِعْجَازِيًّا، مِثلَ الذِي حدثَ مَعَ سَيِّدِنَا عِيسى عليهِ السَّلامُ، ومَعَ ذَلكَ يَستطِيعُ أَنْ يَصِلَ هَذا الإِنسَانُ الوَحِيدُ المنعزل، إلى فكرة التوحيد، فما بال الملحدين كيف يحكمون ؟ .

إنَّ هذَا الرَّجلَ اِسْتَطَاعَ بِفِطْرَتِهِ أَنْ يَصِلَ إِلى تَوحِيدِ الله عَز وجَلَّ، هذا يَعنِي أَنَّ التَوحِيدَ أَمْرٌ مَغرُوسٌ فِي نُفُوسِنَا نَحنُ البَشرُ ولَا يَحتاجُ إِلى إِعمَالِ عَقْلٍ أَوْ كَثْرَةِ جِدَالٍ .

**المثَالُ الثَّانِي:** وأمَّا هَذا المثَالِ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ صُورةً أُخرَى تَتَمَثَّلُ فِي اِعتِبارِ أَنَّ فِي الجَزِيرَةِ التِي عَاشَ فِيهَا " أَسَالُ "، و " سَلَامَانُ "، قَومٌ مُتَدَيِّنُونَ، وهؤلاءِ المتدَيِّنِينَ يُشَبِّهُهُمَ اِبْنُ طُفَيْلٍ بِالفِرَقِ الإِسْلامِيَّةِ، النَّاشئَةِ عَنْ عِلمِ الكَلامِ، وهُنا يَحْصُرُ التَّشبِيهَ فِي جَانِبٍ أَكْثَرَ دِقَّةً، يَدْفَعُ إِلى الاعْتِمَادِ علَى الحِجَاجِ

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 15 .

بِشكلٍ كبيرٍ، كَوْنُ المسْأَلَةِ ( أَيْ مَسْأَلَةُ العَقِيدَةِ والتَّوحِيدِ )، مَعَ أمثالِ هَؤُلاءِ سَتكُونُ لَهَا أَبْعَادٌ أُخرى، وسَتَنْجُمُ عَنْ نِقَاشَاتٍ حَادَّةٍ جِدًّا، ومعَ كُلِّ هذَا فَإِنَّ الحَقَ بَيِّنٌ لَا يَحتاجُ إِلى دَلِيلٍ .

عَلى أَنَّ الانْطِلَاقَ فِي مُناقَشَةِ هذَا المِثَالِ، يَكونُ عَنْ طَرِيقِ طَرْحِ السُّؤالِ التالِي: مَا مَوْقِعُ الطَّوَائِفِ الدِّينِيَّةِ ( الإِسْلَامِيَّةِ ) مِنْ مَعْرِفَةِ الحَقِّ ؟ .

وَجوابُ هَذا السُّؤالِ يُقَدِّمُهُ لَنا العُمريُّ فِي تَخَيُّلِ أَنَّ هذَا الرَّجُل المُوَحِّدَ، الذِي عَرَفَ الله عز وجلَّ بِالفِطرَةِ، لَوِ اِعْتَبَرْنَا أَنَّهُ اِنْتَقَلَ مِنَ المكانِ الذِي كَانَ فِيهِ إِلى مَكَانٍ يَعُجُّ بِالسَّاكِنَةِ، وفيهِ أَنْوَاعٍ مِنَ النَّاسِ المُوَحِّدُ، وغَيرُ المُوَحِّدِ، وفيهِ أَيضًا أَهْلُ الكَلامِ " لَانْتَهَى بِهِ الأَمرُ، بَعدَ العَناءِ، إِلى التَّسلِيمِ لِأَهْلِ الظَّاهرِ بِظاهِرٍ يُتَّهَمُ، وَالعودةِ إِلى عُزْلَتِهِ مَع مَنْ يَتْبَعُهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، والنَّتِيجَةُ المتَوَخَّاةُ مِنْ ذلكَ التَّسلِيمُ بِوُجودِ فَرْقٍ فِي المنْهَجِ بينَ الطَّرِيقِ النَّبَوِيِّ التَّرْبَوِيِّ ( الخَطابي ) المرَاعِي لِأَحْوَالِ الجُمهُورِ وطَرِيقِ التَّأمُّلِ والوِلَايَةِ الخَاصِّ بالنُّخبَةِ التِي سَمَتْ فوْقَ السَّطْحِيَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ "[1]، أيْ أَنَّ الدَّعوَةَ إِلى الله يَنْبَغِي أَنْ تَكونُ علَى قَدْرِ المسْتَمِعِ لَا علَى قَدْرِ صَاحِبِهَا، فَابْنَ طُفَيْلٍ، أوِ البَطلِ فِي قَصَّةِ اِبْنِ طُفَيْلٍ، لَيْسَا أَذكَى مِنْ رَسولِ الله ﷺ وَلَا أَقدرَ عَلَى التَّبْلِيغِ مِنْهُ، وَمعَ ذلكَ نَجِدُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا إِلى الله بِأُسْلُوبٍ بَسِيطٍ خَالٍ مِنَ الخَيَالِ، بَعيدٍ عَنِ الجَدَلِ العَقِيمِ إِلَّا الجَدَلُ المضْطَرُّ إِليهِ، أَمَّا اِبْنُ طُفَيْلٍ فقدِ اِعْتَمَدَ علَى الجَدَلِ وعلَى الخَيَالِ، ودَعَا إِلى الله بِأُسْلُوبٍ مُعَقَّدٍ، ليسَ ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُخاطبُ قومًا ذَوِي عُقولٍ صَافِيةٍ خَالِيةٍ مِنَ الجدَلِ العَقِيمِ، ولمْ يَكُنْ لَهَا اِطِّلَاعٌ عَلى الفَلسفَةِ، أَمَّا الذِين يُخَاطِبُهُمُ اِبْنُ طُفَيْلٍ فَهُمْ عُلَمَاءُ الكَلَامِ فِي عصرِهِ .

**ب- اِسْتِعَارَةُ الرُّؤْيَةِ: الاسْتِعَارَاتُ الكُبْرَى:** نَنْتقلُ الآنَ مِنَ اِعْتِبَارِ القِصَّةِ اِسْتعارَةً كَامِلَةً إِلى حَصْرِهَا فِي اِسْتِعَارَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ، تتَعلَّقُ الأُولَى بِالذاتِ الإِلهيَّةِ، والثَّانيةُ بِالكَوْنِ الذِي نَعِيشُ فيهِ، فَقَدْ

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 16 .

" بَنَى اِبنُ طُفَيلٍ تَصَوُّرَهُ لِلكوْنِ وعلاقَةَ الإنْسانَ بِهِ، علَى اِسْتِعَارَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ: الله نُورٌ، والكوْنُ كِتَابٌ، فَهُمَا تُفَسِّرَانِ الوُجُودَ كُلَّهُ، مِنَ الخلْقِ إلى المعْرِفَةِ "[1] .

ويبْدُو لنَا أَنَّ العُمريَّ حِينَ وَصَفَ النَّوعَ الثَّانِي بِاسْتِعَارَةِ الرُّؤْيَةِ، إنما أَرَادَ التَّنْوِيهَ بِأَنَّهَا تَعْتَمِدُ علَى الرُّؤيةِ أكثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ، فالنُّورُ والكتَابُ كِلاهُمَا شَيْآنِ مَرْئِيَّانِ، وكذلِكَ حِينَ يَقُولُ الاسْتِعارَاتِ الكُبرى، فإنهُ يُشيرُ إلى أَنَّ هُناكَ اِسْتِعَارَاتٌ صُغْرَى تَتَخَلَّلُ القِصَّةَ، وهِيَ مَا سَنَتَطَرَّقُ إليهِ مَعَ النَّوْعِ الثَّالثِ مِنَ الاسْتعارَاتِ .

ونَعودُ الآنَ إلَى الاسْتِعارَاتِ الكُبرى، اِسْتِعارَةُ " الله نُورٌ "، واِستِعَارَةُ " الكَوْنُ كِتَابٌ " لنقدِّمَهُمَا عَلَى النَّحوِ التَّالِي:

**ب1/– الاسْتِعَارَةُ الأُولَى ( اللهُ نُورٌ )**: يَعْتَقِدُ العُمرِيُّ أَنَّ هذهِ الاسْتِعَارَةَ تَبْحَثُ فِي نَشأةِ الكَونِ، وعَلاقَةِ هَاتِهِ النَّشأَةِ بِقُوَّةٍ خارِقَةٍ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَابِهَهَا، إنهَ الله جلَّ فِي عُلاهُ، فَهيَ عَلى حَسَبِهِ تَتَنَاوَلُ علاقةَ اللُّغةِ بِالكونِ: كَيْفَ دَلَّلَهُ ؟ [2]، ولقدْ جاءَتْ مِنْ مُعطيَاتٍ فَلسفِيَّةٍ ودِينيَّةٍ، ما يعنِي أَنَّ مَرْجِعَ اِبنِ طُفَيْلٍ لم يَكُنِ الدِّينُ وَحْدَهُ، بل الدِّينُ والمنطِقُ مَعًا، وهوَ مَا يَدُلُّ على أَنَّ اِعْتِقَادَنَا بِوُجُودِ إِلَهٍ خَالِقٍ ومُصَرِّفٍ لهذَا الكَوْنِ، وإيمانَنَا بِوِحْدَانِيَّتِهِ سُبحانهُ وتعالَى، أَمرٌ لَا يتنَافَى مَعَ العقلِ ولَا معَ الفِطْرِةِ السليمةِ، وَأَنَّ اِعْتِقَادَ الملْحِدِينَ بِعَدَمِ وُجودِ إِلَهٍ اِنْطِلَاقًا مِنْ إِعْمَالِ العَقْلِ، هُو الذِي يَتنَافَى مَعَ الفِطرةِ والعقْلِ .

وَعَلَى كُلٍّ، فَإِنَّ الجانِبَ الفَلسفِيَّ الذِي اِعْتَمَدَ عَليهِ اِبْنُ طُفَيْلٍ، يَتمثَّلُ فِي نَظريةِ الفَيْضِ، وهيَ النَظريَّةُ الأَفْلَاطُونِيَّةِ التِي " تَلَقَّفَهَا الفَلاسفةُ المسلمُونَ بِاهتمامٍ كَبيرٍ لِمَا تَكتسِبُهُ مِنْ أَهمِيةٍ بَالِغةٍ فِي تَفسِيرِ عَمليَّةِ الخَلقِ، وَضَمَانِ الوِحدانِيةِ وَخصائِصِ الأُلوهيَّةِ وصِفَاتِهَا، حَيثُ أَنَّ الفَيْضَ ( الصُدُورُ ) ، كَنِظامٍ رُوحُانِيٍّ، يَعمَلُ علَى تَنظيمِ حَركةِ الإنتاجِ مِنَ الوَاحِدِ إلى باقِي الأَقاليمِ، والعَمَلِ أيْضًا علَى

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 16 .

[2] نفسه، ص : 17 .

إِبْقَاءِ الوَاحِدِ مُتَمَاسِكًا فِي وِحْدَانِيَّتِهِ، ومُحافظًا علَى مُفارَقَاتٍ لِلمَوْجُوداتِ، ويعدُّ الفَارابِي أوَّلَ مَنْ دشَّنَ دُخولَ هَذهِ النَّظريَّةِ إلى العَالَمِ الإِسلَامِي، بعدَ أَنْ أَعادَ صِيَاغَةَ أُسُسِهَا وِفْقَ نِظامٍ تَرَاتُبِيٍّ يَتَدَبَّرُ الوَساطاتِ بينَ الإِلهِ والعقلِ والنَّفسِ والطَّبِيعةِ، ويضمَنُ تَنَاغُمَ نِظَامِ الصُّدُورِ مَع نَفسِهِ وكذلِكَ مَع وِحْدةِ الوَاقِعِ "[1] .

إنَّ عَلاقَةَ نظريَّةِ الفَيْضِ بما ذَهبَ إلَيهِ اِبْنُ طُفَيْلٍ، أيْ بِاستِعارَةِ " الله نور "، تكمُنُ فِي كَوْنِ النُّورِ عندمَا يَسطَعُ فَإِنَّهُ يُضيءُ العالَمَ بِأسْرِه، فَيَسْتَفِيدُ منهُ هذا العَالَمُ، فِي كُلِّ ضرورَاتِهِ، كمَا أَنَّ هَذا النُّورَ لم يَنشَأْ مِنْ هذَا العَالَمِ، وبِالتالي يَكُونُ العالَمُ فِي حاجَةٍ إليهِ، ولَا يكُونُ هُوَ فِي حَاجةٍ إلى العَالَمِ، وهَذا مُشَابِهٌ لِنظريّةِ الفَيْضِ التِي تعبّرُ على أَنَّ وراءَ كُلِّ مَوْجوداتِ العالَمِ قُوَّةٌ مَا أَوْجَدَتْهَا، وهاتِهِ القُوة هِي فِي غِنًى عَنِ العالمِ ومَوجُوداتِهِ كُلِّهَا .

وأمَّا الجانِبُ الدِّينِي فَهُو قولهُ تعالَى ﴿ ٣٥ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ [ النور : 35 ] " قَالَ المفسِّرُونَ: يَعنِي هَادِيَ السَّماوَاتِ والأَرْضِ، وهوَ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ ذِكْرَ الهَادِي بعدَهُ يَكُونُ تِكْرَارًا، وقِيلَ: مُنَوِّرَ السَّماوَاتِ بِالكَواكِبِ، وقِيلَ: بِالأدِلَّةِ والحُججِ البَاهِرَةِ، والنُّورُ جِسْمٌ لَطِيفٌ شَفَّافٌ، فَلَا يجُوزُ علَى الله (...) ومِنْ كلَامِ العَارِفِينَ: النُّورُ هُوَ الذِي نَوَّرَ قُلُوبَ الصَّادقِينَ بِتَوْحِيدِهِ، ونَوَّرَ أَسْرَارَ المحبِّينَ بِتَأْيِيدِهِ، وقِيلَ: هُو الذِي أَحْيَا قُلوبَ العَارِفِينَ بِنُورِ مَعْرِفَتِهِ، ونُفُوسِ العَابِدِينَ بِنُورِ عِبَادَتِهِ "[2]

يبدُو لنَا أَنَّ كلامَ المفسِّرِينَ يَتطابَقُ معَ مَا ذَهَبَ إليهِ اِبنُ طُفَيْلٍ، وأنَّهُ إذْ يُوَظِّفُ اِستِعارَة " الله نور "، إنما اِسْتَمدَّ ذلكَ مِمَّا ذهبَ إلَيهِ مُفسِّرُو الآيَةِ الكرِيمةِ، عَلى الرَّغمِ مِنِ اِخْتِلافِهِمْ بينَ التَّفسِيرِ الذِي يعتَمِدُ علَى ظاهِرِ الآيَةِ، والتَّفْسِيرُ الذِي يَبْحَثُ فِي بَاطنِ المعْنَى، ولَا شَكَّ فِي أَنَّ جَمِيعَ التَّفَاسِيرِ تَجمَعُ علَى أَنَّ نُورَ الله أَنَارَ بِهِ الكَوْنَ، وأَنَارَ بِهِ القُلوبَ المؤْمِنَةَ مَعًا .

[1] ابن دنيا سعدية، نظرية الفيض الأفلوطينية في فلسفة الفارابي، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد4، العدد6، مستغانم، الجزائر، ص : 01 .

[2] ابن تيمية، تفسير سورة النور، راجعه : د. عبد العلي عبد الحميد جامد، الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى 1408هـ/1987م، ص : 204، 205 . ( بتصرف )

وَالقَرائنُ الدَالَّةُ علَى ذلِكَ فِيمَا يَراهُ العُمريُّ – أيْ عَلى رُجوعِ اِبنِ طُفيلٍ إلى الفَلسفَةِ مُمثَّلةً فِي نظرِيَّةِ الفَيْضِ، وَإلى القُرآنِ الكَرِيمِ مُمَثَّلًا فِي الآيةِ الكَرِيمةِ التِّي ذَكَرْنَاهَا – هُوَ اِسْتِعْمَالُ الأَلفَاظِ التَّاليةِ : العَلَقَةُ – النَّفْخُ – الطِّينُ – الفَيْضُ، فأمَّا الثَلاثَةُ الأُولَى فَهِيَ مَأخُوذَةٌ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ، وأَمَّا اللَّفظَةُ الرَّابِعةُ فَمَأْخُوذَةٌ مِنَ الفَلْسَفَةِ، فَلَفْظَةُ " العَلَقَةُ " مِنْ قوْلِ الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ [ الحج : 05 ]، والنفخ من قوله تعالى : وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ [ الأنبياء : 91 ]، والطين من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ [ المؤمنون : 13 ]، والفيض : وهي كلِمَةٌ جَوهَرِيَّةٌ فِي الفلسفَةِ المثَالِيَّةِ "[1] .

**ب2/– الاسْتِعَارَةُ الثَّانِيَةُ (الكَوْنُ كِتَابٌ)**: وهذِهِ الاستِعارَةُ تَنظُرُ فِي الجَانبِ الآخَرِ مِنَ القِصَّةِ، أَيْ فِي مَدى قُدرَةِ حَيِّ بْنِ يَقظانَ الوُصولَ إلى الإيمانِ بِوُجُودِ الله عزَّ وجلَّ، ومِنه فَإِنَّ " اِستعارَةَ " الكَوْنُ كِتَابٌ " تتنَاوَلُ عَلاقةَ حَيِّ بْنِ يَقظانَ بِهذا الكَوْنِ: كَشْفُ الدِّلالَةِ "[2]، وهذهِ الاسْتِعارَةُ اِستَعْمَلَهَا اِبنُ طُفيلٍ مِنْ أجْلِ تَعزِيزِ الاسْتِعارَةِ الأولى " الله نور "، فإذا كانَتِ الأُولى نَابِعة مِنَ التَّدبُّر فِي مَلكوتِ السَّماوَاتِ والأرْضِ، بِالنَّظرِ والتَّفكِيرِ، والتِي قَدْ تَكونُ صَعْبَةً نَوْعًا مَا عَلى المشَكِّكِينَ فِي الدِّينِ، فإنَّ هَاتهِ الاستِعارةَ الثَّانِيةَ لَا تَدعُ لهُمْ مَجالًا لِلشَّكِّ، لِأَنَّهَا تَدعُو إلى التَّدبُّر فِيمَا هُو مَوجُودٌ أَمامَهُمْ ومَا هُم قَادِرُونَ علَى مُعَايَنَتِهِ بِاللَّمْسِ مُبَاشَرَةً، فالكونُ كِتابٌ، تعنِي اِعتبارَ كُلَّ مَا هُو مُوجودٌ أَمَامَنَا مِنْ جمادٍ ونَباتٍ وحَيوانٍ، مجموعَةً مِنَ الكلِمَاتِ القَابِلَةِ لِلْقِرَاءَةِ، وأَنَّ الكوْنَ

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، 17 .

[2] نفسه، ص : 17 .

كِتابَهَا الذِي يحَتَوِيهَا، وهذهِ الاستِعارةُ أَيْضًا، تدعُو إِلى الإِيمانِ عَنْ طَرِيقِ العِلمِ، لأَنَّنَا إِذا اِعْتَبَرْنَا الكونَ كِتابًا، واِعتبَرْنَا كُلَّ ما فِيهِ قابِلٌ للقراءَةِ، فهذَا يعنِي أَنَّهُ ينبَغِي لنَا أَنْ نَكتسِبَ الوَسِيلةَ التِي تُعينُنَا عَلَى القِراءَةِ، وهِيَ اللُّغَةُ، واللُّغَةُ سَبِيلُ العِلمِ كمَا هُو مَعلُومٌ .

وَعلَى هَذا الأَساسِ فَإِنَّ العَلاقَةَ الرَّابطَةَ بَينَ الكَوْنِ والكِتابِ تكمُنُ فِي أَنَّ كِلَاهُمَا يُفِيدُ التَّعلُّمَ، مَعَ اِخْتِلافِ السُّبُلِ، فَسبِيلُ التَّعلُّمِ بالكتابِ هُو القِراءَةُ، وسبِيلُ التَّعلُّمِ بِالكَوْنِ هُو الاعتِبارُ، وهذَا الأَخيرُ – أي الاعْتِبار – يَأْتِي فِي اِعتِقادِنَا عَنْ طَرِيقِ كَثرَةِ التَّأَمُّلِ فِي خَلقِ الله عَزَّ وَجلَّ، مِنْ حَيَوَانٍ، وَنباتٍ، وجمادٍ، وقدْ تَجَنَّبْنَا إِضافةَ الإِنسانِ، اِعتِبارًا بِأَنَّ حَيَّ بْنَ يقظانٍ، لَمْ يَكُنْ قَدْ عَرفَ الإِنسانَ بَعدُ فِي بِدايةِ سَيْرِهِ نحوَ طَرِيقِ التَّوحِيدِ، وذِكْرُ الإِنْسانِ هُنا يُخْلِي القِصَّةَ مِنْ مِصْدَاقِيَّتِهَا، ويَقضِي علَى الهَدفِ الأَسمَى الذِي بُنِيَتْ عَليهِ، فَهيَ أَصْلًا بُنِيَتْ علَى وُجُودِ شَخصٍ عَاشَ فِي غابَةٍ بَعيدًا عَنِ البشرِ لَا بَينَهُمْ، وكأَنَّ العُمريَّ وِابنَ طُفيلٍ مَعًا، يُريدانِ أَنْ يَقولَا لَنَا: إِذا أردْتَ الوُصُول إِلى الإِيمانِ الحَقيقِيّ، الذِي لَا تَشُوبُهُ شَائِبَةٌ، ولَا يَتأَثَّرُ بِفلسَفَةٍ مُعادِيَةٍ، فَعليكَ أَنْ تُعَزِّزَ تَوْحيدَ الله بالعِلمِ، فالعِلمُ هُو السِّلاحُ الوَحيدُ الذِي يَجعلُكَ فِي مَنْعَةٍ عَنْ تِلكَ الأَفكارِ والأَهوَاءِ الضَّالَّةِ البَعيدَةِ عَنْ سَبيلِ الحَقّ .

هَذا وَقَدِ اِسْتَدَلَّ العُمريُّ عَلَى كَوْنِ اِبنِ طُفَيْلٍ عَمِلَ عَلى التَّقْرِيبِ بينَ الاعْتِبارِ، المتَعَلِّقِ بِالكونِ، وَالقِراءَةِ المتَعلِّقَةِ بِالكِتابِ، مُستخْدِمًا – أي ابن طفيل – قَرِينَتَي التَّصَفُّحِ والنَّظَرِ، اِستدَلَّ علَى هذَا كُلِّهِ بما جَاءَ فِي " حَيّ بْنِ يَقظانَ " مِنْ نُصوصٍ، حيثُ يقُولُ العُمريُّ: " فِي إِطارِ هذَا التَّقريبِ بينَ الاعْتِبارِ وَالقِراءَةِ، اِستَعْمَلَ اِبنُ طُفيلٍ قَرِينَتَي التَّصفُّحِ والنَّظرِ، فِي مَواقِعَ حَيَوِيَّةً "[1]، ويقصِدُ العُمري بالمواقعِ الحيويّةِ، النَّصيْنِ التَّالِيَيْن:

– **النَّصُ الأَوَّلُ**: [ فَلمَّا اِنتَهَى إِلى هَذِهِ المعرِفَةِ وَوقَفَ عَلَى أَنَّ الفَلَكَ بِجُمْلَتِهِ ومَا يَحتوِي علَيهِ كَشَيْءٍ واحدٍ مُتَّصِلٍ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَأَنَّ جَميعَ الأَجسامِ التِي كَانَ يَنظرُ فيها قَديمًا، كالأَرضِ، وَالماءِ،

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 18 .

وَالهواءِ، وَالنَّباتِ، وَالحيَوان، ومَا شَاكَلَهَا هِي كُلُّهَا فِي ضِمْنِهِ وغَيرُ خَارِجةٍ عَنهُ، وأنَّهُ كُلُّهُ أَشْبَهُ شَيءٍ بِشخصٍ مِنْ أَشخاصِ الحَيوانِ ومَا فِيهِ مِنَ الكَوَاكِبِ المنِيرَةِ، هِيَ بمنْزِلَةِ حَواسِّ الحيَوانِ ومَا فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ الأَفْلَاكِ المتَّصلِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، هِي بِمَنْزِلَةِ أَعضاءِ الحيَوانِ ومَا فِي دَاخِلِهِ مِنْ عَالِمِ الكَوْنِ والفَسَاد هُو بمنْزِلةِ مَا فِي جَوفِ الحيوانِ مِنْ أَصنافِ الفُضُولِ والرُّطُوبَاتِ التِي كَثِيرًا مَا يَتَكَوَّنُ فِيهَا أَيضًا حَيوانٌ كمَا يَتكَوَّنُ فِي العَالِمِ الأَكْبَرِ، فَلمَّا تَبَيَّنَ لَه أَنَّهُ كُلُّهُ كَشخْصٍ وَاحدٍ فِي الحقِيقةِ قَائِمٌ مُحتاجٌ إِلى فَاعِلٍ مُختارٍ واتَّحَدَتْ بِه عِندَهُ أَجْزَاؤُهُ الكَثِيرةُ بِنوعٍ مِنَ النَّظَرِ الذِي اتَّحَدَتْ بِهِ عِندهُ الأَجْسَامُ التِي فِي عَالِمِ الكَوْنِ والفَسَادِ، تَفَكَّرَ فِي العَالِمِ بِجُمْلَتِهِ، هَلْ هُو شيءٌ حَدَثَ بعدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وخرَجَ إِلى الوُجودِ مِنَ العَدمِ ؟ أَمْ هُو لَمْ يَزَلْ مَوجُودًا فِيما سَلَفَ وَلم يَسْبِقْهُ العَدَمُ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ ؟ ... ][1] .

– **النَّصُ الثَّانِي**: " فَلمَّا رَأَى أَنَّ جَميعَ المَوْجُوداتِ فِعْلَهُ تَفَحَّصَهَا، مِنْ ذِي قبْلُ، تَفَحُّصًا عَلى طَرِيقِ الاعتبارِ فِي قُدرةِ فَاعِلِهَا، والتَّعجُّبِ مِنْ غرِيبِ صَنْعَتِهِ وَلطِيفِ حِكْمَتِهِ ودَقِيقِ عِلْمِهِ، فَتبيَّنَ له فِي أَقلِّ الأَشيَاءِ الموجُودَةِ، فَضْلًا عَنْ أَكْثرِهَا، مِنْ آثارِ الحِكمَةِ وبَدائِعِ الصَّنْعَةِ، مَا قَضى مِنْهُ كُلَّ العجَبِ، وتَحَقَّقَ عِنْدَهُ أَنَّ ذَلكَ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ فَاعلٍ مُختارٍ فِي غَايةِ الكَمَالِ، وفوْقَ الكَمَالِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ [ سبأ : 03 ]"[2] .

ويُعَقِّبُ العُمريُّ علَى هَذَا بِقولِهِ أَنَّ القَارِئ يُلاحِظُ أَنَّ بَينَ التَّصَفُّحِ المتَّصِلِ بِالقِراءَةِ، والاعتِبارِ المتَّصِلِ بِالتَّأَمُّلِ، تَظهرُ كَلِمَةٌ مُلْتَبَسَةٌ بيَن المجَالَيْنِ، رَابِطَةً بَينَهُمَا، وهِي كَلِمةُ النَّظَرِ، التِي تَحملُ

[1] ABI JAAFAR EBN TOPHAILL, HAI EBN YOKDAN, AB EDUARDO POCOCKIO EDITIO FECUNDA PRIORI EMEMDATIOR, 1700, P : 105,106 .

[2] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 114 .

المعنَيَيْنِ: مَعنَى النَّظرِ البَصَرِي فِي الصَّفحَةِ لِتَسْجِيلِ رُمُوزِهَا وتَحْوِيلِهَا إِلى الدِّماغِ قَصْدَ التَّأْوِيلِ، وَالنَّظرِ بِمعنَى التَّأمُّلِ ( النَّظرُ فِي قِصَّةٍ مِنَ القَضايَا، وهِي كلِمةٌ تجرُّ نَحوَ المناظَرَةِ الحِجاجِيَّةِ )[1] .

إِنَّ قِصَّةَ حَيّ بنِ يقظانَ يَغْلِبُ عليْهَا عُنصرَا التَّخَيِيلِ والحِجاجِ، فالأَوَّلُ يَظهرُ مِنْ خِلالِ القِصَّةِ فِي حَدِّ ذاتِها، فَلا يُعقَلُ أَنْ يَقرَأَ أَحَدٌ هذهِ القِصَّةَ، أوْ أَنْ يَسْمَعَ بِهَا، إِلَّا وَيَضَعَهَا فِي مَوْضِعِ التَّخيِيلِ، لَا فِي موضعِ الحَقِيقَةِ والوَاقِعِ، وأمَا العُنصرُ الثَّانِي، وهُوَ الحِجاجُ، فَهوَ يَتَمَثَّلُ فِي جَمِيعِ الأَفْكَارِ والكلِمَاتِ التِي كَانتْ تَتَبَادَرُ إِلى ذِهْنِ حَيّ بْنِ يقظانَ، والتِي كَانتْ تَتَضَارَبُ مَع أَفْكارٍ أُخرَى تَتَبَادَرُ إِلى ذِهْنِهِ، فَيَنْشَأَ بِذلِكَ مَا يُعرَفُ بِالحجاجِ، لِأَنَّهُ، وبِطَبِيعَةِ الحَالِ، لَنْ يَصِلَ إِلى أَيّ نَتِيجَةٍ مَا، إِلَّا بَعدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَرَّ عَلى مَجمُوعَةٍ مِنَ الحُججِ التِي تَنجُمُ عَنْ هَاتِهِ الفِكرةِ، وكَذلِكَ يَكُونُ الأَمْرُ مَعَ نَقِيضَتِهَا .

هَذا عَلى مُسْتَوى تَحْلِيلِ القَارِئ البَسِيطِ، أَمَّا العُمريّ فَإِنَّهُ يرَى عُنْصرَ الحِجاجِ عِنْدَ اِبْنِ طُفَيْلٍ عائِدًا إِلى " كوْنِ الإِنْسانِ الذِي يَسْتطِيعُ تَوْلِيدَ مَعَانٍ مِنْ خُطُوطٍ عَلى الوَرَقِ يَستطِيعُ أَنْ يَسْتَنْبِطَ مَعَانِيَ مِنْ خُطُوطِ الكَوْنِ أَمَامَهُ، بِمَا فِيه مِنْ مَوْجُودَاتٍ وَحَرَكَةٍ "[2]، وبِذلِك يَكُونُ الحِجاجُ فِي قِصَّةِ اِبنِ طُفَيْلٍ مبْنِيًا علَى تَرَاتُبِيَّةِ الله نور، والكونُ كتابٌ، فالذِي يستَدِلُّ علَى أَنَّ الله هُو النُّورُ السَّاطِعُ علَى هَذا الكَوْنِ كُلِّهِ، وهُوَ الذِي أَوْجَدَهُ، سَيَكُونُ مِنَ السَّهْلِ عَليهِ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلى أَنَّ الكَوْنَ عِبارَةٌ عَلى كِتابٍ نقرأُ فِيهِ جَماداتٍ، ونبَاتَاتٍ، وغيرِها مِنَ الموجُودَاتِ .

كَذلِكَ اِسْتَدَلَّ العُمريُّ علَى وُجُودِ الاعتِبَارِ المتَّصِلِ بِالتَّأَمُّلِ، المؤدِّي إِلى فَهْمِ مَا فِي هَذَا الكَوْنِ، وهُوَ أَحَدُ وَسائِلِ الحِجاجِ، اِسْتَدَلَّ عليْهِ بما ذَهَبَ إِلَيهِ الجَاحِظُ، وابنُ وَهَبٍ، فَالجَاحِظُ تحدَّثَ عَنْ مَجمُوعِ الصُّوَرِ الخَمْسَةِ لِاسْتِنْبَاطِ الدِّلَالَةِ عِندَ البَيَانِيّينَ بِمَا سَمَّاهُ النِّصْبَةَ، وهِيَ نَفْسُهَا الاعْتِبَارُ، أَمَّا

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 18 .

[2] نفسه، ص : 18 .

اِبنُ وَهَبٍ فَقَدْ جَعَلَ لِخُطْوَاتِ تَحْصِيلِ المعْرِفَةِ نِظَامًا مَعْرِفِيًّا يَقومُ عَلى أَرْبعَةِ أَرْكَانٍ هِيَ: الاعْتِبَارُ، وَالاعْتِقَادُ، وَالعِبَارَةُ، وَالخَطُّ .

**جـ- اِسْتِعَارَةُ الإِيضَاحِ: الاسْتِعَارَاتُ الصُّغْرَى:** الاسْتعارَاتُ الصُّغرَى كَثيرَةٌ جِدًّا، وَهِيَ تَشمَلُ جَميعَ التَّشْبِيهاتِ التِي أَوْردَهَا اِبنُ طُفَيْلٍ ضِمنَ قِصّتِهِ، وهِي كذلِكَ " مَرصُودَةٌ لِلتَّوْضِيحِ والتَّشْخِيصِ وتَثبِيتِ الصُّورَةِ فِي الذِّهنِ، مِثلَ تَشبِيهِ تَحرِيكِ الله لِلعالَمِ بِتَحرِيكِ الإِنسَانِ شَيْئًا دَاخِلَ قَبْضَةِ يَدِهِ تَبَعًا لِحَرَكَةِ اليَدِ "[1]، وهذَا التَّشبِيهِ كَما هُو مَعلُومٌ مُنَافٍ لِاعتِقادِ أَهْلِ السُنَّةِ، إِذْ أَنَّهُ يَجوزُ تَشبِيهُ الله عزَّ وجَلَّ فِي صِفَاتِهِ أَوْ ذَوَاتِهِ، بِمَا يُشَبَّهُ بِهِ الإِنْسَانُ، " قَالَ إِسحَاقُ بنُ عِيسَى الطَبَاع، قَال مَالكُ، كُلمَّا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلَ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّد ﷺ لِجَدَلِهِ، وقَال: وَسَاقَ البَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحيحٍ عَنْ أَبِي الرَّبِيعِ الرَّشْدِينِيّ عَنِ اِبنِ وَهَبٍ قَالَ: كُنتُ عِندَ مَالِكٍ فَدَخَلَ رَجُلٌ فَقالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الله ! ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [ طه 05 ]، كَيْفَ اَسْتَوَى ؟، فَأَطْرَقَ مَالِكُ وَأَخَذَتْهُ الرَّحْضَاءُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اِسْتَوَى كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، وَلَا يُقَالُ كَيْفَ، كَيْفَ عَنْهُ مَرْفُوعٌ، أَنْتَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ، أَخْرِجُوهُ "[2] .

ومَا دامَ اِبنُ طُفَيْلٍ قَدْ وَظَّفَ هَذا النَّوْعَ مِنَ التَّشبِيهاتِ، فَإِنَّ هَذا يَجْعلُنَا نَعتَقِدُ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الاعْتِزالِ الذِينَ كَانُوا يُشَبِّهُونَ الله عز وجَلَّ فِي صِفاتِهِ، والله أعلم .

هَذَا ويَرَى العُمرِيُّ " بِأَنَّ الحِجاجَ هُنا يقُومُ علَى مُصادَمَةِ الآرَاءِ المخْتَلفَةِ، وتَفَحُّصِهَا اِعْتِمَادًا عَلى القِياسِ، لذلَكِ هَيْمَنَتْ فِي هَذا المجالِ أدَوَاتُ الشَّرطِ، وَالتَّعلِيلِ، والظُّرُوفُ المشُوبَةُ بِالشَّرْطِ والامْتِنَاعِ، وأدواتُ التَّحْيِيرِ والتَّأْكِيدِ ( إِنَّ وأَنَّ ) "[3] .

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 19 .

[2] ابن منده، الرد على الجهمية، تح : د. علي بن مُحَمَّد ناصر الفقيهي، الطبعة الثانية 1420هـ/1982م، ص : 13، 14 .

[3] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 20 .

وبِمَا أَنَّ تَتَبُّعَ جَمِيعِ هاتهِ الأدَواتِ فِي قِصَّةِ حَيّ بنِ يَقظانَ، صَعْبٌ جِدًّا لِكَثْرَتِهَا، فَقدِ عَمِلَ العُمريُّ علَى دِراسَةِ فَصْل واحِدٍ مِنَ القِصَّةِ، أَلا وَهُوَ الفَصلُ الذِي نَاقَشَ فِيهِ قَضِيَّةِ الحُدُوثِ والعَدَمِ، وقدْ جَاءِ وَصْفُ العُمرِيّ لِهَذَا الفَصلِ فِي خِضَمّ الكَشفِ عَنْ تِلكَ الأَدوَاتِ مِنْ خِلالِ قَولِهِ: " يَتَكَوَّنُ أَكثرُ هذَا الفَصلِ مِنْ جُمَلٍ يَستَدْعِي أَوَّلُهَا جَوَابًا، وهَكذَا تَكَرَّرَتْ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ فِي صَفحتَيْنِ (ص171-172) مُدْعَمَةً بـ" إِنَّ "، و" لَوْ "، وهِي تُقدِّمُ اِقْتِرَاحَاتٍ ثُم تُواجِهُهَا بِالاعْتِراضِ مُعتَمِدَةً أَدواتٍ أُخرَى مِثل النَّفْي: لَيْسَ، لَا يُمكِنُ، تَليهَا أدواتُ التَّعليلِ: لِأَنَّ، أو الإِلْزَامِ: فاللَّازِمُ، وغيرها مِنَ الأَدَواتِ الجَوابِيَّةِ، وَبذلِك يَنْقَلِبُ البِناءُ اللِّسانِيُّ لِلنَّصِ مِنَ الوَصْفِ وَالإِخْبَارِ الملائِمَيْنِ لِبِنَاءِ الصُّوَرِ الاستِعارِيَّةِ، إِلى الحِوارِيَّةِ الملائِمَةِ للمُرَاجَعَةِ الخِطابِيَّةِ، وهذِهِ عَيِّنَةٌ وَافِيَةٌ تُغْنِي عَنْ مَزِيدِ بَيَانٍ، تُبيِّنُ النَّوعُ والكَثافةَ ( الصفحتان 171-172 وَحدَهُمَا "[1] .

لقدْ كانَ اِسْتِعمالُ الاستِعارَاتِ بِأَنْوَاعِهَا الثَّلاثِ، أَمْرًا ضَرُورِيًّا فِي صِياغةِ بَلاغَةٍ حَقِيقيَّةٍ للقِصَّةِ، ولكنَّ الأمرَ لَا يَقِفُ عِندَ هَذا الحَدِّ، بَل هُناكَ اِسْتِعْمَالُ الحِوَارِ والمنْطِقِ أَيْضًا .

**رَابِعًا: اِسْتِعْمَالُ الحِوَارِ**: وفِي هَذهِ القِصَّةِ يَكشفُ العُمريُّ عَنْ أربَعَةِ أَطرافٍ قَامَ عَليهَا الحِوارُ وَهِيَ:

**1- حَيُّ بْنُ يَقْظَانٍ ( وَلِيُّ الله )**: يُمثِّلُ دَرجَةَ الوِلايَةِ، وَللوُصُولِ إِلى الحَقِيقةِ خَارِجِ المجتَمَعِ الإِنسانِيّ، بَعيدًا عَنْ إِكْرَاهَاتِهِ وَعَوَائِقِهِ، وهُوَ الشَّخصِيَّةُ الرَّئِيسِيَّةُ النَّاظِمةُ للقِصَّةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، ويُمَثِّلُ الاتِّجاهَ الصُّوفِي المسْتَنِيرَ، كمَا يَتَصَوَّرُهُ اِبْنُ طُفَيْلٍ .

**2- أَسَالُ ( المتَأَمِّلُ )**: المجتَهِدُ المؤوِّلُ الميَّالُ للعُزْلَةِ دَاخلَ المجتَمَعِ الدِّينِيّ الإِسْلامِيّ ( والمفترضُ أَنْ يكُونُ الحَديثُ عَنِ العُزلةِ إِشارَةً إِلى تَيَّارِ الاعتِزالِ فِي الفِكرِ الإِسلَامِيّ ) .

**3- سَلَامَانُ ( المرِيدُ )**: يمثِّلُ الطَّائفَةَ المرِيدَةَ القَاصِرَةَ، الميَّالَةَ إِلى تَقْلِيدِ السَّلَفِ، والانْضِواءِ فِي الجَمَاعَةِ، ويُفْهَمُ مِنْ كلامِهِ أَنَّهَا تَضُمُّ عُلَمَاءَ الدِّينِ، مِنْ فُقَهَاءَ، وَقُضَاةٍ، وَأَئِمَّةٍ، وَمَنْ إِلَيْهِم .

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 20

**4- الجُمْهُورُ العَامُّ**: مَنْ يُؤثِرُونَ الحياةَ ويَسْتَسْلِمُونَ لِلشَّهَوَاتِ، وأكثَرُهُمْ بِمنزِلَةِ الحَيوانِ غَيرِ النَّاطِقِ [1].

**خَامِسًا: المَنْطِقُ الصُّورِيُّ**: كَذلِكَ رَأَى العُمريُّ ضَرورَةَ إِدْخَالِ المنطِقِ الأَرِسْطِيّ فِي بَلاغَةِ القِصَّةِ، ولقدِ اِسْتَدَلَّ عَلى ضَرُورَةِ وُجودِهِ فِي تَحليلِهِ لِمُجْمَلِ الاسْتعارَاتِ الصُّغْرَى، حيثُ يقولُ: " إِنَّ هذهِ النُّصوصِ التِي تَنْدمِجُ ضِمنُ عَمَلٍ سَرْدِيٍّ لَنْ تَفقِدَ أَيَّ شَيءٍ إِذَا مَا أَدْمَجْتَ فِي مُناظَرَةٍ بَينَ مُتَكلِّمِينَ يَخُوضُونَ فِي قَضيَّةِ قِدَمِ العَالَمِ وَحُدُوثِهِ، فَهِيَ تَقُومُ عَلَى أَقْيِسَةٍ مِنْ قَبِيلِ:

1- لِكُلِّ حَادِثٍ مُحْدِثٌ

العَالَمُ حَادِثٌ

العَالَمُ مُحْدَثٌ

2- الحَوَاسُّ تُدْرِكُ الأَجْسَامَ

الفَاعِلُ الأَوَّلُ لَيْسَ جِسْمًا

الفَاعِلُ الأَوَّلُ لَا تُدْرِكُهُ الحَوَاسُّ

3- مَا تُدْرِكُهُ الحَوَاسُّ مُحْدَثٌ

الفَاعِلُ الأَوَّلُ لَيْسَ مُحْدَثًا

الفَاعِلُ الأَوَّلُ لَا تُدْرِكُهُ الحَوَاسُّ

4- مَا يَنْتَمِي إِلَى العَالَمِ مُحْدَثٌ

الله لَا يَنْتَمِي إِلَى العَالَمِ

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 16 .

الله لَيْسَ مُحْدَثًا

5- الخَيَالُ اِسْتِرْجَاعُ صُوَرِ المَحْسُوسَاتِ

الله غَيْرُ مَحْسُوسٍ ( لَا تُدْرِكُهُ الحَوَاسُّ )

الله غَيْرُ مُتَخَيَّلٍ ( لَا يُدْرَكُ بِالخَيَالِ ) "[1] .

ومِنْ هُنَا يمكِنُ أَنْ نُضيفَ المنطِقَ الأَرِسطِيَّ إِلى مُجمَلِ الأَدَواتِ التِي تَقُومُ علَيْهَا بَلاغَةُ القِصَّةِ عنْدَ العُمَرِيّ .

وَكَخُلَاصَةٍ لِهَذَا المبحَثِ، نُشيرُ هُنَا إِلى عَوَامِلَ أَوْ أَدَوَاتِ بِناءِ بلاغَةِ القِصَّةِ عِندَ مُحَمَّد العُمرِيّ، وهيَ خَمْسَةُ عَوَامِلَ :

1- اِسْتِعْمَالُ الخَيَالِ

2- الخُرُوجُ عَنِ الأَعْرافِ

3- تَوْظِيفُ الاسْتِعَارَةِ

4- الاعْتِمَادُ عَلَى الحِوَارِ

5- الاعْتِمَادُ عَلَى المنْطِقِ الأَرِسْطِيّ

وَهَذَا بِشَكلٍ عَامّ، أَمَّا فِيما يَتعلَّقُ بِقصَّةِ حَيّ بْنِ يَقظان، فَيُضَافُ لَهَا عُنْصُرَانِ هُمَا:

6- الاسْتِعَارَاتُ الكُبْرَى

7- الاسْتِعَارَاتُ الصُّغْرَى

[1] مجموعة من المؤلفين، التحاجج، ص : 21 .

وَبهذَا نَكُونُ قَدْ تَعَرَّفْنَا عَلى بَلاغَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الخِطابِ الاحتِمالِيّ عِندَ العُمرِيّ، أَلَا وَهِيَ بَلاغَةُ القِصَّةِ، والتِي اِجْتَهَدْنَا فِي اِسْتِنْبَاطِ أَهَمّ العَوَامِلِ التِي قامتْ عليْهَا، ونأْمَلُ أَنْ نَكُونَ قَدْ وُفِّقْنَا فِي الوُصولِ إلى النَّتيجَةِ الصَّائِبةِ، وأَلَّا نَكُونَ قَدْ جَانَبْنَا الصَّوابَ إِلَّا فِي الأَمرِ اليَسِيرِ، والله المُوَفِّقُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ... .

**المبْحَثُ الثَّانِي: بَلَاغَةُ المَنَاظَرَةِ:** تعتمِدُ بلَاغَةُ المَنَاظَرَةِ علَى الأُسلُوبِ الحِجاجِيّ كَفَنٍّ أَسَاسِيٍّ فِي قِيَامِ هَذا النَّوْعِ مِنَ البَلاغَاتِ، ولقدْ عَدّ العُمرِيُّ المناظَرَةَ الوَجْهَ المكمِّلَ لِلمُحَاضَرَةِ، وبِهِمَا مَعًا يَتَشَكَّلُ مَفهومُ البَلاغةِ العَامَّةِ، فـ" المحاضَرَةُ والمَنَاظَرَةُ طَرِيقَتَانِ فِي مُعالجةِ المعرِفَةِ: الأُولَى تُؤسِّسُهَا بِتقْدِيمِ المفاهِيمِ والأَنْسِاقِ، والثَّانيَةُ تُحصِّنُهَا بِدَفْعِ الشُّبُهاتِ، ومُقاوَمَةِ جَاذِبِيَّةِ المعرِفَةِ المتَرَسِّخَةِ المَنَاوِئَةِ لِكُلِّ جَدِيدٍ، والمفرُوضُ فِي المناظَرَةِ أَنْ تُساهِمَ فِي تَعمِيقِ المعرِفَةِ وتَوْسِيعِ آفَاقِهَا "[1] .

والقَوْلُ بِأَنَّ المَنَاظَرَةَ تَعْتَمِدُ بِشكلٍ أَسَاسٍ عَلى فَنِّ الحِجَاجِ لَا يعنِي بِالضَّرُورَةِ عَدمَ وُجُودِ الحِجاجِ فِي غيرِهَا، بَلْ إِنَّهُ مَوجُودٌ فِي الخُطبةِ، وفِي الشّعْرِ، وفِي القِصَّةِ أَيْضًا، وقدْ لَاحَظْنَا ذَلكَ فِي المباحِثِ السَّابِقَةِ، فالخَطِيبُ، أو القَاصُّ، أو الشّاعرُ، لَا يمكِنُ لَهُمْ أَنْ يُبَلِّغُوا شَيئًا مِنْ دُون حُججٍ وبرَاهِينَ، إلا أَنَّ حُضُورَ الحِجاجِ فِي المنَاظرَةِ يَكونُ بِشكلٍ أَكثَرَ قُوَّةً، وهذَا كَوْنُ المتناظرَيْنِ، بِحاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلى تَدعيمِ آرائِهِمَا، بَل والتَّرْكِيزِ أيضًا عَلى نَوْعِيَّةِ تِلكَ الحُججِ، إِذْ أَنَّهُ لَيسَ لَهُم مَنْفَذٌ آخرُ، أَمَّا الخُطباءُ والشُّعراءُ، فَلهُمْ مَنَافِذُ أُخرَى يمكِنُ لهُمْ أَنْ يُمَرِّرُوا مِنْ خِلالِهَا أَفكَارَهُمْ بِطرِيقَةٍ بَلاغِيَّةٍ، فَالخطيبُ مَثَلًا، قَد يعتَمِدُ عَلى مَرْكَزِهِ الاجتِماعِيّ، أو الدِّينِي، والشَّاعرُ يَعتمِدُ علَى الجَانبِ الخيَالِي الذِي يُداعِبُ بِهِ مَشاعِرَ المستَمِعِينَ فَيَتَمَكَّنُ مِنهمْ دُونَ الحاجَةِ إِلى حُجَجٍ بَالِغَةٍ، إِضافَةً إِلى اِعتِمادِهِ علَى الجَانِبِ الإِيقَاعِيّ الموسِيقِي، وهذا مَا ذَهَبَ إِليهِ البَاحثُ الجزائِرِيُّ عبدُ الباسِط ضَيف حيَن قَال:" أَمَّا عَنْ مقامِ المناظَرَاتِ فَهُو مَقَامٌ يَشهَدُ حُضورًا بَارزًا وفعَّالًا لِلحِجاجِ وآليَّاتِهِ، إِذْ يُعَدُّ هذَا الأَخِيرُ

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 05.

مَطْلَبًا مُلِحًّا فِي الصِّراعاتِ المذهَبِيَّةِ الطَّائِفِيَّةِ(...) وَإلى جَانِبِ الحِجاجِ تَسْتَنِدُ المناظَرَاتُ علَى طُرُقِ البَرْهَنَةِ، وعناصِرِ التَّأويلِ التِي يَتَطلَّبُ توَافُرُهَا لدَى المتَلَقِّي "[1].

ولقدِ اِخْتَرْنَا مِنَ الأمثِلَةِ التَّطبِيقِيَّةِ، التِي جَاءتْ ضِمْنَ دِراسَاتِ مُحَمَّد العُمريُّ مُناظَرَتَهُ مَع رَشِيد يَحْيَاوِي، حَولَ كِتابٍ أَلَّفَهُ هذَا الأَخِيرُ بِعُنْوانِ" التَّبَالُغُ وَالتَّبَالُغِيَّةُ: نَحْوَ نَظَرِيَّةٍ تَوَاصُلِيَّةٍ فِي التُّرَاثِ"، وقدْ تَطرَّقَ العُمريُّ لِهذا الكِتابِ فِي مَقالٍ قَدَّمَهُ بِعنوانِ:" مَفْهُومُ البَلَاغَةِ وَأَسْئِلَتُهَا وَمَآزِقُهَا فِي كِتَابِ التَّبَالُغِ وَالتَّبَالُغِيَّةِ: نَحْوَ المُنْجَزِ وَالمُتَوَهَّمِ وَالبَدِيلِ"، فِي مجلَّةِ البَلاغةِ وتَحلِيلِ الخِطابِ، فمَا كَان مِنْ رَشِيد يحياوي، إلا أنْ قَدَّمَ رُدودًا على مَا طَرحَهُ العُمريُّ، لِيُؤلِّفَ العُمري هُو الآخَرُ كِتَابَهُ " المُحَاضَرَةُ وَالمُنَاظَرَةُ فِي تَأْسِيسِ البَلَاغَةِ العَامَّةِ "، ويفردَ ثَلاثَةَ أقْسامٍ كَامِلةً فِي مُناقشَةِ رُدُودِ رَشِيد يَحياوِي، ولقدِ اِخْتَرْنَا مِنْ مُجْمَلِ مَا جاءَ فِي هَذا الكِتابِ الفَصلَ الأَوَّلَ مِنَ القِسمِ الثَّالِثِ لِنُقَدِّمَهُ كَمِثَالٍ تَطبِيقِيٍّ عَنْ مَعنَى بَلاغَةِ المناظَرَةِ عندَ العُمرِيّ .

وَيقُول العُمرِيُّ فِي وَصْفِ الكِتابِ: " هَذَا الكِتابُ مُكَوَّنٌ مِنْ ثَلاثَةِ أَقسَامٍ، طَابِعُ القِسمِ الأَوَّلِ، بِفَصْلَيْهِ، مُحَاضَرَةٌ تَنَاوَلَتِ السِّيَاقِ التَّارِيخِيَّ والمعْطَيَاتِ العِلميَّةِ، وطابعُ القِسمِ الثَّانِي، بِفَصْلَيْهِ، مُناظَرَةٌ تَنَاوَلَتِ النَّقْدَ المَوْضُوعِيَّ والنَّقدَ المنْهَاجِيَّ الأَخْلاقِي، وطابعُ القسمِ الثَّالِثِ، بِفُصُولِهِ الأربَعةِ، مُناظَرَةٌ تَفصِيلِيَّةٌ غَرَضُهَا كَشفُ أساليبِ المغالَطَةِ، واِسْتِدْرَاكِ الأخطَاءِ العِلميَّةِ وتَصحِيحِ الرُّؤيَةِ"[2]، ولقدْ وَجَّهْنَا دِراسَتَنَا نَحوَ الفَصْلِ الثَّالثِ مُباشَرةً، بِاعتِبارِ أَنَّهُ يُجسِّدُ المعنَى الحَقِيقِيَّ لمفْهُومِ المناظَرَةِ، والذِي قَدَّمَهُ العُمريُّ تَحت عُنوانِ: " البَلَاغَةُ فِي مُوَاجَهَةِ الاضْطِرَارِ وَالاخْتِزَالِ، مُوَاجَهَةٌ بَيْنَ زَمَنِ الجُرْجَانِيّ وَزَمَنِ القَزْوِينِيّ، رُدُودُ رَشِيد يَحيَاوِي وتَعقِيبَاتُ مُحَمَّد العُمرِي".

[1] عبد الباسط ضيف، المشروع البلاغي عند مُحَمَّد العمري، بحث في بلاغة الحجاج – دراسة تفاضلية – رسالة ماجيستير إشراف : د. أحمد بوصبيعات، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة زيان عاشور، الجلفة، السنة الجامعية 2017/2016م، ص : 107 .

[2] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 06، 07 .

هَذا وَلَقَدِ اِسْتَطَاعَ العُمريُّ مِنْ خِلالِ فَنّ المناظَرَة، أَنْ يُبَيّنَ المغالَطَاتِ التِي جاءَتْ فِي رُدُودِ رَشيدْ يَحيَاوِي علَى مَقالٍ نَشَرَهُ العُمريُّ فِي مَجلَّةِ البَلاغَةِ وَتحلِيلِالخطابِ، حَولَ كِتابِهِ" التَّبَالُغُ وَالتَّبَالُغِيَّةُ"، مَا عرَضَهُ العُمريُّ فِي أربَعَةِ فُصُولٍ هِيَ:

**الفَصْلُ الأَوَّلُ**: شُرُوطُ البَحْثِ العِلْمِيّ وَأَدَبُ المنَاظَرَةِ .

**الفَصْلُ الثَّانِي**: مِحْنَةُ حَشْرِ البَلَاغَةِ مَعَ النَّحْوِ وَاللَّاهُوتِ .

**الفَصْلُ الثَّالِثُ**: إِهْمَالُ الأَنْسَاقِ وَالخُرُوجُ عَنِ السِّيَاقِ .

**الفَصْلُ الرَّابِعُ**:" التَّبَالُغُ" اِضْطِرَارٌ، وَ" البَلَاغَةُ" اِخْتِيَارٌ .

وَسنجعَلُ مِنْ مُناظَرَةِ العُمريّ مَعَ رَشيدْ يَحياوِي، مِثالًا تَطبِيقِيًّا لِدِرَاسَةِ هذَا المبْحَثِ مُكْتَفِينَ بِدِراسَةِ الفَصلِ الأوَّلِ فَقطْ نَظرًا لِطولِ هَذا القِسمِ .

وَقَبْلَ التَّطرُّقِ إِلَى المثَالِ التَّطبِيقِيّ الذِي نَحنُ بِصَدَدِ دِرَاسَتِهِ، لَابُدَّ مِنَ التَّنْوِيهِ بِتِقْنِيَاتِ الحِجاجِ وآليَّاتِهِ التِي يَقُومُ عليْهَا، حَتَّى نَرى مَدَى حُضُورهَا فِي هَذا المثَالِ، وَنُبَرْهِنَ بِذلِكَ عَلَى اِسْتِعْمَالِ العُمريّ لِلحِجاجِ فِي المنَاظَرَةِ .

**آلِيَّاتُ الحِجَّاجِ وَتِقْنِيَّاتِهِ**: عِندَمَا نَتحَدَّثُ عَنِ الحِجاجِ فِي البَلاغَةِ الجَدِيدَةِ لَابدَّ وَأَنْ نَستَحْضِرَ العَالِمِ البَلجِيكِيَّ شَايِيم بِيرلْمَانْ، والذِي يُعَدُّ أكثَرَ البَاحِثِينَ حُضورًا فِي هذا المجالِ، وعلَيْهِ فَقدِ اِرْتَأَيْنَا أَنْ نَحْصُرَ تِقْنِيَاتِ الحِجاجِ فِي رُؤْيةِ بِيرلمانْ لَهُ دُونَ غيرِهِ مِنَ البَاحِثِينَ، فَكيفَ كَانَتْ رُؤْيَةُ بيرلمانْ لِلحِجاجِ يَا تُرَى ؟ .

فِي مَقالٍ قَدَّمَهُ البَاحثُ الجَزائِرِيُّ أَمْقْرَانْ شَعْبَانْ، تَحتَ عُنوان " تِقْنِيَاتُ الحِجَاجِ فِي البَلَاغَةِ الجَدِيدَةِ عِنْدَ شَايِيمْ بِيرْلْمَانْ "، أشارَ الباحِثُ إِلَى مَجمُوعِ تِلكَ التِّقنيَاتِ، وهُو ما نَستَشفه من خلال قوله : " بَعدَ أَنْ أَكَّدَ بِيرْلمانْ عَلى وَظِيفَةِ الحِجاجِ وغَايَتِهِ المتَمَثِّلةِ فِي تَحقِيقِ اِقْتِنَاعِ المتَلَقِّي

عَقْلًا وَعَمَلًا، عَلَّقَ نَجاحَ العَمَليَّةِ الحِجاجِيَّةِ وَنَجَاعَتَهَا عَلَى مَا أَسْمَاهُ" التِّقْنِيَاتُ الحِجَاجِيَّةُ"، وهِيَ أَهَمُّ رَكائِزِ الدَّرسِ الحِجاجِيّ فِي البَلاغَةِ الجَدِيدةِ عِند بِيرلْمانْ، وهذِهِ التِّقنِيَاتُ هِي مَجْمُوعَةُ الحُججِ المتنَوّعَةِ التِي عليْهَا مَدَارُ الحِجاجِ فِي أَيّ خِطَابٍ، وقَدْ وَزَّعَهَا بِيرلْمَانْ عَلى نَوْعَيْنِ: الأَوَّلُ هُوَ الحُججُ القَائِمةُ عَلَى الوَصْلِ، وهِي التِي تُمَكِّنُ مِنْ نَقْلِ القُبُولِ الحَاصِلِ حَولَ المقدّماتِ إِلى النَّتائِجِ، والثَّانِي هُوَ الحُجَجُ القَائِمَةُ علَى الفَصلِ، وهِي التِي تَسْعىَ إِلى الفَصلِ بيَن عَناصِرَ رَبَطَتِ اللُّغَةُ أَوْ إِحْدَى التَّقَالِيدِ المعترَفِ بِهَا بَيْنَهُمَا "[1]، وقدِ اِعْتَمَدْنَا علَى الدِّراسَةِ التيَ قَدَّمَهَا هَذا البَاحثُ فِي تَتَبُّعِ أَهَمّ تِقْنِيَّاتِ الحِجاجِ عندَ بِيرلْمَانْ، وَالتِي وَظَّفَهَا العُمرِيُّ فِي مُنَاظَرَتِهِ.

**مَوْضُوعُ المنَاظَرَةِ:** فِي شُرُوطِ البَحْثِ العِلْمِيّ وَأَدَبِ المنَاظَرَةِ.

**طَرَفَا المنَاظَرَةِ:** البَاحِثُ المغْرِبِيُّ رَشِيدْ يحيَاوِي، والبَاحِثُ المغرِبِي مُحَّد العُمرِيُّ .

**مَصْدَرُ المنَاظَرَةِ:** كِتَابُ" المحَاضَرَةِ وَالمنَاظَرَةِ فِي تَأْسِيسِ البَلَاغَةِ العَامَّةِ" لمحمد العُمرِي .

**تَقْدِيمُ المنَاظَرَةِ:**يَعِيبُ العُمرِيُّ علَى كِتابِ" التَّبَالُغ والتَّبَالُغِيّة "لِرشِيدْ يحياوِي، أَنَّ هذَا الأَخِيرَ لَمْ يُرَاعِ مَدلُولُ كَلِمَةِ" التَّبَالُغِ" مِنْ جِهَةٍ، ولَمْ يُرَاعِ مَجْهُودَاتِ عُلماءِ البَلاغَةِ – يَقصِدُ المجدّدينَ مِنهُم – عَلَى مَرِّ الأَرْبعِينَ سَنَةً الماضِيَةَ، وهذَا مَا أَوْرَدَهُ العُمرِيُّ نَفْسُهُ فِي قَولِهِ: " طَرَحَ العُمرِيُّ علَى كِتابِ التَّبَالُغِ وَالتَّبَالُغِيَّةِ سُؤَالَيْنِ:

1- عَدمُ مَشرُوعيَّةِ اِشتِقَاقِ اِسمِ عِلْمٍ جَدِيدٍ( التَّبَالُغْ) مِنِ اِسْمِ عِلْمٍ قَدِيمٍ حَيٍّ ومُتجَدّدٍ( البلاغةُ)، بَلْ فِي حَالِ اِنْتِشَارٍ .

2-عَدمُ مُسايَرَةِ البَاحثِ لِلمُنْجزاتِ العِلميَّةِ فِي البَلاغَةِ وَالتَّداوُلِيَّةِ، بِشَهَادَةِ لَائِحَةِ مَرَاجِعِهِ"[2].

[1] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، مجلة التعليمية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، المجلد05، العدد15، سبتمبر 2018، ص : 224، 225 .

[2] مُحَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 191.

جَاءَ رَدُّ رَشيدْ يحَياوِي عَلَى هَذينِ السُّؤالَيْنِ بِتجَاوُزِهِمَا، وَانْتِقَالِهِ مُباشَرَةً إِلى مُناقَشَةِ حَيْثِيَّاتِ المَوْضُوعِ، أَيْ كُلَّ مَا تَضَمّنَهُ مَقالُ العُمرِيّ الذِي نَشَرَهُ فِي مَجلَّةِ البَلاغَةِ وتَحْلِيلِ الخِطابِ، وَهُوَ مَقَالٌ نَقْدِيٌّ حَولَ كِتابِ التَّبَالُغِ والتَّبَالُغِيَّةِ، عُنوانُ المقَالِ: مَفْهُومُ البَلاغَةِ وَأَسْئِلَتُهَا وَمَآزِقُهَا فِي كِتَابِ التَّبَالُغِ وَالتَّبَالُغِيَّةِ: حِوَارٌ حَوْلَ المُنْجَزِ وَالمُتَوَهَّمِوَالبَدِيلِ .

وَجَمِيعُ رُدُودِ يَحيَاوِي أَوْرَدَهَا العُمَرِيّ فِي كِتابِهِ المحَاضَرَةُ والمنَاظَرَةُ، مَعَ إِتْبَاعِ كُلِّ رَدٍّ لِيَحْيَاوِي بِرَدٍّ آخَرَ لِلْعُمَرِي، وَفِي هَذَا يَتَجَلَّى مَفْهُومُ المنَاظَرَةِ .

**يَقُولُ رَشِيدْ يَحْيَاوِي:** نَشرَ البَاحثُ والجَامِعيُّ المغْرِبيُّ مُحَّد العُمَرِي مَقَالًا نَقدِيًّا حولَ كِتَابِنَا " التَّبَالُغُ وَالتَّبَالُغِيَّةُ نَحْوَ نَظَرِيَّةٍ تَوَاصُلِيَّةٍ فِي التُّرَاثِ"، فِي مجلةِ البَلاغَةِ وَتحلِيلِ الخِطابِ، والمقالُ وَرَدَ تَحْتَ عُنوانِ : مَفْهُومُ البَلَاغَةِ وَأَسْئِلَتُهَا وَمَآزِقُهَا فِي كِتَابِ التَّبَالُغِ وَالتَّبَالُغِيَّةِ: حِوَارُ المُنْجَزِ وَالمُتَوَهَّمِ وَالبَدِيلِ[...] ورَدُّنَا هَذا يُحاوِرُ مَقَالَ الأُستاذِ العُمرِيّ، وَقصدْنَا بِهِ تَوْضِيحَ مُنْجَزِ الكِتابِ مِنْ حَيثُ لم يَتَّضِحْ فِي مَقالِهِ، وَرَفْعَ مَا عَدَّهُ صَاحِبُ المقَالِ تَوَهُّمًا عِندَ المتَلَقِّينَ وَلَا نَراهُ تَوَهُّمًا، وَمُراجَعَةَ البَدِيلِ المقْتَرَحِ مِنْ طَرَفِهِ لِتَيْسِيرِ إِدْخَالِهِ فِي مَبْدَأ التَّبَالُغِ"[1].

لقدْ وَظَّفَ رَشيدْ يَحياوِي آلِيَّةً مِنْ آلِيَّاتِ الحِجاجِ وهِيَ مَا يُسمَّى بِالحجج القَائِمة علَى العَلاقَةِ المتَبَادِلَةِargument de réciprocité، " وهذِهِ الحُجَجُ تعتَمِدُ علَى البِنَى المنْطِقِيَّةِ لِلتَّبَادُلِ، وذلِكَ حِين نُبادِلُ بَينَ قَضيَّتَيْنِ تَبْدُوَانِ مُتَمَاثِلتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ، ومِثالُ ذَلِكَ قَولُ أَحدِ المتسَوِّلِينَ: لَا أَفْهَمُ كَيفَ يُمكِنُ أَنْ يُعتَبَرَ التَّسَوُّلُ جَرِيرَةً فِي مُجتَمعٍ يرَى الصَّدَقةَ فَضِيلَةً"[2]، وَهذَا مَا يَتَّضِحُ مِنْ خِلالِ قَولِ يَحيَاوِي: " وَقَصدْنَا بِهِ تَوضِيحَ مُنْجَزِ الكِتَابِ"، الذِي أرادَ أَنْ يَقولَ بِأَنَّ كِتابَهُ التَّبَالُغُ وَالتَّبَالُغِيَّةُ، هُوَ كِتابٌ فِي البَلاغَةِ طَالَمَا أَنَّ عُنْوَانَهُ كَذلِكَ، ولَوْ أَنَّهُ لم يَكُنْ كِتابًا بَلاغِيًّا لَمَا كانَ

[1] مُحَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 192 . نقلا عن : رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية : نحو نظرية تواصلية في التراث

[2] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 226 .

عُنوانُهُ بهذَا الشَّكلِ، فَكيفَ يَكُونُ قَرِيبًا مِنَ البَلاغَةِ مِنْ نَاحيَةِ الاسْمِ، وليسَ قَرِيبًا مِنْهَا مِنْ نَاحِيَةِ المضْمُونِ ؟ هكذَا كَانَ رَأيُ رشِيدْ يَحْيَاوِي، وهذَا مَا سَنَراهُ فِي الحُججِ التِي يُوَظِّفُهَا .

– **رَدُّ العُمَرِيّ**:" قَالَ الأُسْتاذُ يَحياوِي: " وَمُراجَعَةُ البَدِيلِ المقْتَرَحِ مِنْ طَرَفِهِ[ أَيْ مِنْ طَرَفِ العُمَرِيّ] لِتيْسِيرِ إِدْخَالِهِ فِي مَبْدَأ التَّبَالُغ"، ونَحْنُ نُعفِي كَرَمَهُ مِنْ هَذا المسْعَى، وَنقُولُ لَهُ: إِلَّا هَذَا " الإِدْخَال " أُعْفِيكَ مِنْ هَذِهِ الخِدمَةِ، مِنْ حَقِّكَ أَنْ" تُراجِعَ" كما يَحلُو لَكَ، شَرِيطَةَ تَرْكِ بَلاغَةِ العُمريّ بَعِيدًا عَنْ" تَبَالُغِكَ"، لَا تُدخِلْهَا فِيه، ولَا تُدخِلْهُ فِيهَا .

مَنْ هَذَا الذِي يَكونُ فِي الاخْتِيارِ وَيذهَبُ إِلى الاضْطِرارِ بِرِجْلَيْهِ ؟ "[1] .

جَاءَ تَعقِيبُ العُمرِيُّ فِي كَوْنِهِ اِعْتَبَرَ أَنَّ رَدَّ يَحيَاوِي، بَلْ وَدِراسَتَهُ كلُّها، خَلْطٌ بينَ الاختِيارِ وَالاضْطِرارِ، وحَشر الأوَّل فِي الثَّانِي، والاختيَارُ هُوَ مُصطَلَحٌ يُشيرُ بِهِ العُمريُّ إِلى مَفهُومِ البَلاغَةِ العَامَّةِ التِي يُريدُهَا هُوَ، والتِي كانَتْ زَمَنَ أَرِسطُو، والجَاحِظِ، والجُرجَانِيّ، ويَاكُبْسونْ، وبِيرلمانْ، وَغيرِهِمْ ... الخ، أمَّا الاضْطِرارُ، فَهوَ البَلاغَةُ التي جاءَتْ بَعدَ، أَوْ مَعَ، شُرُوحِ السَّكَاكِي، وهذَا الأُسلُوبُ الذِي اِسْتَعْمَلهُ العُمريُّ يُمْكِنُ أَنْ يُوضَعَ ضِمنَ التَّناقُضِ وعدَمِ الاتِّفاقِ contradiction et inconpatibilité " فالتَّنَاقُضُ هُوَ الذِي يكُونُ فِيه عَدمُ اِتِّفَاقٍ بينَ قضِيَّتَيْنِ، كَقَوْلِنَا: الشَّيْءُ مَوجُودٌ وغَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الوقتِ نَفْسِهِ، مِثالُهُ ذلِك الشَّخصُ الذِي يَزعُمُ أَنْ لَمْ يَسبِقْ لَهُ أَنْ قَتَلَ كَائنًا حَيًّا، وَالذِي يُبيَّنُ لَه أَنَّهُ بِمعَالجَةِ جُرحٍ مُتَقَيّحٍ سَوْفَ يَضْطَرُّ إِلى قَتْلِ عَددٍ هَائلٍ مِنَ الميكْرُوباتِ بِاعتِبارِهَا كِائناتٍ حَيَّةٍ"[2]، وهذَا يُوَافِقُ مَا أَرَادَهُ العُمَرِيُّ، فالعُمريُّ يُرِيدُ أَنْ يَقولَ بِأَنَّ رَشِيدْ يَحيَاوِي جَعَلَ عُنْوَانَ كِتَابِهِ التَّبَالُغُ، وَالتَّبَالُغُ يَعنِي مُحَاوَلَةَ الوُصُولِ إِلى البَلاغَةِ، ثُمَّ يقولُ – أي يَحيَاوِي – بِأَنّ كِتَابَهُ فِي البَلاغةِ، فَكيْفَ يُعْقَلُ ذَلِكَ ؟ .

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 192 .

[2] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 225 .

**يَقُولُ رَشِيدْ يَحْيَاوِي:** لقدْ بَدأَتْ رِحْلةُ اللِّقاءِ مَعَ الكِتابِ عِندَ مُحَمَّد العُمرِي –كمَا ذكَرَ– مِنَ العُنْوانِ" التَّبَالغ والتبالغية "[1] .

يَستعمِلُ رشيدْ يحيَاوِي فِي هَذَا العُنصُرِ مَا يُعرفُ عِندَنَا فِي البَلاغَةِ العَربيَّةِ بِالكِنايةِ وَالتَّعرِيضِ، فَهوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَقولَ بِأَنَّ عُنوانَ كِتَابِهِ هُوَ التَّبَالُغُ وَالتَّبَالُغِيَّةُ، وهذَا يَكفِي؛ إنما يُرِيدُ مَا وَراءَ هَذا الكَلامِ، يُرِيدُ القولَبِأَنَّ العُمريُّ لَمْ يَقرأْ العُنوانَ جَيّدًا، وتَسرَّعَ فِي إِلْقَاءِ الحُكمِ عَليهِ، وهَذَا النَّمطُ الذِي اِتَّبَعَهُ رَشيدْ يُقابِلُ مَا يُعرفُ بـ " تَأْسِيسُ الوَاقِعِ بِوَاسِطَةِ الاسْتِعَارَةِmétaphore"–فِي تِقْنِيَاتِ الحِجاجِ عِندَ بِيرْلْمَانَ–" وَلَا يَنظرُ بِيرلْمانْ إِلى الاسْتِعارَةِ بِأَنَّهَا مُجرَّد صُورَةٍ أُسلُوبِيَّةٍ لِتجْمِيلِ الكَلامِ – وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ وَظَائِفِهَا – وَإِنَّما تَجاوَزَ ذَلكَ إِلى اِعْتِبَارِهَا حُجَّةً تُؤَدِّي وَظيفَةً إِقْنَاعِيَّةً، هَذهِ الاسْتعارَةُ مُشتقَّةٌ مِنْ مَفهُومِ التَّمثِيلِ، فِإذا كَانَ التَّمثِيلُ يُعْنَى بِتَشابُهِ عَلَاقةٍ بينَ الموضُوعِthémeوَالحَامِلِphore، فَإِنَّ الاسْتعارَةَ هِيَ تَمْثِيلٌ تَكَثَّفَ فَهُوَ مُوجزٌ، ووجْهُ الكَثافَةِ فِيهِ والإِيجازِ، الانْدِماجُ الحَاصلُ بَينَ أَحدِ عَناصِرِ المَوْضُوعِ، وَأحدِ عنَاصِرِ الحامِلِ اِنْدِمَاجًا لَا يُمْكِنُ مَعهُ أَيُّ العُنصريْنِ هُوَ المَوْضُوعُ، وَأَيّهُمَا الحَامِلُ(...) ولِتَقْرِيبِ هذَا المعنَى نُمثّلُ بما يَلِي: الشَّيخُوخَةُ لِلحياةِ هِيَ مَا يُشَكِّلُهُ المساءُ بِالنِّسبَةِ لِلنَّهَارِ"[2]، ومثلُ هَذَا يُستَعمَلُ فِي التَّعرِيضِ بِهلاكِ شَخصٍ مَا، أَوْ إِزَاحَتِهِ مِنْ مَنْصِبِهِ، أَوْ خَسارَتِهِ لِثَرْوَتِهِ، وهُوَ فِي حَالٍ لَا يَتَوَقَّعُ أمرًا كَهذَا أَبَدًا حَتَّى يَتَفاجَأَ بِهِ بَعدَ فَواتِ الأَوَانِ، فنُذكِّرَهُ بِما كانَ عَلَيهِ مِنْ تَكَبُّرٍ مِنْ قَبْلُ تَعرِيضًا لَا تَصرِيحًا .

**– رَدُّ العُمَرِيّ:** البِدَايَةُ مِنَ العُنوَانِ وَالمرَاجِعِ وَالفَهَارِسِ، ثُمَّ المقَدِّمَاتِ؛ أمرٌ بَدِيهِيٌّ، بَل ذَكِيٌّ، فَلَا تَعْلِيقَ"[3].

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة، ص : 193 . نقلا عن : رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية .

[2] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 232.

[3] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 193 .

جَاء تَعقِيبُ العُمريّ فِي كَوْنِهِ يرَى أَنَّ الوُقوفَ عِندَ العُنوانِ أَمرٌ مُهمٌّ جِدًّا، حَتَّى لَا يُصبحَ القَارئُ مُجرَّدًا مِنْ ذَاتِهِ يَسيرُ وِفقَ الرُّؤيَةِ التِي رَسَمَهَا لَهُ المؤَلِّفُ .

وَقدْ عَبَّرَ العُمريُّ علَى هَذا التَّوجُّهِ بِمصْطَلحِ" الحِيدَةِ" الذِي يُقابِلُهُمُصطَلَحُ" رَجُلُ القَشّ"، " فَالحيدَةُ مُصطَلَحٌ لَا يُماثِلُهُ فِي الأَهمِيَّةِ إِلَّا صِناعَةُ رَجُلِ القَشّ، وهُوَ مَشْهُورٌ عَالَمِيًّا بِاسمِ The strawman"[1].

وَيُشيرُ العُمرِيُّ بِمُصطَلَحِ" الحِيدَةِ" إِلَى القَارِئِ الحَاذِقِ الذِي يَقِفُ عِندَ العَتَبَاتِ الأُولَى لِلنَّصِ أَوِ الكِتابِ بِدايَةً مِنْ عُنوانِهِ، أَمَّا مُصطلَحُ " رَجُلِ القَشّ "، فهُوَ يَعنِي عِندَهُ النَّوْعَ الآخَرَ مِنَ القُرَّاءِ المستَهْلِكُونَ لِلنُّصوصِ دُونَمَا تَمحِيصٍ كَافٍ .

وَيمكِنُ القَولُ بِأَنَّ العُمريَّ فِي هَذَا النَّصِ قَدْ وَظَّفَ الحُجَّةَ نَفسَهَا التِي وَظَّفَهَا رَشيدْ يَحيَاوِي، فَهُو أَيْضًا عَمَدَ إِلى التَّعرِيضِ، وهَذَا مَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: الحِيدَةُ، وَرَجُلُ القَشّ .

**يَقُولُ رَشِيدْ يَحْيَاوِي:** فانْطِلاقًا مِنْ هذَا العُنْوانِ بَدَأَ أُفُقُ تَوَقُّعِهِ فِي الانْبِنَاءِ وَأَتَى عَلَى مَرَاحِلَ ثَلاثٍ؛ المرْحَلةُ الأُولَى تَوَقَّعَ أَنَّ كَلِمَتَيِ العُنوانِ الرَّئيسْ[ تَبَالُغٌ وَتَبَالُغِيَّةٌ] وبِمَا أَنَّهما تَشْتَرِكَانِ مَعَ كلمَةِ بَلاغَةٍ فِي الجِذرِ المعجَمِيّ ب ل غ، فَالكِتابُ فِي البَلاغةِ إِذنْ، والمرحَلَةُ الثَّانيةُ أَنَّ صِيغَةَ" تَفَاعُل " تُحَدِّدُ وِجهةَ الكِتابِ فِي الخِطابِ التَّدَاوُلِيّ الحِوارِي "[2].

اِعتمَدَ رَشيدْ يَحيَاوِي فِي هَذا النَّصِ عَلَى مَا يُعرَفُ عندَ بِيرلْمَانْ بِالاتِّصالِ التَّتَابُعِيّ liaison de coescistence " وَهذا النَّوْعُ مِنَ الحُججِ يعتَمِدُ علَى عَلَاقةِ الاتِّصالِ السَّبَبِي مِنْ طَرِيقَيْنِ، إِمَّا الرَّبطُ بينَ السَّببِ، أَوِ الحَدَثِ، أوِ المقدِّمَةِ ومَا نَتَجَ عنهَا مِنْ نَتَائِجَ، وَإِمَّا عَكْسِيًّا، فَتَنْطَلِقُ مِنَ النَّتائِجِ لِتَصِلَ إِلَى أَسْبَابِهَا (...) مِثْلَ قَوْلِهِمْ: تَكَاسَلَ فَرَسَبَ، أَوْ رَسَبَ لِأَنَّهُ تَكَاسَلَ، أَوْ هُوَ

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 193.

[2] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة، ص : 193، نقلا عن : رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية .

يَتَكَاسَلُ فَسَيَرْسَبُ"[1]، وهوَ بِالضَّبطِ مَا قَامَ بِهِ رشيدْ يَحياوِي فِي نَصِّهِ هَذَا، فَقَدِ اِنْتَقَلَ مِنْ الجِذرِ ب ل غ، وَقَامَ بِتَصرِيفِهِ عَلَى صِيغَة تَفَاعَلَ، أيْ تَبَالَغَ، ومنهُ يُصبِحُ كِتابُهُ التَّبَالُغُ وَالتَّبَالُغِيَّةُ، كِتَابًا بَلاغيًّا .

– **رَدُّ العُمَرِيّ**: مَا تَوقَّعهُ العُمريُّ أَنَّ هَذَا الفَصلَ هُو مَا سَيَحتفِظُ بِهِ الباحِثُ فِي هَذهِ المرَافَعَةِ المطَوَّلَةِ، إِذْ سَيَعْتَبِرُ الفُصولَ الأُخرَى مُقَدِّمَاتٍ وَمُمَهِّدَاتٍ، فهِي مُخِلَّةٌ بِـ " مَبْدَأ " التَّبَالُغ "، وشَرْطه " أيْ المقَامِيَّة "حَسبَ تَعرِيفِهِ"[2] .

اِعتمدَ العُمريُّ فِي الرَّدِّ علَى يَحياوِي حُجَّةً أُخرَى وَهِيَ" الحُجّةُ النَّفْعِيَّةُ argument pragmatique، والتِي يُعَرِّفُهَا بِيرْلَمَانْ بِقولِهِ: أُسَمِّي حُجةً نَفعيَّةً، حجَّةَ النَّتائِجِ التِي تُقَيِّمُ فِعْلًا أَوْ حَدَثًا أَوْ قَاعِدَةً، أَوْ أيَّ شَيءٍ آخَرَ، تَبعًا لِنَتَائِجِهِ الإِيجَابِيَّةِ أوِ السّلبِيَّةِ، مِثل قَوْلنَا: هَذِهِ السِّياسَةُ جَيِّدَةٌ لِأَنَّ نَتَائِجَهَا جَيِّدَةٌ"[3]، وهذَا يُوافِقُ مَا جاءَ فِي رَدِّ العُمرِيّ فهُوَ أيْضًا قَدْ قَامَ بِالنظَرِ إِلى النَّتائِجِ مُبَاشَرَةً لَا إِلى الحدثِ الجَارِي، ذَلكَ أَنَّهُ لَمْ يَنْفِ العَلاقةَ بَينَ التَّبَالُغِ والجِذْرِ ب ل غ، بلْ رَأى بِأَنَّ النَّتِيجَةَ فِي النِّهايَةِ لَا تَقُودُ إِلى مَفهُومِ البَلاغَةِ، وبِالتَّالِي فالكِتابُ لَيْسَ بَلَاغِيًّا .

**يَقُولُ رَشِيدْ يَحْيَاوِي**: وَالمرْحلةُ الثَّالثَةُ هِي دُخُول التَّبالُغ فِي البَلاغةِ، فَليسَ هُناكَ مَنْ سَيَسْمَعُ صِيغةَ تَبَالُغٍ، وتَبَالُغِيَّةٍ، دُون أَنْ يَعتقِدَ أَنَّ الأمْرَ يَتَعَلَّقُ بَمبحثٍ يَنضَوِي تحتَ البَلاغَةِ، لأنَّهَا هِيَ العِلمُ النَّاهِضُ الجَذَّابُ، ولابُدَّ لِعِلْمٍ نَاهِضٍ جَذَّابٍ أَنْ يَجذبَ إِليهِ كُلَّ بحثٍ جَديدٍ، بِحيثُ لَا يَنهضُ إِلَّا بِنُهُوضِ البَلاغةِ، هَكذا اِسْتَقَرَّ أُفُقُ تَوَقُّعِهِ عَلى دُخُولِ مَباحِثِ الكِتابِ فِي البَلَاغَةِ، وَتعَزَّزَ أُفُقُهُ

[1] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 228.

[2] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 193 .

[3] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 228.

بِاسمِ المؤلِّفِ لَأنَّهُ مَعروفٌ فِي المجالِ البَلاغِيِّ والشِّعرِيِّ، وحُصولُ الكِتابِ عَلَى جَائِزةِ المغْرِبِ لسنة 2015م، فَضْلًا عَنْ نهضَةِ البَحثِ البِلاغِيِّ فِي المغرِبِ"[1].

اِعتمَدَ رَشيدْ يَحياوِي فِي هَذا النَّصِ حُجَّتَيْنِ أُولَاهُمَا هِيَ نَفْسُ الحُجَّةِ التي اِعتمَدَهَا فِي النَّص السَّابِقِ، أَلَا وَهِيَ الاتِّصالُ التّتابُعي liaison de coescistence، وأمَّا الحُجَّةُ الثَّانِية فَهِي اِعْتِمَادُهُ علَى مَا يُعرفُ بِحُجَّةِ السُّلطةِargument d'autorité، " وَهِيَ الحُجَّةُ التِي يَستخدِمُ فِيها المُحَاجِجُ هَيبَةَ شَخصٍ أَوْ مَجموعَةَ أشْخَاصٍ لِدَفْعِ المخَاطَبِ إلى تَبَنِّي دَعْوَى مَا "[2]، فالحُجَّةُ الأُولَى تَظهَرُ مِنْ خِلالِ حَدِيثِ يَحياوِي عَنْ عَلاقَةِ التَّبالُغِ بِالبلاغَةِ، وَأَنَّ البَلاغَةَ اليَومَ قَدْ أَضْحَتْ عِلْمًا جَديدًا، وَبِالتَّالِي فَلا بُدَّ لِلْعِلْمِ الجَديدِ مِنْ مُسَمَّيَاتٍ جَديدَةٍ، وأمَّا الحُجَّةُ الثَّانيَةُ فَتَظْهَرُ مِنْ خِلالِ قَولِهِ أَنَّ هَذا الكِتَابَ المسَمَّى التَّبَالُغ والتَّبَالُغِيَّة، قَدْ نالَ جَائِزةَ المغرِبِ لِلكِتابِ، أيْ أَنَّ هُناكَ سُلْطَةً عُلْيَا وَافَقَتْ عَليهِ وَهِيَ أَعلَى مِنَ العُمَرِيِّ .

– **رَدُّ العُمَرِيِّ**: قَولُهُ: " لِأَنَّهَا هِيَ العِلمُ النَّاهِضُ الجَذّابُ" اِنْزِلاقٌ مِنْ العِلَّةِ الفَاعِلَةِ، وهِي الاشتِرَاكُ فِي اللَّفظِ ( ب ل غ )، إِلَى العِلَّةِ المرَجَّحَةِ المسَاعِدَةِ، وهِي النُّهُوضُ، اِنْزِلَاقٌ مُغَالَطِيٌّ مُتَعَمَّدٌ، لِأَنَّ المخرجَ مَعْرِفِيًّا هوَ الاشْتِراكُ فِي اللّفظِ( ب ل غ ) ، وهذِهِ القَضيَّةُ الابْسْتِمُولُوجِيَّةُ لَمْ يَتَطَرَّقْ إِليهَا رَدُّ الأُستاذِ، لِأَنَّهَا زَلَّةٌ عِلْمِيَّةٌ لِا مُسَوّغَ لَهَا "[3] .

وقولُهُ: " وَلَابُدَّ لِعلمٍ نَاهضٍ ... " هَذهِ الجُملةُ مُختَلفَةٌ مِنْ جِهَتَيْنِ:

أ– تَرْكِيبِيًّا وَحِجَاجِيًّا، فَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: لَا يَنهَضُ إِلَّا بِنُهُوضِهِ، أَيْ بِنُهُوضِ ذَلِكَ العِلْمِ .

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 194 . نقلا عن : رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية .
[2] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 229.
[3] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 195 .

ب- وَمَعْرِفِيًّا لِأَنَّ الصَّوابَ هُوَ أَنَّ العلومَ النَاهِضةَ(الشَّابة) تُحاوِل أَنْ تُقلِّدَ العُلومَ النَّاجِحةَ المهَيْمِنَةَ، وتَستَعِيرَ مَناهِجَهَا، وتَتسَمَّى بِأَسْمَائِهَا [1] .

وقَولُه: " هَذَا اِسْتِقْرَارَ أُفُقِ تَوَقُّعِهِ ... " هَذا صَحِيحٌ، والوُقوفُ عِند هَذا الانطِبَاعِ، وعدَمُ اِختِبَارِهِ، هُوَ سَبَبُ خَطَأ مَنْ لَمْ يَدْخُلوا إِلَى الكِتابِ لِلتَّأكُّدِ مِنْ مُحْتوَاه، وَمُقَارَنَةِ مُنْجَزِهِ بِدَعْوَاهُ، مِنَ الحَزمِ سُوء الظَّنِّ[2] .

قَالَ: " وَحُصُولُ الكِتَابِ عَلَى جَائِزَةِ المغْرِبِ لِسنة 2015م "، هَذَا حَدثٌ مُهِمٌّ، لَابُدَّ لِلمُخْتَصِّ مِنْ مَعرِفةِ حَيْثِيَّاتِهِ، والتَّنْوِيهِ بِهِ إِنْ كانَ يَستَحِقُّ التَّنوِيهَ، صَدِّق أَوْ لاَ تُصَدِّقْ، فقدِ اِتَّصَلَ بِي أَكْثَرُ مِنْ خَمسةِ بَلَاغِيِّينَ مَرْمُوقِينَ، اِثْنَانِ مِنهُمْ مِنْ خَارِجِ المغْرِبِ، يَسأَلُونَ عَنْ قِيمَةِ الكِتابِ، وعَنِ الدَّارِ النَّاشِرةِ، وعَنْ إِمْكَانِيَّةِ الحُصولِ عَليهِ مَهْمَا كَلَّفَتْ عَمَلِيَّةُ الإِرْسَالِ، وَلأنِّي لَمَ أَكُنْ مُتَفَرِّغًا فقدْ حَاولتُ أَنْ أَستَعينَ بِأحدِ الزُّمَلاءِ المختَصِّينَ فِي البَلاغةِ، فَلا شَكَّ عِندي أَنَّ بَعضَهُمْ شَارَكَ فِي فَحْصِهِ وَتَحْكِيمِهِ، فَجَاءَ الجَوابُ مُخَيِّبًا، لَمَ يُشارِكْ أَيُّ مُختصٍّ فِي البَلاغةِ مِمَّنْ لِي بِهِم اِتِّصَالٌ فِي فَحصِ الكِتابِ، فَكانَ لَابُدَّ مِنْ تَحَمُّلِ مَسؤولِيَّةِ فَحْصِهِ قَبل إِبْداءِ رَأيِي فِيه، لَقدْ أَصْبَحْتُ فَرْضَ عَيْنٍ[3] .

قَالَ: " فَضْلًا عَنْ نَهْضَةِ البَحْثِ البَلَاغِيِّ فِي المغْرِبِ"، هَذا وَاقِعٌ مَعرُوفٌ وَمُنَوَّهٌ بِهِ فِي العَالَمِ العَرِبِي، المشْكِلُ هُوَ اِسْتِمْرَارُ مُدرِّسِي البَلاغَةِ فِي مَدارِسِنَا وَجَامِعَاتِنَا، خَاصَّةً فِي شُعَبِ الدِّرَاسَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ وكثيرٍ مِنْ شُعَبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ، فِي اِجْتِرَارِ المفاهِيمِ العَقِيمَةِ التِي صَاغتْهَا عُصورُ الانحِطاطِ، وهَؤُلاءِ يُصابُونْ بِالشَّلَلِ عِندمَا يُصادِفُونَ كِتَابًا شِعَارِيًّا مُلْتَبِسًا، مِثلَ" التَّبَالُغِ "، يَعطِفُ البلاغَةَ علَى مَجالَاتٍ عِلمِيَّةٍ لَيسَ لَهُمُ اطِّلَاعٌ عَليْهَا [4] .

---

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 195 .

[2] نفسه، ص : 195 .

[3] نفسه، ص : 196 .

[4] نفسه، ص : 196 .

وَباعتِبارِ أَنَّ يَحياوِي قَدْ عَمِدَ إِلى تَوظِيفِ حُجَّتَيْنِ، فَإِنَّهُ مِنَ المنطِقِيّ أَنْ يَحتوِيَ رَدُّ العُمرِيعَلى حُجَّتَيْنِ أَو أَكثرَ، عَلى أَنهُ يَنبغِي التَّنْوِيهُ بِأننَا لَمْ نَجدْ لِلرُّدُودِ الثَّلاثَةِ الأُولَى التِي أَوْرَدَهَا العُمرِيُّ مَا يُنَاسِبُهَا عِندَ بِيرلْمَانْ، وَذلِكَ لِأَنَّهَا رُدودٌ اِعْتَمَدَتْ عَلَى الحُجَجِ نَفْسِهَا التِي وَظَّفَهَا رَشيدْ يحَياوِي ثُم قَامَتْ بِتَفْنِيدِهَا، وَهذَا الأُسلُوبُ لَا يَكُونُ فِي المنَاظَرَاتِ، وَلَعَلَّ اِهْتِمامَ بِيرلْمَانْ لَمْ يَكُنْ مُنْصَبًّا عَلَى المنَاظَرَاتِ، بَل كَانَ مُتَعَلِّقًا بِالحُججِ التِي تَأْتِي مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ خَطِيبًا كَانَ، أَوْ شَاعرًا، أَوْ قَاصًّا، وَأَمَّا فِي المنَاظَرَاتِ فَتكُونُ الحُججُ مُتَبَادَلَةً بَينَ طَرَفَيْنِ .

وَأَمَّا عَنِ الرَدَّيْنِ التَّالِيَيْنِ اللَّذَيْنِ تَطرَّقَ فِيهِمَا العُمرِيُّ إِلى مَسأَلَةِ نَيْلِ الكِتابِ جَائِزَةَ المغْرِبِ، ومَسْأَلَةِ نَهْضَةِ البَحثِ البَلَاغِيّ فِي هذَا البَلدِ، فَإِنَّهُمَا يُوَافِقَانِ مَا يُعرَفُ عِندَ بِيرلمانْ بِحُجَّةِ إِدْمَاجِ الجزْءِ فِي الكُلِّ، " وهَذَا النَّوْعُ مِنَ الحُججِ يَتَأَسَّسُ عَلى مَبْدَئٍ رِيَاضِيّ هُوَ أَنَّ مَا يَنسَحِبُ عَلَى الكُلِّ يَنْسَحِبُ عَلى الجُزءِ مِنْ هذا الكُلِّ، وَبِالتَّالِي فَهِيَ عَلاقَةٌ رِيَاضِيَّةٌ تَستَنِدُ إِليهَا الحُجَّةُ فِي إِثْبَاتِهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الكَمِيَّةِ، أَنَّ الكُلَّ يَشمَلُ الجزءَ وَيَتَضَمَّنُهُ، وأَنَّ الجُزءَ مَهْمَا كَانَ حَجْمُهُ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الكُلِّ، مِنْ وِجهَةِ نَظرٍ كَمِيَّةٍ، وكَمِثَالٍ عَلى ذَلِكَ: مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ"[1]، وَلعلَّ العُمرِيَّ أَرادَ أَنْ يَقُولَ: إِذا كَانَ حَالُ الأُمَّةِ فِي جَامِعاتِهَا وَمَعَاهِدِهَا، لَا يَزالُ مُتَقَوْقِعًا فِي زَاوِيةِ التَّقعِيدِ، فَمَا فَائدَتُنَا مِنْ كِتابِكَهذَا، حَتَّى وَإِنْ نَال جَائِزَة المغْرِبِ لِلْكِتابِ ؟، ثُمَّ مَا فَائِدَتُنَا مِنْ تَطوُّرِ البَحثِ العِلمِيّ فِي المغْرِبِ إِذَا لَمْ يُفَعَّلْ هَذَا التَّطَوُّرُ عَلى أَرْضِ الوَاقِعِ ؟.

**يَقُولُ رَشِيدْ يَحيَاوِي:** وَلَمْ يعدل العُنوانُ الفُرعيُّ لِلكِتابِ" نَحْوَ نَظَرِيَّةٍتَوَاصُلِيَّةٍ فِي التُّرَاثِ"مِنْ أُفُقِ تَوقُّعِ الأُستاذِ، بِأَنْ يُوَجِّهَهُ لِإِدْرَاجِ التَّبالُغِ والتَّبالُغِيَّةِ ضِمنَ مَشْرُوعٍ تَواصُلِيّ فِي التُّرَاثِ، بَلْ قَادَهُ لِتَوَقُّعٍ قَائِمٍ عَلَى اِنْتَظَارَيْنِ، اِنْتِظَارُ البَلاغَةِ وَاِنْتِظَارُ التَّوَاصُلِ[2].

[1] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 226، 227.

[2] مُحَمَّد العمري، المحاضرةوالمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 197 . نقلا عن : رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية .

أرادَ يحيَاوِي أَنْ يَلْفِتَ اِنْتِبَاهَ القُرَّاءَ إِلى أَمْرَيْنِ، أَوَّلُهُمَا أَنَّ عُنوانُ كِتابِهِ لَا يَتوَقَّفُ عِندَ التَّبالُغِ والتَّبالُغِيَّةِ فَقطْ، بَلْ إِنَّهُ مَتْبُوعٌ بِعُنْوَانٍ فَرعِيٍّ هُوَ:" نَحوَ نَظَرِيَّةٍ تَواصُلِيَّةٍ فِي التُّراثِ "، وبِالتَّالِي فَإِذَا كَانَ العُنوانُ الأَصليُّ لَا يَفِي بِالغرضِ المطلُوبِ، فَإِنَّ الفَرعِيَّ يَفِي بِهِ، وأَمَّا الأَمْرُ الآخَرُ فَإِنَّ فَحواهُ أَنَّهُ كيفَ لم يَنْتَبِهِ العُمَريُّ لهذَا العُنوانِ الفَرعِيِّ حتَّى يَحْكُمَ علَى أَنَّ الكِتَابَ لَيسَ بَلاغِيًّا ؟، وهذا النَّوعُ مِنَ الحُججِ يُوافِقُ عِند بِيرلمانْ حُجَّةَ تَقسِيمِ الكُلِّ إِلى أَجزاءِargument de division، " وَهذهِ الحُجَّةُ تَلجَأُ إِلى تَقسيمِ الكُلِّ بِاعتِبارِهِ أَفضَلَ، وأَهَمَّ، وَأَشمَلَ، إِلى أجزائِهِ المكوِّنَةِ، حيثُ يُوَظِّفُهَا المحَاجِجَ كَيْ يَتسنَّى لَهُ إِدراجُ تِلكَ الأَجزاءِ وَتحمِيلِهَا الشُّحنَةَ الاقْتِنَاعِيَّةَ التِي كانتْ لَها مُجْتَمِعَةً، فَهِيَ نَوعٌ مِنْ إِثباتِ حُضورِprésenceلِلْكُلِّ مِنْ خِلالِ إِثباتِ أَجزائِهِ"[1]، وَمعنَى هَذَا الكَلامِ عِندَ يَحياوِي، هُوَ أَنَّ صِحَّةَ العُنوانِ الفَرعِيِّ هُوَ جُزءٌ، يَدلُّ بالضَّرورَةِ علَى صِحَّةِ العُنوانِ الرَّئِيسِ، وَهُو كُلٌّ .

– **رَدُّ العُمَرِيّ**: شَيئًا مِنَ الإِنصافِ، أَنارَ الله بَصِيرتَنَا وَبَصِيرتَكَ، بِالعَكْسِ، بَل عَدّلْهُ فِي اِتِّجَاهِ البُعدِ التَّداوُلِيِّ الحِوارِيِّ مِنَ البَلَاغَةِ: الصَّوامِتُ( ب ل غ ) تُحيلَ عَلى البَلاغةِ وتَجُرُّ نَحوَهَا، وَالصِّيغَةُ الصَّرفِيَّةُ( تفاعلن – – 0 – – 0 )تُحِيلَ علَى التَّداوُلِ[2] .

وفِي هَذا الرَدِّ يَحتَجُّ العُمرِيُّ عَلى عَدَمِ فَهْمِ يَحيَاوِي لِدِلالَةِ العُنوَانِ الفَرعِيِّ الذِي وَظَّفَهُ، وقدْ شَرَحَ ذَلكَ بِكَوْنِ دِلالَةِ العُنوانِ الفَرْعِيِّ هِيَ تَعدِيلُ العُنوانِ الرَّئِيسِ، وليسَ العَمَلُ علَى تَكمِيلِهِ، وَهُوَ مَا يُوَافِقُ عندَ بِيرلمانْ مَا يُعرَفُ بِحجَّةِ الاتِّجَاهِ l'argument de direction، التِي" تَتمَثَّلُ أَسَاسًا فِي التَّحذِيرِ مِنْ مَغَبَّةِ اِتِّبَاعِ سَياسَةِ المرَاحِلِ التَّنَازُلِيَّةِ كَقَوْلِنَا: إِذا تَنازَلْتَ هَذهِ المرَّةَ، وَجَبَ عَليكَ أَنْ تَتَنَازَلَ أَكْثرَ فِي المرَّةِ القَادِمَةِ، وَاللهُ أَعلَمُ أَيْنَ سَتَقِفُ بِك سِياسَةُ التَّنازُلاتِ هِذهِ ؟ "[3]، فَإِذَا كَانَ

[1] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 227 .

[2] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 197 .

[3] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 228.

رَشيدْ يحياوِي قَدْ تَنازَلَ عَنْ كَوْنِ التَّبَالُغِ لَيْسَ مِنَ البَلاغَةِ بِاعتِبارِ أَنَّ هُناكَ عُنوانًا فَرعِيًّا سَيُعَوِّضُ هَذا الخَطَأ، فَإِنَّهُ سَيَتَنَازَلُ بَعدَ هَذا عَنْ أُمُورٍ أُخرَى وَأُخرَى، حَتَّى يَخرُجَ عَنْ نِطاقِ البَلاغَةِ كُلِّهَا .

**يَقُولُ رَشِيدْ يَحْيَاوِي:** وَلِيَخْتَبِرَ الأُستاذُ تَوَقُّعَهُ، يَنتقِلُ إِلى فَهْرَسِ المراجِعِ، هُنا تَبدَأُ الخَيْبَةُ الأُولَى لِأُفُقِ التَّوَقُّعِ، فَليسَ فِي الفَهرَسِ مَراجِعُ لِلنَّظرِيَّاتِ التَّواصُلِيَّةِ، وَالتَّدَاوُلِيَّةِ، وَالبَلَاغِيَّةِ، وهَذَا يُفيدُ أَنَّ الكِتَابَ بَعيدٌ عَنْ أَيِّ اِنْتِمَاءٍ إِلى أَيِّ نَظرِيَّةٍ تَواصُلِيَّةٍ، أَوْ تَداوُلِيَّةٍ مُباشِرَةٍ، أَوْ بِواسِطَةٍ، وَسَتَدفعُ هذهِ الخَيْبَةُ الأُستاذُ إِلى البِدْءِ فِي تَقوِيمِ الكِتابِ أَكَادِيمِيًّا حتَّى قَبْلَ قِرَاءَتِهِ .

الخَيْبَةُ الثَّانِيَةُ لِتَوَقُّعِهِ سَتحدُثُ عِند فَحْصِهِ لِفَهرَسِ المَوْضُوعَاتِ، فَإِنَّهُ لم " يَلْتَقِ" بِالبَلَاغَةِ سِوَى فِي الفَصْلِ الأَخِيرِ فِي حَدِيثٍ عَنِ المقامَاتِ، بَينمَا الفُصُولُ السَّابِقَةُ رَآهَا فِي عِلمِ العَلامَاتِ والمقَاصِدِ وَالدِّلَالَاتِ، وَفِي النَّحوِ وعِلمِ الكَلامِ، وتَأْسِيسًا عَلى هَذهِ الخَيْبَاتِ يَنْشَأُ أُفُقٌ جَديدٌ عِنْدَهُ، يَتَعَلَّقُ الأَمرُ بِتَنَاوُلِ مَوضُوعٍ آخَرَ غَيرِ الذِي أَوْحَى إِلينَا بِه عَنْ عُنوانِ الكِتابِ[1] .

دَعَا رَشيدْ يَحياوِي العُمَرِيَّ إِلى النَّظَرِ فِي فَهرَسِ مَراجِعِ الكِتابِ، وَالذِي لَا يُوجَدُ فِيهِ – عَلى حَدِّ قَوْلِهِ – مَراجِعُ لِلنَّظَرِيَّاتِ التَّواصُلِيَّةِ وَالتَّداوليَّةِ والبَلاغيَّةِ، وكذلِكَ فِي فَهرسِ مَوضُوعَاتِ الكِتابِفَإِنَّهُ لم " يَلْتَقِ" بِالبلاغَةِ سِوَى فِي الفَصلِ الأَخِيرِ فِي حَديثٍ عَنِ المقامَاتِ، وهَذا النَّوْعُ مِنَ الحُججِ الذِي وَظَّفَهُ يحيَاوِي يُقابِلُ عِندُ بيرلمان مَا يُعرَفُ بالشَّاهِدِl'illustration، " وَيُؤتَى بِالشَّاهدِ مِنْ أَجلِ تَوضِيحِ القَاعِدَةِ وَتكْثِيفِ حُضورِ الأَفكارِ فِي الذِّهنِ، وبِالتَّالِي يُقَوِّي دَرَجَةَ تَصدِيقِهَا لَدى المتلَقِّي، فَهِيَ تَنطَلِقُ مِنْ قَضيَّةٍ عَامَّةٍ إِلى حَالاتٍ تُوَضِّحُهَا وَتُجَلِّيهَا "[2]، وَمعنَى هَذَا أَنَّ رَشيدْ يَحياوِي اِسْتَدَلَّ بِمجْمُوعَةٍ مِنَ الشَّوَاهِدِ، وَهِي فَهَارِسُ المراجِعِ والموضُوعَاتِ، لِيُبَيِّنَ صِحَّةَ فِكْرَتِهِ وَبُطْلَانَ فِكْرَةَ العُمَرِيَّ .

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 197، 198 . نقلا عن : رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية .

[2] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 230 .

– **رَدُّ العُمَرِيّ**: قَالَ: " تَقويمُ الكِتابِ أَكَادِيمِيًّا حَتَّى قَبلَ قِراءَتِهِ"، سَيكُونُ هَذا الاسْتِنْتَاجُ صَحيحًا عِندَ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَا جَاءَ فِي مَقالِي تَسجِيلٌ كِرُونُولُوجِيٌّ لِلِقَاءٍ بِكتابِ التَّبالُغِ، كَحالِ مَنْ يَقُومُ بِرحلَةٍ فِي الأَدغَالِ مُلتَقِطًا المشَاهِدَ تِبَاعًا، وَكُلَّمَا خَرجَ مِنْ مِنطَقَةٍ فَقدَ طَرِيقَ العَوْدَةِ إِليهَا، هَذا لَيسَ حَال البَحثِ العِلمِيّ عَلى كُلِّ حَالٍ، البَحثُ العِلمِيُّ يَرُدُّ آخِرَ الكَلامِ عَلَى أَوَّلِهِ، وَأَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ، هَذهِ بَدِيهِيَّاتٌ(...) عَمَلِيَّةُ الاسْتطلَاعِ، وفحصِ المرجِعِيَّاتِ، إجراءٌ أَكادِيمِيٌّ بِيدَاغُوجِيٌّ، مِنْ بَابِ تَقدِيمِ الحُججِ، وَالوقَائعِ قَبْلَ إِصدارِ الحُكْمِ(...) لَا يُمكِنُ الحَدِيثُ عَنِ البَحثِ العِلمِيّ فِي البَلاغَةِ والتَّواصُلِ، فِي غِيَابِ المراجِعِ الحَدِيثَةِ المخْتَصَّةِ"[1].

صَحِيحٌ؛ البَلاغةُ تُوجَدُ جُزئِيًّا، حَسبَ تَصوُّرِنَا لَها، فِي الفَصلِ الرَّابِعِ، ولِذلِكَ فَتَحْنَا الكِتابَ، وأَعْطَيْنَا الكَلِمَةَ لِلمؤَلِّفِ لِيَقُولَ لَنا مَا هُوَ التَّبالُغُ مَقرُونًا بِالتَّوَاصُلِ ؟ ومَا عَلاقَتُهُمَا بِالبَلاغَةِ ؟، وَلَا أَفْهَمُ أَيَّ فَائِدةٍ يَتَوَخَّى المعْتَرِضُ مِنْ إِعادَةِ مَا قَالَهُ العَارِضُ فِي عِبارَةٍ وَاضِحةٍ مُحكَمَةٍ ؟ كُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الأُستاذُ الآنَ هُو تَغْيِيرُ الصِّيَغِ وَالتَّرَاكِيبِ، التَّعَجُبُ مِمَّا لَا يُثِيرُ العَجَبَ[2] .

لقدْ رَدَّ العُمرِيُّ عَلى دَعْوَةِ يَحياوِي إِلى تَقْوِيمِ الكِتابِ أَكَادِيمِيًّا، قَبْلَ قِرَاءَتِهِ، رَدَّ عَليهَا بِاعْتِبارِهِ أَنَّ مِثلَ هَذا الكَلامِ يَكُونُ صَحِيحًا لَوْ أَنَّ قِراءَةَيَحَاوِي كَانتْ عَلَى طَرِيقَةِ بَعضِ المؤَرِّخِينَ الذِينَ يَستَعْمِلُونَ مَا يُعرفُ بِكُرُونُولُوجْيَا الأَحْدَاثِ، أَيْ ذِكْرُ الأَحداثِ التَّارِيخِيَّةِ مَع الزَّمنِ الذِي وَقَعَتْ فِيهَا بِالتَّرتِيبِ التَّصَاعُدِيّ أَوِ التَّنَازُلِيّ، وهذَا مَا لَمْ يَفْعَلْهُيحياوِي؛ ويُضيفُ العُمَرِيُّإِلى هَذهِ الحجَّةِ، حُجَّةً أُخرَى قَامَ بِابْتِكَارِهَا، وهي عِبارَةٌ عَنْ مِثالٍ تَخَيُّلِيّ، وهذَا مَا يُقابِلُ المثلَ عِندَ بِيرلمانْ، " وَالمثَلُl'escempleيُؤتَى بِهِ لِدعْمِ وَتَقْوِيَةِ أُطرُوحَةٍ مَا فِي الحَالاتِ التِي لَا تُوجَدُ فِيهَا عَادَةً مُقدِّمَاتُ الحِجَاجِ المعْرُوفةُdes prémisses، بِحيثُ تَكونُ هَذهِ الأُطرُوحَةُ مَحَلَّ خِلافٍ بَينَ المحاجِجِ وَالمتَلَقِّي،

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 198

[2] نفسه، ص : 199 .

فَيُسْتَخْدَمُ المَثَلُ لِتَرْسِيخِ وَتَثْبِيتِ قَاعِدَةٍ خَاصَّةٍ فِي ذِهنِ المتلَقِّي، الذِي تَكونُ لَهُ خَلْفِيَّةٌ مُسَبَّقَةٌ حَولَ هَذَا المَثَلِ"[1] .

**يَقُولُ رَشِيدْ يَحيَاوِي:** لِلأستاذِ العُمرِيّ كِتابٌ بِعُنوَانِ: البَلَاغَةُ العَرَبِيَّةُ أُصُولُهَا وَامْتِدَادَاتُهَا، وَلَا تَنطَبِقُ علَيهِ أَيضًا المعايِيرُ التِي يَنْتَقِدُ عَدمَ اِنْضبَاطِ كِتابِ التَّبَالُغِ لَهَا، وَمنهَا قِدمُ مَرَاجِعِهِ، وعدَمُ وَضْعِ مُقَدِّمَةٍ وخَاتمةٍ لَهُ، واِعتِمَادُهُ تَحقِيقَاتٍ مُتَجَاوزَةً عِلْمِيًّا [2] .

فِي هذا النَّصِ نَجدُ أَنَّ رَشيدْ يَحيَاوِي قَدْ قَارنَ بَين كِتَابِهِ وَكتَابِ البَلاغَةِ العَربيّةِ أُصولُها واِمتِدادَاتُها لِلعُمرِيّ، مُشيرًا إِلى أَنَّ كِتابَ العُمرِيّ هُوَ الآخَرُ، لَا تَنطبِقُ عَليهِ المعَايِيرُ التِي يَنْتَقِدُ عَدَمَ اِنْضبَاطِ كِتابِ التبَالُغ لَهَا، وَمحاوَلَةُ رَشيدْ هَذِهِ، جَاء بِهَا لِكَيْ يَرْفَعَ مِنْ قِيمةِ مُؤَلَّفِهِ، ذَلك أَنَّهُ إِذْ يُقارِنُهُ مَعَ كتابٍ بِوَزْنِ كِتابِ العُمرِيّ، فإِنَّهُ سَيَجْعَلُهُ فِي مَصافِّ أَفضلِ كُتُبِ البَلاغَةِ فِي عَصرِنَا هَذَا، وهُوَ مَا يُوَافِقُ عِندَ بِيرلمانْ مِفْهُومَ" حُجَّةِ المقَارَنَةِl'argument de comparaison، والتِي تُعتَبَرُ حُجَّةً شِبْهَ مَنطِقِيَّةً حِين لَا تَسمَحُ بِإِجْرِاءِ وَزْنٍ أَوْ قِياسٍ فِعْلِيّ، وَإِنْ كَانَتْ تُوحِي بِأَنَّنَا أَمامَ قِياسٍ فِعْلِيّ، أَوْ أَنَّنَا نُصدِرُ حُكمًا مَضْبُوطًا، فَمَثلًا نُقارِنُ شَاعِرًا مُتَوَسِّطًا، فَنقُولُ إِنهُ دُونُ مَكانَةِ المتنَبِّي فَإِنَّنَا نَرْفَعُهُ بِهذَا، وَلكِنَّنَا حِينمَا نَقُولُ عَنهُ أَنَّهُ أَرفَعُ مِنْ شَاعِرٍ ضَعيفٍ، فَإِنَّنا نَحُطُّ مِنْ قِيمَتِهِ، فَمِعيَارُ المقَارَنَةِ لَيسَ قِيَاسًا ثَابِتًا وَلا فِعْلًا قَابِلًا لِلقِيَاسِ، بَلْ شَبِيهٌ بِذلكَ"[3] .

**– رَدُّ العُمَرِيّ:** فِي هَذا الكَلامِ اِنْزِلَاقٌ، وَتَقْوِيلٌ، وَإِنْكَارٌ لِلوَاقِعِ المعَايَنِ، واِحْتِجَاجٌ غَيرُ وَجِيهٍ، لَمْ يَتَحَدَّثِ العُمريُّ قَطُّ عَنْ وُجودٍ، أَوْ عَدَمِ وُجُودٍ، مُقَدِّمَةً وَخَاتِمَةً فِي كِتَابِ التَّبَالُغِ وَالتَّبَالُغِيَّةِ، وَلم يُثِرْ مَسأَلَةَ التَّحْقِيقَاتِ قَطُّ .

[1] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 230.

[2] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 199 . نقلا عن : رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية .

[3] أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، ص : 227.

تَبْقَى قَضيَّةُ حَدَاثَةِ المرَاجِعِ، وَهِيَ مَطرُوحَةٌ عِندَ العُمرِيِّ بِشكلٍ آخَرَ مُسايِرَةً البَحثَ العِلْمِيَّ فِي التَّخَصُّصِ، وَلِذلِكَ يَرى العُمَرِيُّ أَنَّ هَذهِ الحَادِثَةَ فِي حَاجَةٍ إِلَى وَقْفَةٍ مُطَوَّلَةٍ، لَأَنَّهَا تَنطَوِي علَى عُيُوبٍ ذَاتِ طَابعٍ مِنْهَاجِيٍّ وَمَعرِفِيٍّ، حيثُ يَكمُنُ العَيبُ المنْهَاجِيُّ الأَبْرَزُ فِي قَولِهِ: " لَا تَنْطَبِقُ عَليهِ أَيضًا المعَايِيرُ ... "، كَلِمَةُ" أَيْضًا " هَذِهِ، ذَاتُ دِلالَةٍ تَقتَضِي التَّأَمُّلَ، فَعَدَمُ اِنْطِبَاقِ المعَايِيرِ – جَدَلًا – عَلى كِتابِ العُمرِيِّ لَا يُبَرِّرُ عَدمَ تَحقُّقِهَا فِي كِتابِ التَّبالُغِ وَالتَّبالُغِيَّةِ، فالمحْتَكِمُ إِليهِ هُوَ قَوَاعِدُ العِلمِ وَليسَ كُتُبَ العُمَرِيِّ[1] .

وَمِنْ بابِ المدَاعَبَةِ، نُنَبِّهُ الأُستاذَ يَحياوِي إِلى عَيْبٍ مِنْهَاجِيٍّ آخرَ، وهُوَ أَنَّ مُقارَنَةَ كِتابِهِ بِكتابِ العُمرِيِّ غَيرَ مُنْصِفَةٍ لهُ هُوَ، إِنْ كَانَ مَا يَزالُ مُخلِصًا لِتَعْلِيقَاتِهِ فِي جِدارِ تَبَالُغِيَّاتِ: كَيْفَ يُقَارِنُ كِتَابًا حَصَلَ عَلَى جَائِزَةِ المغْرِبِ بِكِتَابٍ فَشِلَ فِي الحُصُولِ عَلَيْهَا[2] .

لقدْ رَدَّ العُمريُّ عَلَى اِدِّعَاءِ يَحياوِي مِنْ خِلالِ تِلكَ المقَارَنَةِ، بِأَنَّهُ اِنْزِلَاقٌ وَتَقوِيلٌ، كمَا أَنَّهُ يَنطَوِي عَلى عَيْبٍ مِنهاجِيٍّ وآخَرَ مَعرِفِيٍّ، وَكلاهُمَا اِنْطَلَقَ فِيهِمَا العُمَرِي مِنَ الحُجَجِ التِي وَظَّفَهَا يَحيَاوِي، فَالعَيْبُ المنْهَاجِيُّ أَوِ المعْرِفِيُّ المقْصُودُ هُنَا يَتَعَلَّقُ بِتِلكَ الحُججِ، وهذَا الأُسلُوبُ الذِي اِسْتَعْمَلَهُ العُمرِيُّ هُوَ مَا يُوَافِقُ عِندَ بِيرلمانْ حُجَّةَ التَّنَاقُضِ وعدَمِ الاتِّفَاقِ، contradiction et incontabilité، وهذَا النَّوْعُكُنا قَدْ تَطرَّقْنَا إِليهِ مِنْ قَبْلُ، وَيَتجَلَّى التَناقُضُ فِي أَنَّ رَشيدَ يَحيَاوِي قَارنَ بَينَ كِتابِهِ الذِي نَالَ جَائِزَةَ المغْرِبِ، مَعَ كِتابِ العُمَرِي الذِي لم يَنَلْهَا، وهُوَ مَا يَرْفَعُ مِنْ مَكانَةِ كِتابِ العُمرِيِّ الذِي قُورِنَ بِما هُوَ أَحْسَنَ مِنْهُ، غَيرَ أَنَّ مُرادَ يَحيَاوِي كَانَ العَكسُ تَمامًا، فَهُوَ أَرَادَ بِهَذِهِ المقَارَنَةِ أَنْ يَرفعَ مِنْ قِيمةِ كِتابِهِ، وَفِي هَذا تَنَاقُضٌ كَبيرٌ، فَكيفَ يَرَى مِنْ جِهَةٍ أَنَّ كِتابَهُ أَفضَلُ، ثُمَّ يُقارِنَهُ بِكِتابِ العُمرِيِّ لِيَرْفَعَ مِنْ قِيمَتِهِ ؟، ومِنْ جِهةٍ أُخرَى يَقُولُ بِأَنَّ كِتابَهُ نَالَ جَائِزَةَ المغْرِبِ

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 200 .

[2] نفسه، ص : 200

أَيْ أَنَّهُ هُوَ الأَفضَلُ عَلى الإِطْلَاقِ ؟؟؟؟ . إِنْ كَانَ كِتابُهُ هُوَ الأَفضلُ فَلمَاذَا يُقارِنُهُ بِمَا هُوَ أَقَلُّ مِنهُ ؟ وَإِنْ كَانَ كِتابُ العُمرِيّ هُو الأفضَلُ فَلِمَاذَا لَمْ يَنَلْ تِلكَ الجَائِزَةَ ؟ .

**يَقُولُ رَشِيدْ يَحْيَاوِي:** مَا سَنَرَاهُ فِعلِيًّا فِي قِرَاءَتِهِ لِلكِتابِ هُوَ حُضُورُ الأُفُقَيْنِ مَعًا حُضورًا مُتوَتِّرًا، أُفُقٌ يَنفِي البَلاغَةَ مِنَ الكِتابِ، ثُمَّ يَبحَثُ عَنهَا فِيهِ، وَأُفُقٌ يُخرِجُهُ إِلى مَوْضُوعٍ آخَرَ وَلكِنَّهُ لَا يَعرِفُ مَا هُوَ، وَيَتَضَاعَفُ تَوتُّرُ الأُفُقَيْنِ حِينَ يَزْدَوِجُ فِيهِ تَلَقِّيهِ لِلكِتابِ بِتَلَقِّيهِ لِتِقْنِيَاتِ القِرَاءَةِ لَهُ[1].

يُشيرُ الأُستَاذُ رَشيدْ يَحياوِي إِلى أَنَّ مَا سَيَقَعُ فِيهِ العُمريُّ هُو التَّصادُمُ بَين مَا كَانَ يَأْمَلُهُ وَما سَيَصِلُ إِليهِ مِنْ بَعْدُ، أَوْ بَينَ مَا كَانَ يَقُولُهُ وَمَا فَعَلَهُ مُجْبَرًا عَليهِ، فَرَشِيد يَحياوِي يَرى بِأَنَّ العُمرِيَّ نَفَى عَنْ كِتابِهِ أَنَّهُ بَلاغِيٌّ، ثُم مَا لَبِثَ أَنْ وَجَدَ نَفسَهُ يُنَاقِشُهُ فِي إِطارِ البَلاغَةِ العَرَبِيَّةِ، أَيْ أَنَّهُ أُجْبِرَ عَلَى اِعْتِبَارِهِ بَلاغِيًّا، وَإِنْ كَان فِي البِدايَةِ لَا يَرَاهُ كَذلِكَ، وَنحنُ نَعْتَقِدُ أَنَّ هَذهِ الحُجَّةَ هِيَ نَفْسُهَا التِي وَظَّفَهَا العُمريُّ، أَيْ حُجَّةَ التَّناقُضِ وَعدَمِ الاتِّفاقِcontradiction et incontabilité، فَالتَّناقُضُ يَظهَرُ فِي كَوْنِ العُمَرِي يَعْتَبِرُ مِنْ جِهةٍ أَنَّ كِتاب التَّبالُغِ والتَّبالُغِيَّةِ لَيسَ كِتابًا بَلاغِيًّا، وَمِنْ جِهةٍ أُخرَى يَدرُسُهُ دِرَاسَتَهُ لِأَيِّ كِتابٍ بَلاغِيٍّ، فَالعُمرِيُّ حِينَ يَقولُ بِأَنَّ مُقارَنَةَ رَشيدْ يَحيَاوِي لِكِتابِهِ مَعَ كِتابٍ نَالَ جَائِزَةَ المغْرِبِ إِجْحَافٌ فِي حَقِّ كِتابِ رَشيدْ، يُقِرُّ هُنَا بِأَنَّ الكِتابَ يَستَحِقُّ الجَائِزَةَ، وَلو كَانَ لَا يَرَاهُ أَهلًا لَهَا لمَا قَال بِأَنَّهُ يُجْحِفُ مِنْ حَقِّ رَشيدْ، ومِنْ جهةٍ أُخرَى إِنْ كَانَالعُمريُّ يَرى أَنَّ الكِتابَ لَا يَستَحِقُّ الجَائزَةَ فَإِنَّ الأَوْلَى بِه أَلَّا يَربطَ مَسْأَلَةَ المقارَنَةِ بِهَا أَصْلًا .

**– رَدُّ العُمَرِيِّ:** قَولُهُ: " يَنْفِي البَلَاغَةَ عَنِ الكِتَابِ"، تَحرِيفٌ لِكلَامِ العُمريِّ، وَقلْبٌ لِمَعْنَاهُ الصَّرِيحُ، هُناكَ فَرْقٌ بَين قَولِنَا: الكِتابُ" لَيْسَ فِي البَلاغَةِ"، وَقولِنَا: " لَيْسَ فِي الكِتَابِ بَلَاغَةٌ"، نَحن نَقولُ: " الكِتابُ لَيسَ فِي البَلاغَةِ، أَيْ لَيسَتِ البَلَاغَةُ مَوضُوعًا لَهُ، والبَاحثُ يَنْزَلِقُ بِنا نَحوَ: الكِتَابُ خَالٍ مِنَ البَلَاغَةِ"[2] .

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 200 . نقلا عن : رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية .

[2] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 201

إِذَا تَحَدَّثْنَا عَنْ غِيابِ البَلاغَةِ فِي الفَصلَيْنِ الثَّانِي والثَّالِثُ، وَعَنْ هَامِشِيَّتِهَا، وَعدمِ تَوْجِيهِهَا، فِي الفَصلِ الأَوَّلِ، فَذلِكَ يَعنِي أَنَّنَا دَخلْنَا هَذهِ الفُصُولَ، وَقَرَأْنَاهَا وَنَخَلْنَاهَا، وَأَوَّلُ سُؤالٍ يُطرحُ اليَومَ عَلى مَنْ يَنتقِدُ كِتابًا أَوْ فِيلمًا، ولَوْ مِنْ زَاوِيةٍ ضَيِّقَةٍ، هُوَ: هَلْ قَرَأْتَهُ ؟ هَلْ شَاهَدْتَهُ ؟ وَالتَّدْلِيلُ عَلى مَنِ اِحْتَوائِهَا – أَيْ الفُصولُ – عَلى بَلاغَةٍ كانَ مُسَاعدَةً مِنَّا لِلوَاهِمِينَ لِيَلْمِسُوا خَطَأَهُمْ فِي نِسبَةِ الكِتابِ إِلى البَلاغَةِ عَنْ قُرْبٍ، كَيفَ نُبَيِّنُ لِلوَاهِمِينَ خَطَأَهُمْ إِنْ لَمْ نَدْخُلْ بِهِم إِلى تِلكَ الفُصُولِ ؟ فِي يَدِنَا اليُمنَى مِصبَاحٌ كَهرَبائِيٌّ، وَفِي اليُسرَى يَدُ الوَاهِمِ الذِي يَتَبَيَّنُ طَرِيقَهُ فِي الظلَّامِ .

وَرُبَّمَا نَسِيَ البَاحثُ أَنَّهُ ليسَ المخَاطَبَ الوَحيدَ فِي مَقَالِنَا، هُناكَ الوَاهِمُونَ الذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ الكِتابَ يَنتَمِي إِلى البَلاغَةِ، وَهُناكَ البَاحِثُ الذِي يَقولُ بِأَنَّ الكِتابَ لَيسَ فِي البَلاغَةِ، هَذا هُوَ سَبَبُ التَّوَتُّرِ .

قَالَ: " وَيَتَضَاعَفُ تَوَتُّرُ الأُفُقَيْنِ ... " الرُّجوعُ إِلى أَدَبِيَّاتِ نَظريَّةِ التَّلقِّي سَيُبَدِّدُ مَا عَلَقَ بِذِهْنِ الأُستَاذِ مِنْ مُفارَقَةٍ فِي هَذا الصَّدَدِ، فَنَحْنُ نَتَلَقَّى العَملَ مَعَ مَا اِتَّصَلَ بِهِ مِنْ تَلَقِّيَاتٍ عَبرَ التَّارِيخِ: نَقْرَؤُهُ مَع الآخَرِينَ، وَنَتَفَرَّجُ علَى الأَعمَالِ التَّخْيِيلِيَّةِ، هِي الأُخرَى، مَع الآخَرِينَ، القِراءَةُ معَ الآخَرِينَ شَرْطٌ، وَالفُرْجَةُ مَعَ الآخَرِينَ فُرْجَتَانِ، مَا الغَرابَةُ فِي عَرْضِ تَلَقِّيَاتِ الكِتابِ وَتَقْوِيمَاتِهِ، عَلَى مَشْرُوعِهِ وَمُنْجَزِهِ ؟ هَذهِ مَزِيَّةٌ عِلميَّةٌ، وَليستْ نَقِيصةً، فِيما أَعلَمُ، البِنْيَويَّةُ التَّكوِينِيَّةُ مُهمَّةٌ أَيضًا فِي هَذا المجالِ[1] .

يُوَضِّحُ العُمريُّ فِي هَذا النَّصِّ مَسأَلَةً غَايةً فِي الأَهمِيَّةِ وَهِيَ أَنَّهُ لَمْ يَنْفِ عَنِ الكِتابِ بَلَاغَتَهُ، وإِنَّما نفَى أَنْ يَكُونَ الكِتابُ كِتابًا بَلَاغِيًّا، وَبينَ المسْأَلَتَيْنِ فَرْقٌ شَاسِعٌ، فَنَفْيُ البَلاغةِ عَنْ كِتابٍ مَا، تَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَستَعْمِلْ أَساليبَ البَلاغَةِ العَربيَّةِ، وبِالتَّالِي فَهُوَ كِتابٌ غَيرُ بَلِيغٍ، وَأَمَّا نَفْيُ مَوْضِعِ البَلاغَةِ فَهذَا يَعنِي أَنَّ الكِتابَ وَإِنْ كَانَ ذَا أُسلُوبٍ بَلَاغِيٍّ فَإِنَّ مَوْضُوعَهُ لَمْ يَطْرُقِ البَلاغَةَ، وَإِذا أَرَدْنَا أَنْنَزِيدَ الأَمرَ وُضُوحًا نَقولُ – عَلى سَبِيلِ المثالِ لِا الحَصرِ – مَا دَامَ فِي القَصِيدةِ بَلَاغَةٌ فَهذَا يَعنِي أَنَّ دِيوانًا

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 202 .

مَا لِأَيِّ شَاعِرٍ كَانَ، هُوَ دِيوَانٌ بَلَاغِيٌّ، وَلَكنَّنَا لَا نَجدُ فِي هذا الدِّيوانِ مَوَاضِيعَ تَدرُسُ البَلاغَةَ العَربيَّةَ، فَهُو مَجمُوعَةٌ مِنَ القَصائِدِ لَا غَيْرَ .

**يَقُولُ رَشِيدْ يَحْيَاوِي:** فَالقُراءُ وَالمتَلَقُّونَ قَوَّمُواْ الكِتابَ بِاعتِبارِهِ بَلاغَةً وَدَرْسًا أَدَبِيًّا، وَهذَا تَقوِيمٌ صَادِمٌ لِتَوَقُّعِهِ، حَتَّى أَنَّهُ تَعجَّبَ مِنْ تَلقِّيهِمْ وتَقْوِيمِهِمْ بِأَنْ عَلَّقَ بِالقَولِ: " ولله فِي " خَلقِهِ شُؤونٌ، وَلعلَّهُ بِهذَا المَوْقِفِ هُوَ مَنْ يَخيبُ أُفُقُ القُرَّاءِ فِيهِ، حِينَ وَصفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُنْخَدعُونَ، إِذْ كَيفَ يَستَقِيمُ الحَديثُ عَنْ أُفُقِ التَّوَقُّعِ ضِمنَ مَنظُورٍ تَنْمِيطِيٍّ يُلغِي فَاعِلِيَّةَ القِرَاءَةِ ؟ أَلَمْ يَكُن مِنَ المسْتَحْسَنِ أَنْ يُراعِيَ مَا سَارَ فِيهِ الخَطِّ العَامِ لِتَلَقِّيَاتِ القُرَّاءِ، وهُم مِنَ البَاحِثِينَ المتَخَصِّصِينَ ؟ [1].

يَحتَجُّ رَشيدْ يَحياوِي فِي هَذَا النَّصِ بِأُولِئكَ القُرَّاءِ البَلاغِيِّينَ الذِينَ اَطَّلَعُوا عَلى الكِتابِ وَأَثْنَوْاْ عَليهِ، بِما سَبَّبَ صَدْمَةً لِلعُمرِيِّ فَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُنْخَدِعُونَ، وهَذهِ الحُجَّةُ التِي اِحْتَجَّ بِها رَشيدْ يَحياوِي تُوَافِقُ حُجَّةَ الشَّاهدِ l'illustrationعندَ بِيرلمانْ، وَالتِي كُنَّا قَدْ تَعَرَّفْنَا عَليهَا مِنْ قَبْلُ، فَالشَّاهِدُ هُنَا هُوَ وُجُودُ قُرَّاءٍ بَلاغِيِّينَ أَكْفَاءَ اِطَّلَعُواْ عَلَى كِتابِ رَشيدْ يَحياوِي ولَمْ يَنْفُوا عَنهُ أَنهُ كِتابٌ مِنْ كُتُبِ البَلاغَةِ العَربيَّةِ .

**– رَدُّ العُمَرِيِّ:**" قَالَ: وَهَذَا تَقْوِيمٌ صَادِمٌ لِتَوَقُّعِهِ ... " نَعَمْ، صَدَقْتَ، صُدِمَ العُمريُّ بِاعتِبارِهِ مُتَخصِّصًا لَا مُجَرَّدَ قَارِئٍ، والمتوَقَّعُ أَنْ يَكونَ تَقوِيمُ الوَاهِمِينَ صَادمًا لِصاحِبِ الكِتابِقَبْلَ غَيرِهِ، فَقَدْ حَوَّلُوا أَحدَ مَشْمُولاتِ التَّبَالُغِ إِلى مُعادِلٍ لَهُ؛ وكانَ عَليهِ أَنْ يَنْصُر تَخَصُّصَهُ ويَتَمَسَّكَ بِمَا قَرَّرَهُ مِنْ أَنَّ الكِتابَ لَيسَ فِي البَلاغةِ، وَأَنّ البَلاغةَ مَوضُوعٌ مِنْ مَوْضُوعاتٍ أُخرَى كَثِيرَةٍ يَتَنَاوَلُهَا بِالتَّنسِيقِ: بَعضُهَا مَقامِيٌّ وَبعضُهَا لَا مَقَامِيٍّ[2] .

نَعمْ، قُلت: لله فِي خَلْقِهِ شُؤونٌ، وأنَا أَحتَكِمُ إِليكَ، وَأَطلُبُ إِنْصَافَكَ : أَلَا تَرى أَنَّ مِنْ هَذهِ الشُّؤُونِ العُجِيبَةِ الغَرِيبَةِ هُجُومُ طَالِبَةٍ مُبْتَدِئَةٍ، بِدونِ سَنَدٍ فِي البَلاغَةِ، عَلَى العُمرِيِّ، وَاِبْتِهَاجُ مَجمُوعَةٍ

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 203 . نقلا عن : رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية .
[2] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 203 .

مِنَ الدَّكَاتِرَةِ بِكَلَامِهَا، وَاِعْتِبَارُهُ نِهَايَةَ مَا يُقالُ فِي المَوْضُوعِ، ومِنْهُمُ الدُّكتُورُ بُو... الذِي وَجَدَهُ مُفْحَمًا [...] ثُمَّ الدُّكتُور بُرهَانْ نَاعِسْ الذِي وُجِدَتْ بَصَمَاتُهُ فِي مَسرَحِ العَبِيثَةِ، وَفِي الأَخِيرِ مُبْدِعُ التَّبَالُغِ وَالتَّبَالُغِيَّةِ، الأُستاذُ رَشيدْ يَحياوِي، الذِي اِسْتَقْوِى عَلَى العُمرِيّ بِذلِكَ الإِنْشاءِ، وَتَوَقُّعِ أَنْ يَكونَ رَادِعًا لِلعُمَرِيّ، أَلَا تَرى سَيِّدِي الأُستَاذُ أَنَّ هَذا المشْهَدَ العَبَثِيَّ يَستَحِقُّ الإِدانَةَ ؟ أَلَا يَحِقُّ لِلعُمرِيّ أَنْ يَقولَ: ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمطْلُوبُ ؟، قَبْل قَولِهِ: لله فِي خَلْقِهِ شُؤُونٌ[1] .

قَال: " وَلَعَلَّهُ بِهذَا المَوْقِفِ هُو مَنْ يَخِيبُ أُفُقُ القُرَّاءِ فِيهِ حِينَ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُنْخَدِعُونَ" أَقولُ: نَعمْ، سَيَخِيبُ أُفُقُهُمْ إِنْ كَانُوا يَعرِفُونَ العُمريَّ أَصْلًا، ويَعرِفُونَ البَلاغَةَ ضَبْطًا وَحَصْرًا، المفْتَرَضُ أَنَّ النُّبَهَاءَ المنْصِفِينَ سَيَشْكُرُونَهُ عَلى تَنْوِيرِهِمْ، أَوْ عَلى فَتْحِ بَابِ النِّقاشِ، عَلى الأَقَلِّ[2] .

قَال: " فَاعِلِيَّةَ القِرَاءَةِ"هُنا مَرْبَطُ الفَرَسِ، وَمَكْمَنُ الدَّاءِ، يَنطوِي حَدِيثُ الأُستاذِ يحيَاوِي عَنْ فَاعِلِيَّةِ القِراءَةِ، وسُلْطَةِ القِراءَةِ التِي يَنْبَغِي أَنْ يَنحَنِيَ العُمرِيُّ أَمَامَهَا، عَلَى خَطِّ مَعْرِفِيّ/ اِبْسْتِمُولُوجِيّ، بَينَ قِراءَةِ النَّصِّ الإِنْشائِيّ وَفَحْصِ العَمَلِ العِلْمِيّ المتَخَصِّصِ .

أُستاذِي الكَرِيمُ، نحنُ لَسنَا بِصَدَدِ قِراءَةِ تَخْيِيلٍ شِعرِيّ أَوْ سَردِيّ، أَوْ تَأَمُّلِ لَوْحَةٍ تَشْكِيلِيَّةٍ ... الخ، لِكيْ نَعتَبِرَ المتَلَقِّي فَاعِلًا مُشارِكًا فِي إِنْتَاجِ النَّصِّ، وَسُلْطَةٍ مِنْ سُلَطِهِ، وَمُؤَشِّرًا مِنْ مُؤَشِّرَاتِ اِتِّجَاهِهِ، نحنُ بِصدَدِ بَحثٍ عِلمِيّ تَحكُمُهُ قَواعِدُ وَنظَرِيَّاتٌ، فَلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ عَنْ نَهجِ البَحثِ العِلْمِيّ[3].

قَالَ: " الخَطُّ العَامُّ"رَحمَةُ الله عَلَى العِلمِ إِنْ صَارَ الحُكمُ فِيهِ " الخَطِّ العَامّ" (...) الحَديثُ عَنِ الخَطِّ العَامّ يَتَنَافَى مَعَ الحَديثِ عَنِ الاخْتِصاصِ، مَتَى كَوَّنَ المختَصُّونَ خَطًّا عَامًّا ؟، ثُمَّ إِنِّي لَا أَعلَمُ مِنْ بَينِ مَنْ تَحَدَّثُوا فِي الموضُوعِ مُختَصًّا وَاحِدًا فِي البَلاغَةِ، وَمِنَ اللَّجْنَةِ التِي وَشَّحَتِ الكِتابَ بِجائِزَةِ

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 203 .
[2] نفسه، ص : 203 .
[3] نفسه، ص : 204 .

المغرِبِ لَزَمَتْ صَمْتَ الأَمْوَاتِ حِينَ طَلَبْنَا مِنْهَا نَشْرَ تَقْرِيرِهَا، وَاسْتَمَرَّتْ فِيهِ حَتَّى بَعدَ صُدورِ المقالِ، لَاشَكَّ أَنَّها فِي غَايَةِ الحَرَجِ، أَوِ اللَّامُبَالَاةِ، وَهِيَ الآنَ مَعْنِيَّةٌ بِكُلِّ مَا نَكْشِفُهُ مِنِ اخْتِلَالَاتٍ وَتَنَاقُضَاتٍ فِي هَيْكَلِ الكِتابِوَقَضَايَاهُ، مَطلُوبٌ مِنَ الأُستَاذِ أَنْ يَذكُرَ هَؤلَاءِ المخْتَصِّينَ، وَيَلْتَمِسَ مِنهُمْ إِبْدَاءَ الرَّأيِ فِي جَوهَرِ المَوْضُوعِ، والسُّؤَالُ هُوَ: لِمَاذَا تَرَكَ شَهَادَةَ المخْتَصِّينَ وَرَفَعَ فِي وَجْهِنَا إِنْشَاءً مَنْصُوصًا ؟ نُرِيدُ أَنْ نُنَاقِشَ هؤُلَاءِ المخْتَصِّينَ[1].

لَقَدْ قَدَّمَ العُمريُّ خَمسَةَ رُدُودٍ عَلى حُجَّةِ يَحياوِي، تَعَلَّقَ الأَوَّلُ وَالثَّانِي بِأولَئِكَ القُرَّاءِ الذِينِ اِحْتَجَّ بِهِمْ رَشيدْ، وَأَمَّا الرُّدُودُ الثَّلاثَةُ الأُخرَى فَمُتَعَلِّقَةٌ بِرشِيد يَحياوِي نَفْسِهِ، كَما وَضَّحَ العُمرِيُّ اِسْتِشْهَادَهُ بِقولِهِ: ولله فِي خَلْقِهِ شُؤُونٌ- وَالتِي نَفَاهَا يَحياوِي- اِسْتشْهَدَ عَلى مِصْدَاقِيَّتِهَا فِي مَا اِحْتَجَّ عَليهِ، بِالطَّالِبَةِ التِي تَهَجَّمَتْ عَلى العُمرِيِّ وَقدِ اِبْتَهَجَ بِها بَعضُ الدَّكاتِرَةِ، وَهذَا مِنَ الشُّؤُونِ التِي يُسْتَغْرَبُ مِنهَا عِندَ العُمَرِيِّ، وَكُلُّ هَذهِ الحُجَجِ التِي وَظَّفَهَا العُمرِيُّ تُوافِقُ عِند بِيرلمانْ حُجَّةَ إِدْمَاجِ الجُزءِ فِي الكُلِّ، فَوُجودُ القُرّاءِ المتَوَهِّمِينَ، وَالطَّالِبَةِ المبْتَدِئَةِ، الذِينَ يُعتَبَرُونَ جُزءًا مِنْ كُلٍّ، والكُلُّ هُنا يُمَثِّلُ شَرِيحَةً كَبِيرَةً مِمَّنْ نَاصَرُوا كِتابَ يَحيَاوِي، وَمَا دَامَ القُرَّاءُ وَتلكَ الطَّالِبَةِ غَيرَ أَكْفَاءَ، فَكذَلِكَ تَكُونُ الشَّرِيحَةُ، وَمِنْ هُنا يَكُونُ الكِتابُ غَيْرَ بَلَاغِيٍّ.

وَبِهذَا القَدْرِ مِنَ الحُجَجِ نَكْتَفِي، عَلَى أَنَّهُ يَنبَغِي التَّنوِيهُ بِأَنَّ المنَاظَرَةَ لَا تَزالُ طَوِيلَةً وَقدْ طَرَقَتِ العَديدَ مِنَ المَوَاضِيعِ، كَدِرَايَةِ المَوْضُوعِ فِي ضَوْءِ نَظرِيَّةِ التَّلَقِّي، وَدِفاعِ العُمَرِيِّ عَنْ حِمَى البَلاغَةِ، ومَسْأَلَةِ كَوْنِ الكِتابِ – أَيْ التَّبالُغ والتَّبالُغيَّة – لَيسَ بَلَاغِيًّا جُزءًا أَمْ كُلًّا، ... وَغيرِ ذَلِكَ مِنَ المَوَاضِيعِ، وَكُلُّهَا مَوجُودَةٌ فِي كِتابِ المحاضَرَةِ والمنَاظَرَةِ، بِداية مِنَ الصَّفحَةِ205 إِلى الصَّفْحَةِ216، وَنحنُ لم نَشَأْ إِيرادَ المنَاظَرَةِ كُلِّهَا تَجَنُّبًا لِلإِطَالَةِ التِي لَا طَائِلَ مِنْهَا، فَهَدَفُنَا هُوَ إِثْبَاتُ وُجُودِ بَلاغَةِ المنَاظَرَةِ ضِمْنَ أَعْمَالِ العُمرِيِّ، وليسَ إِيرَادُ جَمِيعِ مُنَاظَرَاتِهِ .

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 204 .

## الفصل الثالث: دراسة تحليلية لمناهج العمري في مشروعه البلاغي الجديد

### المبحث الأول: دراسة تحليلية في المنهج البنيوي

### المبحث الثاني: دراسة تحليلية في المنهج التداولي

### المبحث الثالث: دراسة تحليلية في المنهج التاريخي

### المبحث الرابع: دراسة تحليلية في المنهج التأويلي ( نظرية التلقي )

**تَوْطِئَةٌ:** نَتَنَاوَلُ فِي هَذا الفَصلِ العَمَلَ التَّطبِيقِيَّ الخَاصَّ بِالجانِبِ الثَّانِي مِنَ الدِّراسَةِ، وَالمتَعَلِّقِ بِنَوْعِ المناهِجِ التِي طَبَّقَهَا العُمَرِيُّ، وذَلِكَ بِاعتِبارِ أَنَّ دِرَاسَتَنَا تَقُومُ عَلى جَانِبَيْنِ هُمَا: جَانِبُ التَصَوُّرِ وجَانِبُ المنْهَجِ .

هَذا وَتَجْدُرُ الإِشارَةُ إِلى أَنَّ جَمِيعِ مَا عَرَفْنَاهُ فِي الفُصولِ التَّطبِيقِيَّةِ السَّابِقةِ، مَا هُوَ إِلَّا دِراسَاتٌ تَطبِيقِيَّةٌ فِي التَّصَوُّرِ- أيْ تَصَوُّرُ العُمرِي لمشْرُوعِهِ البلاغِي-، وَلَا بَأْسَ الآنَ فِي أَنْ نُذَكِّرَ بِوجهَةِ النَّظرِ التِي قَدَّمْنَاهَا فِي هَذهِ الدِّراسةِ وهِيَ تَقسِيمُ تَصَوُّرِ العُمَرِيّ إِلى قِسمَيْنِ هُما التَّأْرِيخُ والتَّجْدِيدُ، وَأَنَّ مَشرُوعَ العُمرِيّ اِبْتَدَأَ مَعَ بِدايَاتِ البَلاغةِ العرِبيَّةِ واِكتَمَلَ - أَوْ بِالأحْرَى قَارَبَ الاكْتِمالَ - مَعَ بَلاغَةِ الخِطابِ الاحْتِمالِيّ التِي عَرَفْنَاهَا فِي الفصْلِ السَّابِقِ، وعليْهِ يَكُونُ تَصَوُّرُ العُمرِيّ جَامِعًا لِبلاغَتَيْنِ اِثنتينِ هُما البَلاغَةُ العَربِيَّةُ القَدِيمَةُ، وقَدْ قَسَّمَهَا بينَ أُصولٍ واِمْتِدادَاتٍ، والبَلاغَةُ الجَدِيدَةُ ( بَلاغَةُ الخُطبةِ، وبَلاغَةُ الشِّعرِ، وبَلاغَةُ الرِّوايَةِ، وبَلاغَةُ القِصَّةِ، وبَلاغَةُ الإِشْهارِ ... الخ، وهذِهِ الرُّؤيَةُ التِي طَرَحْنَاهَا - فِي الفَصْلِ بَيْنَ التَّأرِيخِ وَالتَّجْدِيدِ عِندَ العُمرِيّ - إِنما هِيَ اِجْتِهادٌ مِنَّا أَرْدْنَا مِنْ خِلالِهِ أَنْ نُبَيِّنَ تَمَيُّزَ المشرُوعَ البَلاغِيَّ عِند العُمرِيّ عَنْ بَقيَّةِ الرُّؤَى وَالنَّظرِيَّاتِ التَّجدِيدِيَّةِ، فالعُمرِيُّ لَمْ يَسِرْ عَلى مِنوَالِ التَّجْدِيدِ النَّمطِيّ المعرُوفِ، وَالذِي يَعْمدُ إِلى اِسْتِكْمَالِ مَسارِ الدِّراسَةِ أيًّا كَانتْ هَذهِ الدِّراسَةُ، عَنْ طَرِيقِ البَحثِ فِي نَقائِصِهَا وَهَفَوَاتِهَا، وَمَا إِلى ذَلكَ، أَمَّا العُمريُّ فَقدْ عَمَدَ إِلى الرُّجوعِ لِلوَرَاءِ، أَيْ لِبِدَايَاتِ البَلاغَةِ العَربيَّةِ - وقَامَ بِإِعطَاءِ نَظرَةٍ خَاصَّةٍ بِه حَوْلَ تِلكَ البِدايَاتِ، وَكانَ لَهُ تَقْسِيمُهُ الخَاصُّ لمراحِلِ تَارِيخِ البَلاغَةِ العَربيَّةِ، وبعدَ هَذا اِنْتَقَلَ إِلَى تَجدِيدِ البَلاغَةِ وِفْقَ مَناهِجَ غَربيَّةً حَدِيثَةً، وَمِنْ خِلالِ قِراءَتِنَا المتَواضِعَةِ لِعَمَلِ العُمرِيّ، واِطِّلَاعِنَا عَلَى قِراءاتٍ أُخرَى فِي ذَاتِ المَوْضُوعِ [*]، حَاوَلْنَا تَقَصِّيَ أَهمّ المنَاهِجِ التِي اِنْبَنَى عَليهَا مَشْرُوعُ العُمري فَوجَدْنَا أَنَّها لَا تَخْرُجُ عَنْ أَرْبَعةٍ وَهِيَ : المنهَجُ البِنيَوِي، والمنْهَجُ التَّداوُلِي، والمنْهَجُ التَّارِيخِي، ونظَرِية التَّلقِي، وسَنرَى كَيفِيَّةَ تطبِيقِ هاتِهِ فِيمَا نُقَدِّمُهُ بَينَ ثَنَايَا هَذَا الفَصْلِ .

[*] من الدراسات التي تطرقت إلى المنهج عند العمري، مقال بعنوان " تلقي النص البلاغي عند مُحَمَّد العمري " للدكتورة اِبتسام ابن خرّاف .

**المبْحَثُ الأَوَّلُ: تَطْبِيقُ المنْهَجِ البِنْيَوِيّ**: إِنَّ أَكثرَ المَنَاهِجِ حُضُورًا فِي أَعمَالِ العُمَرِيّ – كَمَا سَبَقَتِ الإِشَارَةُ – هِيَ المَنَاهِجُ الثَّلاثَةُ البِنيَوِيُّ، والتَّداوُلِي، ونَظرِيَّةُ التَّلقِّي، يَعْزوهَا المنْهَجُ التَّارِيخِي، وسَنَبدَأُ الآنَ بِالمنْهَجِ البِنْيَوِي، الذِي يَتجَلَّى لَنَا مِنْ خِلالِ عَديدِ الأَمثِلَةِ الوَارِدَةِ فِي تِلكَ الأَعمَالِ، وهِيَ فِي أَغلَبِهَا إِمَّا خُطَبٌ، أَوْ أَشْعَارٌ، اِقْتَصَرْنَا فِيهَا عَلى مِثالَيْنِ اِثْنَينِ هُمَا:

1- تَحلِيلُ العُمرِي لِبيتٍ شِعرِيّ لِلمُتَنَبِّي، فِي كِتابِهِ المَوَازَناتُ الصَّوتِيَّةُ فِي الرُّؤيَةِ البَلَاغِيَّةِ .

2- تَحلِيلُ الأَمثِلَةِ الوَارِدةِ فِي كِتابِ أَبِي عُبَيْدَةَ فِي كِتابِهِ البَلاغَةُ العَرَبِيَّةِ أُصُولُهَا وَاِمْتِدادَاتِهَا .

لَكِنْ لَابُدَ مِنْ تَوْضِيحِ الطَّرِيقَةِ التِي يَعتَمِدُ عَليهَا النُّقَّادُ فِي دِراسَةِ النُّصوصِ الأَدَبِيَّةِ وِفْقَ آلِيَّاتِ المنْهَجِ البِنْيَوِي، حَتى يَتَسَنَّى فَهْمُ عَمَلِ العُمرِيّ فِي هَذا الشَّأنِ، وعَلَيهِ فَإِنَّنَا سَنَنْطَلِقُ مِنَ السُّؤَالِ التَّالِي: كَيفَ نُثْبِتُ أَنَّ العُمرِي اِسْتخَدْمَ المنْهَجَ البِنيَوِي ؟ .

إِنَّ أَصحابَ المنْهجِ البِنيَوِيّ يَنطَلِقُونَ مِنْ فِكرَةٍ أَساسٍ، وَهِيَ أَنَّ النَّصَ عِبَارَةٌ عَنْ بِنْيَةٍ مُغْلَقَةٍ، ولَا يُمكِنُ تَفسِيرِهِ مِنَ الخَارِجِ، وَالخارِجُ المقْصُودُ هُنَا هُوَ البِيئَةُ ( أَوِ المجتَمَعُ )، كَما هُو الحَالُ عِندَ أَنصَارِ المنْهَجِ الاجْتِمَاعِيّ، وَهُوَ أَيْضًا – أَيْ الخَارِجُ – مَا يُقصَدُ بِهِ نَفسِيَّةُ المبْدِعِ، كَمَا هُوَ الحَالُ لَدى أَصحَابِ المنْهجِ النَّفْسِيّ، فَتَأْثِيرُ المجْتَمَعِ وَتَأْثِيرُ عِلمِ النَّفسِ مُسْتَبْعَدَانِ كُلِيًّا فِي هَاتِهِ الدِّرَاسَةِ .

وَتفْسِيرُ النُّصوصِ وِفْقَ آلِيَّاتِ المنْهَجِ البِنْيَوِيّ يَعتَمِدُ عَلى تَفْكِيكِ مُكَوِّنَاتِ النَّصِ إِلى جُمَلٍ، وَتَراكِيب، وَأَصْوَات، وَصَرْف، وَبَلَاغَة، وغَيرِ ذَلكَ مِنَ العُلُومِ ...، وَمِنْ هُنا يَعمَدُ أَصْحَابُ هَذا المنْهَجِ إِلى الكَشْفِ عَنْ مَجمُوعَةٍ مِنَ المسْتَوَيَاتِ اللُّغَوِيَّةِ المرْتَبِطَةِ .

**مِثَالٌ تَوْضِيحِيٌّ**: مِنْ الأَمثِلةِ التي يُمكِنُ الاعْتِمَادُ عَليهَا فِي تَوْضِيحِ آلِيَّاتِ تَطبِيقِ المَنْهَجِ البِنيَوِيّ، مَا قَامَ بِهِ النَّاقِدُ المغرِبِيُّ مُحَمَّد مفتاحٌ فِي تَحلِيلِ قَولِ الشَّاعِرِ[1]:

وَاِسْتَرْجَعَتْ مِنْ بَنِي سَاسَانَ مَا وَهَبَتْ  وَلَمْ تَدَعْ لِبَنِي يُونَانَ مِنْ أَثَرِ

أَوَّلًا: اِعْتبَرَ النَّاقِدُ مُحَمَّد مفتاحْ هَذا البَيتَ الشِّعرِيَّ، عِبارَةً عَنْ بِنْيَةٍ مُغْلَقَةٍ لَا يمكِنُ تَفسِيرُهَا مِنَ الخَارِجِ، وَإِنمَا مِنَ الدَّاخِلِ .

ثَانِيًا: قَامَ بِتحدِيدِ المسْتوَيَاتِ التَّركِيبِيَّةِ، وَهِيَ: المسْتَوَى المعْجَمِي، المسْتَوَى الصَّوْتِي، المسْتَوَى الصَّرفِي .

**1/– المُسْتَوَى المُعْجَمِي**: لَاحظَ النَّاقِدُ أَنَّ لَفظَةَ " وَاِسْتَرْجَعَتْ " مُساوِيَةٌ مِنْ حَيْثُ المعْنَى والدِّلَالةِ لِلَفْظَةِ " وَلَمْ تَدَعْ "، بِمعنَى أَنَّنِي عِندمَا أَقُولُ لَكَ : أَعْطَيْتُكَ شَيْئًا، ثُمَّ اِسْتَرْجَعْتُهُ، فَإِنَّ هَذا يُساوِي قَولِي لَك : أَعَطَيْتُكَ شَيْئًا، ثُمَّ لَمْ أَدَعْكَ تَأْخُذُهُ " .

**2/– المُسْتَوَى الصَّوْتِي**: لَاحَظَ النَّاقِدُ أَنَّ لَفظَةَ " مِنْ بَنِي " مُساوِيةٌ، مِنْ حَيثُ الصَّوتُ، لِلَفْظَةِ " لِبَنِي " .

**3/– المُسْتَوَى الصَّرْفِي**: لَاحَظَ أَنَّ لَفظَةَ " سَاسَانْ " تُساوِي لَفظَةَ " يُونَانْ "، فِي الصِّيغَةِ، وَهِيَ " فَعْلَان " .

**4/– مُسْتَوَى تَرْتِيبُ الكَلِمِ**: لَاحَظَ أَنَّ عِبَارَةَ " مَا وَهَبَتْ " مُساوِيَةٌ لِعِبارَةِ " مِنْ أَثَرٍ "، وَإِنْ كَانَ قَدِ اِسْتَدْرَكَ أَنَّ " وَهَبَتْ " فِعْلٌ، وَ" أَثَرٍ " اِسْمٌ .

[1] هو للشاعر الأندلسي ابن عبدون، ينظر : ابن بدرون، شرح قصيدة ابن عبدون، تح : رَيْنْحَرْتْ دُزِي، مطبعة الأخوين لُتْتَمَنْسْ، مدينة ليدن، سنة 1836م، ص : 23 .

إِذَنْ، فَمِنْ خِلالِ دِراسَةِ المسْتوَيَاتِ المخْتَلفَةِ يُبَيِّنُ النَّاقِدُ مُحَمَّد مفتاح، أَنَّ مَا وَقعَ فِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ لهذَا البَيْتِ الشِّعرِيّ، يُساوِي مَا وَقَعَ فِي شَطرِهِ الثَّانِي، كَذلِكَ أَنَّ مَا وَقَعَ لِبَنِي سَاسَانْ هُوَ نَفْسُهُ مَا وَقَعَ لِبَنِي يُونَانَ، أَيْ أَنَّهُ أَرادَ التَّحدُّثَ عَنْ حَالِ كُلٍّ مِنهُمَا، فَوَازَنَ فِي ذَلكَ بَينَ التَّحدُّثِ عَنْ بَنِي سَاسانَ فِي الشَّطرِ الأَوَّلِ، وَبنِي يُونَانَ فِي الشَّطرِ الثَّانِي، مِنْ جَمِيعِ الجَوانِبِ وَالمسْتَوَيَاتِ، وبَنُو سَاسانَ هُمُ الفُرْسُ، وبَنُو يُونانَ هُمُ اليُونَانُ، فَبالنِّسبَةِ إِليهِ أَنَّ حَضَارَةَ اليُونانِ كَانتْ قَدِ اِزْدَهَرَتْ وَوَصَلَتْ إِلى القِمَّةِ ثُم اِنْهَارَتْ، وكذلِكَ حَضارَةُ الفُرسِ فَقدْ وَصَلَتْ هِيَ الأُخرَى إِلى القِمَّةِ ثُمَّ اِنْهَارَتِ .

ومَا يَهُمُّنَا نحنُ هُوَ أَنَّ النَّاقِدَ قَامَ بِاسْتِخْلَاصِ دِلالَةِ البَيتِ مِنْ خِلالِ تَفْكِيكِ بِنْيَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ، فَهُوَ لَا يَعتَمِدُ أَيَّ عُنصُرٍ مِنْ خِارجِ النَّصِّ، وَذلكَ لِكَيْ يُبَيِّنَ جَمالِيَّةَ هَذا البَيتِ الشِّعرِيّ وَدْلَالَتَهُ .

وَقَدِ اِعْتَمَدْنَا هَذا المِثالَ، فَقطْ لِكَيْ نُبيِّنَ طِريقَةَ الكَشفِ عَنْ تَوظِيفِ المْنهَجِ البِنيَوِيّ لَدى هَذا النَّاقِدِ أَوْ ذَاكَ، وأَمَّا عِندَ العُمرِيّ فَإِنَّ عَمَلَنَا سَيكُونُ مَعَ المثَالَيْنِ المذْكُورَيْنِ آنِفًا .

**المثَالُ الأَوَّلُ: تَحْلِيلُ العُمَرِي لِبَيْتٍ شِعْرِيٍّ لِلْمُتَنَبِّي، فِي كِتَابِهِ المَوَازَنَاتِ الصَّوْتِيَةِ فِي الرُّؤْيَةِ البَلَاغِيَّةِ:**

يَقُولُ المتَنَبِي: [1]

نَصِيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

وَهذا البَيتُ ذَكَرَهُ المتَنَبِّي فِي قَصِيدَةٍ رَثَى بِها وَالِدَةَ سَيفِ الدَّولَةِ، وَقَدْ تُوُفِّيَتْ سَنةَ سَبعٍ وثَلاثِينَ وَثَلاثِمائَةٍ، وَأَنْشدهُ إِيَّاهَا فِي جُمادَى الآخِرَةَ، مِنَ السَّنَةِ نَفْسِهَا، وَهِيَ قَصِيدَةٌ اِحْتَوَتْ عَلى

[1] عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، تح : د. يوسف الشيخ مُحَمَّد البقاعي، ص : 70 .

خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ بَيْتًا، وهِيَ التِي يَقُولُ فِيهَا [1]:

وَمَا التَّأْنِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلَا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِلَالِ

وهُوَ بَيْتٌ مِنْ أَشْهرِ أَبْيَاتِ المتنَبِّي الذِي أَضحَى مَثَلًا فِيمَا بَعدُ .

وَقَدِ اِعْتَمَدَ العُمرِيُّ فِي تَحليلِهِ هَذَا المنْهجَ البنيَوِي الذِي قَامَ عَلَى إِثْرِهِ بِتَتَبُّعِ بِنْيَةِ البَيتِ، وَرَصْدِ الأَلفَاظِ التِي تَتَشابَهُ مِنَ الأَلفَاظِ التِي تَتَنَاقَضُ فِي المعنَى وَالنُّطقِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، دُونَ إِغْفَالٍ لِلْجَانِبِ الصَّوتِي التِي يَأخُذُ هُوَ أَسَاسَ بِنْيَةِ كُلِّ قَصِيدَةٍ كَمَا هُوَ مَعرُوفٌ، يَقولُ العُمرِيُّ : " فَالنَّظْرَةُ الشُّمُولِيَّةُ إِلى البَيْتِ ككُلٍّ، تَسمَحُ بِتمْيِيزِ بِنْيَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ إِحدَاهُمَا مُوَافِقَةٌ، وَالثَّانِيةُ مُخَالِفَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَى الأُولَى، بِنْيَةُ المؤَافَقَةِ هِيَ: الشَّطْرُ 1 : نَصِيبُكَ فِي ... مِنْ .../ الشَّطر 2 : نَصِيبُكَ فِي ... مِنْ ...، وَبِنْيَةُ المخَالَفَةِ هِيَ: ... حَيَاتُكَ ... حَبِيبٌ / ... مَمَاتُكَ ... خَيَالٌ، فَالبِنْيَةُ الأُولَى تُشَكِّلُ أَرضِيَّةً تَسعَى إِلى زَرْعِ السُّكونِ فِي البَيْتِ، فِي حِينِ تُكَوِّنُ البِنْيَةُ الثَّانِيةُ تَحرِيكًا وَخَلْخَلَةً لِذلِكَ السُّكُونِ، ومِنْ هَذهِ المخَالَفَةِ تَنْشَأُ الفَاعِلِيَّةِ الإِيقَاعِيَّة "[2] .

لَقدْ مَيَّزَ العُمرِيُّ كَمَا هُوَ مُلاحَظٌ بَينَ بِنْيَتَيْنِ تَشَكَّلَ مِنهُمَا البَيتُ، بِنْيَةٌ تَهْتَمُّ بِالجانبِ العَرُوضِيِّ، وتُوَظِّفُ نَفسَ الكَلِماتِ، وَهِيَ: " نَصِيبُكَ فِي " عَلَى وَزْنِ " مُفَاعَلَتُنْ "، التِي أَوْرَدَهَا المتَنَبِّي فِي بِدايَةِ كُلِّ شَطْرٍ مِنْ شَطرَيِّ البَيتِ الشِّعرِيِّ، لِيُحَقِّقَ بِذلِكَ تَنَاغُمًا فِي الوَزنِ وَجَمالِيَّةً فِي الصَّوتِ، وَبِنْيَةً أُخرَى هِيَ أَيْضًا تَهْتَمُّ بِالجانِبِ العَرُوضِيِّ غَيرَ أَنَّهَا لَا تُوَظِّفُ نَفسَ الكَلِمَاتِ، بَلْ تَجعلُ لِكُلِّ كَلمَةٍ مَا يُنَاقِضُهَا ، "حَيَاتُكَ " ≠ " مَمَاتُكَ " / "حَبِيبٌ " ≠ " خَيَالٌ " .

وَلقدْ أَشارَ العُمَرِي إِلى أَنَّ الشَّاعِرَ مَا وَظَّفَ تِلكَ الكَلِمَاتِ المتَنَاقِضَةِ إِلَّا لِوُجُودِ مُوَافَقَةٍ ضِمْنِيَّةٍ بَينَ كُلِّ كَلِمَةٍ وَأُخرَى، أَيْ أَنَّ التَّنَاقُضَ هُنَا لَيسَ هُوَ كُلَّ شَيءٍ فِي طَبِيعَةِ العَلاقَةِ بَينَ

[1] عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ص : 76 .

[2] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص : 25 .

الكَلِماتِ، وَإِنَّمَا تَنَاقُضٌ يَشتَرِطُ وُجودَ تَناسُبٍ وَتَوافُقٍ قَبْلِيٍّ، هَذا التَّنَاسُبُ الذِي يَشرَحُهُ العُمرِيُّ مِنْ خِلالِ عَلاقَةِ الحَياةِ بِالحبِيبِ، وَعلاقَةِ النَّوْمِ بِالخَيَالِ، فَكَأَنَّ الحَيَاةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ التِي يَمُدُّهَا لَنَا الحَبِيبُ، وكَأَنَّ الخَيالَ الفِعْلِيَّ هُوَ الذِي يَكُونُ أَثناءَ النَّوْمِ فَقطْ، وهَذا التَّحلِيلُ يَجْعَلُهُ العُمَرِيُّ ضِمنَ الانْتِقالِ مِنَ العُمُومِ إِلى الخُصُوصِ، أَيْ أَنَّ التَّحلِيلَ الأَوَّلَ الذِي اِهْتَمَّ بِالبِنْيَةِ وَأَضْدَادِ الأَلفَاظِ هُوَ العَامُّ، وَأَمَّا هَذا فَهُوَ التَّحْلِيلُ الخَاصُّ وَالأَكثَرَ عُمْقًا وَدِلالَةً، وَفِي هَذا يَقُول العُمَرِيُّ : " أَمَّا إِذَا اِنْتَقَلْنَا مِنَ العُمومِ إِلى الخُصوصِ فَسَنَجِدُ فِي بِنْيَةِ الاختِلَافِ – فِي مُستَوَى بِنَائِهَا الدَّاخِلِيَّ – تَشَاكُلَيْنِ: الحَياةُ وَالحَبِيبُ (و) النَّومُ وَالخَيَالُ، فَهُناكَ إِذنْ مُوَافَقَةٌ بَينَ الحَياةِ وَالحُبِّ، وَبينَ النَّوْمِ والخَيالِ " [1].

وَمَا يَلبَثُ العُمرِيُّ أَنْ يَكشِفَ عَنْ عَلاقَةٍ أُخرَى تَتَمَثَّلُ فِي المخَالَفَةِ بَينَ الأَلفَاظِ الأَرْبَعَةِ، الحَياةُ، والنَّومُ، والحَبِيبُ، وَالخيالُ، ذَلكَ أَنَّ الحَيَاةَ تُخالُفَ النَّومِ بِاعتِبارِ النَّوْمِ مَوْتٌ مُؤَقَّتٌ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ [ سورة الزمر: 42 ]، ثُمَّ اِخْتلَافُ الحَبيبِ مَعَ الخَيالِ، وهُوَ المتَمثِّلِ فِي أَنَّ الحَبِيبَ هُوَ الكَائِنُ الحَيُّ الذِي يَمْثُلُ أَمَامَنَا لِتكُونَ عَلاقَتُنَا بِهِ عَلاقَةً طَبِيعِيَّةً وَاقِعِيَّةً خَالِيَةً مِنَ الأَوْهَامِ، أَمَّا الخَيالُ فَيُعطِينَا حَبِيبًا آخرَ وَإِنْ كَانَ بِنَفْسِ صُورَةِ الحَبِيبِ الحَقِيقِيِّ، إِلَّا أَنَّ مَعهُ المبَالَغاتِ وَالأَوْهَامُ التِي لَا صِلَةَ لَها بِالوَاقِعِ، وَعلَى هَذَا الأَساسِ يَقُولُ العُمرِيِّ: " وَهناكَ مُخالَفَةٌ قَوِيَّةٌ بَينَ الحَياةِ وَالنَّوْمِ، بِاعتِبارِ النَّوْمِ أَخًا لِلْمَوْتِ، كَمَا هُوَ شَائِعٌ بَينَ النَّاسِ، فَهُمَا بِهذَا الاعْتِبَارِ ضِدَّانِ، وَمُخالَفةٌ يُقَوِّيهَا السِّيَاقُ بَينَ الحَبِيبِ وَالخَيالِ "[2] .

بَعدَ دِراسَتِهِ لِلجَانِبِ المعْجَمِيِّ الدِّلالِي، يَذهَبُ العُمرِيُّ إِلَى الجَانِبِ الصَّوْتِي، الذِي يَتَنَاوَلُ فِيهِ نَفسَ الكَلِماتِ وَهِيَ: حَيَاتُكَ، مَنَامُكَ، حَبِيبٌ، خَيَالٌ، الأَوَّلاَنِ عَلَى وَزْنِ " مُفَاعِلْ "، وَالثَّانِيَانِ

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص : 25 .

[2] نفسه، ص : 25 .

عَلَى وَزنِ " فَعُولٌ "، وَهُوَ مَا أَوْرَدَهُ ضِمنَ جَدْولٍ تَحلِيلِيٍّ كَشَفَ فِيهِ المَوَازَنَةَ الصَّوْتِيَّةَ التِي بَينَ الأَلْفَاظِ، وَالمَوَازَنَةَ التَّرصِيعِيَّة أَيْضًا، كَمَا أَشَارَ إِلى اِهْتِمَامِ الشَّاعِرِ بِالمقَابَلَةِ بَينَهَا، يَقُولُ: " ثُمَّ هُنَاكَ مُوَازَنَةٌ صَوْتِيَّةٌ تَرْصِيعِيَّةٌ ( وَتَقْطِيعِيَّةٌ وَزْنِيَّةٌ )، يُمكِنُ تَشْخِيصُهَا عَلى الشَّكْلِ التَّالِي:

| | |
|---|---|
| حياتك : ح ي – ت – ... ك – | = مفاعل |
| منامك : م ن – م – ... ك – | = مفاعل |
| حبيب (ن) : ح – ب ...– ...– | = فعول |
| خيال (ن) : خ – ي .– ...– | = فعول |

فَهنَاكَ نُزُوعٌ شَديدٌ إِلى المَوَافَقَةِ الزَّمَنِيَّةِ الكَمِيَّةُ القَائِمَةُ عَلى التَّرْصِيعِ وَالوَزنِ، وَهُناكَ مُخَالَفَةٌ مُؤَزَّمَةٌ تَضْطَلِعُ بِها الصَّوامِتُ التِي تُرِيدُ أَنْ تَصِلَ إِلى أَقْصَى دَرَجَاتِ الاخْتِلافِ، وَلا نُرِيدُ أَنْ نَتَجَاوَزَ هَذَا الحَدَّ لِلرَّبْطِ بَينَ بِنْيَةِ المقَابَلَةِ وَمَضمُونِ البَيتِ، فَذلِكَ جَلِيٌّ "[1] .

**المثَالُ الثَّانِي : تَحْلِيلُ العُمَرِيِّ الأَمْثِلَةَ الوَارِدَةَ فِي كِتَابِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فِي كِتَابِهِ " البَلَاغَةُ العَرَبِيَّةُ أُصُولُهَا وَاِمْتِدَادَاتُهَا "**: لَقَدْ قَامَ العُمريُّ فِي تَحلِيلِهِ لِلأَمْثلَةِ الوَارِدةِ فِي كِتابِ اِبْنِ قُتَيْبَةَ بِتقْسِيمِ تِلكَ الأَمثِلَةِ عَلَى خَمْسَةِ أَقسَامٍ، جَسَّدَ مِنْ خِلالِهَا آلِيَّاتِ المْنهَجِ البِنيَوِيِّ، يَقُولُ العُمرِيُّ : " بَعدَ عَملِيَّةِ اِسْتِقْصَاءٍ لِلْأَمْثِلَةِ الدَّالَّةِ ( بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الشُّرُوحِ المعْجَمِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ المرَادِفِ أَوِ التَّفْسِيرِ ) بَدَا لَنَا أَنَّ إِشْكَالَاتِ المجازِ عِندَ أَبِي عُبَيْدَةَ تَندَرِجُ فِي الخَانَاتِ التَّالِيةِ: 1- تَدَاخُلُ الضَّمَائِرِ وَتَبَادُلُ المَوَاقِعِ، 2- اِخْتِلافُ أَوْجُهِ الإِعْرابِ وَالقِراءَاتِ، 3- اِسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي غَيرِ مَوْقِعِهِ المتَوَقَّعِ، وَمُخَالَفَةُ ظَاهِرِ القَولِ، 4- الزِّيادَةُ والنُّقصَانُ فِي تركِيبِ الكَلامِ، 5- النَّقْلُ وَالإِلْحَاقُ الدِّلالِي "[2] .

يُقِرُّ العُمريُّ بِأَنَّ الأَمثِلَةَ الوَارِدَةَ فِي كِتابِ اِبْنِ قُتَيْبَةَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَلِذلِكَ فَهُوَ يَقْتَصِرُ عَلى أَهَمِّهَا فَقَطْ، دُونُ الحَاجةِ إِلى ذِكْرِ البَقِيَّةِ، عَلَى أَنهُ يَترُكُ لِلقَارِئِ حُرِيَّةَ الاسْتِنْبَاطِ، وَالتَّأْوِيلِ، وَحَتَّى اِكْتِشَافَ بَعضِ الأَمْثِلَةِ الأُخرَى، التِي تَصُبُّ فِي ذَاتِ القَالَبِ، " نَظرًا لِطَبِيعَةِ الأَمثِلَةِ وَالتعَّلِيقَاتِ،

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ص : 26 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 96 .

وحَتَّى نُشرِكَ القَارِئَ فِي عَمليَّةِ التَّأمُّلِ، لَعلَّهُ يَستَنْبِطُ مَا خَفِيَ عَنَّا، نُورِدُ أهَمَّ الأَمثِلَةِ الوَارِدَةِ عِندَ أَبِي عُبيْدَةَ وَالتِي سَيَكُونَ لِأَكْثَرِهَا حُضُورٌ فِي الجُهودِ البَلاغيَّةِ اللاحِقَةِ "[1]، وَسَنَتَتَبَّعُ المجَالاتِ الخَمسِ التِي ذَكَرَهَا العُمرِيُّ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، ليَتَجلَّى لَنا كَيْفَ طبَّقَ العُمرِيُّ المنهَجَ البِنيَوِيَّ فِي هَاتهِ الدِّراسَةِ .

**1- تَدَاخُلُ الضَّمَائِرِ وَتَبَادُلُ المَوَاقِعِ**: تَناوَلَ العُمرِيُّ فِي هَذا المجَالِ، خَمسَةَ أَنْوَاعٍ يَتعَلَّقُ النَّوعُ الأَوَّلُ بِتَبادُلِ المَوَاقعِ بَينَ الضَّمائِرِ، وَيَتَعَلَّقُ الثَّانِي بِالإِخبَارِ عَنْ أَحدِ الطَّرفَيْنِ، أَوْ أَحدِ الأَطْرَافِ وَحدَهُ أَوِ العَكْسُ، أيْ ذِكْرُ مَجمُوعَةٍ مِنَ الأَشيَاءِ المتَشابِهَةِ تِبَاعًا، ثُمَّ حَصْرُ النَّتِيجَةِ علَى وَاحِدٍ مِنهَا فَقَطْ، بِاعتِبَارِ أَنَّ تَشَابُهَهَا يُوحِي بِتَشَابُهِ نَتائِجِهَا، وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّالِثُ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِاسْتِعْمَالِ كَلِمَةٍ مُؤَنَّثَةٍ وَوَصْفِهَا بِوَصْفِ المذَكَّرِ أَوِ العَكْسُ، وَأَمَّا النَّوعُ الرَّابِعُ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمخَاطَبَةِ الغَائبِ مُخاطَبَةَ الشَّاهدِ أَوِ العَكسُ، وَهذَا مَا يُسَمِّيهِ عُلمَاءُ البَلاغةِ بِأسلُوبِ الالْتِفَاتِ *، وَأَمَّا النَّوْعُ الخَامسُ وَالأَخِيرُ فَهُوَ المتَعَلِّقُ بِتَوْظِيفِ الكلِمَةِ التِي تَدُلُّ عَلى المفْرَدِ والجَمْعِ مَعًا، كَكَلِمَةِ " فَلَكْ "، وَلقدِ اِسْتَشْهَدَ العُمرِيُّ لِكُلِّ هَذهِ الأَنواعِ الخَمسةِ بِأمْثِلَةٍ مِنَ القرآنِ الكَرِيمِ، تَنَاوَلَهَا اِبْنُ قُتَيْبَةَ فِي مُؤَلَّفِهِ، يَقُولُ العُمَرِيُّ: " تَتَضَمَّنُ هَذهِ المقُولَةُ عِدَّةَ ظَواهِرَ مِنْهَا:

أ- تَبادُلُ المَوَاقِعِ بَينَ المفْرَدِ وَالمثَنَّى وَالجَمْعِ، وقَدِ اِستَعْمَلَ أَبُو عُبيدَةَ لِلدِّلَالَةِ علَى هَذَا الانْزِياحِ، عِبَارَةَ المَوْضِعِ " ( فِي مَوْضِعِ ) "، أَو مَا يُفيدُ ذَلِكَ، مِثَال: اِسْتِعْمَالُ الآيَةِ الكرِيمةِ :ثُخْرِجُكُمْ طِفْلًا [ غافر : 67 ]، وهَذَا هُوَ النَّصُّ المنْجَزُ، وَأَمَّا المفْتَرَضُ مِعْيَارِيًا فَهُوَ: فِي مَوْضِعْ أَطْفَالًا .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 96 .

* الالتفات هو أسلوب بلاغي مستعمل في اللغة العربية، ويعني نقل الكلام من وجهة إلى أخرى، من ضمير المتكلم إلى المخاطب، أو العكس، ومن المخاطب إلى الغائب، وهكذا . والالتفات في اِصلاح البلاغيين هو التحويل في التعبير الكلامي من اِتجاه إلى آخر . ينظر الرابط : https://ar.wikipedia.org/wiki/

ب- الإِخْبَارُ عَنْ أَحدِ الطَّرَفَيْنِ أَوِ الأَطْرَافِ وَحدَهُ أَوِ العَكسُ، وَمثالُ ذَلكُ: اِسْتِعْمَالُ الآيَةِ الكرِيمَةِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ [ التوبة : 24 ] وَالنَّصُّ المفْتَرَضُ هُوَ: وَلَا يُنْفِقُونَهُمَا .

جـ- وَصْفُ المذَكَّرِ بِوَصْفِ المؤَنَّثِ، وَمثالُهُ: اِسْتِعْمَالُ الآيَةِ الكرِيمةِ ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ [ المزمل : 18 ]، وَتخرِيجُ أَبِي عُبَيْدَةَ هُوَ: جَعْلُ السَّماءِ بَدَلًا مِنَ السَّقْفِ بِمنْزِلَةِ تَذكِيرِ سَماءِ البَيتِ .

د- مُخاطَبَةُ الغَائِبِ مُخَاطَبَةَ الشَّاهِدِ وَالعَكسُ، وَقدِ اِسْتعْمَلَ فِيهِ عِبارَةَ " مَجَازُهُ "، وَمِثالُ ذَلِكَ: اِسْتِعْمَالُ قولِهِ تَعَالى: الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ [ البقرة : 01 ] وَهذَا هُوَ النَّصُّ المنْجَزُ، أَمَّا النَّصُّ المفْتَرَضُ فَهُوَ: مَجَازُهُ هَذَا الكِتَابُ .

هـ- مِمَّا يُمكِنُ إِدْخَالُهُ فِي بَابِ الضَّمائِرِ، اللَّفظُ المشْتَرَكُ بَينَ الإِفرَادِ وَالجمْعِ، وربَّمَا ذَكرَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ لِمَا يُثيرُهُ – أَو لِمَا قَدْ يُثِيرُهُ – مِنْ لُبْسٍ، وَمِثالُ ذَلكَ: اِسْتِعمَالُ قَولِهِ تَعالَى : حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ [ يونس : 22 ] وهذَا هُو النَّصُّ المنْجزُ، أَمَّا تَخرِيجُهُ عِندَ أَبِي عُبيدَةَ فَهُوَ: الفُلْكُ جَمِيعٌ وَوَاحِدٌ ".[1]

**2- اِخْتِلَافُ أَوْجُهِ الإِعْرَابِ وَالقِرَاءَاتِ:** يُبَيِّنُ العُمريُّ أَنَّ هَذا الاخْتِلافَ إِنَّمَا جَاءَ " لِأَسْبَابٍ تَتَعَلَّقُ بِاجتِهادٍ فِي فَهْمِ النَّسقِ النَّحْوِيّ أَوْ بِتَأْوِيلٍ لِلمَقْرِوءِ نَتِيجَةَ عَدَمِ دِقَّةِ الخَطِّ "[2]، وَلقدِ اِسْتشَهْدَ علَى ذلِكَ بِمثَالَيْنِ، يَتَمثَّلُ الأَوَّلُ فِي الإِشْكالِ النَّحوِيّ، وَيَتمثَّلُ الثَّانِي فِي الإِشكَالِ النُّقَطِي أَيْ وَضْعُ النُّقَطِ، " كَمَا يُفْهَمُ مِنَ الأمثِلَةِ التَّالِيةِ:

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 96، 98 .

[2] نفسه، ص : 98 .

أ- الإِشْكَالُ النَّحوِيُّ، وَمثالُهُ اِسْتِعْمَالُ قَولِهِ تَعالَى: سُورَةٌ أَنزَلْنَهَا وَفَرَضْنَهَا [ النور : 01 ] وَهذَا هُوَ النَّصُّ المُنْجَزُ، وَأَمَّا تخرِيجُ أَبِي عُبَيدَةَ فَهُوَ: " رَفْعٌ وَنَصْبٌ *" [1]، فَالنَّحوُ هُنا يَظْهَرُ فِي الكَلمَةِ الأُولَى " سُورَة " هَل تُقْرَأُ بِالضَمّ على أَنَّها مُبتَدَأٌ، أَمْ تُقرأُ بِالفَتْحِ، علَى أَنَّها مَفعُولٌ بِهِ أَيْ: أَنْزَلْنَا سُورَةً .

ب- الإِشْكَالُ الطِّبَاعِيُّ ( النَّقْطُ وَالشَّكْلُ )، وَمِثَالُهُ اِسْتِعمَالُ قَولِهِ تعَالى ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۚ ﴾ [ السجدة : 10 ] وَهُوَ المُنْجَزُ فِي القِراءَةِ الرَّاجِحَةِ، وَأَمَّا القِراءَةُ المحْتَمَلَةُ، فَهِيَ: قَرَأَ بَعْضُهُمْ: " أَ إِذَا ضَلَلْنَا ... صَلَلْنَا، أَنَتْنَا "[2]، وَالإِشكالُ الطِّباعِيُّ بَيِّنٌ هُنَا، وَيُعنَى بِه نَقطُ الحُروفِ مَا يمكِّنُ مِنْ تَغَيُّرِ المعْنَى .

**3- اِسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي غَيْرِ مَوْقِعِهِ المتَوَقَّعِ، وَمُخَالَفَةُ ظَاهِرِ القَوْلِ:** نَأْتِي الآنَ إِلى مَا يُشبِهُ أُسلُوبَ الالْتِفاتِ الذِي ذَكَرْنَاهُ آنِفًا، غَيرَ أَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالضَّمائِرِ وَتَحْوِيلِهَا مِنَ الغَائِبِ إِلى الحَاضِرِ، أَوْ مَا شَابَهَ ذَلكَ، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالانْعِطافِ فِي الكَلامِ وَتَحوِيلِ مَجرَاهُ إِلى أَمرٍ غَيرِ مُتَوَقَّعٍ تمَامًا، وَيقُولُ العُمَرِيُّ بِأَنَّ اِبْنَ قُتَيْبَةَ قَدْ عَمِلَ عَلى تَوْضِيحِ مِثلِ هَذهِ الأَمثِلَةِ وَشَرْحِهَا بِاسْتِعمَالِ عِبارَةِ ( مَعْنَاهُ كَذَا ) أَوْ عِبارَةِ ( مَجَازُهُ كَذَا ) " .

أ- اِسْتَعْمَالُ الأَلفَاظِ ( الأَدَوَاتِ ) فِي غيرِ المتَوَقَّعِ، ومِثالُ ذَلكَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ ﴾ [ البقرة: 26 ] ، وهذَا هُوَ النَّصُّ المنجَزُ، وأَمَّا المتَوَقَّعُ - عِنْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ - فَهُوَ: " مَعنَاهُ: فَمَا دُونَهَا "[3] .

---

* إما أن تُقرأ : " سورةٌ "، أو : " سورةً " .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 98 .

[2] نفسه، ص : 99 .

[3] نفسه، ص : 99 .

وَبالإِضَافَةِ إِلى اِسْتِعْمَالِ الأَلفاظِ فِي غَيرِ المتَوَقَّعِ، تَطرَّقَ العُمريُّ أَيضًا إِلَى جَانِبٍ آخَرَ وَهُوَ مُخَالَفَةُ ظَاهِرِ القَولِ، كَإِخْرَاجِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ مَعناهُ الأَصلِي، مُسْتَشْهِدًا عَلى ذَلكَ بِما تَوفَّرَ لَديْهِ مِنَ الآيَاتِ القُرآنِيَّةِ .

ب- مُخَالَفَةُ ظَاهِرِ القَوْلِ (خُرُوجُ الاستِفهَامِ عَنْ معناهُ الأَصْلِي )، وَمِثالُ ذلِك قَولُهُ تَعالَى: " أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَهذا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفظِ، وفَحْوَى القَولِ هُوَ: " مَعْنَاهُ: مَعنَى الإِيجَابِ أَيْ أَنَّكَ سَتَفعَلُ فِيهَا "[1] .

**4- الزِّيَادَةُ وَالنُّقْصَانُ فِي تَرْكِيبِ الكَلَامِ:** وفِيمَا يَلِي نَتَطَرَّقُ إِلى القِسمِ الرَّابِعِ وَهُوَ المتضَمِّنُ مَعنَى الزِّيادَةِ وَالنُّقصَانِ فِي تَرْكِيبِ الكَلامِ، وقدْ قَسَّمَهُ العُمريُّ إِلى قِسمَيْنِ هُوَ الآخَرُ، تَنَاوَلَ فِي القِسمِ الأَوَّلِ جَانبَ التِّكرَارِ مِنْ أَجلِ التَّوْكِيدِ أَوِ التَّأكِيدِ عَلى الكَلامِ، مُستَدِلًّا عَلى ذَلكَ بِقِصَّةِ سَيِّدِنَا يُوسُف الصِدِّيقِ عليه السَّلامُ، وأَمَّا القِسمُ الثَّانِي فَتَنَاوَلَ فِيهِ جَانِبَ الاخْتِصارِ وَالحَذفِ، وَالذِي اِسْتَدلَّ عَليهِ بِحَالِ المؤمِنِينَ حِينَ تَسْتَقْبِلُهُمُ الملَائِكَةُ عِندَ دُخُولِهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

أ- التِّكْرَارُ لِلتَّوْكِيدِ: وَمِثالُهُ اِسْتِعْمَالُ قَولِهِ تعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: 04] وَهذَا هُوَ النَّصُّ المنْجَزُ، وَأَمَّا التَّعلِيقُ فَهُوَ: " أَعَادَ الرُّؤْيَةَ "[2]، علَى أَنَّنَا نَتَوَقَّفُ عِندَ هَذَا المثَالِ الذِي أَوْرَدَهُ اِبْنُ قُتَيْبَةَ وَالذِي زَعَمَ فِيهِ أَنَّ تَقدِيرَ الكَلامِ، فِيمَا يَخُصُّ نَبِيَّ الله يُوسُفُ عليهِ السَّلامُ، أَنَّهُ أَعَادَ الرُّؤيَةَ، أَيْ رَأَى أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، ثُمَّ رأَى الشَّمسَ، ثُمَّ رَأَى القَمَرَ كُلُّهُمْ لَهُ سَاجِدِينَ .

وأَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالقِسمِ الثَّانِي، المتَضَمَّنِ الاخْتِصَارَ وَالحَذْفَ فَهُوَ كالآتِي:

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 100 .

[2] نفسه، ص : 100 .

ب- الاخْتِصَارُ وَالحَذْفُ: " مَجَازُ المحْتَصَرْ الذِي فِيهِ ضَمِيرٌ "، وَمِثالُ ذَلكَ اِسْتِعْمَالُ قَولِهِ تَعالَى: وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ [ الأنبياء : 103 ] وَهَذَا هُوَ النَّصُّ المنْجَزُ، وَأمَّا تَأوِيلُ المحذُوفِ، فَهُوَ: " وَيَقُولُونَ هَذَا يَوْمُكُمْ "[1]، وَهُنا يُشيرُ اِبْنُ قُتَيْبَةَ إِلَى أَنَّ الآيَةَ حَذَفَتْ كَلِمَةَ " يَقُولُونَ " مِنْ أَجْلِ الاخْتِصَارِ فِي الكلَامِ .

**5- النَّقْلُ وَالإِلْحَاقُ الدِّلَالِيَّانِ:** نَأتِي الآنَ إِلى القِسْمِ الخَامسِ وَالأَخِيرِ مِنْ أَقسَامِ تَحْلِيلِ العُمريّ لِأَمْثِلَةِ اِبْنِ قُتَيْبَةَ، وَفِي هَذا القِسمِ يَتَنَاوَلُ العُمريُّ ثَلاثَةَ مَجالَاتٍ، الأَوَّلُ يَدرُسُ التَّداخُلَ بَينَ عَوالِمَ ثَلاثٍ هِيَ عَالَمُ الإِنسانِ، وَعَالَمُ الحَيَوانِ، وَعَالَمُ النَّبَاتِ؛ وَالثَّانِي يَدرُسُ أُسْلُوبَا التَّشبِيهِ وَالتَّمثِيلِ؛ والثَّالِثُ يَدرُسُ أُسلُوبَ النَّقلِ، مُستَدِلًّا عَلى كُلِّ وَاحِدٍ مِنهَا بِما يُناسِبُهُ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ .

**أ- التَّدَاخُلُ بَينَ عَالَمِ الإِنْسَانِ وَعَالَمِ الحَيَوَانِ وَالمَوَاتِ:** وَمِثالُ ذَلكَ اِسْتِعْمَالُ قَولِهِ تَعالَى: ﴿٤﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ [ يوسف : 04 ] وهَذَا هُوَ النَّصُّ المنْجَزُ، وأمَّا وَجْهُ النَّقْلِ فَهُوَ مَجَازُهُ مَجَازُ مَا جَاء فِي لَفْظِ خَيرِ الحَيَوَانِ وَالمَوَاتِ عَلى لَفْظِ خَيرِ الإِنسَانِ "[2]، وَمعْنَى ذَلِكَ أَنَّ السُّجُودَ يَقْتَصِرُ فِيمَا هُوَ مَعلُومٌ عِندَنَا عَلَى الإِنسَانِ وَحْدَهُ، لَا علَى الجَمادِ كالشَّمسِ، وَالقَمَرِ، وَالكَوَاكِبِ .

**ب- التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلِ ( إِلْحَاقٌ ):** وَمِثالُ ذَلِكَ اِسْتِعْمَالُ قَوْلِهِ تَعالَى: شَفَا جُرُفٍ هَارٍ [ التوبة : 109 ] ، وَهَذَا هُوَ النَّصُّ المنْجَزُ، وَأَمَّا الوَجْهُ البَلَاغِيُّ فَهُوَ: " مَجَازٌ التَّمْثِيلُ "[3]، وَالتَّمْثِيلُ هُنَا يَتجَلَّى فِي وَصْفِ حَالِ العَرَبِ قُبَيْلَ الإِسْلَامِ فَقَدْ كَانُوا عَلى مَقرُبَةٍ مِنَ الهَلَاكِ عَنْ طَرِيقِ الأُمَمِ الأُخْرَى كَالفُرسِ وَالرُّومِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الاقْتِتَالِ فِيما بَيْنَهُمْ، حَتَّى جَاءَ الإِسلَامُ فَأَعَزَّهُمْ وَآوَاهُمْ وَنَصَرَهُمْ .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 100 .

[2] نفسه، ص : 101

[3] نفسه، ص : 102

**جـ- النَّقْلُ بِسَبَبِ الملاَبَسَةِ وَالتَّجَاوُرِ**: وَمِثالُهُ اِسْتِعْمَالُ قولِهِ تَعالَى: ﴿١٧١﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ [ البقرة: 171] ، وَأَمَّا التَّخرِيجُ فَهُوَ: " التَّحْوِيلُ مِنَ المفْعُولِ (الشَّاةُ ) إلى الفَاعِلِ ( الرَّاعِي )، لِوُجودِ سَببٍ أَيْ ( عَلاقَةٍ ) [1]، وَمعنَى هَذا أَنَّ كَلِمَةَ " يَنْعِقْ " تَخُصُّ الشَّاةَ وكَلِمَةَ " يَسْمَعْ " التِي تُفِيدُ هُنا السَّماعَ بِقَصْدِ الفَهْمِ، تَخصُّ الإِنسانَ لَا الحَيوانَ، غَيرَ أَنَّ الآيَةَ الكَرِيمةَ قَدْ جَمعَتْ بَينَ مَا يَخُصُّ الحَيوَانَ وَمَا يَخُصُّ الإِنسَانَ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، فَكانَ هَذَا نَقْلًا بِسَبَبِ المجَاوَرةِ بَينَ اللَّفْظَتَيْنِ .

هَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالمنهَجِ البِنْيَويِّ الذِي اِعتَمَدَ عَليهِ العُمرِي كَثيرًا فِي تَحلِيلِ الأَمثِلَةِ وَالشَّوَاهِدِ، وغَيرِهَا ...، وَلقدِ اِعْتَمَدْنَا فِي هَذا العَملِ عَلى مِثالَيْنِ فَقطْ، تَجَنُّبًا لِلْإِطَالةِ .

**المبْحَثُ الثَّانِي: تَطْبِيقُ المنْهَجِ التَّارِيخِي**: كَمَا هُوَ مَعلُومٌ فَإِنَّ المنْهَجَ التَّارِيخِيَّ لَا يَهتَمُّ بِاللُّغَةِ الشِّعرِيَّةِ أَوِ الظواهِرِ البَلاغيَّةِ، أَوِ الأَساليبِ التِي يَتْبَعُهَا هَذا الأَديبُ أَوْ ذَاكَ، وَإِنَّمَا يَرْمِي إِلى البَحثِ فِي العَوامِلِ التِي أَثَّرَتْ فِي كِتابَةِ هَذا النَّصِّ، وَهِيَ عَوامِلُ فِي أَغْلَبِهَا ثَقافِيَّةٌ، أَوْ سِياسِيَّةٌ، أَوْ بِيئِيَّةٌ، إِضافَةً إِلى التَّطرُّقِ لِحَيَاةِ المؤَلِّفِ الخَاصَّةُ، كَسَنَةِ الميلادِ، وَسَنةِ الوَفاةِ، وَأَهَمِّ شُيُوخِهِ، وَأَهَمِّ تَلَامِذَتِهِ وَمَا إِلى ذَلِكَ ... الخ .

وَسَنُحاوِلُ فِي هَذا المبْحَثِ أَنْ نَتَتَبَّعَ كُلَّ مَا تَوفَّرَ لَدَيْنَا مِنْ مُؤَلَّفَاتِ العُمرِيِّ، وَنَقْتَطِفَ مِنهَا مَا يُشيرُ إِلى اِسْتِخْدَامِهِ المنْهَجَ التَّارِيخِي فِي التَّحلِيلِ، مُوَزِّعِينَ الدِّراسَةَ عَلى حَسَبِ آلِيَّاتِ هَذا المنْهَجِ وهِيَ: حَياةُ هذَا المؤَلِّفِ أَوْ ذَاكَ، العَوامِلُ الثَّقافِيَّةُ وَالعِلمِيَّةُ، العَوامِلُ السِياسِيَّةُ .

فِي حَديثِهِ عَنِ عِالِمَي اِلبَلاغَةِ الجَلِيلَيْنِ، الجُرجَانِيُّ وَالخَفَّاجِيُّ، كَان العُمرِيُّ قَدِ اِسْتَعْمَلِ آلِيَّاتِ المنْهجِ التَّارِيخِي، وَلعلَّ ذَلكَ رَاجِعٌ لِطبِيعةِ الوَضعِ الذِي عَاشَا فِيهِ، فَقدْ كَان الصِّراعُ عَلى أَشُدِّهِ بَينَ المعْتَزِلةِ وَالأَشَاعِرَةِ، وكَانَ لِذَاك تَأثِيرٌ جَلِيٌّ عَلى دِراسَةِ كُلٍّ مِنهُمَا، وَمما يُمكِنُ أَنْ نَسْتَدِلَّ بِه قَولُهُ: " كَانَ المتنُ البَلاغِيُّ الذِي تَلَقَّاهُ الجُرجَانِيُّ واِبْنُ سِنانٍ الخَفَّاجِيُّ، وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمَا، كالنَّهرِ الذِي جَمَعَ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 102.

رَوافِدَ قَادِمَةً مِنْ جُغْرَافِيَّاتٍ وَطُوبُوغْرَافِيَّاتٍ شَدِيدَةِ التَّنَوُّعِ، كَانتْ حَصِيلَةَ خَمْسَةِ مَسارَاتٍ مِنَ البَحثِ عَنْ أَسرَارِ الكَلامِ المخْتَلِفِ، بَلِ التَّمَيُّزِ المؤَثِّرِ بِتَمَيُّزِه، تَبحثُ عَنْ مَصَبٍّ، كَانَ الجُرجَانِيُّ وَاعيًا بِطبِيعةِ السُّؤالِ وَجَوْهَرِهِ غَيرَ مُقْتَنِعٍ بما قَدَّمَهُ مَنْ سَبَقُوه مِنْ أَجْوِبَةٍ، طَامِحًا إِلى تَفْسِيرٍ مِثْل الذِي يَقَعُ فِي الصَّنائِعِ التِي تَظهَرُ فِيهَا الأُسْتَاذِيَّةُ، وَيَنفَعُ فِيهَا التَّعَلُّمُ مِثلَ الحِيَاكَةِ ... "[1]، وَفِي هَذا النَّصِّ يَكونُ العُمريُّ قَدْ كَشَفَ عَنْ بَعضِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ حَالَةُ كُلٍّ مِنَ الخَفَّاجِي وَالجُرجَانِي، مِنَ النَّاحِيَةِ العِلمِيَّةِ، أَوْ بِالأَحرَى الظُرُوفِ الثَّقَافِيَّةِ التِي سَادَتْ عَصْرَهُمَا وَكَانَ لهَا تَأْثِيرُهَا علَى تَوَجُّهِهِمَا البَلاغِيِّ، وتِلكَ هِيَ غَايَةُ المنهَجِ التَّارِيخِيِّ فِي البَحثِ وَالاسْتِقصَاءِ .

وَأَمَّا عِندَ القَزوِينِي فَقدْ أَشارَ العُمرِيُّ إِلى فَصْلِ هذَا الأَخِيرِ بَينَ عُلومِ البَلاغَةِ المطْرُوقَةِ فِي كِتابِ المفتَاحِ لِلسَّكَاكِي، رَابِطًا هَذا الفَصْلَ بِمَا آلَتْ إِليهِ حَالُ الدِّرَاسَاتُ البَلاغِيَّةُ فِي ذَلكَ الوَقتِ وَالتِي كَانَتْ فِي أَمَسِّ الحَاجَةِ إِلى الفَصْلِ الذِي جَاء بِهِ القَزوِينِي وَمِنْ ثَمَّ التَّلخِيصُ، فَلمْ تَعُدِ الحَالةُ الثَّقَافِيَّةُ وَلَا العِلمِيَّةُ تُسْعِفُ البَاحِثِينَ عَلى إِنْتَاجِ أَعمَالٍ كَالتِي جَاءَ بِها الجُرجَانِيُّ مَثَلًا، وَفِي هَذا يَقُولُ العُمريُّ: " قَامَ القَزوِينِي لَاحِقًا بِفصْلِ الموادِّ البَلاغِيَّةِ فِي كِتابِ المفْتَاحِ عَنْ نَسَقِهَا، غَيرَ عابِئٍ بِأَثَرِ مُقْتَضَيَاتِ اِسْتْرَاتِيجِيَّةِ السَّكَاكِي فِيهَا، وَقامَ بِدَوْرِهِ بِتَخْلِيصِهَا مِنْ مَجمُوعَةٍ مِنَ التَّحلِيلَاتِ المنْطِقيَّةِ التِي أَقْحَمَهَا السَّكَاكِي، وَكَانَ الغَرَضُ مِنَ التَّلخِيصِ فِي ذَلكَ الوَقْتِ حِفْظَ الملَخَّصِ، وَقَدْ يُنْظَمُ لِيَسْهُلَ حِفْظُهُ، كَما فَعَلَ أَصحَابُ البَديعِيَّاتِ، وَلذلِكَ يُبادِرُ الشُّيوخُ المدَرِّسُونَ إِلَى إِنْجازِ شُرُوحِ عَلى الملَخَّصِ، وَأَوَّلُ مَنْ شَعَرَ بِالحاجَةِ إِلى الشَّرحِ هُوَ الملَخِّصُ نَفْسَهُ، فَأَنجَزَهُ وَسَمَّاهُ: الإِيضَاحُ، ودُرِّسَ الإِيضاحُ وَمَا زَالَ يُدرَّسُ إِلى اليَومِ، لَا يُنَافِسُهُ إِلَّا المطوَّلُ لِلتَّفْتَازَانِي "[2]، وَفِي هَذا مَا يَدُلُّ علَى أَنَّ البَلاغَةَ العَرَبِيَّةَ مُنذُ عَهدِ القَزْوِينِي لَمْ تَشهَدْ نَقْلَةً حَقِيقِيَّةً وَتَطَوُّرًا مَلحُوظًا إِلى يَوْمِنَا هَذا عَلَى الرَّغمِ مِنْ مُحاوَلاتِ التَّجدِيدِ التِي أَشَرْنَا إِليهَا فِي مَدخَلِ هَذِهِ المذَكِّرَةِ، وَكَأَنَّ العُمرِيَّ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَفِزَّ

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 14 .

[2] نفسه، ص : 21 .

البَاحِثَ العَرَبِيَّ نَحوَ المضِيّ قُدُمًا لِتجدِيدِ البَلاغَةِ وَتَطوِيرِهَا حَتَّى تَكُونَ عَلى شَاكِلَةِ بَلاغَةِ الجُرجَانِي والخَفاجِي، لَا عَلَى شَاكِلَةِ بَلَاغَةِ القَزْوِينِي وَالتَّفْتَازَانِي .

وَمِنَ الشَّوَاهِدِ الدّالَّةِ عَلى تَطبِيقِ المنْهجِ التَّارِيخِيّ فِي دِراسَاتِ العُمرِيّ، حَدِيثَهُ عَنِ البَلاغةِ فِي عَهْدِ اِبْنِ المعْتَزّ وَقُدَامَةَ بْنَ جَعْفَرٍ، مُشيرًا بِذلكَ إِلى طَبِيعَةِ الصّرَاعِ الذِي كَانَ آنَ ذَاكَ بَينَ القَديمِ وَالحدِيثِ، وَإِلَى تَجَاذُبِ الدّرَاسَاتِ بَينَ مَا هُوَ نَقْدِيٌّ وَما هُوَ بَلَاغِيٌّ، فَلم يَكنِ الأَمرُ فِي تِلكُمُ الفَترَةِ قدْ حُسِمَ بَعدُ فِي إِمكَانِيَّةِ الجمْعِ بَينَ البَلاغَةِ وَالنَّقْدِ، أَوْ فِي تِبيَانِ أَنَّ هَذهِ الدّرَاسَةَ نَقْدِيَّةٌ وَتلكَ بَلاغِيَّةٌ، فَقدْ كَانَ المؤَلّفُ يُقدّمُ دِراسَتَهُ دُونَ أَنْ يُبَيّنَ أَهِيَ بَلاغَةٌ أَمْ نَقْدٌ ؟، وَلكنْ مَعَ تَطَوُّرِ الدّرَاسَاتِ تَبَيَّنَ مَا هُوَ نَقدِيٌّ ممَّا هُوَ بَلَاغِيٌّ، وَفِي هَذا يَرَى العُمرِيُّ بِأَنَّ عَمَلَ اِبْنِ المعْتَزّ عَمَلٌ بَلَاغِيٌّ حَتَّى وَإِنْ كَانَ مُتَأَثّرٌ بِصرَاعِ القُدمَاءِ مَعَ المحدَثِينَ، ذَلكَ الصّرَاعُ الذِي أَخَذَ طَابِعًا نَقدِيًّا، أَوْ وُصِفَ فِيمَا بَعدُ بِأَنَّهُ قَدْ أَخذَ الطَّابِعَ النَّقدِيَ، كَما يَرَى العُمريُّ أَيضًا بِأَنَّ عَمَلَ قُدامَةَ عَمَلٌ نَقدِيٌّ حَتَّى وَإِنْ وَظَّفَ فِيهِ مَوَادًّا بَلاغيَّةً، فـ" قَدْ يُغرِي تَداخُلُ البَلاغِيّ والنَّقدِيّ فِي بَعضِ مَراحِلِ الدَّرسِ الأَدبِيّ العربِيّ القَدِيمِ بِإِنْكارِ هُوِيَّةِ هذَا أَوْ ذَاكَ، بِقَلِيلٍ مِنَ التَّأوِيلِ أَوْ بِدُونِهِ، وَهذَا طَرِيقٌ سَهلٌ، والأَصعَبُ مِنهُ وَالأَجْدَرُ بِالتَّبَنّي هُوَ اِعْتِمَادُ التَّطوُّرِ التَّارِيخِيّ الرَّاصدِ لِأَوْجُهِ التَّدَاخُلِ وَالتَّخارُجِ فِي اِتِّجاهِ تَكَوُّنِ العُلومِ وَتَحْقِيقِ هَوِيَّتِهَا، فَنَحْنُ لَا نَدَّعِي أَنَّ الملَاحَظَاتِ الأُولَى حَولَ النَّصّ الشِّعرِيّ القَدِيمِ مُلاحَظاتٌ مُسَجَّلَةٌ وَمَحْفُوظَةٌ، مُنذُ البِدايَةِ، لِلبَلاغَةِ أَوْ لِلنَّقْدِ الأَدَبِي حَتَّى قَبْلَ وُجودِهِمَا عِلْمَيْنِ مُسْتَقِلَّيْنِ ( ... ) اِعْتِبَارَا لِذلِكَ، فَإِنَّ العَمَلَ الذِي قَامَ بِه اِبْنُ المعْتَزّ هُوَ عَمَلٌ بَلَاغِيٌّ حَتَّى وَإِنْ جَازَ أَنْ يُقالَ عَنِ القَضيَّةِ التِّي حَرَّكَتْهُ ( الصِّرَاعُ بَينَ القُدماءِ وَالمحدَثِينَ ) إِنهَا قَضِيَّةٌ نَقدِيَّةٌ، وَعَمَلُ قُدامَةَ بَنَ جَعْفَرٍ عَملٌ نَقدِيٌّ ( لِأَنَّهُ يُقدّمُ تَركِيبًا وَنَسَقًا تَفسِيرِيًّا ) حَتى وَإِنْ كَانَتْ مَوَّادُّهُ الأَساسِيَّةُ بَلاغِيَّةً "[1]، أَيْ أَنَّ كُلًّا مِنْ قُدامَةَ وَابْنِ المعْتَزّ لَمْ يُبَيّنَا نَوعِيَّةَ العَملِ الذِي قَامَا بِهِ، أَهُوَ نَقدِيٌّ أَمْ هُوَ بَلَاغِيٌّ ؟ لَيسَ ذَلكَ عَنْ دِرايَةٍ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا عَنْ غَيرِ دِرايَةٍ لِأَنَّ طَبِيعَةَ الثَّقافَةِ وَالعُلومِ فِي

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 41 .

عَهْدِهِمَا لَمْ تَكُنْ تُفرِّقْ بَينَ المؤَلَّفاتِ النَّقدِيَّةِ وَالبَلاغيَّةِ تَمامَ التَّفرِيقِ، مِما يَجعَلُنَا نُؤَكِّدُ علَى أَنَّ العُمريَّ اِسْتَخْدَمَ المنْهَجَ التَّارِيخيَّ فِي دِرَاسَتِهِ .

وَلازِلْنَا نَتَتَبَّعُ بَعضَ النُّصوصِ التِي وَرَدَ فِيها مَا يُشيرُ عَلى اِعْتِمادِ العُمرِيّ عَلى آلِيَّاتِ المنْهَجِ التَّارِيخِيّ، وَمنهَا حَدِيثُهُ عَنِ الجانِبِ الإِنسَانِيّ أَوْ كَمَا يُسَمِّيهِ هُوَ المحتَوى الإِنْسَانِي، وَهُوَ المؤَثِّرَاتُ الخَارِجِيَّةُ التِي تَتَجَاذَبُ النَّصَ الأَدَبِي عَلى الخُصُوصِ وَالمؤَلَّفَاتِ عَلى العُمومِ، وَتكُونُ هَاتِهِ المؤَثِّرَاتِ بَعيدَةً عَنْ مُتَنَاوَلِ المؤَلِّفِ وَمُشْتَرِكَةً لَدَى كَافَّةِ البَشَرِ، كَما هُوَ الحَالُ مَعَ عَملِ أَبِي تَمَّامٍ، الذِي رَبَطَهُ العُمريُّ بِالعناصِرِ المشتَرَكَةِ بَينَ النَّاسِ، وَهِيَ عِندَهُ – أَيْ العُمريُّ – مَجمُوعَةً مِنَ القِيَمِ وَالمبَادِئِ، فَلَقَدْ تَحدَّثَ العُمريُّ عَنِ المحتَوى الإِنسَانِي لِاخْتِيَارِ أَبِي تَمَّامٍ قَائِلًا: قَصَدْنَا بِالإِنْسَانِي، فِي اِخْتِيَارِ أَبِي تَمامٍ مَزِيجًا مِنَ العَناصِرِ المشْتَرَكَةِ بَينَ النَّاسِ بِاعتِبَارِهَا قِيَمًا وَمُثُلًا يُطْمَحُ إِلَيْهَا، أَوْ وَقَائِعَ فَنِيَّةً مُشْتَرَكَةً بَينَ بَنِي البَشرِ، مَرَدُّهَا إِلَى ثَلاثَةِ عَنَاصِرَ:

أ– البِنَاءُ الفَنِّي البَلاغِي الذِي يَصِلُ قَمَّتَهُ فِي صُوَرِ السُّخْرِيَّةِ .

ب– العَمْقُ الفِكْرِي فِي تَأَمُّلُ الكَونِ وَالإِنْسَانِ وَما يَنْتَابُ الوُجُودَ مِنْ مُفارَقَاتٍ .

جـ– القِيَمُ الأَخلَاقِيَّةُ وَالمزَايَا البَشرِيَّةُ مِثلَ الكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ .

لَقَدْ تَأَمَّلْتُ – يَقُولُ العُمَرِيُّ – اِخْتِيَارَ أَبِي تَمَّامٍ كَثِيرًا، وَقَارَنْتُهُ بِما أَمْكَنَ الاطِّلَاعُ عَليهِ مِنْ دِيوَانِ الشِّعرِ العَرَبِيّ القَدِيمِ فَلَاحَظْتُ أَنَّ مِيزَتَهُ الأَسَاسِيَّةَ كَامِنَةٌ فِي اِسْتِحْضَارِ هَذهِ العَناصِرِ، وَحِفْظِ التَّوازُنِ بَينَهَا لِدَرَجَةٍ يَلتبِسُ فِيهَا بَعضُهَا بِبَعْضٍ "[1]، وَالمحتَوى الإِنسَانِيُّ الذِي يَعْنِيهِ العُمرِيُّ شَبِيهٌ كُلَّ الشَّبَهِ بِالعَوامِلِ الثَّقَافِيَّةِ التِي يَهتَمُّ بِها التَّحلِيلِ وِفْقَ المنْهَجِ التَّارِيخِي .

كَذلِكَ هُوَ الشَّأنُ فِي حَديثِ العُمرِيّ عَنْ مُؤَلَّفٍ آخَرَ مِنْ مُؤلَّفَاتِ البَلاغةِ العَربيَّةِ هُوَ مَجَازُ القُرآنِ لِأَبِي عُبيدَةَ، فَقَدْ تَوَقَّفَ العُمريُّ طَوِيلًا عِندَ مَسأَلَةٍ جَوهَرِيَّةٍ هُنَا، وَهِيَ عَلاقَةُ المجَازَ بِاللِّسانِ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 73، 47 .

العَرَبِيّ، مُعْتَبِرًا أَنَّ اِبْنَ عُبَيْدَةَ نَفْسَهُ لَو لَمْ يَكُنْ مُتَأَثِّرًا بِفِكْرَةِ حُلولِ المَجَازِ فِي أَغْلَبِ الكَلَامِ العَرَبِيّ، وَمَلَاحَظَتَهُ لِهذَا الأَمرِ، لَمَا عَمِلَ عَلى تَأْلِيفِ كِتَابِهِ هَذَا، وَبِالتَّالِي يَكُونُ العُمرِيُّ قَدْ عَمَدِ إِلى آلِيَّةٍ مِنْ آلِيَّاتِ المنْهجِ التَّارِيخِي فِي اِسْتِنْبَاطِ النَّتَائِجِ، وَهُوَ يَرى بِأَنَّ مَجازَ القُرآنِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ " يُمَثِّلُ عَمليَّةَ الغَرْبَلَةِ المنْهجِيَّةِ الأُولَى التِي سَتَسْمَحُ بِاسْتِخْرَاجِ مَجمُوعَةٍ مِنْ المقُولاتِ البَلاغيَّةِ بِقَدْرِ مَا تَسْتَخْرِجُ مَتْنًا مِنَ الأمثِلَةِ التِي سَتَكونُ لَاحِقًا مَوْضُوعًا لِلتَّأَمُّلِ البَلاغِيّ ثُمَّ التَّسمِيَةِ وَالتَّعْرِيفِ؛ وَيُعتبَرُ كِتابُ مَجازِ القُرآنِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ أَقدَمَ وَأَوْسَعَ مُحاوَلَةٍ لِمَدِّ الجُسُورِ بَينَ النَّصِ القُرآنِيّ وَالعَرَبِيَّةِ، عَبرَ النَّصِ الشِّعرِي وَتَقالِيدِ القَولِ العَرِبي، ذَلكَ الجِسرُ الذِي سُمِّيَ: " المَجَازُ " .

المنْطَلَقُ المنْهَاجِيُّ لِأَبِي عُبَيْدَةَ هُوَ أَنَّ القُرآنَ بِلسَانِ العَرَبِ وَبِتَقَالِيدِهِمْ فِي القَولِ: " إِنَّمَا أُنْزِلَ القُرآنُ بِلِسَانِ العَرَبِ، فَلَمْ يَحْتَجِ السَّلَفُ، وَلَا الذِينَ أَدْرَكُوا وَحْيَهُ ﷺ أَنْ يَسْأَلُواْ عَنْ مَعَانِيهِ، لِأَنَّهُمْ عَرَبُ الأَلْسُنِ، فَاسْتَغْنَوْا بِعِلْمِهِمْ بِهِ عَنِ المسْأَلَةِ عَنْ مَعَانِيهِ، وَعَمَّا فِيهِ مِمَّا فِي كَلَامِ العَرَبِ مِثله مِنَ الوُجُوهِ وَالتَّلْخِيصِ، وَفِي القُرآنِ مَا فِي الكَلَامِ العَرَبِيّ مِنْ وُجُوهِ الإِعْرَابِ وَمِنَ الغَرِيبِ وَالمعَانِي "[1]، وَبهذَا النَّصِ المسْتَلّ مِنْ مُؤَلَّفِ أَبِي عُبَيْدَةَ نَفْسِهِ، نَتَأَكَّدُ يَقِينًا مِنْ تَطْبِيقِ العُمرِيّ لِلْمَنْهَجِ التَّارِيخِي .

إِنَّ تَطبِيقَ آلِيَّاتِ المنهَجِ التَّارِيخِي فِي مُؤَلَّفاتِ العُمرِيّ كَثِيرٌ جِدًّا، وَقَدْ لَمِسْنَاهُ فِي أَكثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ، كَحَدِيثِهِ عَنْ حَالِ البَلاغةِ العَربيَّةِ فِي القَرنِ الثَّالثِ الهِجرِيّ، وَالتِي كانتْ فِيهَا الظُّروفُ مُوَاتِيَةً لِتَغَلْغُلِ عِلمِ الكَلامِ وَفَرْضِهِ نَفْسَهُ عَلى السَّاحةِ، مِمَّا أَثَّرَ عَلى مَسارِ الدِّراسَاتِ البَلاغِيَّةِ، فَ" لَقَدْ أَحَسَّ البَاحِثُونَ فِي كلامِ الله – كمَا يَقُول العُمريُّ – خِلالَ القَرنِ الثَّالثِ الهِجريّ، أَنَّ الأَسئِلَةَ المطْرُوحَةَ لَا يمكِنُ أَنْ تَجِدَ جَوَابًا كَافيًا فِي المعَالجَةِ اللُّغوِيَّةِ مَهمَا بَلَغَتْ مِنَ العُمْقِ (...) وَعُمُومًا فَإِنَّ عِلمَ الكَلامِ قَدْ أَدَّى، مِثْلَ النَّحْوِ، إِلَى البَحْثِ فِي الخُصُوصِيَّةِ البَلَاغِيَّةِ لِلنَّصِّ القُرْآنِيّ، فَسَاهَمَ بِطَرِيقَةٍ غَيرِ مُبَاشِرَةٍ فِي تَطَوُّرِ السُّؤَالِ البَلَاغِيّ، إِذْ هُوَ عَلَى العُمُومِ، كَمَا نَعْلَمُ، يَبْحَثُ فِي ذَاتِ الله وَصِفَاتِهِ،

[1] أبو عبيدة، مجاز القرآن، تح: مُحَمَّد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى 1374هـ-1954م، ص: 08 .

وَاِحْتِجَاجٍ لِلْعَقِيدَةِ بِالنَّظَرِ العَقْلِيّ "[1]، أَيْ أَنَّ عِلمَ الكَلامِ حَتَّى وَإِنْ كَان قَدْ غَلَبَ عَليهِ الطَّابِعُ الفَلسَفِيُّ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُكَيَّفًا وِفْقَ آلِيَّةٍ بَلاغِيَّةٍ تَخدِمُ القُرآنَ وَالسُنَّةَ بِشَكْلٍ أَوَّلِيّ .

إِنَّ حَديثَ العُمريَّ عَنْ عِلمِ الكَلامِ هُوَ حَديثٌ عَنِ الحَالَةِ الفِكرِيَّةِ التِي كَانَتْ تَعُجُّ بِهَا المَنْطِقَةُ العَرَبِيَّةُ فِي ذَاكَ العَصْرِ، وَكَانَ لَهَا تَأْثِيرُهَا المُبَاشِرُ عَلى البَلاغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَلَم يَكُنْ إِيرَادُ العُمريّ لِهذَا الأَمرِ عَلَى سَبِيلِ الاعْتِبَاطِ، وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الدِّرَاسَةِ وَالتَّحلِيلِ وِفْقَ آلِيَّاتِ المَنْهَجِ التَّارِيخِيّ دَائِمًا .

لَقَدْ كَانَ المَنْهجُ التَّارِيخِيُّ حَاضِرًا بِقُوَّةٍ فِي المَنْهجِيَّةِ التِي اِتَّبَعَهَا العُمريُّ أَثناءَ التَّحلِيلِ، وَبِهذَا فَليسَ مِنَ المَعْقُولِ أَنْ نَتكَلَّمَ عَنْ هَذا المَنْهَجِ، وَعنْ حُضُورِهِ عندَ العُمرِيّ، دُونَ التَّوَقُّفِ عِندَ أَحَدِ أَهَمِّ أَعلَامِ البَلاغَةِ العرَبِيَّةِ أَلَا وَهُوَ الجَاحِظُ، مُؤَلِّفُ أَهَمّ الكُتبِ البَلاغِيَّةِ التِي لَا غِنَى لِدَارِسِ البَلاغَةِ، وَلَا لِدَارِسِ الأَدبِ عَنهَا إِلَى هَذَا الحِينِ .

وَفِي حَديثِ العُمرِيّ عَنْ هَذا الكِتَابِ يَقُولُ: " نُرَكِّزُ عَمَلَنَا فِي كَشْفِ العَلاقةِ بَينَ البَلاغَةِ وَالبَيَانِ عَلَى الجَاحِظِ، وَعلَى كِتَابِهِ " البَيانُ وَالتَّبْيِينُ " بِشَكْلٍ خَاصّ، فَهُوَ نِهايَةُ اِجْتِهَادَاتِ الجَاحِظِ البَيَانِيَّةُ، وَبِدايَةُ اِجْتِهَادَاتِ مُنَظِّرِينَ آخَرِينَ سَنُحَاوِرُهُمْ فِي أُفُقِ المقارَنَةِ، خَاصَّةً صَاحِبَ " البُرهَانِ فِي وُجُوهِ البَيَانِ " ( ... ) وقَدْ بَدَا كِتابُ البَيَانِ وَالتَّبْيِينِ لِكَثِيرٍ مِنَ الدَّارِسِينَ مَجمُوعَةً مِنَ المَعَارِفِ المحَصَّلَةِ نَتِيجَةَ الاسْتِطْرَادَاتِ، أَيْ أَنَّهُ لَيسَ ذَا اِسْتْرَاتِيجِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ وَمَضْبُوطَةٍ، وَمِنْ هُنا وَجَدَ فِيهِ كُلُّ مُتَحَدِّثٍ مَجالًا لِلْقَوْلِ، يَتَناوَلُ تِلكَ المَعَارِفَ مِنَ الزَّاوِيَةِ التِي تَشغَلُ بَالَهُ وَتَخْدِمُ اِخْتِصَاصَهُ، أَوْ يَخْتَزِلَهُ فِي مَجمُوعَةٍ مِنَ المصْطَلَحَاتِ النَّقدِيَّةِ وَالبَلاغِيَّةِ التِي لَا يَرْبِطُ بَينهَا تَصَوُّرٌ نَظَرِيٌّ أَوِ اِسْتْرَاتِيجِيَّةٌ، فَتُهْمَلُ لِذلِكَ المَفَاهيمُ وَالمصْطَلَحَاتُ الأَساسِيَّةُ المولِّدَةُ فِي الكتابِ مِثلَ المقَامِ، وَالخَطابَةِ، وَكَثِيرًا مَا اِعْتُبِرَ الجَاحظُ مُجَرَّدَ جَامعٍ لِمَا اِسْتَقَرَّ إِلى حُدودِ عَصرِهِ مِنْ مُصطَلَحَاتٍ وَمَفاهِيمَ نَقدِيَّةً وَبَلَاغِيَّةً "[2]،

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 139، 140 .

[2] نفسه، ص : 189 .

وَلعلَّ هَذا الاسْتِنْتاجُ الذِي ذَهبَ إِليهِ بَعضُ البَاحِثينَ وَأَوْرَدهُ العُمرِيُّ فِي مُؤَلَّفَاتِهِ، هُوَ الذِي يُثبِتُ مَدَى أَهميَّةِ عَمَلِ الجَاحظِ، فَالجاحِظُ وَإِنْ كَانَ مُجَرَّدَ جَامعٍ لِمَا تَرَكَهُ غَيرُهُ، فَإِنَّهُ مِنْ زَاوِيةٍ أُخرَى يُعَدُّ أَيضًا مُنَظِّمًا لِمَا وَجَدَهُ مِنْ نَظرِيَّاتٍ كَانتْ مُبَعْثَرَةً هُنا وَهُناكَ، وَلا يُمكِنُ تَرَصُّدُ حَالةِ البَلاغَةِ قَبْلَ الجَاحظِ، إِلَّا مِنْ خِلالِ العَودَةِ إِلى آلِيَّاتِ المَنْهجِ التَّارِيخِي، وَهُوَ بالفِعلِ مَا عَمِلَ العُمرِيُّ على تَحقِيقِهِ .

لَقَدْ أَبانَ المَنْهَجُ التَّارِيخيُّ الذِي اِعْتَمَدَهُ العُمرِيُّ فِي دِراسَةِ عَمَلِ الجَاحِظِ، عَنْ حَالِ أَهَمّ مَرحَلَةٍ مِنْ مَراحِلِ البَلاغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَهِيَ مَرحَلَةُ النَّشأَةِ، وَقدْ كَانتِ البَلاغَةُ حِينَهَا مَجمُوعَةً مِنَ الأَفكَارِ وَالرُّؤَى وَالنَّظرِيَّاتِ، مِنهَا مَا يَقومُ عَلى التَّعرِيفِ بِالبَلاغَةِ، وَمِنهَا مَا يُشيرُ إِلى أَهَمّ البُلغَاءِ، وَمنهَا مَا يَتَوَقَّفُ حَتَّى عِنْدَ بَلاغَةِ النَّوْكَى وَالحَمْقَى مِنَ العَربِ وَالعَجَمِ، وَمِنهَا مَوَاضِيعُ شَتَّى تَصُبُّ فِي نَفْسِ القَالَبِ أَوْ تُقَارِبُهُ، وَكُلُّ هَاتِهِ المَوَاضِيعِ كَانَ الجَاحِظُ قَدْ جَمَعَهَا فِي مُؤَلَّفِهِ البَيانُ وَالتَّبْيِينُ، الذِي صَارَ فِيمَا بَعْدَ مَناطَ الدِّرَاسَةَ البَلاغِيَّةِ وَمِحْوَرَهَا

وَمِمَّا يُثْبِتُ اِعْتِمَادَ العُمريّ عَلى المنهَجِ التَّارِيخِي أَيضًا، حَدِيثُهُ عَنْ ثَقافَةِ مُؤَلِّفِي البَلاغَةِ العَجَمِ، وَالذِينَ كَانَ لَهُمْ دَوْرٌ بَارِزٌ فِي تَطوِيرِ البَلاغةِ العَرَبيَّةِ، وَليسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلكَ مِنَ العَالِمِ الجَلِيلِ عَبدِ القَاهِرِ الجُرجَانِي شَيخِ البَلاغَةِ كَما يُوصَفُ، وَحَديثُ العُمرِيّ عَنِ الرَّصيدِ البَلاغِيّ وَالثَّقافِي لِهَؤُلاءِ العُلماءِ، قَادَهُ بِالضَّرُورةِ إِلى اِعْتِمَادِ المَنْهجِ التَّارِيخِي، ذَلكَ أَنَّ الدِّراسَةَ التِي يَهدِفُ العُمرِيُّ إِليهَا هِيَ فِي الحَقيقَةِ دِراسَةٌ بَلاغِيَّةٌ بَحْتَة، لَا عَلاقَةَ لَهَا بِثَقافَةِ هَذا أَوْ ذَاكَ، وَلَكِنَّ ضَرُورَةَ مَعْرِفَةِ مَدَى تَمَيُّزِ العُلماءِ العَجَمِ فِي البَلاغَةِ وَوُصُولِهِمْ إِلى مَا لَمْ يَصِلْ إِليهِ العَربُ أَنْفُسُهُمْ هِيَ التِي أَدَّتْ بِالعُمرِيّ إِلى أَنْ يَنْعَطِفَ بَعضَ الشَّيْءِ نَحوَ الحَالِ الثَّقافِيَّةِ لِهَؤُلَاءِ، وَهذَا مَا دَفَعَهُ إِلى اِتِّبَاعِ مَنْهَجِيَّةِ التَّحلِيلِ عَلى ضَوْءِ المَنْهَجِ التَّارِيخِي، حَتَّى أَنهُ هُوَ نَفْسُهُ يُقِرُّ بِأَنَّهُ " لَا يُمكِنُ تَجاهُلُ الرَّصِيدِ المعرِفِيّ لِلْمُثَقَّفِينَ غَيرِ العَرَبِ، أَوِ المزْدَوِجِي اللُّغةِ وَالثَّقافَةِ، مِثلَ اِبْنِ المقَفَّعِ وَمَنْ عَلى شَاكِلَتِهِ، وَقَدْ نَقَلَ الجَاحِظُ آرَاءَ نَسَبَهَا إِلى الهِندِيّ، وَالفَارِسِيّ، وَالرُّومِي، فِي تَحدِيدِ مَفهُومِ البَلاغَةِ كَمَا هُوَ مَعلُومٌ، وَمِنَ الأَكِيدِ أَنَّ

هَذا الرَّصِيدَ الثَّقَافِيَّ لِلْمُتَفَاعِلِينَ مَعَ الحَضارَةِ العَربيَّةِ قَدْ أَثَّرَ تَأْثِيرًا يَشْهَدُ، عَلى الإِجْمَالِ، فِي تَبَلْوُرِ المفَاهِيمِ خِلالَ القُرونِ الثَّلاثَةِ الأُولَى "[1]، وَمِنْ هُنَا لَا يَكُونُ تَأْثِيرُ ذَاكَ الرَّصِيدِ الثَّقَافِي الزَّاخِرِ لَدَى عُلَماءِ البَلاغَةِ العَربيَّةِ مِنَ العَجَمِ، لَا يَكُونُ تَأْثِيرُهُ مُتَوَقِّفًا عَلَى عَصْرِهِمْ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا تَعَدَّاهُ إِلَى عُصُورٍ ثَلاثَةٍ أُخرَى، وَهُوَ مَا يُثْبِتُ مَدَى التَّدَاخُلِ الكَبِيرِ وَالعَمِيقِ بَينَ الثَّقافَةِ وَالبَلاغَةِ، خَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالبَلاغَةِ العَربِيَّةِ .

وَبِالإِضَافَةِ إِلى الرَّصِيدِ الثَّقافِي الذِي سَاهَمَ فِي بَلْوَرَةِ الفِكْرِ البَلَاغِيّ لَدَى العَرَبِ وَغَيْرِ العَرَبِ، بَلْ أَدَّى فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ إِلى تَغَلُّبِ غَيرِ العَرَبِ عَلَى العَرَبِ، إِضافَةً إِليهِ تَطَرَّقَ العُمرِيُّ أَيْضًا إِلى عَامِلٍ إِضَافِيّ يُعَدُّ مِنَ العَوامِلِ الثَّقَافِيَّةِ هُوَ الآخَرُ، أَلا وَهُوَ الصِّرَاعُ الفِكرِيُّ الذِي نَشَبَ بَينَ المعْتَزِلَةِ وَالأَشَاعِرَةِ، خَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِطَبِيعَةِ القُرآنِ الكَرِيم أَهُوَ كَلام الله ؟ أَمْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ الله تَعالَى ؟ .

وَلَقدِ اِعْتَمَدَ العُمَرِيُّ عَلى المنْهجِ التَارِيخِيّ فِي دِراسَةِ طَبِيعَةِ الصِّرَاعِ الذِي كَانَ قَائِمًا بَينَ المعْتَزِلَةِ وَالأَشَاعِرَةِ، كَقَوْلِهِ فِي بَعضِ نُصُوصِهِ " فَقَدْ قَالتِ المعْتَزِلَةُ وَالخَوارِجُ وَأَكْثَرُ الزَّيْدِيَّةِ وَالمرْجِئَةِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الرَّافِضَةِ، إِنَّ القُرآنَ كَلامُ الله وَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ لله، لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ، وَقالَ الحَنَابِلَةُ كَلَامُهُ حَرْفٌ وَصَوْتٌ، يَقُومَانِ بِذَاتِهِ وَإِنَّهُ قَدِيمٌ ( ... ) وَاِنْتَهَى المَوْقِفُ السُنِّي إِلى حَلٍّ وَسَطٍ فِي صِيَاغَةٍ أَشْعَرِيَّةٍ تُفَرِّقُ بَينَ الكَلَامِ النَّفسِي، وَهُوَ قَدِيمٌ، وَالأَصْوَاتُ المقَطَّعَةُ، وَهِيَ حَدِيثَةٌ، ( ... ) ثُمَّ اِجْتَهَدَ كُلٌّ مِنَ الفَرِيقَيْنِ أَيْ المعْتَزِلَةُ وَالأَشاعِرَةُ، فِي إِثباتِ وُجْهَةِ نَظَرِهِ وَدَحْضِ رَأيِ الخَصمِ اِعْتِمَادًا عَلَى مُعطَيَاتٍ عَنْ عَلاقَةِ اللُّغةِ بِالفِكرِ، وَفِي هَذا الامْتِدادِ اِلْتَقَطَ البَلَاغِيُّونَ فِي القَرنِ الخَامِسِ خَيْطَ الكَلامِ لِيَبْنُوا عَليهِ تَصَوُّرَيْنِ بَلَاغِيَّيْنِ مُتَعَارِضَيْنِ كَمَشْرُوعَيْنِ، مُتَقَاطِعَيْنِ كَإِنْجَازَيْنِ، هُمَا مَشْرُوعُ الفَصَاحةِ عِندَ اِبْنِ سِنانٍ، ومَشرُوعُ البَلاغَةِ عِندَ الجُرجَانِي، فِي بَحْثِهِمَا مَعًا عَنِ السِّرِ: سِرِّ الفَصاحَةِ وَأَسْرارِ البَلاغَةِ "[2] .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 221

[2] نفسه، ص : 312-313 .

وَبِهذَا النَّصِ الذِي أَوْرَدَهُ العُمرِيُّ يَتَبَيَّنُ لَنا دَوْرُ الآرَاءِ الفِكرِيَّةِ التِي طَرَحَتْهَا تِلكَ الطَّوَائِفُ فِي شَأْنِ القُرآنِ، وَالتِي أَثَّرَتْ عَلى مَسارِ البَلاغَةِ العَربيَّةِ، فَالانْطِلَاقُ مِنَ الصِّرَاعِ الفِكرِيّ بَينَ هَاتهِ الطَّوائِفِ أَسْفَرَ عَنْ ظُهورِ عَالِمٍ لَدَى كُلِّ طَائَفَةٍ يُوَظِّفُ الجَانِبَ البَلاغِيَّ لِخِدْمَةِ مَذهَبِ طَائِفَتِهِ، وَوَظَّفَ طَائِفَتَهُ لِخِدْمَةِ البَلاغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي نَفسِ الوَقتِ، وَمِنْ هُنَا تَكُونُ العَلاقَةُ بَينَ الثَّقافَةِ المجَسَّدَةِ فِي هَاتِهِ الفَترَةِ بِالصِّرَاعِ الفِكرِيّ حَولَ القُرآنِ، وَالبَلاغَةِ العَربِيَّةِ، عَلاقَةً تَكَامُلِيَّةً، فَلا غِنَى لِلْبَلَاغَةِ عَنْ مُؤَثِّرَاتِ هَذا الصِّرَاعِ وَلَا غِنَى أَيْضًا لِأَرْبَابِ الصِّرَاعِ عَنِ البَلاغَةِ .

وَعَلَى العُمومِ فَإِنَّ اِعْتِمَادَ العُمرِيّ عَلى المنْهَجِ التَّارِيخِيّ، لَمْ يَقِفْ عِندَ حَدِّ البَحثِ عَنِ الإِرْهَاصَاتِ الأُولَى التِي سَاهَمَتْ فِي نَشأةِ البَلاغةِ، وَلا عِندَ المظَاهِرِ وَالعَوامِلِ التِي أَدَّتْ إِلى تَطَوُّرِهَا، وَلَا أَيضًا عِندَ العَوامِلِ الأُخرَى التِي أَدَّتْ إِلى اِضْمِحْلَالِهَا وَتَدَهْوُرِهَا، وَإِنَمَا كَانَ اِعْتِمَادُ العُمرِيّ عَلَى هَذا المنْهَجِ فِيمَا يَتَعلَّقُ بِالجانِبِ التَّنظِيرِي عندَ العُمرِيّ، فالعُمرِيُّ عِندمَا أَرَادَ صِياغَةَ رُؤْيَتِهِ لِلْبَلَاغَةِ الجَديدَةِ، حَاوَلَ أَنْ يُثْبِتَ مَدى ضَرُورَةِ مَعرِفَةِ تَارِيخِ البَلاغَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلى تَجدِيدِهَا، أَيْ أَنَّ التَّأْرِيخَ جُزءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنَ التَّجدِيدِ، وَلهذَا أَشرْنَا فِيمَا سَبَقَ إِلى أَنَّ المشرُوعَ البَلاغِيَّ عِندَ العُمرِيّ هُوَ تَأْرِيخٌ وَتجدِيدٌ مَعًا، وَأَنَّ هَذَانِ العُنصُرانِ يَتَكَامَلَانِ فِيمَا بَينَهُمَا عِندَ العُمرِيّ فَلا يُمكِنُ الفَصلُ بَين وَاحِدٍ وَالآخَرِ .

وَفِي مُقدِّمَةِ كِتابِهِ " المَوَازَنَاتُ الصَّوْتِيَّةُ فِي الرُّؤيَةِ البَلاغِيَّةِ "، يُقِرُّ العُمرِيُّ بما أَشَرْنَا إِليهِ الآنَ، أَيْ بِاسْتِخدَامِهِ المنْهَجَ التَّارِيخِي فِي دِراسَةِ طَبِيعَةِ المَوَازَنَاتِ الصَّوْتِيَّةِ، كَوْنُهُ فِي الأَصْلِ يَهدِفُ إِلى البَحثِ عَنْ بَلاغَةِ الشِّعرِ إِحدَى أَهَمِّ بَلاغَاتِ الخِطابِ الاحْتِمَالِيّ كَمَا يَرَى هُوَ، وَلعَلَّ أَفْضَلَ مَا يُمكِنُ أَنْ نَستَدِلَ بِهِ عَلى اِسْتِخْدَامِ العُمَرِيّ هَذا المنْهَجِ هُوَ اِعْتِبَارُهُ أَنَّ الكتابَ كُلَّهُ – أَيْ المَوَازَنَاتُ الصَّوتِيَّةُ – ذَا طَابِعٍ تَأْرِيخِيٍّ، حَيثُ يَقُولُ: " وَمِنَ المفِيدِ أَنْ يَعلَمُ القَارِئُ أَنَّ هَذَا الكِتابِ ذَا الطَّابِعِ التَّأْرِيخِي

يَتَكَامَلُ، مِنْ حَيْثُ المجَالُ المتَنَاوَلُ، مَعَ كِتابِنَا: تَحْلِيلُ الخِطابِ الشِّعْرِي- البِنيَّةُ الصَّوْتِيَّةُ "[1]، وَهذَا القَوْلُ هُوَ الانْطِلَاقَةُ الأُولَى التِي كَانَ عَلى مِنْوَالِهَا تَأْلِيفُ الكِتابِ .

وَأَمَّا عَنْ حَيْثِيَّاتِ الكِتابِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ وَأَهَمِّ مَضَامِينِهِ، فَقَدْ جَاءَتْ هِيَ الأُخرَى مُكَيَّفَةً وِفْقَ المنهَجِ التَّارِيخِي، هَذا مَا نَسْتَشِفُّهُ مِنْ قَولِهِ: " حَاولْنَا فِي هَذهِ الدِّرَاسَةِ رَصدِ الخُطوطِ العَامَّةِ لاشْتِغالِ المَوَازَنَاتِ الصَّوْتِيَّةِ فِي الشِّعرِ العَرَبِيّ القَدِيمِ، مُعْتَمِدِينَ الوَصفَ وَالتَّصْنِيفَ أَسَاسًا، آمِلِينَ أَنْ تَتَّضِحَ الرُّؤْيَةُ مُسْتَقْبَلاً مِنْ خِلالِ دِراسَةِ مَجمُوعَةٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ الشَّكْلِيَّةِ فِي الشِّعرِ القَدِيمِ، فَنَعْمَدُ حِينَئِذٍ إِلى التَّفسِيرِ وَالتَّأوِيلِ اللَّذَيْنِ اِكْتَفَيْنَا مِنْهُمَا فِي هَذهِ المرْحَلَةِ مما هُوَ ضَرُورِيٌّ لِانْسِجامِ البَحثِ، وَلاشَكَّ أَنّ أَيّ تَصنِيفٍ دَقِيقٍ فِي إِطارِ التَّارِيخِ يَقُودُ هُوَ نَفْسَهُ، إِذا كَانَ مُنَاسِبًا لِمَوْضُوعِهِ، إِلى قَدَرٍ مِنَ الرَّبطِ بَينَ الظَّوَاهِرِ وَسِيَاقِهَا "[2]، فَالظَّوَاهِرُ التِي يَعْنِيهَا العُمرِيُّ هِيَ نَفسُهَا العَوامِلُ التِي سَاهَمَتْ فِي اِسْتِنْبَاطِ القَواعِدِ الأَساسِيَّةِ التِي تَقُومُ عَليهَا البَلاغَةِ الشِّعْرِيَّةِ، وَلا يُمكِنُ مَعْرِفَتُهَا إِلَّا بِاسْتِخْدَامِ آلِيَّاتِ المنْهَجِ التَّارِيخِي، إِلَّا أَنهُ يَشتَرِطُ ضَرُورَةَ مُناسَبَةِ العَامِلِ التَّارِيخِي لِلْمَوْضُوعِ المدْرُوسِ لِأَنَّ هَذَا ضَرُورِيٌّ فِي رَأْيِهِ لِانْسِجَامِ البَحثِ .

إِنَّ عَلاقَةَ المنْهَجِ التَّارِيخِيّ بِالبَلاغَةِ الشِّعرِيَّةِ عِندَ العُمرِيّ تَتَمَثَّلُ فِي عَوْدَةِ العُمَرِيّ إِلى العَوامِلِ التِي أَثَّرَتْ فِي الشِّعرِ العَرَبِيّ عَلَى مَرّ العُصُورِ، بِدايَةً مِنَ الجَاهِلِيّ وَحَتى عَصرِنَا هَذَا، فَالدَّارِسُ هُنا يَكُونُ مُضْطَرًّا إِلى مَعرِفَةِ حَالِ الثَّقافَةِ فِي كُلِّ عَصرٍ، وَالصِّرَاعَاتِ الفِكرِيَّةِ وَالسِّياسِيَّةِ، إِضافَةً إِلى تَأثِيرَاتِ الجَانِبِ العَقدِي، كَانْتِشَارِ ظَاهِرَةِ الاعْتِزَالِ فِي العَصرِ العَبَّاسِي، وَغَيرِهَا مِنَ الظَّواهِرِ، بَلْ وَحتَّى ظُهُورِ الدِّينِ الإِسلَامِيّ الحَنِيفِ الذِي كَانَ لَهُ تَأْثِيرُهُ المبَاشِرُ وَالعَمِيقُ عَلى تَغَيُّرِ القَصِيدَةِ الجَاهِلِيَّةِ، فِكْرًا، وَلُغَةً، وَمَضْمُونًا، مَعَ تَهَذِيبِ أَلْفَاظِهَا، وَنَقْلِهَا مِنَ الوَحشِيّ إِلى الحَضَرِيّ، وَلِكَ أَنْ

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغة والممارسة الشعرية، ص : 06 .

[2] نفسه، ص : 135 .

تُقَارِنَ بَينَ قَصائِدِ اِمْرِئِ القَيْسِ، وَطَرَفَةَ، وَعَمْرِو بْنِ كُلثُومٍ ... وَغيرِهِمْ، مَعَ قَصائِدِ اِبْنِ زَيدُونٍ، وَوَلَّادَةَ، وَاِبْنِ عَبْدُونٍ، ... وغيرهم أَيضًا .

لَعَلَّ العُمرِيَّ لَمْ يَذكُرْ جَميعَ هَؤُلاءِ الشُّعرَاءِ بِشَكْلٍ مُباشِرٍ فِي دِرَاسَتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ حِينَ قَسَّمَ البَلاغَةَ الشِّعرِيَّةَ إِلى أَنوَاعٍ كَمَا فَعَلَ مَعَ البَلاغَةِ الخَطابِيَّةِ، وَقَدْ تَناوَلْنَا هَاتَانِ البَلاغَتَانِ فِي الفَصْلِ السَّابِقِ .

وَالجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ مِنَ المَوْضُوعَاتِ التِي طَرَقَهَا العُمَرِيُّ فِي دِرَاسَتِهِ المَوَازَنَاتِ الصَّوْتِيَّةَ، حَدِيثُهُ عَنْ صُعوبَةِ الفَصلِ بينَ أَنوَاعِ القَصَائِدِ أَوْ بِالأَحْرَى مَجالَاتِ القَصائِدِ الشِّعْرِيَّةِ، وَالتِي تَرْجِعُ فِي الأَسَاسِ إِلى الطَّبِيعَةِ المحَافِظَةِ التِي اِتَّسَمَ بِها الشِّعرُ العَرَبِيُّ فِي أَوَّلِيَّتِهِ، وَالتِي أَدَّتْ إِلى دُخُولِهِ فِي صِرَاعٍ مَعَ الجَدِيدِ، وَهذَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقُودَ إِلى دِراسَةِ العَوَامِلِ التِي سَاهَمَتْ فِي نَظْمِ القَصِدَتَيْنِ القَدِيمَةِ وَالجَدِيدَةِ، وَهُوَ مَا لَا يَتَأَتَّى إِلَّا بِاتِّبَاعِ آلِيَّاتِ المنْهَجِ التَّارِيخِي .

وَلَقَدْ أَشارَ العُمَرِيُّ بِشكْلٍ صَرِيحٍ إِلى هَاتِهِ النُّقْطَةِ فِي قَوْلِهِ: " تَقِفُ صُعُوبَاتٌ كَبِيرةٌ دُونَ الوُصولِ إِلى كَلِمَةٍ فَصْلٍ، فِي طَبِيعةِ المَوَازَناتِ وَتَطَوُّرِ أَشكَالِهَا وَمَظَاهِرِهَا فِي تَارِيخِ الشِّعرِ العَرَبِي، تَرْجِعُ بَعضُ هَذهِ الصُّعوبَاتِ إِلى المَوْضُوعِ نَفْسِهِ، وَيَرْجِعُ بَعضُهَا إِلى حَالِ الدِّرَاسَاتِ القَدِيمَةِ وَالحدِيثَةِ التِي تَنَاوَلَتِ المَوْضُوعَ، إِذَا صَحَّ أَنَّ هُناكَ دِرَاسَاتٌ فِي هَذَا الصَّدَدِ .

فَمَا يَرجِعُ إِلى المَوْضُوعِ يُمكِنُ أَنْ يُجعَلَ فِي نُقطَتَيْنِ، أُولَاهُمَا طَبِيعَةُ المحَافَظَةِ فِي الشِّعرِ العَرَبِيّ، وَاِسْتِمْرَارُ القَدِيمِ فِي الجَدِيدِ، بَلْ وَاِنْتِكَاسُ الجَدِيدِ فِي غَالِبِ الأَحْيَانِ، نَظَرًا لِلْمَسَارِ الذِي سَارَتْ فِيهِ الحَضارَةُ الإِسلامِيَّةُ، وَثَانِيهِمَا طَبِيعَةُ المَوَازَنَاتِ – بَلْ وَأَغْلَبُ المكَوِّنَاتِ الشِّعْرِيَّةِ – التِي تَمْتَلِكُ مِيكَانِيزْمَاتٍ دَاخِلِيَّةٍ تَتَفَاعَلُ مَعَ عَناصِرَ مُختَلِفَةً وَمُتَنَاقِضَةً أَحْيَانًا، مِنهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالمنْتِجِ وَمِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالمسْتَهْلِكِ، وَمِنْهَا مَا يَرْجِعُ إِلى المَوْضُوعِ "[1] .

[1] مُحَمَّد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغة والممارسة الشعرية، ص: 141 .

لَقدْ قَدَّمْنَا فِي هَذَا المبْحَثِ بَعضًا مِنَ الدَّلَائِلِ التِي تُشِيرُ إِلى اِعتِمادِ العُمرِيّ عَلى المنْهَجِ التَّارِيخي فِي مَشرُوعِهِ البَلاغِيّ الجَدِيدِ، وَكانَ لَنَا أَنْ وَلَجْنَا محطَّاتٍ عَدِيدَةٍ مِنهَا مَا يتعَلَّقُ بِنشأَةِ البَلاغَةِ العَربيَّةِ، وَمنهَا مَا يَتعَلَّقُ بِالعَلاقَةِ بَينَ البَلاغَةِ وَالنَّقْدِ، أَوِ العَلاقَةِ بَينَ البَلاغَةِ وَالشِّعرِ، أَوْ حُضُورِ الفَلسَفَةِ كَعنصُرٍ فَعَّالٍ فِي بَلوَرَةِ الفِكرِ البَلاغِيّ، إِضافَةً إِلَى الصِّرَاعِ الفِكْرِي النَّاجِمِ عَنْ الثَّقافَةِ المذْهَبِيَّةِ التِي سَادَتْ فِي عَصْرٍ مِنَ العُصُورِ، نَعنِي بِذلِكَ صِرَاعَ المعْتَزِلَةِ مَعَ الأَشاعِرَةِ وَتأثِيرَهُ عَلى البَلَاغَةِ، دُونَ أَنْ نَنْسَى تَأثِيرَ القُرآنِ الكَرِيمِ، وَشُعورَ البَلاغِيِّينَ العَربِ بِضرُورَةِ الدِّفاعِ عَنِ الإِعجَازِ القُرآنِي فِي إِطارِ البَحثِ البَلَاغِي .

## المبْحَثُ الثَّالِثُ: تَطْبِيقُ المنْهَجِ التَّدَاوُلِيّ:

فِي هَذا المبْحَثِ نَتَطَرَّقُ إِلى المنْهجِ " التَّدَاوُلي "، وَالذِي نُقَدِّمُهُ مِنْ خِلالِ ثَلاثَةِ أَمثِلَةٍ تَطبِيقِيَّةٍ وَرَدَتْ فِي مُؤلَّفاتِ العُمرِيّ، فَالمِثَالُ الأوّلُ هُوَ تَحلِيلُ العُمرِيّ لِخُطبَةِ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسفَ الثَّقفِي فِي أَهلِ الكُوفَةِ وَأهلِ الشَّامِ، فِي كِتابِهِ " فِي بَلاغَةِ الخِطابِ الإِقناعِيّ "، وَالمثالِ الثَّانِي يَتعلَّقُ بِتحلِيلِ العُمرِيّ لِنَصِّ الجَاحِظِ فِي خَلْقِ القُرآنِ فِي كِتابِهِ البَلاغَةُ العَربِيَّةُ أُصولُها وَامْتِدادَاتُهَا، وَأَمَّا المثَالُ الثَّالِثُ فَهُوَ إِيرادُ العُمرِيّ لِلْحُجَجِ وَالبَراهِينِ الخَطابِيَّةِ فِي كِتَابِهِ " فِي بلاغة الخطاب الإقناعي " .

**المثَالُ الأَوَّلُ: تَحْلِيلُ خُطْبَةِ الحَجَّاجِ فِي أَهْلِ الكُوفَةِ وَ أَهْلِ الشَّامِ، فِي كِتَابِهِ " فِي بَلَاغَةِ الخِطَابِ الإِقْنَاعِيّ "**: يَظهَرُ اِعتِمَادُ العُمرِيّ عَلى المنْهجِ التَّدَاوُلِيّ فِي بَلاغَةِ الخُطبَةِ، مِنْ خِلالِ تَحْلِيلِهِ لِخُطْبَةِ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقفِي فِي أَهلِ الكُوفَةِ وَأهلِ الشَّامِ، حَيْثُ قَامَ العُمَرِيُّ بَعدَ إِيرَادِهِ لِتلكَ الخُطبَةِ بِاسْتِخراجِ الحُججِ التِي قَامَتْ عَليهَا، وَالأُسلُوبِ الذِي اِتَّبَعَهُ الحَجَّاجُ، وَتَرتِيبِ أَجزاءِ القَوْلِ، وَهُوَ مَا يوُافِقُ مَنهجِيَّةَ التَّحلِيلِ فِي الدِّراسَةِ التَّداوُلِيَّةِ .

وَبلاغَةُ الخُطبَةِ جُزْءٌ مِنْ بَلاغَةِ الخِطابِ الاحْتِمَالِيّ التِي تَقُومُ عَليهَا رُؤْيَةُ العُمَرِيّ لِلبَلَاغَةَ الجَدِيدَةِ، وَقَدْ تَطرَّقْنَا إِلى هَذَا المَوْضُوعِ فِي الفَصلِ السَّابِقِ، الذِي تَنَاوَلنَا فِيهِ بَلاغَةَ الخِطابِ الاحْتِمالِيّ ( بَلاغَةُ الخُطبةِ، بَلاغَةُ الشِّعرِ، بَلاغَةُ الرِّوايَةِ، بَلاغَةُ القِصَّةِ، بَلاغَةُ الإِشهارِ ... الخ )

غَير أَنَّنَا اِقْتَصَرْنَا عَلى بَلاغَةِ الخُطبَةِ وَبلاغَةِ الشِّعرِ فَقطْ، مُبَيّنِينَ كَيفَ كَانتْ دِراسَةُ العُمرِيّ لِهَاتَيْنِ البَلاغَتَيْنِ .

## خُطبَةُ الحَجَّاجِ فِي أَهلِ الكُوفَةِ وَأهلِ الشَّامِ، وَتحلِيلُ العُمَرِيّ لَهَا:

مما جاء في خطبة الحجّاج بن يوسف الثقفي، وما روته الأخبار ودوّنته الكتب، وحفظته لنا الرواة جيلا عن جيل قوله : " يَا أَهْلَ الكُوفَةِ، إِنَّ الفِتْنَةَ تُلْقَحُ بِالنَّجْوَى، وَتُنْتَجُ بِالشَّكْوَى، وَتُحْصَدُ بِالسَّيْفِ، أَمَا وَالله إِنْ أَبْغَضْتُمُونِي لَا تَضُرُّونِي، وَإِنْ أَحْبَبْتُمُونِي لَا تَنْفَعُونِي . وَمَا أَنَا بِالمُسْتَوْحِشِ لِعَدَاوَتِكُمْ، وَلَا المُسْتَرِيحِ إِلَى مَوَدَّتِكُمْ ...، زَعَمْتُمْ أَنِّي سَاحِرٌ، وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ [ طه : 61 ] وَقَدْ أَفْلَحْتُ، وَزَعَمْتُمْ أَنِّي أَعْلَمُ الِاسْمَ الأَكْبَرْ، فَلِمَ تُقَاتِلُونَ مَنْ يَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : لَأَزْوَاجُكُمْ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَلَأَبْنَاؤُكُمْ آنَسُ بِالقَلْبِ مِنَ الوَلَدِ، وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ **أَخُو ذُبْيَانَ** [1]:

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُورًا * فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي

هُمُ دِرْعِي الَّتِي اِسْتَلْأَمْتُ فِيهَا * إِلَى يَوْمِ النِّسَارِ، وَهُمْ مِجَنِّي

ثم قال:

بَلْ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ الشَّامِ، كَمَا قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : " ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ [ الصافات : 171-173 ] " [2] .

### تَحْلِيلُ العُمَرِي:

بَدأَ العُمرِيُّ تَحلِيلَهُ لِهاتِهِ الخُطبَةِ بِالتَّطَرُّقِ إِلى الحُججِ الخِطابِيَّةِ التِي قَسَّمَهَا إِلى قِسْمَيْنِ، حُجَجٌ جَاهِزَةٌ وَحُجَجٌ غَيرُ جَاهِزَةٍ، فَالحُججُ الجَاهِزَةُ تَتَمَثَّلُ فِي تَوْظِيفِ الآيَاتِ القُرآنِيَّةِ وَالأَبْيَاتِ الشِّعْرِيَّةِ عَلى سَبِيلِ الاسْتِشهَادِ، وَتَرْكِهَا كَمَا هِيَ مَعَ عَدمِ التَّصرُّفِ فِيهَا، وَأَمَّا غَيرُ الجَاهِزَةِ فَهِيَ تَتَمَثَّلُ فِي

[1] يقصد النابغة الذبياني، أنظر : ديوان النابغة الذبياني، تح : كرم البستاني، ص : 123 . وفي هذه النسخة : فهم درعي ...، وليس : هم درعي / استلأمت : لبست اللأمة أي الدرع، النسار : موضع كانت فيه الوقعة، المجن : الترس .

[2] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الجزء الأول، ص : 220 .

الاعْتِمَادِ عَلَى الصُّوَرِ البَلاغِيَّةِ كَالطِّبَاقِ، وَالجنَاسِ، وَالمقَابَلَةِ وَمَا إِلى ذَلكَ، فَالخَطِيبُ هُنَا يَعْمَدُ إِلى الإِتْيَانِ بمَا يُوَافِقُ هَذهِ اللَّفْظَةَ أَوْ مَا يُخَالِفُهَا، وَيجمَعُ بَينَهَا فِي سِياقٍ وَاحِدٍ، حَتَّى يَصْنَعَ مِنْ تِلكَ الجَماليَّةِ البَلاغِيَّةِ حُجَّةً لِدَعْمِ رَأْيِهِ، وَمِنْ هُنَا لَا تَكُونُ الحُجَجُ جَاهِزَةً بَلْ هِيَ مُصْطَنَعَةٌ .

هَذا وَقَدْ أَثْنَى العُمرِيُّ عَلى خُطبَةِ الحَجَّاجِ هَذِهِ، وَاِعْتَبَرَ أَنَّهَا تَحْتَوِي عَلَى كَافَّةِ آلِيَّاتِ وَمُقَوِّمَاتِ الخِطابِ الاحْتِمَالِيّ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ: " تَحْتَوِي هَذهِ الخُطبَةُ بِرَغْمِ قِصَرِهَا عَلَى جَمِيعِ مُقَوِّمَاتِ الخِطابِ الإِقْنَاعِيّ .

**1- الحُجَجُ الخَطَابِيَّةُ:**

**أ- حُجَجٌ جَاهِزَةٌ:** الاسْتِشهَادُ بِآيَتَيْنِ مِنَ القُرآنِ وَبِبَيْتَيْنِ مِنَ الشِّعْرِ، مَا يُكَوِّنُ حَوَالَيْ ثُلُثَ الخُطبَةِ .

**ب- حُجَجٌ غَيْرُ جَاهِزَةٍ:**

1) - التَّقسِيمُ وَالمقَابَلَةُ بَينَ المعَانِي لِادِّعَاءِ الاسْتِسْقَاءِ وَالإِحَاطَةِ ( تلقح، تُنتج، تَحصد )، ( البَغض، المحبَّة )، ( العَداوة، البَغضاء ) .

2) - القِيَاسُ المضْمَر: " زَعَمْتُمْ أَنِّي سَاحِرٌ ... "، " أَنِّي أَعلَمُ الاسْمَ الأَكْبَرَ ... " [1] .

وَمِنَ الآلِيَّاتِ التِي يَقُومُ عَليهَا المنْهَجُ التَّدَاوُلِيُّ، إِضَافَةً إِلى اِسْتِنْبَاطِ الحُججِ، دِراسَةُ الجانِبِ الأُسلُوبِيّ، وَهُو مَا تَنَاوَلَهُ العُمرِيُّ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، مُوَضِّحًا غَلَبَةَ الجَانِبِ الإِيقَاعِيّ عَلَى فِقْرَاتِ الخُطبَةِ، فِي خُطبَةِ الحَجَّاجِ وَهُوَ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُساعِدَ عَلى تَرْكِيزِ المسْتَمِع وَلَفْتِ اِنْتِبَاهِهِ فِي حَالِ شَرَدَ عَنِ الخطْبَةِ، إِضَافَةً إِلى سَعْيِ الخَطِيبِ إِلَى المَوَازَنَةِ بَينَ المعَانِي المطْرُوقَةِ وَالحَالَةِ التِي تُنَاسِبُهَا،

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 144 .

وهُوَ أَمرٌ يُسَاعِدُ عَلى تَقْرِيبِ الأَفكَارِ مِنْ أَذْهَانِ المسْتَمِعِينَ مِنْ خِلالِ تَمكِينِهِمْ مِنْ تَخَيُّلِ المشَاهِدِ أَمَامَهُمْ، وَمِنْ ثَمَّ يَأْتِي الجَانِبُ التَّصَوُّرِي الذِي يَكُونُ سَنَدًا لِمَا كَانَ مِنْ قَبْلِهِ .

يَقُولُ العُمرِيُّ فِي الأُسلُوبِ الذِي اِتَّبَعَهُ الحجّاج: " الأُسلُوبُ يَقُومُ عَلَى:

**أ- غَلَبَةِ الموَازَنَاتِ الصَّوْتِيَّةِ – الإِيقَاعِيَّةِ:** فِقَرٌ مُتَناظِرَةُ التَّركِيبِ وَمُتَجَانِسَةُ القَافِيةِ، خَاصَّةً فِي الجُزءِ الأَوَّلِ مِنَ الخُطبَةِ، يَدعَمُ ذَلكَ بَيْتَانِ مِنَ الشِّعرِ، ثُمَّ يَمِيلُ إِلى الاسْتِرْسَالِ مَعَ الآيَةِ القُرآنِيَّةِ فِي نِهايَةِ الخُطبَةِ، لِيُجَنِّبَ الخُطبَةَ التَّكَلُّفَ الذِي يُسِيءُ إِلى الوَظِيفَةِ الإِبْلاغِيَّةِ .

**ب- المقَابَلَةُ بَينَ المعَانِي وَالحَالَاتِ:** مَعانِي الحُبِّ وَالكَراهِيَّةِ، حَالَةُ أَهْلِ الكُوفَةِ وَأَهْلِ الشَّامِ .

**جـ- الميْلُ إِلى التَّصْوِيرِ فِي بِدايَةِ الخُطبَةِ:** تَشْبِيهُ الفِتْنَةِ بما يَلْقَحُ، يُنْتِجُ، وَيَحْصُدُ "[1] .

وَمِمَّا يَقُومُ عَلَيهِ المنْهَجُ التَّداوُلِيُّ أَيضًا، إِضَافَةٍ إِلى الحُججِ وَالأُسلُوبِ، مَا ذَكَرَهُ العُمَرِيُّ فِي شَأْنِ خُطبَةِ الحَجَّاجِ، أَلَا وَهُوَ تَنظِيمُ أَجْزَاءِ القَولِ، وَفِيهِ تَحدَّثَ العُمرِيُّ عَنِ العَناصِرِ الأَسَاسِيَّةِ التِي قَامَتْ عَلَيْهَا الخُطبَةُ، حَيثُ اِعْتَبَرَ بِأَنَّ الخُطبَةَ بَدَأتْ بِالحَدِيثِ عَنْ قَضِيَّةٍ عَامَّةٍ وَهِي قَضِيَّةُ الفِتْنَةِ، ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلى التَّخْصِيصِ، وَهُنا يَصِفُ الحَجَّاجُ الوَضْعِيَّةَ الحِجاجِيَّةَ بَيْنَهُ وَبينَ أَهْلِ الكُوفَةِ، مَا يَقولُونَهُ عَنْهُ، وَمَا يَرُدُّ هُوَ بِهِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الاسْتِشْهَادِ بِآيَةٍ قُرآنِيَّةٍ عَلَى سَبِيلِ التَّهدِيدِ وَالوَعِيدِ، وَالتِي تَكُونُ مَعَهَا نِهايَةُ الخُطبَةِ .

هَكَذَا، فِي نَظَرِ العُمرِيِّ، كَانَ تَنْظِيمُ أَجزاءِ القَولِ لِلْخُطبَةِ التِي أَلْقَاهَا الحَجَّاجُ فِي أَهْلِ الكُوفَةِ، وَيَقُولُ العُمرِيُّ فِي هَذَا الأَمرِ: " – بَدأَ بِقَضِيَّةٍ عَامَّةٍ: بِدَايَةُ الفِتْنَةِ ( أَيُّ فِتْنَةٍ ) وَنِهَايَتُهَا .

– ثُمَّ تَحدَّثَ عَنْ رَأيِ أَهلِ الكُوفَةِ فِيهِ، وَقِلَّةِ اِكْتِرَاثِهِ بِهِمْ، وَفَضَّلَ عَلَيهِمْ أَهْلَ الشَّامِ نِكَايَةً بِهِمْ .

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 145 .

– خَتَمَ بِآيَةٍ قُرآنِيَّةٍ ( تَهدِيدٌ وَتَيْئِيسٌ لَهُمْ ) "[1] .

لَقَدِ اِعْتَمَدَ العُمرِيُّ فِي تَحلِيلِهِ لِخُطْبَةِ الحَجَّاجِ فِي أَهلِ الكُوفَةِ، عَلى الآلِيَّاتِ التِي يَقُومُ عَلَيْهَا المَنْهَجُ التَّداوُلِيُّ، وَهِيَ تَوْظِيفُ الحُججِ، ثُمَّ دِراسَةُ الأُسلُوبِ، ثُمَّ تَرتِيبُ أَجزَاءِ القَوْلِ، وَهذَا مِثَالٌ وَاحِدٌ مِنْ أَمثِلَةٍ عَدِيدَةٍ تَناوَلَ فِيهَا العُمرِيُّ نَفسَ المَنْهَجِ، كَتحْلِيلِهِ لِنَصِّ الجَاحِظِ فِي خَلْقِ القُرآنِ فِي كِتابِهِ " البَلاغَةُ العَرَبِيَّةُ أُصُولُهَا وَاِمْتِدَادَاتُهَا "، وَهُوَ مَا نُقَدِّمُهُ فِي المِثَالِ المَوَالِي .

**المِثَالُ الثَّانِي: تَحلِيلُ العُمَرِيِّ لِنَصِّ الجَاحِظِ فِي خَلْقِ القُرْآنِ، فِي كِتَابِهِ " البَلَاغَةُ العَرَبِيَّةُ أُصُولُهَا وَاِمْتِدَادَاتُهَا "**: يَقُولُ العُمرِيُّ: " ذَكَرَ الجَاحِظُ فِي مُؤَلَّفِهِ " رِسَالَةٌ فِي خَلْقِ القُرآنِ " بَعْضَ مَا أَنْجَزَهُ فِي كِتَابِهِ " نَظْمُ القُرآنِ "، فَقَالَ: " فَكَتَبْتُ لَكَ كِتَابًا أَجْهَدْتُ فِيهِ نَفْسِي، وَبَلَغْتُ مِنْهُ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِثْلِي فِي الاحْتِجَاجِ لِلْقُرْآنِ، وَالرَدِّ عَلَى كُلّ طِعَانٍ، فَلَمْ أَدَعْ فِيهِ مَسْأَلَةً لِرَافِضِيٍّ، وَلَا لِحَدِيثِيٍّ، وَلَا لِحَشْوِيٍّ، وَلَا لِكَافِرٍ مُبَادٍ، وَلَا لِمُنَافِقٍ مَقْمُوعٍ، وَلَا لِأَصْحَابِ النَظَّامِ، وَلِمَنْ نَجَمَ بَعْدَ النَظَّامِ، مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ القُرْآنَ خَلْقٌ، وَلَيْسَ تَأْلِيفُهُ بِحُجَّةٍ، وَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ، وَلَيْسَ بِبُرْهَانٍ وَلَا دَلَالَةٍ "[2] .

**التحليل:**

يَقُولُ العُمرِيُّ: " يَنطَوِي النَّصُ عَلَى قَضِيَّتَيْنِ: أُولَاهُمَا: الرَّدُ عَلى المطَاعِنِ المَوَجَّهَةِ إِلى القُرآنِ: أَيْ قَضِيَّةُ التَّنْزِيهِ، وَالثَّانِيَةُ: الرَّدُ عَلى مَنْ جَحَدَ الإِعْجَازَ البَلاغِيَّ لِلْقُرآنِ : أَيْ قَضِيَّةُ الإِعْجَازِ "[3]، وَمِنْ هُنا يَظْهَرُ لَنَا أَنَّ تَحلِيلَ العُمرِيُّ سَيَكُونُ مَبْنِيًّا عَلى هَاتَيْنِ القَضِيَّتَيْنِ وَهُما مَنَاطُ دِرَاسَتِنَا أَيْضًا .

**1/– التَّنْزِيهُ: الرَّدُ عَلَى الخُصُومِ**: فِي هَذهِ القَضِيَّةِ يَتَوقَّفُ العُمرِيُّ عِندَ الصِّرَاعِ الفِكرِيِّ الذِي كَانَ بَارِزًا إِبَّانَ حِقْبَةِ الجَاحِظِ، وَكَانَ عِلْمُ الكَلامِ السِّلَاحَ المقَدَّمَ فِي هَذا النَّوْعِ مِنَ الصِّرَاعَاتِ، وَعِلْمُ

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص : 145 .

[2] رسائل الجاحظ، ج3، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1484هـ/1994م، ص : 287 .

[3] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 154 .

الكَلامِ، كَمَا هُوَ مَعلُومٌ، يَقُومُ أَسَاسًا عَلى إيرَادِ الحُجَّةِ بِالحُجَّةِ، مِما يُجَسِّدُ المعْنَى الحَقِيقِيَّ لِلمَنْهَجِ التَّداوُلِيّ، ذلِكَ أنَّ المجَادِلَ حِينَ يُوَظِّفَ اللَّفْظَةَ يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ أَنْ يُرَاعِيَ كَافَّةَ الظُّرُوفِ المحِيطَةِ بِهَا، حَتَّى تُؤَدِّيَ الغَرَضَ المطلُوب، وَهنَا يَظهَرُ مَعْنَى التَّدَاوُلِيَّةِ .

وَعَلَى العُمُومِ فَقَدْ تَطَرَّقَ الجَاحِظُ – عَلَى حَسَبِ تَحْلِيلِ العُمَرِيّ – إلى ثَلاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الخُصُومِ، اليَهُودُ وَالنَّصارَى وَمَنْ شَاكَلَهُمْ، فِي القِسمِ الأَوَّلِ، ثُمَّ الخُصُومُ المنَازِعُونَ لِأَهْلِ الاعْتِزَالِ مِنْ بَعضِ المسْلِمِينَ فِي القِسمِ الثَّانِي، ثُمَّ أَهْلُ الاعْتِزَالِ أَنْفُسُهُمْ، الذِينَ ذَهَبُوا إلى نَفْسِ المذْهَبِ الذِي أَرادَهُ خُصُومُ المعْتَزِلَةِ، وَهَؤُلاءِ فِي القِسمِ الأَخِيرِ، وَهَذَا كُلُّهُ يَتَّضِحُ مِنْ خِلَالِ قَوْلِ العُمَرِيّ: " يُوَاجِهُ الجَاحِظُ فِي المسْتَوَيَيْنِ مِنْ مَعْرَكَتِهِ الكَلامِيَّةِ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الخِطابِ القُرآنِيّ ثَلَاثَ طَوَائِفَ:

أ– الخُصُومُ المنَازِعُونَ فِي المبْدَأ الدِّينِي مِنْ نَصارَى، وَيَهُودٍ، وَمَجُوسٍ، وَصَابِئَةٍ ... الخ

ب– الخُصُومُ المذْهَبِيُّونَ ( خُصُومُ المعْتَزِلَةِ ) المنَازِعُونَ فِي المنْهَجِ، وَهُمْ مِنَ المسْلِمِينَ الخَامِلِينَ الذِينَ يُقَدِّمُونَ بِمُعَادَاتِهِمْ لِلْعَقْلِ وَالاجْتِهَادِ سِلَاحًا لِلْخُصُومِ المبْدَئِيّينَ .

جـ– طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ المنْصِبِ خَرجَتْ عَنْ أُصُولِهِ، وَقالَتْ بِما يُشَكِّكُ فِي الإِعْجَازِ البَلَاغِيّ لِلْقُرآنِ "[1].

وَلَقَدْ تَتَبَّعَ العُمَرِيُّ رَسائِلَ الجَاحِظِ مُسْتَخْرِجًا مِنْهَا نُصُوصًا أُخرَى لِلتَّعَرُّفِ عَلى مَاهِيَّةِ مَا جَاءَ فِي نَصِّ الجَاحِظِ، حَيْثُ يَقُولُ: " يمكِنُ التَّعَرُّفُ عَلى المجْمَلِ فِي هَذَا النَّصِ مِنْ خِلَالِ نُصُوصٍ أُخرَى نَأْخُذُهَا مِنْ رَسَائِلِهِ:[2]

**أ– اِتِّبَاعُ المتَشَابِهِ مِنْ طَرَفِ النَّصَارَى:** يَقُولُ الجَاحِظُ: " عَلَى أَنَّ هَذهِ الأُمَّةَ لَمْ تُبْتَلَ بِاليَهُودِ وَلَا المجُوسِ، وَلَا الصَّابِئِينَ، كَمَا اِبْتُلِيَتْ بِالنَّصَارَى، وَذَلكَ أَنَّهُمْ يَتْبَعُونَ المتَنَاقِضَ مِنْ أَحَادِيثِنَا وَالضَّعِيفَ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 154 .

[2] نفسه، ص : 154 .

بِالأَسْنَادِ مِنْ رِوَايَتِنَا، وَالمتَشَابِهَ مِنْ آيِ كِتَابِنَا، ثُمَّ يَخْلَوْنَ بِضُعَفَائِنَا، وَيَسْأَلُونَ عَنْهَا عَوَامَّنَا، مَعَ مَا قَدْ يَعْلَمُونَ مِنْ مَسَائِلِ الملْحِدِينَ وَالزَّنَادِقَةِ الملَاعِينِ، وَحَتَّى مَعَ ذَلِكَ رُبَّمَا تَبَرَّؤُوا إِلَى عُلَمَائِنَا، وَأَهْلِ الأَقْدَارِ مِنَّا، وَيَشْغَبُونَ عَلَى القَوِيِّ، وَيَلْبَسُونَ عَلَى الضَّعِيفِ "[1] .

**ب- المقَلِّدُونَ مِنَ المسْلِمِينَ:** عَرَضَ الجَاحِظُ لِدَعْوَى الرَّافِضِينَ لِلْقَوْلِ بِخَلْقِ القُرآنِ وَادِّعَائِهِمْ أَنَّ العَامَّةَ، وَأَهْلَ الحَدِيثِ مَعَهُمْ، فِي مُقَابَلَةِ المتَكَلِّمِينَ القَائِلِينَ بِخَلْقِ القُرآنِ، ثُمَّ قَالَ: " وَالذِينَ سَمَّوْهُمْ أَصْحَابَ أَهْوَاءٍ، هُمُ المتَكَلِّمُونَ وَالمصْلِحُونَ وَالمسْتَصْلِحُونَ وَالمميِّزُونَ، وَأَصْحَابَ الحَدِيثِ وَالعَوَامِّ، هُمُ الذِينَ يُقَلِّدُونَ وَيُحَصِّلُونَ وَلَا يَتَخَيَّرُونَ، وَالتَّقْلِيدُ مَرْغُوبٌ عَنْهُ فِي حُجَّةِ العَقْلِ، مَنْهِيٌّ عَنْهُ فِي القُرآنِ، قَدْ عَكَسُوا الأُمُورَ كَمَا تَرَى، وَنَقَضُوا العَادَاتِ، وَذَلِكَ أَنَّا لَا نَشُكُّ أَنَّ مَنْ نَظَرَ وَبَحَثَ وَقَابَلَ وَوَازَنَ، أَحَقُّ بِالتَّبَيُّنِ وَأَوْلَى بِالحُجَّةِ "[2] .

**جـ- اِنْحِرَافُ أَهْلِ المذْهَبِ:** وَلَوْلَا مَا اِعْتَلَلْتَ بِهِ مِنِ اِعْتِرَاضِ الرَّافِضَةِ، وَاِحْتِجَاجِ القَوْمِ عَلَيْنَا بِمَذْهَبِ مُعَمَّرٍ، وَأَبِي كَلَدَةَ وَعَبْدِ الحَمِيدِ وَثُمَامَةَ، وَكُلِّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ أَفعَالَ الطَبِيعَةِ مَخْلُوقَةٌ عَلَى المجَازِ دُونَ الحَقِيقَةِ، وَأَنَّ مُتَكَلِّمِي الحَشْوِيَّةِ وَالنَّابِتَةِ، قَدْ صَارَ لَهُمْ بِمَنَاظَرَةِ أَصْحَابِنَا وَبِقِرَاءَةِ كُتُبِنَا بَعْضُ الفِطْنَةِ لِمَا كَتَبْتُ لَكَ، رَغْبَةً بِكَ عَنْ أَقْدَارِهِمْ، وَضَنًّا بِالحِكْمَةِ عَنْ إِعْثَارِهِمْ، وَإِنَّمَا يَكْتُبُ عَنِ الخُصُومِ وَالأَكْفَاءِ "[3] .

هَذَا فِي مَا يَخُصُّ القَضِيَّةَ الأُولَى، وَهِيَ قَضيَّةُ التَّنزِيهِ، وَأَمَّا عَنْ قَضِيَّةِ الإِعْجَازِ البَلاغِيِّ لِلْقُرآنِ الكَرِيمِ، فَقَدْ تَنَاوَلَهَا الجَاحِظُ مِنْ خِلالِ جَانِبَيْنِ اِثْنَيْنِ هُمَا: جَانِبُ إِثْبَاتِ حَقِيقَةِ التَّحَدِّي بِالقُرآنِ الكَرِيمِ، وَأَنَّ هَذَا التَّحَدِّي لَا يَقِلُّ شَأْنًا عَنْ غَيرِهِ مِنَ الأُمُورِ التِي طَرَحَهَا الأَنبِيَاءُ وَالرُّسُلُ قَبَلَ رَسُولِ الله ﷺ ، ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُقَالُ بِأَنَّ التَّحَدِي بِالقُرآنِ الكَرِيمِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ لَا جَدْوَى مِنهُ، فَالقُرآنُ أَوَّلًا

[1] رسائل الجاحظ، ج3، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون، ص : 320 .
[2] نفسه، ص : 298 .
[3] نفسه، ص : 288 .

وَأَخِيرًا مُجَرَّدُ كَلَامٍ لَيْسَ إِلَّا *، وَبِالتَّالِي لَا يُمكِنُ أَنْ يُقارَنَ بِالحُجَجِ التِي تَحَدَّى بِهَا الأَنْبِيَاءُ الأَوَّلُونَ أَقْوَامَهُمْ، فَقَدْ كَانَتْ حُجَجًا مَلْمُوسَةً وَالقُرْآنُ غَيرُ مَلْمُوسٍ .

وَأَمَّا الجَانِبُ الثَّانِي مِنَ القَضيَّةِ التِي بَينَ أَيْدِينَا، أَيْ قَضِيَّةِ الإِعْجَازِ البَلاغِيّ، فَيَتَعَلَّقُ بِالوَجْهِ أَوِ الطَّرِيقَةِ التِي يَكُونُ عَليهَا الإِعْجَازُ القُرآنِي، أَيْ كَيفَ قَدَّمَ القُرآنُ حُجَجَهُ، وَكَيْفَ تَسنَّى لَهُ أَنْ يَقهَرَ بِتِلكَ الحُجَجِ أَعْدَاءَهُ .

هَذَا وَقَدْ أَوْرَدَ العُمَرِيُّ نُصُوصًا مَنْسُوبَةً إِلَى الجَاحِظِ فِي شَأْنِ الإِعجَازِ البَلَاغِيّ لِلْقُرآنِ الكَرِيمِ، وَالتِي نُورِدُهَا مِنْ مَصَادِرِهَا عَلَى النَّحوِ التَّالِي:

**2/– الإِعْجَازُ البَلَاغِيُّ**: الذِي يَتَحَدَّدُ فِي أَمرَيْنِ هُمَا: تَحدِّي القُرآنِ لِلْعَرَبِ، وَالنَّظْمِ البَدِيعِ الذِي يَمْتَازُ بِهِ .

**أ– ثُبُوتُ التَّحَدِّي بِبَلَاغَةِ القُرْآنِ**: تَحدَّثَ الجَاحِظُ عَنْ مُعجِزَةِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَلَاحَظَ أَنَّ الأُولَى كَانتْ عَنْ أَعْجَبِ الأُمُورِ عِندَ قَومِ فِرعَوْنَ ( السِّحرُ )، وَالثَّانِيَةَ كَانتْ مِنْ نَوْعِ مَا بَرَعَ فِيهِ النَّاسُ فِي عَهدِ عِيسَى ( الطِّبُ )، ثُمَّ قَال: " وَكَذَلِكَ دَهْرُ مُحَمَّد ﷺ كَانَ أَغْلَبُ الأُمُورِ عَلَيْهِمْ، وَأَحْسَنُهَا عِنْدَهُمْ وَأَجَلُّهَا فِي صُدُورِهِمْ، حُسْنَ البَيَانِ، وَنَظْمَ ضُرُوبِ الكَلَامِ، مَعَ عِلْمِهِمْ لَهُ وَانْفِرَادِهِمْ بِهِ، فَحِينَ اِسْتَحْكَمَتْ لِفَهْمِهِمْ، وَشَاعَتِ البَلَاغَةُ فِيهِمْ، وَكَثُرَ شُعَرَاؤُهُمْ، وَفَاقَ النَّاسَ خُطَبَاؤُهُمْ، بَعَثَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَتَحَدَّاهُمْ بِمَا كَانُوا لَا يَشُكُّونَ أَنَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى أَكْثَرَ مِنْهُ " [1].

**ب– وَجْهُ الإِعْجَازِ البَلَاغِيّ: النَّظْمُ**: قَالَ مُحدِّدًا طَبِيعَةَ البَلاغَةِ القُرآنِيَّةِ المعجِزَة: " إِنَّ رَجُلًا مِنَ العَرَبِ لَوْ قَرَأَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ خُطَبَائِهِمْ وَبُلَغَائِهِمْ سُورَةً وَاحِدَةً، طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً، لَتَبَيَّنَ لَهُ فِي نِظَامِهَا وَمَخْرَجِهَا، وَفِي لَفْظِهَا وَطَبْعِهَا، أَنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ مِثْلِهَا، وَلَوْ تَحَدَّى بِهَا أَبْلَغَ العَرَبِ لَظَهَرَ عَجْزُهُ عَنْهَا،

* وهو ما لا يأخذ به مسلم .

[1] رسائل الجاحظ، ج3، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون، ص : 279 .

وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الحَرْفِ وَالحَرْفَيْنِ، وَالكَلِمَةِ وَالكَلِمَتَيْنِ ... أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ يَتَهَيَّأُ فِي طَبَائِعِهِمْ، وَيَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ أَنْ يَقُولَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: الحَمْدُ لله، وَإِنّا لله، وَعَلَى الله تَوَكَّلْنَا، وَرَبُّنَا الله، وَحَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلِ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي القُرْآن؛ غَيْرَ أَنَّهُ مُتَفَرِّقٌ غَيْرَ مُجْتَمِعٍ؛ وَلَوْ أَرَادَ أَنْطَقُ النَّاسِ أَنْ يُؤَلِّفَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ سُورَةً وَاحِدَةً، طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً، عَلَى نَظْمِ القُرْآنِ وَطَبْعِهِ، وَتَأْلِيفِهِ وَمَخْرَجِهِ، لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ، وَلَوِ اِسْتَعَانَ بِجَمِيعِ قَحْطَانَ، وَمَعَدِّ بْنِ عَدْنَانْ "[1] .

وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالنَّظمِ القُرآنِيّ عِندَ الجَاحِظِ، فَإِنَّ العُمرِيَّ يَرَى بِأَنَّهُ عَلى اِتِّجَاهَيْنِ كَبِيرَيْنِ:

1- التَّرَكِيبُ النَّحويُّ وَالدِّلالِي: الذِي يَستَوْعِبُ مَادةَ " المعَانِي " وَ" البَيَان "، عِندَ السَّكَاكِي .

2- المعْجَمُ وَالمقَامُ : " أَلَا تَرَى الله تبَارَكَ وَتَعالَى لَمْ يَذكُرْ فِي القُرآنِ الجُوعَ إِلَّا فِي مَوْضِعِ العِقابِ، أَوْ مَوْضِعِ الفَقْرِ المدْقِعِ وَالعَجْزِ الظَّاهِرِ، وَالنَّاسُ لَا يَذكُرُونَ السَّغَبَ وَيذكُرُونَ الجُوعَ فِي حَالِ القُدرَةِ والسَّلامَةِ؛ وَكذلِكَ المطَرِ، لِأَنكَ لَا تَجِدُ القُرآنَ يَلفِظُ بِهِ إِلَّا فِي مَوْضِعِ الانْتِقامِ، وَالعَامَّةُ وَأكثَرُ الخاصَّةِ، لَا يَفْصِلُونَ بَينَ ذِكرِ المطرِ وبينَ ذِكْرِ الغَيْثِ "[2] .

كَذلِكَ، وَفِي إِطارِ هَذا التَّحلِيلِ الذِي قَامَ بِهِ العُمرِيُّ، تَناوَلَ جَانِبَ التَّخرِيجِ البَلاغِيّ لِلآيَاتِ القُرآنِيَّةِ، وَهُوَ مَا نُقَدِّمُهُ فِي العُنصُرِ المَوَالِي .

**3/- التَّخْرِيجُ البَلاغِي**: مِنَ الأمثِلَةِ التِي قَدَّمَهَا العُمرِيُّ وَالتِي كَانَتْ مَنَاطَ الدِّراسَةِ لَدَى الجَاحِظِ فِي كِتابِهِ " الحَيوانُ "، مَا جَاءَ فِي إِنكارِ بَعضِهِمْ قَوْلَهُ تَعالِى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ [ طه : 20 ، وَقَوْلَهُ أَيْضًا: ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ [ الواقعة : 56 ]، مُعتبِرًا أَنَّ الأمرَ نَابِعٌ مِنْ جَهْلِهِمْ لِأُصولِ العَربيَّةِ فَضلًا عَنِ الدِّينِ، وَهُوَ مَا سَنُبَيِّنُهُ بِالتَّفصيلِ فِيمَا يَلِي مِنَ الدِّراسَةِ .

---

[1] رسائل الجاحظ، ج3، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون، ص : 229 .

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص : 20 .

أ- وَمِنَ الأَمْثِلَةِ التِي أَوْرَدَهَا العُمرِي قَولُ الجَاحِظِ: " قَالَ فِي الرَدِّ عَلى مَنِ اِدَّعَى خَطَأً قَولُهُ تَعالَى: ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ [ طه : 20 ]: وَفِي هذَا الذِي جَهِلْتُمُوهُ ضُروبٌ مِنَ الجَوابِ، أَمَّا وَجْهٌ مِنهُ فَهُوَ قَوْلُ القَائِلِ وقول الشاعر: " مَا هُوَ إِلَّا كَأَنَّهُ حَيَّةٌ "، و" وَأَنَّ مِشْيَتَهُ مِشْيَةُ حَيَّةٍ "، يَصِفُونَ ذَلكَ، وَيَذكُرونَ عِندَهُ مِشْيَةَ الأَيْمِ وَالحُبَابِ، وَذُكُورِ الحَيَّاتِ، ومَنْ جَعَلَ لِلْحَيَّاتِ مَشْيًا مِنَ الشُّعراءِ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ نَقِفَ عَليهِمْ، وَلو كَانُواْ لَا يُسَمُّونَ اِنْسِيابَهَا واِنْسِيَاحَهَا مَشْيًا وَسَعْيًا، لَكَانَ ذَلكَ مِمَّا يَجُوزُ عَلَى التَّشبِيهِ والبَدَلِ، وأَنْ قَامَ الشَّيْءُ مَقَام الشَّيءِ أَوْ مَقامَ صَاحِبِهِ، فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ العَربِ أَنْ تُشَبِّهَ بِهِ فِي حَالَاتٍ كَثِيرةٍ، وَقالَ الله تَعالَى: ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ [ الواقعة : 56 ]، وَالعذابُ الأَكْبرُ لَا يَكُونُ نُزُلًا، وَلَكِنَّهُ أَجرَاهُ مَجْرَى كَلَامِهِمْ، كَقولِ حَاتِمٍ حِينَ أَمَرُوهُ بِفَصْدِ بَعِيرٍ، وَطَعَنَهُ فِي سِنَامِهِ، وقال: " هَذَا فَصْدُهُ "[1] .

ب- تَفْسِيرُ عَجزِ الطَّاعِنِينَ فِي بَلاغَةِ القُرآنِ : قُلنَا إِنَّ القَوْمَ إِنما أُوتُواْ مِنْ قِلَّةِ المعرِفَةِ بِوُجُوهِ الكَلَامِ، وَمِنْ سُوءِ التَّرجَمَةِ، مَعَ الحُكْمِ بِمَا يَسبِقُ إِلى القُلُوبِ، وَلَعَمْرِي لَوْ كَانتْ لَهُم عُقُولُ المسْلِمِينَ وَمَعْرِفَتُهُمْ بِما يَجُوزُ فِي كَلامِ العَربِ، وَمَا يَجُوزُ عَلَى الله، مَعَ فَصَاحَتِهِمْ بِالعِبْرَانِيَّةِ، لَوَجَدُوا لِذلِكَ الكَلامِ تَأْوِيلًا حَسَنًا، وَمخْرَجًا سَهْلًا، وَوَجْهًا قَرِيبًا [2]، " وَأنتَ تَعْلَمُ أَنَّ اليَهُودَ لَوْ أَخذُواْ القُرآنَ فَتَرْجمُوهُ بِالعِبرَانِيَّةِ لَأَخْرَجُوهُ مِنْ مَعَانِيهِ، وَلَحَوَّلُوهُ عَنْ وُجُوهِهِ، وَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ إِذا تَرْجَمُوا : قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿٥٥﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ [ الزخرف: 55 ] وقوله - وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ [ طه : 39 ] وقوله : وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ [ الزمر : 67 ] وَقَوْلَهُ: ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ [ طه : 05 ] (...) وَقَدْ يُعلَمُ أَنَّ مُفَسِّرِي كِتَابِنَا وَأَصْحَابَ التَّأْوِيلِ مِنَّا أَحْسَنُ مَعْرِفَةً، وَأعلَمُ بِوُجُوهِ الكَلَامِ مِنَ اليَهُودِ، وَمُتَأَوِّلِي الكُتُبِ، وَنَحْنُ قَدْ نَجِدُ فِي تَفْسِيرِهِمْ مَا لَا يَجُوزُ

[1] الجاحظ، الحيوان، ج4، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأبناؤه، مصر، الطبعة الثالثة 1380هـ/1966م، ص : 273 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 159 .

عَلى الله فِي صِفَتِهِ، وَلَا عِندَ المتَكَلِّمِينَ فِي مَقَايِيسِهِمْ، وَلَا عِندَ النَّحْوِيِّينَ فِي عَرَبِيَّتِهِمْ، فَمَا ظَنُّكَ بِاليَهُودِ مَعَ غَبَاوَتِهِمْ وَغَيِّهِمْ، وَقِلَّةِ نَظَرِهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ ؟"[1] .

**المثال الثالث: الحُجَجُ وَالبَرَاهِينُ الخَطابِيَّةُ، فِي كِتابِهِ " فِي بَلَاغَةِ الخِطابِ الإِقْنَاعِي "**: فِي هَذا المثالِ نَنتَقِلُ مَع العُمرِيّ إِلى مُؤَلَّفٍ آخَرَ مِنْ مُؤلَّفَاتِهِ، أَلا وَهُوَ كِتَابُهُ " فِي بَلاغَةِ الخِطابِ الإِقْنَاعِي"، وَهذَا الكِتابُ كُنَّا قَدْ جَعلنَاهُ مَحَطَّ الدِّراسَةِ فِي البَحثِ عَنْ بَلاغَةِ الخُطبَةِ عِندَ العُمَرِيّ، وَهَا نَحنُ نَعودُ إِليهِ الآنَ لِنَتَوَقَّفَ عِندَ مَسْأَلَةِ اِسْتِنْبَاطِ الحُججِ وَالبَرَاهِينِ التِي قَامَ بِها العُمرِيّ، وَهِيَ الحُجَجُ التِي تَقُومُ عَلَيْهَا كُلُّ خُطبَةٍ أَوْ يَنْبَغِي أَنْ تَقُومَ عَليهَا .

وَمَا يُمَيِّزُ هَذا المثالَ عَنْ سَابِقَيْهِ هُوَ أَنَّهُ لَا يَهتَمُّ بِتطْبِيقِ العُمرِيّ لِلْمنْهَجِ التَّداوُلِيّ، وَإِنَّمَا يَهتَمُّ بِحُضُورِ الفِكرِ التَّدَاوُلِيّ فِي مُؤَلَّفَاتِ العُمَرِيّ القَائِمِ فِي الأَسَاسِ عَلى اِسْتِنْبَاطِ الحُجَجِ وَالبَرَاهِينِ كمَا رَأينَا فِي تَطبِيقِهِ عَلَى بَيْتِ المتنَبِّي، وَهذَا الاهتِمَامُ الذِي يُولِيهِ العُمَرِيُّ لِلْمَنْهَجِ التَّداوُلِي، وَالذي جَعلَهُ يُفرِدُ لَهُ كتابًا كَاملًا، هُوَ الذِي يُثبِتُ بِالضَّرُورةِ وُجُودِ هَذَا المنهَجِ فِي مَشرُوعِ العُمرِي، وَهُوَ مَا نَسعَى إِلى إِثباتِهِ .

وَعلَى كُلٍّ، فَقدِ اِنْتَقَلَ العُمَرِيُّ فِي خِضَمِّ بَحثِهِ عَنِ الحُججِ التِي تَقُومُ عَليهَا الخُطبَةُ، مِنْ نَصٍّ مَنسُوبٍ إِلَى أَرِسْطُو، حَيثُ يَقولُ العُمرِي: " نَنطَلِقُ هُنَا مِنْ نَصٍّ مُطَوَّلٍ شَامِلٍ لِأرِسْطُو، مِنْ كِتابِ الخَطابَةِ فِي أَوَّلِ الكِتابِ الأَوَّلِ، جَاءَ فِيهِ: " فَأَمَّا التَّصدِيقَاتُ فمنها صِّناعِيَّة، ومنها بغير صناعة، وقد أعني بالتي بغير صناعة تلك التي ليست تكون بحيلة منا، لكن بأمور متقدّمة، كمثل الشُّهُودِ، وَالعَذابِ، وَالكُتُبِ، وَالصِّكَاكِ، وَما أَشبَهَ ذَلِكَ؛ وَ أما التي بالصناعة فما أمكن إِعْدَادُهُ وتثبيته على ما ينبغي بِالحِيلَةِ وَبِأَنْفُسِنَا "[2] .

[1] ا الجاحظ، الحيوان، ج3، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون، ص : 236، 237 .

[2] أرسطو طاليس، الخطابة الترجمة العربية القديمة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ص : 09 .

بَعدَ إيرادِهِ لِنَصِّ أَرِسطُو، يَتحَوَّلُ العُمرِيُّ إِلى جَانِبِ الشَّرحِ وَالتَّعقِيبِ، مُعتبِرًا أَوَّلًا أَنَّ التَّصدِيقَاتِ إِنمَا تَكُونُ عَلى ثَلاثَةِ أَضرُبٍ، وَمُعتَبِرًا أَيضًا أَنَّ لِجَانِبِ الأَخلَاقِ أَهمِيَّةً كَبِيرَةً فِي الإِقنَاعِ بِالنِّسبَةِ لِلْخَطِيبِ، ذَلكَ أَنَّهَا تُسَهِّلُ لَهُ عَمليَّةَ التَّوَاصُلِ مَعَ المستَمِعِينَ، وَتجعَلُ لَهُ هَيبَةً وَاِحتِرامًا وَشخصِيَّةً قَوِيَّةً، يَقولُ العُمرِيُّ: " وَالتَّصدِيقَاتُ التِي يُقدِّمُهَا القَولُ عَلى ثَلاثَةِ أَضْرُبٍ: الأَوَّلُ يَتَوَقَّفُ عَلى أَخلَاقِ القَائِلِ، وَالثَّانِي عَلى تَصيِيرِ السَّامعِ فِي حَالَةٍ نَفسِيَّةٍ مَا، وَالثَّالثُ عَلى القَولِ نَفسِهِ، مِنْ حَيثُ هُوَ يثبتُ أَو يَبْدُو أَنَّهُ يثبتُ؛ وَالخطِيبُ يُقنِعُ بِالأَخلَاقِ إِذا كَانَ كَلامُهُ يُلقَى عَلَى نَحوٍ يَجعَلُهُ خَلِيقًا بِالثِّقَةِ، لِأَنَّنَا نَستَشْعِرُ الثِّقَةَ عَلى دَرَجَةٍ أَكبَرَ وَبِاسْتِعْدَادٍ أَوسَعَ، بِأَشْخَاصٍ مُعْتَبَرِينَ فِي كُلِّ الأُمورِ بِوَجْهٍ عَامٍّ، لَكنْ إِذَا أَعْوَزَ اليَقِينُ وَكَانَ مَجَالٌ لِلشَكِّ فَإِنَّ الثِّقةَ تَكُونُ مُطلَقَةً، وَهذَا الضَّربُ مِنَ الإِقناعِ، مِثلَ سَائرِ الضُّروبِ، يَنبَغِي أَنْ يَحدُثَ عَنْ طَرِيقِ مَا يَقولُهُ المتَكَلِّمُ، لَا عَنْ طَرِيقِ مَا يَظُنُّهُ النَّاسُ عَنْ خُلقِهِ قَبلَ أَنْ يَتكلَّمَ، وَلَيسَ صَحيحًا – كَمَا يَزعُمُ بَعضُ الكُتَّابِ فِي مَقالَاتِهِمْ عَنِ الخَطابَةِ – أَنَّ الطِيبةَ الشَخْصِيَّةَ التِي يَكشِفُ عَنهَا المتَكلِّمُ لَا تُسهِمُ بِشيْءٍ فِي قُدرتِهِ عَلَى الإِقنَاعِ، بَلْ بِالعَكسِ، يَنبَغِي أَنْ يَعُدَّ خُلُقهُ أَقوَى عَناصِرِ الإِقناعِ لَديهِ، ثُمَّ إِنَّ الإِقناعِ يُمكنُ أَنْ يَتِمَّ بِوَاسِطَةِ السَّامِعِينَ إِذَا كَانَتِ الخُطبَةُ مُثيرَةً لِمَشاعِرِهِمْ، فَأحكامُنَا حِينَ نَكونُ مَسْرُورِينَ وَدُودِينَ لَيستْ هِيَ أَحكَامُنَا حِينَ نَكُونُ مَغْمُورِينَ وَمُعَادِينَ، وَنعتَقِدُ أَنَّ مُعظَمَ الذِينَ يُصَنِّفُونَ فِي الخَطابَةِ اليَومَ يُرِيغُونَ إِلى تَوجِيهِ كُلِّ جُهُودِهِمْ نَحوَ إِحدَاثِ هَذهِ الآثارِ ... وَأَخيرًا فَإِنَّ الإِقناعَ يَحدُثُ عَنِ الكَلامِ نَفسِهِ إِذَا أَثبتْنَا حَقِيقَة أَوْ شِبْهَ حَقِيقَة بِوَاسِطَةِ حُججٍ مُقنِعَةٍ مُناسِبَةٍ لِلْحَالَةِ المطْلُوبَةِ "[1] .

وَمِنْ هَذَا الرَّأيِ المطَوَّلِ نَخلُصِ إِلى وُجودِ ثَلاثَةِ شُروطٍ لِنجَاحِ العَمليَّةِ الخِطابِيَّةِ وَالتِي يَنبَغِي أَنْ تَكُونَ مُرتَّبَةً وَهِي:

[1] مُحَمَّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، ص : 24، 25 .

**1- الأَخلَاقُ**: تَأتِي الأخلاقُ فِي المرتَبَةِ الأُولَى لِأنَّهَا تُسَهِّلُ العَمليَّةَ التَّواصُليَّةَ بَينَ الملقِي وَالمتَلَقِّي كَمَا قُلنَا مِنْ قَبلُ، وَأنَّهَا تُساعِدُ أَيضًا عَلَى التَّحَكُّمِ فِي نَفسِيَّةِ المسْتَمِعِ مِنْ بَابِ الاحْتِرَامِ الذِي يَفرِضُهُ الخَطِيبُ المتَخَلِّقُ .

**2- نَفسِيَّةُ المسْتَمِعِ**: وَيأتِي الجَانِبُ النَّفسِي فِي المرتَبَةِ الثَّانِيةِ بَعدَ الأَخلَاقِ كَونُهُ يُساعِدُ عَلى تَمرِيرِ الرَّسَائِلِ التِي قَدْ تَعجُزُ عَنهَا الأَلفَاظُ وَالصُّوَرُ، وَكُلُّ مَا هُوَ مَكتُوبٌ أَوْ مَنطُوقٌ، فَنَفْسِيَّةُ المتَلقِّي إِنْ كَانتْ هَادِئَةً سَتَخْتَلِفُ بِالتَّأْكِيدِ عَنهَا إِن كانَتْ مُتَوَتِّرَةً .

**3- البَلاغَةُ**: وَفِي آخِرِ المطَافِ يَأتِي الجَانِبُ البَلاغِيُّ، الذِي يُكْمِلُ العَمليَّةَ التَّواصُلِيَّةَ وَيزِيدُ مِنْ حُسْنِهَا وَبَهَائِهَا .

وَمِمَّا يُمكِنُ أَنْ نَستَنْتِجَهُ مِن هاته الشروط أنّ وضعَ الأخلاقِ في المرتبة الأولى، يوحي بالأهمية البالغة لها، وبالتالي فإنّ الخَطِيبَ مَهمَا كَانَ عَلَى خُلُقٍ رَفِيعٍ، مُهْتَمًا بِالجانِبِ النَّفسِي لِلمُستَمِعِينَ، قَادِرًا عَلَى إِيرادِ الأَلْفَاظِ البَلِيغَةِ فِي خُطبَتِهِ، لَابُدَّ لَهُ أَنْ يَهْتَمَّ أَيضًا بِالجانِبِ المنْطِقِي، كَونُ المنْطِقِ أَساس الفَلسَفَةِ عِندَ أَرِسطُو، وَأَنْ يَكُونَ عَلى دِرايَةِ الجَانِبِ الثَّقَافِي لِلْمُستَمِعِينَ وَعَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِم، وَ يَا حَبَّذَا لَوْ كَانَ أَصلًا مِنْ بَنِي جِلْدَتِهِمْ، إِضافَةً إِلَى ضَرُورَةِ قُدْرَتِهِ عَلَى فَهمِ اِنْفِعَالَاتِ النَّاسِ والتَّجاوُبِ مَعهَا .

لَقدِ اِهتَمَّ العُمريُّ كَثيرًا بِالحُججِ وَالبَرَاهِينِ فِي كِتابِهِ " فِي بَلاغَةِ الخِطابِ الإِقنَاعِي "، وَهُوَ مَا يُثبِتُ بِالضَّرُورَةِ اِهْتِمَامَهُ بِالجانِبِ التَّدَاوُلِي الذِي وَجَدْنَاهُ حاضرًا فِي العَديدِ مِنَ الأَمثِلةِ، وَلعلَّ أَهمَّ مَا يُثبِتُ اِهْتِمامَ العُمرِي بِهذَا المنْهَجِ، سَعْيُهُ إِلى بَيانِ أَنوَاعِ الحُججِ وَالبَرَاهِينِ في كلِّ مَرَّةٍ، وَإِفْرَادُهُ لِذَلِكَ خُطَاطَةً كَامِلَةً .

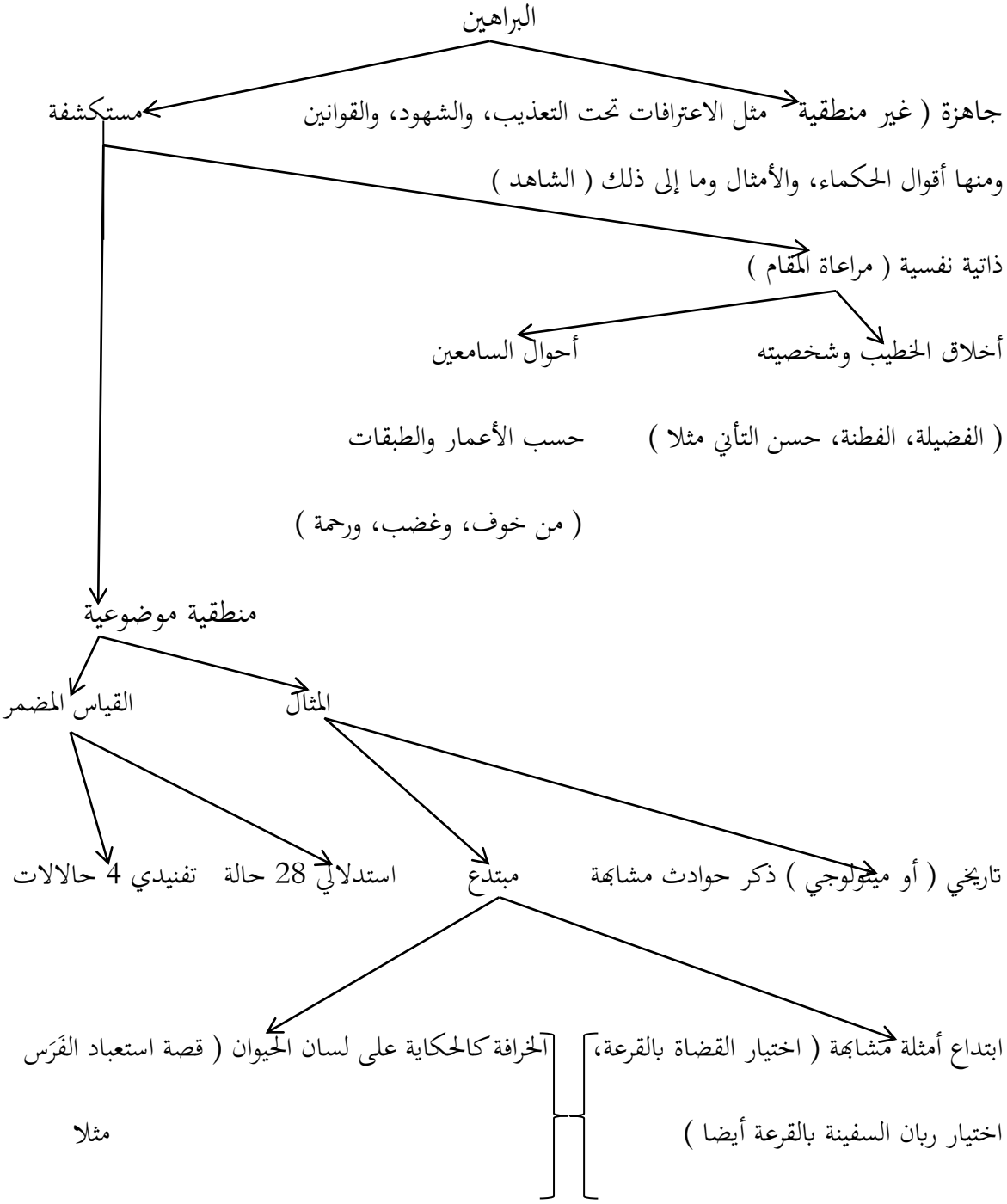


**المبحَثُ الرَّابعُ: تَطبِيقُ نَظرِيَّةِ التَّلقِّي**: نَلمَسُ حُضورَ نَظَرِيَّةَ التَّلَقِّي فِي المشْرُوعِ العُمرِيّ مِنْ خِلالِ مَا تَضمَّنَهُ كِتابُهُ " البَلاغَةُ العَرِبِيَّةُ أُصُولُهَا وَامتِدَادَاتُهَا "، خَاصَّةً فِي المبْحَثِ الذِي تَناوَلَ فِيهِ عَلاقَةَ البَلاغَةِ بِالاخْتِيَارِ، حَيثُ تَطرَّقَ لِمَفْهُومِ التَّلقِّي وَأَنْوَاعِ المتَلَقِّينَ عِندَ يَاوُسْ، كَمَا أَشَارَ فِي نَصٍّ صَرِيحٍ إِلَى عَدمِ الاكْتِفَاءِ بِالمنْهَجِ البِنيَوِيّ، بَعدَ تَجْرِيبِهِ عَلى النُّصوصِ الأَدبِيَّةِ، وَضَرُورةِ الاهْتِمامِ

بِالمتَلَقِّي، يقول: " لَقدْ تَبَيَّنَ لَنا كَمَا تَبيَّنَ لِغَيْرِنَا فِي السَّنَوَاتِ الأَخِيرَةِ، وَبعدَ تَجْرِيبِ المحَاوَلَةِ البِنيَوِيَّةِ الشَّكْلَانِيَّةِ أَنَّ اِسْتِيعَابَ الظَّاهِرَةِ الأَدَبِيَّةِ تَأرِيخًا، كَمَا هُو تَحلِيلًا وَتَطبِيقًا، فِي كُلِّ أَبعَادِهَا، يَقتَضِي تَحرِيرَ مَفهُومِ النَّقدِ وَالنَّاقدِ مِنَ الفَهمِ التَّقلِيدِي الذِي يُهَيْمِنُ عَليهِ الجَانِبُ الإِخبَارِيُّ وَالتَّوثِيقِي، وَإِعادَةَ صِيَاغَتِهِ فِي إِطارِ الجُهودِ التِي تَبذُلُها جَمالِيَّةُ التَّلقِي لِكتَابَةِ تَارِيخِ الأَدبِ وَنقْدِهِ، بِشَكْلٍ يُحِلُّ المتَلَقِّي المكانَةَ التِي يَستَحِقُّهَا، وَفِي هَذا السِّياقِ بَدأَتْ تَنْكَشِفُ لَنا أَهَمِيَّةُ عَملِيَّةِ الاختِيَارِ وَمَا وَاكَبَهَا أَوْ تَلَاهَا مِنْ شُروحٍ وَتَعلِيقَاتٍ نَقدِيَّةٍ فِي التَّأرِيخِ لِلنَّقْدِ الأَدَبِي "[1] .

لَقدْ عَابَ العُمرِيُّ عَلَى عَملِيَّةِ الفَصلِ بَينَ النَّقدِ وَالأَدبِ، التِي عَرَفتْهَا السَّاحَةُ الأَدبِيَّةُ فِي القَديمِ، وَذلِكَ لِأَنَّ النَّقدَ هُوَ الشَّيءُ الوَحيدُ الذِي يُتِيحُ لِلْمُتلَقِّي أَنْ يَستَثْمِرَ جَمِيعَ مُكتَسَبَاتِهِ القَبْلِيَّةِ فِي دِراسَتِهِ لِلْمَوْضُوعِ الذِي بَينَ يَديْهِ، وَهذَا مَا تَهتَمُّ بِه نَظرِيَّةُ التَّلقِي بِالأَساسِ، وَعليهِ يرَى العُمرِيُّ بِأَنَّ " تَارِيخَ النَّقدِ الأَدبِي قَدْ فَقدَ حَيَوِيَّتَهُ وَوَظِيفَتَهُ بِانفِصَالِهِ عَنْ تَارِيخِ الأَدبِ، وَتَحَوُّلِهِ إِمَّا إِلى أَبْحَاثٍ شِبْهِ سُوسْيُولُوجِيَّةٍ تَهتَمُّ بِأَخبَارِ النُّقَّادِ أَوْ بَلاغِيَّةٍ مِعيارِيَّةٍ تَقعِيدِيَّةٍ، فَفِي الحَالتَيْنِ مَعًا يَغِيبُ الحِوارُ بَينَ المتَلقِّي وَالنِّتَاجِ الأَدَبِي وَهُوَ المجَالُ الحَقِيقِي لِلنَّقدِ الأَدبِي، فَالنَّاقِدُ مُتَلَقٍّ أَساسًا، يَقُول هَانِس يَاوُس: إِنَّ تَارِيخَ الأَدبِ عمَلِيَّةٌ مُتوَالِيةٌ مِنَ المتَلَقِّي وَالإِنتَاجِ الجَمالِيَينِ، عَملِيَّةٌ تَتَحقَّقُ فِي تَحيِينِ النُّصُوصِ الأَدبِيَّةِ مِنْ طَرَفِ القَارِئِ الذِي يَقرأُ، وَالنَّاقِد الذِي يَتَأَمَّلُ، وَالكاتِبِ نَفسِهِ الذِي يُدْفَعُ بِدَوْرِهِ إِلى الكِتابَةِ .

فَهناكَ إِذنْ ثَلاثَةُ أَنواعٍ مِنَ المتلَقِّينَ أَوِ القُرّاءِ هُمْ:

1- القَارِئُ العَادِي المستَهْلِكُ ( المتلَقِّي الأَوَّلُ ) .

2- وَالقَارِئُ المتَأَمِّلُ ( أَي النَّاقدُ ) .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 66 .

3- وَالقَارِئُ المبْدِعُ الذِي يَتفَاعَلُ مَعَ العَملِ الأَدَبِيّ فيُنْتِجُ بِدَوْرِه، مُعارِضًا لِلْمقرُوءِ بِشتَّى صُوَرِ المعارَضَةِ .

فَالنَّاقِدُ حَسبَ هَذهِ النَّظرِيَّةِ، وَحسبَ طَبِيعَةِ الأَدبِ الثُّلاثِيَّةِ الأَطرَافِ، جُزءٌ مِنْ مُكوِّنَاتِ التَّلقِّي الأَدبِيّ بَلْ هُوَ عِمَادُهَا "[1] .

وَعَلَى سَبِيلِ الاسْتِدلَالِ يَستَشْهِدُ العُمرِيُّ بِدِراسَةِ المرْزُوقِي لِعَملِ أَبِي تَمامٍ، قَائِلًا: " لَقدْ كَشفَتْ مُقدِّمَةُ المرْزُوقِي بِصُورَةٍ طَبِيعِيَّةٍ وَملمُوسَةٍ، عَنْ وَشائِجِ القُربَى بَينَ الاختِيارِ وَالنَّظرِيَّةِ النَّقدِيَّةِ، لَقدْ حَاوَلَ المرزُوقِي كَشْفَ شَرائِطِ الاخْتِيارِ فِي عَمَلِ أَبِي تَمامٍ، فَأَوْصَلَهُ ذَلكَ إِلى البَحثِ عَنْ عَمُودِ الشِّعر مِنْ جِهةٍ، وَطبِيعةِ التَّلقِي مِنْ جِهةٍ ثَانِيَةٍ، فَتحَتْ عَنْ سَبعِ خُصُوصِيَّاتٍ بِنائِيَّةٍ، كَمَا تَحدَّثَ عَنِ المطبُوعِ وَالمصنُوعِ، وَمَنْ يَقدُمُ هَذَا وَمَنْ يَقْدُمُ ذَاكَ، وَهذِهِ الأَسئِلَةُ هِيَ الأَسئِلَةُ البَلاغِيَّةُ كَمَا سَيَصُوغُهَا عَبدُ القَاهِرِ الجُرجَانِي فِيمَا بَعدُ، مَا الذِي يَجعلُ بَعضَ الكَلامِ أَحسَنَ مِنْ بَعضٍ ؟ "[2] .

وَفِي هَذهِ الدِّراسَةِ لَاحظْنَا أَنَّ نَظرِيَّةَ التَّلقِّي عِندَ العُمرِيّ، تَأخُذُ مَفاهِيمَ عَدِيدَةً، مِنهَا مَفهُومُ النَّقدِ – الذِي تَنَاولنَاهُ مِن قَبلُ – وَمنهَا أَيضًا مَفهُومُ الاختِيَارِ، وَهُوَ عِندهُ " عَملُ الذَّاتِ المتَخيِّرَةِ فِي تَفاعُلِهَا مَع النُّصوصِ، وَالرِّوايَةِ هِيَ مُحاوَلَةُ التَّطابُقِ مَعَ نَمُوذَجٍ مَوْجُودٍ بِكُلِّ حَذافِيرِهِ، الهَمُّ المرْكزِيُّ فِي رِوايةِ الشِّعرِ ( كَمَا فِي رِوايةِ الحَدِيثِ النَّبوِي ) هُوَ التَّوثِيقُ وَتحقِيقُ النُّصوصِ، وَالاحْتِفَاظُ بِهَا، كَمَا هِيَ، أَوْ كَمَا يُعْتَقَدُ أَنَّهَا هِيَ، فَهِيَ تنْطوِي عَلَى مَوقِفٍ إِيديُولُوجِيٍّ مِنْ جِهةِ المحافَظَةِ وَالتَّبَعِيَّةِ، كَمَا تَنطَوِي عَلَى إِجراءٍ تِقْنِيٍّ لَهُ أَدوَاتُهُ اللُّغويَّةُ وَغيرُ اللُّغوِيَّةِ "[3] .

وَيُفضِّلُ العُمرِيُّ عَملَ النَّاقِدِ أَوِ الشَّارِحِ عَلى عَملِ الرَّاوِي، حَتَّى وِإنْ كَانَ النَّاقِدُ قَدْ وَظَّفَ الأَبياتَ مِنْ دُونِ أَصحَابِهَا، وَهذَا مِنْ ضِمنِ اِهتمَامِهِ بِنظرِيَّةِ التَّلقِي، " فَالمطلُوبُ فِي اِختِيارِ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 67 .
[2] نفسه، ص : 68 .
[3] نفسه، ص : 71 .

المقَطَّعَاتِ أَنْ يَقُومَ عَلى غَرَبَلةٍ دَقِيقةٍ تَنفِي الشَّوائِبِ وَالزَّوائِدِ، أَوِ اِختطاَفِ الأَرْواحِ دُونَ الأَشبَاحِ، وَاِختِراقِ الأَنْهارِ دُونَ الأَكمَامِ، كَمَا يَقولُ المرزُوقِي، فِي حِين يُطلَبُ مِنَ الرِّوايَةِ أَنْ تَكونَ وَافِيَةٍ، وَحِينَ يَقَعُ النَّقصُ أَوِ اِحْتِلالٌ يُفقِدُ المدَوّنَ المروِيَّ قِيمَتَهُ، وَيَسقُطُ فِي النِّسيانِ كَما وَقَعَ لِلْأَصْمَعِيَّاتِ، هَذا فِي حِين لَمَ يُعبِ الحَماسَةَ أَنْ يَكونَ الكَثِيرُ مِنْ شُعرائِهَا غَيرَ مَنسُوبٍ، كَما لَمْ يَعِبْهَا تَدَخُّلُ أَبِي تَمامٍ فِي لَحمِ أَطرَافِ الأَبياتِ المختارَةِ أَوْ تَغيِيرِ بَعضِ الكَلِماتِ المشَوَّشَةِ "[1] .

وَكمَا قُلنَا سَابقًا فَقدِ اِستدَلَّ العُمرِي عَلى دَورِ المتلَقِّي فِي فَهمِ النَّصِ المدْرُوسِ، وَالكشفِ عَنْ مَواطِنَ جَدِيدَةً تُمكِّنُ مِنْ إِعادَةِ قِراءَتِهِ، بِعمَلِ المرْزُوقِي، الذِي نُضِيفُ لَه الآنَ عَملَ اِبنِ قُتيبَةَ فِي قِراءةِ الشِّعرِ العَرِبِي، وَهمَا العالمانِ اللَّذانِ عَمدَ العُمرِي إِلى المقَارَنةِ بَينَهُمَا قَائِلًا " نُقابِلُ فِي هذَا الإِطارِ بينَ منحَى اِبنِ قتيبَةَ فيمَا تَصوّرهُ بناءً مِعياريًّا لِلقصِيدةِ العَربِيةِ وَبينَ مَنحَى المرزُوقِي فِيما أَسماهُ عمُود الشِّعر، فَفِي حِين يَستَوحِي اِبنُ قتيبَة النَّمُوذجَ المروِيَّ عَن الجاهليَّةِ وَيُنظِّرُ لِلمحافَظةِ عَليهِ، فَيفْهمُ البناءُ الماضِي ( الوُقوفُ علَى الأَطلالِ ... الخ ) مِنْ خِلالِ الوَاقعِ الحاضِر ( غَلبةُ المدِيح )، وَيُشرّعُ لِلواقِعِ وَيُدعّمُهُ، بِحُجَّةِ الماضِي ( حَيثُ يُفسّرُ بِناءِ القَصيدَةِ العَربيَّةِ كُلِّهِ مِن زاوِيَةِ غَرضِ المدْحِ )، نَجدُ المرزُوقِي يُثيرُ أَسئِلَةَ الحَاضِرِ ( وَهِيَ أَسئلَتُهُ هُوَ نَفسُهُ كَمُعَاوِنٍ لَه ) عَلى لِسانِ مُخاطِبٍ مُفتَرَضٍ "[2] .

كَذلِكَ تَحَدَّثَ العُمريُّ عَن دَائرةِ الاختِيارِ عِندَ أَبِي تَمَّامٍ، رَابطًا عَملَهُ بِمنْهَجِ الجَاحِظِ فِي التَّأليفِ، وَهُوَ – أَي العُمرِي – يُشيرُ هُنا إِلى التَّأليفِ بِالاختِيارِ، أَي مَا يُقابِلُ عِند يَاوُسْ، جَمالِيَّةَ التَّلقِي، وَهِيَ مَفهُومٌ إِجرائِيٌّ تَقومُ عَليهِ نَظرِيَّةُ التَّلقِي، وَتنبَنِي عَلى العَلاقةِ بَينَ التَّجارُبِ السَّابِقةِ وَالتَّجارُبِ الجدِيدةِ، فَكلَّمَا كَان هُناكَ تَقارُبٌ بَينَهمَا تَجلَّتْ بِوُضُوحٍ جَماليَّةُ التَّلقِي، وَكلَّمَا كَانَ هُناكَ تَنافُرٌ، تَتَوَلَّدُ جمَاليةُ الحِيرةِ، أَوْ جَمالِيَّةُ الاندِهاشِ، لِذلكَ يقُولُ العُمرِي: " لمْ يَكنْ عَملُ أَبِي تَمامٍ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 71، 72 .

[2] نفسه، ص : 72 .

عَملًا مَعزُولًا، وَتَرْجِيَةً لِلوَقتِ فِي اِنْتِظارِ ذَوَبَانِ الثُّلوجِ، بَل كَان جُزءًا مِنِ اِستِرَاتِيجيَّةٍ عَامَّةٍ لِحرَكةٍ ثَقافيَّةٍ تَجديدِيَّةٍ هِي حرَكةُ التَّأليفِ بِالاختِيارِ، كَان لَها أَثرٌ كَبيرٌ فِي تَوجِيهِ الذَّوقِ الأَدبِي، وَهذَا هُوَ الإِطارُ المناسِبُ فِي نظرِي لِتفسيرِ مَنهجِ الجَاحظِ فِي تَأليفِ كِتابِ البَيانِ وَالتبْيِينِ، ثُم هُوَ بَعدَ ذَلكَ الإِطارُ المناسِبُ فِي خُطوةٍ ثَانيةٍ لِتفسِيرِ طَرِيقَةِ تَأليفِ البِديعِ لِعبدِ الله بنِ المعتزِ "[1] .

هَذا وَإِنَّ مَسألَةَ الاختِيارِ فِي الشِّعرِ العَرِبِي، قَدْ عُرِفَتْ بِكثرَةٍ، وَلذلِكَ لَا يَسعُ العُمرِيَّ أَنْ يُورِدَ جَميعَ الأمثِلَةِ الدَّالَّةِ عَليهَا، وَإِنَّمَا عَمدَ إِلى تِبيانِ أَهَمِّ مَا تميَّزَتْ بِه، مِنْ خِلالِ قَولِهِ: " يُمكنُ أَنْ نَتبيَّنَ فِي تَاريخِ الاختِيارِ الشِّعرِي القَديمِ ثَلاثَةَ تَوجُّهاتٍ:

1- هَيمنةُ الموضُوعِ .

2- هَيمنةُ الصُّورةِ البَلاغِيَّةِ .

3- الملاءَمَةُ أَوِ المزَاوَجَةُ بَين الموضُوعِ وَالصُّورةِ .

وَذلكَ حَسبَ مَا تُبيّنُهُ الخَاناتُ التَّاليةُ:

| الاهتمام بالموضوع<br>في المقام الأول | المزاوجة بين الموضوع<br>والصورة | الاهتمام بالصورة<br>في المقام الأول |
|---|---|---|
| - البحتري في الحماسة<br>- ابن داود في الزهرة<br>ومؤلفات كثيرة في موضوعات<br>خاصة، مثل حلبة الكميت<br>ومراتع الغزلان<br>للقاضي النواجي | - أبو تمام في الحماسة<br>في حين تميل الوحشيات نحو<br>الاهتمام أكثر بالصورة | - ابن المعتز في : فصول التماثيل<br>- الأنباري في : كتاب التشبيهات<br>- الخالدين في : الأشباه والنظائر |

إِنَّ الاختيَارَ عندَ العُمرِي لَا يَتوقَّفُ عَلى الجَانبِ العَرِبِي بَل يَتعدَّاهُ إِلى كُلِّ مَا يُمثِّلُ الثَّقافةَ الإِنسانِيَّةَ، وَهُوَ مَا يُوافقُ بِالضَّبطِ مَفهومَ نَظريَّةِ التَّلقِي التِي تَعتَمدُ علَى تَفعِيلِ المكتَسبَاتِ القبْليَّةِ

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 73 .

لَدى القَارِئِ، مَهما كانَ، فَالنَّصُ العَرَبِي الذِي يُقرأُ مِن لَّدنِ قَارِئٍ عَربِيّ لَا يُعطِي نَفسَ النَّتائِج التِي يَصلُ إِليهَا القَارئُ الأجنَبِي، ذَلك أنَّ لِكلِّ ثَقافَتُهُ وَمكتسَبَاتُهُ الخَاصَّةُ، ومِنْ هُنَا يَقولُ العُمرِيُّ " لَا يُراوِدُنِي شَكٌّ فِي أَنَّ هَذا الاختِيَارَ كَانَ تَمثِيلًا لِثَقافَةٍ إِنسانِيَّةٍ تَقومُ عَلى المثَاقَفَةِ وَتبادُلِ التَّأثِيرِ، ثَقافَةً تفاعل فيها الإسلامي، واليوناني، وغير الإسلامي واليوناني، من تراث الفرس والهنود وغيرهم، تفاعلا عميقا تجاوز ما يمكن أن تُعبّر عنه الشعارات والصيحات العابرة وردود الفعل المتشنجة، وهي الثقافة نفسُها التي عبّر عنها الجاحظ في رصده الأنساق والطبائع الإنسانية، ومظاهر التعبير الكوني "[1] .

أما عن أهمية نظرية التلقي ووجودها على الساحة الأدبية والنقدية، فقد اِستدل العمري على هذا الأمر بعمل المرزوقي قائلا: " ويبدو أنّ إهمال العلاقة بين اختيار أبي تمام ومقدمة المرزوقي وملاحظاته التطبيقية هو الذي حال دون فهم مصطلحاته عن شرف المعنى وصحته، وما شاكَل ذلك، فظلت مقدمة المرزوقي على هامش الدراسات النقدية والبلاغية "[2]، ويضيف العمري قائلا: " لقد كانت الأسئلة التي طرحها المرزوقي أهم من الأجوبة التي قدمها:

تساءل عن شرائط الاختيار، فقاده ذلك التساؤل إلى التساؤل عن الأدبية، وكيف يمكن وضع قواعد تبعد الشبهات .

وكما طرح الأسئلة في المستوى البنائي طرحها في مستوى التلقي والاختيار ( بين المطبوع والمصنوع )، أي في إطار التاريخ، وحين حاول وضع المعايير الكفيلة تفحّص الأسس المقترحة دار في حلقة مفرغة .

أ- نريد معايير موضوعية نتلافى بها الأحكام الذوقية والاجتهادات الخاصة .

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 82 .

[2] نفسه، ص : 82 .

ب- المعايير في عمود الشعر

جـ- ومكونات عمود الشعر تختبر بالعقل، والفطنة، والطبع، والذكاء، وحسن، التمييز، وحسن التقدير، وحسن التقدير ... الخ

وبذلك نعود إلى نقطة الانطلاق، وهي الذوق والملكات الخاصة، وذلك برغم إشارته إلى بعض الخصوصيات والمعايير اللغوية .

لقد كانت الأسئلة التي أثارها الاختيار في ذهن الشارح ( المرزوقي )، أو في ذهن عصره، أسئلة جوهرية، هي نفسها التي تطرح في كل عصر : ما الخصوصية الأدبية ؟ ما الذي يميز الشعر عن غيره ؟ لماذا يختلف الناس في تلقيهم للأدب ؟

إنها أسئلة مبكّرة، بما فيها من صراحة وعمق "[1] .

إنَّ أهمية الاختيار، لا تقف عند حد الجانب النقدي وتفاعل القارئ مع النص، بل كان لها دورا أساسيا في حركة التأليف، ذلك ما تنبّه إليه العمري وما سرده في قوله : " ومن هنا ندرك كيف أنّ كتب الاختيار كانت المحرّك الأول لطرح الأسئلة الجوهرية في النقد العربي، الأسئلة التي تصدّت البلاغة لمناقشتها، ولكن في انفصال عن الحركة الشعرية أحيانا "[2] .

لقد كان اِهتمام العمري بنظرية التلقي واضحا في مُؤَلَّفِهِ البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وهذا ما حاولنا التنويه به في مبحثنا هذا، إلا أننا ارتأينا أن نعزّز ما سبقت الإشارة إليه من أفكار، أن نعزّزها بالشواهد التطبيقية التي تدل على أنّ العمري استعمل نظرية التلقي في مؤلفاته، ولم يكتف بالإشارة إلى أهميتها في التحليل فقط، ومن هنا رأينا أن تكون انطلاقتنا من قول منسوب إلى

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 84

[2] نفسه، ص : 84

الباحثة الجزائرية ابتسام بن خرّاف، تحدثت فيه عن المشروع البلاغي عند العمري، و أهم المناهج التي اِعتمدها المشروع .

في مقال بعنوان: تلقي النص البلاغي عند الدكتور مُحَمَّد العمري، للباحثة الجزائرية اِبتسام بن خرّاف أنّ أكّدت فيه على أنّ " نظرية التلقي تبدو بارزة في مصنفه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وذلك من خلال الانطلاق من الأسئلة التاريخية ، والتوقعات، والمشاريع والمنجزات، وقراءة اللاحق من السابق، وغير ذلك من قضايا التلقي والقراءة "[1]، وأبرزها ما يتعلق بالمشاريع والمنجزات، وهو ما يتمثّل في " القياس الذي يقوم على استقراء الظواهر واِستخراج نظامها الخفي الذي يترجمه الاطراد "[2]، وهذا العنصر مثّل له العمري بالأمثلة التالية :

هناك أربع حالات تحدّث فيه العمري عن مسألة المشروع والمنجز، مبيّنا بعض التباين بين ما خُطِّطَ له أثناء بناء المشروع وما تم التوصل إليه بعد إنجازه، وقد قارب العمري في طرحه لهاته الحالات عمل ياوس في جمالية الاندهاش، فجميع هاته المشاريع كانت على تباين كبيرٍ، وهي مشروع اِبن سنان، ومشروع الجاحظ، ومشروع السكاكي .

**1- مشروع اِبن سنان:** بالنسبة لهذا المشروع فقد لاحظ العمري أنّ صاحبه قد أنبأَ عن اهتمامه بالفصاحة فقط، ولذلك كان عنوان كتابه سر الفصاحة، غير أنّه لم يلتزم بهذا الأمر، إما عن قصد أو عن غير قصد، فراح يتحدّث عن جانب المعاني التي تخرج عن الأصوات، ومن قوله " اِنطلق اِبن سنان من الجزم بانحصار الفصاحة في الأصوات، ثم اِنزلق من الصوت إلى اللفظ ببعديه الصوتي

[1] اِبتسام بن خرف، تلقي النص البلاغي عند الدكتور مُحَمَّد العمري مقاربة وصفية تحليلية، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، العدد الخامس 2013م، ص : 51 .

[2] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 13 .

والدلالي، ثم صار إلى المعاني المفردة، أي في استقلال عن الصوت، وذلك كله تحت ضغط طبيعة الموضوع وما أنجز فيه قبله "[1] .

**2- مشروع الجاحظ**: وبالنسبة للجاحظ فقد رأى العمري أنّ هنالك تشابها في كيفية العمل بينه وبين الخفاجي، فقد كان مشروعه البيان العربي الذي دافع عنه ضد الشعوبية، وكان من المفترض أن يقتصر عمله على هذا فقط، غير أنه انعطف نحو علم الدلالة بما لا علاقة له بالموضوع، يقول العمري : " وما وقف في مؤلف اِبن سنان شبيه بما وقع في بيان الجاحظ، فالمشروع عند الجاحظ هو البيان بجميع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ، وغير لفظ ( الإشارة، والخط، والعقد، والنصبة أي الحال الدالة ) ثم سرعان ما قُويض البيان بالبلاغة ثم قُويضت البلاغة بالخطابة، وتوجه الاهتمام إلى المقام والأحوال "[2]

**3- مشروع السكاكي**: ويأتي مشروع السكاكي، الذي عمل فيه أبو يعقوب على تأليف كتاب في علم الأدب، واصفا إياه بمفتاح العلوم، أي مفتاح كل العلوم التي يشملها الأدب العربي، غير أنّه أقحم بعد ذلك علم المنطق فاتحا بذلك مجالات أخرى نحو الدراسة البلاغية، لولا أنّ شرّاحه قاموا بتقزيمه في ثلاثة علوم، يقول العمري : " ويمكن أيضا في إطار المشاريع والمنجزات، تأمل عمل السكاكي في مفتاح العلوم، فمن البحث عن علم الأدب، من خلال النحو والصرف، وصل إلى ما اِعتُبر إبداعا له يُغطّي على غيره، وهو تنظيم علم المعاني وتأطيره، فعلم المعاني الذي جاء لتكميل النحو في تأسيس علم الأدب في مشروع مفتاح العلوم صار مركزا، وصار النحو والمنطق ( علم الاستدلال ) مجرّد خدم له، لقد تولّد علم المعاني باعتباره لُبَّ البلاغة ومركزها عند السكاكي، عبر مخاض تفاعل النحو والمنطق والشعر في علاقتها بالمقاصد الإنسانية "[3] .

---

[1] مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص : 14 .

[2] نفسه، ص : 14

[3] نفسه، ص : 15

وفي دراستنا لبلاغة المناظرة عند العمري لاحظنا تداول مصطلح التلقي بشكل كبير جدا، سواء عند العمري أو عند رشيد يحياوي، ولعل من بين النصوص التي يمكن أن نستدل بها قول العمري : رشيد: " نعتقد أنّ الباحث ربما كان عليه أن يخرج من توتر التقوقع إلى بناء التلقي، لآن القراءة تبني ولا تبنى، والكتاب وضّح موقع البلاغة في فصله الأول فقال بدخول البلاغة في التبالغ، وهذا لم يدفعه لإعادة بناء توقعه، فقد ظلّ عند فكرة أنّ التبالغ داخل في البلاغة، وهذا ما يجعله دائم البحث عن البلاغة خارج التبالغ، والحال أنها داخله "[1] .

– **ردّ العمري:** جاءت لحظة القطاف، فقال : " ربما كان عليه ... "، وجوابي على هذه النصائح التي تكررت – مع " ربما " أو بدونها – هو : العمري يعرف ما عليه أن يفعله، وقد فعله لوجه الله، محبّة في العلم، والتحكيم معرفة وخبرة وتيقظ، لأن أساليب الإخفاء تطورت في السنوات الأخيرة، فوجب تطوير أجهزة الكشف، وقد علمته الدربة ألا يستسلم للعمل المحكّم إلا تاكتيكيا واستراتيجيا، ليكشف عن خبيئته قبل أن يكرّ عليه بالأسئلة انطلاقا من قواعد ابستمولوجية عامة، تكيّف حسب التخصصات وأنواع الأقاويل [2].

تحدّثنا آنفا عن حاجة التطور العلمي إلى التوتر، وعن خطورة الخمول، وفرّقنا بين التوتر وبين الانفعال السيكولوجي الذي يُخفض الرقابة العقلية، فيؤدي إلى مراكمة الأحكام الخاطئة، والتناقضات الكاشفة، ولذلك قيل : " القاضي لا يحكم وهو غضبان " أما بناء الكتاب فسنعرض له عند الحديث فصول الكتاب، وعن الاختيار والاضطرار . هناك سيظهر : هل بنى الأستاذ موضوعا أم لفّق موضوعات لا رابط بينها ؟[3] .

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 214 .
[2] نفسه، ص : 214 .
[3] نفسه، ص : 214، 215 .

قال: " فقد ظلّ عند فكرة أنّ التبالغ داخل البلاغة "كيف يعقل هذا الكلام ؟ لو ظل العمري عند ما ذكرتم، لما أنكر عليكم إقحام البلاغة ( وهي اختيار )، في التبالغ ( وهو اضطرار )، كيف يستمر في البحث عن التبالغ في البلاغة، وه ينكر بشدّة إدخال البلاغة في التبالغ ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ (...) سبب اللبس عند الأستاذ يحياوي هو أننا نعمل في جبهتين :جبهة المشروع وجبهة المتوهم، المشروع يجعل البلاغة مادة من بين مواد أولية كثيرة سيبني بها العالم الجديد المدعو " تبالغا "، والمتوهم يغير الاتجاه فيرى أن التبالغ كتاب في البلاغة، بل وفي النقد الأدبي، ونظرا إلى أنّ المنجز لم يفلح في بلورة المشروع فقد مال المؤلف إلى حكم ما سماه " الخط العام " للتلقي لتحصيل المشروعية العلمية، ولو في شكل لجوء عند البلاغة [1].

[1] مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص : 215 .

# خـــاتمـــة

**خاتمة:**

التراثُ العربي، تراثٌ غنيٌّ بشتَّى المعارف والعلوم، والبلاغةُ على وجه الخصوص، من الأمور الأكثر حضورا في هذا التراث، منذ أيام الجاهلية وإلى يومنا هذا، لذا فإنّ الدعوة إلى تجديدها بين الفينة والأخرى، لا يمكن أن تكون بمحض الصدفة، بل إنّ لها دوافع ، وأسباب، وأهدف .

ولعل تنوّع دوافع التجديد، وأسبابه، وأهدافه، نابعٌ من تنوّع العوامل المؤثرة على الدرس البلاغي، بحسب كل عصر، ومكان، ففي العصر الجاهلي مثلا، كان العامل الأبرز هو التأثير النعرات القبلية، وفي صدر الإسلام لعب الحق والعدل، والصدق في القول والعمل، موقعًا أساسيا في البلاغة العربية، كنوع من التجديد البلاغي، أما في العصر الأموي، فقد أصبحت الدعوة إلى الانتصار للجنس العربي نوعا آخر من أنواع التجديد، لتأخذ الامور منحى معاكسا في العسر العباسي، كنوع من الرد على النزعة العربية، فظهرت بذلك الشعوبية، وصار لها أنصار ومؤيّدون، وهكذا كانت الدعوات التجديدية تتوالى على الدرس البلاغي العربي متأثرة بهذا الفكر أو ذاك .

وفي عصرنا هذا، صار التجديد في الدرس البلاغي، أمرا جد ضروري، حمل لواءه العديد من الباحثين، الذين كنا قد تناولنا بعضهم في هاته المذكرة، ولكوننا نعتبر أنّ الباحث المغربي مُحَمَّد العمري أحد أبرز هؤلاء المجددين، فقد قدّمنا هاته الدراسة بغية التعريف به وبمشروعه البلاغي، وقد جاءت دراستنا عبارة عن عمل تحليلي يتناول جانبي التصور والمنهج .

هذا ويعدّ العمري من بين أهم مجددّي الدري البلاغي العربي، بفعل الصدى الكبير الذي خلّفه مشروعه البلاغي على الساحة، خاصة وأنه جاء جامعا بين بلاغتين مختلفتين هما: البلاغة العربية القديمة، والبلاغة الغربية الحديثة، بالموازاة مع بلاغة اليونان كذاك، مستثمرا هاته الازدواجية في القراءة والبحث والتمحيص، في نقل الدرس البلاغي العربي من ضيق القوالب الجاهزة، إلى سعة كافة أنواع الخطاب الاحتمالي .

ولقد قدّم العمري تصوّرا عاما لهذا المشروع، تمثّل في إعادة كتابة تاريخ جديد للبلاغة العربية يقسّمها إلى أربعة مراحل، والعمل على تجديد البلاغة في نفس الوقت، أي أنّ تصور صار جامعا بين التأريخ والتجديد معا، مع الارتكاز على عديد المناهج النقدية، التي كان من أبرزها، المنهج البنيوي، والتداولي، والتاريخي، والتأويلي .

ولعلّ ما يميّز التأريخ عند العمري، هو أنه لم يُعر أيّ اهتمام للترتيب الكرونولوجي كحال بعض المؤرّخين، وإنما نظر إلى الأمر نظرة الباحث البلاغي، فعمل على تقصّي التغيُّرات الطارئة على البلاغة العربية في مختلف العصور، والتأريخ للبلاغة على ضوء هاتيك التغيّرات، لذلك نجده يصف المرحلة الثانية مثلا، بمرحلة الفصاحة والبلاغة، يصف المرحلة الثالثة بمرحة البلاغة علم الأدب .

وتعدّ مسألة " الأصول والامتدادات "، السمة الأبرز في مشروع العمري، وهي تتعلق بالمشارب التي استسقت البلاغة منها، والمشاريع البلاغية الكبرى التي ساهمت في بلورتها، فأما المشارب فهي كالآتي:

- البلاغة ونقد الشعر .
- البلاغة ومعيرية اللغة .
- من تبرير المجاز إلى بيان وجه الإعجاز .
- البلاغة والمعرفة .
- القراءة العربية للبلاغة اليونانية .

وأما المشاريع الكبرى فهي:

- مشروع الجرجاني .
- مشروع الخفاجي.
- مشروع العسكري .
- مشروع السكاكي .
- ومشروع القرطاجني .

كذلك تظهر في مشروع العمري سمة أخرى، هي أنه يقوع على فكرة الخطاطات، حيث، ومن خلالها، عمل على دراسة جميع المشاريع البلاغية الآنفة الذكر، من المشروع إلى المنجز، حيث يدرس العمل السائد لدى هاته المرحلة أو تلك، ويستنبط أهم التغيرات التي طرأت على البلاغة، ومن ثم يخلص إلى إبراز ما الجديد فيها، ومن هنا يأخذ العمري نمطا فريدا من نوعه في التجديد .

وعلى ضوء مشروع العمري، فإن البلاغة عند الجاحظ توضع ضمن بلاغة الإقناع، وهي تعتمد بشكل كبير على الجانب الشفوي، مع الاستعانة بالرموز والإشارات، كما يرى العمري بأنّ المحتوى الفكري لمفهوم البيان عند الجاحظ، يتمثّل في ثلاث نقاط رئيسية هي:

- الدفاع عن البيان بصفة عامة .
- الدفاع عن البيان العربي على وجه الخصوص .
- والوازع الديني .

ويرى أيضا، بأنّ أكمل قراءة لتصور الجاحظ، هي تلك التي قام بها ابن وهبي، في كتابه البرهان؛ والبلاغة عند ابن وهب – وإن كانت تكميلية لبلاغة الجاحظ – إلاّ أنها أخذت منحى كتابيّا، وهي أقرب، في نظر العمري، إلى نظرية معرفية، في حين أنّ عمل الجاحظ يندرج ضمن النظرية البلاغية .

وأما بخصوص أبي هلال العسكري، فقد أبانت دراسة العمري عن الهدف الأساس لكتابه الصناعتين، الذي يتمثّل في إيجاد سبل منهجية لتعليم الكتابة والشعر، في إطار مفهوم البلاغة العامة، وقد اهتمّ ابن وهب في هذا الكتاب بالأطراف الثلاثة المكوّنة للخطاب ( المرسل، المتلقي، والرسالة ) .

كذلك درس العمري مشروع عبد القاهر الجرجاني ضمن مصطلحين اثنين هما: الغرابة الشعرية، والمناسبة التداولية، حيث جاء الأوّل عبارة عن قراءة في كتاب أسررا البلاغة للجرجاني، والثاني قراءة لكتابه الآخر، دلائل الإعجاز .

وفي تعريف العمري لمصطلح الغرابة، يرى أنّها تقترن بالفارقة، والتخييل، والتركيب، والتأويل، وأنها توصف بالكذب، والغموض، وأما عن المناسبة التداولية، فهي تشير إلى كل ما هو متعارف عليه ضمنيّا بين الملقي والمتلقّي للخطاب، ومنها جاء مفهوم مقتضى الحال، عند السكاكي .

إنّ بلاغة الجرجاني، هي بلاغة عامة قائمة على المعنى، تقابلها بلاغة أخرى قائمة على الصوت، هي البلاغة الصوتية عند ابن سنان الخفاجي، هذا الأخير، الذي تميّز في أسلوبه الكتابي، بأسلوب العالم الأديب، وهو أقربُ إلى المتأخرين من أسلوب الجرجاني، مما جعل كتابه سر الفصاحة، أكثر نفعا في تربية ملكة النقد، كما يرى العمري .

وبالحديث عن السكاكي، ندخل مجال البلاغة / علم الأدب، وقد عرض العمري لعمل هذا الأخير، من خلال البحث في مفهوم الأدب عنده، ووظائفه، وأساس مشروعه، ودائرة البلاغة عنده، وبلاغة الانزياح كذلك .

وأما عن حازم القرطاجني، فقد وصف العمري بلاغته بالعلم الكلي، وذلك لكونها وصلت في عصره إلى درجة استيعاب كافة العلوم الإنسانية المعاصرة لها، بما في ذلك المنطق والفلسفة، ومع هذا فإنّ الإقبال على دراسة كتابه منهاج البلغاء، من طرف البلاغيين الذين جاءوا من بعده، كان شحيحا جدّا، إذا ما قارنّاه بعمل السكاكي، بل إنه لم يصلنا – كما يقول العمري – من هذا الكتاب إلا قسمه الأوّل فقط .

والعمري في دراسته لعمل كلا الرجلين، القرطاجني والسكاكي، يخلُص في الأخير إلى أنهما كانا يسعيان إلى شيء واحد، لكن بزاويتين مختلفتين، وهذا الشيء الواحد هو البلاغة في حد ذاتها .

هذا ولقد خلُص أيضا، العمري من خلال مشروعه، إلى أنّ الانحراف الذي وقع للبلاغة العربية، جاء من جرّاء عدم قراءة مشروع السكاكي القراءة الصحيحة التي يستحقّها، حيث جاء هذا الأخير باحثا في البلاغة وعلاقتها بعلم النحو، وعلم المنطق، إلا أنّ شرّاح كتابه " مفتاح العلوم " أهملوا المنطق والنحو، وانكبوا على ما يتعلق بالمعاني، ومن بعدها أضافوا البيان، والبديع، ولا يقصد بالبيان هنا ما عرفنها مع الجاحظ، ولا بالبديع ما عرفناه مع ابن المعتزّ، بل ما هو حاصل عندنا اليوم، أي في تلك الشواهد الشعرية والنثرية، الموضوعة كقوالب جاهزة في كتب البلاغة المدرسية، وحتى الجامعية في بعض الأحيان .

ومما خلُص إليه العمري كذلك، هو أننا يمكن أن نصل، من خلال هذا المشروع، إلى إيجاد عدد لا متناه من البلاغات، كبلاغة الخطبة، وبلاغة القصة، وبلاغة الرواية، وبلاغة الشعر، و غيرها ... الخ، وأننا نستطيع أن ندرس كل بلاغة على حدة، بخلاف ما كنا عليه من قبل .

ونحن نرى أنّ ما جاء به العمري، يمكن أن يخلّص الباحث العربي المجدد في البلاغة، من تأثيرات البلاغة الغربية الجديدة، ذلك أنّ المجدّين اليوم، قد انقسموا بين داع إلى التجديد عن طريق دراسة الأسلوب، وآخر عن طريق الحجاج، وكلها آراء متأثرة بالغرب، لكن ومع تبنّي فكرة العمري هذه، نكون قد اكتفينا بدراسة بلاغة القصة، والرواية، والشعر، ... وغيرها، بدل دراسة بلاغة الحجاج، وبلاغة الأسلوب، ... الخ .

وعلى أيّ حال، فإن الحديث عن العمري، أو عن غيره من المجدّدين، يفرش علينا بالضرورة، أن نتحدّث عن التجديد في الدرس البلاغي، الذي صار أمرا ضروريا في وقتنا الحالي، ولابد لنا من

النهوض بالبلاغة العربية لمواكبة العصر، إذ لا يصحّ لسليلة القرآن الكريم أن تعود إلى الوراء فاسحة المجال، لبلاغة نشأت بين أحضان كتابيْ فن الخطابة، وفن الشعر .

ونحن حين نرى ما لقيه مشروع العمري، من إقبال منطق النظير، ترجمته عديد الدراسات الأكاديمية، التي كنّا قد أشرنا إلى بعضها في هاته المذكرة، بالإضافة إلى عديد اللقاءات الصحفية التي حظي العمري بها، نستبشر خيرا بمستقبلٍ باهرٍ نرى البلاغة العربية مقبلة عليه، على الرغم من عدم اكتمال مشروعه لحدّ الساعة، وما هذا إلا دليل على علو كعب الرجل في الدرس البلاغي، والدرس البلاغي الجديد منه على الخصوص، مما يدّل على أنّ عجلة البحث العلمي، في ما يتعلق بالبلاغة العربية، لا لم تصل بعد إلى حالة التوقّف عن الدوران، وإن كانت قد عرفت شيئا من الثقل في الحركة، فذلك أمر قد تجاوزته اليوم، وهي في طريقها إلى العودة لمكانتها الأولى من جديد .

ومن هنا، فإننا ندعو في ختام هذا العمل كافة الباحثين الأكاديميين، إلى ضرورة الاهتمام أكثر بمشروع العمري، لما له من أهمية بالغة في إحياء الدرس البلاغي العربي، عن طريق الإكثار من تنظيم الملتقيات العلمية، والندوات الفكرية، ونشر الكتب والمقالات، وإعداد الرسائل العلمية، الباحثة في هذا الشأنّ، لمواكبة مستجدات البلاغة في العالم أجمع، حتى لا تكون بلاغتنا العربية غائبة عن كل ما هو جديد ومفيد .

وتبقى البلاغة العربية سليلة القرآن الكريم، ويبقى القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

# ملاحـق

هذه مجموعة من الملاحق التي أردنا أن نذيّل بها هاته الدراسة، وهي عبارة عن مخططات نختصر من خلالها المذكرة، فكل مخطط منها يوضح جزئية معينة ( التصور، الأصول، الامتدادات، المنهج، ... الخ .

## الملحق رقم : 01

### مخطط يوضح تصور العمري في مشروعه البلاغي ( التأريخ والتجديد )

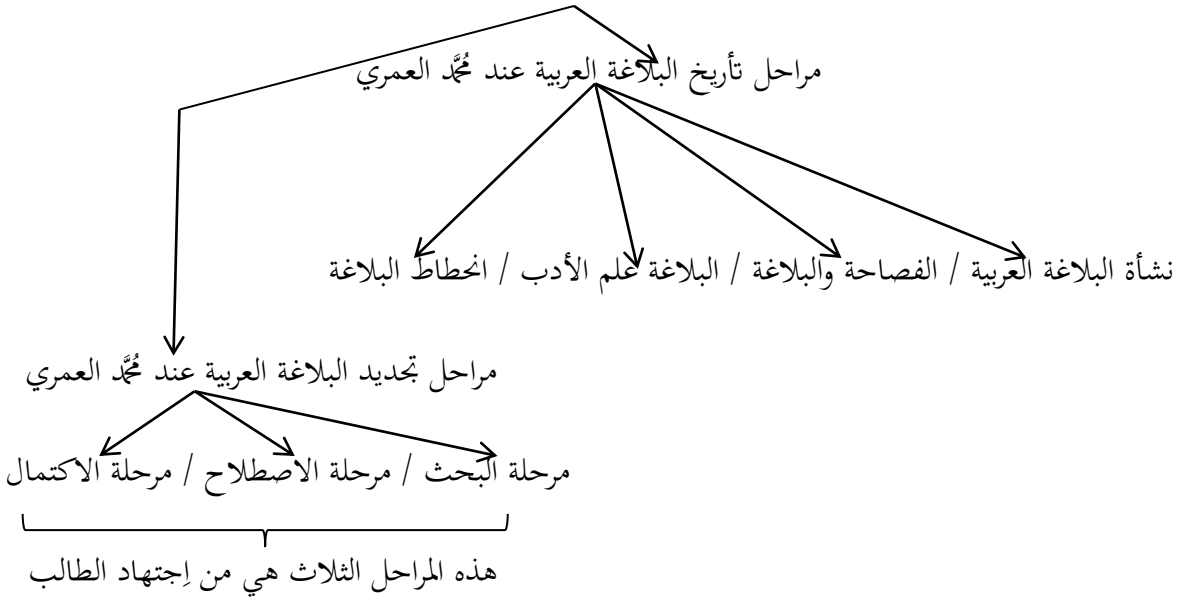

**الملحق رقم : 02**

**مخطط يوضح : " الدراسة التحليلية في أصول البلاغة العربية " .**

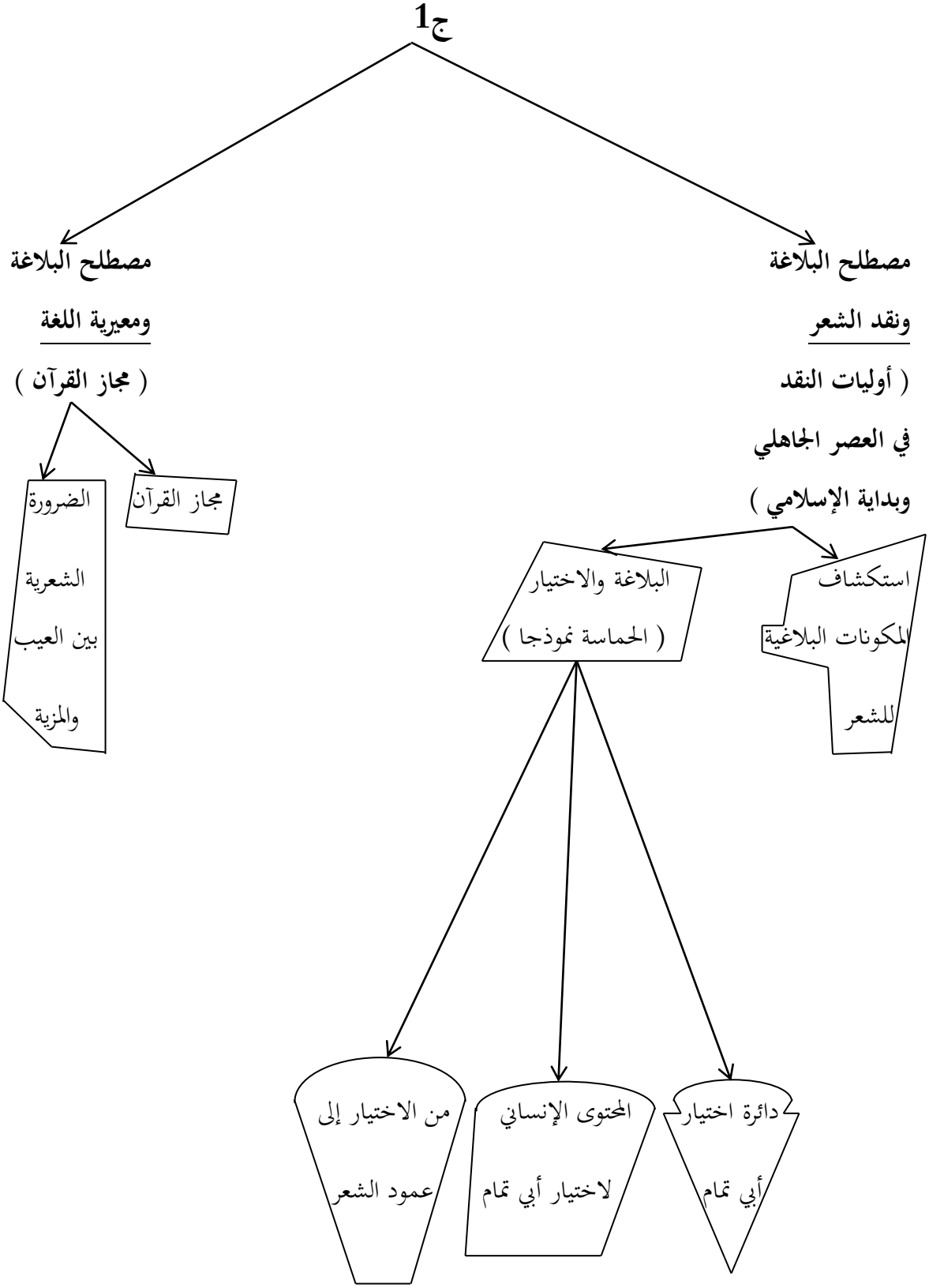

**الملحق رقم : 03**

**مخطط يوضح : " دراسة تحليلية في أصول البلاغة العربية " .**

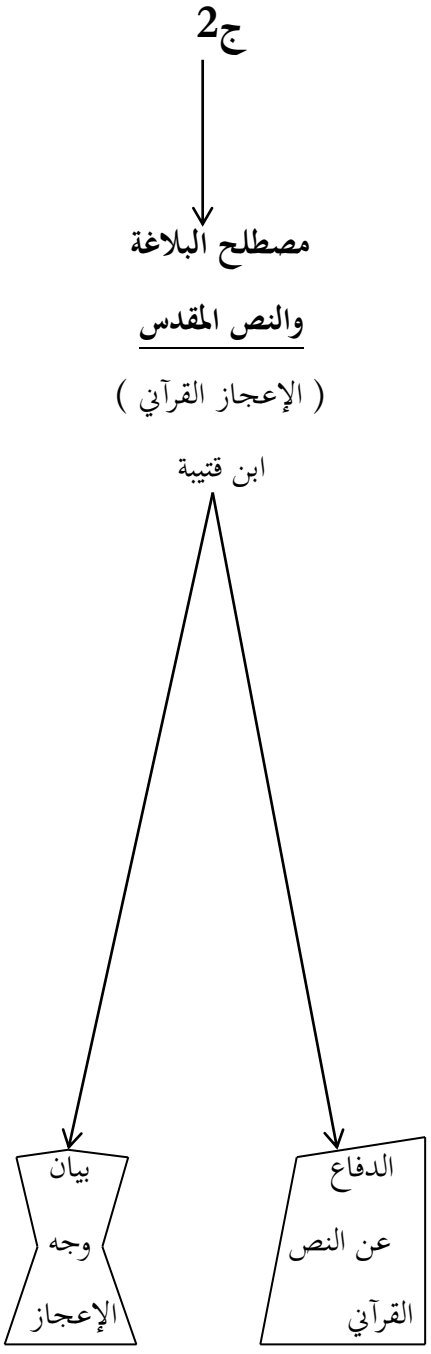

**الملحق رقم : 04**

**مخطط يوضح : " دراسة تحليلية في أصول البلاغة العربية " .**

**ج3**

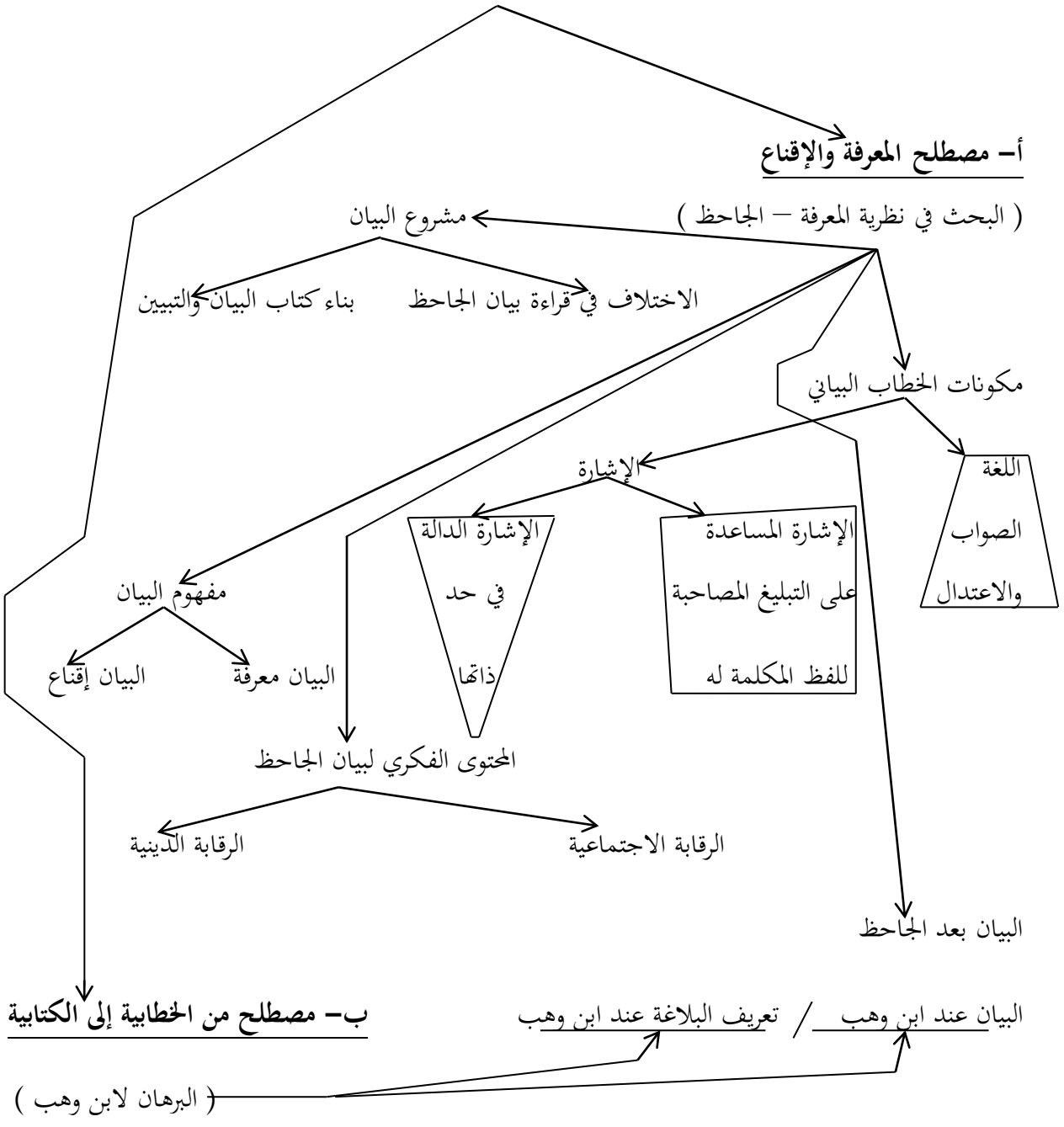

**الملحق رقم : 05**

**مخطط يوضح : " دراسة تحليلية في أصول البلاغة العربية " .**

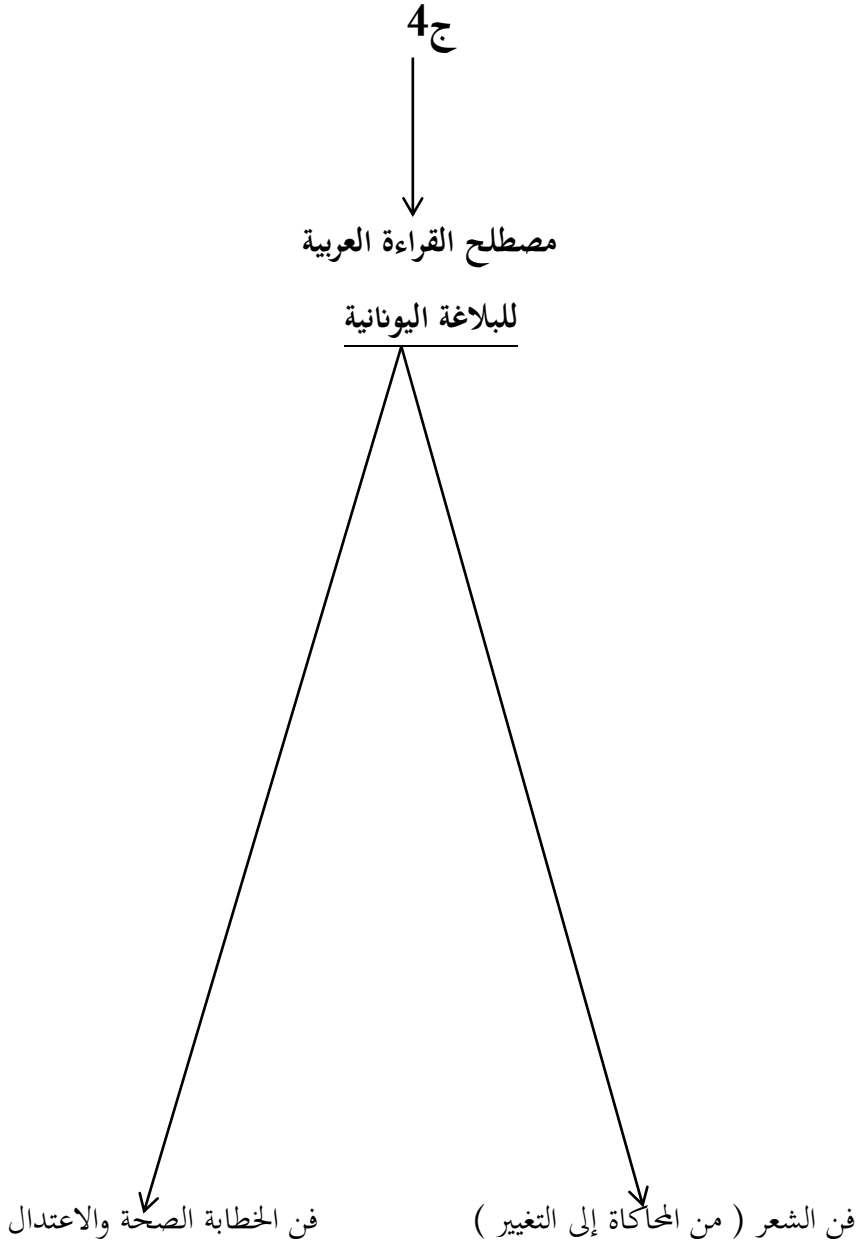

**الملحق رقم : 06**

**مخطط يوضح : " دراسة تحليلية في امتدادات البلاغة العربية عند العمري " ج 1**

**مصطلح الكتابة والشعر**

**( البلاغة العامة )**

**– العسكري –**

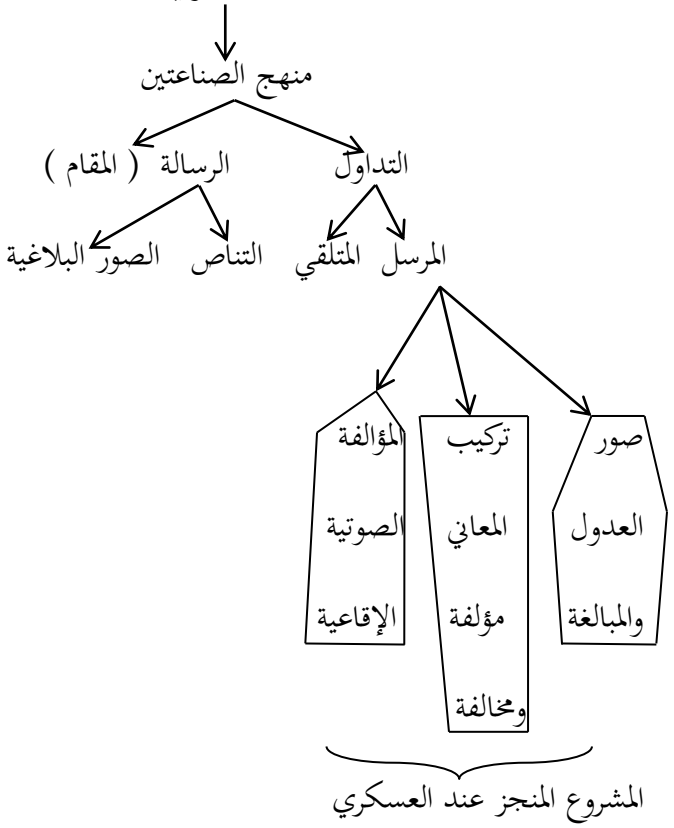


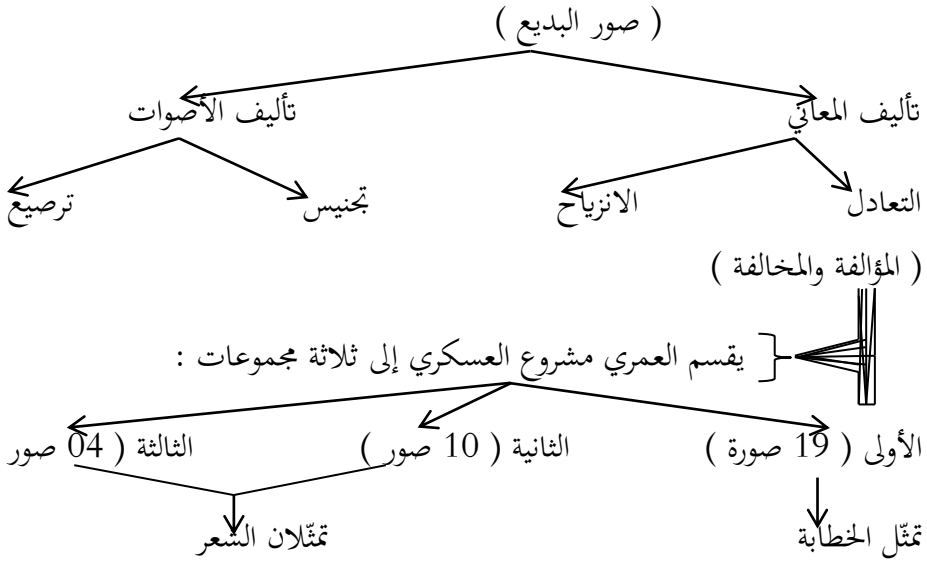

## الملحق رقم : 07

## مخطط يوضح : " دراسة تحليلية في امتدادات البلاغة العربية عند العمري " ج2

**التراوح بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية " قراءة في كتابي " دلائل الإعجاز " و" أسرار البلاغة " لعبد القاهر الجرجاني .**

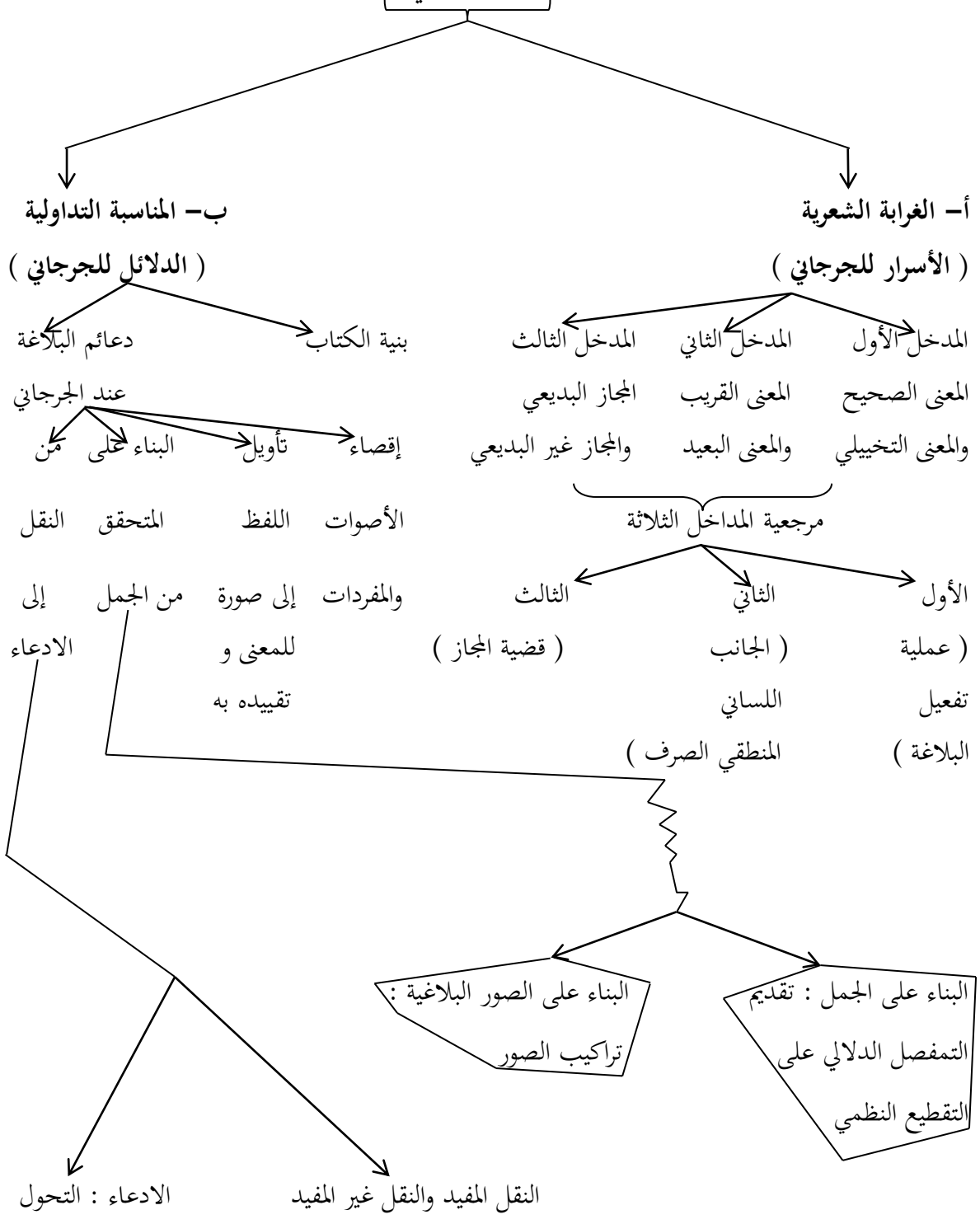

## الملحق رقم : 08

**مخطط يوضح : " دراسة تحليلية في امتدادات البلاغة العربية عند العمري " ج3 .**

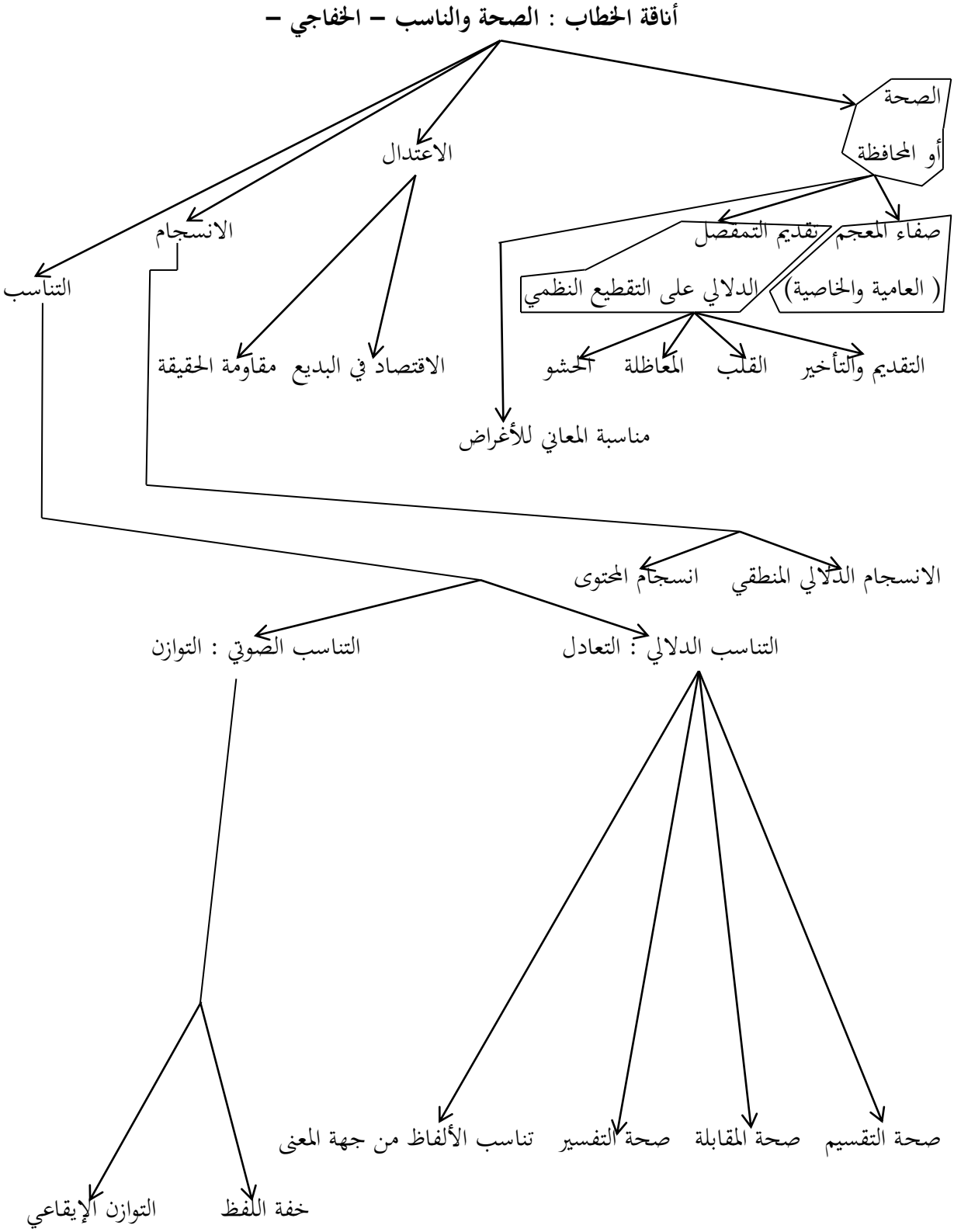

## الملحق رقم : 09

### مخطط يوضح : " دراسة تحليلية في امتدادات البلاغة عند العمري " ج4

### مصطلح البلاغة المعضودة ( السكاكي والقرطاجني )

**أولا : البلاغة علم الأدب : السكاكي**

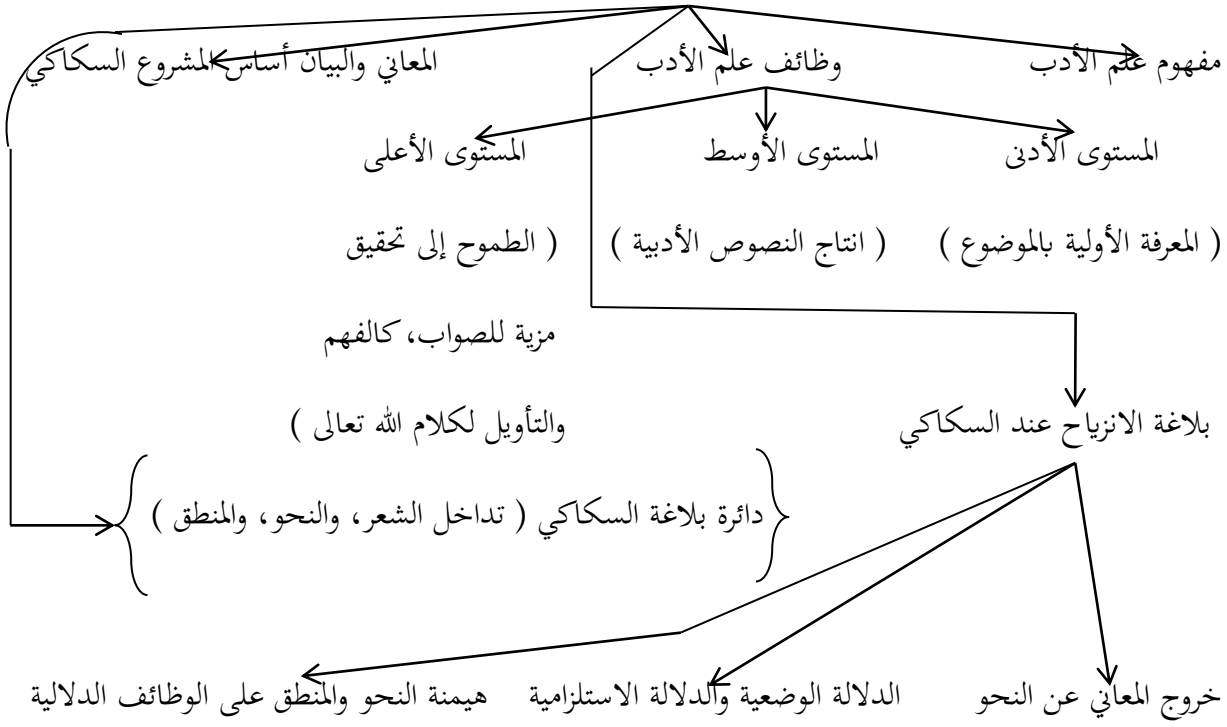


**ثانيا : البلاغة العلم الكلي ( القرطاجني )**

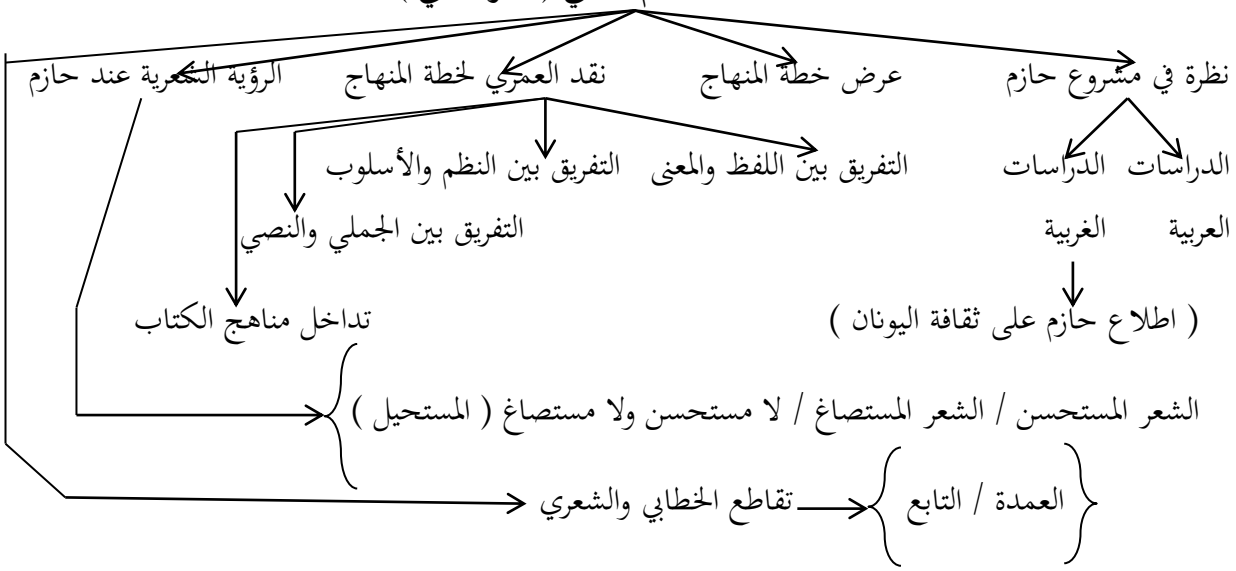

## الملحق رقم :10

**دراسة تحليلية في بلاغة الخطاب الاحتمالي– بلاغة الخطبة**

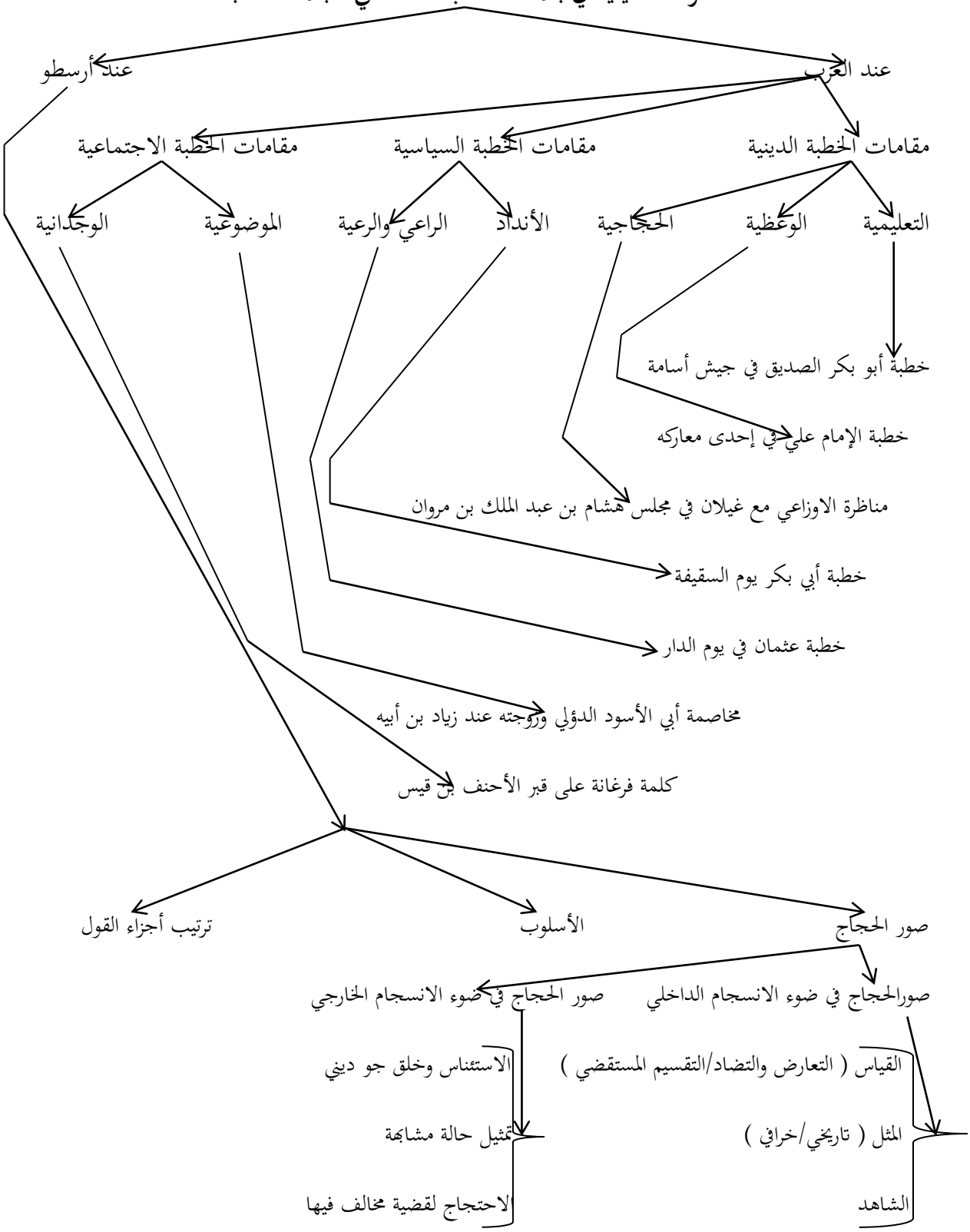

## الملحق رقم :11

**دراسة تحليلية في بلاغة الخطاب الاحتمالي– بلاغة الشعر**

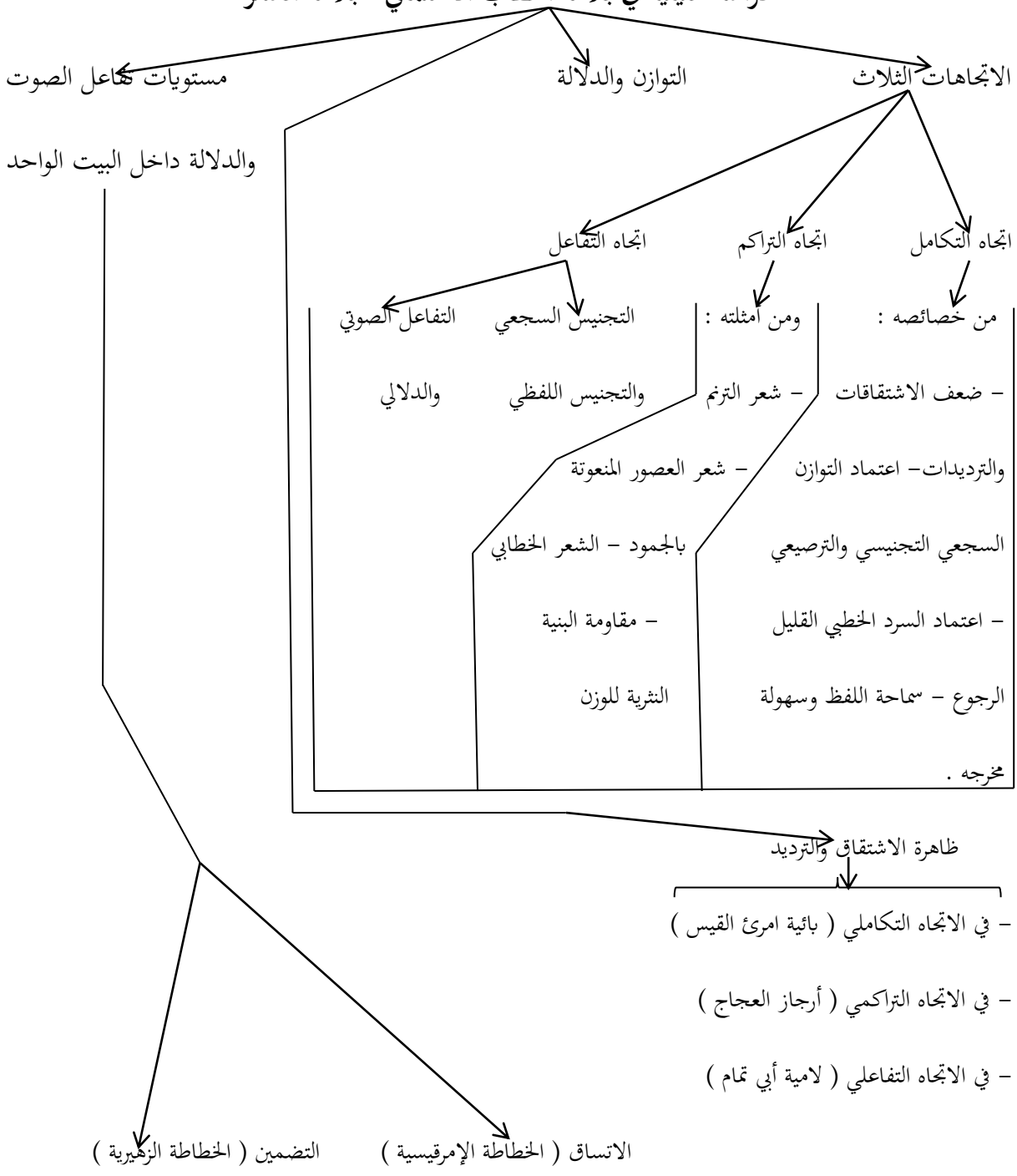

## الملحق رقم :12

**دراسة تحليلية في بلاغة الخطاب الاحتمالي– بلاغة القصة**

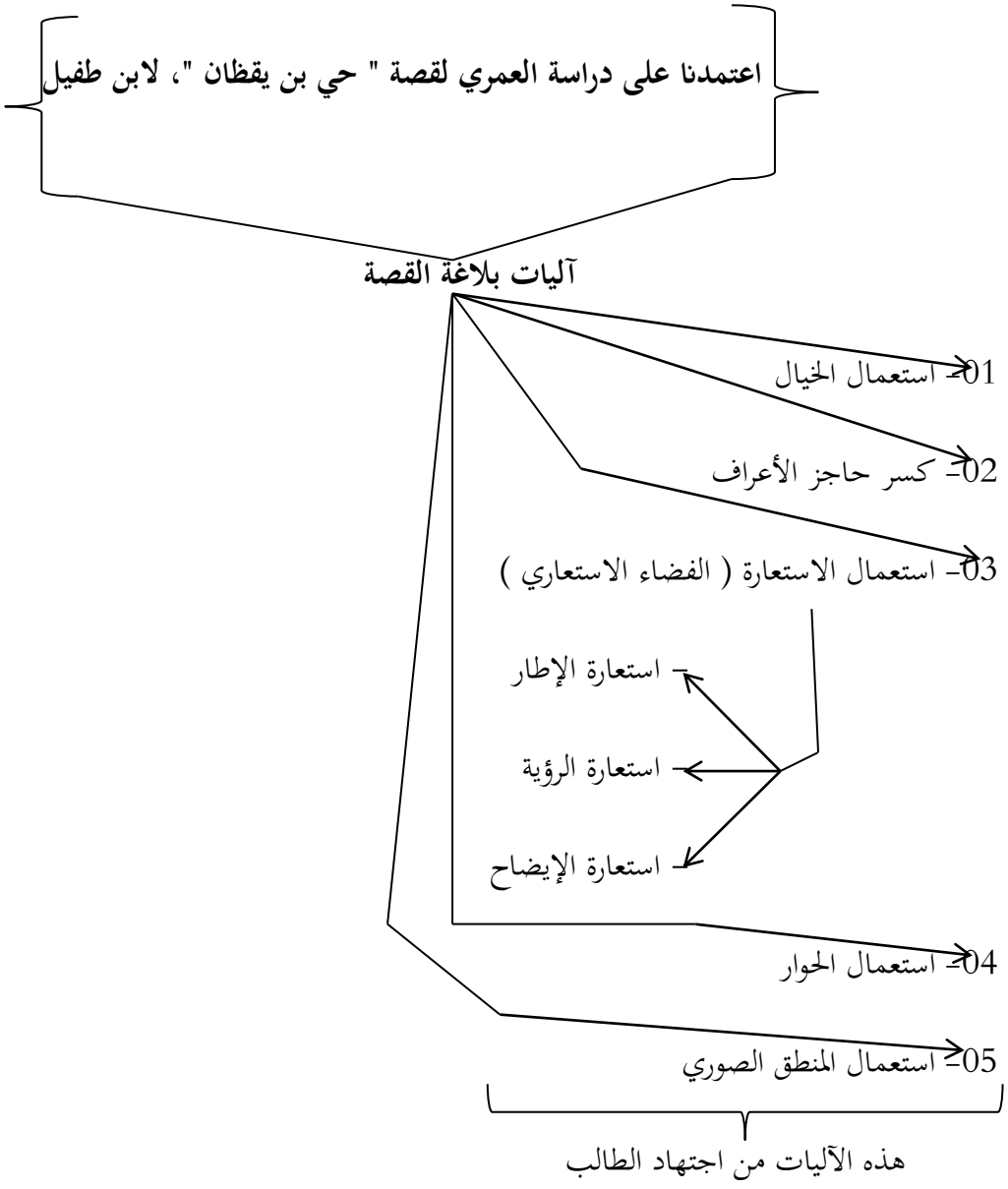

**الملحق رقم :13**

**مخطط يوضّح :دراسة تحليلية في المناهج المتبعة من طرف العمري**

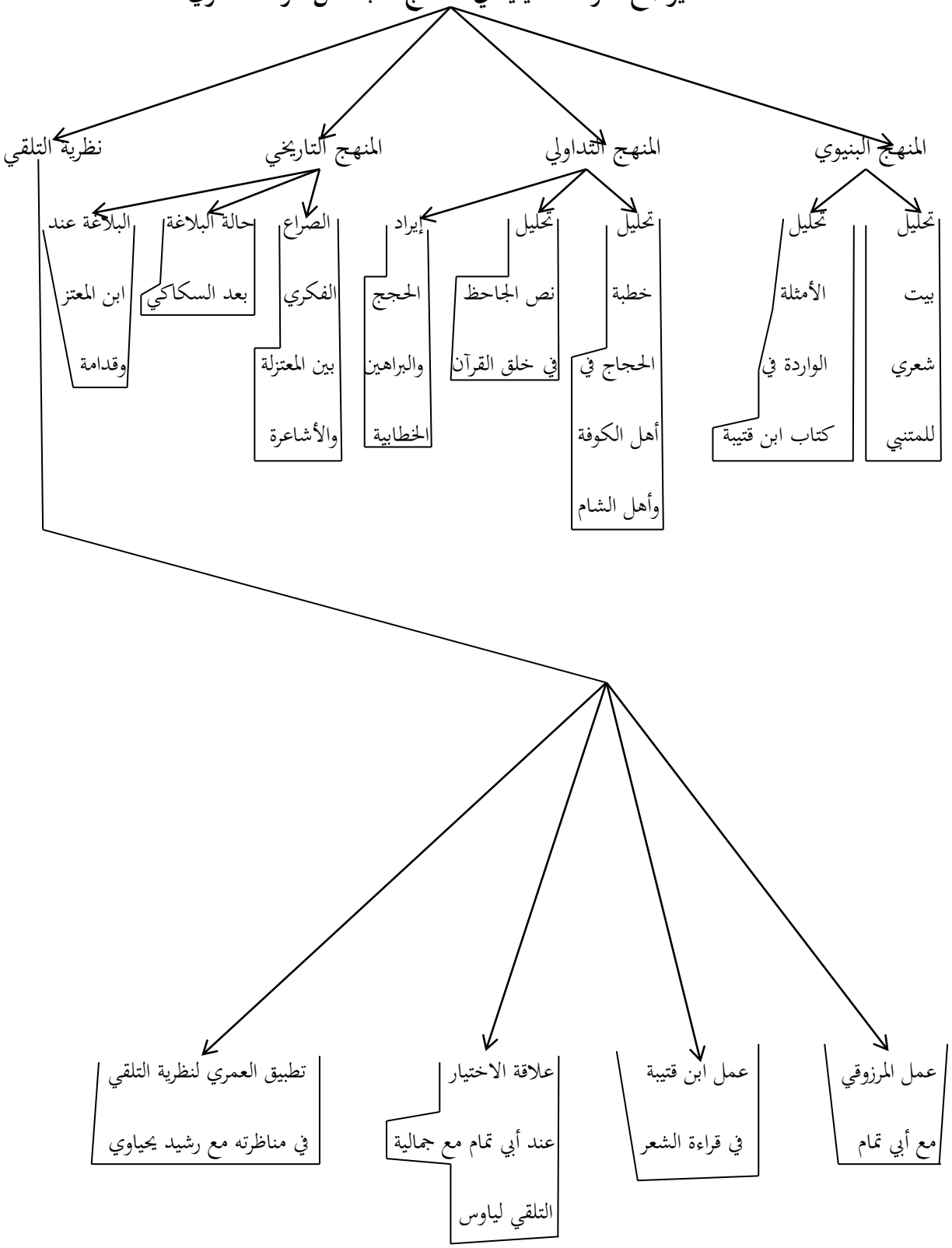

## الملحق رقم : 14

**" مخطط يوضح المشروع البلاغي عند مُحَمَّد العمري دراسة تحليلية في التصور والمنهج "**

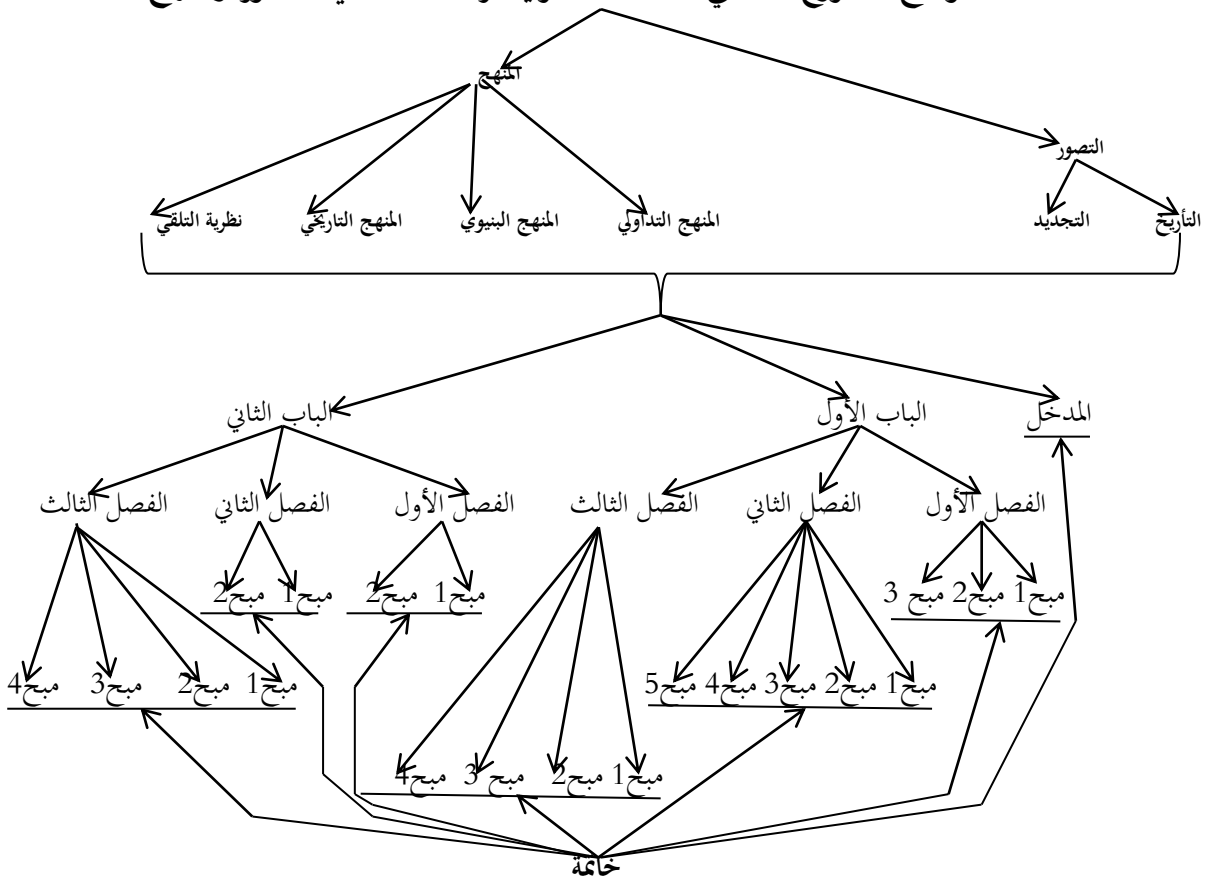

# قائمة المصادر والمراجع

## المصادر والمراجع

**– القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .**

**أولا: الكتب:**

01- أحمد الشايب " الأسلوب "، مكتبة النهضة العربية، القاهرة – مصر، الطبعة الثامنة، 1411هـ/1991م .

02- أحمد حسن الزيات " دفاع عن البلاغة "، عالم الكتب، القاهرة- مصر، الطبة الثانية، 1967م .

03- أرسطو طاليس، الخطابة الترجمة العربية القديمة، تح : عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1979م .

04- الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تح أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة 1992م .

05- البخاري مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن برزويه الجعفي البخاري، صحيح البخاري، الجزء الثالث، اعتنى به أبو عبد الله محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، الطبعة الاولى 1423هـ/2003م .

06- بدوي طبانة، البيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، الطبعة الثانية، 1377هـ/1958م .

07- بدوي عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة، 1977م .

08- بسيوني عبد الفتاح فيّود، علم البيان-دراسة تحليلية لمسائل البيان، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة-مصر، الطبعة الثانية، 1418هـ/1998م .

09- بهاء الدين مُحَمَّد مزيد، تبسيط التداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى، 2010م .

10- الترمذي مُحَمَّد بن عيسى، الجامع الكبير، المجلّد الثالث ( الأحكام والوصايا )، تح: الدكتور

11- بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1996م .

12- ابن تيمية، تفسير سورة النور، راجعه: د. عبد العلي عبد الحميد جامد، الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى 1408هـ/1987م .

13- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة السابعة، 1417هـ/1998م .

14- الجاحظ، الحيوان، ج4، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأبناؤه، مصر، الطبعة الثالثة 1380هـ/1966م .

15- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تعليق : محمود مُحَمَّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1404هـ/1984م .

16- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، تقديم : السيد مُحَمَّد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1409هـ/1988م .

17- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الثالث، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة 2007م .

18- جميل بثينة، الديوان، تح : بطرس البستاني، دار صادو، بيروت، لبنان، ( ب، ط )، ( ب، ت )

19- حجازي سمير، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر، دار التوفيق، دمشق – سوريا، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م .

20- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الجزء الأول، تح : مُحَمَّد إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، العراق، الطبعة الأولى 1428هـ/2007م .

21- حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثامنة، 1964م .

22- حمد بركات حمدي أبو علي " فصول في البلاغة "، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان- الأردن، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م

23- حيدر حسين عبيد، " المنهج البلاغي عند الجرجاني والقزويني في كتابيهما الأسرار والتلخيص دراسة موازنة " دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1434هـ/2013م .

24- الخضر كمال مُحَمَّد جاه الله، مدخل إلى مناهج البحث العلمي، الخرطوم، السودان، الطبعة الأولى، 1437هـ/2016م .

25- الخفاجي بن سنان، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982م .

26- ابن خلدون، المقدمة، ج1، تح : عبد الله مُحَمَّد الدرويش، دار يعرب، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م .

27- دبة الطيب، مبادئ في اللسانيات البنوية، دراسة تحليلية إبستيمولوجية، دار القصبة للنشر، الجزائر، طبعة 2001م .

28- الرافعي مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، الطبعة التاسعة، 1393هـ/1973م .

29- رسائل الجاحظ، ج3، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1484هـ/1994م .

30- رضا مُحَمَّد، أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، درا الكتب العلمية، بيروت، لبنان ( ب، س ) .

31- زكريا إبراهيم، مشكلة البنيوية، أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، ( ب، ط )، ( ب، س ).

32- زكريا بشير إمام، لمحات من تاريخ الفلسفة الإسلامية، دراسة مدخلية ميسرة، الدار السودانية للكتب، الطبعة الأولى، 1418هـ/1998م .

33- السكاكي، مفتاح العلوم، تح : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1407هـ/1987م .

34- سلامة موسى " البلاغة العصرية والبلاغة العربية "، سلامة موسى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1945م

35- سمير حميد، النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري، اتحاد الكتاب العرب، دمشق – سوريا، 2005م .

36- السيد مُحَمَّد رشيد رضا " تاريخ الشيخ الإمام مُحَمَّد عبده " ج1، القسم الأول، دار الفضيلة، القاهرة- مصر، الطبعة الثانية 1427هـ/2006م .

37- شكري مُحَمَّد عيّاد " اللغة والإبداع "، أنترناشيونال برس- مصر، الطبعة الأولى، 1996م .

38- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة التاسعة، 1956م .

39- الصباغ، مُحَمَّد علي زكي صبّاغ، البلاغة الشعرية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418هـ/1998م، ص: 111 .

40- صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة " الأفعال الكلامية " في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 2005م .

41- صفوت، أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج1، مكتبة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، 1352هـ/1923م .

42- صولة عبد الله، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2011م .

43- الطاهر علي جواد الطاهر، مقدمة في النقد الأدبي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1979م .

44- الطبري، أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير ، تاريخ الطبري، الجزء الثالث، تح : مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرف، مصر، الطبعة الثانية، 1387هـ/1967م .

45- الطلبة، مُحَمَّد سالم مُحَمَّد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة-بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2008م .
46- عبد المطلب مُحَمَّد، البلاغة والأسلوبية، دار نوبار للقراءة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1994م
47- ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الثاني، تح : مفيد مُحَمَّد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1404هـ/1983م .
48- عتيق عبد العزيز، علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م .

49- العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين، تح : علي مُحَمَّد البجاوي، و مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1371هـ/1952م .
50- العضيبي عبد الله مُحَمَّد، النقد عند الشعراء، حتى نهاية الرقن الرابع الهجري، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2013م .

51- عمارة مُحَمَّد " رسالة التوحيد للإمام الشيخ مُحَمَّد عبده "، دار الشروق، بيروت – لبنان ،الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م .

52- العمري مُحَمَّد، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، المغرب، 2013م .
53- العمري مُحَمَّد، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، دار أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الأولى 2012م .
54- العمري مُحَمَّد، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، 2010م .
55- العمري مُحَمَّد، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة-مواجهة بين زمن الجرجاني وزمن القرطاجني، ، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الأولى 2017م .

56- العمري مُحَمَّد، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2001م .

57- العمري مُحَمَّد، في بلاغة الخطاب الإقناعي- مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، أفريقيا الشرق-المغرب، ط2، 2002م .

58- العيد يمنى، في معرفة النص، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1985م .

59- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، مادة: بَيَنَ، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، القاهر، مصر، الطبعة الأولى 1399هـ/1979م .

60- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة- مصر، الطبعة الثانية، 1323هـ/1973م .

61- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح : مُحَمَّد الحبيب خوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثالثة 2018م .

62- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المجلّد العاشر، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ومُحَمَّد رضوان عرقسوي، وماهر حبّوش، مؤسسة الرسالة، بيوت- لبنان، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م .

63- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: مُحَمَّد فاضلي، دار الأبحاث، الجزائر، الطبعة الأولى، 2007م .

64- القيرواني بن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، الجزء الأول، تح : السيد مُحَمَّد بدر الدين الشعباني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى 1225هـ/1907م .

65- ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، المجلّد الأول، تح: عماد زكي البارودي، خيري سعيد، دار التوفيقية للتراث، القاهرة- مصر، سنة الطبع، 2011م .

66- ابن كثير عماد الدين، قصص الأنبياء، تح : الشيخ أحمد جاد، دار الغد الجديد، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1429هـ/2008م .

67- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء السابع، تح: أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين، دار ابن الجوزي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1431هـ/2009م .

68- مجموعة من المؤلفين، التحاجج، طبيعتُهُ ومجالاته ووظائفه، تنسيق: حمو النقاري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مُحَمَّد الخامس، بالرباط-المغرب، الطبعة الأولى 1427هـ/2006م

69- مجموعة من المؤلفين، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة : مُحَمَّد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، طبعة 1996م .

70- المسدي عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثالثة، 1982م .

71- ابن المعتز عبد الله بن المعتز، البديع، تح : عرفان مرطجي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1433هـ/2012م .

72- المقطري مُحَمَّد الصغير بن قائد بن أحمد العبدلي المقطري، الحلل الذهبية على التحفة السَّنية، تقديم: مقبل بن هادي الوادعي، دار الإمام مالك، البليدة، الجزائر، الطبعة الثالثة 1428هـ/2007م .

73- ابن منده، الرد على الجهمية، تح : د. علي بن مُحَمَّد ناصر الفقيهي، الطبعة الثانية 1420هـ/1982م .

74- النحوي، عدنان علي رضا، الأسلوب والأسلوبية، بين العَلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، 1419هـ/1999م .

75- هينريش بليث، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة : مُحَمَّد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، 1999م.

76- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح : حنفي مُحَمَّد شرف، مكتبة الرسالة، طبعة سنة، 1389هـ/1969م .

**ثانيا: الدواوين والأشعار:**

01- الأحوص الأنصاري شعر الأحوص الأنصاري، تح : عادل سليمان جمال، تقديم : د. شوقي ضيف، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية 1411هـ/1990م .
02- الأخطل، الديوان، شرح وتقديم : مهدي مُحَمَّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ/1996م .
03- الأصمعي عبد الملك بن قريب، ديوان العجاج، تح : الدكتور عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1416هـ/1995م .
04- الأعشى الكبير ميمون بن قيس، الديوان، تح: د. مُحَمَّد حسين، مكتبة الآداب، الجماميز، ب، ط، ب، ت .
05- امرؤ القيس، الديوان، تح : الشيخ بن أبي شنب، وزارة الثقافة، الجزائر، الطبعة الأولى 2007م .
06- البحتري، الديوان، تح : حسن كامل الصيرفي، المجلد الأول، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، 1963م .

07- ابن برد بشار، الديوان، تح : الأستاذ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، ج4، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1386هـ/1966م .
08- ثعلب الشيباني، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، وزارة الثقافة، الجزائر، طبعة سنة 2007م
09- حافظ إبراهيم، الديوان، تح : أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، الهيأة المصرية العامة للكتاب، الطبة الثالثة، 1987م .
10- جميل بثينة، الديوان، تح : بطرس البستاني، دار صادو، بيروت، لبنان، ( ب، ط )، ( ب، ت ) .
11- حاتم الطائي، الديوان، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1401هـ/1981م .
12- حادرة الحادرة، ديوان شعر، تح : د. ناصر الدين الأسد، مستل من " مجلة معهد المخطوطات العربية "، المجلد 15، الجزء2، (ب، ت ) .
13- حسان بن ثابت، الديوان، تح : الأستاذ عبد أ. مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1414هـ/1994م .

15- رؤبة بن العجاج، الديوان، تح : وليد بن الورد البرنوسي، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر، الكويت، الطبعة الأولى 2008م .

16- السكري أبو سعيد السكري، ديوان امرئ القيس وملحقاته، تح : أنور عليان أبو مويلم، ومُحَمَّد علي الشوابكة، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 1421هـ/2000م

17- شرح ديوان أبي تمام، ج2، الخطيب التبريزي، تقديم : راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ/ 1994م .

18- شرح ديوان المتنبي، ج1، تح : عبد الرحمن البرقوقي، ويوسف البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1428هـ/2007م .

19- طرفة بن العبد، الديوان، تح : مهدي مُحَمَّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1423هـ/2002م .

20- العبدلي، شعر الصلتان العبدي، تح : د. شريف علاونة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة البترا، الأردن، الطبعة الأولى1428هـ/2007م .

21- أبو العتاهية، الديوان، تقديم : كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1406هـ/1986م .

22- الفرزدق، الديوان، شرح وتقديم : كرم البستاني، دار الأبحاث، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009م

23- القتال الكلابي، الديوان، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م .

24- المتنبي، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، طبعة 1403هـ/1983م .

25- ابن مقبل، الديوان، تح: د. عزة حسن، مديرية إحياء التراث القديم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى 1381هـ/1962م .

26- النابغة الذبياني، الديوان، تح : عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1416هـ/1996م .

27- النابغة الذبياني، الديوان، تح : كرم البستاني، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، طبعة 1383هـ/1963م .

28- نابغة بني شيبان، الديوان، تقديم : أحمد نسيم، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثالثة 2000م .

**ثالثا: المعاجم والقواميس:**

01- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، مادة: بَيَنَ، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر، القاهر، مصر، الطبعة الأولى 1399هـ/1979م .

02- مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، الطبعة الرابعة، 1425هـ/2004م .

03- ابن منظور، لسان العرب، المجلد السادس، تح: نخبة من السادة الأساتذة المتخصّصين، دار الحديث، القاهرة-مصر، سنة الطبع، 1434هـ-2013م (نسخة ورقية)

**رابعا: الرسائل العلمية:**

01- أحمد درية ياسين عبد الرحمن ، ابن سنان الخفاجي وجهوده البلاغية والنقدية من خلال كتابه " سر الفصاحة "، رسالة دكتوراه، إشراف: د. مُحَمَّد الحسن علي الأمين، قسم الدراسات الأدبية والنقدية، كلية اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، السنة الجامعية، 1429-1430هـ/2008-2009م .

02- جدو سميرة، عملية التلقي في المجالس الأدبية الشعرية في الجاهلية وصدر الإسلام، رسالة ماجيستير، إشراف : د. عمار ويس، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية، 1428-1429هـ/2007-2008م .

03- الحاج سالي عبد العزيز أحمد، جهود السكاكي في علم البيان(ت626هـ)، رسالة ماجيستير، إشراف: د. عبد الرحمن عطا المنان مُحَمَّد، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، السنة الجامعية 1430-1431هـ/2008-2009م .

04- خلايفة طارق، تلقي الخطاب الشعري من منظور تداولي في قصيدة " منشورات فدائية على جدران إسرائيل لنزار قباني "، رسالة ماجيستير، إشراف : أ. د. عمار شلواي، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة – الجزائر، السنة الجامعية 1436/1435هـ-2015/2014م .

05- خليف عبد القادر، مصطلح القراءة في كتاب " القراءة وتوليد الدلالة " لحميد لحمداني، رسالة ماجيستير، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، إشراف : أ. د. العيد جلولي، السنة الجامعية، 2011-2012م .

06- رضا معروف، التجديد في النقد العربي، أطروحة دكتوراه، إشراف : أ. د. مُحَمَّد لخضر زبادية، كلية اللغة والادب العربي و الفنون، جامعة باتنة 1، السنة الجامعية، 1438-1439هـ/2017-2018م .

07- سرحان السرحان عبد الله قريم ساكت ، مصادر الجرجاني النقدية، دراسة في كتاب " أسرار البلاغة "، رسالة ماجيستير، إشراف: د. زياد صالح الزعبي، جامعة اليرموك، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، الأردن، السنة الجامعية 2002-2003م .

08- ضيف عبد الباسط، المشروع البلاغي عند مُحَمَّد العمري، بحث في بلاغة الحجاج – دراسة تفاضلية – رسالة ماجيستير إشراف : د. أحمد بوصبيعات، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة زيان عاشور، الجلفة، السنة الجامعية 2017/2016م .

09- بوعافية مُحَمَّد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة من خلال مشروع مُحَمَّد العمري، رسالة ماجيستير، جامعة مُحَمَّد لمين دباغين-سطيف2، 2015/2014م .

10- عثماني عمار، ملامح تجديد البلاغة في كتاب البلاغة العر بية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب، أطروحة دكتوراه، إشراف : أ. د. قدور ابراهيم عمار، جامعة احمد بن بلة، وهران، السنة الجامعية: 1437/1436-2016/2015م .

11- المرابطة رامي عثمان، رسائل ابن العميد دراسة فنية، أطروحة ماجيستير، إشراف : أ. د. هاني صبحي العمد، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، تشرين الأول 2008م .

12- وهاب خالد، جمالية التلقي والتأثير في ثلاثية أحلام مستغانمي، أطروحة دكتوراه، إشراف : أ. د. عباس بن يحي، جامعة مُحَّد بوضياف، المسيلة، السنة الجامعية، 2015-2016م .

13- كتانة د. حسن، وآيت بها د. عبد العزيز، أية بلاغة لأي دراسة في كتاب : " البلاغة والأدب من صور اللغة إلى صور الخطاب " للدكتور مُحَّد مشبال، حوليات الآداب واللغات، جامعة مُحَّد بوضياف، المسيلة، المجلد5، العدد2 .

**خامسا: المجلات العلمية:**

01- ابن معمر، عبد الله، الأنتروبولوجية البنيوية وحدودها العلمية والإبستمولوجية، مجلة الآداب واللغات، مجلة تلمسان، المجلد 10، العدد 10، مارس، 2006م .

02- الأعجري دريد موسى داخل، أبرز كتب الإعجاز القرآني في النصف الثاني من القرن العشرين، 1950-2000 (دراسة وإحصاء)، مركز بابل للدراسات التاريخية والحضارية، بغداد-العراق، المجلد7، العدد2، 2017 .

03- أمقران شعبان، تقنيات الحجاج في البلاغة الجديدة عند شاييم بيرلمان، مجلة التعليمية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، المجلد05، العدد15، سبتمبر 2018م .

04- إيمان هنشيري، آليات اشتغال المنهج التداولي على التراث الشفوي، مجلة الذاكرة، جامعة ورقلة، المجلد 4، العدد 1 .

05- بخوش علي، استراتيجية التلقي في ضوء النظرية الشكلانية، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، المجلد 4، العدد4/2008م .

06- بلباهي الطيب، الخطاب الأدب في ظل الدراسات البنيوية، مجلة جسور المعرفة، المجلد 2، العدد 08، جامعة شلف .

07- بوقطوش عبد الرزاق، استدراكات مختار نويرات ونسيب نشاوي اللغوية والبلاغية والتاريخية، في ديوان ابن سنان الخفاجي(422-466هـ)، مجلة التواصل في اللغات والآداب، جامعة عنابة، المجلد23، عدد52-ديسمبر، 2017م .

08- تاكفراست بشرى عبد المجيد، التلقي في النقد العربي القديم، حازم القرطاجني نموذجا، مجلة التواصل الأدبي، جامعة عنابة العدد06-جوان2011م .

09- جبري إدريس، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد : 2013/03م، الدار البيضاء، المغرب

10- حماني حمزة، ثنائية اللفظ والمعنى في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري(310هـ/395هـ)، مجلة قراءات للبحوث والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، العدد03/آفريل2013م .

11- حملاوي وافية، قراءة في كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، مجلة تنوير، جامعة زيان عاشور، الجلفة، المجلد02، العدد08-ديسمبر2018م .

12- حولة مُحَمَّد، تحليل الخطاب من المدرسة البنيوية إلى المناهج التداولي، مجلة المواقف، جامعة معسكر، المجلد 6، العدد 9، ديسمبر 2014م .

13- ابن خراف اِبتسام، تلقي النص البلاغي عند الدكتور مُحَمَّد العمري مقاربة وصفية تحليلية، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، العدد الخامس 2013م .

14- ابن دنيا سعدية، نظرية الفيض الأفلوطينية في فلسفة الفارابي، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد4، العدد6، مستغانم، الجزائر.

15- عبد الزاق ربى عبد الرضا، مفهومات نظرية القراءة والتلقي، مجلة ديالي، العدد 2016/69م .

16- رمضان يوسف، البلاغة الجديدة في الدراسات العربية الحديثة ( حمادي صمود، ومُحَمَّد العمري نموذجا )، مجلة التعليمية، مج4، ع9، جانفي 2017م .

17- زرواق فؤاد، أثر الفلسفة اليونانية في البلاغة العربية، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، المجلّد03، العدد07، جويلية2018م .

18- أبو زيد سمير، نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: أول محاولة في العلوم الإنسانية ؟ (الجزء الأول)، مجلة المواقف، للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد الأول- ديسمبر- جانفي 2007م .

19- شادي عبد الرشيد، المصطلح البلاغي في التراث العربي القديم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني أنموذجا، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، المجلد12 العدد02- 2020م .،

20- صانع أحمد، تطبيق المنهج التداولي في تدريس اللغة العربية، مجلة لغة/كلام، المركز الجامعي بغيليزان، السنة الثالثة، المجلد الثالث، العدد الأول، 2017م .

21- ابن عائشة حسين، تداولية الخطاب التعليمي المنطوق بين المنهج والإجراء، مجلة التعليمية، جامعة سيدي بلعباس، المجلد 5، العدد 14، ماي 2018م .

22- عمارة حليمة، تأثير رومان ياكوبسون في النقد البنيوي، مجلة التعليمية، جامعة سيدي بلعباس، المجلد 04، العدد 12، ديسمبر، 2017م .

23- العمري مُحَمَّد، الإشارة والسيما والدليل، مجلة دراسات سيميائية، المغرب، العدد : 04، ديسمبر، 1990م .

24- العمري مُحَمَّد، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، فاس-المغرب، العدد/5-خريف-شتاء1991م .

25- غانم إسلام عبد الله عبد الغني، مناهج دراسة التراث عند المستشرقين، المنهج التاريخي، المنهج الوصفي، المنهج الأنثروبولوجي نموذجا، مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي بغيليزان، مجلد 04، عدد 2، ديسمبر 2018م .

26- قاسم علي حمودين المسعود، إشكالات نظرية التلقي : المصطلح، المفهوم، الإجراء، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، العدد25/جوان 2016م .

27- ابن قيراط زينب، المنهج البلاغي عند ابن سنان الخفاجي، مجلة البدر، جامعة بشار، المجلد09، العدد09-2017م .

28- كلاثمة خديجة، آليات الاستدلال الحجاجي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، العدد08-2012م147

29- لخذاري نادية، البنيوية التكوينية عند حميد لحمداني ( النظرية والتطبيق )، مجلة دراسات معاصرة، المركز الجامعي بتسمسيلت، السنة 02، المجلد 02، العدد 02، جويلية / يوليو 2018م .

30- لهويمل باديس، السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلم، متابعة تداولية، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، العدد09-2013م .

31- مداني خديجة، إشكالية المنهج البنيوي، مجلة دراسات معاصرة، المركز الجامعي بتيسمسيلت، السنة 02، المجلد 02، جويلية / يوليو 2018م .

32- مدور مُحَمَّد، نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداولية، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، العدد 2012/16م .

33- مرتاض عبد الملك، تداولية اللغة بين الدلالة والسياق، مجلة اللسانيات، المجلد 10، العدد 10، مركز البحث العلمي والتقني في تطوير اللغة العربية، الجزائر .

34- مرسلي مسعودة، البعد التداولي عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة رفوف، جامعة أدرار، العدد03- مارس 2016م .

35- مهدي نجم مجيد علي، الجهود النقدية لحازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، العراق، العدد2011/70م .

36- هدى قزع وآخران، كتاب الخطابة لأرسطو وأثره في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، الجاحظ أنموذجا، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد14، العدد1، 2014م .

37- وغليسي يوسف، البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية العربية، بحث في النسبة اللغوية والإصلاح النقدي، مجلة الدراسات اللغوية، جامعة منتوري، قسنطينة، العدد 6، السنة 1431هـ/2010م .

**سادسا: مواقع من الشبكة العنكبوتية :**

http //www.medlomari.net -01

02- شبكة الألوكة www.alukah.net

https://k-tb.com/book/Arabi09560 -03

04- ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، الرابط : القصيدة اليتيمة :
https://ar.wikipedia.org/wiki/

maghress.com/bayancaoume/120763 -05

https://ar.wikipedia.org/wiki/ -06

**ثامنا: مراجع أجنبية :**

01- ABI JAAFAR EBN TOPHAILL, HAI EBN YOKDAN, AB EDUARDO POCOCKIO EDITIO FECUNDA PRIORI EMEMDATIOR, 1700 .

# فهـرس الموضوعـات

# فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

- مقدمة ..... أ
- مدخل ..... 8
- مُحَمَّد العمري ومشروعه البلاغي الجديد ..... 15
أ- دعائم مشروع العمري ..... 20
ب- دعائم من التراث البلاغي العربي ..... 21
- دعائم من البلاغة الغربية ..... 29
- الباب الأول: تقديم نظري لتصور ومنج العمري، مع تطبيقاته على البلاغة القديمة ..... 38
- الفصل الأول: المشروع البلاغي العمري، بين التصور والمنهج ..... 40
- المبحث الأول: المشروع البلاغي العمري، والتأريخ للبلاغة العربية ..... 41
- المطلب الأول: مرحلة النشأة ..... 42
- المطلب الثاني: مرحلة الفصاحة والبلاغة ..... 45
- المطلب الثالث: مرحلة البلاغة علم الأدب ..... 48
- المطلب الرابع: مرحلة انحطاط البلاغة العربية ..... 51
- المبحث الثاني: المشروع البلاغي العمري، والتجديد في البلاغة العربية ..... 52
- المطلب الأول: مرحلة البحث ..... 55

- المطلب الثاني: مرحلة الاصطلاح ..... 58
- المطلب الثالث: مرحلة الاكتمال ..... 61
- المبحث الثالث: المشروع البلاغي العمري، والمناهج المتبعة في الدراسة ..... 65
- المطلب الأول: المنهج البنيوي ..... 66
- المطلب الثاني: المنهج التاريخي ..... 71
- المطلب الثالث: المنهج التداولي ..... 74
- المطلب الرابع: المنهج التأويلي (نظرة التلقي) ..... 81
- الفصل الثاني: دراسة تحليلية لأصول البلاغة العربية عند مُحَمَّد العمري ..... 82
- المبحث الأول: البلاغة ونقد الشعر ..... 91
- أولا: استكشاف المكونات البلاغية للشعر ..... 93
- ثانيا: البلاغة والاختيار ..... 98
- المبحث الثاني: البلاغة ومعيرية اللغة ..... 103
- مجاز القرآن ..... 104
- الضرورة الشعرية بين العيب والمزية ..... 108
- المبحث الثالث: من تبرير المجاز إلى بيان وجه الإعجاز ..... 111
- الدفاع عن النص القرآني ..... 116
- بيان وجه الإعجاز ..... 118

- المبحث الرابع: البلاغة والمعرفة ..... 120
- مشروع الجاحظ ..... 125
- مشروع ابن وهب ..... 132
- المبحث الخامس: القراءة العربية للبلاغة اليونانية ..... 137
- فن الشعر: من المحاكاة إلى التغيير ..... 138
- فن الخطابة: الصحة والاعتدال ..... 141
- الفصل الثالث: دراسة تحليلية لامتدادات البلاغة العربية عند العمري ..... 145
- المبحث الأول: الكتابة والشعر ..... 146
- المبحث الثاني: التراوح بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية ..... 153
- مصطلح الغرابة الشعرية ..... 154
- مصطلح المناسبة التداولية ..... 162
- المبحث الثالث: أناقة الخطاب: الصحة والاعتدال ..... 175
- الصحة ..... 177
- الاعتدال ..... 183
- المبحث الرابع: البلاغة المعضودة بالنحو والمنطق ..... 187
- البلاغة علم الأدب ..... 188
- البلاغة العلم الكلي ..... 196

- الباب الثاني: تطبيقات العمري على البلاغة الجديدة، والمناهج النقدية المتّبعة ..... 211
- الفصل الأول: دراسة تحليلية في بلاغة الخطاب الاحتمالي (الخطبة، والشعر) ..... 212
- المبحث الأول: بلاغة الخطبة ..... 213
- أولا: الحجج والبراهين ..... 213
- مقامات الخطابة الدينية ..... 214
- مقامات الخطابة السياسية ..... 216
- مقامات الخطابة الاجتماعية ..... 220
- ثانيا: الأسلوب ..... 230
- نماذج عن الأسلوب ..... 231
- ثالثا: ترتيب أجزاء القول ..... 233
- المبحث الثاني: بلاغة الشعر ..... 235
- أولا: اتجاهات الشعر العربي القديم ..... 235
- ثانيا: مستويات تفاعل الصوت والدلالة داخل البيت ..... 255
- الفصل الثاني: دراسة تحليلية في بلاغة الخطاب الاحتمالي ( القصة، والمناظرة) ..... 265
- المبحث الأول: بلاغة القصة ..... 266
- آليات بلاغة القصة ..... 268
- المبحث الثاني بلاغة المناظرة ..... 283

- آليات الحجاج وتقنياته ..... 285
- الفصل السادس: دراسة تحليلية لمناهج العمري في مشروعه البلاغي الجديد ..... 306
- المبحث الأول: تطبيق المنهج البنيوي ..... 307
- تحليل بيت شعري للمتنبي ..... 309
- تحليل الأمثلة الواردة في كتاب ابن قتيبة ..... 312
- المبحث الثاني: تطبيق المنهج التاريخي ..... 318
- دراسة مشروعي الجرجاني والخفاجي ..... 318
- دراسة مشروع القزويني ..... 319
- المبحث الثالث: تطبيق المنهج التداولي ..... 329
- تحليل خطبة الحجاج في أهل الكوفة، وأهل الشام ..... 329
- تحليل نص الجاحظ في خلق القرآن ..... 333
- المبحث الرابع: تطبيق نظرية التلقي ..... 342
- دائرة الاختيار عند أبي تمام ..... 345
- المشاريع والمنجزات: ..... 349
- خاتمة ..... 361
- ملاحق ..... 368
- قائمة المصادر والمراجع ..... 382

- فهرس الموضوعات ..... 399

**ملخص الأطروحة:** يعدّ الباحث المغربي مُحَمَّد العمري أحد أهمّ الباحثين المشتغلين بالدرس البلاغي العربي، والذين سعوا إلى إعادة بعثه من جديد ضمن مشروع قائم على أسس زاوجت بين التراث البلاغي العربي والغربي، وذلك من أجل الوصول إلى بلاغة عامة تستوعب كافة أنواع الخطاب من خطبة ، وشعر، وقصة، ورواية، وغيرها ... ؛ وقد كان للعمري في هذا المشروع تصوّره ومنهجه الخاص الذي عَمِلْنَا على عرضهما وتحليلهما في هذا الدراسة .

**الكلمات المفتاحية:** مُحَمَّد العمري- المشروع البلاغي - التّصور- المنهج .

**Résumé de la these:** Le chercheur marocain Mohamed EL-Omari est considéré parmi les importants chercheurs qui travaillent sur la leçon rhétorique ,et parmi ceux qui ont opter pour renouveler ce chanp d'étorique, de nouveau dans un projet base sur le jumelage entre le patrimoine rhétorique arabe et occidental, pour arriver à une rhétorique qui s'adapte avec tous les discours; discours, poéme, histoire, roman, … etc ,dans ce projet, EL-Omari a son propre imagination et sa propre méthode qu'on a les présenté et les analyser à travers cette étude .

**Les mots clés:** Mohamed EL-Omari; Le projet rhétorique; Visualisation; Méthode .

**Abstract:** Mohamed EL-Omari is one of the most important researchers working on the Arab lesson, who sought to re-resurrect it as part of a project based on the foundations that brought together the Arab and Western rhetorical heritage, In order to reach a general that accommodates all Kinds of Speech from Speech, poetry, story, novel, etc … Furthermore, Omari had his while presenting and analysing in this study .

**Keywords:** Mohamed EL-Omari, Rhetorical project, perception, Peception, Curriculum .